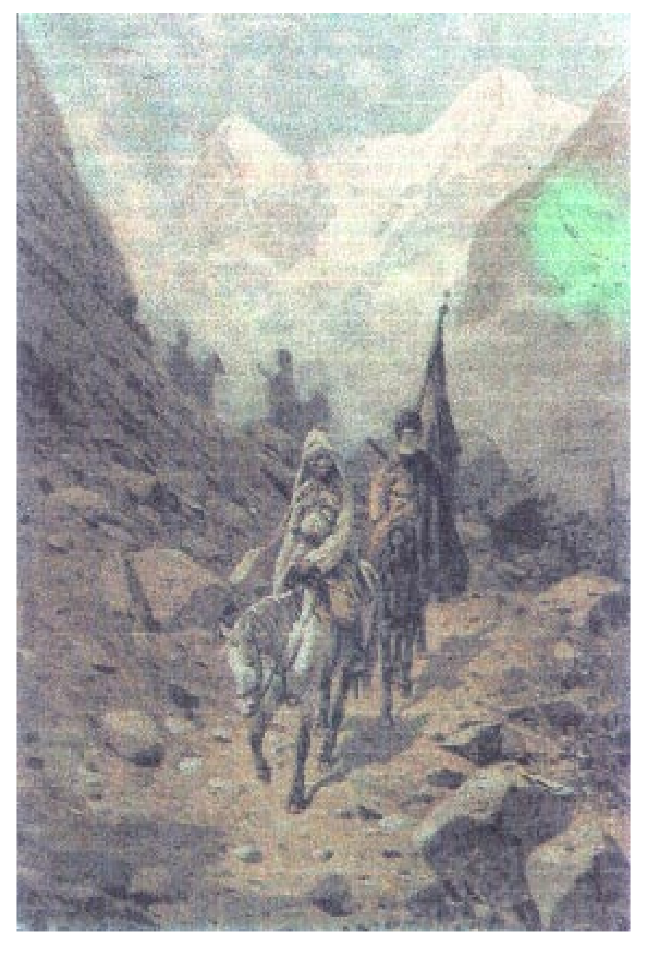
# التاريخ الشركسي

قادر اسحق ناتخو

ترجمة : محمد ازوقه







إلى عزيزتي سعاد



- **التاريخ الشركسي**
- **قادر اسحق ناتخو**
- **ترجمة محمد ازوقه**
- **الطبعة الأولى** 2009

**حقوق النشر والتوزيع محفوظة:**






- الإشراف الفني : **محمد الشرقاوي**
- لوحة الغلاف : **الفنانة مكرم حغندوقه**
- الصف والاخراج : **سميراليوسف**

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية 2432 /2009/6

**تمت ترجمة هذا الكتاب على نفقة الجمعية الشركسية المركز - عمان**

طبع بدعم من جسور الورد الثقافية

تجدون كتبنا على الموقع التالي

www.darwardjo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

# المحتويات

**الفصل الثالث**

**الفصل الرابع**



**الفصل الخامس**

تم تحضير هذا العمل لمؤسسة الدراسات
الشركسية للجمعية الخيرية الشركسية وأنجز
في آذار عام ٢٠٠٥

٣٨٣ أولدهام رود

واين، نيوجيرسي ٠٤٧٠

Oldham Road 383
Wayne، New Jersey 04740

**الغاية الرئيسة**

**لمؤسسة الدراسات الشركسية**

**للجمعية الخيرية الشركسية في الولايات المتحدة هي:**

١. إجراء الدراسات عالمياً، جمع وتوزيع المعلومات المتوفرة بالانجليزية، والمتعلقة باللغة، التقاليد، الفولكلور، الثقافة، الأدب والتاريخ للشعب الشركسي.
٢. تأسيس مكتبة ومتحف للكتب، المخطوطات، الدوريات، النشرات، الرسائل الإخبارية، الخ. وللوثائق ذات القيمة التاريخية.
٣. ايجاد موقع عنكبوتي على الانترنت مزود بالأدوات اللازمة لنشر كل المعلومات المتوفرة (للمزيد من المعلومات الاتصال ب "مقدمة" مؤسسة الدراسات الشركسية للجمعية الخيرية الشركسية (تأسست عام ١٩٩٨).

## شكر وامتنان

إنني ممتن بعمق للدكتور ينال حاج محمود، هاني فروقه، فواز داير وناورز زاكايف الذين استمروا في القدوم إلى نيويورك بدون تغيب لحل مشاكل الحاسوب التي لا تنتهي والتي عانيت منها اثناء تأليف هذا الكتاب. كذلك أنا مدين بالكثير لنفس الخدمة للضيفة الساحرة الجميلة من نالتشك، الآنسة جانا خوشوفا، تلميذة القانون الدولي المجدَّة الشغوفة. أدعو الله أن يبارك فيهم لمراعاتهم الاحترام التقليدي المخلص للكبار الذي شرفوني به على الدوام وبلا كلل خلال هذه السنوات الطويلة.

## المقدمة

الغاية من هذا الكتاب هي تقديم تاريخ الشراكسة منذ أزمنة ما قبل التاريخ إلى الحاضر للقارئ باللغة الانجليزية. في رأينا أن الحاجة اليه ملحة لسببين مهمين جداً. السبب الأول والأكثر استعجالاً هو حقيقة أن جيلنا الشاب، خاصة في الشتات، يظل غير عالم بشكل كاف بتاريخنا لعدم كفاية المعلومات بلغة يمكنهم قراءتها وفهمها. السبب الثاني أكثر أكاديمية وعالمية. فالأمة الشركسية تشغل موقعاً إثنياً مهماً في العالم وهي غنية بالتاريخ، والأدب والفولكلور، لذلك، فإن اهتمام العديد من العلماء في العالم لم ينجذب بشكل متزايد لنظريات مثل:

١. الفترة القديمة المرتبطة بالحثيين (الهاتون) وحضارة مايكوب.

٢. فولكلور وملاحم النارتيين، الممتلئة بالمعلومات التاريخية المهمة.

٣. الحرب الروسية- القفقاسية والطرد الجماعي التالي للشراكسة من وطنهم الأصلي إلى الامبراطورية العثمانية.

يقترح المنطق أنه يجب اضافة تاريخ المماليك الشراكسة في مصر إلى هذه القائمة، فهم الذين حكموا هذه الدولة القوية في العصور الوسطى ولعبوا دوراً مهماً في السياسة العالمية لفترة طويلة.

سوف نستهل هذا العمل من التاريخ الشركسي التقليدي لتغطية القسم غير المدون منه ثم نزوده بالدليل الداعم والبيانات القائمة.

# الفصل الأول

## الشراكسة

الشراكسة، الذين يسمون أنفسهم "أديغه" هم السكان الأصليون للشمال الغربي للقفقاس وهم أحد أقدم الشعوب في العالم وأحد أوائل السكان القدماء في أوروبا بلغة متفردة وثقافة متميزة خاصة بهم.

قدم العديد من العلماء مساهمة قيمة في تأسيس نشأة الأديغة، بعضهم هم:

بي، أية ريباكوف، أي.إم. كروبنوف. إم إم جيراسيموف، جي إيه مليكاشفيلي، آي. إم دياكونوف. ش. دي. اينال – ايبا، جي ايه كليموف. زد. في انتشابادزه، في أي ماركوفين، إيه إيه فوموزوف، في بي اليكسييف، إل. أي لا فروف، واي، اي كروشكول، أي إم دونايفسكايا، في جي أردزينبا، في في ايفانوف، إن، في، انفيموف.

يتفق معظم الدارسين على ان الأديغة هم أحد أقدم سكان شمال القفقاس. يدعي البروفسور إن. في. انفيموف أن الإنسان ظهر أولاً في شمال غرب القفقاس قبل أكثر من ٣٠٠،٠٠٠ سنة. يحمل العديد من مواقع المخيمات الباليوليثية التي عثر عليها بمحاذاة سواحل البحر الأسود وعلى المنحدرات الجنوبية لسلسلة جبال القفقاس" الشهادة على صحة ذلك، حسب رأي هذا العالم المتميز فقد تحدر الأديغة من قبائل المأوت الذين سكنوا أراضي إقليم الكوبان، سواحل بحري آزوف والأسود، وحوض الدون منذ حوالي القرن الثامن قبل الميلاد.

هنالك أدلة أخرى تشهد على وجود الأديغة في هذا الإقليم منذ الأزمنة ما قبل التاريخية، مثلاً، تخبرنا اللوحة المأخوذة من مكتبة نينوى للملك الأشوري نارام سين في القرن السابع عشر قبل الميلاد، أنه في عام ٣٧٥٠ قبل الميلاد قام وور هاتو من الخاتيين (الحثيين) بحملة من شمال القفقاس إلى أودية نهر الفرات وأنه أسس هناك الدولة الخاتية أو الأختية (أتيخا). "لقد بنينا هناك مدناً، وبشكل خاص كارخيمتس". تؤكد النقوش على اللوحة الصلصالية المذكورة، كما يقول نوربي لوفباش" أن قبيلتين – الخات والأتيج (أتخ) عاشتا في شمال القفقاس في الألف الرابع قبل الميلاد.

يشرح إس. خوتكو المزيد عن العلاقة "الخاتو- أديغه "يرجع تاريخ قمة الحضارة الخاتية (الحثية) إلى الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد. كما يظهر عمل عدد كامل من علماء اللغة البارزين والمختصين في دائرة أقدم اللغات في آسيا الصغرى، فإن لغة الخاتيين هي اللغة الأم

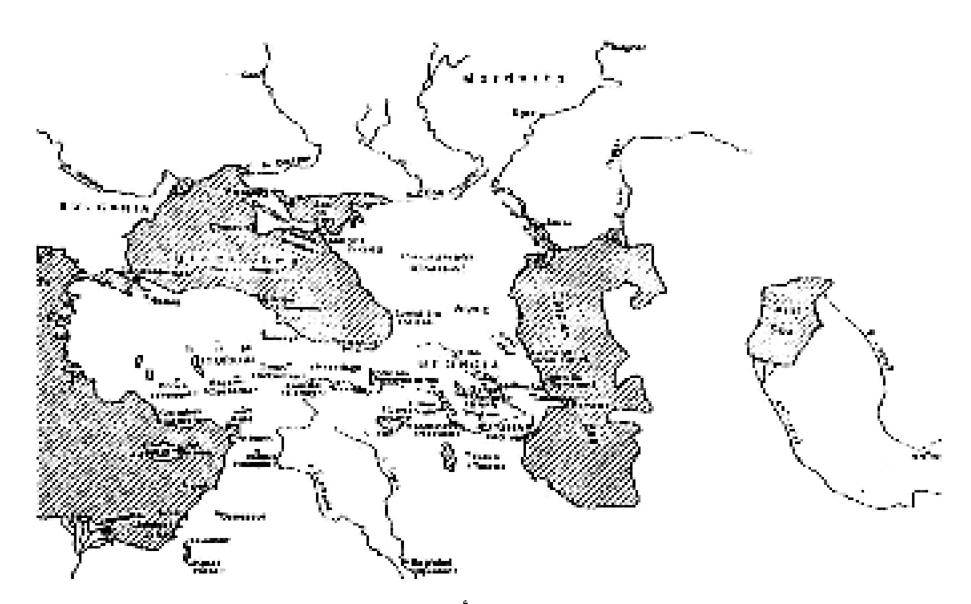
لشعب الأباظه – الأديغة. لقد كانت قبيلتا الكاشك والأبيشلا القاطنتين على سواحل البحر الأسود تنتميان إلى الخاتيين. تشكل هذه القبائل شعباً واحداً مع الخاتيين من الناحيتين اللغوية والانثروبولوجية (علم الإنسان)، لكنها احتفظت باستقلالها السياسي لأنها كانت تعيش في الجبال. لم يخضعوا للخاتوس، أكبر مركز للدولة الخاتية. ومنذ القرن السادس عشر قبل الميلاد، شكلوا شعباً واحداً مع الخاتيين، عندما ظهرت الامبراطورية الخاتية، اتخذ الكاشك والابيشلا، مواقف عدائية منها على الدوام، فوسعوا غاراتهم لغاية البحر الأبيض المتوسط وسوريا، تكلمت الشراكة التاريخية والثقافية للخاتيين – الكاشك – الابيشلا اللهجات الابخازية- الوبيخ – والأديغية-، وفي الألف الرابع قبل الميلاد مثلت نظاماً متقدماً للحضارة تمكَّن من إثبات هويته وحاول أن يعيد إنتاج الأشكال المتميزة لثقافته. سنسمي هذه المجموعة من القبائل الخاتيين مستقبلاً، توخياً للدقة والاختصار. لقد قدمت لنا أقدم النصوص الخاتية، والتي حفظت من قبل الأرشيف الملكي لخاتوس، الاسم الأصلي " خاتي " لهذا الشعب.

حسب رأي إس خوتكو، فقد كانت الحضارة الخاتية " أحد المهاد التي نشأ فيها المجتمع الإنساني" ويقول أن منطقة ثقافة مايكوب "هي تحديداً منطقة السند – المأوت في الأزمنة القديمة، وهي منطقة الزيخ – الأباظة في العصور المتوسطة المبكرة، ومنطقة الشراكسة في الأزمنة القديمة، وهي منطقة الزيخ – الأباظة في العصور المتوسطة المبكرة، ومنطقة الشراكسة في الأزمنة الحديثة. الفترة النيوليثية المتأخرة، الألف الرابع قبل الميلاد، هي المرحلة المبكرة لانتشار النوع الانثروبولوجي البونتي في تاريخ الابخاز الأديغة في إقليم القفقاس الغربي. إن عناصر الإبخاز، الوبيخ، والأكثر أهمية: الأديغة، موجودة في لغات السفان، المنجريلية واللاز. في الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد، وكما في الحقبة التي تسبقهما، شكل القفقاس الغربي بأكمله وشمال شرق الأناضول إقليماً إثنياً – ثقافياً واحداً، ضمن حدوده تكلم الناس بلهجات المجموعة الإبخازيه – الأديغة- الخاتية. (الهاتية). على أية حال، فقد بدأت ثقافة مايكوب تنأى بنفسها عن القاعدة الأناضولية. سوف نتناول لاحقاً بمزيد من التفصيل البيانات التي تؤكد ان الشراكسة قد عاشوا في هذا الإقليم منذ أقدم الأزمنة.

**اللغة الشركسية**: يشار إليها أحياناً باللغة الابخازو – أديغه. هذه اللغة، مع لغات الابخاز والوبيخ، هي فرع من العائلة القفقاسية للغات، والتي يمكن إلى درجة ما نسبة فروع أخرى إليها مثل: الكارتفيلية (الجورجية)، الوايناخية (الشيشان – إنجوش) بالإضافة إلى القفقاسية الشرقية (الداغستانية).

**موطن الشراكسة هو القفقاس**: يمتد القفقاس من بحر قزوين العظيم إلى البحر الأسود، مشكلاً قلعة طبيعية هائلة بين القارتين، أسيا وأوروبا، وقد لعبت بهذا الشكل دوراً في تجاوز حدودها، وظلت على الدوام النقطة التي تلتقي فيها حضارات الشرق والغرب، وتختلط وتتبادل الأفكار والمعرفة والمنتجات.

هذا الموطن القديم للشراكسة هو مشهور أيضاً لأنه كان على الدوام موئلاً طبيعياً للجوء الشعوب المضطهدة. ولا شك في أن كرم الضيافة الشركسي التقليدي والتسامح قد ساهما في هذه الظاهرة المتميزة لهذه الأرض، والتي أصبحت وطناً للعديد من الجماعات الإثنية الذين يتحدثون فيما بينهم بأكثر من أربعين لغة مختلفة.



**خارطة القفقاس والشرق الأدنى - جي دي روبروك**

**الموارد الرئيسية والاقتصاد**: بشكل رئيسي، تحتوي الموارد المعدنية للقفقاس على النفط، الغاز الطبيعي، المنجنيز، النحاس، التنجستن والموليبدينوم،

تربى الماشية على المنحدرات ذات الغابات الكثيفة، تزرع الحنطة، الشعير، الذرة، عباد الشمس، والكثير من الفواكه والخضار في السفوح الشمالية للقفقاس، والحمضيات والقطن والشاي، في الأودية الأكثر دفئاً. يوجد العديد من المصحات الممتازة في جمهوريات الأديغيه، قباردينو - بلقاريا وقراشيفو - تشيركيسيا بالإضافة إلى الشابسوغ والجمهورية الابخازية.

# المراجع


1. А. Х. Шеуджен، Г. А. Галкин، Н. Е. Алешин، А. А. Кушу، Б. Е. Шеуджен. Земля адыгов. Майкоп، 1996.

1 . A. K . Sheugen ، G. A. Galkin، N. E، Aleshin، A. A. Kushu. B. E. Sheugen ، Zemlia Adyghov 1889..

١ - أرض الأديغة .

2 Р. Трахо. Черкесы. Мюнхен، 1956.

2. R. Traho، Cherkessey، Munchen 1956.

٢ -الشراكسة.

3 Проф. Н.В. Анфимов. Древнее золото Кубани. Краснодар، 1987.

3prof N. V. Anfimov، Drevneye Zoeoto Kubani Krasnodar 1987

٣ - ذهب الكوبان القديم.

4 Р. И. Махош. Зов Родины. Майкоп، 2002.

4R. I. Makhosh: Zov Rodiny، Maikop 2002.

٤ - نداء الوطن الأم.

5 С. К. Хотко. История Черкесии. Санкт-Петербург، 2001.

5 S. K. Khotko، Istoria Cherkesii، St. Petersburg. 2001

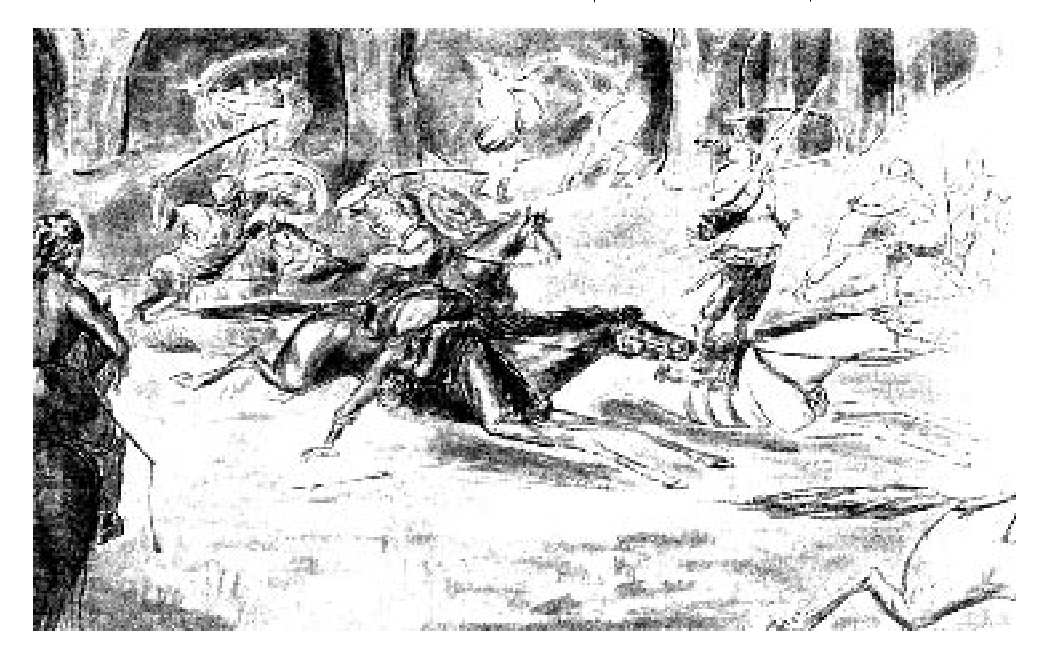
٥ - تاريخ الشراكسة .

# الفصل الثاني

## التاريخ الشركسي القديم

التاريخ الشركسي المتناقل القديم، مثل تاريخ أية أمة أخرى، مسجل ومحفوظ في فولكلورها وأساطيرها، خاصة في ملاحم النارتيين، العائدة لها. تتشكل هذه الملحمة من ٢٦ دورة و ٧٠٠ نص، وهي تظهر الأعضاء الأكبر سناً من آلهتها الاسطوريين (نسران، تلبش النارتيين وغيرهم)، وهم يدخلون المعترك التاريخي للإنسان بحجم أكبر من الحياة قبل العصر النحاسي – البرونزي. هذه الملحمة العظيمة، ربما هي الأقدم من نوعها في العالم، مشبعة بالرمزية والمعلومات التاريخية حول أسلاف الشراكسة.

يتشكل أعضاء الهيكل من أبطال نارتيين تنويريين من مختلف الأعمار، ابتداءاً من أبعد الأزمنة قبل التاريخية. منذ ذلك الوقت، نمت هذه الملحمة مع الأمة، وهي تتشرب الأحداث الجديدة: القيم، الأحلام وتطلعات مؤلفيها وتحتويها، وتحولها إلى الأجيال الصاعدة التالية بأسلوب بلاغي ساحر. ضمن هذه العملية، جمعت مخزوناً إلى الأجيال الصاعدة التالية بأسلوب الشراكسة وحفظته منذ الأزمنة الميسوليثية وحتى العصور الوسطى وأصبحت مستودعاً لقوانينهم الاجتماعية وقيمهم الأخلاقية.



ألعاب النارتيين

أكثر من ذلك، تجسدت هذه القوانين المثالية في السلوك، الكرامة والكبرياء لدى قدماء الأديغة في الابطال النارتيين لهذه الملحمة.

لذلك، فإن أبطال هذه الملحمة، البشر من حيث الشكل والحجم، المتفوقون على البشر في قوة الإرادة، التصميم والقوة البدنية، والذين لا أنداد لهم في الانجازات البطولية، كانوا في كل العصور حلم كل شركسي أن يقلدهم ويرقى إلى مستواهم. كذلك، فإن معايير السلوك السامية والقيم الأخلاقية العالية لهذه الملحمة أصبحت النواميس التي تنشأ عليها جميع الأجيال الشركسية الصاعدة خلال القرون التالية، وجهزت التربة لتكون مجال التنشئة للروح البروميثية، وشكلت فيما بعد " الأديغة خابزه " (التقاليد الشركسية) التي لايجوز الحياد عنها.



رقصة النارتيين

أكثر من ذلك، وبالتوافق مع مقولة جونسون "اللغة هي شجرة نسب الأمم" فإن الأديغابزه (اللغة الشركسية) التي انشئت بها هذه الملحمة، كانت على الدوام عنصر التوحيد لجميع القبائل التي تتكلم الشركسية والتي ظهرت في المعترك التاريخي في أزمنة مختلفة تحت مسميات قبلية مختلفة. بحسب المصادر فإن بعض الأسماء كانت: الميئوت، السند، التاوري، الكيركيت، الزيخ، الجينوخ، الدندار، التوريات، الأغريس، الأريش، التوبيت، الأوبيرياك، الدوشكي والكولشي.

ذكر قدماء الإغريق المأوتيين في القرن السادس قبل الميلاد "الاسم ميوتي هو اسم جماعي يضم عدداً من القبائل الصغيرة". كما كتب إن. في. انفيموف " على أية حال، فهناك برهان آثاري على أن ثقافتهم تشكلت في وقت أبكر بكثير، بين القرن الثامن والنصف الأول من السابع قبل الميلاد، مع جذور ترجع إلى العصر البرونزي. "يقول إيه. شيوجين "يوجد افتراض بأن الأديغة (ما قبل المأوتيين) عرفوا بعض البلدان البعيدة جيداً، وقد قاموا بحملات إليها". كثيراً ما تذكر أغاني الأديغة وأساطير ملحمة النارتيين نهر الإنديل (الفولغا)، وبخارى، وغيرها.

نرى هؤلاء النارتيين يحضرون خاسا (مؤتمراً) في بيت أليج، في فجر التاريخ. عندما يتم استدعاؤهم، يحضر النارتيون من كافة انحاء ناتيا، من الدون، آزوف، وأقاليم البحر الأسود لبحث كل المشاكل الرئيسة وحلها، وبحث الاصلاحات الاجتماعية والمسائل الأخرى التي يتوجب على النارتيين القيام بها. ناتيا، بلاد النارتيين حسب هذه الملحمة، كانت تضم المساحة التي تحتوي عليها المنحدرات الشمالية للسلسلة الرئيسة لجبال القفقاس، الساحل الشمالي للبحر الأسود حتى مضيق كيرتش، الساحل الشرقي لبحر آزوف، نهري الدون والمانيش، نهر تيريك والفولغا الأسفل على بحر قزوين. إن ملحمة النارتيين مجرد جزء من الفلوكلور الفني للأديغه، عبَّر جريكوف عن قناعته، وهو يتحدث عن مراحلها الزمنية، بوجود أناشيد "قبل النارتية" مخصصة لآلهة وثنية (مزتحه، تحاغالج، شيبله، تلبش) كذلك هي أغاني "الخوخ" (الفخر والمديح)، والأساطير والحكايات ذات الأصل الطوطمي والخرافي والتي دخلت فيما بعد وامتزجت في ملحمة النارتيين. يقول في جي بيلينسكي إن قصائد القدماء التي تبحث في نظرية نشأة الكون وأصل الآلهة تقف على درجات أعلى في سلم التطور، ففي الأولى يتمثل أصل الكون من خلال القوى البدائية، وفي الثانية، يتجلى تقسيم القوى إلى آلهة مختلفة.

تعكس الخرافات الشركسية، مثل الفولكلور الشركسي الغني، الكثير من التاريخ، والتركيبة الأخلاقية، الروحية والنفسية للأجداد البعيدين للأديغه. إنها تضم مجموعة من الآلهة الذكور والإناث الذين يمثلون نشأة الكون والأصل الشركسي، تعتبر الأولى منها أرواحاً قديمة لا شكل معين لها. بينما ترى الأخيرة وقد أعطيت ملامح حقيقية. لذكر مجرد بعضها، فإن الآلهة العائدة لنشأة الكون مثل تحه (تحاشخوه) بساتحه، واشخو، شيبله، تقف أقرب إلى الديانة "الطبيعية". بينما تقف الألهة المحلية مثل تلبش، مزتحه، تحاغالج، أقرب إلى الأنشطة العملية.

عبَّر العديد من خبراء النارتية عن قناعتهم القوية في حديثهم عن هذه الملحمة، عن أن نارت نيسرين هو النموذج الأولي لبروميثيوس في الأساطير اليونانية وأن نارت سوسروقه هو النموذج الأولي لأخيل – تأليف هوميروس: وأن الإغريق استعاروا هذه القصص من القفقاس أثناء حقبة استعمارهم المبكر للساحل الشركسي، وأنهم صقلوها ودونوها على أنها ملك لهم، بينما بقي الأصل الحقيقي مجهولاً للعالم.

الحقيقة هي أن أسلاف الأديغة أوجدوا الجنين الرئيس لملحمة النارتيين قبل العصر النحاسي البرونزي بلغتهم الاديغابزه على شكل شعري عالي المستوى، مع اغنيات مصاحبة منفردة لكل أسطورة. السؤال هو كم من الوقت ظلوا موجودين كمجموعة إثنية قبل أن يصلوا إلى مثل هذه المرحلة المتطورة ثقافياً، وهذا الاتقان اللغوي؟

إن أداة القياس الموجودة لتحديد عصر هؤلاء الأسلاف البعيدين للشراكسة هي المعلومات الموجودة لدينا حول تطور الإنسان والمقولة المقبولة بشكل عام بأن اللغات تؤدي إلى ولادة الأمم.

حسب تاريخ تطور الإنسان فقد شهد "الإنسان الماهر" بدايات الكلام البشري والشعائر والفولكلور. بعد حوالي مليون سنة، حصل الإنسان الواقف على موهبة التعلم وتجميع معرفة من سبقوه وتخزينها، والتي قام بالزيادة عليها، أغناها ثم نقلها إلى أجياله الأصغر سناً. صنع أدوات حجرية ذات نمط أخيولي أفضل بكثير، وعاش في شرق وجنوب وشمال أفريقيا، آسيا، الهند، الصين، وجنوب شرق آسيا وكذلك انتقل إلى أوروبا خلال الفترات الدافئة عندما كانت أنهر بليستوسين الجليدية في حالة انحسار، وتعلم أن يسيطر على النار ويطبخ طعامه. قال الدكتور جيفري لايتمان، أستاذ علم التشريح في كلية الطب، جامعة جبل سيناء، " المرجح أن السيطرة التامة أو الفصاحة في الكلام لم تتطور حتى ربما قبل ٣٠٠،٠٠٠ إلى ٤٠٠،٠٠٠ سنة ماضية، فهل من غير المنطقي أن نعتقد بأن الأديغابزه التي أوجد أجدادنا ذوي الكبرياء بواسطتها الملحمة الهائلة "النارتيين" يمكن أن تكون على هذه الدرجة من القدم؟

ربما، هناك أمر واحد مؤكد، على أية حال. هو أن التقاليد الشفوية للشراكسة مثل تلك لدى أية أمة أخرى، نمت بشكل ملاصق غير قابل للفصل عن حياة شعبها. لن يكون من الخطأ أن نتذكر فيما يتعلق بهذا الموضوع كلمات جونسون "ليست هناك إمكانية لتتبع علاقات الأمم القديمة إلا عن طريق اللغة، لذلك فأنا أشعر بالأسف عندما تفقد أية لغة لأن اللغة هي مهاد الأمم".

## الأدلة الداعمة

## أساطيروخرافات الإنسان

تخبرنا خرافات وأساطير الإنسان أن القفقاس، الموطن الأصلي للشراكسة، هو موطن بداية التقاليد لدى الجنس البشري وموقع أكثر الحكايات الشعبية لدى الإغريق القدماء. بعض الأسباب التي تدعو إلى أن تعزى للقفقاس هي: يقال أن سفينة نوح جنحت هنا على قمة جبل البروز قبل ان تصل إلى مستقرها فوق جبل أرارات. يقال أن بروميثيوس قد تم تقييده إلى صخرة على جبل كازبك لأنه سرق النار من الآلهة وأعطاها إلى بشر فانين. "من هذه الأرض الجبلية المسماة كولتشيس حمل الجزة الذهبية وميديا، إبنة ايثيس، ملك كولتشيس" لقد كانت قمة جبل شلبوز على حدود الداغستان، مجثم العنقاء، العقاب العملاق في حكاية الف ليلة وليلة "والذي حجب جناحاه الممدودان نور الشمس والذي كانت النسور والكوندور بالمقارنة له طيوراً طنانة". حتى السيمورغ، الطائر الخالد الذي يعشش في أغصان شجرة المعرفة، فإن ملك الطيور البعيدة – حسب منطق الطير" للفردوسي في كتابه " كتاب الملوك"، بنى قصره في جبال قاف... التي تزنر الأرض. وهنا في القفقاس حيث يمكننا من خلال غمام الأساطير أن نلمح دولة الأمازون الصغيرة، والتي تقول التقاليد أنها وجدت بين قباردا الصغرى وسفانيتي الى ان وقعت ملكتهم المقاتلة ماربيسا، في حب تولمي، زعيم الشراكسة. ولا تقل حقيقة اعتبار العرق الأبيض قد انطلق من هنا في القفقاس، ويسمى العرق القفقاسي، أهمية عن غيرها من الاعتبارات.

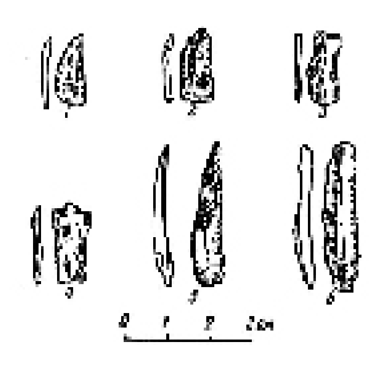
## اللقى الأثرية

تنتمي بقايا عظام الإنسان الشبيهة بالقرد، والأدوات من النوع الأخيولي العائدة للعصر ما قبل الجليدي، إلى نهاية الحقبة التيرتيارية، كذلك تظهر لقى أثرية أخرى أنشطة للإنسان في القفقاس الشمالي الغربي خلال العصر الجليدي. حسب رأي إي. آي. كروبنوف، فقد ظهر الإنسان في القفقاس الشمالي الغربي قبل ٧٠٠،٠٠٠ سنة. اكتشف الفك السفلي لإنسان جاوه، الذي عاش هنا قبل ٦٠٠،٠٠٠ سنة، في كهف أزيخ في أذربيجان. وهكذا فإن استيطان الإنسان في القفقاس، موطن الشراكسة، يبدأ منذ ظهور إنسان جاوه "أقدم إنسان" هناك.

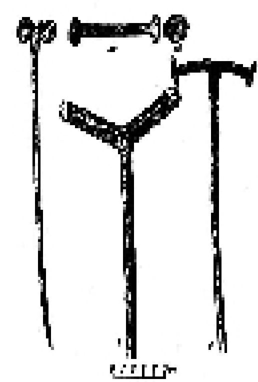
## بعض اللقى الأثرية في المنطقة



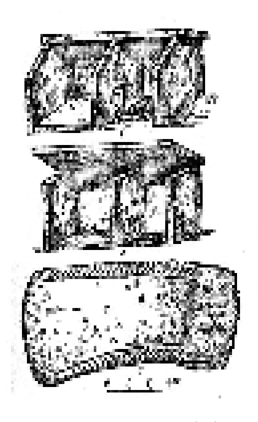
• ٢،١ أدوات نيوليثية، قاشطات ميكروليثية من الموقع على نهر كينجه ٨-٣ ثاقبات ورؤوس سهام من الصوان من مستوطنة اجوبيك. صفحة ٢١ أيضاً.



• أدوات ميزوليثية من مغارة سوسروقه قرب نهر باكسان
٥،١ رؤوس سهام اوبسيدية من الصوان
٦،٤،٢ سكاكين وصوان أوبسيدي



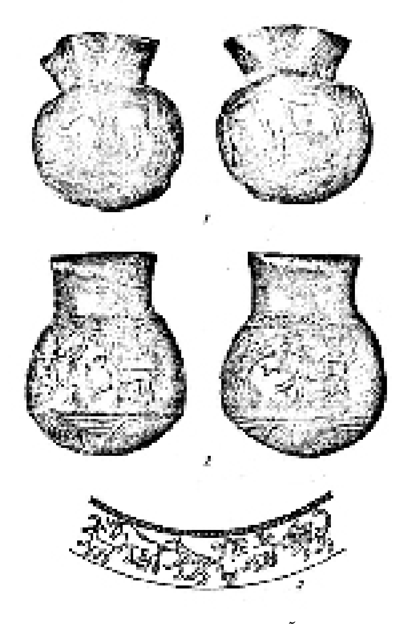
• من ركام قبر في نالتشك دبابيس نحاسية (النصف الاول من الالف الثانية قبل الميلاد)..



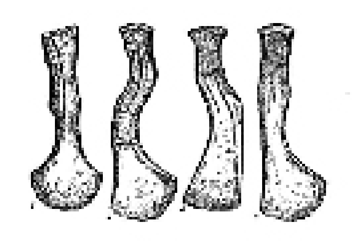
• من ركامات قبور نوفوسفوبودني
١. نوع من القبور في الركام رقم ١.
٢. نوع من القبور في الركام رقم ٢.
٣. فاس نحاسية من الركام رقم ١..



•من ركام قبر سولومينسكي
١. خرزة كورنيلية
٢. علاقة برونزية وحاملة اسم
٣ ,٤ كَلّاب عظمي ٥ ،٦ آنية فخارية.



•آنية فضية من ركام مايكوب.
٢،١ آنية فضية
٣ تفاصيل الحزام التزييني على الإناء الثاني.



• فؤوس برونزية من القفقاس الأوسط والغربي.
١. فأس قتالية من النمط الكولشيدي.
٢. فأس قتالية من نمط الكوبان.
٣. فأس قتالية من نمط الكوبان القديم.
(بداية الالف الاولى قبل الميلاد).



• قطع من تماثيل فخارية صغيرة
١. من مستوطنة اجوبيك ٢ –من رايكوف (ثقافة طرابلس) ٣ – من جورود سك.

**أوائل الأمكنة السكنية:** للناس البدائيين في القفقاس، والتي تنتمي إلى الحقبة الباليوليثية المبكرة (السفلى)، اكتشفت من قبل علماء الآثار السوفييت في ارمينيا وابخازيا، وفي أوقات اقرب، في الأديغيه، على ضفاف نهر بسه كوبس، كذلك وجدنا هنا اطباقاً وفؤوساً نمطية عام ١٩٢٥. وفي قرية خاجيوخ، عثر على أداة حجرية من الحقبة الاخيولية (١٢٠،٠٠٠ – ٧٠٠،٠٠٠) على ضفة نهر بيلايا. اكتشفت لقى مشابهة على ضفاف أنهر فورتي بيانكا، افيبس، وبسه كوبس. تظهر لقى أثرية اخرى، أكثر من أن تذكر، أنه خلال العصرين الحجري والبرونزي، استمر نفوذ القفقاس الشمالي الغربي في النمو. كانت أنشطتهم تتزايد هنا، يحسنون أدواتهم وأسلحتهم، يضيفون تربية الماشية والزراعة الى الصيد وجمع الفواكه، واتقان مهارات تصنيع المعادن. فوق كل ذلك، استمروا في تطوير ثقافتهم بثبات، وتحسين بنيانهم الاجتماعي، تأسيس معايير أخلاقية قوية في السلوك، صقل آدابهم وبناء فولكلور غني والحفاظ عليه لنقله إلى اجيالهم الشابة.

**العصر النحاسي - البرونزي:** خلف العصر الحجري عند نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد. يعود تاريخ الخاتم النحاسي الذي عثر عليه في واحد من ١٢١ قبراً في مقبرة نالتشك إلى ما يقارب نفس الوقت. من الممكن أن هذه اللقية تشير إلى بداية هذه المرحلة الانتقالية. تم الحصول على المعلومات عن هذا العصر بشكل رئيس من ركام القبور والقبور الحجرية (الدولمين)... امكنة الدفن المتميزة لهذه الفترة في بلاد الشراكسة.

**ثقافة مايكوب:** تعتبر انها ممثلة بركامات قبور مايكوب. قام بحفرها إن أي. فيسليوفسكي عام ١٨٩٧، وقد جذبت انتباه العالم بأكمله لوفرة اللقى فيها. رغم ذلك، فهي بعيدة عن كونها الوحيدة من نوعها في الاقليم. فقد اخرجت من ركامات ستاروميشاستسكي، ستانيتزاكازانسكى، بيلورشينسكي، مدينة ارمافير، وضاحية زيسرمان في اقليم الكوبان دفائن معاصرة لتلك التي وجدت في مايكوب. " لم تنتج منطقة أوروبا الغربية كلها للعصر البرونزي (ما عدا اليونان) دفينة في مثل غنى ركام مايكوب " كتب إي. آي. كروبنوف. " الواضح أن المدافن الغنية إلى حد الاسراف في الكوبان، بأوانيها المصنوعة من الذهب والفضة، مظلاتها المزركشة، كانت تعود إلى زعماء قساة "، هذا ما كتبته جاكيتا هوكيس، وهي تشير إلى هذه اللقى الأثرية.

حسب رأي إس. خوتكو "دأبت قبائل مايكوب على الاتصال بشعوب الهضاب، حملة ثقافة بيث ". وقد احتل " شعب البيث " الأراضي الواقعة على ضفاف الدون وبحر آزوف. كان ينظر إليهم في الأدبيات على أنهم ما قبل الهندو – أوروبيين. تقول الدفائن العائدة اليهم في اقليم

عبر الكوبان، الكثير حول تفاعل قبائل مايكوب مع هندو- اروبيي الهضاب، كما تتحدث عن تقدم شعب المايكوب شمالاً نحو الدون الأسفل. هذا الأمر تؤكده التحفيات الأثرية لمستوطنة ليفينسوفسكي والتي اشبعت الطبقة السفلى منها ببلاط سيراميك من نمط مايكوب. يضيف خوتكو" أن الطرف الشمالي الأقصى لمستوطنة مايكوب مثبت على جزيرة خورتيتسا في الزابوروجي. أن تقدم قبائل مايكوب إلى القفقاس الشرقي، لم يسبب مجرد التفاعل مع السكان النيوليثيين في الجبال، بل أيضاً مع شعوب الهضاب، لأن المايكوبيون دفعوهم إلى خارج هضاب القفقاس الغربي. كشف جي. ايه. كليموف النقاب عن تشابهات متوازية بين نظم الأديغة الأوائل والهندو – أوروبيين.

في اقليم الشيشان، تقابل المايكوبيون مع تيار مقابل من قبائل مجموعات الكورو – أراكيان. كانت هذه القبائل من أقارب " الحوريت "، الذين تتشابه لغتهم بشكل خاص مع اللغة الناخية والداغستانية. أبعد الكنوز شرقاً من حضارة مايكوب - مستوطنة لوجوفو - تحتوي على خصائص كورو أراكية. كذلك تحتوي ركامات قبور باموت في اقليم الشيشان على آثار لشعب مايكوب ذي الوفرة. ظل اقليم الشيشان الحالي على الدوام مكان اختلاط مجموعات الأديغة والناخيين الإثنية خلال القرون اللاحقة: (أخذت قباردا الصغرى مقعدها في هذا المكان خلال السنوات الستمائة الأخيرة (لغاية منتصف القرن التاسع عشر)...

انقسمت مجموعة ما قبل الابخاز الأديغة الاثنية إلى ثلاث مجموعات، الأمر الذي يمكن التحقق منه بدرجة كبيرة من الثقة على أنه الأبخاز، الوبيخ والأديغة عند نهاية الألف الثالثة وبداية الألف الثانية قبل الميلاد. بدأ الخاتيون بالاندماج بين الهندو - أوروبيون - نيسيت في نفس الفترة. فقدت ثقافة مايكوب خلالها صلاتها بخاتوسا تدريجياً. يمكن لهذا ان يكون سببه جزئياً تدخل ثقافة الدولمن، حسب رأي. في. آي. ماركوفين، فقد ضغط الدولمنيون على قبائل مايكوب من البحر الأسود الممتد من غيلينجيك إلى جارجا. إن كنوز مايكوب المتأخرة مفقودة من اقليم الدولمن ، الاحتمال الأكبر هو ان البنائين الدولمن كانوا نفس شعب الجافيت، مثل الباسك، الخاتيين، وابخاز – اديغه. يمكننا ان نفترض ان عزلة الوبيخ عن الشعب قبل الابخازي بشكل عام مرتبطة باسلوب اندماج "شعب الدولمن".

"إن الرأي التقليدي حول التركيب الإثني للقفقاس الغربي عند نهاية الألف الثانية قبل الميلاد، يصل إلى حقيقة أن "المايكوبيين" هم الأسلاف البعيدين للأديغه، وأن دولمن هم أجداد ابخاز ، يجب ان نلاحظ ان التفكير السطحي بهذه الفكرة غير عملي. فقط في حقبة الاباظه – الشركسية في القرون من الثالث عشر وحتى الثامن عشر الميلادي، تأرجحت

الحدود الشمالية (مع أن كلمة "حدود" هنا هي فكرة نسبية كلياً) للقبائل المتحدثة بلغة الابسوا، من انابا إلى بيتسوندا عدة مرات، إضافة إلى الصورة المعقدة لظهور واستيطان البجدوغ، السادز، الأباظه، والوبيخ. في هذا المضمار، فإنه يتم دراسة ثقافة مايكوب من قبلنا على انها الامتداد الابخازي - الاباظي الوحيد.

بدأ الاستعمال المنتشر للنحاس في بلاد الشراكسة عند نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد. أكثر من ذلك، فقد ازدهر العصر النحاسي - البرونزي هنا خلال الألف الثانية وبداية الألف الأولى قبل الميلاد، عندما تم اتقان تقنية تحضير النحاس المحلية، ثم البرونز.

جرى تقسيم كنوز العصر النحاسي - البرونزي في الكوبان، وشمال القفقاس المجاور، عام ١٩٤٩ إلى ثلاثة ازمنة: الكوبان الأولية، الكوبان الوسطى، وثقافة الكوبان الأخيرة.

**ثقافة الكوبان الأولية:** وهي اقدم حقبة في العصر النحاسي - البرونزي ويرجع تاريخها إلى نهاية الألف الثالثة وبداية الألف الثانية قبل الميلاد. تشكلت هذه الثقافة عند فجر الحقبة البرونزية وانتشرت غرباً نحو شبه جزيرة تامان وشرقاً إلى إقليم الشيشان وإنجوشيا في الوقت الحاضر.

ظهرت دفائن الدولمين الجماعية لهذه الثقافة في المناطق الجبلية لشمال غرب القفقاس عند بداية الألف الثانية قبل الميلاد. وقد عثر عليها على كل من المنحدرات الشمالية والجنوبية لجبال القفقاس وبمحاذاة ساحل البحر الأسود. يمكن العثور عليها في مجموعات كبيرة في حوضي نهري اللابا والبيلايا، وتشكل مقابر قبلية هائلة. هناك أكثر من ٢٠٠ دولمين موجود في فسحة ديغواكسكي ٣٠٠ في خاجيوخ، ٣٥٠ على "طريق بوليرسكي" وهكذا. بعض الخرزات التي عثر عليها هنا يفترض أنها وصلت إلى الكوبان، من خلال عبر القفقاس بواسطة التواصل بين القبائل، من البلاد البعيدة في آسيا الصغرى، ما بين النهرين، ايران والصين.

**ثقافة الكوبان الوسطى:** وتمثلها مجموعة واسعة من الدولمينات وركام القبور، وهي موجودة عند سفوح التلال وفي شريط الهضاب المجاور. وهي موزعة بشكل متباعد عبر القفقاس الشمالي الغربي، وتضم حوض الكوبان إلى الغرب وتمتد إلى الشرق حتى اقليم داغستان الشرقي. تلقوا تأثيراً منظوراً من ثقافة الهضاب التي تعتمد سراديب الموتى، لكنهم مرتبطون جينياً بالنوع السابق لركامات نوفو سفوبودني ولديهم صفاتهم المتميزة والخاصة بهم. يمكن رؤية آثارهم في الهضاب وعلى ضفتي الكوبان (منطقة بريوكومنسكي، روجوفسكي، كافكازسكي، وآخرين) وعبر الكوبان (أولياب، خاتاجوكاي، ستانيتزا

كيليرميسكي، نيكراسوفسكي، نوفو لابيسكي، وآخرين) وتظهر انتشار المعرفة بالمعادن، وظهور ما يسمى " بمستودعات رجال المسكبة "، ووجود أدوات محلية لتصنيع النحاس.

**ثقافة الكوبان المتأخرة:** وتؤرخ من القرن الحادي عشر وحتى السابع قبل الميلاد. تحتوي هذه الركامات القبرية على القليل من الموجودات واللقى. بالإضافة الى الكمية الكبيرة من ادوات تصنيع المعادن المحلية والأسلحة المنتجة هنا في الكوبان. جاءت أدوات أخرى إلى هنا من ورشات أخرى لتصنيع المعادن، بداية من أقاليم كولشيدو- كوبان للقفقاس الأوسط وعبر القفقاس الغربي، من اقاليم هضبات الدون الشمالية – اوكرانيا والفولغا. من الناحية الأخرى، فإن أداوت النحاس والبرونز المصنعة في الكوبان ومناطق البحر الأسود لبلاد الشراكسة كانت تنتشر غرباً إلى شبه جزيرة القرم وجنوب اوكرانيا. واضح أنه تأسس تبادل واسع بين القبائل خلال هذه الفترة.

تقول جاكيتا هوكيس ان سكان العصر الحجري الأوسط في الاقليم البونتي كانوا كثيرين، فقد بدأت حضارات العراق وبلاد الفرس تصل اليها. تشير قبور جماعية هائلة على شاطئ بحر آزوف وفي وسط القفقاس الغربي إلى دعم اقتصاد منتج للغذاء. تظهر موجودات القبور والدفن الجماعي اشارات على التجارة مع العراق. مثل هذه الاتصالات اصبحت أكثر ظهوراً في الثقافة الأولية للكوبان، والتي كانت معروفة بشكل رئيس من القبور المؤثثة باسراف وثراء ومغطاة باكوام ترابية هائلة. تقترح هذه القبور الجديرة بالملاحظة أن وكلاء الحضارة الشرقية جاؤوا إلى هذه الاقاليم الغنية بالمعادن باحثين عن النحاس، الذهب والفضة لاشباع الطلب عليها من مدن ما بين النهرين.

كتب إيه. إيه بيسين، مشيراً إلى هذه الفترة: " في أزمنة لاحقة بفترة طويلة، وعلى نفس المنطقة، تشكلت قبائل الأديغة والأباظه، الذين هم بلا شك مرتبطين جينياً إلى درجة كبيرة بالسكان المحليين للماضي السحيق. أن الوحدة الثقافية لمجموعة الشمال الغربي للقبائل القفقاسية، والمعروفة لدينا في في الأزمنة الحديثة، قد ظهرت هكذا، كما هو واضح، في زمن لم يتأخر عن العصر البرونزي الأخير".

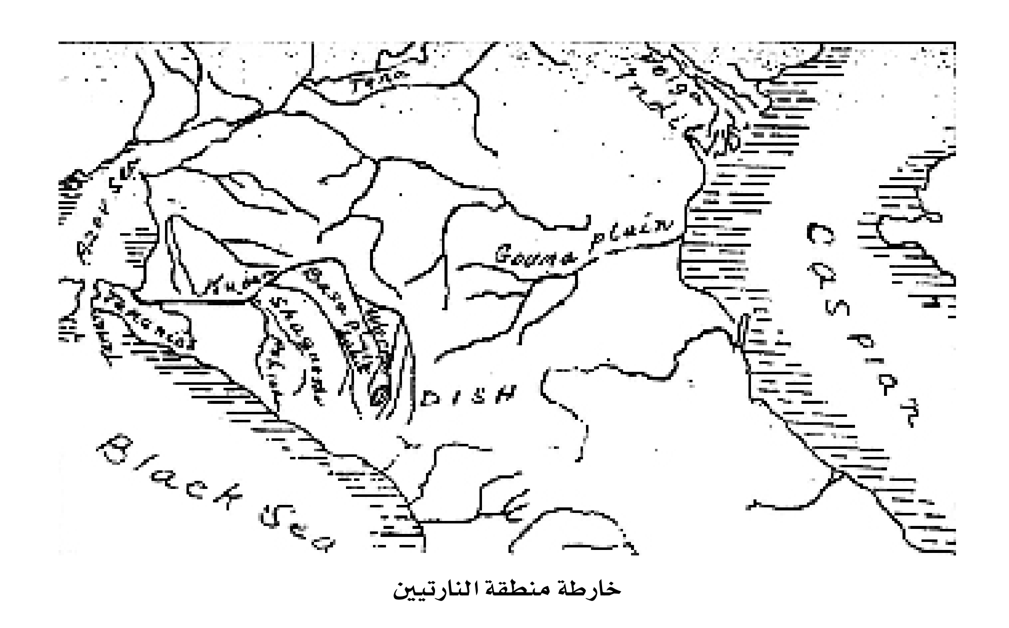
**قبائل ثقافة الدولمين:** لم تمتد ثقافة مايكوب إلى اقاليم الجبال. في ذلك الوقت ( ٢٤٠٠ – ١٤٠٠ قبل الميلاد ) عاشت هناك قبائل أخرى، تركت خلفها ابنية دولمين مميزة. تدعى هذه " ايسب أونا " من قبل الاديغه. ظهرت الدولمينات في اشكالها المبكرة في ضواحي مدينة مايكوب الحالية في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد. سار الحد الجنوبي الشرقي لامتداد هذه الدولمينات مع امتداد خط ايشيرا – تسيبيلدا. هذه المنشآت الفريدة موجودة فقط في بلاد الشراكسة وابخازيا. وتمتد على ساحل البحر الأسود من تامان إلى اوشام خيفاري. توجد الكتلة الرئيسة منها في الجبال فوق مايكوب. يمكن العثور عليها كمجموعات او فرادى في مناطق قرية خاميشكي، مستوطنة كامينوموستسكي، ابازيخسكي، ستانيتزات نوفوسفوبودني، في الضفاف العليا لأنهر فارس، خودز، بشيش، بسة كوبس، افيبس، أوبين، ايلا، خابلا، انتخير، بوهجوندير وأبين. في فسحة بوغاتيرسكي، تم الاحتفاظ بـ ٢٤٠ دولمين. يمكن العثور عليها في ساحل البحر الأسود على الأغلب لغاية نهري طوابسه و زوابسة في الجنوب وفي الشمال لغاية ستانيتزا رايفسكي وشبه جزيرة تامان. وتقول ام.ايه كيراشيفا انه يوجد ٢،٢٠٠ دولمين في اقليم الكوبان.

**ثقافة شمال القفقاس الأثرية:** عاشت القبائل التي بنت الدولمين متجاورة مع قبائل ثقافة مايكوب. في منطقة الهضاب والجبال في الشمال القفقاس الأثرية بشكل رئيسي في الألف الثانية قبل الميلاد، في منطقتي الهضبات والجبال في شمال القفقاس. مارست قبائل هذه الثقافة، والتي سكنت في قسم من الهضاب، حياة مستقرة، كانت تربية الماشية والزراعة والتعدين تشكل الجزء الأساس من اقتصادها. جاء نشوء قبائل الأديغة والأباظه، الذين يرتبطون جينياً بالسكان الأصليين إلى درجة كبيرة، في وقت لاحق نسبياً في نفس المنطقة.

**المنطقة الجغرافية نفسها:** تؤكد المعلومات التاريخية المحفوظة في ملحمة النارتيين على ان منطقة سكنى ابطال النارت والقبائل التي تبني الدولمين كانت نفس المنطقة. نرى ذلك جلياً في الاسماء النمطية المذكورة في الاغاني الملحمية القديمة فهي ترينا النارت شيباتينكو يجري بحصانة – بشجاعة نحو النارتيين الذين عاشوا في عائلات منفردة بمحاذاة انهر تينا (الدون)، بشيزا (الكوبان)، انجيج، واربا،لابا، بشيش، في جبال القفقاس، بمحاذاة ساحل البحر الأسود، في مضيق كيرتش، وفي مناطق في ميوتا (بحر آزوف). عندما يقابل نارت تشيماخوج، فهولا يستفسر منه عن قرية أو بلدة (ربما لم يكن الانسان يمتلكها بعد). بل يسأله أن يريه "رأس الممر" المؤدي الى " بيت أليج القديم ". ندرك انه يسافر في عالم تسود فيه اقوى القواعد، حيث يسافر الرجال راكبين الخيل. مسلحين بسيف او جريد (رمح

قصير ) ، وحدهم ، معتمدين على انفسهم ، باحثين بشجاعة عن تحد ومغامرة . هو الآن في أرض تريسا ، التي تبدأ من المكان الذي يصب فيه نهر لابا ، بنهر بشيزا وعند جبال القفقاس.

حسب عسكر حدغالة، في كل من نصوص الأديغة والابخاز النارتية الملحمية، فإن ستناي تغتسل في نهر بشيزا (الكوبان)، بينما يغسل نارت شيباتينوكو جيادة في نهر واربا، نهر لاباهو الذي يظل النارتيون يعبرونه سباحة، وبشيش هو النهر الذي تدفع شقيقة شاوتشاس قاربها عبره. عاش بعض من شعب الناتخواج على ضفاف نهر نات. المكان الذي جمد فيه سوسسروقة الينج (العملاق) كان خي شوتسا (البحر الأسود) (خي فيتسا). المكان الذي يجيء منه السيتيموكوس هو اقليم طوابسه. المكان الذي تم تقييد نارت نيسرين فيه هو جبل القفقاس. والمنطقة التي تشملها الأمكنة المذكورة هي جغرافية ملحمة الأديغة (نارت) والقبائل المذكورة آنفا والتي تبني الركامات القبرية والدولمين.




خارطة منطقة النارتيين

تضم كل المعلومات المذكورة آنفاً الإثبات الكافي على ان:

١. اجداد الأديغة هم مؤلفو ملحمة "النارتيين" بلغتهم الاديغابزه، وانهم أحد أقدم الشعوب في هذا الاقليم.

٢. انهم كبروا بثبات من حيث الاعداد والنفوذ ، توحدهم لغة مشتركة، والتقاليد والثقافة.

٣. انهم انشأوا الثقافات الفريدة المذكورة.

## الأدلة المكتوبة

**المصدر الكلداني القديم والاسطورة:** ما زال الغموض يحيط بتاريخ ذهاب الهاتون (الخاتيين) من القفقاس إلى آسيا الصغرى والاناضول بشكل دقيق. رغم ذلك، فإن اساطير أديغه مختلفة تقول ان قبائل اديغه قوية قامت بحملات من شواطئ البحر المأوتي (آزوف) والبحر الاسود إلى آسيا الصغرى قبل آلاف عديدة من السنين، حيث استقروا لمدة طويلة. هذه الرواية مدعومة بدليل مدون. فقد كتب المصريون القدماء (من اناوريا) عن هؤلاء الهاتون عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد. حسب هذه الرواية – فإن النقش "على حجر " عثر عليه في هيلداني (كلداني)؟ القديمة يؤكد أن وور هاتو، قائد الهاتون، افتتح بلاد هيلداني عام ٣٧٥٠ قبل الميلاد. حكم الهاتون منطقة واسعة جداً، تبدأ من جنوب القفقاس حتى شمال سوريا، بغداد، البصرة، (ولايات حلب، قونية، سبواسا، طرابزون، وأرض روم الحالية). مضى وقت وصلت فيه أملاكهم إلى حدود مصر.

**نظرية جديدة – الحثيين والاتيخا:** ظهرت نظرية جديدة نسبياً بين المؤرخين الشراكسة وهي تدعي بأن الحثيين هم احفاد " الاتيخا " – الاسلاف البعيدين للاديغه.

حسب المدافعين عن هذه النظرية، فإن كلمة أتيخا، الاسم الإثني البدائي لأجداد الأديغة، نشأ من كلمة تيغا (الشمس) المرتبطة بعقيدة الشمس قبل حوالي ٦٠٠٠ سنة. ان التسلسل الزمني لفترات ظهور القبائل ذات العلاقة المقدمة من هؤلاء المؤرخين هي كما يلي: عاش الاختيون في الألف الثالثة قبل الميلاد. سمي الاتيخا هات، حسب رأي إن. لوفباستي، فإن الاتيخا، الهات، والكاسكيين عاشوا في القفقاس الشمالي- الغربي، توحدهم اللغة الهاتية (يبدو أن اسماء هاتي وخاتي تستعمل بشكل تبادلي للدلالة على نفس الشعب) في النصف الثاني للألف الثالثة قبل الميلاد، انتسب الهاتيون إلى الاختيين والكاشك. في الألف الثانية قبل الميلاد، ورث الخيت الهاتيين وعاشوا في نفس الدولة. "هناك عدد كبير من مجموعات الكلمات" القريب والمشابه لفولكلور الأديغة في أيامنا، ما زال محفوظاً في نصوص ما قبل الخيت والهات الشعائرية، حسب آر. خواج.

حسب رأي ايه. اس. كلاين فان عودة الكاشك المتحدثين بلغة الهات من آسيا الصغرى إلى شمال القفقاس ووصول الهندو- آريين من أوروبا حدث في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد. يحتمل أن هؤلاء الناس هم الذين قادهم وورهاتو إلى آسيا الصغرى عام ٣٧٥٠ قبل الميلاد. هذا الرأي تدعمه حقيقة أن " قبائل الكاشك، الذين عاشوا إلى الشمال الشرقي من الدولة الخاتية والذين كانت لهم علاقة بقبائل الابخاز – أديغه، بدأوا يزدادون قوة عام ١٩٥٥ قبل الميلاد (فسيميرنايا استوريا المجلد ستة، عام ١٩٥٥ الصفحة ٣٧٥). واضح أن اسمي

"هات" و"خيث" اعطيا أصلاً من أجداد الأديغة إلى مجموعات معينة من شعبهم في أزمنة متعددة، تدل على مهنتهم. في التاريخ القديم، عندما كان الناس يعتاشون على الصيد بشكل رئيس، فقد اشتهر أجداد الأديغة بتربية كلاب صيد ممتازة، ربما كان هذا هو الوقت الذي سموا فيه " حات " (مانح الكلاب) مجموعة من شعبهم، الذين يربون مثل كلاب الصيد هذه. ربما، هذا هو السبب في كون لغة الأديغة تحفل بكلمات واسماء، تبدأ بـ "حا" (كلب) "حات" أو "حاتي" (مانح الكلب) حاشه (ضيف) حاشيش (غرفة ضيوف) "حاتير" (احترام) حاده (جثة) حادش (جهنم) حايف ( قرض ) أو الأسماء الأولى: حباق، حنش، حاتيخون واسماء العائلات: حاتو، حاتي، حاتخي، حاغور، حاخو، حاتشاو، خاتيغو خاتيغوغو وما إلى ذلك.

بشكل مشابه، وفي وقت لاحق، اعطي الاسم " خيت " من قبل نفس الأديغة إلى مجموعة من شعبهم، كانت عبارة وا وخيت؟ أو خيت واشيش؟ تعني (هل انت خيت)؟. أو (هل أنت من الخيت)، في لغة الأديغة.

لاشك أن هذه النظرية بحاجة إلى المزيد من الدراسة والحقائق المتينة. رغم ذلك فهي تستحق الثناء لمحاولتها سد الفجوة القائمة حول أصل الحثيين، الذين "خاضوا حروباً ضد مصر وسوريا لألف سنة" والذين كانوا منافسين للفراعنة في السلم والحرب منذ السلالة الثانية عشرة وحتى العشرين "والذين" دفعوا المستعمرة كالأسفين نزولاً من سوريا وحتى الخليل ومصر" و"انشأوا لأنفسهم مسكناً في غوشين".

يجب أيضاً الإشارة هنا إلى أن الاسم الاثني حثي " هو التحوير الانجليزي لكلمات هات، خات، خيت، كاسك، وهاتون. العرب يسمونهم الحثيين " أو " الحاثيين ". في كتاب العهد القديم يأتي ذكر الحثيين بأنهم " إحدى القبائل الأصلية في فلسطين لأنه " عندما دخل الاسرائيليون الأرض الموعودة، كانوا أحد القبائل التي " تعيش هناك ". وقد اشترى ابراهيم كهف ميشبيلاه، قرب الخليل من ابناء هيث (سفر التكوين ٢٣) " تزوج عيساو زوجات حثيات (سفر التكوين ٢٦) " كانت اورشليم الابنة السفاح لعموري وحثيّة (حزقيال ٢٦-٣).

يضع بعض المؤرخين " أرض هاتي " بشكل أساسي في مرتفعات آسيا الصغرى وعاصمتها في بوغازكوي، إلى الشمال منها. يدعي مؤرخون آخرون أن الحثيين كانت لهم في الواقع عاصمتان: كاديش على نهر اورونتيس وكارتشيميش على الفرات.

يكتب أو. آر. جورني " أرض هاتي التاريخية هذه كانت دولة في الألف الثانية قبل الميلاد، واصبحت فيما بعد امبراطورية، بناها ملوك يحكمون من عمق الجبال.

أصبحت هذه المملكة ولغتها الرسمية معروفين بـ "حثي " ويجب الآن قبول هذا الاسم. لكن اللغة الحثية لم تكن متوطنة في آسيا الصغرى، وقد اعطي الاسم هاتي إلى البلد من قبل السكان الأقدم في الأرض، والذين نسميهم نحن الهاتيون. لقد فرضت اللغة الحثية الهندو - أوروبية على الحاتيين غير الهندو – أوروبيين من قبل شعب غازي ".

هذه هي اللغة السائدة والأسلوب الذي يطرقه بعض المؤرخين في شرح أصل ولغة الحثيين. على ايه حال، فان الموضوع بعيد عن الحل. ما يزال أصل ولغة الحثيين غير مدروسين بشكل كاف وبحاجة إلى تحقيق أكثر صلابة، إن هذه الحالة تعطي مزيداً من القوة للنظرية القائلة بأن الحثيين انطلقوا من اسلاف الشراكسة.

حسب رأي آر. آي. ماخوش، يمكن متابعة فكرة واحدة مركزية موثقة بشكل جيد في جميع الآراء والنظريات حول فجر ونشوء الأديغة: الفكرة القائلة بأن قبائل وشعوباً مختلفة (قبل السومريين، السند، قبل العرب، والآريين ) حضروا إلى أرض القفقاس منذ أزمنة ما قبل التاريخ. حسب رأي إن. لوفباش، هؤلاء الكاوكاسيون (احفاد الاتيخا القدماء)، عاشوا هناك وقد قاموا " مثل فتحة، امتصوا فيما بينهم كل شيء غريب قدم إليهم، ودمجوهم بهم بينما بقوا هم على حقيقتهم بشكل رئيس". نكتشف هذه الصفة المثيرة للاهتمام لأجدادنا القدماء، ونحن نقرأ عن رحلتهم الطويلة والشائكة. هذه بعض الاثباتات حول حقيقة ان الأديغة كانوا الساكنين في القفقاس لوقت طويل جداً:

عند فجر العصر البرونزي ( القسم الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد ) تشكّل اتحاد قبلي، كوَّن أساسه الأديغة – الجبليين في القفقاس، كان الأعضاء الآخرون لهذا الاتحاد القبلي هم الهات الجنوبيون (الخات، الحثيين ) من سومر والآريين الهندو – أوروبيين. أنضم اليهم لاحقاً الأيبيريون حاملو شعائر مدافن الدولمين. يسمى المختصون هذه الزمالة اتحاد قبائل مايكوب، هذا اثبات آخر يدعم النظرية القائلة أن الأديغة كانوا القاطنين في القفقاس.

يقول إن. لوفباش أن المعسكر المحصن المكتشف على جبل " ناغيجيه " قرب مدينة مايكوب، بعد نهر بيلايا، كان مركز اتحاد القبائل. يفترض المؤرخ نفسه أن مدينة هاتوسا ظهرت هنا والتي تكررت لاحقاً في آسيا الصغرى. يكتب " ام. آي. ماخوش " وجدت مدينة أخرى كبيرة بقدر واضح لفترة ثقافة مايكوب، والذي تمت حفرياته من قبل العالم الآثاري ام. كيه تيشيف " وجدت أيضاً في وادي نهر بسيناكو في منطقة طوابسه. المفترض ان هذه المدينة كانت تسمى تابسيك ".

باختصار، هناك رأيان، أو روايتان، حول من هم " الخات " (هاتي، الحثيين): تفترض مجموعة أن جميع ما قبل – الأديغة، الذين اسسوا أصل شعبنا، كانوا يدعون هاتي. بينما تعتبر المجموعة الأخرى أن واحدة فقط من قبائل ما قبل الاديغه، والتي غادرت القفقاس وقامت بالحملة إلى آسيا الصغرى، كانت تسمى بذلك الاسم.

توجد اثباتات أثرية ولغوية تشير إلى أن الأديغة، الابخاز، الباسك في جبال البيرينيه، والآريين قاطني وسط أوروبا كان لديهم نوع من العلاقات المتبادلة ونقاط الاتصال في الماضي السحيق. ربما ذلك هو السبب في اقتراح ايه. اس. كلاين بان الاديغه قد تحدروا من الآريين في وسط اوروبا.

يشرح اس. خوتكو في كتابة " التاريخ الشركسي " باسهاب في هذا الموضوع ويضعه في إطار زمني " يتم اكتشاف مصادر قبل خاتية في الاناضول بشكل منتظم، المذهل فيها درجة قدمها: فبعضها يعود إلى الألف الثالثة قبل الميلاد. كل الاحتمالات تشير إلى أن الحضارة الخاتية كانت واحدة من المهاد التي بدأ فيها المجتمع البشري. حسب هذه الفكرة، فإن الابخاز – الأديغة والخاتيين مثلوا الجناح الغربي المستقل من هذه العائلة الضخمة من اللغات. إذا أخذنا بالاعتبار أن الإبخاز الأديغة، بالإضافة إلى الخاتيين، ينتمون إلى النمط البونتي من البحر الأبيض المتوسط وجنس البلقان الصغير (حسب التصنيف الروسي)، والذين اعتبروا على الدوام النوع " الأنقى "، فإن افتراق اللغتين قبل - الشركسية وقبل - الصينية يمكن إعادة تاريخه بالكامل إلى حقبة العصر الحجري الحديث.

يتفحص اس. خوتكو علاقات الخاتيين والابخاز- أديغه في كتابه " دراسات في تاريخ الشراكسة "، فيكتب: " يمكن البدء في قائمة المقارنات الاثنية بين الابخاز - أديغه والخاتيين من إسم واحد للكاسك - التسمية الإثنية " أبيشلا " - " أبيسيلا " الذي ذكر في نقش الملك الأشوري تيجلاث - بيليسير الأول (١١١٥ ١٠٧٧- قبل الميلاد). تجري مقارنة التسمية الاثنية هذه بالتسميات في القفقاس الغربي أثناء الحقبة الهلينية: "أبسيل" و" أبازغ "، وكذلك مع تسمية " ابشي " التي استخدمت في الأدبيات الكارتلية لأوائل العصور الوسطى للدلالة على واحدة من القبائل الابخازية.

لا يثير الربط الاثني بين الخات والكاسك مع الابخاز / أديغه اية شكوك على الأقل ضمن محتوى الناحية اللغوية للولادة الاثنية. يعتبر في. في. ايفانوف أن التوافق الصوتي لا يترك مجالاً للاعتراض على حقيقة أن اللغة الخاتية في مفرداتها هي لغة العائلة الشمالية - قفقاسية القديمة ويكشف تشابهاً خاصاً مع اللغات القفقاسية الغربية. عالم لغوي آخر، درس المشكلة هو آي. إم. دياكونوف، توصل إلى الاستنتاج القائل أن اللغة الخاثية تظهر " نواحي معينة من التشابه مع اللغات الابخازية الشركسية.

"أحد أحدث الآراء حول المشكلة عبَّر عنه العالم اللغوي البولندي يآن بروان " على كل أوجه تركيبها: الصوتي، التشكيلي المفرداتي، والتركيبي، فإن اللغة الخاتية تكشف عن تشابه واضح مع مادة المجموعة الشمالية – الغربية للغات البدائية للقفقاس ". لقد حان الوقت للبدء في دراسة مقارنية - تاريخية للغة الخاتية مع جهة ولغة الابخاز- اديغه من الجهة الأخرى. من المستحيل التحضير للقواعد المعقدة، المقارنة - التاريخية للغات مجموعة شمال غرب القفقاس وترك الخاتية، والتي تشبه "السنسكريتية" بالنسبة للمجموعة اللغوية المذكورة. تظهر اسماء الأماكن الخاتية أيضاً درجة كبيرة من التطابق الصوتي مع مواد اسماء المواقع للابخاز- اديغه. وهكذا، مثلاً، تبدو اسماء المركز الثقافي الخاتي ليشتسين مع المركز العقائدي لابخازيا في العصور الوسطى – ليخني.

تتشابه أسماء المواقع والأماكن لدى الكاسك والابخاز- أديغه صوتياً، حتى تبدو وكأنها سميت من قبل مجموعة اثنية واحدة خلال حقبة تاريخية واحدة: غاغرا، اتشاندارا، باربارا، اتارا، داخارا، اتشيغفارا، سينوب، أريبسا، ابساريا، طوابسه، أكامبسيس، دوابزو، أخيبس، خيبس، لاشيبس، داغاريبش، رابش، سوبس، والكثير غيرها.

جذب جي. ايه. ميليكيشفيلي انتباه المختصين للمرة الأولى إلى " أحد أكثر الصدف التركيبية البارزة هو اللفظ " واشخو " فهو في مجتمع الخاتيين " واشاب " وعند الأديغة " اواشو " واعتبر هذه الميزة مهمة جداً لاثبات القرابة بين الخاتيين والابخاز - أديغه. كما لاحظ اش. دي. اينال. ايبا " أحد أكثر التشابهات بروزاً من الناحيتين التركيبية والتشكيلية بين اللغتين الخاتية والابخاز - أديغه هو التشابه التام في الشكل والمعنى لإسم الإله واشخوا، الصورة الدينية – الاسطورية القديمة، الذي كان معروفاً لدى سكان آسيا الصغرى الأصليين منذ الألف الثانية قبل الميلاد، والذي لم ينس حتى الآن في دائرة الشعوب الابخازية – الأديغية - في كل اللغات الابخاز - اديغه التسمية هي: ابخازية – واشخوا، الوبيخ، واشخفا.

الأديغة - واشخو، والقباردي - واششخوا، فهي تستعمل بشكل رئيس كتعبير عن اصدق اشكال القسم والتأكيد، تستعمل بشكل أقل ترديداً على أساس " الرب " بين الوبيخ، و" رب القَسَم " لدى القباردي، " والسماء للأديغه إلى آخره. في سجلات اللغة الخاتية لآسيا الصغرى، فإن كلمة "واشخو" تعبر عن معنى الآله" أو "الرب" بشكل عام.

أن عدد المتوازيات المتشابهة تاريخياً - ثقافياً بين الخاتيين والابخاز - أديغه كبير ومتعمق، ومستشهد به في أعمال في. جي. اردزينبا." وهكذا، فإن الموارد المذكورة أعلاه تسمح لنا بالتأسيس لوجود الحقبة الموغلة في القدم (والتي تسبق القديم جداً) في غرب

القفقاس لشعب قبل الابخاز - أديغه. وقد احتلت مناطق شاسعة في منطقتي شمال البحر الأسود وبحر آزوف تحت "علامة" السيمريين، وجزء أكبر من (آسيا الصغرى) الاناضول، تحت " علامة " الخاتيين والكاسك. في القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد، توقفت المقاطعة المحصورة في آسيا الصغرى، والعائدة للابخاز – أديغه عن الوجود. أسباب دمار المملكة الخاتية وقريبها اتحاد القبائل الكاسكي مرتبط في علم التاريخ بامتداد ما يسمى " بشعوب البحر " الذين لم تتوضح جنسيتهم حتى الآن. بعد وقت طويل، أي في القرن السابع قبل الميلاد، يصل تاريخ السيمريين إلى نهايته، ربما تحت ضغط السكيثيين. رغم ذلك، يعتقد بعض المؤرخين أن تاريخ السيمريين استمر حتى مسمى السند والماويين في القفقاس الغربي.

في الختام، هذه هي الآراء السائدة للمؤرخين والدارسين العلماء عن أصل الشراكسة، لا شك انهم سيستمرون في الدراسة والتحاور حول الموضوع لبعض الوقت القادم. خلال هذا، يمكن الافتراض بأمان على أن أسلاف الشراكسة كانوا هم الناس الذين أوجدوا ملحمة النارتيين الهائلة في فجر العصر النحاسي – البرونزي بلغة الأديغة، ذات التركيب والأسلوب الشعري المتقدم، والتي كانت المؤسسة المتميزة للتربية التقليدية، التركيبة النفسية والتطلعات الأخلاقية لأمة الشراكسة، ومستودع قوانينهم، أخلاقهم وسلوكياتهم:

الملحمة التي تعتبر مخزناً لمعلومات التاريخية بشكلها الخام منذ الأزمنة السحيقة، والتي أيضاً حفظت سيرة بعض أهم الأبطال والمعلمين الشراكسة، والذين حاولت الأجيال الشركسية اللاحقة أن تقلدهم على مدى الزمن.

## السيمريون والمأوتيون

**السيمريون:** هم الذين تقع بلادهم بمحاذاة الساحل الشمالي للبحر الاسود، بما فيه شبه جزيرة التاوري. يعتبرون أحد اقدم سكان القفقاس الشمالي الغربي. يتشكلون من عدد كبير من المجموعات الإثنية والقبائل (المأوتيون، السند، الداندار، التوريت، وغيرهم) أسسوا امبراطوريتهم قبل عصرنا بقرون عديدة. في أوائل الألف الأولى قبل الميلاد، كانوا يمثلون اتحاداً قبلياً قوياً واحتلوا اقليم الهضاب التابع لساحل البحر الأسود، شبه جزيرة القرم والقفقاس الشمالي الغربي.

حسب المعلومات المستقاة من ألواح الفخار التي عثر عليها في نينوى، عاصمة آشور القرن السابع قبل الميلاد) فقد أشاعت "بلاد جامير" الرعب في ولايات الشرق الأدنى وآسيا الصغرى.

حسب رأي اس. خوتكو "كان الاختلاط والتبادل مع الهضاب عاملاً مهماً على الدوام في تشكيل التاريخ المطول لشعب الابخاز – أديغه. الشعب الذي عرف أولاً في المصادر الأدبية أنه يقطن منطقة شمال البحر الأسود والقفقاس الغربي كان السيمريون. بأية علاقة سكن السيمريون والجبليون منطقة القفقاس الغربي؟ هل سمي شعبهم المعاصر ذلك الوقت الابخاز – الاديغه القدماء، بهذا الاسم؟ وإذا كان السيمريون شعباً آخر، فهل كان الابخاز - اديغه جزءاً من قوتهم؟ يجب تفحص جميع هذه الأسئلة بهدف إعادة اخراج الصورة الكاملة لنمط الابخاز – اديغه التاريخي والثقافي اثناء النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد. لاحظ المتخصص المعترف به في مشكلة الانتماءات الاثنية للسيمريين إل. إيه. إلنيتسكي " بالحديث عن الثقافة السيمرية، يجب أن نأخذ في اعتبارنا ثقافة حقبة العصر المعدني المبكر بشكل كامل في منطقة القفقاس الشمالي والغربي، والتي كانت مرتبطة بسفوح التلال في مراحل تحولية واضحة لثقافة سكيثيي اقليم البحر الأسود.

"إن إبراز الفترة القديمة في تاريخ الابخاز- أديغه مرتبط بقوة بضرورة تنظيم مفاهيمنا حول الماضي التاريخي للقفقاس الغربي ".

تقول مصادر أخرى أنه "ربما حدث الأمر في القرن السابع قبل الميلاد، حينما طرد السيمريون من قبل السكيثيين من بيوتهم، افتتحوا آسيا الصغرى... نهبوا السرديين ودمروا ماجنيزيا، لكنهم فشلوا في محاولتهم احتلال ايفيسوس ودمروا من قبل اليات ليديا. وبما أن المأوتيين كانوا جزءاً من الاتحاد القبلي السيمري، فإنه من المحتمل تماماً أن هذه المعلومة تؤكد الذاكرة التقليدية للفولكلور الأديغي المشار إليه آنفاً.

حسب مصادر أخرى، فإن الفترة التي دفع فيها السكيثيون بالسيمريين خارج هذه المنطقة تعود إلى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد. بعد ذلك يقال أن السيمريين تفرقوا إلى عدة مجموعات واندثروا. يقول الدكتور شوكت المفتي "وحدهم السند والكيميرجي، الذين شكلوا المجموعة الرئيسة، بقوا في القفقاس لكونهم شراكسة واستمروا في العيش هناك تحت نفس الاسماء وكقبائل مختلفة من شعب الأديغة "

**ثقافة السند مأوت:** تطورت في الألف قبل الميلاد. وقتها شكل المأوتيون وقبائل جبلية أخرى السكان الأساس للقفقاس الشمالي – الغربي. عثر على اسمائهم في المصادر الأدبية القديمة الاغريقية، الرومانية الشرقية. قدم هيكاتيوس من مايليتوس (القرن السادس قبل الميلاد) أول المعلومات عن القبائل المأوتية. فيما بعد، كتب سترابو ان السند، الداندراي، التورريت،

الأجري، الأراخي، التاربيت، الاوبيدياك والدشكي ينتمون جميعهم إلى المأوت، تذكر نقوش البوسفور أن السند، الدنداري، التوريت، الأجري، الأراخي، التاربيت، الاوبيدياك والدوشكي ينتمون جميعهم إلى المأوت، وتذكر نقوش البوسفور السند، الدنداري، التوريت البسيس، الفاتيان، الدوشكي على انها قبائل مأوتية. هناك نقش بيريساد، على أنه ملك السند وجميع المايث (المأوتيين) ،

**المأوتيون**: إن تسمية " المايث" و"المأوتيون" جماعية وتنطبق على العديد من القبائل ذات القربى، الذين سكنوا القفقاس الشمالي الغربي من حوض الكوبان. عثر على اسمائهم في المصادر الأدبية القديمة الاغريقية، الرومانية والشرقية. قدَّم هيكاتيوس من مابليش (القرن السادس قبل الميلاد) أول المعلومات عن القبائل المأوتية. فيما بعد، كتب سترابو أن السند، الدنداري، التوريت، الأجري، الأراضي التاربيت، الاوبيدياك والدوشكي ينتمون جميعهم إلى المأوت. تذكر نقوش البوسفور السند، الدنداري، التوريت البسيس، الفاتيان، الدوشكي على انها قبائل مأوتية. هناك نقش بيبساد، على أنه ملك السند وجميع المايت (المأوتيين).

يمكن العثور على تثبيت لاستمرار المأوت - اديغه في اللقى الأثرية، البيانات اللغوية، والاسماء الجغرافية، اسماء العائلات المذكورة في النقوش على مسطحات حجرية في البوسفور، ما زال العثور عليها ممكناً بين الأديغة: باغوش، دزارديو، بلبيبس وغيرها. اسماء اخرى مثل: بساو، بسه خاكو واسماء الكوبان القديمة مثل: بسات، اوبيساس او بساتي تحتوي على كلمة الجذر الاديغه بْسِه (ماء)، أكثر من ذلك، فإن اللقى الاثرية التي اكتشفت في مواقع البلدات المأوتية في اقليم الاديغه . (تاختاموكاي، نوو — فوشيبسي قرية كراسني) اثبتت ان الثقافة المأوتية استمرت في التطور هنا حتى اوائل العصور الوسطى. طبيعي، لذلك، ان ينسب بعض العلماء السكان المايوث القدماء إلى شعب الأديغة.

**المنطقة المايوثية**: يقدم الجغرافي القديم سيكلاك كورينديان (٥٢١ - ٤٨٢ قبل الميلاد) ترتيب استيطان هذه القبائل المأوتية كما يلي:

١. الساورومات - على ضفاف نهر تانا (الدون)

٢. المايوث: على سواحل بحر المأوت (آزوف).

٣. السند - احتلوا كامل شبه جزيرة تامان تقريباً، وساحل البحر الأسود وحتى مدينة انابا الحالية.

٤. الكيركيت سكنوا ساحل البحر الاسود من انابا إلى غيلينجيك.
٥. الآخيون - عاشوا بمحاذاة ساحل البحر الاسود الشمالي – الشرقي من غيلينجيك، كان الهينيوخ جيرانهم.
٦. الهينيوخ - تجاوروا في الجنوب الشرقي مع ديو سكو ريا الكبرى.
٧. الكولشي - تواجدوا بين الهينوخ ونهر الفاسيس (فازيس – ريون).

حسب رأي سترابو " الكيركيت المدعوون ايضاً التوريت. هم شعب عادل، عطوف وذو خبرة عميقة في الملاحة" . تؤكد إف. شيربينا ان الكيريكيت هم بدون شك الشراكسة المعاصرون وان التوريت – قبيلة مرتبطة بشكل وثيق بهم. جدير بالانتباه هو الاستنتاج الذي وصلت إليه شيربينا جول "خلافة" الاديغة ينون "ان احفاد السند، الكيركيت" والثوريت هم الشراكسة، أو بشكل أدق قبيلتان منهم: الناتخواج الذين كانول في الأزمنة التالية يشغلون سنديكا وجزء من ساحل البحر الأسود والشابسوغ، الذين امتدت املاكهم من الشمال عبر السلسلة وحتى غيلينجيك و أبعد إلى الجنوب.

باختصار، فان اغلبية المؤلفين القدماء يضعون منطقة المأوتيين على السواحل الشرقية لبحر آزوف وفي المصبات الوسطى والسفلى لنهر الكوبان، على أساس البيانات الأثرية فإن حدود هذه المنطقة هي: بحر آزوف على الغرب، البحر الأسود في الجنوب الشرقي، و المنحدرات الشمالية لسلسلة جبال القفقاس إلى الجنوب. تجاور المأوت في الهضاب مع السارماتين في الشمال ووسعوا منطقتهم إلى سهل ستافروبول في الشرق. خلال هذه الفترة وصل المأوت الحوض الكامل لمصبات نهر الكوبان الوسطى والسفلى. وسكنت القبائل الأخرى ذات القرى على نهر اوروب وبمحاذاة نهر الكوبان.

**السند**: احدى قبائل المأوت، اشتغلوا بالزراعة، تربية المواشي وصيد الأسماك، كانت لديهم حرف متطورة وينتجون الأدوات الحديدية والآنية الفخارية. كان الطلب على تبادل سلعهم ومنتجاتهم يتنامى، لذلك، كانت لديهم علاقات سلمية وعلاقات صداقة مع المستوطنات الاغريقية في سنديكا.

• • •

هكذا يصف سترابو الخارطة للقفقاس الغربي: "الجزء الآسيوي من مملكة البوسفور وسنديكا موجود بمحاذاة البحر: ويعيش الآخيون، الزيج – الهينيوخ الكيركيت، والماكوبوغون

(اللحى الطويلة) خلفهم. فوقهم يقع مضائق فتيروفاغ (أكلة البراغيث). خلف الهينيوخ تقع كولشيدا.."ـ.

وهكذا، يقول إس. خوتكو، ومتحدثاً بشكل تقليدي، ان الكيركيت طردوا من القطاع السند-مأوتي للساحل الى القطاع الكولشيدي، "قبل سترابو، مؤرخي حروب ميترايداتوس، تعكس فعلياً التغيرات الحقيقية في مواقع قبائل القفقاس الغربي، إذاً يجب الافتراض أن شعوب ما قبل الابخاز الاديغة قد طردوا من الشمال إلى الجنوب اثناء النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد. لأن كلاً من تهجير الكيركيت وظهور الزيج في موطنهم الطبيعي يحمل بشهادة قوية عليها. أكثر من ذلك، من هذا الوقت فصاعداً تظهر قبيلتان أخريان، ربما تكونا من أصل قفقاسي شمالي – الاباظة والابسيل – الذين احتلوا قسماً من منطقة الهينيوخ وقسماً من منطقة الكولشيد".

**الاستعمار الاغريقي:** لم تكن صفته توسعية، حسب رأي في. يورغوفيش. كانوا يستقرون في المدن القائمة من قبل، يعتقد أي تولستوي وإن كونداكوف ان الفينيقيين بدأو يزورون هذه المنطقة أولاً، ثم تبعهم الاغريق لاحقاً وبدأو يؤسسون مستعمراتهم هنا.

حدث تحول كبير في عملية الاستعمار الاغريقي في بداية القرن السادس قبل الميلاد بمحاذاة ساحل سنديكا، من تامان إلى غيلينجيك، بحلول منتصف ذلك القرن – تأسيس مستعمرات:

هيرموناسا، كيبي، باتري وفاناكوريا الاغريقية في سنديكا القديمة. يقدِّر يوستاثيوس تاريخ تأسيس الأخيرة بعام ٥٤٠ ق.م. اكتشف علماء الآثار عدة مستوطنات اغريقية يعود تاريخها إلى القرن السادس قبل الميلاد قرب نوفوروسيسك، بين نهري اباو ودورسو. بحلول هذا الوقت كان السند الساحليون قد بدأوا يميلون إلى الثقافة الاغريقية الأعرق، لكن التقاليد والثقافة القديمة استمرا في الوجود في المناطق النائية من البلاد، استمرت القدرات الانتاجية في النمو والعلاقات الاجتماعية في التقدم. نتيجة لذلك تشكلت دولة سنديكا مع وجود ملك على راسها.

**دولة سنديكا:** تأسست في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد، حسب الرأي التقليدي للمؤرخين. قام ملكها بسك عملتة الخاصة وعليها نقش "سيندوي" ورسم عجلة ورأس حصان، تشير النقود المستخدمة في بلدات مملكة البوسفور إلى أن سنديكا كانت تتمتع بوحدة مالية.

كذلك طور ملوك سنديكا لغة مكتوبة، مبنية على الحرف الاغريقي في القرن الخامس قبل الميلاد. وقد شارك ممثلون عن نبلاء سنديكا في حياة المستعمرات الاغريقية، وفي المنافسات والألعاب. بحلول القرن الرابع قبل الميلاد، كانوا قد وسعوا تجارتهم بقدر كبير نحو الشرق خلال نهر الفولغا وهضاب الأورال الجنوبية مع القفقاس الجنوبي عبر الممرات الجبلية.

كان ميناء سنديكا (جورجيبيا، انابا) هو عاصمة سنديكا. كانت هناك مدن اخرى أكثر بروزاً وأهمية مثل فاناغوريا (مستوطنة سينوي) هيرموناسا (تامان)، وكيبي (على الساحل الشرقي لخليج تامان). كذلك حفظ المؤلفون القدماء اسماء بلدان ومستوطنات أخرى، كانت قائمة على شبه جزيرة تامان مثل كوركانداما، باتري، اخيليس، سيري، تيرابيا، فانا غوريا، التي كان موقعها على القناة السابقة لنهر الكوبان (انتيكيت او هيبانيس لدى القدماء) وركزت في ايديها كل التجارة مع قبائل حوض الكوبان ونمت بسرعة لتصبح مدينة كبيرة، تشغل موقعاً مسيطراً. وكانت هيرموناسا (ستاينتزا تامانسك) هي المدينة الثانية في الحجم.

كتب بولين، في قصته الأميرة تيرغاتاو، عن القيصر هيكابي، حاكم سنديكا القديمة. في القرن الخامس قبل الميلاد. دامت دولة سنديكا حوالي مائة سنة وكان لها ملوكها. على ايه حال لم تتمكن من الاحتفاظ باستقلالها السياسي لكونها محاطة بجيران اقوياء ميالون إلى الحرب، فاضطرت لتصبح جزءاً من مملكة البسفور في القرن الرابع قبل الميلاد، اكمل ليفكون الاول ابن ارخونت عملية ضم سنديكا.

**المأوت ومملكة البوسفور:** المأوت، اجداد الشراكسة، لعبوا دوراً مهماً في مملكة البوسفور التي تشكلت بعد سقوط الامبراطورية السيمرية بوقت قصير، حوالي ٧٢٠ قبل الميلاد، تحت وطأة هجوم السكيثيين، حتى ان بعض العلماء يربطون بداية التاريخ القديم للشراكسة بهذه الفترة.

حسب رأي ديودوروس الصقلي، فقد حكم الامراء القدماء البوسفور اولاً من عاصمتهم فاناغوريا، قرب تامان. كانوا يسمون الارخونت (ارخيوناكيتدس). خلفهم السبارتوك، المتحدين من نفس سلاسلة الامراء القدماء، واسسوا سلالتهم عامي ٤٣٨-٣٧ قبل الميلاد.

يرتبط الامتداد العدواني لملكة البوسفور نحو الشرق بحقبة السبارتوكيد الاوائل. إذ ترتبط محاولاتهم الاولية بساتير الأول، الطامح إلى ضم سنديكا، فقد أسس مع قيصرها روابط اسرية البوسفور.

ضمت مملكة البوسفور سنديكا في القرن الرابع قبل الميلاد، تم اخضاع قبائل مأوتية أخرى من ساحل آزوف الشرقي وحوض الكوبان لاحقاً. نتيجة لذلك، يسمى ليفكون الأول قيصراً لسند التوريت، البسيس والداندار في بعض النقوش. وفي بعضها الآخر قيصر جميع السندوا المأوتيين.

رغم ذلك، لم توضع منطقة نفوذ المأوتيين، بالمعنى الكامل ضمن حدود مملكة البوسفور، حتى اذا احتفظ المايوثيون بحكامهم وقادتهم القبليين. وكما يشير في اي غايدوكوفيتش فإن خضوعهم للبوسفور كان فقط يعني انهم يعترفون بالسلطة العليا لملوك البوسفور، يدفعون لهم الجزية، ويمنحون التجار، الصناع البوسفوريين الحرية الكاملة في انشطتهم التجارية على مناطقهم.

في نفس الوقت، فقد كان يجري سحب الطبقات العليا من زعماء قبائل المأوت نحو دوائر المشاريع التجارية في البوسفور، وبدأوا يشاركون فعلياً في حياتهم السياسية. مثلاً: عند نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، شارك قيصر الفاتيين في الحرب الضروس بين ابناء بيريساد الاول، ملك البوسفور.

تدريجياً تحول سكان مدن البوسفور الذين كانوا في البداية من الاغريق كأغلبية إلى اغريق مأوت بشكل اساسي. حتى سلالة السبارتوكيد لم تكن اغريقية.

استمرت القبائل المأوت – سندية والسارماتية القاطنة حوض الكوبان وساحل آزوف الشرقي في لعب دور نشيط في الحياة السياسية للبوسفور خلال القرون التالية ايضاً. بعد وفاة ميثريداتيس يوباتور، في فترة تغيير السلالات.

اعتمد بعض الحكام مثل اساندر، ديناميا، اسبورغ، في صراعهم على عرش البوسفور، الممتد على قبائل السند – مأوت، وبلغوا السلطة بمساعدتهم. في القرن الأول الميلادي أخضعت البوسفور مرة أخرى قبائل المأوت القاطنة حوض الكوبان وساحل آزوف الشرقي، خلال فترة بداية ازدهارها السياسي والاقتصادي الجديدين. يقول النقش على العتبة الحجرية لتمثال القيصر اسبورغ مشيراً إلى هذه الحقبة: أنه يحكم على كل البوسفور وثيودوسيا، السند، المأوت، التاربيت، التوريت، البسيس، والتانايت. يحدث في هذه الفترة اختراق على نطاق كبيرمن قبل ممثلي قبائل المأوت - سارمات إلى وسط سكان مدن البوسفور والذي أصبح بموجبه تعبير "سرمتة البوسفور" مقبولاً في الأدب.

خلال هذا الوقت، تكون أساس اقتصاد القبائل المأوتية من الزراعة، تربية المواشي، صيد السمك والتجارة والحرف المتطورة. كان للتجارة وزن كبير فيه. ذهب الفائض الكبير من الحنطة إلى حكام البوسفور. يقول ديموستينيس (القرن الرابع قبل الميلاد) انه كان يصدر من البوسفور إلى أثينا ٤٠٠-٦٠٠ ميديمن من الحبوب سنوياً، وما يعادل مليون بود. كذلك صدر المأوت منتجات حيوانية. بدورها، اخترقت مستوردات من اليونان القدماء (زيت الزيتون، الاسلحة والادوات الفاخرة) الى داخل الكوبان.

يقول تراخو "يظهر التركيب الاجتماعي لامبراطورية البوسفور مستوى عالياً من التطور، بوجود ملكية مستنيرة، لامركزية إدارية، نقابات تجار حسنة التنظيم، مع وجود ارستقراطية تجارية ورسمية وسكان مزارعون اصحاء. لم تزدهر بلاد الشراكسة اقتصادياً وثقافياً أبداً كما فعلت في زمن السبارتوك في القرنين الرابع والثالث. قبل الميلاد لم يقِلّ ملوك البوسفور عن غيرهم من الملوك المعاصرين في الحكمة والذكاء والثراء. كانت البلاد المركز الأخير للحضارة الايجيّة في الشمال الشرقي.

كانت التجارة كلها في بحر آزوف وجزء كبير منها في البحر الأسود في ايدي البوسفور، كان بانتيكابيوم على مضيق كيرتش الميناء الرئيس للمستوردات وكانت فاناغوريا، مع مدن أخرى على الساحل الشركسي، موانئ تصدير بشكل جيد في العالم القديم: العسل،الشمع، القنَّب، والخشب لبناء البيوت، والسفن، الفراء، الجلود، الصوف، الخ. وكانت الموانئ الى الشمال من تسييمز تصدر بشكل رئيس: الحبوب السمك، ووصل معدل التصدير الى اتيكا ٢١٠،٠٠٠ هيلتوليتر، أي نصف حاجتها من الحبوب.

"مصدر آخر للثراء لشراكسة البوسفور من السمك، كانت توجد مراكز لتمليح السمك وتخزينه إلى الشرق من بحر آزوف".

"كانت الصناعة متطورة بدرجة مساوية، خاصة انتاج السيراميك، الطوب والبلاط. أما المستوردات من اثينا فكانت الخمور، زيت الزيتون وأدوات الزينة.

شدد نقش في شبه جزيرة تامان على أن بيريسادس حكم " جميع الأراضي بين حدود التادوي والأرض القفقاسية ". بكلمات أخرى، خلال هذه الفترة، تشكل السكان الأصليون لامبراطورية البوسفور من المأوت ( من ضمنهم الفاتيين) والسند ( من ضمنهم الكيركيت، التوريت، البسيس وآخرين)، وحدها القبائل الشركسية الجنوبية: الآخيون، الهينيوخ، والسانيج الذين عاشوا على المناطق الساحلية لم يأت ذكرهم في النقوش. على أية حال، فقد شكلوا هم أيضاً جزءاً من الامبراطورية في زمن سترابو، مع أنهم احتفظوا بأمرائهم

"السكيبتوخ"، كذلك احتفظت قبائل شركسية أخرى مثل السند والدندار بأمرائها وحكمها الذاتي.

كانت لدى أمراء بلاد الشراكسة ذات الحكم الذاتي، إضافة إلى الملك أرخون، بعثة دبلوماسية في تانايس ( عند مصب نهر الدون ).

يقول إم. ارتامونوف وإي. كروبنوف " كانت سلالة السبارتوكيد التي حكمت مملكة البوسفور، دولة أديغه قديمة ".

سلم الملك بيريساد الخامس، آخر ملوك البوسفور، دولته إلى الملك البونتي ميثريداتس السادس يوباتور عام ١٠٩ قبل الميلاد، لعدم تمكنه من التصدي للضغط السكيثي المتزايد.

## اتحادات قبائل الأديغة

### الأديغة – مأوت القدماء

**الكاسوغ – الاديغه - مأوت:** كانت الأسماء القبلية لأجداد الكاسوغ – اديغه – مأوت ( كاسكا، كيشاك، كاسكون ) واجداد الأبخاز ( ابيشلا، ابسيلا ) معروفة لدى الآشوريين الحثيين والمصريين قبل الإغريق بوقت طويل، زادت قبائل الكاسكي (الواضح انها كاسكون) ضغوطها على حدود الدولة الحثية. في النصف الثاني من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، حوالي ١٣٥٠ سنة قبل عصرنا. يجب أيضاً هنا ملاحظة أنه في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، كانت الأسماء القبلية " كيشاك " و" أبيشلا " والتي كانت تعني أجداد الأديغة والأبخاز على التوالي، ما تزال مترادفة أي أنها أسماء اثنية متعادلة، وتلقي الضوء على الوحدة الإثنية للأديغه والأبخاز.

**اتحاد المأوت والسيراكي القبلي:** خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، اتحدت مناطق الهضاب الممتدة على الكوبان لغاية نهر المانيش، بما فيها الإقليم الشمالي لساحل بحر آزوف الشرقي، لتشكل اتحاد قبلياً قوياً، يرأسه السيراك، التي كانت قبيلة سارماتية، ربما كانت بعض القبائل المأوتية لوسط حوض الكوبان جزءاً منها. اضطرت قبائل مأوتية عديدة لإعادة الاستقرار من الضفة اليمنى للكوبان إلى الضفة الأخرى نتيجة لضغط هذا الاتحاد القبلي السيراكي. ظل مأوتيو حوض الكوبان الغربي، وساحل آزوف الشرقي تابعين لمملكة البوسفور. عند نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، فقد السيراكي موقعهم كحكام في هضاب القفقاس الشمالي- الغربي، وسلموا مركزهم إلى الآلان.

كتبت بي. يو. اوتليفا حول هذه المسألة " خلال عملية الفجر الإثني، اثرى مأوت الكوبان ثقافتهم الروحية والمادية عندما أذابوا قسماً من السيراكي بينهم ".

**اتحاد القبائل الزيخي:** الزيخ واحدة من قبائل المأوت، اجداد الأديغة، اختلفت تهجئة اسم "زيخيا" باختلاف مؤلفي الأزمنة القديمة والعصور الوسطى (زيخيا، زيلخيا، سيخيا، ساخيا، تسيخيا، جيجيتيا، وهكذا)

يبدأ تاريخ زيخيا في القرن الأول قبل الميلاد عندما، كما يقول إس خوتكو " قام الزيخ الميالون إلى الحروب، قادمين من المنحدرات الجنوبية للقفقاس (منطقة الأديغيه الحالية تقريباً ) بغزو ساحل البحر الأسود، وهنا قام الزيخ بطرد قبائل الكيركيت، الآخيين والهينيوخ واستيعابهم "، في القرن الميلادي الثاني، أعلن ستاخينفاك، قائد الزيخ أن شعبه هم رعايا الامبراطورية الرومانية، رغم احتلالهم لمنطقة صغيرة فقط بمحاذاة الشاطئ الشرقي للبحر الأسود، ما بين جاجرا وطوابسه. بدأ الزيخ، بمساعدة روما بالمطالبة بالسيادة على الأراضي المحاذية لهم، كان أول ضحاياهم القوط – التيتراكسيت، بقايا الاتحاد القوطي القوي سابقا، والذي سحقه الهون في القرن الرابع. بعد قرن واحد، انهى الزيخ الحرب بنصر على القوط ووسعوا أملاكهم لغاية غيلينجيك، في بعض الفترات وسعت زيخيا حدودها على حساب أراضي القفقاس الشمالي لغاية تانايس ( الدون ).

بحلول القرن الخامس، قام الزيخ والأباظه إما بابعاد القبائل القديمة كلها (السند، الكيركيت، الآخيين، الهينيوخ، الكولشيد، السان) ولم يبق سوى زيخيا وأباظيا على ساحل البحر الأسود القفقاسي.

قدم إس. خوتكو التفاصيل المثيرة التالية حول الموضوع: عام ١٣١، كان فلافيوس اريانوس الذي سافر من طرابزون إلى ديوسكوريا، قد لاحظ ظهورالسانيج، والأباظه في كولشيدا (كولشيس) كتب مخاطباً الامبراطور هادريان: بعد اللاز يوجد الأبسيل، لديهم القيصر جوليان، الذي تلقى المملكة من والدك. الأباظه الذين هم جيران الابسيل، لديهم القيصر ريسماج: هم بدورهم اخذوا حكمهم منك، يجاور الأباظه السانيج، الذين توجد لديهم مدينة سيبا ستوبول: تلقى القيصر سباداج السانيجي مملكته منك. يستمر: من ماساينتيكي إلى اخيونت " النهر الذي يفصل الزيخ عن السانيج " المسافة هي ستون ستاديوم.

يمكن لنهر اخيونت ان يقتصر على منطقة سوتشي: زيلخيو اريانوس هم متطابقون مع زيجيي سترابو وزيخيي بطليموس، حسب رأي اريانوس، فإن ستاشيمفاك " هو قيصر الزيلخيين ".

سمى سترابو اليازيج "السارماتيون الملكيون"، لكن اريانوس سماهم "اليازيج الملكيون".

في رأي إس.خوتكو، يشهد دليلان على الأصل السارماتي للزيج: حقيقة كون بليني قد أشار إليها مباشرة، ووجود قبيلة أخرى بين السارماتيين، تسمى " اليازيج ". هذا الاسم متطابق صوتياً مع التسمية الإثنية " الزيج " اضافة إلى ذلك، أحياناً ينسب مؤرخو العصر القديم " اليازيج " إلى السارماتيين، وأحياناً أخرى إلى المأوت. يضع "كلاوديوس بطليموس" قسماً من اليازيج في داشيا تحت اسم اليازيج - ميتاناست: فقد شكلوا معهم القبيلة الغربية السارماتية الأولى من الإقليم الواسع لساحل البحر الأسود، أو باستعمال التسمية الأصلية "سارماتيا الأوروبية " والتي تترجم عن الإغريقية "مهجرون". يجب الملاحظة هنا، أنه في القرن الميلادي الثاني تم استئجار ٥٥٠٠ فارس من " اليازيج - ميتاناست " في خدمة الامبراطور ماركوس اوريليوس وانتقلوا الى بريطانيا العظمى لحماية جدار هيدريان ".

يكتب إس. خوتكو " بعد خمسمائة سنة من الذكر الأول لنهر نيكوبسيس، يظهر مرة ثانية في المصادر الأدبية، إذ يذكر كونستانتين بروفيرجينيتس نهر نيكوبسيس فيما يتعلق بالحدود بين زيخيا واباظيا: "بعد تاماتارخا بحوالي ١٨ أو ٢٠ ميل، هناك نهر اسمه أوكروخ، يفصل زيخيا عن تاماتارخا، ولكن من اوكروخ إلى نهر نيكوبسيس، الذي يوجد عليه حصن بنفس أسم النهر، تمتد بلاد زيخيا ".

قيَّم جورج كيسلينغ الانتقال القبلي العظيم في القفقاس الغربي، والذي ذكره بسيودو-اريانوس، كنتيجة لهجرات ضخمة للسكان عند بداية عصرنا، توصل إلى استنتاج مفاده أن غزوة الزيج حدثت من المنابع العليا لنهر الكوبان، حوالي -١٠٠ ٧٥ قبل الميلاد، حسب رأي كيسلينج، فإن الظرف الذي يذكره بليني " الأكبر " عن وجود زيجاي...

" زيجاي " بين القبائل السارماتية ما بين تانايس والمنحدرات الشمالية للقفقاس الغربي، تؤكد افتراضه. لقد تسببت غزوات الزيج في المناطق التي يقطنها الكيركيت، الآخيون، والهينيوخ، في تحركات هذه القبائل. واضح، ان قبيلتي الكيركيت والهينيوخ ظهرتا في كولشيدا الشمالية والجنوبية بشكل دقيق كنتيجة للتوسع الزيجي....

" كان انغماس الزيج في الحرب البيزنطية - الفارسية مشروطاً بحقيقة أن العمليات الرئيسة انطلقت من لازيكا المجاورة. يقول إس. خوتكو. " تستمد الطبقة الحاكمة اللازية أصولها من الارستقراطية الزيخية (الكيركيت)، وقد وفر هذا الوضع حلفاء زيخيون يمكن الاعتماد عليهم للآز". تخبرنا مصادر أخرى أنه بين القرنين السادس والعاشر الميلاديين، غزا الزيخ ليس فقط مناطق القرم والقفقاس التابعة لبيزنطة، بل أيضاً ضمن حدود

الأناضول (آسيا الصغرى)، والتي كانت مركز هذه الامبراطورية......على سبيل المثال، في سنة ٥١٥ وحسب " نشرة " ثيوفانو المعترف، فإن الزعيم المعروف باسم زيجيب، هو قائد جيش الزيخ – الآلان – الهون الذي غزا أرمينيا البيزنطية.

يرتبط تاريخ زيخيا في القرن السابع الميلادي بحوادث التوسع الخزري.

تقدمت في القرنين الخامس والسادس الميلاديين عملية توحيد الزيخ الأديغة بشكل ملحوظ.

فقد وسع الاتحاد القبلي الزيخي منطقته، وأخضع القبائل الآخية وضمها إلى اتحاده، وضغط على القوط – التيتراكسيت حتى أخرجهم من أراضيهم في القرن السابع، واستولى على منطقة الساجين، بما فيها دلتا نهر الكوبان، حسب رأي بروكوبيوس القيصري (القرن السادس)، فقد سكن الزيخ من غيلينجيك حتى نهر بسه زوابا وكان لديهم قيصر باسم ستاتشيمفلاس، عينّه امبراطور بيزنطي.

باختصار، بحلول القرن الثامن الميلادي، كان أجداد الأديغة معروفين تحت الاسم الجماعي " زيخ " وكانت لديهم بلاد مهمة على الساحل الشرقي للبحر الأسود.

يستقي نيمان ولوباتينسكي كلمة " زيخ " من كلمة " تسيف " (انسان) الأديغيه، ويرى لوباتينسكي الاسم " دزيخ " في الابخازية " زوخوتي " - الشركسية آزخ – وا – شراكسة. سواء كانت هذه هي الحالة أم لا، فإن الأسماء القبلية العديدة التي وجدت سابقاً في القفقاس الشمالي الغربي، اختفت فعلياً من المصادر الأدبية بحلول القرن الثامن الميلادي، فيما عدا الاسم " الزيخيون ". سرعان ما خلفه الاسم " أديغه ". في رأي إس. خوتكو، فإن تسمية أديغ قد انطلقت من الاسم " يازيغ ".

يشير كونستانتين باغريانورودني (القرن العاشر) إلى مجرد شعبين كبيرين، الزيخ والأباظه، على الساحل الشرقي للبحر الأسود. يدعي بأن نهر اوروخ (الظاهر أنه واحد من روافد الكوبان) يقسم زيخيا إبتداءاً من تاماتارخا. يذكر المسعودي (القرن العاشر)، الشعب الكاماكيت ( الزيخي ). بحلول القرن العاشر، كانت الأراضي التي استقر فيها الزيخ محاذية للبحر الأسود، ابخازيا، سلسلة جبال القفقاس وآلانيا. امتدت منطقتهم لمسافة ٣٠٠ ميل بمحاذاة ساحل البحر الأسود، من مصب الكوبان في تامان حتى نهر نشه بسيخو، الذي توجد مدينة نيكوبسيا على مصبه.

يعكس التوسع الاقليمي الكبير للزيخ بوضوح عملية توحيد قبائل الأديغة المحلية على ساحل البحر الأسود. حسب رأي إس. خوتكو " أصبح الاتحاد الزيخي أساس تكوين أمه الأديغة ".

**الاتحاد القبلي الكاسوغي:** بعد الاتحاد القبلي الزيخي، والذي فشل في توحيد كامل سكان القفقاس الشمالي الغربي، ظهر اتحادان قبليان آخران: الكاسوغي إلى الشمال في مناطق الكوبان الداخلية، والأباظي في الجنوب الشرقي.

أول ذكر للكاسوغ ( الروايات: كوسوغ، كاساخ، كاشيك، كاشاك، كاسوغد، كاسوز، ألخ ) يرجع إلى القرن الثامن الميلادي. حسب بعض المعلومات، فقد أعطى الآلان هذا الاسم إلى الأديغة، بحلول القرن العاشر، وصلت " بلاد كازاخيا " غرباً إلى نهر لابا، حيث حدودها مع آلانيا. تضع اللقى الأثرية الكاسوغ، منذ أوائل العصور الوسطى، في المنطقة الجبلية لشمال غرب القفقاس وعند سفوح التلال على الضفة اليسرى لنهر الكوبان. كان جزء من الكاسوغ يخضع اسمياً للخزر، الذين أسسوا جذوراً لهم في القفقاس الغربي منذ القرن السابع. يطالب قيصر خزاريا جوزيف أن يدفع الكاسوغ الجزية له. رغم ذلك اضطر الخزر للبقاء يقظين وقلقين على الدوام على مسألة الدفاع عن مناطقهم ضد غزوات قبائل الأديغة الميالة إلى الحروب.

يشير كونستانتين بروفيروجينيتس إلى ثلاثة أقاليم واسعة في زيخيا، وهي واقعة الواحدة تلو الأخرى في العمق الرئيس، بعد زيخيا مباشرة، والتي احتلت شريطاً ساحلياً ضيقاً، يذكر بابا جيا، وخلفها كازاخيا. حسب رأي إس. خوتكو " اسم الأخيرة يتوافق مع الاسم الإثني " كيشاك " للمسعودي، " كاسوغ " في المراجع الروسية. أغلب الاحتمالات ان كازاخيا، كانت تشغل كامل منطقة ما وراء الكوبان. وفي هذه الحالةفإن كازاخيا تتوافق مع منطقة ياس – الاتحاد القبلي الآلاني الغربي.

"كقاعدة، تقسم المصادر آلانيا إلى أقسام ثانوية في قسمين غربي وشرقي. آلانيا الغربية، من ماتريجا إلى زيلينتشوك وتشملها، كانت مسكونة من قبل المدعوين شعب ياسي، الذين يرى فيهم الباحثون الأديغة – الأبخاز.

في القرن العاشر، كان الكاسوغ والزيخ يمثلون اتحاداً قوياً لقبائل الأديغة، توحدهم لغة واحدة، وثقافة واحدة ومنطقة مشتركة، شغلوا مساحة واسعة من شبه جزيرة تامان في الغرب إلى آلانيا في الشرق ومن ابخازيا في الجنوب الشرقي إلى هضاب قفقاسيا الغربية في الشمال اتصلوا هناك بالبدو الرحل من أصل تركي.

ينهض الكاسوغ دائماً كرجل واحد دفاعاً عن وطنهم الأم، كلما هددهم عدو من الخارج. حدث ذلك عام ٩٥١، عندما هاجمهم خيفين خان. أخذ الخان أسيراً في هذه الحرب، قطع رأسه، ووضع إلى جانبه درع كتب عليه " هذه جائزة الغازي لبلاد أناس آخرين". كانت للكاسوغ علاقات سياسية، ثقافية وتجارية عميقة مع الشعوب المجاورة. كانت لتشكيلاتهم السياسية علاقات تحالف وكانوا منهمكين لعدة مرات، مثلاً، في الصراع ضد الخزر. لم يستطع الكاسوغ ان يتعايشوا بشكل خاص مع حقيقة تأسيس إمارة أجنبية على أرضهم. عام٩٤٤ ، احتل أمير كييف، فلاديمير تاماتارخا شبه جزيرة تامان وأسس عليها إمارة روسية مركزها تموتاراكان/ تامان/. لم يكن هذا الأمر في مصلحة ريديدي، قائد الكاسوغ، الذي نجح في ذلك الوقت في كسب خضوع جميع قبائل الأديغة ذات القرابة.

عام ١٠٢٢، زحف الأمير مستيسلاف على كاسوغيا بجيشه الروسي، وواجهه الأمير ريديدي، قائد الجيش الكاسوغي وقال: " لماذا يتوجب علينا أن نسيل دماء رجالنا الأبرياء؟ دعنا، انت وأنا، نتصارع بدون سلاح، وسيعتبر الفائز متنصرا في المعركة وسوف يمتلك كل ما لدى الآخر ". قبل مستيسلاف العرض النبيل. وضع القائدان اسلحتهما جانباً وباشرا التصارع. سرعان ما أدرك على أيه حال، مستيسلاف أنه سيخسر المباراة، فخان كلمة الشرف. تناول "السيهيجة" المخضبة وطعن ريديدي الأعزل فقتله. نتيجة لذلك، اضطر الكاسوغ إلى دفع الجزية للأمير مستيسلاف لبعض الوقت. على أية حال، بحلول العام ١٠٣٠ بدأت الإمارة الروسية تضعف. استغل الكاسوغ الموقف، وقرروا الانتقام من الروس لمقتل الأمير ريديدي، وشنوا حرباً دموية بمساعدة ٦٠٠٠ مقاتل منتقى أرسلهم الياسو- أوسيتين، حيث تم طردهم.

في القرون من العاشر إلى الثالث عشر، سمَّت السجلات الروسية قبائل الأديغة "كاسوغ" وتحدثت عنهم فيما يتعلق بحوادث عديدة مهمة في روسيا الجنوبية.

**اتحاد القبائل الأباظي**: الرأي التقليدي للمؤرخين هو أن مجموعة الناس الابخاز - أباظه، وذات العلاقة الوثيقة بالأديغة، شكلت الاتحاد القبلي الأباظي. على أيه حال، يعتقد بعض العلماء أن تسمية " أبازي" أكثر انطباقاً على الأباظه منها على الأبسيل. مع ذلك، فقد ضم اتحاد القبائل الأباظي نفسه بعض القبائل التي عاشت في أقاليم الكوبان الجنوبية - الغربية. يقال أن المجموعة الإثنية ما قبل الأبخاز - أديغه قد انقسمت إلى ثلاث مجموعات: الأبخاز، الوبيخ، والأديغة، عند حدود الألفين الثالثة والثانية قبل الميلاد، وأنه يفترض أنها تطورت بدرجة تحسد عليها من المحافظة على المنجزات. يذكر مؤلفو الأزمنة القديمة عدداً

كبيراً من القبائل الآخيون، الهينيوخ، ومنذ القرن الميلادي الأول – الزيج – السانيج الأباظه، والابسيل. حدث انتقال كبير من الشمال إلى الجنوب، لقبائل ما قبل الابخاز – أديغة حوالي عام ٥٠ قبل الميلاد. يشهد على هذا ليس فقط تهجير الكيركيت، بل كذلك ظهور الزيج على أماكن سكناهم من مناطق الهينيوخ والكولشيد. بحلول القرن الخامس الميلادي، يقوم الزيج والإباظه إما بدفع باقي القبائل الأخرى خارجاً أو باحتوائها وتأسيس زيجيا وأباظيا على ساحل القفقاس على البحر الأسود. كتب فلافيوس أريانوس عام ١٣١ "الأباظه يجاورون الأبسيل البيزنطي، ولديهم القيصر يسماغ". في القرن الميلادي السادس، يلاحظ بروكوبيوس القيصري، المؤلف وجود البروخ (الوبيخ) في المنطقة بين اباظيا وزيخيا.

حسب رأي جي. كيسلينج "قامت قبائل السارمات، الأباظه والأبسيل بغزوة أخرى ذات نطاق كبير على ممر داريل، استقروا في مقاطعة كولشيدا الشمالية (كولشيس) ثم تحركوا إلى الشمال قليلاً. وهكذا، وصل الأباظه بالكاد إلى ديوسكوريادوس (سوخومي الحالية) في زمن اريانوس. بشهادة بسيودراريانوس (القرن الخامس) فقد وصلوا إلى نهر أباسجوس (بساو). في القرن السادس، في عصر بيزنطة، انتشر الأباظة صعوداً إلى نهر نيكوبسيا، طاردين السانيج نحو المنحدرات الجنوبية لجبال القفقاس، حيث استقر الأخيرون في أراضي الكوبان بين الزيج والهون. وهكذا، يصبح الأباظه جيران الزيخ أو الزيج، ولا يبقى على الساحل سوى اسمان: زيخيا وأباظيا.

المؤرخون غير دقيقين في الإشارة إلى الفترة التي بدأ فيها الأباظه يسمون بالأبخاز. ولا يذهبون إلى أبعد من عبارة أن الأبخاز والأديغة ينتمون إلى نفس المجموعة الإثنية أو يحاولون دراسة وكتابة تاريخ مختصر جدا للشعب الأبخازي ضمن تاريخ شعب الأديغة (الشراكسة).

حسب الأعمال البحثية للمؤرخ الفرنسي بروسه، يكتب اس. خوتكو " ان التاريخ لجورجيا أثناء العصور الوسطى تصوره سيطرة الابخاز والأرمن. يعطي بروسه اهتماماً خاصاً لاربعمئة سنة من تاريخ إمارة تفليس. حسب رأي بروسه، فان تسلسل المملكة الابخازية، يبدأ منذ نهاية القرن الثامن وحتى عام ١٠٨٩. يشير كذلك الى الأصل القباردي للعائلة الحاكمة أنشبا (انشابادزه)، والذي لم يذكره المؤرخون الابخاز ولا الجورجيون ".

يشرح بي. إي. ألين هذه المرحلة الانتقالية من المملكة الابخازية الى الجورجية باسهاب (في ثمانينات وتسعينات القرن الحادي عشر). يؤكد تحديداً على جبروت حكام ابخازيا،

الذين لم تخضع اراضيهم للدمار السلجوقي، الأمر الذي جعل نظام داود الباني الاستبدادي ممكناً. مثل بروسه، يشير الين الى الاصل القباردي لسلالة الليونيد.

بدأ باغرات الثالث ( ٩٧٥ – ١٠١٤ ) في صنع قائمة ملوك الأبخاز، الليونيد. كان باغرات الملك الأول من السلالة الجديدة من الملوك الابخاز، عند بداية القرن العاشر – الحادي عشر الميلادي. في البداية تمثل القائمة اسماء ملوك ابخازيا في حدودها الإثنية، وبعد ذلك، ابتداءً من ليون أبازغ، تحتوي القائمة على اسماء الملوك، الذين امتلكوا ليس فقط ابخازيا، بل جورجيا أيضاً. يضم ديوان الملوك الأبخاز ٢١ إسماً:

١) آنوس، ٢) غوزار، ٣) إيستفين، ٤) فينيكتيوس ٥) بارنوك ٦) ديميتري ٧) ثيودوسيوس ٨) كونستانتين ٩) ثيودور ١٠) كونستانتين ١١) ليون ١٢) ثيودوسي ١٣) ديميتري ١٤) جورجي ١٥) باغرات ١٦) كونستانتين ١٧) جورجي ١٨) ليون ١٩) ديميتري ٢٠) ثيودوسي الأعمى و ٢١) باغرات باغراتيوني. " ابن المبارك غورغن، ابن إبنة الملك جورجي ملك الابخاز، أصبح مالكاً لبلاد ابخازيا، وقال عند توليه الحكم: "أصبحت ملكاً كإرث من أمي، والى أي زمن سأحكم كملك، الله وحده يعلم! "

"اضطر الملك الابخازي الأول ان يخوض حرباً طويلة ومستمرة للاستقلال لمملكته وشعبه ضد عدد كبير من العمليات الحربية للجيوش العربية عند نهاية القرن السابع". عندما استولى العرب على الحصون الأبسيلية في مضيق وادي كودور، وهم يحاولون الاستيلاء على ابسيليا واباظيا، قاد الامير ليونيد الجيش الأباظي هناك لمساعدة الأبسيل. يقول كل من خيتوم وجوانشير، المؤرخين الأرمن، ان مروان كرو، القائد العربي العسكري، دخل حدود اباظيا عام ٧٣٦ وهو يطارد الملوك الكارتليين وآرشيل. حدث اللقاء الحاسم في منطقة حصن اناكوبي، مكان اقامة الأمير ليون، القائد العسكري للاباظه،" انتهت المعركة بين الاباظه والعرب بانتصار الأول". بفضل ذلك الفوز، اكتسبت المملكة الابخازية شهرة عظيمة وسلطة دولية. يصف "ماتياني كارتليس" (سجل كارتليس) الذي ربما تم تجميعه في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، تكوين مملكة الابخاز كما يلي " عندما ضعف الإغريق، انفصل عنهم "اريستاف" الابخاز المسمى ليون، ابن شقيق اريستاف ليون، الذي اعطيت له ابخازيا كإرث. ليون الثاني هذا كان ابن إبنة ملك الخرز. وهكذا انفصل ليون الثاني، بمساعدة الخرز، عن الإغريق واستولى على ابخازيا وإجريزي. بعد ذلك، استخدم ملوك

الأبخاز الظرف السياسي السائد في بلادهم بمهارة لتوطيد سلطتهم على المناطق المعادة لهم – إجريزي (سايجرو)، جوريا و ايميريتيا (ساموكالاكو). وفي هذه الحقبة انتشر اسم الأبخاز على جميع سكان المناطق الجورجية الخاضعة لهم.

توفي الملك ليون عام ٨٠٦، ورث العرش ابنه ثيودوسيوس وحكم حتى ٨٢٥. كانت الجماعات المتصارعة ذلك الوقت هي الابخاز برئاسة ثيودوسيوس والعرب برئاسة أمير تفليس. جاءت الضربة العسكرية والسياسية الكبيرة الثانية التي انزلها الابخاز بالعرب في الهزيمة على نهر كساني.

حدثت حرب ابخازية - عربية أخرى اعوام ٨٥٢ – ٨٥٤. جرت المعركة الرئيسة لهذه الحرب في كويتشخوبا ( ٨٥٣ )، بين جيوش الخلافة بقيادة المملوك الجنرال بغا التركي والابخاز، حيث انهزم الأبخاز. رغم ذلك، تبعت المعركة جولة ثانية من الصراع حول كارتلي في السبعينات.

في ذلك الوقت (٨٦١ -٨٦٨) كان جورجي ملك ابخازيا يمتلك اقليم كارتلي. ترك باغرات، نجل شقيقه ديميتري " اريستافي " في تشيخا. كان صغير السن. جرت محاولة لاغتياله من قبل اتباع زوجة الملك جورجي. حاولوا اغراقه في البحر، لكن باغرات الصغير تمكن من النجاة وهرب الى بيزنطة، حيث وجد ملاذاً في البلاط.

نتيجة لذلك، استولى ممثلو عائلة شافلياني الاستقراطية، الذين كان لديهم اتفاق مع الملكة، ارملة جورجي، على السلطة في مملكة ابخازيا، وحكموها عشرين عاماً.

في الاثناء، كان الوضع الدولي يتحسن لمصلحة الليونيد. كانت انشطة بيزنطه السياسية في صعود. استغل باغرات، ابن ديميتري الوضع وغزا ابخازيا على رأس جيش بيزنطي، فاحتل كوتايس، عاصمة ابخازيا " قتل ادارناسه واستولى على ابخازيا " وهكذا، عاد باغرات، الوريث الشرعي لسلالة الليونيد مرة أخرى الى عرش المملكة الابخازية في نهاية الثمانينات. توفي عام ٨٩٣ وترك العرش لابنه كونستانتين، الذي حكم حتى ٩٢٢.

في السنة الأولى لحكمه، حل الملك كونستانتين النزاع الابخازي - الأرمني حول ملكية كارتلي لصالحه، وتحرك الى الحدود الشرقية لاقليم كارتلي، ثم استولى على كامل منطقتي كاخيتيا وايريتيا. أصبح ملك هذين الاقليمين، كفاريك الأول ( ٨٩٣ – ٩١٨ ) واديرناسه باغراتيوني( ٩٠٦ – ٩٤٣ ) تابعين له. وهكذا اصبحت ابخازيا اثناء حكم الملك كونستانتين الدولة الأقوى عبر القفقاس والاقليم الجنوبي الكامل المجاور له.

بعد وفاة كونستانتين، ذهب العرش الابخازي الى نجله الأكبر جورجي الثاني (٩٢٩-٩٥٧) "الذي كان متمتعاً بجميع البركات " مثل الشجاعة، الكرم والعطف. لكن، على اية حال، سرعان ما حصل انشقاق سلالي بينه وبين شقيقه الأصغر باغرات، الذي ولد من زواج ثانٍ لكونستانتين من ملكة ارمنية. عندما انتهى الصراع الداخلي بموت باغرات، وضع الملك جورجي نظاماً صارماً لمملكته. حوالي عام ٩٣٠، " أعطى جورجي، ملك الابخازيين، كارتلي الى نجله الاكبر كونستانتين. "يقول اس. ختكو" في معظم الروايات حول "جيتيا غروزي" (حياة جورجيا) فان هذه القصة معنونة كما يلي " كونستانتين، الملك الخمسون لكارتلي، نجل ملك الابخازيين " عندما حاول كونستانتين أن ينازع أباه على عرش ابخازيا، عاقبه الملك جورجي بقسوة، وعين ابنه الثاني ليون ملكاً على كارتلي. توفي كونستانتين بعد ذلك بقليل من شدة التعذيب.

كان للملك جورجي الثاني أربعة ابناء: كونستانتين، ليون، ديمتري، ثيودوسيوس وابنة واحدة، جوراندوخت. طبيعي، بعد الموت المفجع للابن الاكبر، ورث العرش ليون ( ٩٥٧ - ٩٦٧ ) الثالث عن أبيه، جورجي.

المشكلة الرئيسة التي ترتب على ليون الثالث مواجهتها هي النوايا الانفصالية للملوك الصغار نصف المستقلين لمنطقتي تاو- كلارجيتي وكاخيتيا، كان الأول مدعوماً ببيزنطة، والآخر بارمينيا. قام بغزو كاخيتيا بجيش ضخم، لكنه مرض ومات.

ورث ديميتري الثاني (٩٦٧ - ٩٧٥) العرش عن ليون، لكنه اضطر الى مقارعة أخيه الأصغر ثيودوسيوس بدون توقف، فقد كان هذا مدعوماً من قبل كارتلي، تاو - كلارجيتي وكاخيتيا. كانت حكومة كوتايس المركزية قوية بما يكفي للتصدي لنزعة الانفصال المحلية، لكن ليس للتغلب على القوى الخارجية المتعاظمة. جلب ضعف الحكومة عملاً آخر من أعمال القسوة، القى ديميتري القبض على أخيه ثيودوسيوس بالحيلة، ثم احرق عينيه. رغم ذلك مات ديميتري بدون أن ينجب اطفالاً، وهكذا يصبح ثيودوسيوس الاعمى الثالث (٩٧٥ - ٩٧٨) الوريث الوحيد لعرش ابخازيا. أصبح آخر ملك في سلالة الليونيد وانتهى نظام وراثة العرش للذكور.

"هاجم اصحاب الاملاك في كاخيتيا مدينة كارتلي في اول سنة من حكم ثيودوسيوس الثالث. كشف ايوان ماردشيدزه، نائب ثيودوسيوس في كارتلي، عن عدم لياقته لمقاومتهم. نتيجة لذلك عين ثيودوسيوس شقيقته جوراندوخت على عرش كارتلي. في نفس السنة

٩٧٥، تنازلت جوراندوخت عن العرش لابنها باغرات. حدث هذا تحت ضغط من دافيد كوروبالات، صاحب املاك تاو- كلارجيتي، الذي ساعدت قواته المسلحة على انقاذ كارتلي من الكاختينيين. لان باغرات كان دون السن القانوني، تم تعيين والده جوغرين باغراتيوني، قريب او حتى شقيق دافيدكوروبالات وصياً عليه. مما خلق وضعاً استثنائياً جداً.

في الاعوام ٩٧٥ – ٩٧٨ في ثلاثة أقاليم: تاو- كلارجيتي، كارتلي، وابخازيا - لم يكن لدى الأقاليم الثلاثة وريث مباشر من الذكور. كذلك لم يكن لدى دافيد كوروبالات اطفال مثل ثيودوسيوس الأعمى. بالنسبة لباغرات، اصبحت الخطوة الأولى نحو العرش في كوتايس هي التتويج في اوبليستسيخ، المركز السياسي لكارتلي في ذلك الوقت. يقول السجل التاريخي "في ذلك الوقت (٩٧٥) حكمت الملكة جوراندوخت في اويلستسيخ وكارتلي. كانت هذه الملكة إبنة جورجي وأم باغرات، ملك وملكة ابخازيا ". وهكذا اصبح اول لقب لباغرات هو" ملك الكارتليين".

في هذه الأثناء، مرت ثلاث سنوات على حكم ثيودوسيوس في ابخازيا. وجرى الاعتراف بحكمه في كارتلي، حيث كان يحكم ابن شقيقته، بالإسم فقط. " أصبحت هذه البلاد (يقصد بها المملكة الابخازية) مقسمة، وكذلك تغيرت كل التقاليد والأوامر الصادرة عن الملوك الأوائل. عندما رأى القياديون في البلاد كل ذلك، اصيبوا بحالة إحباط" في النهاية، اتخذ عدم الرضى شكل انقلاب عام ٩٧٨، حين قامت الارستقراطية الابخازية باستبدال ثيودوسيوس واستدعت ابن شقيقته "اخذوه الى ابخازيا، منحوه بركاتهم على العرش وانصاع كل منهم لأوامره، فقد بلغ السن القانونية".

اتخذ باغرات لقب "ملك الابخاز والكارتليين" بعد احتلاله كوتايس، وكما نرى، فقد عَّرف باغرات عن نفسه بالملك الابخازي. قرر أن يثبت خلافته لليونيديين "ديوان الملوك الابخاز" على اساس ما قيل آنفاً، يمكن اجراء الاستنتاج الطبيعي حول عضوية باغرات الابخازية. لم يحكم والده اي مكان، بل كان مجرد الزوج لملكة ابخازية، وهكذا انتمى الى سلالة الباغراتيين. استدعى هذا الأمر استبدال عائلة حكام السلالة الابخازية وخلال السنوات المائتين وخمسين التالية، حكمت المملكة الابخازية من قبل الاحفاد المباشرين لباغرات الثالث (٩٧٨ - ١٠١٤) - الباغراتيون.

"ضمن هذا المحتوى، فان أصل الأب غير ذي تأثير كما يلي في حالة جورجي لاش (١٢١٣ - ١٢٢٢) الذي تلقى الميراث من والدته -الملكة تمارا - والذي كان ابوه، الأمير الآلاني سوسلان، الزوج، ولكن ليس الملك. اكثر من ذلك، وحسب التقسيم المرحلي لكل من ام. اف بروسه، و في. الين، اللذين قاما بالعمل الرئيس في تاريخ جورجيا، فقد دامت المملكة الابخازية حتى صعود دافيد الباني الى العرش عام ١٠٨٩".

"الملوك الابخاز في القرن الحادي عشر" ورث باغرات كارتلي أولاً ثم كامل مملكة ابخازيا. حاول ان يكسب ود كارتلي وتاو وكاخيتي المعادية بشكل تقليدي. بعد وفاة الوصي عليه، دافيد كوروبالات، احتل تاو عام ١٠٠٨. حكم باغرات اراضيه الموحدة لست سنوات اخرى ومات عام ١٠١٤.

خلف باغرات نجله جورجي (١٠١٤ - ١٠٢٧). كان في الثامنة عشرة عندما ورث المملكة المنقسمة الى اثني عشر اقليم معادٍ. اضطر الى اعادة احتلال كاخيتي وايريتي. رغم ان مملكة ابخازيا كانت الجهاز السياسي الأقوى في القفقاس، الا ان الشاب كان مجرد واحد من الطغاة المعادين في المنطقة مابين البحرين الاسود وقزوين، وبحيرة فان.

كانت آلانيا الحليف الرئيس لملوك ابخازيا في صراعها ضد المملكة الارمنية، كما كان الوضع في القرن العاشر السابق.. كانت كوتايس عاصمة الباغرات الابخاز. هدد الملوك الابخاز سلالة الدوناور في كاخيتي. في القرن الحادي عشر، كانت المشكلة الرئيسة لملوك ابخازيا هي الاوربيليين الاقوياء، وهم ارمن بالأصل والتوجه الثقافي والسياسي. لقد تسببت المشاعر الانفصالية لهذه العشيرة الاقطاعية القوية في ايقاف عملية التشكيل والتطوير لمملكة الابخاز الفريدة لقرن كامل.

ألغى التدخل البيزنطي القوي وجود الباغرات الأرمن كمنافسين للابخاز للسيطرة على جورجيا: عام ١٠٢١ وصل الامبراطورية فاسيلي الثاني الى مدينة ثيودو سبوليس، قرب الحدود الجنوبية لمملكة الابخاز. كان ينوي حل مشكلة الحدود مع جورجي اباسج والحصول منه على اعتراف بالسلطة البيزنطية. جاءت المفاوضات غير مثمرة فقام الجيش الامبراطوري الهائل بغزو سامتسخا، المقاطعة الجنوبية لمملكة الابخاز. أظهر اباسج أنه اقوى بكثير مما توقعه الامبراطور. ساند المسلمون في تفليس وشاكي الملك الابخازي. قضى الجيش الامبراطوري الشتاء في طرابزون وهاجم مرة أخرى في ربيع عام ١٠٢٢ وربح المعركة.

هرب الملك جورجي، لكن فاسيلي لم يزحف على مملكة الابخاز. بدلاً من ذلك وقّع الصلح مع جورجي، الذي اعترف بالاعتماد الرسمي على بيزنطه، قدم نجله باغرات كرهينة لثلاث سنوات وتنازل عن تاو - كلارجيتي للامبراطورية.

تزوج جورجي مرتين: تزوج في المرة الأولى مريم، الأميرة الارمنية، في المرة الثانية، تزوج آلده، الأميرة الآلانية. انجب من الأولى ثلاث فتيات اضافة الى باغرات: مارتا، جوراندوخت وكات. ومن الزواج الثاني، ابنه ديميتري. توفي جورجي الأول عام ١٠٢٧ في سن الحادية والثلاثين، وترك المملكة لابنه باغرات، البالغ من العمر تسع سنوات.

اتصف حكم باغرات الرابع ( ١٠٢٧ – ١٠٧٢ بتقوية اعتماد " مملكة الابخاز والكارتليين ) على بيزنطه. بعد الغزو المدمر لجيش الامبراطور كونستانتين السابع، تبع ذلك الضغط الدبلوماسي لخلفيته رومان الثالث أغرير. في القسطنطينية، استقبلت الملكة مريم ارتسروني التي تحكم نيابة عن ابنها، بالحفاوة والتكريم. لبى رومان الثالث لها جميع رغباتها: أنعم على باغرات الرابع بلقب كوروبالات وقدم ابنة أخيه ايلينا كزوجة له.

قام ديميتري بتحريك الثورة ضد الملكة مريم حوالي عام ١٠٣٢. عقدت مفاوضات معه من خلال الازناور، لكن لا الملك باغرات، و لا أمه، ولا حتى الشخصيات البارزة في مملكة الابخاز استطاعوا ان يستميلوه. بدلاً من ذلك، عندما فقد ديميتري الأمل في النجاح بمحاولته، ذهب الى ملك الاغريق وقدم له قلعة اناكوبيا.

كانت قلعة اناكوبيا، العاصمة القديمة لملكة ابخازيا (خلال الليونيد الأوائل)، الحلقة الرئيسة في نظام الدفاع عن الحدود الشمالية للمملكة. جعلت خسارة هذه القلعة المهمة استراتيجياً ابخازيا تعتمد على القسطنطينية كلياً. رغم ذلك، فقد اظهر الملك باغرات قوة شخصية، وتجاهل جميع مشاريع التحالف مع بيزنطه، التي اقترحت من قبل والدته، وتزوج بورين، الأميرة الآلانية، وهكذا قوّى مركز المجموعة المعادية للمجموعة البيزنطية.

عام ١٠٣٨ قام جيش الملك باغرات بمحاصرة تفليس، استمر الحصار سنة كاملة، لكنه أوقف نتيجة خيانة اوربيلياني الذي ابرم اتفاقاً مع جعفر.

عام ١٠٣٩، تشكل تحالف من البيزنطيين برئاسة ديميتري، الكاخيتيين برئاسة ليباريت ومسلمي تفليس ضد الملك باغرات. وصل ديميتري الى سامستسخ مع جيش اغريقي. انضم اليه ليباريت هناك. هزم الملك باغرات الجيش المتحد لخصومه ثم حاصر أناكوبيا.

خلال هذا الوقت، توفي جعفر امير تفليس وحضر وجهاء تفليس الى معسكر باغرات عند اسوار اناكوبيا " وعده (الباغرات) بالمدينة و استدعوه على عجل. ذهب الى هناك. بعد أن عيَّن كوابوليل شاشاسدزه اوتاغو على رأس الجيش المحاصر لأناكوبيا " وهكذا، استولى باغرات عام ١٠٣٩ على تفليس لفترة قصيرة.

قام ديميتري، المطالب بعرش ابخازيا، بغزو ابخازيا مرة أخرى على رأس جيش بيزنطي وهزم باغرات المدعوم من قبل آلانيا. توفي ديميتري في نفس السنة – ١٠٤١).

عام ١٠٤٢، عانى باغرات من هزيمة أخرى على يد ليباريت اوربيلياني، لكن وضعه تحسن لأنه تخلص من مؤامرات شقيقه – منافسه. ساعد الخوف من غزوات البدو الرحل في توحيد الطبقة الابخازية الحاكمة. عام ١٠٥٠، ذهب باغرات الى القسطنطينية باحثاً عن دعم ضد السلاجقة، وبقي هناك لمدة ثلاث سنوات. خلال هذا الوقت، احتل السلاجقة قارص ودمروا مقاطعة تاو. عام ١٠٥٣، نزل باغرات في خوبي على رأس قوة بيزنطية وباشر العمليات العسكرية ضد اعدائه القدماء، آل اوربيلياني. عام ١٠٥٦ تمكن باغرات أخيراً من تدمير الليباريت وبحلول عام ١٠٦٠، اصبحت كافة تحصينات كاخيتي و إيريتي بين يديه.

اصبح العدوان التركي عاملاً مهماً في توحيد نظامين ملكيين مسيحيين مهمين في الاقليم: الامبراطورية البيزنطية ومملكة الابخاز. تم تدعيم هذا التقارب بزواج ميخائيل، نجل الامبراطور قسطنطين العاشر دوق، مارثا، إبنة باغرات، التي تظهر في الدواوين البيزنطية على انها "مارثا من أباظيا". في تشرين الثاني عام ١٠٧٢، توفي باغرات الرابع، ملك ابخازيا، نتيجة مرض في معدته.

تزامن حكم الملك الجديد، جورجي الثاني مع ثورات الأسياد الاقطاعيين في كاخيتي، زايريتي وسفان. ترأس الاخوان اوربيلياني ايوان ونانيا ثواركاخيتي، بينما ترأس فاردان، "ايريستاف" سفانيتي، المتمردين الجبليين. لقي العصيان نجاحاً كبيراً وهدد وجود المملكة الابخازية برمته. فجأة وصل السلاجقة لمساعدة الحكومة المركزية. هزم مالك شاه، السلطان السلجوقي اوربيلياني وارسل بعثة عسكرية الى كارتلي.

عام ١٠٧٣، سدد جورجي ضربة مؤثرة الى القوات السلجوقية المحلية في فارتز جيسي على نهر الجيتي. كذلك "استعاد اناكوبيا من الإغريق، وهي أهم التحصينات في ابخازيا". بعد ذلك احتل جورجي جميع الموانئ البيزنطية الأخرى وطرد باقي الحاميات البيزنطية من شافشيتي، كلارجيتي وجافا خيتي، ثم استولى على قارص المدمرة والمناطق المجاورة لها.

على اية حال، عام ١٠٨٠، هاجم مالك شاه جيش الملك الابخازي بشكل مفاجئ، قرب بلده كفيلي على نهر جاغيس – تيغالي،وهزمه. هرب جورجي مع مفرزة صغيرة العدد، واختبأ في ابخازيا، حيث استمر في مهاجمة العدو من هناك. تخلى الاتراك عن اراضي المملكة الابخازية، لكنهم احتفظوا باقاليمها الشرقية (كاخيتي وايريتي) والجنوبية ( تاو-كلارجيتي) ،حيث ابقوا فيها حاميات قوية. في السنة نفسها، ذهب جورجي الى اصفهان، حيث ادى يمين التبعية للسلطان مالك شاه. عام ١٠٨٩ قام النبلاء الابخاز بخلع جورجي عن العرش وسلموه الى نجله دافيد (داود) البالغ السادسة عشرة من عمره.

**الملوك الابخاز – الكارتليون:** منذ بداية النصف الثاني للقرن الحادي عشر، بدأ الاسم الإثني " جورجي " ( كرج ) يظهر في المصادر الاسلامية للدلالة على الاقاليم الكارتفلية لعبر القفقاس. أطلق المؤلفون المسلمون صفة "جورجي" على جميع سكان المملكة الابخازية خلال القرون من الحادي عشر وحتى الرابع عشر، ولكن لاحقاً، بعد تفككها في منتصف القرن الثالث عشر، اطلقوا التسمية على جميع سكان الامارات الجورجية. ولم تحصل التسمية "جيورجي" على معنى وطني الا في اواخر العصور الوسطى (القرون من الخامس عشر وحتى السابع عشر) واصبحت إسماً للجنسية الكارتفلية (الجورجية) وبلدها.

يجب مقارنة تطور التسمية "جورجي" مع تسمية "أبازج". كانت تسمية "أبازج"، "أباسج" مليئة منذ البداية بمعاني إثنية: فقد كانت إسماً قبلياً. وكانت بلاد ابازجيا (اباظيا) بشكل محدد هي بلد الابخاز، تسكنها هذه الاثنية وحدها، ولا أحد غيرها: البلد العائد الى السكان الاثنيين حملة نفس الإسم. بمرور الزمن في القرنين التاسع والعاشر، عندما بدأ التوسع الابخازي على المناطق التي يقطنها المنجريليون، السفان والكارتفليين، تلقت تسمية " ابازج – ابخازيا " تفسيراً عريضاً في السجلات البيزنطية والارمنية والكارتفلية. لم تطلق التسمية على القبيلة الحاكمة وحدها ابخازيا ( اباظه)، بل كذلك كل اولئك الذين اعترفوا بنفوذها: المنجريليون، الجوريان، الراشين، السفان، اللاز، الإيميريون، الكارتيون وغيرهم.

وهكذا، لم تحدث أية تغييرات، لا من وجهة النظر الإثنية ولا السلالية، في المملكة الابخازية على اعتاب القرنين الحادي عشر والثاني عشر. إذا بدأت المصادر الإسلامية تذكر أحياناً تسمية "جورجي" (كرجستان)، فهذا ليس اثباتاً كافياً على التحديد الزمني " للمملكة الجورجية " منذ بداية القرنين الحادي عشر والثاني عشر: أكثر من ذلك، ليس هناك اي اساس للحديث عن الباغراتيين الابخاز في القرن الثاني عشر، اضافة الى "الملوك الجورجيين" أو "ملوك جورجيا". لان الملك الأول الذي جرت في عروقه دماء كارتفليه، كان

دافيد أولو ( كلمة أولو، مترجمة عن اللغة المغولية و تعني "الاكبر" ) ، وهو الابن غير الشرعي لجورجي لاش. كانت ام دافيد أولو (١٢٤٥ – ١٢٧٠ ) إمرأة فلاحة كارتفليه عادية.

رغم ان الملك دافيد الرابع (١٠٨٩ – ١١٢٥ ) كان لديه جيش صغير، الا انه أرعب السلاجقة باستمرار. " توجت الهجمات الابخازية المستمرة على السلاجقة أخيراً بنصر رائع وطرد كامل للغزاة. لقد مهد النجاح العسكري والسياسي للمملكة الابخازية – الجورجية اثناء حكم الملك دافيد، مهد الطريق للرخاء - لعصر النهضة الابخازي - الجورجي في القرن الثاني عشر " حسب رأي إس. خوتكو.

لقد كانت المملكة الابخازية في القرن الثاني عشر نتاج الصليبيين من عدة نواحي. فقد كانت تحديداً الحملة الناجحة لنورمان فرنسا ضد المقاطعات الغربية للسلاجقة هي التي مكنت دافيد من اخلاء المقاطعات الابخازية من السلاجقة الذين استقروا هناك خلال الربع الأخير من القرن الحادي عشر. وهكذا، لم يكتف دافيد باعادة تأسيس السلطة السابقة للملوك الابخاز على الاراضي الجورجية، بل أيضاً حصل على السيادة على الأرمن والمسلمين. نقل دافيد العاصمة من كوتايس الى تفليس، الأمر الذي قصد به اشارة رمزية الى انتصاره على مسلمي القفقاس ". كان انهيار القوة العسكرية البيزنطية، انحلال السلالات الارمنية الحاكمة، إنحسار الطغيان السلجوقي وتراجع هجماتهم القوية على الصليبيين، جميعها عوامل مساهمة في تشكيل دولة دافيد الباني. لم يتمكن حكام جورجيا وارمينيا نصف – المستقلين من مقاومة الابخاز، الذين كانوا مقاتلين اشداء، شجعاناً ويتمتعون بجرأة لا تعرف الحدود. "ملك الغابة" هذا، كما سماه المؤرخون المسلمون، لم يكن سيد حروب العصابات فقط، بل أيضاً الصدامات المسلحة المفتوحة. انشأ جيشاً من المرتزقة المدربين بدرجة متميزة، قادر على خوض حروب الحصار الصعبة وكسبها وكان أيضاً سياسياً بعيد النظر، قادراً على اكتساب محبة مواطنيه المسلمين. كان عالماً بتعاليم الاسلام، حسب رأي محمد الحماقي، احد مؤلفي القرن الثالث عشر. كتب العيني في القرن الخامس عشر كسب قلوب السكان "، كان دافيد وابنه ديميتري، يؤمون المسجد الرئيس كل يوم، يستمعون الى الصلوات والمحاضرات عن القرآن الكريم، واعطوا الخطيب مالاً وفيراً، كما منحوا الاعطيات للمنجمين والمتصوفين والشعراء وخصصوا لهم رواتب تقاعدية ".

خلال السنوات الاثنتي عشرة الأولى من حكمه، كافح دافيد بشدة ضد المحاولات الانفصالية لكبار الأسياد الاقطاعيين. أدى القبض على ليباريت اوربيلياني ونفيه عام ١٠٩٧ ، ثم وفاة إبنه راتي بعد خمس سنوات إلى حرمان الانفصاليين من قائدين معترف بهما في

مقاومتهما لدافيد الطاغية. عام ١١٠١ حطم دافيد والي كاخيتي كفيريك الرابع، واستولى منه على قلعة زيدازاديني الحصينة. وفي عام ١١٠٤ سلم الأسياد الاقطاعيون كاخيتي الى دافيد بنفسهم.

عام ١١١٠، هرب السلاجقة من سومخَيتي، فجاء جيش حكام ايران السلاجقة لنجدتهم. ومع ان هذا الجيش اندحر، الا ان هجماتهم السنوية استمرت حتى عام ١١١٥، حين احتل دافيد روستافي، النقطة الحصينة لدى السلاجقة في وسط متكفاري.

عام ١١١٦، تمكن فرسان دافيد من دفع العدو خارج تاو وكلارجيتي، وعام ١١١٧ قام بحملة ناجحة على شيروان، وعام ١١١٨ احتل حصن لوري، الذي كان يمنح السلاجقة سيطرة على منطقة سامخيتي. في نفس السنة، هزم جيشاً سلجوقيا آخر على نهر اراكسيس. وارتفعت منزلة المملكة الابخازية -الجورجية دولياً نتيجة للسياسة الملكية: كذلك تزوج دافيد أميرة من القبجاك، كذلك تم تزويج احدى بناته، تمارا، الى شاه شيروان، وابنة أخرى، كاتا، تزوجت اليكسي، نجل نيشوفوروس (نكفور) الرابع.

حوالي عام ١١١٨، شكل دافيد حرساً ملكياً قوامه ٥٠٠٠ فارس - من القبجاق، الآلان، والكاسوغ. إضافة الى ذلك، دعا عدداً كبيراً من القبجاك للخدمة لديه، وقد شكل هؤلاء مع عائلاتهم حشداً من ٤٠،٠٠٠ شخص. اقطعوا اراضٍ في مناطق قليلة السكان في جورجيا وارمينيا، اللتين ضمتا الى مملكة الابخاز - الجورجيين قبل ذلك بقليل.

"كذلك انتهت حملات الصيف عامي ١١١٨ و ١١١٩ في شيروان وارضروم الجنوبية بالنصر لدافيد. جاءت ضربات الابخاز وحلفائهم القفقاسيين الشماليين ملحوظة ومتوقعة الى درجة ان حكام السلاجقة اعلنوا الجهاد عام ١١٢١. جرى تجنيد المقاتلين " محاربو الإيمان " في جميع الامارات ما بين الغانج وحلب. في آب عام ١١٢١، قام حاكم حلب الغازي ابن اورتوك، الذي كان احتفل لتوه بالنصر على روجرز ملك انطاكية، بغزو ترياليتي على رأس جيش كبير. هزم دافيد جيش الغازي ابن اورتوك قرب مانجليزي، وقد تسبب هذا النصر في سقوط تفليس بأيدي "الجورجيين". وقد كانت تفليس، التي إستسلمت في السنة التالية، مدينة اسلامية على مدى اربعمائة سنة.....

توفي دافيد الباني عام ١١٢٥. فقدت المملكة الابخازية قسماً من اقاليمها خلال حكم ديميتري (١١٢٥ - ١١٥٦)، نجل دافيد ووريثه. استرد السلاجقة آني وغانج مرة أخرى.

إن حكم ديميتري الثاني مدون بشكل سيء جداً في السجلات، خلفه ابنه الاكبر دافيد عام ١١٥٥. اصبح ديميتري الثاني راهباً. مات دافيد الخامس بعد ان حكم ستة أشهر. نتيجة

لذلك، صعد الى العرش جورجي الثالث (١١٥٦ - ١١٨٤) وهو الابن الأصغر لديميتري: كان قد تزوج الأميرة الآلانية جيراندوخت. بين ١١٦١ - ١١٦٦ تمكن جورجي الثالث من استعادة آني، دفين وقسم من شيروان من السلاجقة. تميزت سنة ١١٧٤ بحركات انفصالية: فقد حاول ديمن، نجل دافيد الخامس، الاستيلاء على العرش. وقفت الى جانبه العائلات الأرمنية الحاكمة - اوربيلياني وهامريكيلي. كذلك ساند الاسياد الاقطاعيون في كاخيتي وايريتي ديمن. كان مركز الثوار في المناطق الحدودية المجاورة لارمينيا، حيث ظل نفوذ عائلة اوربيلياني قوياً على الدوام. قام جيش الحكومة بسحق الجيش المتمرد في منطقة ايريتي... قبض على ديمن و أقصي ثم سجن، حيث مات بعد فترة قصيرة. وضع جورجي الثالث نهاية للعداء القائم لمئتي سنة بين السلالة الحاكمة وعائلة اوربيلياني، حيث منع ذكر اسمائهم في السجلات والدواوين الملكية.

قام جورجي اثناء حياته بتتويج تمارا، ابنته الوحيدة، وحكم بمشاركتها لمدة ست سنوات.

وهكذا، صعدت سيدة الى عرش المملكة الابخازية. في الوقت نفسه، كانت تمارا الممثل الوحيد في خط مباشر من سلالة الباغراتيين الأبخاز. وصلت "مملكة الابخازيين" الى ذروة اتساعها وقوتها اثناء حكمها ( ١١٨٤ – ١٢١٣ ).

يجب ملاحظة أن تمارا لم تظهر حكمة عظيمة واستقلالاً اثناء سنوات حكمها الأولى. فقد اطاعت نصائح عمتها روسودان في كثير من الأمور، واستسلمت لنفوذ الوجهاء الابخاز، فقد صمم هؤلاء على ان تتزوج تمارا الامير الروسي بوغوليوبسكي. عام ١١٨٧ قامت بتطليق هذا " الملك " اللواطي، ونفته من المملكة. عام ١١٨٩، تزوجت تمارا الآلاني دافيد سوسلان، الذي جمع في صفاته بين الحاكم والفارس. عام ١١٩٤ ولد ابنهما لاش (جورجي)، وعام ١١٩٥، ابنتهما روسودان. كان جورجي يدعى لاش في البيت، من قبل أمه. اسمته الملكة تمارا بهذا الإسم اضافة الى الاسم السلالي الذي يحمله. وصل التحالف الابخازي – الآلاني الى ذروته اثناء حكم الملكة تمارا.

وهكذا، كما يقول اس خوتكو " في عصر الملكة تمارا، اصبحت اللغة الابخازية رسمية، وربما اصبحت لغة البلاط الملكي".

عام ١١٩٠ – ١١٩١، حاول بوغوليوبسكي ان يستولي على السلطة في المملكة. اصبحت هذه المحاولة ممكنة بسبب دعم عدد كبير من الاقطاعيين المهمين والمسؤولين الاداريين. ترأس المعارضة فاردان دادياني وزير البلاط. يقول المصدر: "قام الجميع في سفانيتيا،

ابخازيا، سايغرو، (ميجريليا)، غوريا، ساموكالاكيا، راشيا، تاكفيريا واراغفيتيا. وبعد أن جمعوا قواتهم الى السانيج (ويقصد بها احتمال كونهم القبيلة الأديغة – الغربية جانه) والكاشاغ (القباردي)، باجبار الوجهاء وجيش البلاد على اداء اليمين برفع "الامير" الروسي على العرش والاعتراف به ملكاً ". لم يحافظ على الولاء لتمارا سوى الاسياد الاقطاعيون للمقاطعات الشرقية. أصبح وضع تمارا معتقداً للغاية لعدة اسابيع في صيف عام ١١٩١.

تصادف الهجوم الابخازي الجديد مع فترة " إعادة الفتح " الاسلامية بقيادة صلاح الدين، سلطان مصر وفلسطين، الذي اعلن الحرب على ملوك الشرق الفرنسيين وهزمهم. في الشرق الاوسط، اقام شاه خوارزم امبراطورية، والتي، رغم قصر فترة وجودها، اعادت الى الاسلام امجاد الخلفاء الاوائل. في الامارات السلجوقية في العراق والأناضول ( آسيا الصغرى ) تركزت السلطة في ايدي المرتزقة القفقاسيين، الذين، بصفتهم اتابك ( القائد الاعلى للجيش ) أو " سادة البلاط " حكموا بدلاً من السلاطين السلاجقة.

في حزيران عام ١٢٠٣، هزم الجيش الابخازي بقيادة دافيد سوسلان: جيش أبو بكر، اتابك اذربيجان قرب شامخور. استعاد شامخور، غانج ودفين وكل الاراضي الاسلامية الى الشمال من نهر اراكسيس،عادت السلطة المطلقة مرة أخرى إلى الابخاز في شخوص ملك ابخازيا كما كانت في ايام دافيد الباني، خلال عامي ١٢٠٥ – ١٢٠٦ حدثت صدامات مع القوات المسلحة للسلطان السلجوقي ركن الدين الذي كان قد استقر في ارضروم. لاحقاً، عام ١٢٠٩، احتل الجيش بلدة قارص بعد حصار طويل بقيادة دافيد سوسلان وشقيقيه زاكري وايوان مخارجردزيلي. عيّن جورجي (لاش)، نجل تمارا البالغ من العمر ١٤ سنة، حاكماً عاماً لقارص. عام ١٢٠٤، حينما احتل الصليبيون القسطنطينية، ارسلت تمارا الجيش الابخازي الى طرابزون، تلبية لطلب اليكسي كومنين.

ظهرت قوة الجيش الابخازي - الجورجي في القرن الثالث عشر بطريقة درامية في مقاطعات شمال إيران. ففي صيف عام ١٢٠٨، عبر أمير اردبيل نهر اراكسيس واحتل مدينة آني الحدودية. مات نتيجة المذبحة التي ارتكبت هناك حوالي ١٢،٠٠٠مسيحي، معظمهم من الأرمن. حدث رد الفعل الابخازي في السنة التالية، والذي جرى التحضير له بشكل سري تحت قيادة زاكري وايوان مخارجردزيلي. خاض الابخاز نهر اراكسيس الى الشمال من ارداباد وتوجهوا مباشرة الى اردبيل، التي احتلوها فجأة. هنا، قاموا بذبح ١٢٠٠٠ من السكان، من ضمنهم الأمير، واقتيد الناجون عبيداً. في تشرين الأول عام ١٢١٠، تركزت قوات ضخمة، ثم زحفت، أيضاً تحت قيادة مخارجردزيلي، باتجاه ناخيشيفان. خاض الابخاز نهر اراكسيس

في مقاطعة جالفا و احتلوا ماراند فجأة. انسحق هذا الجيش الضخم، لكنه سيء التنظيم، تحت ضربات مفرزة من ٥٠٠ فارس تحت قيادة رجل اسمه تقي الدين، وهو كما يبدو مرتزق مسلم. ضمن السكان الخائفون لمدينتي تبريز ومايان الأمن لانفسهم بدفع اتاوات ضخمة.

لاحقاً، خاض الفرسان الابخاز نهر جيليان واحتلوا مدينة زينجان عنوة. استسلم مركز كبير آخر هو كازوين بدون قتال. بعد الاستيلاء على روجمور، في مقاطعة نيشابور، قرر الابخازيون العودة. كانت رحلة العودة طويلة، لم تسمح لهم الغنائم التي نهبوها عبر شمال بلاد الفرس، بالحركة السريعة. أجبرت إبادة الحامية الابخازية من قبل سكان مايان القائد زاكري على العودة لزيارة المدينة مرة أخرى والقضاء على رجال البلدة.

"حسب مصادر عديدة، فقد ذهبت الملكة تمارا عدة مرات الى تسخوم (سوخوم الحالية) في أشهر الصيف، حيث "نظمت الأمور" اصطادت، واستراحت. خلال هذه الفترة والتي توفيت فيها، كان الحاكم العام لتسخوم اوتاغوشيرفا شيدزه. دفنت تمارا في قبو مدفن العائلة في جيلاتي.

خلف جورجي الرابع لاشا (١٢١٢ - ١٢٢٣) والدته في سن الثامنة عشرة. يعني إسمه الابخازي عند الترجمة " معلم الكون ". فور اعتلائه العرش، باشر جورجي لاشا في تطهير آليات الدولة. عزل قادة الحروب الفارسية القدماء من مناصبهم، فرَّق رجال الدين على الأديرة وأحاط نفسه برجال جدد. مارس الملك الجديد نمط حياة متهورة، وتبخرت الروح النقية لحقبة تمارا من البلاط على الفور. اخمدت محاولة العصيان التي قام بها اتابك غانج. لم يكن هناك الكثير ممن يرغب في الثورة ضد لاشا. كان باستطاعة المخارجردزيلي إشعال تمرد، لكن مرتبة الارستقراطية العالية بدت افضل لهم. توفي الأمير زاكري عام ١٢١١، فذهبت الزعامة السياسية الى شقيقه إيوان، الذي تمتع بلقب اتابك. اثبت ايوان مخارجردزيلي وولده باخرام، مع زعماء الكنيسة، انهم اقوياء بما يكفي لاجبار الملك الشاب على قطع علاقته بحبيبته المرأة الكاخيتية الفلاحة، التي حملت ولده، دافيد: لكنهم اظهروا انهم غير قادرين على اقناعه بالزواج من إمرأة مساوية له في النبل.

في خريف عام ١٢٢٠، زحف جورجي لاشا، بعد أن قام بتعبئة عاجلة على رأس جيش من تسعة آلاف مقاتل ضد المغول. قابله المغول قرب خوناني، وسحقت الميليشيا الاقطاعية الابخازية. بعد ثلاث سنوات، وصفت الملكة روسودان في كتابها الى البابا هونوريو الثالث، هذا الغزو المغولي على انه حادثة غير ذات أهمية. رغم ذلك، يجب الانتباه الى هذا الغزو

على أنه نقطة التحول في تاريخ ابخازيا. فقد اقتربت السيادة الابخازية في جورجيا، بكل انعدام ثباتها، من نهايتها. عام ١٢٢٢ عندما غزا الجيش المغولي عبر القفقاس مرة أخرى، لم يغامر الابخاز بالتصدي لهم في الميدان، فذهب خيالة المغول المنتصرين، بعد ان نهبوا شيروان وسومخيتي، الى الشمال لدحر القبجاك، حلفاء الابخاز. توفي جورجي لاش، آخر ممثل لسلالة الابخاز في جورجيا في كانون الثاني عام ١٢٢٣. بعده لم يبق سوى نجله غير الشرعي دافيد، الذي استخدمه المغول لاحقاً، بعد احتلال جورجيا، كألعوبة. ظلت السلطة في جورجيا تابعة رسمياً لشقيقة لاشا روسودان لبعض الوقت. خلال فترة " حكمها " أصبح كل الكارتلي والسامتسخي عرضه للنهب والعنف من قبل اهل خوارزم، الذين هربوا بدورهم، من المغول. عام ١٢٢٨، قامت روسودان بالمحاولة الوحيدة للتخلص من الحشود الخوارزمية. جمعت مرتزقة من الأرمن، السفان، الليزجين والقبجاك، الذين لم يتمكنوا من مقاومة ضغط جيوش جلال الدين.

حدث الاكتساح المغولي النهائي لجورجيا عام ١٢٢٦، لكن ابخازيا بحدودها الاثنية لم تكتسح. هذه الحقيقة مؤكدة، بشكل خاص، باحداث عام ١٢٤٣، حينما كانت الحرب دائرة بين المغول السلاجقة في الاناضول ( آسيا الصغرى ). فقد خدم جميع "الوجهاء العظام في جورجيا" مع قواتهم المسلحة في الجيش المغولي، ينما قاتل الابخاز الى جانب السلاجقة. اضافة الى ذلك، كان القائد العام للجيش السلجوقي داردين تشاتشبا وهوابخازي.

"كان سقوط المملكة الابخازية – الجورجية بحدودها التقليدية وتضييق ابخازيا الى حدودها الإثنية لعشرينات وثلاثينات القرن الثالث عشر، نتيجة مباشرة للتوسع المغولي على نطاق واسع، والذي اكتمل بضم المقاطعات الكارتفيلية، الارمنية، والاسلامية لمملكة ابخازيا الى امبراطورية الخانات ".

• • •

كتب إل. آي. لافروف " كشفت دراسات اللغويين في حقول لغات الأديغة، القباردي، الابخاز والاباظه، ان المفردات الأساسية لهذه اللغات كانت موجودة في الحقبة البرونزية. وهكذا، لدينا عملية غير متوقفة في تطوير التخاطب بين شعوب القفقاس الشمالي - الغربي".

## موجات الغزو

كتب البروفسور ايه . ناميتوك، يصف الوضع في القفقاس " ظهر الوجه والثقافة الإثنيين للقفقاس الى الوجود وتم اقراره بجغرافيته وطبيعة اراضيه. قدمت من الجنوب غزوات

متوالية من الامبراطوريات المتمدنة العظيمة للحقب البعيدة: ضمت السومريين، البابليين، الحثيين، ولاحقاً الآشوريين – البابليين، الميد والفرس. من الغرب جاءت حضارة طروادة، العالم الإيجي، ثراكيا، وبعدها اليونان وروما. من الشمال جاء السيمريون، ذوي العلاقة بالشراكسة. وهكذا فقد كانت القفقاس المركز والبوتقة لحضارات العصر الحجري الحديث، وعصري النحاس والبرونز ".

خلال تاريخ تواجدهم الطويل، شهد الأديغة على مرور العديد من الشعوب والحضارات القديمة. اضطروا الى مواجهة غزوات لا نهاية لها من قبائل رحل مختلفة، والقتال بشدة دفاعاً عن ارضهم وحريتهم. خلال هذه التجارب، خسروا أحياناً ضد بعض الاعداء، عانوا، حتى انهم اضطروا الى دفع الجزية لوقت ما، لكنهم تحملوا، وفي التحليل النهائي، خرجوا في النهاية ظافرين على العدو، بغض النظر عن حجمه وقوته.

**سيراكي**: شعب سارماتي يتكلم الايرانية، ظهر في القفقاس الشمالي – الغربي في القرن الأول من عصرنا. في القرنين الأول والثاني، ترأسوا الاتحاد القبلي القوي، الذي امتد على الهضاب من الكوبان حتى مانيش – أخارديا، بما فيها المناطق الشمالية لساحل بحر آزوف الشرقي. عند نهاية القرن الثاني، فقد السيراكي موقعهم المسيطر لصالح الآلان. ومع ذلك، حسب رأي تاسيستون، فقد اضطرت الجيوش المتحدة لروما والبوسفور ان تقاتل ضد السيراكي في القرن الأول.

حسب رأي بي. يو. اوتليفا، فقد " أغنى " المأوت – أديغه، الذين حلوا قسماً من السيراكي بين أنفسهم " اغنوا ثقافتهم المادية والروحية ".

**الآلان**: عند حافة القرنين الثاني والثالث وحَّد الآلان القبائل السارماتية في اتحاد قبلي آلاني – سارماتي واسع. يضع أميان مارتسيلين الآلان على ساحل بحر آزوف وفي الهضاب الى الشرق منه. في منتصف القرن الأول، يضع الكتاب الاغريق – الرومان الآلان في الدوناي السفلى، بمحاذاة ضفاف الدون وفي المناطق الوسطى لشمال القفقاس. في النصف الثاني من القرن الأول، يبدأ الآلان في الاختراق نحو المنطقة الشرقية لحوض الكوبان والدخول في علاقات وثيقة مع البوسفور. بعد ذلك، يحفرون طريقهم في ممر داريل والبوابات القزوينية، وينظم الآلان حملات عسكرية الى جورجيا، ارمينيا، وميديا والى آسيا الصغرى، بينما لا تزال هذه الأخيرة في أيدي الامبراطورية الرومانية.

ابتداءً من القرن الحادي عشر، يصبح الباغراتيون، ممثلو العائلة الحاكمة الارمنية – الجورجية – الابخازية، زعماء المجتمع الآلاني. تنفتح سبل التجارة. وتظهر المدن الى الوجود وتنتشر المسيحية في مجتمعهم. يصبح شمال القفقاس ملاذاً للمستوردات: البروكار، الحرير، ومنسوجات الكتان والزجاج الملون يأتي اليها من بيزنطه، قطع السجاد الصوفي الثقيلة، الاطباق الزجاجية والمعادن الثمينة من ايران، الأحجار النفيسة من الشرق الأدنى وايران، والمرايا الفنية البرونزية من الصين.

خلال هذا الزمن، احتل الآلان سهول القفقاس القريبة منهم من الكوبان وحتى مصب نهر التيريك. وضع كل من مأوت عبر الكوبان، واتحاد القبائل الزيخي من سواحل البحر الاسود، حجر الأساس لمجتمع الأديغة – القباردي الإثني الآخذ في الظهور.

**الاتحاد القوطي القبلي:** تشكَّل في شمال القفقاس منتصف القرن الثالث. وصل الى ذروة قوته بعد ذلك بقرن. يتحدث بروكوبيوس القيصري عن القوط – التيتراكسيت، الذين عاشوا في دلتا الكوبان الواقع في شبه جزيرة تامان لغاية أنابا. كانوا مسيحيين. انقسم اقليمهم الى أربعة اجزاء، كل منهم يحكمه تيتراخ. ذابوا تدريجياً داخل السكان المحيطين بهم.

في ذلك الوقت، امتدت بلاد ايفدوسيا من انابا حتى غيلينجيك. احتلت زيخيا المنطقة من غيلينجيك حتى نهر بسه زوابا (وربما حتى نهر شاخا). عاش السانيخ (السانيجيون) الى الجنوب من الزيخ، وخلفهم عاش الافاسجي (الأبخاز) على ساحل البحر الأسود (في منطقة ابخازيا الحالية).

**الهون:** ظهروا على هضاب البحر الأسود عند نهاية القرن الرابع. هذا الجنس الرحال، والمفترض انه من العرق التتاري، اشتهر بغزواته المتكررة للأملاك الرومانية، ولكونه أوصل امبراطوريتي الشرق والغرب الى حافة الدمار تحت قيادة أتيلا. حوالي عام ٢٠٠ قبل الميلاد، كانوا قد اكتسحوا الامبراطورية الصينية واجبروا الامبراطور راو- تي على الاستسلام. في نهاية المطاف، قسم الهون انفسهم الى معسكرين احدهما، قرابة خمسين ألف عائلة، توجه الى الجنوب، بينما أسس الآخرون انفسهم على ضفاف الفولغا. عام ٣٧٢، هزموا الآلان قرب نهر الدون ولاحقاً سحقوا الاتحاد السارماتي – الآلاني القبلي المقام في الهضاب على الضفة اليمنى لنهر الكوبان. قاد الهون قسماً من الآلان الى الغرب ودفعوا بالقسم الآخر الى جبال القفقاس الشمالي. ذهبت الموجة الجنوبية من الهون خلال شبه جزيرة تامان، محطمين

مدن مملكة البوسفور وناهبين أرض الأديغة. عند عودتهم، ترك الهون في بلاد الشراكسة الرماد والذكرى المرعبة. حسب رأي إس نوغموف، فان تسمية الأديغة " لغضب الآلهة " هو " اديلا " توفي أتيلا سنة ٤٥٣ وتهاوى اتحاد قبائل الهون.

**الأوناغور:** هزم الساراغور والاوناغور الهون – أكاتسير، الذين سكنوا هضاب بحر آزوف. في القرن السابع، سميت هذه المنطقة "مقاطعةاوناغوريا" نسبة الى البلغار- اوناغور، الذين سكنوا في هذا الأقليم. في القرن السادس، شغل الاوناغور الهضاب الواقعة على ضفاف الكوبان وقسما كبيرا من جزيرة شبه تامان بعد أن دفعوا بالقوط- تيتر اكسيت نحو سفوح التلال في القفقاس الغربي.

**الامبراطورية البيزنطية:** المعروفة أيضا بالرومانية الشرقية، الاغريقية، أو الامبراطورية السفلى. تأسست عام ٣٣٥، عندما قسم ثيودوسيوس العظيم الامبراطورية الرومانية بين نجليه، اركاديوس وهونوريوس، قبيل وفاته. يبدأ امتداد النفوذ البيزنطي على القفقاس الشمالي- الغربي في القرن الخامس، لكن الامبراطورية البيزنطية تاسست أخيراً على البوسفور اثناء حكم الامبراطور جوستينيان الأول (٥١٨-٥٢٧). كان قسم كبير من الأديغة، ابتداء بالزيخ ومجموعة الآلان الغربية، ميالين الى بيزنطه. حتى تقوي حكمها على السكان المحليين، جمعت الامبراطورية البيزنطية بين تأسيس العلاقات التجارية والدعاية المكثفة للمسيحية بينهم، الى جانب توسعها العسكري في الاقليم. نتيجة لذلك، خضع جميع السكان الجبليين لشمال وشمال غرب القفقاس للامبراطورية من تامان الى التيريك، ومن بينهم الابخاز والأديغة، بدرجة أو باخرى. دامت السيطرة البيزنطية على ساحل البحر الأسود الشمالي بداية من القرن الخامس خلال السادس، ثم من التاسع وحتى العاشر.

**البلغار:** كانت قبيلة رحالة تتكلم اللغة التركية. يعتبر افرادها شعباً قديماً من عرق اوجرو- فنلندي، قريب من الهون. ظهروا في نهاية القرن الخامس، عاشوا في هضاب بلاد الشراكسة ولعبوا دوراً مهماً في تاريخ شمال القفقاس خلال اوائل العصور الوسطى.

**الآفار:** هم احدى القبائل الليزجية في الداغستان. احرق خان بايكان، وهو آفاري، مستوطنات الشراكسة وسواها بالأرض ووجه ضربة قاصمة الى التطور الثقافي لبلاد الشراكسة. هناك تقليد يقول بان خان بايكان طلب من الشراكسة ان يصبحوا اتباعه بعد أن دمَّر ارضيهم في القرن السادس. اعطى قادة الأديغة جواباً مفعماً بالكبرياء لسفراء الخان، بتأثير من الأمير لافتيستان، قالوا " من الذي يستطيع أن يحرمنا من حريتنا؟ نحن معتادون على مصادرة أراضي الغير، وليس على اعطاء اراضينا للأعداء. سيدوم هذا الى الأبد،

طالما كانت هناك حروب وسيوف في الدنيا. لن ندفع أية جزية، طالما بقي لدينا سيف واحد، طالما بقي مجرد واحد منا حياً ..".

غضب خان بايكان وغزا أرض الأديغة بجيش قوامه ٦٠ ألفاً. دمر الأراضي من سواحل البحرالأسود وحتى أعالي الكوبان، ناهباً القرى، محرقاً الحقول وقاتلاً السكان. لكن الأديغة رفضوا الاستسلام وهربوا الى جبالهم وغاباتهم العصية على الاختراق واستمروا في مقاومتهم الشرسة. في هذه الاثناء تحولت بلادهم التي كانت مزدهرة بالمستوطنات الغنية والحقول الزراعية، تحولت الى غابات موحشة، تتجول فيها الحيوانات المفترسة. بكلمات في. ايه بوتو، بدأت حقبة سقوط الشعب الشركسي.

وقعت المعركة الدموية الأخيرة بينما كان خان بايكان يغادر انابا الى تسيميز (نوفوروسيسك). تقول الأسطورة ان القباردي بالتحالف مع التميرجوي حققوا النصر على الآفار عند نهر أبين.

**بلغاريا وكاغانات الخزر:** ظهر اتراك من الكاغانات ذوي العرق التركي في قفقاسيا منتصف القرن السادس واستولوا على المقاطعات السابقة لملكة البوسفور.خلال تلك الفترة، أصبح بلغارساحل بحر آزوف تابعين لهم.

بعد تفكك الكاغانات التركية الغربية عام ٦٣٠، إتحد البلغار تحت قيادة الخان كبرات. تلقى هذا الاتحاد نصف الرحال اسم بلغاريا الكبرى. كتب ثيوفانوس ان بلغاريا العظمى القديمة امتدت نحو النهر المسمى كوفيس( كوبان ). كان مقر الخان في فاناغوريا. أجبرهم عدد من الاسباب على جعل عاصمتهم في شبه جزيرة تامان: التجارة مع بيزنطه، تحصيل الضرائب من التجار والجزية من القبائل المحلية المهزومة. وصلت بلغاريا الكبرى الى قمة قوتها في القرن السابع. بناءً على على المعلومات المعطاة في جغرافية ارمينيا للكاتب مويسي خورينسكي، فقد عاشت قبائل شمال القفقاس البلغارية – كوبي – بلغار، دوتشي – بلغار وغيرها في الكوبان السفلي وعلى ساحل بحر آزوف الشرقي.

عندما توفي خان كبرات عام ٦٤٢، تفككت بلغاريا الكبرى الى حشود عديدة، ترأسها ابناء كبرات. وقعت بينهم حروب داخلية، نتيجة لها، ذهب قسم من البلغار، تحت قيادة خان أسباروخ الى دوناي ( دوناي بلغاريا )، ذهبت مجموعة أخرى الى الفولغا واسست هناك فولغا بلغاريا. بقي بلغار خان باتباي في حوض الكوبان وساحل آزوف. استغل الخزر فوراً الوضع المتردي والمتفتت لبلغاريا الكبرى، فاخضعوا البلغار وادخلوهم في دولة الخزر.

**كاغانات الخزر:** خلال الزمن الذي سكن فيه البلغار هضاب الكوبان، تشكلت كاغانات خزرية قوية في الفولغا الأسفل، ظلت قائمة لحوالي٣٠٠ سنة. عند بداية القرن السابع، كانت تحتل مساحات واسعة من هضاب قفقاسيا القريبة، الكوبان، الدون، ساحل آزوف وجزءمن شبه جزيرة القرم. اصبحت مدينة سامكيرتس. ( تاماتارخا ) مركزاً تجارياً كبيراً.

بعد تفكك امبراطورية الهون، انهمك البلغار والخزرالذين سكنوا في شبه جزيرة تامان، في حرب داخلية يائسة على السلطة ، كان بلغار الكوبان تحت سلطة الخزر، لكنهم طبقوا سياسة مستقلة كلياً. اصبحت فاناغوريا مركز إدارة الخزرفي القرن السابع.

لاحقاً، انتقل حكام خزريا الجنوبية – الشرقية عائدين الى مستعمرتهم القديمة السابقة، هيرموناسا. تلقت اسم تومين – تارخان ( تامان ). مكنهم وضع قيادتهم في هذه المدينة من السيطرة على مضيق كيرتش وكامل شبه جزيرة تامان، التي كان يقطنها بشكل رئيس الساجينو – أديغه والبلغار.

الاسم الأديغي للمدينة كان تاماتا ركاي، تسميها السجلات الروسية تموتاراكان. وكانت معروفة في المصادر الاغريقية باسم تاماتارخا (ماتارخا).

يدعي بعض المؤلفين ان الكاسوغ دأبوا على انزال ضربات مؤثرة بالخزر. ويرى آخرون ان الأديغة لم يكونوا تحت سلطة كاغانات الخزر في تلك الأيام. قي كتابه (ايستوريا اديغيسكوغو نارودا) يذكر إس. نوغموف اشتباكات مسلحة بين الخزر والأديغة.

## ثبات الأساس الإثني

تشهد اللقى الأثرية على ضفتي الكوبان بأن القبائل نفسها قطنت هذه المنطقة وان ثقافتها استمرت بدون توقف. أدى تفحص هذه اللقى وبيانات أخرى بالمؤرخين الى الاستنتاج ان القبائل المأوت والسارماتيين المندمجين جزئياً (السيراكي) ساهموا "ليس في خلق ثقافة آلانية مشتركة في شمال القفقاس وحوض الدون" بل وضعوا الأساس لتشكيل أمة الأديغة في شمال غرب القفقاس.

تدريجياً، يبدأ نبلاء قبائل مأوت البحر الأسود في تمييز أنفسهم وبالتجمع حول قائدهم. كتب عنهم سترابو "انهم يخرجون الى البحر في كاماراتهم ويهاجمون السفن التجارية أحياناً، ومحلة معينة حيناً آخر أو حتى مدينة ما، انهم يحكمون البحر".

خلال اول قرون عصرنا، كان الزيخ اكبرقبيلة تحتل منطقة كبيرة على ساحل البحر الأسود، والذين يعرِّفهم احدث مؤلفو العصر ( انتريانو وآخرين ) على انهم أديغه. "بغض النظر عن الأهمية الظاهرية لأعادة تشكُّل الثقافة المادية المحلية. ان عملية تطعيم الثقافة اللغوية القفقاسية بالايرانية انتهت في احواض الكوبان، بانتصار الاساس الإثني المحلي. الامر في غاية الوضوح، وهو أن الأساس الاصلي المأوت – السندي القديم اثبت أنه اكثر ثباتاً منه في القسم الأوسط من القفقاس. قطعاً، من الصعوبة بمكان تحديد الاسباب الحقيقية التي ضمنت انتصار اللغة المحلية على الايرانية. يمكن فقط الافتراض أن هذا الانتصار اعتمد على حقيقة ان اللغة المحلية في حوض الكوبان، اثبتت انها اكثر تطوراً، ومفرداتها اكثر غنى وتركيبها القاعدي اكثر ثباتاً. هذا ما كتبه إي. آي. كروبنوف. أما إل. آي كروبنوف فكان اكثر تحديداً بالنسبة للغة مدار البحث " كشفت دراسات اللغويين في حقل اللغات الأديغة، القباردي، الابخازية، والاباظه أن المفردات الأساسية لهذه اللغات وجدت في الحقبة البرونزية " وهذا هو استنتاجه.

## الأديغة

مع بداية القرن العاشر، كان الأديغة والآلان قد نفضوا عنهم النير الخزري. الكاسوغ بشكل خاص بدأوا يتحولون الى قوة سياسية مهمة في القفقاس، حيث يشغلون الجزء الغربي من شمال القفقاس، حوض الكوبان ومساحة واسعة من ساحل البحر الأسود. بدأت قوميتا القرشاي والبلقار، اقرب جيران الأديغة، تتشكلان في الاقاليم الجبلية في القرن العاشر.

تأسيسا على المعلومات المتوفرة، توصل العلماء الى استنتاج مفاده أنه في القرن العاشر الميلادي، تشكلت أمة الأديغة، وتكلمت بلغة واحدة ذات لهجات عديدة. عاشت القبائل التي ضمتها في جبال عبر الكوبان وسفوح التلال وعلى سواحل القفقاس في البحرالاسود. تبعاً لذلك، يبدأ الزيخ – الكاسوغ بالظهور في المصادر الأدبية تحت اسم"شركس" (شراكسة) تكتب بي. يو. اوتليفا ان تعبير "أديخ" أو "أديغ"يعثر عليه للمرة الاولى في كتاب المسعودي "مروج الذهب".

حقيقة إغفال المصادر الأدبية ذكر التسمية "أديغا" حتى العام ٩٤٣، لاتعني بالضرورة انه لم يكن موجوداً قبل ذلك. على العكس، فكل الأدلة الموجودة تثبت ان هذه التسمية قديمة، على الأقل بقدر قدم الملحمة الشركسية " النارت ". اكثر من ذلك، فان جميع العناصر الحيوية

للأمة الشركسية متجذرة بعمق في هذه التسمية: " أديغ " (شركسي) "أديغابزه" (اللغة الشركسية) " اديغاغه " (الخلق الشركسي) و"أديغه خابزه" (التقاليد الشركسية). يسمي كل الشراكسة انفسهم " أديغه " بغض النظر عن خلفيتهم القبلية، بفخر كبير. باختصار، فإن تعبير " أديغه " هو جزء أساسي من كون المرء شركسياً " اديغابزه " هي اللغة التي ألفوا بها ملحمتهم " النارتيين "، قبل دخول العصر النحاسي - البرونزي، والتي حفظوا بها هذه الملحمة، ومخزوناً ثرياً من المعلومات التاريخية عن اجدادهم القدماء.

## علاقات الأديغة

العلاقات الأديغية – اليزنطية: كتب إس.نوغموف: اعتبر جستينيان نفسه فارساً أديغياً وحليفاً للأديغه. من الناحية الأخرى، كثيراً ما شارك الأديغة في الجيوش اليزنطية. مثلاً اثناء حكم ميخائيل الثاني عام ٨٢١، خدم الزيخ في جيش بيزنطي ضخم ارسل ضد العصيان الذي قاده فوم في آسيا الصغرى.

دام النفوذ اليزنطي القوي في شمال غرب القفقاس من القرن السادس وحتى بداية القرن الثالث عشر. تقاطع هذا النفوذ مع نفوذ جورجيا خلال القرون الحادي عشر وحتى الثالث عشر، بينما استمرت الاديغيه وابخازيا في الحفاظ على اتصالات نشيطة.

**العلاقات الأديغيه—الجورجية:** تعود الى الفترة سحيقة في القدم. يشهد على هذا التسميات الأديغة في مناطق عبر القفقاس. منذ القرون الأولى لعصرنا، دأب القياصرة الجورجيون على تعزيز جيوشهم بالأديغة. يخبرنا السجل الجورجي " كارتليس تشخوفريبا عن وجود" الجيك " ( اسلاف الأديغة ) في الجيش الجورجي اثناء حكم القيصرين أزوركا وارمازيلي من عام ٨٧ وحتى ١٠٧. عام ٤٥٥، زحف القيصر الجورجي فاختانج الأول جورجاسلان ( ٤٤٥ – ٤٩٩ ) على الاوسيتيين، وخلال مروره بجيكيتيا في طريق عودته، تلقى اتاوة كبيرة من الخيول والماشية من اسلاف الأديغة. زحف القيصر فارسمان (١١٦ – ١٤٠) مع القفقاسيين الشماليين الى ميديا، بارثيا وأرمينيا.

حسب الاساطير الأديغية، فان الابن الثالث للقيصر الجورجي روستام جعل اقامته على نهر كورجيبس، احد روافد البيلايا. اكثر من ذلك، تستقي بعض العائلات القباردية أنسابها من النبلاء الجورجيين: كارتوليف، انزوروف، إنداروف وإيريسبتويف، ولكن لا يوجد توثيق كافٍ لهذا الزعم.

من الناحية الأخرى، يدعي السجل الجورجي ان المجمع المسكوني السادس في القسطنطينية ( ٦٥٦ ) أخضع الأديغة الى البطريرك المتسخيتي،وأن كاثوليكي جورجيا وسموا رعاة جميع الناس من البحر الاسود وحتى قزوين، بما في ذلك شعوب الأديغيه. على أية حال، ان تبعية القساوسة الأديغة لجورجيا ربما كانت اسمية فقط. في افضل الحالات، يحتمل أنها تحددت بارسال رعاة ابرشيات أديغه الى البطريرك المتسخيتي لرسمهم قساوسة، ولكن حتى ذلك لم يكن دائمياً. كانت جورجيا أبعد من ان يكون لها نفوذ سياسي أو ثقافي على بلاد الأديغة. إضافة الى ذلك، فقد فصلت الحواجز الجبلية بين هذين البلدين. لذلك، كانت العلاقات الجورجية – الاديغية صفة غير منتظمة في أفضل الحالات.

لعبت بيزنطه دوراً اكبرمن جورجيا في نشر المسيحية بين الأديغة في تلك الأيام. ومع ذلك، يصبح من الصعب أحياناً تحديد ما اذا كنا نتعامل مع النفوذ البيزنطي ام الإغريقي. مثلاً مايزال الجدل دائراً حول من هم الذين بنوا كنائس سينتينسكي، خوما رينسكي وزيلينتشوك في القفقاس الشمالي – الغربي، هل هم الجورجيون ام الإغريق؟ ربما يكون النفوذ الجورجي قد انتصر على البيزنطي عند أديغه الكوبان، فقط عند تشكيل دولة الباغراتيين، اي من القرن الحادي عشر وحتى بداية القرن الثالث عشر.

**العلاقات الأديغية–الأرمنية:** استقرت مجموعة أرمنية على ساحل البحر الاسود عندما احتل الاتراك السلاجقة مدينة آني ( ١٠٦٤ )، عاصمة المملكة الأرمنية، ومنذ ذلك الوقت تعيش جالية ارمنية في القفقاس الشمالي – الغربي.

**العلاقات الأديغية–الابخازية:** جذب التشابه الهائل في اسلوب الحياة، الملابس، المزاج، التقاليد، الاسلحة، ونواحي أخرى من الثقافة بين الأديغة والابخاز، انتباه الرحالة والعلماء منذ القدم. هذه المعطيات تقنع العلماء، بان الأديغة والابخاز يمثلون جنساً واحداً في الماضي السحيق. تظهر بياناتهم القبلية الجغرافية ان تشكُّل القبائل الأديغة والابخاز كان يحدث فوق مساحة واسعة على جانبي جبال القفقاس. في الازمنة القديمة، كان من المستحيل التفريق بوضوح بين اسلاف الأديغة والابخاز. وهكذا، فان قبائل المأوت – الأديغة القديمة القاطنة على شواطئ بحري آزوف والاسود، شكلوا النويَّات التي منها تشكَّل الأديغة. حدث توحيد القبائل الجنوبية ( السانيج، الأبسيل، الابازجيين ) سكان القفقاس الشمالي – الغربي في النصف الثاني من الألف الميلادية الأولى. وتشكل اتحاد لازيا القبلي ( ابخازيا

وقسم من جورجيا الغربية ) في القرن الرابع. تأسست المملكة الابخازية عند بداية القرن السادس وامتدت شمالاً في القرنين السابع والثامن.

تعقَّد تشكل أمة الأديغة بسبب اختلاطات عرقية وتأثيرات ثقافية خارجية. لعب الآلان دوراً بسيطاً في تشكيل أمة الأديغة لغاية القرن الثالث عشر. كان لجيران آخرين تأثير أقل عليها. بدأت قبائل الأديغة، ذات الصفات الأبوية تتخذ شكل الأمة عند بداية القرن الثالث عشر. لكن وقفت صعوبات هائلة في طريق تقدمها، خاصة ذات الطبيعة الخارجية.

## أوائل جيران الأديغة من السلاف

بدأ الأديغة يجاورون الروس في النصف الثاني من الألف الميلادية الأولى. حسب رأي بي. إن. تريتياكوف، فقد كان هؤلاء الروس " بقايا القاطنين القدماء على الضفة اليسرى لنهر الدنيبير، الذين تحملوا جميع تقلبات " حقبة التهجيرات الكبرى للشعوب". " استقرت المجموعة الأكبر والاكثف سكاناً في حوض شمالي الدونيتس " ويعني بهذا القبائل السلافية الشرقية. يفترض ان أسلاف الدونيتس هؤلاء انهم كانوا ينتشرون جنوباً باتجاه تامان، القرم وبحر آزوف منذ الازمنة القديمة. على أية حال، لم يستقر هؤلاء السلاف بشكل ثابت في هذه الامكنة قبل القرنين التاسع والعاشر. قد يتكلم الشخص عن " روس الآزوف – الاقرب "، فقط منذ هذا الوقت، لكنه كان أحد المراكز الرئيسة للروس القدماء، كما يعتقد في كثير من الأحيان. بكلمات المؤرخ نفسه " جرى احتلال الجنوب الشرقي بين القرنين الثامن والعاشر من قبل قادمين جدد من الشمال، من اقليم حوض الديسنا، سايم، المناطق المجاورة للدنيبير الأعلى، وربما، من أوكا الأعلى ".

**علاقات الأديغة – الروس:** قد يقال ان هذه العلاقات بدأت أولاً على شبه جزيرة تامان. ادرك الروس الأهمية الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية التي يمكن ان تلعبها تامان لأجلهم فأسسوا امارتهم عليها. هنالك روايتان من المعلومات حول تاريخها. يدعي احد النصوص بان فلاديمير، أمير كييف احتل تاماتارخا ( سامكيرتس ) من الخزر. أسس إمارة روسية هناك عام ٩٤٤ مركزها تموتاراكان ( تامان ). يلمح النص الآخر إلى ان الامير سفياتوسلاف مهَّد الطريق لبدايات إمارة تموتاراكان عام ٩٦٥، خلال الحملة التي احتل فيها ساركيل، إيتيل، ووجه ضربة قاصمة الى دولة الخزر. على ية حال، فقد ذكرت تموتاراكان للمرة الأولى في السجلات عام ٩٨٨ وليس قبله، حينما ارسل فلاديمير نجله

مستيسلاف الى هناك. واضح أن اعتماد تموتاراكان على كييف كان إسمياً فقط في ذلك الوقت.

منذ عام ٩٨٨ وحتى ١٠٩١، تظهر تموتاراكان على أنها مركز تلك الإمارة. موقعها على مصب نهر الكوبان في شبه جزيرة تامان، جعل منها ميناءً تجارياً، خرجت منه تجارة شعوب شمال القفقاس ( الياس، الكاسوغ، والأوبيز ) مع مدن منطقة البحر الأسود. جذب الثراء الهائل للمدينة، والفرصة التي تمنحها لمن يسيطر عليها في تحصيل الاتاوات، انتباه امراء تشيرنيغوف.

عام ١٠٢٢ زحف الامير مستيسلاف على الكاسوغ. خرج الجيش الكاسوغي بقيادة الامير ريديدي لمواجهة العدو، قال ريديدي لمستيسلاف في تلك المواجهة " لماذا نسفك دماء رجالنا المقاتلين الابرياء؟ " وعرض عليه مباراة مصارعة بدن سلاح بينهما، بشرط ان يعتبر الفائز منتصراً في المعركة ويمتلك كل شيء لدى الآخر. قبل مستيسلاف العرض النبيل لريديدي. وضع القائدان سلاحهما جانباً وبدآ يتصارعان. على أية حال، سرعان ما ادرك مستيسلاف ان ريديدي يكسب المبارة، فخالف كلمة الشرف، تناول " السيهيجة " المخبأة وطعن ريديدي الاعزل غدراً وقتله.

اضطر الكاسوغ الى الاعتراف بحكم مستيسلاف. رغم ذلك، رفض الكاسوغ دفع الجزية في السنة نفسها وحاولوا تحرير أنفسهم، ولم يتمكنوا.

بعد وفاة مستيسلاف عام ١٠٣٦، اصبح ابن شقيقه الأمير روستيسلاف حاكم تموتاراكان. بدأ هو أيضاً يجمع الجزية من الكاسوغ. بحلول ذلك الوقت، على كل حال، كانت الإمارة الروسية واهنة. استغل الكاسوغ الوضع، وقرروا ان ينتقموا من الروس لمقتل الامير ريديدي، وخاضوا حرباً دموية مع الروس، بمساعدة ٦٠٠٠ مقاتل منتقى من الياسو – اوسيتين ارسلوا لمساعدتهم.

بعد ذلك، يقول إس. برونيفسكي ان التشيخ ( الزيخ ) استمروا في التحرك شمالاً الى داخل الهضاب بين مصبي الدون والفولغا، ينسب بعض المؤرخين انهيار إمارة تموتاراكان الى ضغط البولوفيتس الرحل. رغم ذلك، فقد حفظت التقاليد الأديغة معلومات مفادها ان الكاسوغ انتصروا على تموتاراكان، نهبوها وعادوا الى بلادهم بغنائم هائلة والعديد من الأسرى.

لم تقتصر العلاقات الأديغة - الروسية على المصادمات العسكرية. في مناسبة واحدة على الأقل، خدم الكاسوغ في فرقة تشيرنيغوفو - تموتاراكان التابعة للأمير مستيسلاف

وشاركوا في حملاته خلال القرن الحادي عشر. من الناحية الأخرى، انهمكت تموتاراكان في نشر المسيحية بين الأديغة، بمساعدة ارشدوقية كنيسة بوريس وغليب. الواضح أن تموتاراكان تلقت دعماً من الكنيسة البيزنطية - الاغريقية في هذا الشأن، فقد كانت لديها ارشدوقية في القفقاس الشمالي - الغربي.

مع سقوط الإمارة الروسية في كييف، فقد السلاف الشرقيون تموتاراكان عند حافة القرنين الحادي عشر والثاني عشر. بعد عام ١٠٩٤، لم يعد السجل يذكر تموتاراكان. يصبح العنصر الروسي اكثر اندماجاً في العنصر القفقاسي الشمالي الغربي.

عام ١١٥٣، يذكر الإدريسي مستوطنات " روسية، غرب ماتارخا " ومصب" النهر الروسي" الواقع بين سوداك وماتارخا. واضح ان هذا هو نهر الدون. في ذلك الوقت، كانت "روسيا" تابعة لبيزنطية الى حد ما.

• • •

# المراجع


1. Проф. С.К.Бушуев، М.Г.Аутлев، Е.Л. Коджесау. Очерки истории Адыгеи. Адыгейский научно-исследовательский институт языка، литературы и истории. Майкоп، 1957.

1. Prof. S. K. Bushuev، M. G. Autlev، E. L. Kogesaw، Ocherki Istorii Adygheii (Studies in the History of Adyghey)، Adygheiski Nauchno-Issledovatelski Institut Yazeka، Literatury e Istorii (Adygha Scientific-Research Institute of Language، Literature، and History)، Maikop، 1957.

١ – بروفيسور اس . ك.بوشيف ، ام . جي اتليف ، إي . إل كنميساو "دراسات في تاريخ الاديغه – مايكوب ١٩٥٧ .

2. Jacquetta Hawkis. History of Mankind، Cultural and Scientific Development. Volume One، Part I: Prehistory، a Mentor Book. The New American Library، Inc.، New York، 1965.

2. Jacquetta Hawkis، History of Mankind، Cultural and Scientific Development، Volume One، Part I: Prehistory، a Mentor Book، The New American Library، Inc.، New York، 1965.

٢ – جاكيتا هوكيس "تاريخ الجنس البشري ، التطور الثقافي والعلمي المجلد الأول ، القسم الأول ما قبل التاريخ ، كتاب مينثور . المكتبة الامريكية الجديدة . نيويورك ١٩٦٥.

3. R. Traho، Cherkesy، Munich، 1956.

3. R. Traho، Cherkesy (Circassians)، Munchen، 1956.

٣ – آ.تراخو – الشراكسة ، ميونيخ ١٩٥٦ .

4. А.Х.Шеуджен، Г.А.Галкин، Н.Е.Алёшин، А.А.Кушу، Б.Е.Шеуджен. Земля адыгов، Майкоп، 1996.

4. A. K. Sheugen، G. A. Galkin، N. E. Aleshin، A. A. Kushu، B. E. Sheugen، Zemlia Adighov (The Land of the Adyghas)، Maikop، 1996.

٤ – ايه . ك. شيوجين ، جي ايه غالكين ، ان . إي اليشين ، ايه . ايه كوشو ، ب . اي شيوجين – "أرض الاديغة" .

5. История Кабарды с древнейших времён до наших дней. Москва، 1957.

5. Dr. N. A. Smirnov، Z. V. Anchavadze، N. E. Gurevich، V. P. Krikunov، T. K. Kumykov، I. F. Muzhev، K. M. Sabanchiev، Istoria Kabardy s drevneishikh vremen do Nashikh dnei (The History of Kabarda from Most Ancient Times to Our Days)، Moskva (Moscow)، 1957.

٥ – ............ تاريخ قباردا من اقدم الازمنة الى أيامنا

6. Е.И.Крупнов. Древняя история и культура Кабарды. Издательство Академии Наук СССР. Москва، 1957.

6. E. I. Krupnov، Drevnyaya Istoria e Kultura Kabardy (The Ancient History anf Culture of Kabarda، Izdatelstvo Akademii Nauk SSSR (the Publishing House of the Academy of Sciences of the USSR، Moskva (Moscow)، 1957.

٦ – التاريخ القديم وثقافة قباردا .

7. Н.В.Анфимов. Древнее золото Кубани. Краснодар، 1987.

7. Prof. N. V. Anfimov، Drevnyeye Zolto Kubani (The Ancient Gold of the Kuban)، Krasnodar، 1987.

٧ – ذهب الكوبان القديم .

8. Шедевры древнего искусства Кубани. Министерство культуры СССР، Министерство культуры РСФСР. Москва، 1987.

8. Ministerstvo Kultury SSSR، Ministerstvo Kulrury RSFSR (The Ministry of Culture of USSR، The Ministry of Culture of RUFSR)، Schedevry drevnego iskusstva Kubani (Masterpieces of Ancient Art of the Kuban)، Moskva (Moscow)، 1987.

٨ – روائع الفن القديم للكوبان .

9. Е.Аствацатурян. Оружие народов Кавказа. Москва، 1995.

9. E. Astvatsaturian، Oruzhie narodov Kavkaza (The Weapons of the Peoples of Caucasus)، Moskva (Moscow)، 1995.

٩ – اسلحة شعوب القفقاس .

10. С.Хотко. Очерки истории черкесов. Санкт-Петербургский Университет، 2001.

10. S. Kh. Khotko، Ocherki Istorii Cherkesov (Studies in the History of the Circassians)، St.Petersburgh University، 2001.

١٠ – دراسات في تاريخ الشراكسة .

11. С.Хотко. История Черкесии. Санкт-Петербургский Университет، 2001.

11. S. Kh. Khotko، Istoria Cherkesii (The History of Circassia)، St. Petersburgh University، 2001.

١١ – تاريخ بلاد الشراكسة .

12. Р.И.Махош. Зов Родины. Майкоп، 2002.

12. R. I. Makhosh، Zov Rodiny (The Call of the Motherland)، Maikop، 2002.

١٢ – نداء الوطن الأم .



• دولمين في بلاد الشراكسة



• دولمين في بلاد الشراكسة



• دولمين في أبخازيا



• دولمين في شابسوغيا

**ثقافة مايكوب:**



•من ركام قبري في مايكوب مطبوع ومخيط على رقعة. متحف هيرميتاج.



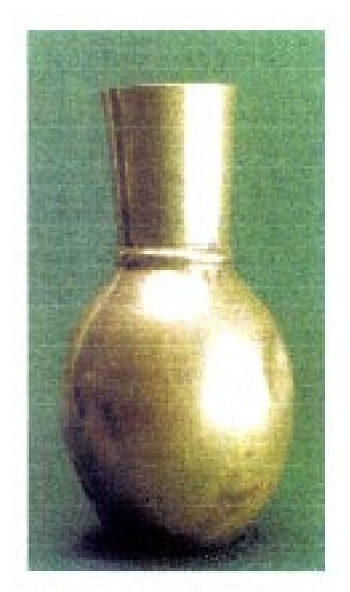
• من ركام قبري في مايكوب اناء فضي، الالف الثالثة قبل الميلاد متحف هيرميتاج.



•من ركام قبري في مايكوب تماثيل صغيرة لعجول من الذهب.



• من وكام قبري في مايكوب تمثال صغير لعجل. متحف هيرميتاج.



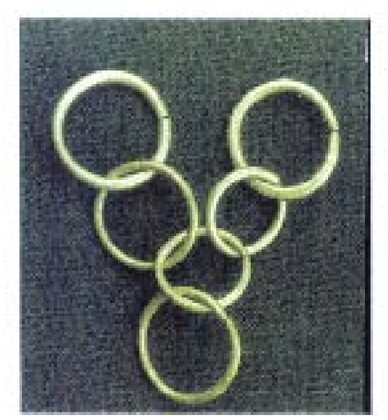
•من ركام قبري في مايكوب ابريق من الذهب متحف هيرميتاج.



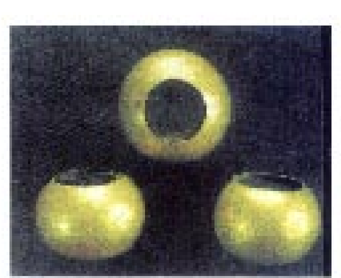
•من ركام قبري في مايكوب تاج – متحف هيرميتاج.



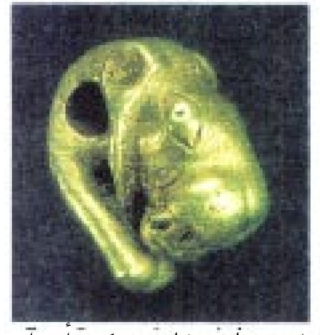
• من لقى ستاروميشاستوفسكي عجل فضي.
متحف هيرميتاج



• من لقى ستاروميشاستوفسكي خواتم ذهبية
متحف هيرمتاج.



• من الركام القبري رقم ٣١ كلادي ستو
خرزات مفرغة متحف هيرميتاج.



• من لقى ستاروميشاستوفسكي رأس آسد.
متحقف هيرميتاج.



• من ركام قبري نوفو سفوبودني قلادة من الذهب.
متحف الاديغة الإقليمي.

**ركامات قبور القرون من السابع إلى الخامس قبل الميلاد.**



• من ركام كيليرميس رأس سهم مفرغ على شكل وعل. متحف هير ميتاج



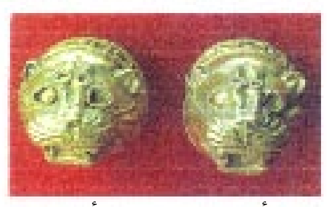
• من ركام كيليرميس إناء يحمل صور مطبوعة للطير والحيوانات. متحف هيرميتاج.



• من ركام كيليرميس رقم ٣ تاج – متحف هيرميتاج.



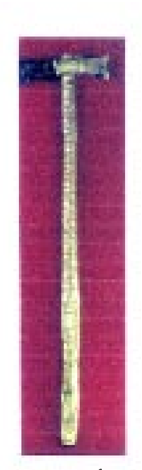
• من ركام كيليرميس رقم ١ غمد ومقبض سيف يحملان مناظر دينية متطابقة، صور حيوانات ومخلوقات عجائبية، متحف هيرميتاج.



• رأسا سهم متوجان برأسي اسدين – متحف هيرميتاج.



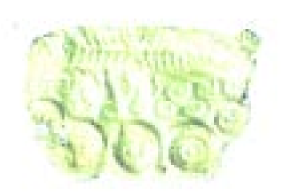
• من ركام كيليرميس اناء مزين ببروزات لوزية ومربعة. متحف هيريمتاج.



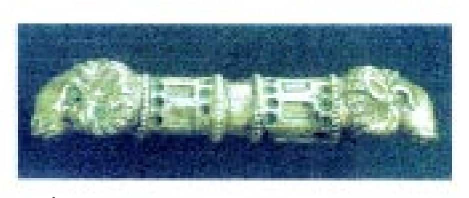
• من ركام كيليرميس فأس احتفالية مغطاة بالذهب ومزينة بمناظر دينية، تضم الناس والحيوانات. متحف هيرميتاج.



• من ركام كيليرميس أداة غير معروفة الاستعمال.
متحف هيرميتاج.



• طبق مطبوع متحف كراسنودار.



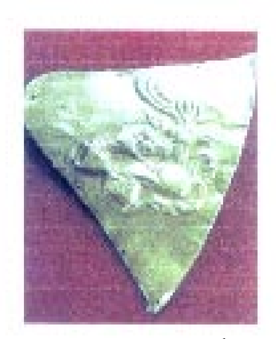
• من ركام كيليرميس دبوس جوريتوس برأسي كبشين. متحف هيرميتاج



• من ركام كيليرميس رقم ٤ مرآة فضية الوجه الخلفي من الذهب المنقوش. متحف هيرميتاج.



• من ركام الأخوة السبعة صفيحة تغطي اناء
متحف هيرمينتاج



• من ركام الأخوة السبعة صفحة تغطي اناء
متحف هيرميتاج



• من ركام الاخوة السبعة وعل مضطجع
مصنوع بشكل بارز. متحف هيرميتاج.



• من ركام الأخوة السبعة طبق فضة جوريتي
مع اغطية ذهبية. متحف هيرميتاج.



• من ركام الأخوة السبعة مشرب يحمل كلباً
راقداً في جهته السفلى. متحف هيرميتاج.



• من ركام الاخوة السبعة مشرب فضة برأس
برج الجدي. متحف هيرميتاج.



• من ركام الاخوة السبعة تفصيل المشرب يحمل
نحت كلب راقد في اسفله. متحف هيرميتاج.



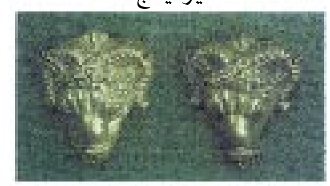
• من ركام الاخوة السبعة. تفصيل المشرب
راس برج الجدي. متحف هيرميتاج.



• من ركام الاخوة السبعة اسوره من السلك
الملفوف مع اطراف منحوتة. متحف
هيرميتاج.



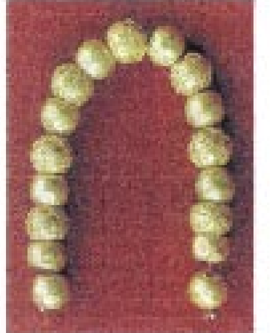
• من ركام الاخوة السبعة طوق.
متحف هيرميتاج.



• من ركام الاخوة لسبعة رأس كبش بارز
متحف هيرميتاج.



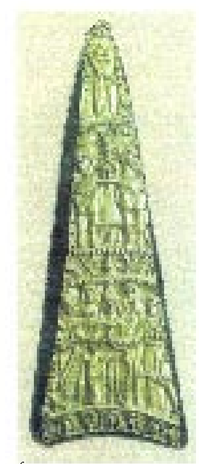
• من ركام الاخوة السبعة راس ثور
بارز. متحف هيرميتاج.



• من ركام الاخوة السبعة عقد. متحف
هيرميتاج.



• من ركام قريةٍ ايفانوفسايا. آلهة بساقين على شكل افعى. متحف هيرميتاج



• من ركام كاراغوديواشخ لباس رأس مثلث متحف هيرميتاج



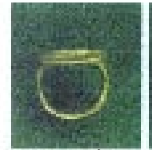
• من ركام قرية أولياب.صدر بيجاسوس وقتال بين الالهة والعمالقة، قدح فضي. متحف الدولة للفن الشرقي.



• القتال بين الألهة والعمالقة سوار يحيط بالقدح.



• من ركام قرية ايفا نوفسكايا. راس اسد منحوت – قدح. متحف كراسنودار



• من ركام كارغواديواشخ امرأة جالسة تعزف على القيتارة خاتم. متحف هيرمتاج.



• من ركام كارجواديواشخ اسد يقطع خنزير بري اربا. متحف هيرميتاج.



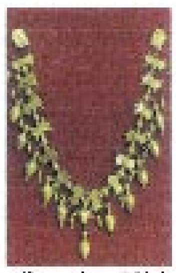
• من ركام قرية اولياب راس اسد منحوت، مقدمة قدح. متحف الدولة الفن الشرقي



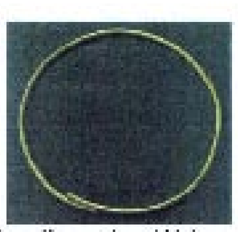
• من ركام جوديواشخ سواز حلزوني مع صور. متحف هيرميتاج.



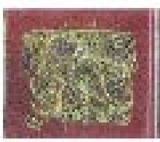
• من ركام جوديواشخ. حلق متحف هيرميتاج.



• من ركام جوديواشخ عقد من صفحات غير منتظمة تحمل عضو نخل، ومعلقات مفصولة بخرازات من الذهب. متحف هيرميتاج.



• من ركام كاراجوديواش طوق من قضيب ذهب. متحف هيرميتاج.



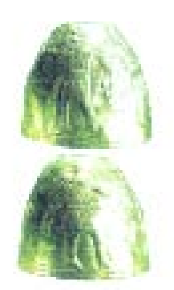
• من ركام كرد جيبس زينة للأحزمة، مثبت فيها قطع ميناء. متحف هيرميتاج



• من ركام قرية فاسبورينسكا. صفيحة غطاء راس. متحف كراسنودار.



• ركام قرية فاسيورينسكايا
صفائح تغطي الجزء العلوي من القدح
متحف كراسنودار



• من ركام كرد جيب
غطاء ذهبي يحمل مجموعتين متطابقتين
لتمثالين يحملانِ رأس رجل مقطوع من
شعره، وسيفاً. متحف هيرميتاج



• من ركام قرية اولياب
رأس وعل ذهبي مع قرون فضية القرن الخامس
قبل الميلاد. متحف الدولة للفن الشرقي



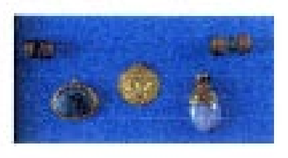
• من ركام قرية اليزافيتنسكايا
قارورة خمر اغريقية. متحف هيرميتاج



• من ركام كرد جيب
زخرفيات ثلاثية. متحف كراسنودار



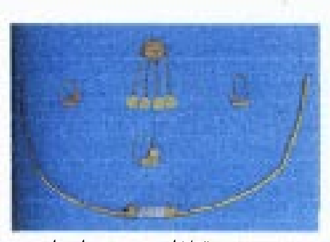
• من ركام قرية لينين
ميدالية مطعمة بالزجاج. متحف كراسنودار



• الحقبة المايوتية- السارماتية
معلقات- ميدالية. القرن الثاني قبل الميلاد.
متحف كراسنودار



• الحقبة المايوتية- السكيثية
خرزات باقنعة. متحف كراسنودار



• حقبة المايوت – سارمات
اقراط للأذن، تعليقة – القرن الثالث – الأول ق. م



• حقبة المايوت– سارمات
عقد. النصف الثاني من القرن الأول ق. م



• حقبة المايوت – سارمات. مشابك
القريني الثالث والثاني ق. م



• حقبة المايوت– سارمات. مشابك
القرنين الثالث والثاني ق.م.



• غورجيبيا
اسوارة – القرنين الثاني والثالث ميلادي



• حقبة المايوت– سارمات طوق
القرنين الاول والثاني ميلادي



• غور جيبيا
مشبك زينة من منتصف القرن الثاني الى
الثالث ميلادي



• حقبة المايوت– سارمات مشبك زينة
القرنين الاول والثاني ميلادي



• غورجيبيا
خنجر في غمده. القرن الثالث- منتصف
الثاني ميلادي



• غور جيبيا
محرقة بخور. القرن الثالث- منتصف الثاني
ميلادي



• غوردجيبيا
.... القرن الثالث - منتصف الثاني ميلادي



• غوردجيبيا
تاج. القرن الثالث - منتصف الثاني ميلادي



• الحقبة المايوتية- السكيثية
اناء فخاري
النصف الأول من القرن الخامس ق. م



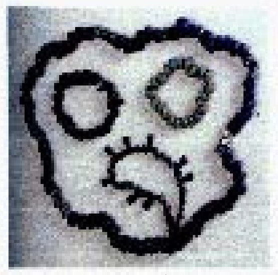
• الحقبة المايوتية- السكيثية
اناء فخاري
النصف الأول من القرن الخامس ق. م



• الحقبة المايوتية- السارماتية
آنية- قناني بلسم
من القرن الثاني ق.م – الأول ميلادي



• الحقبة المايوتية- السكيثية
آنية القرن الخامس ق. م



• الحقبة المايوتية – السكيثية
خرزات – القرن الرابع ق. م



• الحقبة المايوتية – السكيثية
خرزات – القرن الرابع ق. م



• من ركام ارمافير. قلادة خاقيدونية.
الحقبة المايوتية – السارماتية. متحف
الدولة التاريخي، موسكو



• الحقبة المايوتية- السارماتية
خرزات- القرن الأول ق. م



• من مقبرة اوست- لابينسكي
أرنب راكض بحبوب الذهب- ابزيم. الحقبة
المايوتية- السارماتية. متحف هيرميتاج



• من مقبرة قرية لودو جسكايا
أقراط تحمل أكباشاً صغيرة
الحقبة المايوتية- السارماتية. متحف
كراسنودار



• الحقبة المايوتية
جرة للخمر. القرنين الأول والثاني ميلادي

# الفصل الثالث

## تاريخ الشراكسة في العصور الوسطى

### الشراكسة واقتصادهم ( من القرن العاشر وحتى الثالث عشر )

**الإقتصاد:** تظهر اللقى الأثرية في آول (قرى) خودز، كوشه حابله، وستانيتزا نيكراسوفسكي لاقليم كراسنودار أن الأعمال الرئيسة للأديغه في ذلك الوقت انحصرت في فلاحة الأرض، تربية المواشي، الصيد وصيد الاسماك. احتوت الكنوز على اسلحة مصنوعة بشكل ممتاز، أدوات، زخارف، بالاضافة الى قطع سيراميك راقية، تشهد على وجود صناعات متطورة جداً في المعادن، والفخار. كما كانت الزراعة تشمل الذرة البيضاء، الشوفان، الشعير، الفاصولياء والبازلاء.

يقول المسعودي ( كاتب عربي من القرن العاشر ) ان الكيشاك (الأديغة ) " يصنعون أقمشة كتانية تسمى " تالا " وهي كثيراً ما تكون اكثر نعومة من " الدباكي " وأطول استعمالاً بكثير....هذه المادة تصدر أيضاً من البلدان المجاورة لهم: رغم ذلك فان الكتان المصدَّر من هؤلاء الناس متميز بنوعيته ". في القرون من الرابع وحتى العاشر، شكَّلت التجارة مع شبه جزيرة القرم، حوض الدنييبر السلافي، الآلان، الجورجيين، الامازجيين، بيزنطه وايران، شكلت حيزاً كبيراً في حياة الأديغة الاقتصادية. كذلك يشير المسعودي الى ان الأديغة "لديهم تبادلات تجارية مع طرابزون بواسطة السفن "

تبدي اي. بي اليكسييفا ملاحظة مثيرة للإهتمام حول هؤلاء الأديغة " كانوا كلهم احراراً، ولم تكن لديهم عبودية........ الرجال المنتمون الى قبائل غربية، الذين يتم أسرهم خلال الصدامات الحربية، كانوا إما يباعون الى التجار الأجانب، او يتم قبولهم في العائلة. كان عمل العبيد نادراً ما يستخدم في اقتصاد تلك الفترة ".

قاموا بتربية قطعان المواشي بشكل رئيس في الهضاب، والغنم في الجبال. كذلك ربوا الماعز والخيل. يرجع بعض الدارسين بدايات تربية الدم القباردي في الخيول الى العصور الوسطى المبكرة. استمر صيد الاسماك في التواجد على شبه جزيرة تامان بشكل متناقص. ظلت ممارسة الصيد قائمة في كل من الهضاب والجبال كمهنة اضافية.

**اللباس القومي**: الاجزاء الرئيسة من اللباس القومي المعاصر: الأديغة تسي (تشيركيسكا بالروسية) أديغه بأه (قبعة الاستراخان العالية) شحارخون (بيشميت) تشازما (الحذاء ذو الرقبة الطويلة) وديجين بغِه ريبخ (الحزام المطعَّم بالفضة)، تعتبر انها ظهرت أصلاً في هذه الفترة. لاحقاً، تبنى جميع جيرانهم القفقاسيين والقوزاق الروس اللباس القومي للأديغه.

**التركيب الاجتماعي والاسماء القبلية الجديدة:** تبدو وتيرة تطور الأديغة بطيئة وغير متوازية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر. كانت المقاطعات المجاورة للمجرى الأوسط لنهر الكوبان بالاضافة الى البحر الاسود وبحر آزوف، بحلول الالف الميلادية الأولى، اكثر تطوراً بدرجة ما من الاقاليم الداخلية.التي كانت عملياً مقطوعة عن المراكز الثقافية القائمة يومها. في نفس الوقت، نحن نشهد ظهور قبائل أديغه جديدة: الابزاخ، البسليني، البجدوغ، الشيمجوي، الحاتقواي، القباردي، الماخوش، الناتخواج، الشابسوغ، وغيرها، الذين هم في مراحل مختلفة من التقدم. يمكن تقسيمهم الى مجموعتين حسب شكل تركيبها الاجتماعي.

احدى هاتين المجموعتين الأديغة لم يكن لديها " بشي " (امراء) لطبقتها الحاكمة، بل كان لديها فقط " وَرِّق " (نبلاء) وتحماده (وجهاء وكبار السن) وتكوَّن معظم سكانها من " الفاقول " (الفلاحين الاحرار). انتمى الى هذه المجموعة الابزاخ، الناتخواج، الشابسوغ و بضعة قبائل صغيرة أخرى، تشكل ٧٥ ٪ من السكان الأديغة (حسب احصائيات القرن التاسع عشر).

خلال الفترة نفسها، شكلت المجموعة الثانية من الأديغة، والتي كان لديها تركيب اجتماعي اكثر تقدماً، وشكلت حوالي ٢٥ ٪ من السكان الشراكسة. كان لهذه المجموعة " بشي " (امراء) و " بشيتل " (عبيد). انتمى اليها البسليني، البجدوغ، الشيمجوي، الحاتقواي، الماخوش، المامكغ وغيرهم.

في هذه الفترة، كان الاقليم الرئيس لسكنى الاديغه القدماء هو سفوح جبال القفقاس الشمالية الغربية، سهول المجرى السفلي للكوبان و الشواطئ الشرقية للبحر الأسود من دلتا نهر الدون وحتى ابخازيا.

## غزو جنكيزخان

أثبت القرن الثالث عشر من تاريخ الأديغة، أنه زمن تجارب صعبة وصراع محتم من اجل الاستقلال ضد الغزوات التتار – المغولية في اراضيهم. منذ القرن الثاني عشر، كان المغول

والتتار قد اسسوا دولة اقطاعية كبيرة في آسيا الداخلية. عين الاسياد الاقطاعيون البارزون لمنطقة كورولتاي زعيم احدى المجموعات، تيموجين الشجاع، الخان العظيم للدولة الجديدة، تحت اسم جنكيزخان. لاحقاً، الصق التاريخ بمحاربيه "شجاعة الاسد و صبر الكلب ودهاء الثعلب، والغرائز الافتراسية للذئب ".

خلال وقت قصير، نمت قوة هائلة من المكونات المتقاتلة سابقاً. انطلقت نحو شمال الصين، وانقضوا على هضاب آسيا الوسطى الخصيبة، ومن خلال ايران، وصلوا الى القفقاس. بعد أن حطموا قوات جورجيا المسلحة، الحراس المتطورين لجيبي وسوبيدي، عبروا مضيق شيروان ووصلوا الى شمال القفقاس. هناك هزموا الآلان أولاً عام ١٢٢٢، وبعدهم القبجاك – بولوفيتس. تقول السجلات الروسية ان التتار احتلوا بلاد " الياسي، اوبيزي والكاسوغي ". بكلمات أخرى، بلاد الآلان، الاباظه والكاسوغ، بعد ذلك وصلت الحشود التتارية – المغولية الى شبه جزيرة القرم، نهبت سوداك واندفعت الى الهضاب البولوفيتسية –في " اوكرانيا " الجنوبية ( المنطقة المحاذية ) للروس.

## الأديغة والحشود الذهبية

جاءت حملة باتوخان ( باتيي ) الجديدة حفيد جنكيزخان بعد ١٢ سنة. نهب كييف، اسس دولته، الحشود الذهبية في الهضاب البولوفيتسية وبدأ يحكم منطقة شاسعة من شبه جزيرة القرم وحتى خوارزم ومن بلغار الفولغا الى شمال القفقاس.

يقول المؤرخ الفارسي رشيد الدين: عام ١٢٣٧، زحف تتار مانجوخان وكادان " على الشركس ( الشراكسة ) وقتلوا الملك المحلي المسمى توكار " لاحظ رشيد الدين بشكل خاص المقاومة الشجاعة للشراكسة ضد الغزاة. على أية حال، كتب باتوخان بعد سنة الى أوجيدي" بإرادة السموات الخالدة، دمرنا مدينه ميجيت (أرخيز السفلى، في قراشيفو – شركيسيا ) واخضعنا لحكمك العادل احد عشر بلداً وشعباً ". بغض النظر عن ذلك، كان مانجوخان مازال يقاتل ضد الشراكسة عام ١٢٤٠.

في القرن الثالث عشر، سقطت هضاب شمال القفقاس واراضي تامان تحت حكم التتار – مغول، لكنهم لم يتمكنوا بعد من توسيع سلطانهم على ساحل البحر الأسود، بسبب المقاومة العنيدة " للشركس البيض " (زيخيا البيضاء، حسب المؤلفين القدماء).

لم يتم إخضاع سكان منطقة الجبال من بلاد الشراكسة والشريط الساحلي للبحر الاسود من قبل المغول – التتار حتى في القرن الرابع عشر. كتب روبروك " زيخيا لا تطيع التتار ". على أيه حال، فان قسماً من الأديغة القاطنين في السهول، اضطروا الى الاعتراف بحكم

خانات المغول عليهم. توصل إس برونيفسكي (١٨٢٣ )، الذي حلل وثائق الارشيف الى ان خضوع الأديغة الى الحكم التتاري – المغولي كان " إسمياً " تماماً في جوهره. فقد قاومهم التشيخ ( الزيخ – الشراكسة ) باصرار شديد، لكنهم اخضعوا عام ١٢٧٧ من قبل خان مانجو – تيمور والنوغاي.

وهكذا، اصبح المغول حكام آزوف وتامان، والعديد من اقاليم القفقاس، ورغم ذلك فقد ظل خضوع الشراكسة محل شك. فقد احتفظوا باستقلالهم حتى فيما يتعلق بالجبال والغابات في اراضيهم. في نفس الوقت، احتفظ الشراكسة بالساحل الشرقي لبحر آزوف حتى الدون، احتلوا كيرتش وقاموا بغارات عديدة داخل القرم واقطار أخرى في اوروبا. يضيف اس. برونيفسكي استنتاجه المفاجئ " من هناك نزلت هذه العصابات من القوزاق، الذين ظهروا في ذلك الوقت " يخبرنا آي بلارامبيرغ وكلابروت ان العدد الصغير نسبياً من التتار المغول، مكَّن الأديغة من الاستقرار تدريجياً على الضفاف اليمنى للكوبان وعلى الساحل الشرقي لبحر آزوف، بسبب الحاجة الى توسيع اراضيهم القابلة للزراعة.

ضعفت قوة خانات الحشود الذهبية في شمال القفقاس عند النصف الثاني من القرن الرابع عشر. كتب انتريانو أن الاديغه " يقاتلون ضد التتار الذين يحيطون بهم من كل ناحية كل يوم، يخترقون الى تشيرسونيس من خلال البوسفور، خاصة في الشتاء، ينهبون السكان الثراسيين، خاصة التتار: اكثر من ذلك، فان عدداً صغيراً من الشراكسة يسوق حشداً كبيراً من التتار أمامهم ".

استمر الأديغة في الصراع لأجل حريتهم واستقلالهم حتى في القرن الخامس عشر. في صيف عام ١٥٠٠، طلب الشيخ أحمد، الحاكم الرئيس للحشود العظيمة من خان القرم الإذن للتحرك عائداً الى الدنيبير مع الحشد لأنه خلف الدون " هناك العديد من النوغاي والشركس الذين يقاتلونا ". في حزيران عام ١٤٩٨، كتب السفير الروسي بي تشيليشيف من القرم ان " الشركس ( الأديغة )، هجموا على الحشد العظيم وقتلوا العديد من التتار. لايستطيع القيصر ماخمات ان يعيش تحت حكم الشركس، انه يفكر في الانتقال الى هذا الجانب من الدون " وهكذا، فان مقاومة الأديغة المصممة، اجبرت الحشد في النهاية على مغادرة بلادهم والانتقال الى مكان اقرب من القرم.

## غزو تيمورلنك

قاد تيمورلنك الغزو التتاري - المغولي الكبير الثاني في بلاد الشراكسة. هذا التتاري، نجل زعيم مغولي، اجلس نفسه على عرش سمرقند عام ١٣٦٩ بعد ان تغلَّب على جميع خصومه ومنافسيه في بلاده. بعد ذلك قام بتنظيم الشؤون الداخلية لمملكته وبدأ يقوم

بحملات عسكرية، مدفوعاً بشهوته للاكتساح.

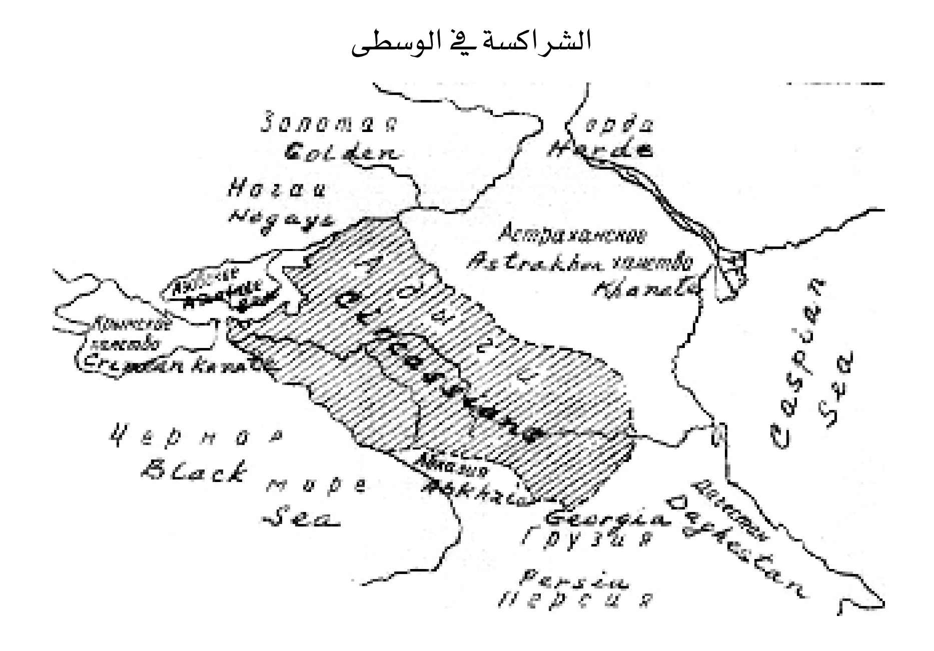
ربما، لم يتفوق عليه أحد في القسوة. كانت سياسته، بعد أن يحتل أية بلدة أو ضاحية، ان يعذب السكان كلهم ثم يذبحهم ويجمع رؤوسهم في مكان واحد، حتى يبث الرعب في قلوب الرجال. كان حجم كل كومة من تلك الرؤوس هو الاداة التي يقيس فيها قوته وعظمته الملكية.

عام ١٣٩٥، وجه ضربة قاصمة لحشود توختاميش القوميق من المغول الذين زحفوا من القرم لملاقاته، على نهر تيريك. احرق سراي بيركه ونهب مدناً أخرى في اولوس (إقليم) جوشي: كافا، ازاك، واستراخان. منذ ذلك الوقت، فقدت الحشود الذهبية نفوذها السياسي والاقتصادي السابق في جنوب شرق اوروبا. في نفس السنة، زحف تيمورلنك من آزاك (آزوف) الى الكوبان. يقول شريف الدين يزدي " احرق الشراكسة المروج، الموجودة بين آزاك والكوبان، وتبعاً لذلك، فقد مات عدد كبير من مواشي الجيش المنتصر (تيمورلنك) وعانوا من نقص العلف لمدة سبعة او ثمانية أيام ". وتحمل جيش تيمورلنك صعوبة كبيرة نتيجة لذلك، فاضطروا لعبور الانهار والمستنقعات بصعوبة ".

تقدم تيمورلنك في الجانب الشمالي من القفقاس، مطارداً جيش توختاميش. اشتبك توختاميش مع تيمورلنك في معركة فاصلة على نهر مالكا، في منطقة ستانيتزا سولداتسكي الحالية، لكنه انهزم مرة أخرى واضطرت حشوده الى البحث عن ملجأ في أودية جبل إلبروز.

غضب تيمورلنك من الشراكسة للخسارة التي الحقوها به " باحراقهم المروج "، فارسل في تلك السنة حملة تأديبية ضدهم، نهب قراهم، احرقت مدينة كوبان على نهر بوتوك واصابوا غنائم كثيرة. بعدها تحرك الى أعالي الكوبان، الى منطقة قراشيفو - تشيركيسيا الحالية. رغم ذلك، لم تكسر هذه القسوة روح الشراكسة كما كان يأمل. بدلاً من ذلك، استمروا في "الدفاع عن حريتهم " بقدر اكبر من التصميم والشجاعة.

حتى تفكك حكومة تيمورلنك والحشود الذهبية لم يجلب السلام والحرية الى الشراكسة، والآلان وامم أخرى في شمال القفقاس، مع انهم ظلوا - رسمياً فقط - اتباع التتار. استمر التتار في التجوال على الاراضي المنبسطة لبلاد الشراكسة، ينهبون السكان. من الناحية الأخرى، كان النوغاي يحاولون ان يفرضوا حكمهم على شراكسة بياتيجورسك.




**منطقة الشراكسة ( الأديغة ) المحتلة قبل الحرب الروسية – الشركسية**

كانت خسائر الأرواح والاضرار الاقتصادية التي سببتها هذه الغزوات على بلاد الشراكسة هائلة ، فقد غيرت حياة الناس من مجموعات اثنية كثيرة تغييراً ملموساً.

ففي شمال القفقاس، اعادت تشكيل حدودها الاقليمية ، يقول ناخوشت باغراتيوني، نجل احد الملوك الجورجيين "دمرت مدن اوفسيس، اصبحت اوسيتيا (الاشارة هنا الى القسم المنبسط) تسمى بلاد الشراكسة او قبارديا. اصبحت الاجزاء العليا من الكوبان وزيلينتشوك، اضافة الى بياتيجوريا، اصبحت جزءاً من المنطقةالمسماة تشيركيسيا اوتشيركاسيا" بكلمات أخرى، لم يتمكن الشراكسة فقط من النجاة من غزوات الحشود الذهبية وتيمورلنك وتحمل الدمار الرهيب والصعوبات التي سببها اولئك في بلادهم، بل أيضاً بسطوا حدودهم صعوداً الى نهري الدون وسونجا. مع بداية القرن السادس عشر، شكل الأديغة أحد أقوى المجموعات الاثنية في شمال القفقاس.

## الشهامة الشركسية

تعود بداية تطور الشهامة الشركسية الى العصور البعيدة لملحمتهم "النارتيين". فقد جسَّد الأديغة مثالياتهم في الشهامة في ابطال ملحمة نارت. لذكر مجرد قلة منها، نارت نيسرين، نارت شيباتينوكو ونارت بازاد. منذ ذلك الوقت، وكل شركسي يريد أن يصبح بطلاً ذا شأن.

اضطروا الى الركوب والقتال بدرجة انعدام امكانية هزيمته مثل هؤلاء النارتيين، ومثلهم، يحيا بموجب القواعدالسلوكية الصارمة: ان يقيِّم الكرامة والحرية بدرجة أعز من الحياة، ان يبقى مؤدبا على الدوام، عطوفاً، كريماً ومضيافاً للجميع، يحترم كبار السن والنساء، يحمي الاطفال والضعفاء، وفي ازمنة الحروب، او عندما يتم تحديه، ان يواجه الموقف بجرأة، بعقل صاف، بكرامة غير معيبة، وشرف، وبثقة عظيمة، وحركة سريعة وسرعة خاطر. حتى " زيقوه "ً، ممارسة المسيرات الطويلة على ظهور الخيل بحثاً عن المغامرة، التحدي، وربما، أيضاً، الغنائم، ترجع اصولها الى عصور النارت الموغلة في القدم. هذه حقيقة تاريخية معترف بها من قبل المختصين بملحمة النارت، المؤرخين وخبراء الفلكلور.

يعتقد إس. خوتكو ان الشهامة الشركسية وصلت الى ذروتها في العصور الوسطى، اثناء الفترة الأشد صعوبة للنير التتاري – المغولي. كان عدد الأديغة كبيراً. فقد شغل اسلافنا نصف شمال القفقاس، وكان عدد الفرسان الاقطاعيين كافياً ليس فقط للدفاع عن هذه الاراضي الفسيحة بل أيضاً للحملات البعيدة. اضافة الى ذلك، بحلول القرن الثالث عشر، بدأ المجتمع الاقطاعي الشركسي يرسل الفائض من المقاتلين – اطفال النبلاء الذين لم يجد لهم استخداماً في الوطن الأم. تجولت عصابات من هؤلاء الخيالة "الفرسان الجوالون" خلال القفقاس كله واوروبا الشرقية باحثين عن المجد والغنيمة. تشكل الجسم الرئيس من هذه العصابات من الوَرْق، النبلاء الشباب. يعتبر بي. ك. بغاجنوكوف ان المسيرات البعيدة للفرسان – الخيالة لأجل الغنائم، والمعروفة تحت اسم "زيقوه"، قدلعبت دوراً مهما في الحياة الاقتصادية والروحية لبلاد الشراكسة، وهي واحدة من اهم صفات تاريخها. ولا يقل حكم المماليك الشراكسة في مصر أهمية، ولا الدور الرئيس الذي لعبوه في السياسة العالمية لقرون.

## "التهجير الكبير" للأديغة

غيَّرت غزوات التتار – المغول الخارطة الاثنية لشمال القفقاس بدرجة عميقة خلال القرن الثالث عشر. تخلت بعض القبائل في هذا الاقليم عن امكنة سكناها واستقرت في مناطق جديدة،مستسلمة لضغوط المعتدين. بينما ذابت قبائل أخرى ضمن ثقافة القادمين الجدد، وفقدت اصالتها. وهناك آخرون، أظهروا صلابة وحيوية غير عاديين، فتمكنوا من الحفاظ على هويتهم الاثنية. انتمى الأديغة الى هذه المجموعة. ظلوا مخلصين لتقاليد اسلافهم واوفياء لأراضيهم القديمة، القفقاس.

كما لاحظ إل. لولي "تأثرت عملية إعادة توطين الشراكسة بالمغول، المتجهين لاحتلال خزرياعام ١٢٣٧، ولاحقاً بزحف باتيي خان، وأخيراً بتيمور (تيمورلنك) على آزوف عام ١٣٩٥. في الواقع، فان هؤلاء التتار - المغول طردوا الآلان والقبجاق وفرقوهم، ودفعوا بجزء من الجبليين الى اودية جبال القفقاس السحيقة. نتيجة لذلك، فقد عزل القرشاي - بلقار، الآلان - اوسيتين، والوايناخ وشعوب أخرى في الجبال.

حسب رأي ايه. تي كيراشيفا وايه واي. تشيرغ "عملية اعادة التوطين هذه كانت قد بدأت منذ القرنين العاشر والحادي عشر" بحلول القرن الثاني عشر، كان الأديغة قد انتقلوا الى الضفاف العليا لنهر الكوبان. رغم ذلك ، فان هجرة الأديغة الى الشرق تبلورت فعلياً فقط بعد غزوات التتار - المغول في القفقاس.

أدت الغزوات المدمرة لحشود التتار - المغول في القفقاس الى " تطهير " مساحات سهلية واسعة من العديد من السكان المحليين بمن فيهم الآلان. دعم هذا الموقف رغبة النبلاء الأديغة لتوسيع" مجالهم الحيوي " فاستمروا، خلال القرون من الثالث عشر حتى الخامس عشر، في توسيع حدود منطقتهم، بعد حصولهم على الأراضي الخصبة لساحل بحر آزوف الشرقي، وصلوا الى نهر تينا ( الدون ) في الشمال. في الاتجاه الشرقي، ذهب المستوطنون الأديغة الى ضفاف نهر السونجا. وهكذا بدأت مجموعات أديغه معينة في التحرك تدريجياً الى شمال وشرق نهر الكوبان وحوض نهر تيريك، حيث استقروا، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر في منطقة واسعة من اقاليم سفوح جبال القفقاس المركزية، والتي كان قد تم تحريرها من الآلان.

اسست عمليات إعادة الاستيطان هذه بداية العزلة لقطاع من الأديغة، المسمى القباردي أو القبرتاي. كان عددهم صغيراً نسبياً خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. كذلك استقرت مجموعة البيسلني من الأديغة في حوض التيريك الى جانب القباردي. كان الأمير إينال، الجد الأعلى لامراء القباردي، البيسلني، والتشيمجوي ( تيمرجوي ) قد نجح في توحيد قطاع كبير من السكان تحت حكمه. كتب إس. نوغموف " توقفت المتاعب والاضطرابات بين الأديغة تحت حكمه القوي والحكيم. فقد صالح الفئات المتقاتلة ووحد القوات المتفرقة ".

توجد ادلة على أن القبارديين، قبل هذه الهجرة، سكنوا في الشواطئ الشمالية لبحر آزوف، في منطقة مدينة تاغانروغ الحالية. في القرن الرابع عشر، استقروا في منطقة بياتيجورسك وأوشحه مافه ( إلبروز ). بعد ان طردوا الآلان، الذين هربوا الى هناك قبل قرن من الزمان، قادمين من هضاب شمال القفقاس.

ما تزال آثار من اقامة الأديغة- القباردي على ساحل بحر آزوف موجودة. توجد عبارة "كاباردي" على خارطة الفيكونت الجنوي (١٣١٨) في مكان مقاطعة تاغانروغ الحالية. ان ذكرى إقامة القباردي في القدم محفوظة في أسماء جغرافية أخرى أيضا، بالإضافة إلى ما يخبرنا به إل.لولي أنه "حتى اليوم (١٨٥٧) توجد خرائب قصر "تشيركيس كيرمين" المحلة الواقعة بين نهري بعلبك وكاتشا تسمى "قباردا" أو "تشيركيس- ديوز" (السهل الشركسي). كذلك ينعكس التواجد الشركسي في القدم في اسطورة الأديغة "تاوتش و باستيوكو تليشيج" التي يحدث فيها القتال في دوائر الأديغة في القدم، قرب كيرتش.

المعلومات التي يقدمها عسكر حدغاله، الذي يقول، بالاستناد إلى مصادر أرشيفية، أن أسلاف الاوسيتيين، قدموا من سواحل بحري آزوف والأسود ومن مصبي نهري الدون والكوبان في غرب بلاد الشراكسة، واستقروا في مقاطعة البروز في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، حيث أصبحوا جيرانا دائمين للأديغه الشرقيين - القباردي.

حفز النير التتاري- المغولي وغزو تيمور لنك انتقالاً كبيراً بين الابازين أيضا، وهم قريبون من الابخاز و الأديغة لغوياً. من حيث الجذور، فأن تاريخ الابازين(الاباظه) يعود إلى تاريخ ابخازيا في العصور الوسطى. حسب رأي العلماء، فقد شكل الابخاز والابازين مجموعة اثنية واحدة، لغة جماعية واحدة، يقطنون منطقة واحدة. حتى هذا اليوم، حفظت اللهجتان الابخازية والأبازية، تركيباً قواعدياً مشتركاً ومفردات أساسية واحدة، يستطيع مستخدمو اللهجتين بموجبهما التوصل إلى تفاهم بينهما.

ان تسمية "أباظه" التي يطلقها الابازيون على أنفسهم، مرتبطة ارتباطا وثيقاً بإسم قبيلة ابخاز- أبازغا، والتي كثيرا ما يرد ذكرها في مصادر القرنين الثاني والثالث الرومانية – الإغريقية. انتشرت التسمية لاحقا في سجلات العديد من اللغات على شكل "أبازغا"، "ابخاز"، "أوبيز" و"أباظه". ساد أعتقاد لمدة طويلة بأن أسلاف الأباظة سكنوا في البداية على ساحل البحر الأسود: يمكن العثور على الابخازيين، بشكل تقريبي من غاغرا إلى أدلير أو ماتسيستا، والتابانتيين إلى الشمال الغربي منهم، حيث توجد الأسماء المقابلة للعائلات الاباظيه الإقطاعية ( لاو - كيتش - داديركفان )، هناك إفتراض آخر يقود أسلاف الأباظه إلى شمال القفقاس عبر سهول مزيمتا، بزيبا وكابورا، رأسا فوق الممرات الجبلية ( بسة اشخو، سانتشار، ماروخ، كلوخور) من المنطقة التي إحتلها سكان يتكلمون الابخازية منذ زمن طويل.

إن نقص الأرض الملائمة، خاصة المراعي، الثارات الدموية والخلافات الداخلية، هي من بين الأسباب المذكورة لإعادة استقرارهم. في البداية، ازالت هذه الأسباب مجموعات صغيرة من الابخاز إلى الضفاف العليا للأنهار المذكورة آنفا، ولاحقا إلى المنحدرات الشمالية إلى جوار القباردي. استنادا إلى اسطورة أباظيه، فقد أنتقل هؤلاء المهاجرون فوق الممرات الجبلية بين الضفاف العليا لنهري بيلايا وتيبيردا. هناك أساطير أخرى تذكر ممري كلوخور وماروخ تحديدا، وتقود قسماً من الأباظه من الأقليم الأوسط لابخازيا الجبلية، من تسيبيلدا تحديداً. تشير مثل هذه الأسماء القفقاسية الشمالية مثل تيبيردا، كيتش، كليش، كناناشخير، إلى الصلة بمضيق كودور.

في تاريخ ابسيليا الأباظية، كانت ثلاثينات القرن الثامن واحدة من اللحظات الملائمة للهجرة، حينما جعل الغزو العربي، اوديتها مهجورة وعصية على المرور. كشفت اللقى الأثرية في تسيبيلدا تناقصاً حاداً في السكان في هذه المنطقة في القرون من الثامن وحتى العاشر. لذلك فأن قسماً من الابسيليين يمكن أن يكون قد أنتقل في حينها على الدرب المطروق إلى الأودية القفقاسية الشمالية.

بدأ الإنتقال الجماعي لقبائل الابازين - من ساحل البحر الأسود إلى القفقاس الشمالي- الغربي، وحتى الضفاف العليا لنهر الكوبان - خلال فترة الحشود الذهبية (القرنين الثالث عشر والرابع عشر) استمرت عملية استقرار الأباظة حتى القرن السابع عشر وما بعده، والتي كان خلالها التابانت أول المستقرين، الفرع الشرقي من الأباظة، ولاحقا الشكاراو. إن تناقص الكثافة السكانية هنا، كنتيجة لمذابح التتار- المغول وسقوط آلانيا، أدى إلى هجرة الأباظة نحو الضفاف العليا للكوبان. خلال هذا الوقت، عرف عن الأباظه أنهم سكنوا الساحل الشرقي للبحر الأسود، إلى الشمال الشرقي من ابخازيا، في منطقة طوابسه الحالية، حيث عاشوا بين شراكسة السواحل.

كذلك، دمج الأديغة الذين عاشوا عبر الكوبان جزءاً من التتار- نوغاي والقبجاك - بولوفيش أثناء ذروة وتفكك الحشود الذهبية.

كما تشهد المصادر الغربية وملاحم النارت على السواء، فأن بلاد الشراكسة لم تمثل تشكيلاً سياسياً متحداً خلال القرون من الثالث عشر وحتى الخامس عشر، بل كانت مقسمة إلى إتحادات قبلية متعددة. تؤكد خرائط تلك الفترة أنه، بحلول نهاية القرن الخامس عشر، فأن المنطقة الواقعة ما بين الدون الاسفل والكوبان كانت لاتزال جزءاً مكملاً لبلاد الشراكسة، وأنها لم تسقط تحت سيطرة القبائل الرحل إلا لاحقا.

## المستعمرات الجنوية في بلاد الشراكسة

يقول اس. خوتكو، أن العلاقات الحسنة مع بلدان أوروبية غربية شغلت حيزاً مهماً في السياسة الخارجية لبلاد الأديغة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. تبعا لذلك، بدأت المستعمرات الإيطالية تخترق بإتجاه ساحل البحر الأسود في القرن الثالث عشر. كان الشراكسة في ذلك الوقت يشكلون حلقة الوصل في التجارة بين أوروبا الغربية وآسيا الوسطى والصين. وقتها كانت هذه التجارة محتكرة بأيدي جمهوريات جنوا والبندقية البحريتين.

ظهرت أوائل المستعمرات الجنوية على الساحل الشمالي للبحر الأسود في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. بعد كافا (ثيودوسيا) وفو سبيرو (كيرتش)، أسسوا محطات متاجرة كبيرة، ماتريجا (تامان)، كوبا ( سلافيانسك- على- الكوبان) بالإضافة إلى مابا (انابا)، لوستيمين ( نوفوروسيسك)، مافرولاكو (غيلينجيك) سيباستوبوليس ( سوخومي) وأخرى. في المجموع، بنوا ٣٩ محطة متاجرة على سواحل البحرين الأسود- آزوف. حسب لائحة تأسيس المستعمرات، فقد تحتم على الجنويين دفع أتاوة إلى أمراء الأديغة.

تظهر السجلات الجنوية للقرن الخامس عشر أن طبقة الأديغة الحاكمة قد انغمست تدريجيا في التجارة الخارجية مع جنوا. كثيرا ما أبرم تجار وقناصل جنوا اتفاقيات مع ممثلين مختلفين من نبلاء الأديغة. كتب قناصل في كافا في تقاريرهم أيام ١٦-١٨ أيار عام ١٤٧١، ان كافالينو كافالو قد وصل، والذي كان قد أرسل إلى زيخيا (بلاد الأديغة) لتنظيم الشؤون مع زيخيا، وكذلك مع بيلزبيك، أمير كوبارنو وزوجته. جاء في رسالة مؤرخة في ١٦ شباط ١٤٧٠، أن أمير كوبارنو " ظل على الدوام يطالب بدليل مطلق تحت ذريعة وعود فارغة، أعطاها كثيراً ولكنه لم يلتزم بها أبدا ".

حسب برونيفسكي فأن التجار والحرفيين في مدن ومستوطنات القرم كانوا "عبيدا مسيحيين، اتراك، يهود، شراكسة، بياتيجوريين (قباردي) أو فلستينيين (غجر). وإتضح، ان طبقة صغيرة من الأديغة كانت موجودة في القرم، تخصصت في التجارة الأجنبية. قدمت هذه الطبقة الشركسية من الحرفيين والتجار في القدم مساهمة بارزة إلى التطور الاجتماعي - الإقتصادي لبلاد الأديغة.

في ذلك الوقت، عاش الأديغة في كوبا إلى جانب القادمين الجدد الإغريق، الأرمن، والإيطاليين. كان يقام معرض هناك سنويا، يستمر من نهاية نيسان وحتى ١٥ أيار.

شكل الاغريق والأديغة أغلبية مسيطرة في كوبا وماتريجا بين القرنين الثالث عشر وحتى

الخامس عشر. كذلك كان مقر اقامة متروبوليت الإغريق لارشدوقية زيخيا في ماتريجا أيضا. تنامى دور ماتريجا بقوة، لأن جميع القبائل المجاورة كانت تجيئ إليها لتبادل منتجاتها.

أقام الأديغة علاقات تجارية نشيطة مع جنوا والبندقية. تكونت البنود الرئيسة من الصادرات الشركسية من السمك المملح والكافيار، والذي كان ينتقل في براميل ذات سعة ٥ كاغار ( ٦١،٥ كيلوغرام). يمكن الحكم على حجم صادرات السمك الفخمة من بلاد الشراكسة من معلومات إم بيسونيل " ان آخووجوارها توفر كميات هائلة من الكافيار والسمك المجفف، يتم تصدير حوالي ثلاثة آلاف سنتنرمتري من آخو سنويا ( ٣٠٠ طن) من الكافيار، تشحن في براميل كبيرة " . كذلك انضم العسل، الشمع، الجلود، الفراء وبشكل رئيس الحبوب إلى المنتجات المصدرة. توجد وثائق محفوظة تشهد على أنه أثناء المجاعة الكبرى في إيطاليا عام ١٦٢٨، أمر حاكم البندقية بشراء الحبوب من خارج حدود الجمهورية لتوزيعها على السكان. في ذلك الوقت، قدم "التتار، الآلان، الزيخ (الشراكسة).الروس، الأتراك، الأرمن والإغريق الحبوب إلى سكان البندقية." بدورها كانت البضائع التالية: الملح، الصابون، السجاد والانصال لصناعة السيوف تستورد من خلال المستوطنين الجنويين.

ترك ريجولوتي وصفا تفصيليا لطريق التجارة من تانا عبر سفوح هضاب القفقاس إلى ساراي، اورجينش وبعدها إلى الصين. بعد أن استقر الجنويون في مستعمرات البحر الأسود، قاموا برحلات تجارية إلى فولغا، ومن خلال بحر قزوين، باحثين عن الحرير. في عام ١٣٠٧، صادر توختاميش بضائع جنوا في ساراي، عاصمة الحشود الذهبية. خلال ذلك الوقت، تشكل سكان ساراي من المغول، القبجاك، الاوسيتين، الأديغة و آخرين.

بقيت آثار الطريق التجاري لجنوا محفوظة حتى ستينيات القرن التاسع عشر في حوض الكوبان. بدأت من أنابا، تقدمت بمحاذاة السفوح الشمالية للسلسلة الرئيسة لجبال القفقاس حتى الستانيتزات الحالية: خابلسكي، ساراتوفسكي، خانسكي، نوفو-سفوبودني، بسيمينوفسكي، وأبعد بمحاذاة نهري كيفار وزيلينتشوك الاكبر، عبر نهر ماروخ على تبيردا حتى قرشاي الكوبان. من هناك عبر أحد فرعيها من فوق السلسلة الرئيسة إلى تسيبيلدا، ويذهب الآخر بمحاذاة نهر التيريك إلى سواحل بحر قزوين.

نفذت جنوا سياسة استعمارية واضحة المعالم من اجل تقوية وضعها في بلاد الشراكسة، وذلك بالتدخل النشيط في الشؤون الداخلية للأديغه. تسليط بعض الحكام الشراكسة على الآخرين. سعوا بذلك إلى السيطرة السياسية والا قتصادية في زيجيا. عام ١٤١٩، تزوج الجنوي سيمونوجيزيلفي من بيكي خانم، إبنة الامير بيروزوكا الزيجي. منذ ذلك الحين،

ظلت ماتريجا في حوزة عائلة جيزيلفي حتى نهاية القرن الخامس عشر. رغم ذلك، ظل وضع المستعمرين غير ثابت في هذه البلاد لان قبائل الأديغة المعادية كانت تحيط بالقادمين الجدد الجنويين.

عام ١٤٧١، ابرم القنصل الايطالي فيليبو كيافويا، اتفاقية مع أمير زيخيا " للفائدة العظمى لتجارنا " كذلك تم التوصل إلى اتفاقية مشابهة عام ١٤٧٣. أبرم احد المستعمرين الجنوبين، لافلينو كافالو اتفاقية مع بارابيوكو امير زيجيا. ذكرت في تقرير قنصل كافة اتفاقيات الجنويين مع امراء زيجيا: بيترازوكو، كوباريو، بيلزابوكو وبيبردي، حاكم اقليم كريموخ ما بين سوتشي وفاردانا. بنى أحد هؤلاء الامراء كابو عام ١٤٧٥. رغم ذلك " كثيرا ما يخرق الزيخ المخادعون الاتفاقيات ومعاهدات السلام".

دأب تجار جنوا على الاختراق في عمق قلب أرض الاديغه، وبالاضافة إلى المتاجرة مع السكان المحليين، كانو يسوقون الرجال والاطفال إلى العبودية ويبيعونهم في أسواق النخاسة في منطقة البحر الأبيض المتوسط. كان الطلب شديدا على الأولاد و البنات الشراكسة هناك. في نفس الوقت، كان التبشيريون البابويون يحاولون نشر المذهب الكاثوليكي بين الشراكسة وأن يستأصلواالوثنية التي كانت ما تزال تمارس من قبل أغلبية قبائل الاديغه " بواسطة الصليب و السيف".

طبيعي أن مثل هذه الفظاعات من قبل المستعمرين اثارت غضب الأديغة أكثر من مرة. اضطروا احيانا إلى اتخاذ الاجراءات الضرورية ضد الجرائم التي اقترفت بحقهم. فمثلا، عام ١٤٥٧، استولى الشراكسة، بقيادة الأمير كاديبيلد، على على قلعة حاكم ما تريجا.

بغض النظر عن الثورات والمعارضة، بقيت المستعمرات الجنوية قائمة في القفقاس الشمالي – الغربي حتى قرابة نهاية القرن الخامس عشر، حينما بدأ الأتراك، بعد أن احتلوا القسطنطينية، يخترقون في القفقاس. دمرت المستعمرات الجنوية بشكل خاص حينما بدأت الحصون التركية تظهر في مكانها. عام ١٤٧٥، استولى الاتراك على كافا وحولوا معظم سكانها إلى العبودية. هناك خطاب محفوظ لشاهد عيان، يصف الاستيلاء على محطة المتاجرة الجنوية هذه " يومي السابع و الثامن من حزيران، تم القبض على جميع الفالاخ، البولنديين، الروس، الجورجيين، الزيخ(الاديغه) وكل اصناف المسيحيين الآخرين، نزعت ثيابهم وبيع قسم منهم كعبيد، بينما قيد آخرون بالسلاسل.

## الأديغة في القرون الثالث عشر-السادس عشر

رأينا التركيبة الاثنية للقفقاس الشمالي الغربي تتغير تدريجيا نتيجة هجرة قبائل الاديغه من حوض الكوبان، سواحل بحري آزوف والاسود، إلى قلب شمال القفقاس. احد الاسباب الرئيسة التي حفزت إعادة توطين قطاع من الأديغة في قبارديا المعاصرة، كان الحاجة إلى أراضي قابلة للزراعة والرعي.

حسب ما تقوله الاسطورة، فقد انتقل القباردي و البيسلني إلى هناك أولا، بعدهم جاء التشيمجوي، الحاتقواي، ثم الشابسوغ، البجدوغ، الناتخواجا وأخيرا، الماخوش والايجيركواي.

عبر التاريخ، في العادة شغلت الشعوب الرحل الهضاب على الضفة اليمنى للكوبان، بينما عاش الأديغة في الاغلب على الضفة اليسرى للنهر. حتى غزوات التتار - المغول لم تحتل الأودية الجبلية القصية لبلاد الأديغة. هناك بقي السكان الاديغه المحليون عمليا بلا تغيير.

دخلت بلاد الاديغه المراحل الأولى لنظام الإقطاع في القرون من الثالث عشر وحتى السادس عشر. كانت القوى الانتاجية فيها عند مستوى متدني من التطور بسبب التدمير الذي أحدثته الغزوات الرحالة المتكررة على أراضيها. الزراعة على مستوى صغير، والذي جمع إليه تربية المواشي، كان لهما أهمية عظيمة في حياة البلاد لكنهما لم تساهما في نمو سريع للاقتصاد. كانت الموانئ والمرافئ والمستعمرات في بلاد الشراكسة، والتي بنى معظمها الإغريق، الرومان، والبيزنطيين لتنمية تجارتهم، موجودة حصريا على سواحل البحرين الاسود وآزوف وعلى ضفاف نهر الكوبان في مجراه السفلي. تشير تجارة المقايضة وقلة تداول النقد إلى أن الاقتصاد الطبيعي استمر وقتا طويلا في البلاد.

قابل انتريانو العديد من القبائل على السواحل الشرقية لبحر آزوف من نهر الدون وحتى مضيق كيرتش، وأبعد إلى الجنوب، حتى ابخازيا.

في العادة، يربي الاديغه الغنم أكثر من الماشية. ربما فعلوا ذلك لأن الأغنام أعتبرت واحدة من أقدم الحيوانات الأليفة لدى السكان الأصليين لشمال القفقاس. احتلت تربية الخيول المقام الثاني لدى الأديغة.

يؤكد الفولكلور أن الأديغة فرسان ممتازون. تألفت دورة كاملة من الحكايات الشعبية و الأمثال عن المتسابقين، مهارتهم، قوتهم وجمالهم. طوَّر الأديغة قواعد عديدة حول تربية الخيول وتدريبها، وهذه تم تمريرها من جيل إلى الآخر وتداولها. يقول آي. باربارو ان الاديغه في منطقة كريموخ قرب شبه جزيرة تامان، كانوا يربون خيولا طيبة.

شكلت مناطق الاديغه مناخاً مناسباً للزراعة، التي احتلت موقعاً مهماً في اقتصادهم. خاصة في الأجزاء السهلية المنبسطة من البلاد وأودية الأنهر الخصبة التي تسهم في الخصوبة بدرجة عالية. لبَّت وفرة المحاصيل من الحبوب المتنوعة حاجات السكان الداخلية. كذلك كانت الحبوب أحد عناصر التجارة الخارجية والتبادل، لكنها ظلت جزءاً بسيطا منها. بكلمات آي. باربارو" كانت الحبوب كافية في البلاد " كانت الزراعة المهنة الرئيسة في شبه جزيرة تامان. كتب انتريانو" هم لا يزرعون الذرة الصفراء ولا عنب النبيذ. لديهم الكثير من الذرة البيضاء و منتجات حبوب أخرى، يصنعون منها الخبز ويحضرون اطباقاً مختلفة. لاحظ باربارو أن تربية النحل أيضا كانت متطورة بدرجة جيدة في منطقة كريموخ. وظلت الفواكه جزءاً حيوياً من طعام السكان وصادرات القفقاس الشمالي الغربي. يقول انتريانو أن الاديغه شربوا نبيذاً من عسل النحل. ساعدت الاراضي العشبية الواسعة المغطاة بالزهور، بساتين الحمضيات، الخ، الأديغة في تربية النحل وبيع كمية كبيرة من العسل والشمع لبلدان أخرى.

أحتل صيد الأسماك موقعاً مهماً في اقتصاد الاديغه. البحيرات الداخلية ومصبات الكوبان، اضافة إلى أنهار الهضاب على سواحل بحر آزوف، تعج بالسمك. أنتشر صيد الأسماك في البحرين الأسود وآزوف واقليمهما. أصبح السكان الذين غالبيتهم العظمى من الأديغة، منهمكين في تمليح الأسماك وتحضير الكافيار في المستعمرة الجنوية على نهر بروتوك، كان الكافيار كله يصدر إلى القسطنطينية. كذلك عمل الأديغة في الصيد. " لكن الصيد، مثله مثل صيد السمك، بقي قائما بينهم كمهنة ثانوية ".

**التجارة الخارجية:** أثناء القرون من الثالث عشر إلى الخامس عشر، مارس الأديغة التجارة الخارجية مع جنوا وحدها، ثم، لاحقاً، مع شبه جزيرة القرم وتركيا. كذلك أحتفظوا بعلاقات تجارية مع اقليم الفولغا، والقبجاك والآلان، أي مع شعوب الحشود الذهبية.

تكونت مفردات التجارة الخارجية من البضائع مثل الملح الذي ظل يجلب أسعاراً طيبة لدى المستهلك في شمال غرب القفقاس، كذلك الأسلحة ومواد فاخرة لطبقة الاقطاعيين الحاكمة. تضمن التصدير من بلاد الأديغة العبيد. أكبر الطلب تركز على الأطفال من عمر ٦ إلى ١٢ سنة وعلى الشباب اللائقين للخدمة العسكرية. وجدت أسواق نخاسة كبيرة في القرون الثالث عشر وحتى الخامس عشر، في كافا، معقل جنوا على البحر الأسود، وتانا، سيباستوبوليس و كوبا. تغيرت أثمان العبيد حسب المظهر، البنية ونوع المهنة التي يطلب لأجلها العبيد.

تحتفظ سجلات الأرشيف الجنوي بالعديد من صكوك كاتب العدل، وهي عائدة إلى القرن الثالث عشر، تتعلق بتجارة العبيد في القفقاس الغربي. تظهر أن الأديغة كانت أسعارهم مرتفعة. لان كلفة الذكر والانثى الشراكسة، ذوي أعمار من ١٠ إلى ١٥ سنة تتراوح بين ٢٣٠ إلى ٧٥٠ اسبيس.

الأسرى الذين يباعون كعبيد يجري في العادة تقييدهم بسلاسل في أزواج ثم يرسلون إلى وجهتهم تحت المراقبة. جزء من العبيد المباعين كان يبقى في اقليم ساحل البحر الاسود (القرم، آسيا الصغرى). ويرسل العديد منهم إلى مصر أو أي بلد آخر في الشرق الأدنى.

يكتب لورينزو بارناردو سفير البندقية ( ١٥٩٢ ) أن تركيا تجاور الأديغة والمنجريليين، " الذين يمثلون ما يشبه منجم للعبيد... يأخذونهم إلى القسطنطينية مثل الماشية ويبيعونهم في المزادات". كذلك ارسلت مجموعات كبيرة من العبيد إلى اوروبا الغربية أيضا. في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، يقول لوتشيتسكي " كان العبيد يحضرون إلى البندقية و جنوا بالمئات والآلاف، وكانت الاسواق ممتلئة على الدوام ".اضافة إلى العبيد، صدرت الاديغيه السمك، الكافيار، الحبوب، الفراء، الشمع، الخشب، الفواكة وخام الفضة. استوردت الاديغيه الملح، المنسوجات القطنية، الارز، الصابون، البخور، المستردة، الزنجبيل، البهارات الراقية، الملابس الايطالية الصوفية، البوكاسين( اقمشة كتانية راقية للقمصان ) بخاران ( قماش خفيف ثمين مثل حرير الموسلين ) السجاد، انصال السيوف، الخ.

## آثار نظام سلطة المرأة

يمكن العثور على بقايا نظام رئاسة المرأة القديم في ملحمة الاديغة "نارت". دور المرأة في هذه الملاحم هائل.ان صورة ستناي، التي تسميها الملحمة الشعبية "أمنا"، هي الأبرز بينهم. انها تحمل اثباتاً واضحاً على ان نظام رئاسة المرأة وجد بين الأديغة في الماضي السحيق، نتيجة احاطة ستناي بالاحترام العظيم. وتشهد صور عدد من البطلات الأخريات في ملحمة "النارت" على ذلك أيضاً. كانت أديف من بينهن. بالنور الذي يشع من يديها، كانت تنير الطريق للنارتيين، العائدين بالغنائم الى البيت ليلاً. ترسم اساطير أخرى إمراة مقاتلة، امرأة تمارس الشفاعة والوساطة، إمراة مستشارة، إمرأة شافية، تبرئ الرجال بانفاسها او بلمسة من يدها. سجلت هذه من قبل البعثة الكوبانية – الشابسوغ عام ١٩٤٩، وتشهد أيضاً على وجود علاقات سلطة نسائية بين الأديغة. كذلك ترى هذه الآثار في المؤسسة المسماة "أتالق" و التي مورست على نطاق واسع في بلاد الاديغه حتى القرن التاسع عشر،

وفي الاساطير حول الامازون: النساء القديمات المقاتلات، المنتشرة في القفقاس على نطاق واسع.

دأب أديغه المرحلة الاقطاعية على تحديد العضوية والانتماء الى مجموعة أو أخرى من السلالة النسائية. هذا يشير الى ان علاقة الأم كانت في وقت ما أساس العائلة والقرابة القبلية. كانت المرأة توقد النار في المدفأة، تطليها بالصلصال، ثم تجهز عشاء الاحتفال الذي تحضره النساء القريبات والجارات. لاحقاً، كان يسمح للرجال بدخول البيت والمشاركة في الوليمة.

اشكال احتفالات الزواج القديمة موجودة في اساطير الشابسوغ. هناك بعض آثار لما يسمى بالتسوية الرئاسية النسائية. وهي تطبق حين يعيش الرجال في بيوت زوجاتهم، كانت لاتزال تطبق في عصر الأسرة الأبوية المتطورة. من وقت الى آخر، لوحظت مثل هذه الحالات بين الشابسوغ في القرن التاسع عشر.

ان تقليد ما يسمى زواج "السرورات" اي زواج شقيقة الزوجة المتوفاة، "إن ابن الاخ بالنسبة للعم هو مثل الخان بالنسبة لشعبه" يقول المثل الشابسوغ ان العم ينتقم لإهانة ابن شقيقه. عند ولادة ابن أخ، يترتب على العم ان يرسل له هدايا بدون ابطاء. في حالة حصول مصيبة، فان الخال مجبر على مساعدته، حتى لوا اضطر الى التضحية بحياته لذلك.

بدوره، كان العم يعامل باحترام كبير من قبل ابن اخيه (او اخته). بالاضافة، فان ابن الأخ مجبر على مساعدة عمه وخاله في نواحي الحياة المختلفة.

اعطى بقاء نظام رئاسة المرأة وضعاً افضل للنساء في بلاد الاديغه حتى اثناء النظام الأبوي. اكثر من ذلك، ففي الخصومات بين الرجال، بامكان المرأة ان تقوم بدور الوسيط او صانع السلام. يمنع سفك الدماء في حضور إمرأة. يمكن للمرأة أن تجبر رجلاً قابلته في الحقل ان يرافقها. في حالات المعاملة القاسية للزوجة من قبل زوجها، كثيراً ما كانت العائلة تدافع عنها.

## النظام الاجتماعي للأديغه

حصل الانتقال من نظام رئاسة الام الى رئاسة الأب بعد ظهور نظام الملكية الخاصة بقليل، وبدأ مع تدجين الحيوانات وتربية المواشي. لأن هذه كانت وظيفة الجزء الذكوري من السكان بامتياز، فقد اعطى امتلاك المواشي سلطة غير محدودة للأب ليس فقط ليصبح رأس النظام الأسري، بل أيضاً لامتلاك العبيد. احتفظ ببعض بقايا هذا النظام بين الأديغة

في القرون الثالث عشر وحتى الخامس عشر.

بعض المؤسسات الباقية من هذا النظام هي: زواج الأخ بزوجة اخيه المتوفي (اذا لم يكن لديهما اطفال)، نزاع الدم، الأتالق، وكرم الضيافة.

لم تكن عاده زواج الأخ بزوجة اخيه المتوفى أديغه بطبيعتها، بل مارسها اليهود وشعوب اخرى في الازمنة القديمة.

نزاع الدم هي عادة مفادها الصراع بين عائلتين قتلت احداهما او جرحت شخصاً من القبيلة الأخرى. يمارسها العديد من الشعوب. يقول انتريانو ان النبلاء الاديغه وحدهم مارسوا هذه العادة.

الاتالق هي عادة، ربما تكون فريدة لدى الأديغة. هي تقليد تربي فيه عائلة ما طفل عائلة أخرى من الرضاعة حتى قرابة سن ١٨. كان تقليد الاتالق مطبقاً ليناسب طريقة حياة الأديغة في القرن الخامس عشر.

كرم الضيافة راسخ بعمق في تقاليد الأديغة. بشكل عام، لديهم تقليد، بالترحيب باي شخص.... باعلى درجات الحفاوة.... وعند مغادرته، يرافق المضيف الضيف الاجنبي الى ملاذ آخر، ويحميه، وعند الضرورة يضحي بحياته من أجله، وكأنه اقرب صديق مخلص.

**العلاقات الاقطاعية**: تأسست العلاقات الاقطاعية المبكرة في الاديغه منذ القرن الثالث عشر، حسب المصادر الأدبية ومكتشفات بيلورتشينسكي. سبقت تأسيس نظام الاقطاع في بلاد الاديغه مرحلة تكوين طويلة ومعقدة.

لاتخبرنا المصادر المبكرة اي شيء عن الكتلة الرئيسة وهي "فاقوتل" (الفلاحين الأحرار) الذين شكلوا ٧٥ ٪ من السكان عام ١٨٦٧. كذلك، لا توجد معلومات مؤكدة حول " البشيل " (العبيد) من السكان لنفس الفترة. أتى انتريانو على الذكر الوحيد لهم. كتب متحدثاً عن التركيبة الاجتماعية لبلاد الأديغة عند نهاية القرن الخامس عشر قائلاً " هناك نبلاء بينهم ( نوبيلي) وتابعين (فاسالي) وخدم (سيرفي) او عبيد (سكيافي). من بينهم يتمتع النبلاء بسلطة هائلة ويقضون جزءاً كبيراً من وقتهم على ظهور الخيل. لا يقبلون باقتناء التابعين للخيل. اذا حدث وقام تابع بتربية مهر، فبمجرد ان يكبر، يأخذه النبيل منه ويعطيه ثوراً بدلاً منه قائلاً: " هذا، وليس الحصان، هوماينفعك ".هناك العديد من النبلاء الذين لديهم اتباع، ويعيشون جميعاً بدون ان يعتمد احدهم على الآخر. لا يرغبون في الاعتراف باي سيد عليهم، الاالله سبحانه وتعالى، وليس لديهم قضاة ولا اي نوع من القوانين المكتوبة. القوة أو الذكاء، او محكمة تحكيم تنهي النزاعات بينهم ".

يقول المؤلف نفسه ان نبلاء الأديغة لم يعتقدوا " ان النبلاء يجب عليهم القيام بأية اعمال تجارية، الابالنسبة لبيع غنائمهم. وهم يقولون " يليق بالرجل النبيل فقط ان يحكم قومه، ان يدافع عنهم وان ينشغل بالصيد والشؤون العسكرية ". حسب راي انتريانو فان نساء الطبقة الحاكمة " لم ينشغلن بأي عمل، باستثناء التطريز وزخرفة الادوات الجلدية ".

**الثقافة المادية للأديغه:** لا تقول المصادر الأدبية الكثير حول الملابس والثقافة المادية للأديغه في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. رغم ذلك، فحسب رأي جورجيوانتريانو "فهم يصنعون ملابس الجزء الخارجي من الصوف اللباد، يشبه معطف الكنيسة، ويرتدونه مفتوحاً على احد الجانبين حتى تظل اليد اليمنى طليقة..... ولبسوا قبعة من نفس اللباد، على شكل رأس من السكر. تحت المعطف يرتدون بلوزة من الحرير أو الكتان، مع طيات واسعة تجمع تحت الحزام، تشبه الطريقة التي كان الرومان يرتدونها. يرتدون جزمات واحذية طويلة، واحدة فوق الأخرى، وبناطيل واسعة في غاية الأناقة من الكتان غير المصبوغ. يجعلون شواربهم طويلة جداً. كذلك، يحملون على جنوبهم جميع معداتهم، داخل اكياس جلدية جميلة، تصنع وتطرز من قبل النساء ".

البيانات التي تم الحصول عليها من اللقى الأثرية اكثر عمقاً وصحة من ذلك. هذه بعضها من الكتاب " التاريخ القديم للأديغه ". فقد قدم القبر الركامي الكبير الغني، الذي حفره إن. آي. فيسيلوفسكي عام ١٨٩٦، قرب ستانيتزا بيلور يتشنسكي جزءاً محفوظاً بحالة جيدة من بذلة المتوفى. من القطع القماشية الكبيرة التي وجدت بداخله، اعاد اي. اس فيدينوف خبير الترميم في متحف الدولة التاريخي ( بعد ان تحقق من الوصف الذي قدمه فيسيلوفسكي ) تركيب طراز اللباس والقفطان، عام ١٩٥٠.

اظهرت دراسة هذه المادة ان لباس الأديغة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر كان هو النسخة الأولية للباسهم القومي في القرن التاسع عشر. تحت رداء طويل مقصوص بشكل مستقيم، مع اردان طويلة مفتوحة عند المرفقين يضيق نزولاً. ( النسخة الاولية من " التشيركيسك " لباس النساء القديم)، ارتدوا قفطاناً قصيراً على مقاس الجسم (مثل البيشميت) وسراويل عريضة مستقيمة مربوطة بخيط عند الخصر. القميص الذي يلبس تحت القفطان، كان مصنوعاً من مادة اكثر نعومة بكثير وكان مزرراً حتى الحلق. للقفطان ياقة واقفة: اردانها لم تلتقي لتغلق، حتى يظهر القسم الاعلى من القميص تحتها. عند الصدر، القفطان مزرر حتى الخصر بازرار جميلة، تخرج منها، كما من العراوي، خطوط أفقية – اشرطة من القماش او الخيوط المجدولة وملفوفة لفات صغيرة ( من لون مختلف )

– تؤدي وظيفة تزيينية. احياناً، كانت تخاط على التنورة، ولكن بدون دبابيس. نفس الشكل من الاشرطة مع الازرار كانت تزين الفستان. كانت الملابس الخارجية من اقمشة أثقل (في قبر بيلوريتشنسكي كانت مصنوعة من الحرير السميك، البروكار، مخمل اكساميك). الملابس الداخلية – من اقمشة أخف. ( دامسك نفيس، تفتا ) كذلك صنعوا البناطيل من حرير الداماسك او من الجلد. كانت حواف الملابس الرسمية والقفاطين مشغولة في كثير من الاحيان بجدائل منمقة من الأشرطة.

من الصعب التأكد من توليفة الوان الملابس، لأن معظم الأقمشة المأخوذة من القبور حالت الى اللون البني. رغم ذلك، وحسب راي فيسيلوفسكي، الذي شاهد بقايا هذه الملابس لحظة استخراجها، بينما كانت محتفظة، ولو جزئياً، بالوانها الأصلية، فقد كانت منسوجات ذات انماط لونية بهيجة من اللون الأرجواني، الاصفر، الأخضر، البني (الأحمر) والازرق.

هذه المنسوجات المستردة من المدافن الثرية للنبلاء المحليين هي حصرياً من الأنواع الثمينة المستوردة، من المخمل الاكساميك والبروكار (منسوجات ذهبية) من البندقية، ومن الحرير الصيني والإيراني. واضح، أن الملابس البسيطة للسكان العاديين كانت من نفس الطراز، والتي حسب وصف انتريانو، كانت مخيطة من الكتان أو الاقمشة الصوفية من الصنع المحلي. بالصدفة، فان بقايا الحرير كثيراً ما عثر عليها في القبور العادية أيضاً، لان المتوفين كانوا يدفنون في افضل ملابسهم. عثر على بقايا معطف فراء، من جلد ماعز بري، محفوظاً في احد قبور النساء. لا شك في أن انماط ملابس الفراء ومعاطف اللباد، التي ذكرها انتريانو، كانت مستعملة بدرجة شائعة في الازمنة التالية أيضاً.

الأحذية الجلدية للأديغه لهذه الفترة كانت أحياناً مزوقة بالتطريز أو التصاميم الفضية. أحياناً، لبسوا احذية منخفضة مع اطراف منفصلة. كما كشفت لقيات دي. واي ساموكفاسوف. ارتدوا سراويل محشورة داخل اطراف الأحذية الطويلة، والتي ربطوها تحت الركبة بواسطة عّلاقات أرجل ذات ابزيم وزخارف معدنية، مثل تلك التي تزين الأحزمة.

اختلفت اردية الرأس بين الرجل والمرأة اختلافاً كبيراً من حيث التصميم. حسب لقى بيلوريتشنسكي، فقد ارتدى الرجال " توبيتيكات " ذات شرّابات على القطيفة، والتي تدلت من التاج، وقبعات من نوع الاستراخان الطويل. اكتسب رداء رأس المرأة مظهر خوذة ذات رأس مدبب، ذات جوف في القمة، متوج بهلال صغير. أحياناً، تصنع اردية الرأس الغنية من الفضة، بينما صنعت العادية من المنسوجات واللباد أو من قماش مع قمة معدنية وعوالق متدلية من سلاسل ناعمة.

اختلفت اردية رؤوس السيدات القباردي من منطقة كاراس عن الكوبان بكونها أعلى، المقصود بها زيادة قامة من تلبسها وتميزها عن الأخريات.

يبدو أن هذه كانت موضة شائعة لذلك العصر. فقد ارتدت "نساء الحجر الفلاحات" من بولوفيتسي أغطية رأس عالية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، لبست نساء المغول اردية رأس مبالغاً في ارتفاعها، تسمى " بوكا "، لكنها كانت من تصاميم تختلف عن اردية رؤوس شمال القفقاس.

تتحدث عينات التطريز على الملابس، المحفظات، الاكياس، وحتى على اغماد السيوف، التي عثر عليها في ركامات القبور، عن وجود ثقافة عالية من شغل الإبرة بين الأديغة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وصلت اساليبها الى ايامنا هذه ولا تزال تستعمل في فنون الاساتذة الأديغة والقباردي، وتعود جذورها الى ضفاف الكوبان وازمنة السارماتيين في القفقاس.

يمكن العثور على زخارف معدنية على الملابس، من الفضة بنسب عالية، في معظم المدافن العائدة لتلك الحقبة تقريباً. تتكون في معظمها من زخارف الازرار واطقم الأحزمة. كانت هذه الزخارف اكثر بريقاً واناقة لدى اديغه الكوبان منها لدى القباردي.

كانت الأحزمة جزءاً ضرورياً من اللباس لدى الجنسين. صنعت من أشرطة حريرية وزخرفت على الاغلب باطقم فضية. كذلك عثر على احزمة من السلاسل المعدنية في الكوبان من حين لآخر. احتوت الاحزمة على ابازيم. الطرف المقابل الذي يمرر من خلال الإبزيم يحتوي على رأس يحميه من الاهتراء. زخرفت هذه الاحزمة الشريطية كمية متوسطة من الصفائح الصغيرة.

في العادة، لم تصنع هذه الأحزمة من قطع واحدة من الاشرطة، بل من عدة قطع موصولة ببعضها بحلقات أحزمة. ربطت الى هذه الاحزمة قطع أو اشرطة اضافية، او أربطة، كانت تنفع لتعليق لوازم متنوعة ( سكاكين، اكياس، الخ ) او لأجل الزخرفة، وتنتهي بدورها برؤوس مستدقة. هنا أيضاً، اطقم الاحزمة من ركامات الكوبان، مثل الازرار، كانت أنفس واكثر تنوعاً في التصميم والصنعة منها لدى القباردي. في الكوبان، عثر أيضاً الى جانب زخارف الأحزمة المصنوعة محلياً، عثر أيضاً على اطقم ثمينة من الاعمال الفنية في مختلف المدافن، مثل الابازيم والرؤوس، والتي، بالحكم على زخرفتها، شكلت طقماً واحداً في الايام الغابرة.

بعض الزخارف المسكوبة التي عثر عليها كانت معروفة قبل الحقبة موضوع الدراسة بوقت طويل. كانت اكثر تنوعاً في تصميمها وطرازها الزخرفي. كانت مستوردة من صقلية

مع عينات من السكب الفني مع زخارف وحشية، والتي حاول صاغة الكوبان ان يقلدوها في مصنوعاتهم المحلية. احتوى جزء من هذه التزيينات اشكالاً نمطية ( ازهار كبيره، صفائح مستديرة ) عائدة للحشود الذهبية في اقليم الفولغا. على اية حال، فان بعض الزخارف، اعتبرت انها من منشأ محلي وانها شكلت على أساس الطراز القفقاسي الشمالي للحقبة السارماتية. لم يعثر على مايشابهها خارج حدود القفقاس.

تكون المجموعة الأخرى من زخارف الاحزمة من شارات مستطيلة، ذات خمسة أو ستة اضلاع أو أهلة، محفورة من صفائح فضية مشغولة. في بعض الحالات، كانت مزينة بنقوش، ولكن معظمها ذات سطوح ناعمة ملساء، مظللة في الزوايا بروؤس شعب اظفارية صغيرة، بواسطتها كانت تعلق على الأحزمة الشريطية. كان هذا الطراز من الزخرفة نمطياً لسكان الهضاب الرحَّل. كان يتم العثور عليها في ركامات بيلوريتشنسكي اكثر من النوع المسكوب. احزمة القباردي بدت شبيهة بها، لكنها أصغر حجماً.

المثال على المجموعة الثالثة، من حيث تقنية التصنيع، بشارات مطبوعة من صفائح فضة رفيعة. كانت اصغر حجماً، هندسية تماماً في شكلها ومزينة بالوان فاقعة.

هذا الطراز القفقاسي تحديداً نمطي بالنسبة للكوبان، لكن يمكن العثورعليه في اوسيتيا.

لم يلبس الأديغة هذه الزخارف الا مؤخراً، لكنهم دأبوا على اخاطتها على ثيابهم، لم يلبسوا الخرز على شكل اطواق وقلائد، بل اخاطوه على ثيابهم او لبسوه كحجاب تحت الملابس.

تعرض نفس الصورة بشكل كامل في جردة ركامات بيلوريتشنسكي. هناك، يمكن العثور على الخرز افرادياً في القبور، في العادة قرب الرقبة او على صدر المتوفى ، ولكن ليس كقلادة أبدا. ان المظهر المتواضع لهذه الخرزات المنفردة ذات الشكل الكروي المصنوعة من العقيق الأبيض أو العقيق الأحمر، مع كثرة الزخارف الثمينة الأخرى، يفصح عن كونها استخدمت كحجب. من جميع الزخارف الشخصية، اكثر ماعثر عليه هو الخواتم او الاقراط في مدافن الرجال والنساء على السواء. بالحكم من لباس الرأس الأوسيتي القديم من مدفن ماختشيسك، حيث وجدت الاقراط الفضية مخيَّطة الى قبعة صغيرة، يمكن للشخص ان يستنتج بثقة ان الخواتم الدينية من ركامات الكوبان والقباردي كانت بشكل رئيس اضافات للباس الرأس، وليست زينة مستقلة. الاضافات من هذا النوع يمكن تقسيمها الى رجالي ونسائي. اكثر من ذلك، فان شكل الاقراط المسطحة أو الحلى الدينية هي من صناعة قفقاسية محلية محضة

وهي على الغالب من الذهب. فمثلاً، عثر على الخواتم في ستين مدفن من مجموعة ركامات بيلوريتشنسكي. من ٧٢ لقية من هذا النوع، كانت ٥٨ ذهباً. شكلت الخواتم الذهب الدينية ٤٥ ٪ في الركام القريب من ستانيتزا قاراص، بينما البقية من الفضة بشكل استثنائي.

قلما عثر على خواتم وأساور، وفي مدافن الاثرياء حصرياً. عثر على الأساور والخواتم، في الغالب، في قبور النساء.

من بين ١٩ خاتم عثر عليها في ركام بيلوريتشنسكي، ١٥ منها ذهب. اكثر من ذلك، معظمها من صنع محلي، وتمثل طراز الخاتم المسطح مع درع مسطح، مزخرف باشكال تقلد النقوش الموجودة على خواتم – الأختام التي كانت منتشرة في هذه الحقبة. عثر أيضاً على عينات من اعمال فنية، واضح انها من ايطاليا.

يجب ملاحظة انه في جردة ركامات بيلوريتشنسكي، سيطر الذهب على الأساور والزخارف الملبوسة لوحدها، لكن الفضة سادت بين الزخارف ذات العلاقة بالملابس. هكذا، نرى ان النمط الاساس للباس الأديغة، والزخرفة المتعلقة به، كان قد تشكل بحلول القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

• • •

مكّن تحليل الجردة الأثرية أعلاه الدارسين من الوصول الى عدة استنتاجات حول حياة وثقافة أمة الأديغة، والتي كانت في سبيل التشكل في العصور الوسطى.

يظهر ترتيب ومحتوى القبور التميز الثقافي بين اقاليم الضفة اليسرى للكوبان (منطقة ثقافة بيلوريتنشكي) والشريط الساحلي. تتكلم مواد الكوبان عن علاقات تجارية عميقة واسعة للسكان ( مع مستعمرات القرم بشكل رئيس ) وبراعة الصاغة المحليين. من الناحية الأخرى، فان مواد الساحل، تشير الى الشخصية الزراعية لثقافة هذا الاقليم، حيث اكتشفت أيضاً لقى لبضائع اجنبية، ولكن بكمية اقل في الكوبان. لاحظ المعاصرون أيضاً هذا التمايز في الثقافة. يقسم حوض الكوبان الى اقليمين على خرائط القرن الرابع عشر الكاتالونية: "ماوزيخيا " الغربية، و" ابازيخيا " الشرقية.

تنطبق كلمة ابازيخيا على المنطقة السابقة لمستوطنات الابزاخ، والذين تعود كنوز ثقافة بيلوريتشنسكي الى اسلافهم. تعود ملكية كنوز مصبات الكوبان والشريط الساحلي الى القبائل التي عاشت في منطقة انابا والى الناتخواج، الشابسوغ وقبائل الاديغه الأخرى التي قطنت الاراضي بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الأسود وتنتمي الكنوز المستخرجة من الركامات القريبة من نالتشك وبياتجورسك الى اجداد القباردي.

تشير مدافن القبجاك، المحشورة داخل مدافن الأديغة، والادوات ذات طبيعة الرحَّل، (سهام طويلة، زخارف من العظم على الكنانات، الخ) والتي عثر عليها بين اسلحة الأديغة، الى العلاقات التي اقامها الأديغة مع جيرانهم الرحَّل. غطاء رأس المرأة (المتفرع عن البوكا المغولي)، قطع الحشود الذهبية النقدية وانماط الزخارف لاقليم الفولغا، تشهد على العلاقات التي اقامها الأديغة مع الحشود الذهبية. تثبت المدافن الرائعة للنبلاء المحليين ان الطقبة الاجتماعية العليا للأديغه لم تعاني كثيراً جراء النيرالتتاري – المغولي، بل تمكنت من ايجاد لغة مشتركة مع خانات الحشود الذهبية وظلت تمارس سيادة شبه مساوية لهم على اراضيها. كتب انتريانو عن هذه الارستقراطية الأديغة الثرية: " لديهم آنية ضخمة من الذهب في بيوتهم، تكلف من ٣٠٠ الى ٥٠٠ دوكات، اضافة الى الفضة والتي يشربون منها بمنتهى الجدية ". لقد حفظت هذه الآنية لغاية عصرنا في ركامات مدافن بيلوريتشنسكي.

رغم ذلك، لم يتحول الأديغة الى تتار مثلما فعل القبجاك. بل ظلت ثقافتهم متميزة: لباسهم الوطني، الانماط الزخرفية المحلية وشعائر الدفن المتميزة، ذات الشخصية المحلية المتعمقة، تتحدث عن هذا بوضوح. يشير وجود المواد ذات الصبغة الاسلامية الى انتشار الاسلام في ذلك العصر، والذي لم يأت من التتار – المغول بل من البلاد المحاذية الى الغرب. خضع لتاثيرها ليس فقط الأديغة بل كذلك دول عبر القفقاس المسيحية مثل ارمينيا وجورجيا. خلال هذه الحقبة (القرنين الرابع عشر والخامس عشر) دخل الأديغة في مرحلة الإقطاع لكنهم لم ينفصلوا عن التقاليد القديمة لنظامهم القبلي.

## الأديغة والغزاة الاجانب

حددت اعتداءات التتار – المغول، الجنويين ولاحقاً، الاتراك وأتباعهم خانات القرم، العلاقات السياسية الخارجية لبلاد الاديغه خلال القرون من الثالث عشر وحتى السادس عشر. وانتقلت ارتباطاتها ببيزنطه، التي اكتسبت أهمية كبيرة من القرن السابع وحتى الثالث عشر، الى السطح الثاني بسبب سقوط الامبراطورية.

كانت العوامل المؤثرة في هذا التحول للاحداث هي مايلي: الاكتساح التتاري – المغولي لآسيا الوسطى عام ١٢٢١، اخضاع بلاد عبر القفقاس بين ١٢٣٥ و ١٢٣٩، ثم اكتساح روسيا عام ١٢٤٠. خلال عشرين سنة اصبحت دولة الحشود الذهبية الهائلة مستقلة عمليا، الأمر الذي وضع روسيا بكاملها تحت النير التتاري – المغولي، وسع حدودها الجنوبية إلى القرم واخضع شمال القفقاس تحت مخالبها الدموية. الحروب –الغارات، السرقات و الاتاوات التي تبعتها، دمرت أراضي الآلان، الآس، الافلاك، الشراكسة والروس.

عام ١٤٥٣، احتل الغزاة الاتراك القسطنطينية وحطموا الامبراطورية البيزنطية. عام ١٤٦٠، توقفت امبراطورية طرابزون الاغريقية عن الوجود.اسس السلاطين الاتراك سيطرتهم على البحر الأسود. عام ١٤٧٥ سقطت كافا، التي كانت حصن جنوا المنيع على الساحل الشمالي للبحر الأسود. بعد ذلك، احتل الاتراك كل الممتلكات الإيطالية، نهبوا بعض المستعمرات ووضعوا بعضها الآخر تحت الحماية التركية. بقي خانات القرم تحت سيطرة الحشود الذهبية لبعض الوقت، بعد ذلك اصبحت الخانية التي تحكمها سلالة جيراي، تابعة لتركيا منذ نهاية القرن الخامس عشر وحتى معاهدة كوتشوك، كاينارجي للسلام عام ١٧٧٤، وكثيرا ما تصرفت كأداة لتنفيذ مآرب تركيا التوسعية و خططها في بلاد الشراكسة.

في النصف الأول من القرن السادس عشر، وفي عهد السلطانين سليم الثاني ومراد الثالث، احتلت تركيا الأراضي الجورجية ( جوريا، ايميريتيا، منجريليا )، وابخازيا، وبدأت تتقدم زاحفة على بلاد الشراكسة واراضي شمال القفقاس الأخرى.

## الثقافة الروحية للأديغه

**إن هيكل الآلهة الوثنية لدى الاديغة:** غني ووافر. تبدو اصوله احيانا متشابكة أو مرتبطة مع شخصيات اسطورية معينة، حتى مع بعض ابطال ملحمة " النارت " . كانت المعتقدات التي تمثلها، مرتبطة بالحياة الروحية، ذات طبقات متعددة، وتتألف من طبقات قديمة ولاحقة. الخوف، الدهشة والاحترام، اطلقوا في الانسان الأيمان بالسماء والرعد، بالشمس والقمر. ربما لذلك، كان شبله، إله الرعد والبرق عند الأديغة، واحدا من اوائل مخلوقاتهم الخرافية المشخصنة.

في بداية القرن الثامن عشر، شدد ابري دي لاموتر على أن آراء الأديغة الدينية ليس لها نظام محدد وأنه تختلط فيها عناصر مختلفة من الوثنية مع المسيحية والاسلام. كذلك يعتقد إل. جي مورغان، أن التطور التاريخي للأفكار الدينية هو عملية معقدة، وهي مرتبطة بالخيال و الطبيعة العاطفية للإنسان، وتبعاً لذلك، بعناصر غير محددة في الإدراك بأن " جميع الأديان البدائية تثبت أنها غريبة وغير قابلة للفهم بدرجة معينة " .

رغم ذلك، فأن "الديانة البدائية " للأديغه قد أثبتت أنها ثابتة ودائمة. لذلك، فقد كتب ايه تي شورتانوف " الذين تبنوا المسيحية في زمن مبكر من القرن الخامس، ظلوا حاملين للثقافة الوثنية، وفي القرنين السادس عشر و السابع عشر، بعد أن قبلوا الإسلام استمروا في توقير البساتين المقدسة و... مراعاة أعياد تكريم لآلهة وثنية مثل تحاغالج، تلبش، شبله وغيرها، بكل جدية."

ملأ الشراكسة الطبيعة بالعديد من الأرواح و الآلهة. نفخوا الروح في كل الاشياء و مظاهر الطبيعة. عملياً لم يكن هناك تمييز بين الاشياء الجامدة وذات الروح، بين ما هو مدبر مسبقا و العفوي. كانت الأرواح مادة، قلما يمكن رؤيتها و محاطة بالغموض. كل غابة، نهر، جبل، كان له أرواحه الحامية، كانت المفاهيم الشيطانية واسعة الانتشار. كان الجني (الشيطان)، ملك الأرواح، مقيدا بالسلاسل إلى الثلوج الخالدة لجبل البروز. كذلك كانوا يؤمنون بالساحرات والعرافين. كل مرض وسوء حظ ينسب إلى تأثير الأرواح الشريرة.

حتى الأزمنة الحديثة، كان بوسع المرء أن يرى آثارا من المعتقد القبلي القديم في بلاد الشراكسة، والذي كان يعبر عنه قبل كل شيئ باحترام آلهة وحماة العائلة والقبيلة.

كثيرا ما كان آلهة القبيلة المنفصلة يحولون إلى آلهة لجميع القبائل وجميع الاديغه. بدورهم، كانت بطون قبيلة معينة وعائلات تختار حماة لها من هيكل جميع الاديغه.

يقسِّم تي. شورتانوف الآلهة إلى كونية قديمة وأخرى محلية.

أ- **الآلهة الكونية:** ١ - تحا (تحاشكوه)، ٢ - واشخو، ٣ - غوبج غوش، ٤ - بساتحا، ٥ - شبله.

ب- **الآلهة المحلية (الهيكل الذكوري):** ١ - تحاغالج، ٢ - أميش، ٣ - تلبش، ٤ - آخين، ٥ - ميزيتحا، ٦ - سوزيريش، ٧ - كوديس، ٨ - نيسرين، ٩ - زيكوتحا، ١٠ - جيغوباتحا، ١١ - اوشجيرجيي، ١٢ - إيلا.

ج- **آلهة القبائل والحماة:** ١ - شخوسكا، ٢ - حاكوستاش،٣ - كوديس، ٤ - بشيشان، ٥ - نواكشه، ٦ - تشاشتا، ٧ - تحاراليي، ٨ - تحاتاباس، ٩ - توخليتحا، ١٠ - ديغوديش ١١ - حاؤتس- حاش، ١٢ - تحاغيشو، ١٣ - اوتخوي- كاس، ١٤ - شو- موتشو، ١٥ - خوخ- موخ، ١٦ - تحاكوافيشو، ١٧ - حادريخ، ١٨ - تحاشيو، ١٩ - تحاشيريبخو ٢٠ - سوتراش.

د- **هيكل الإناث:** ١ - ستناي، ٢ - ميليشيبخو، ٣ - اديف، ٤ - خي- كواشا، ٥ - جيغ- كواشا، ٦ - حانتسيه- كواشا، ٧ - بسخوة- كواشا، ٨ - خيبا- كواشا، ٩ - حادة- كواشا، ١٠ - تحار كواشا، ١١ - ميز- كواشا، ١٢ - ماريم.

ه- **انواع عجائب المخلوقات:** ١ - ينيج، ٢ - بلاغو، ٣ - ييمينيج، ٤ - حاشحا - فيتلا، ٥ - الماستا، ٦ - ناغوتشيتسا.

بالإضافة إلى هؤلاء، يقدم لنا ايه. ك. شوجين، في كتابة " أرض الأديغة " اسماء الآلهة الشركسية والحماة التالية: ١ - ايرج، ٢ - ايميس، ٣ - أليي، ٤ - انتسفا، ٥ - اوشيج،

٦ – أيفِ، ٧ – أخاميدا، ٨ – ديبيش، ٩ – جاغه، ١٠ – دزاخوش، ١١ – تييميش، ١٢ – زيسحان ١٣ – إيسّا، ١٤ – ماميش، ١٥ – ميزيتل، ١٦ – ميسته، ١٧ – موسى، ١٨ – سوسروق، ١٩ – ستاو، ٢٠ – تغا، ٢١ – تلوخوميش و شيبيريز، ٢٢ – توغوزيتحا ٢٣ – توغوبلاخو، ٢٤ – وازرميس، ٢٥ – شيبريس، ٢٦ – شحاغوشا، ٢٧ – شيرغوبس.

لا نستطيع ان نصف هنا وظائف كل هذه الآلهة الشركسية و الحماة، أو الأحتفال بكل أعيادها، رغم ذلك، حتى نعرف القارئ بالموضوع بشكل أقرب، يجب أن نذكر بعضاً منهم:

**تحا:** بادئ ذي بدء، امتلك الأديغة الايمان بان تحا (الله)، الذي كثيرا ما كان يدعى تحاشخو (الله العظيم)، كان خالق كل شيئ في الوجود. فهو خلق الدنيا والناس. خلق الدنيا من النار، الماء، التراب والهواء. لم تكن له بداية، ولا نهاية ولا جنس. كان كلي الوجود، لكن السماء هي مقر اقامته.

حسب رأي شورتانوف، فان تحا لم يشارك مباشرة في انشطة الآلهة او الناس، بل كان يؤدي دوماً دور " السلطة العليا ". قلما كان تحا يصور بين الآلهة الوثنية الأخرى، ولكن، في نفس الوقت، لعب دوراً مهماً في العبادات. في كل المراسم، كان يجيئ في المقدمة على انه بداية كل البدايات. تحا موجود في كل مكان وكل شيئ. كل انواع الخوخ " المدائح " والانخاب تقريبا تبدأ باسمه.

من المهم ملاحظة ان تحا ليس له حتى معبود او صنم، مثل سوزيريش وهيرا، اللذين شخصا في جذع من الخشب او مجرد قطعة حطب، او مثل ايروس او ديونيسيوس، اللذين شخصا في صخرة او عمود، كتب شورتانوف " لاهو يعطى اية ملامح، مثلاً، مثل شيلا الرهيب، او زيوس او بوسايدون، الذي يشخص عنصر البحر. صحيح، عند الضرورة يمكن لتحا الأديغة ان يكون قاسيا، في بعض الحالات، وكلي السماح في حالات أخرى".

حتى المؤلفين الأجانب كتبوا عن تحاشخو الشركسي. كتب يان – فيكتور – ادوارد تيتبوت دي مارينيي " يعترف الشراكسة بمخلوق أعلى وعدة قوى سماوية اقل مرتبة. يعتقدون بخلود الروح وبعالم آخر، حيث يعامل كل شخص حسب خدماته واستحقاقه". بعد ذلك بزمن طويل، كتب كارل كوكس الشيئ نفسه عن ديانة الأديغة " أساس كل الآراء الدينية للشراكسة هو الايمان بالوجود الأسمى " أساس ديانة الشراكسة هو في الايمان بالله وحده وبحتمية القدر في الحياة القصيرة في هذه الدنيا. تحدث لابينسكي، الذي تعلم اللغة الشركسية، عن الإله الاسمى تحاشخوا (تحاشخو) و اشار إلى ان تحاشخو لديه العديد من الآلهة التابعين، يسمون تحاتسوك (آلهة صغيرة).

احتفل الاديغه باعياد سنوية على شرف تحا، مصحوبة برقصات وقصائد حماسية و"**خوخ**"

**تيغا(دغه) الشمس:** اعتبر الأديغة الشمس و القمر هي أخ و أخته. على اية حال، هناك رواية في الفولكلور فيها الشمس و القمر شقيقان. الشمس هي الشقيق الأكبر. يحبان بعضهما بحنان وعندما يلتقيان، يتعانقان، في تلك اللحظة، يحدث "الكسوف ".

يدعي اف. بلارامبيرج، الذي عرف الأديغة جيدا، ان بعضهم عبد الشمس. تؤكد غالبية الفولكلور والبيانات الإثنية واللغوية، على أن مذهب عبادة الشمس تواجد بين الأديغة. فقد وضعوا شموعاً على اغصان سوزيريش، عند مدخل غرفة الشخص المريض، على مهد الطفل المولود حديثا وهكذا. كانوا يسوقون الماشية من خلال نيران مستديرة يشعلونها عند اصابتها بوباء. كذلك اشعلوا نيراناً مستديرة خلال احتفالات السنة الجديدة، حيث يقفز الشباب والصبايا من فوقها. على ما يبدو، فقد ارتبطت عبادة الشمس بمذهب النار. أكد العديد من اللقى الأثرية في الكوبان و شبه جزيرة تامان على ان مذهب عبادة الشمس تواجد بين المأوت والسند (القرنين السادس والسابع قبل الميلاد). لا زال لدى الأديغة تعبير مفاده " تستمر الشمس التي تعيش إلى الأبد في الإختباء ومعاودة الظهور ".

**مازا/القمر:** تنعكس حقيقة وجود عبادة القمر بين الأديغة في وقت ما ضمن فولكلورهم. قال بي.يو. اوتليف، عالم الآثار السوفييتي الشهير، المعلومة التالية " خلال القمر الجديد، اعتاد الناس على التجمع في مكان مقرر ومخاطبة القمر بطلبات متنوعة. مثلا، يحضرون اشياء ضرورية جداً إلى مكان الصلاة ويعرضونها على القمر، حتى يعطيهم الاشياء المشابهة. كثيرا ما يحضرون بقرة مهجنة، يوقفونها امام الجمع المحتشد، ويعرضونها على القمر، طالبين منه ان يزودهم بالعديد من مثيلاتها البقرات الجيدة.

رأى الأديغة في البقع الداكنة على القمر صورة راعي غنم و قطيعه. كان الانعكاس الساطع للقمر ينبئهم بطقس ماطر لديهم. اذا كانت حواف القمر الجديد المدببة تشير بحدة إلى الأعلى، فسيأتي شهر من الجفاف، واذا كانت تشير إلى الاسفل، فسيتبع شهر ماطر وهكذا. كذلك ربطوا دورة كاملة من المعتقدات الشعبية بالقمر. فمثلا، ينبئ خسوف القمر بحدوث وباء، وتعني الخطوط الباهتة على اطراف القمر حدوث حرب وهكذا. اعتادت فتيات الاديغه على تنظيف خاتم من الذهب الصافي بقطعة مخمل جديدة، ثم ينظرن إليه ويهمسن" يا رب! أرني خطيبي" في ليلة القمر الجديد، اعتاد صغار السن الاديغه على الخروج حاملين المشاعل إلى ضواحي القرية، يغنون، يرقصون، يشعلون ناراً ويقفزون من فوقها. كانت عبادة

القمر العمومية بالاضافة إلى الشمس مصحوبة دوماً بالرقصة الجماعية "الوج"، ولم يكن يسمح في هذه الممارسات بأي تساهل في ضبط النفس أو أي نوع من السخافات.

**شبلة:** هو إله الرعد والبرق وسيد المطر. كان يأتي احياناً فوق تحاشكوة (الرب العظيم) من حيث المقام. لذلك، فان الامكنة، الاشجار والحجارة التي يضربها البرق تصبح مقدسة. لم يبكوا على الشخص الذي يقتله البرق. فقد كان مثل هذا الشخص يعتبر مباركاً بنعم الآلهة، ويدفن في نفس البقعة التي ضرب فيها ويصبح قبره مقدساً، ويزار أثناء صلوات الاستمطار.

كان احتفال احترام شبلة مصحوباً على الدوام برقصة " شبلة وج". كتب جي بي ترافيرنيير (-١٦٠٥ ١٦٨٩) " عندما يزأر الرعد، يترك كل شخص القرية على الفور ويبدأ الشباب من الجنسين بالغناء والرقص بحضور كبار السن، الجالسين حولهم. اذا قتل الرعد أحدهم، فهم يدفنونه بمراسم تكريم ويعتبرون ذلك فألاً حسناً، معتبرين مثل تلك الميتة نعمة من الرب. اذا ضرب البرق أحد البيوت، حتى اذا لم يقتل فيه رجل أو امرأة أو طفل أو حتى حيوان، فأن تلك العائلة التي تعيش في ذلك البيت تعال وينفق عليها طيلة السنة، ولا تفعل شيئاً غير الرقص والغناء.

بعد سنوات عديدة، شهد جي. اس بيل ووصف مراسم عنزة قتلها البرق في وادي كافا. احاط حشد من الشراكسة بعمود مرتفع بعض الشيئ، ربط على قمته رأس العنزة، وربط جلدها على العارضة. خفق الجلد، كأنه راية. بالقرب منه، شيدت مظلة من أربعة اعمدة، يتألف القسم المسطح منها من اغصان خضراء منسوجة بكثافة و محاطة بسياج دائري صلب. كتب بيل " كما اكتشفت لاحقا، أصبح هذا مكاناً مقدساً، حيث قتلت العنزة بواسطة البرق المقدس، وتظل بقاياها ملقاة تحت المظلة، ما عدا الرأس والجلد. قرب هذه التذكارات كانت منطقة عشبية دائرية كبيرة، جرى دوسها وتمهيدها بالكامل. رقص عليها وتسلى شباب هذا الحي لمدة ثلاثة أيام. محتفلين بذكرى زيارة شيبله إلى هذا الوادي ".

استمرت هذه الرقصة في بعض الحالات لثلاثة ايام، وفي بعضها الآخر سبعة ايام. لا نمتلك الصورة القديمة لها. على اية حال، يمكننا الافتراض أن " شبلة وج" المعاصرة قد حفظت اطارها الرئيس، مع انها فقدت معناها الطقوسي وصفتها الدينية.

رقصة "شبلة وج" هي رقصة دائرية جماعية لازواج من الرجال والنساء، يمسكون بعضهم بعضاً من المرفق و يستمرون في التحرك يمنة و يسرة حول الدائرة. الوج المعاصر ليست مصحوبة بالغناء.

حفظ الفولكلور الأديغة النشيد القديم الموجه إلى شبلة اثناء رقصة "شبلة وج" :

ايللي، ايللي،لا تضرب مساكننا

ايللي، ايللي، إحم ارواحنا

ايللي، ايللي، لا تشعل غابة تحا شاغ

ايللي،ايللي، اعطنا ماءً صافياً نشربه

ايللي،ايللي،انت ايضاً اشرب شرابنا

ايللي،ايللي،أعطنا ستة حجارة

(لاستخراج الحبوب)

ايللي،ايللي، نحن جميعاً نرقص سوية لك،

ايللي،ايللي،اننا نرقص حول شجرة تحا شاغ

(على شرفك)

ما من شك في أنه، من خلال تأثير المسيحية، فقد استبدلت كلمة " ايللي" بكلمة "شبلة" بعد وقت طويل. قبل ذلك، كان الأديغة يتصورون شبلة كمخلوق حي، يأملون في مزاجه الطيب ومساعدته اللطيفة، ويحاولون اكتسابها. يمكن سماع رغبة شديدة في الاقتراب من هذا الإله في النداء الموجه اليه. في نفس الوقت، لم تكن لدى الأديغة أية فكرة عن مظهر شبلة. على اية حال، فأن شبلة في ميثولوجيا الأديغة يركب حصاناً فحلاً أسود يجوب به السماء، وإن ضربات حوافره تخلق هزيم الرعد ووميض البرق.

**بساتحا(بسه تحه)**: يتشكل هذا الاسم من اسمين شركسيين: "بسا " (الروح) و "تحا" (الله). بساتحا هو رب الروح. المعلومات عن هذا الإله قليلة ومتناقضة. يكتب إل.آي لا فروف" يحاول بعض المؤلفين عبثا ان يصوروه(بساتحا) " إله الحياة وحتى قديماً في مثل قدم إله الشمس لدى القباردي. " اكثر ما يذكر بساتحا هو حين تتعلق المسألة بالاطفال، المرض والعرائس، لا يتم تصويره في الميثولوجيا بنفس كثرة ترديد الآلهة والحماة الآخرين. رغم ذلك، فهو لديه تقويم دوري من الاعياد والشعائر المساعدة، الألعاب، والرقصات كان يقام ساندراك، احتفال سنويا على ضفاف نهر ما خوجيرسيخ، بشكل خاص على سفح الجبل المواجه للشمس، يدوم لمدة شهر ونصف أو شهرين، يحضر إلى هذا الاحتفال جميع الناس من كافة أنحاء قباردا.

كان بساتحا احد الآلهة الرئيسين بالنسبة لأجداد الشراكسة، وهو الرب الثاني بعد تحا شخو. هذا دليل غير قابل للنقض حول قوة ايمان الأديغة بالروح.

ليس للروح أية محددات مادية خارجية، حسب معتقدات الأديغة. إن مفاهيمهم حولها مبهمة كليا، وفي نفس الوقت، متشعبة إلى اقصى حد. الروح، او النفس قادرة على تجسيد نفسها ليس فقط في رجل واحد، بل أيضا في الأشياء الجماد، مثلا، في شجرة، أو في صخرة.

الأديغة يعينون مسكن الروح بطريقة مختلفة. يقول البعض أن الروح في القلب والدم. وتعتقد الاغلبية أن مسكنها هو في الحلق. وتدعي المجموعة الثالثة أن الرأس هو مسكن الروح. اعتقد الأديغة ان الروح تغادر الجسد عند وفاة الشخص أو الحيوان. كذلك اعتقدوا أن الحركة تتوقف مع وفاة الإنسان، وليس حياته.

كذلك آمن الشراكسة ان روح الشخص الشرير تذهب إلى شخص آخر شرير: وأن روح الطيب تذهب إلى طيب، تجنبوا تسمية اطفالهم على اسماء "الاشخاص المؤذيين" بينما رأوا أن من المناسب اعطاء الحفيد اسم الجد، اذا كان حسن المظهر، فاضلاً، أو بطلاً. اعتقدوا ان جزءاً من روحه وفضائله ستذهب إلى الطفل إلى جانب اسم الجد أو السلف.

كذلك آمن الأديغة انه بعد وفاة الشخص، تصعد روحه إلى السماء لوحدها أو أن ملاكاً ما يرفعها إلى هناك. حيث تظهر أولاً امام بسا تحا، الذي اما أن يعاقبها أو يباركها، حسب الانشطة الدنيوية التي مارسها المتوفي. كان بسا تحا ينظر بعطف إلى روح الشخص المثالي، ويعاقب روح الرجل سيئ السمعة.

كذلك اعتقد الأديغة ان روح الشخص النائم تغادر جسده مؤقتاً، لذلك، كان يمنع ايقاظه بعمل فظ أو بصوت عال. كان ممنوعا الانخراط في النوم اثناء غروب الشمس، أو ايقاظ النائم وقتها.

إلى جانب تحا، يقوم بسا تحا بتوزيع الارواح ويحكمها. كان قادراً على تهدئة الاعاصير، العواصف، والانواء البحرية. وكان الأديغة يذبحون عنزة بيضاء قرباناً له.

كانت " **روح الجبال** " رجلاً طاعناً في السن، عبوساً، يعيش وحده على قمة جبل عال. كان في يوم ما اليد اليمنى لتحة (الرب الأعظم)، لكنه تالياً تخاصم معه. تجرأ على أن يطلب من تحا أن يشارك الرجال معرفته. لذلك السبب رماه تحا من السماء. منذ ذلك الزمن، فأن روح الجبال تكره الرب. وهو لا يحب الرجال أيضا، لانهم لم يختاروا أن يتلقوا المعرفة ولم يساعدوه في صراعه ضد تحا. عندما تكون روح الجبال هادئة ومسالمة، فأن كل ما يحيط بها يزهر، وتغني الاطيار في الغابات، لكن عندما يغضب، فأن الجبال تغلفها الغيوم، والأرض ترتجف، وتهدر الأنهار.

**بسه جوا شا أو بسيخوجواشا**: كانت " سيدة مياه الأنهار " اتجه الأديغة اليها في صلواتهم طلباً للمطر، في الربيع على الأغلب. في مثل هذه الحالات كان اليافعون من كلا الجنسين يتراشقون بالمياه.

**ستاو**: إلى جانب زيوسحان، كانت ستاو حامية المرض (الجدري). وهكذا، يقال في اغنية الشابسوغ في علاج الجدري

استاو، الرب

الذي لا يعترف بأية آلهة أعلى منه

اسرع بالشفاء!

ابعث الفرج!

**تلبش**: هو إله الحديد والنار العظيم، حامي الحدادين. ينسب إلى تلبش اختراع الملقط، المطرقة والسندان. في البداية صنع المنجل، السيف، السهم وقميص الزرد. كان يأتي بعد تحاغالج في هيكل آلهة الأديغة. كانت لديه القدرة على شفاء المريض و الجريح بطرق سحرية. كان يحتفل بعيده في الربيع، بحيث تؤدى طقوس الشراب فوق المطرقة والسندان كما يخبرنا إل.لولي" انه محترم بعمق بين الناس، ما يزال اسمه يلفظ (١٨٦٢) في مجالي القسم والسباب. وما زال المثل الاديغه شائعا " اقسم بالسماء: مع تلبش، كل شخص يصبح حداداً مبدعاً! كان تلبش، نتيجة "لأعماله "، قريبا من الآلهة القدماء، فولكان أو هيفيت. حسب رأي إس. نوغموف، كان الاديغه يطلقون اسم تلبش على الملك داود التوراتي. وكما يلاحظ إن دوبروفين" حسب الأسطورة، فأن تلبش مدفون في غابة " غوشبتسه- اواشحه". مازال الشراكسة حتى الآن (١٨٧١) يشيرون إلى قبره، الذي نثرت فوقه برادة الحديد".

**تحاغالج**: هو إله الوفرة، الخصوبة والزراعة. يقول ايه بي كالويف انه كان إلهاً زراعياً قباردياً بشكل حصري، و عملياً غير معروف للأديغه الغربيين" على العكس، فأن علماء آخرين، يؤكدون انه كان إلهاً " لجميع الأديغة" أخذ موقع سوزيريس. كان معروفا لدى الأبزاخ بشكل خاص. حسب اعتقاد الأديغة، فأن تحاغالج حراث كبير السن قوي البنية له لحية بيضاء تصل إلى حزامه ويحمل عصا ذهبية. هو نجل العراف واسار، شقيق أميش ومواميش. كان تحاغالج قريبا من الإله تحاشخو، اعطى بذور الذرة البيضاء الى النارتيين وعلمهم الحراثة والبذار.

ظلت بقايا الايمان الوثني محفوظة بهذا الإله حتى القرن التاسع عشر. كان يحتفل بعيد على شرفه بعد الحصاد. صاحبت الموسيقى والغناء التضحية بعجل أبيض. كانت غابة

جيمبلوخ أحد الأماكن المعروفة جيدا لعبادة هذا الإله، حتى منتصف القرن التاسع عشر. "واليوم" كتب إم.في كانتاريا" عند إعلان النخب الاول، يجيئ ذكر تحاغالج دائما في قباردا. حسب معتقدات القباردي، لم يكن يفترض في الشخص أن يستعمل المحصول الجديد قبل أن يعقد احتفال خاص على شرفه.

يصور هذا الإله في أساطير النارت القباردية على أنه حراث ممتاز للتربة، الرب نفسه هو حاميه. يقول أحد الانخاب القباردية "الخوخ":

آه، يا ربنا

تحا غا لج – مجترح – المعجزات

اجعل الاعمال التي بدأناها تتكاثر!

آه يا ربنا

اجعل محاريثنا تنجح

ويكون أول ثلم لنا محظوظا

اجعل الأرض دافئة بالحرارة

حتى تعطي حصاداً ثرياً

آه، يا تحا نا، ليحدث الأمر هكذا

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مع تعاظم قوى الاسلام، اصبح الطلب، في الاغاني نفسها قبل الخروج إلى الحقول، موجها إلى الله (عزوجل)، وليس إلى تحا غا لج.

آه، يا الله! يا خالق السماء والأرض

إجعل أنت!

المحراث الذي أخرجناه اليوم...الخ

لازال الأسم القديم "تحا غا ليجي حا ميش" (بيدر تحا غا ليج) محفوظا حتى اليوم. المكان موجود بالقرب من مايكوب، على الضفة اليسرى من نهر بيلايا. حسب التقاليد الأديغة " كان تحا غا ليج شخصا قويا بدرجة غير عادية. كان معروفا لكل الاقليم لفنه في بذر المحاصيل و زراعتها. كانت لديه محاصيل كثيرة على الدوام. رغم ذلك، عندما وبختها أمه لان محصوله لن يكفي حتى موسم الحصاد التالي. بدأ تحا غا لج، وقد غضب من أمه، يرمي محاصيله بعيدا، والتي كانت بدورها تتحول إلى حجر لحظة سقوطها إلى الأرض. و الآن فأن ضفاف نهر البيلايا مغطاة بالعديد من حجارة الرصف، خبز تحا غا لج المستحاث........

## المسيحية في بلاد الأديغة

منذ الاختراق المبكر للمسيحية في القفقاس الغربي، الذي ذكر آنفا، استمر رجال الدين الإغريق يحولون السكان المحليين. كان المذهبان الفرنسيسكان والدومينيكان اللذان تأسسا هنا في بداية القرن الثالث عشر، مقابض السيطرة لأنشطة البعثة التبشيرية الرومانية حتى حل اليسوعيون محلهما في القرن السادس عشر. استخدم مستعمرون اوروبيون آخرون بدورهم هذه الانشطة التبشيرية لتحقيق غاياتهم. من الناحية الأخرى، كانت المستعمرات الايطالية مواطئ اقدام العمل التبشيري الروماني بين شعوب شاطئ البحر الاسود في القرون الثالث عشر و حتى الخامس عشر. نتيجة لذلك، افتتح البابا يوحنا الثاني والعشرين الكاتدرائية الاسقفية في كافا، عام ١٣٢٠. بحلول عام ١٤٣٩، كان للأديغه مطرانان كاثوليكيان ورأس مطارنة مقيماً في ماتريجا (تامان).

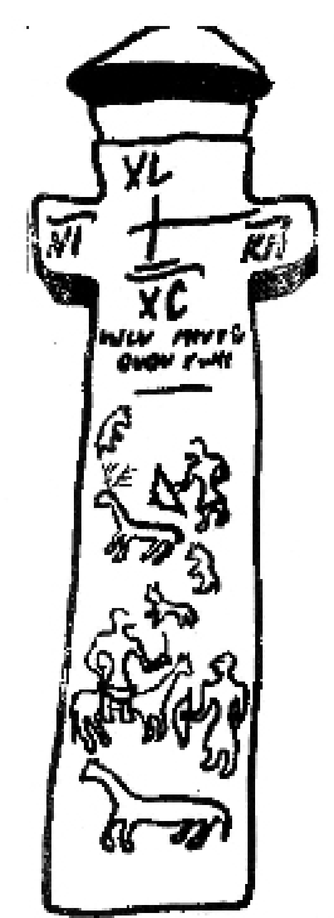
واضح ان الجهود التبشيرية المضنية خلال هذه القرون لم تجلب النتيجة المرغوبة بسبب تردد السكان المحليين في التخلي عن ديانتهم الأصلية. ربما يعود سبب انعدام التقدم هو النتيجة المباشرة لاستخدام الدين من قبل الغربيين، لتحقيق غايات سياسية وليس دينية. لابد وان هذه الممارسة قد اثارت استياء ومقاومة السكان المحليين. تشير التقارير المتكررة لرهبان كافا الى ان تدخل البطارك في شؤون الاغريق، الأرمن والآخرين، دفع سكان ساحل البحر الاسود الى اليأس. فقد شجعت النشاطات العدائية لممثلي الكنيسة الرومانية في هذا الاقليم على انعدام الرضى عند سلطات المستعمرين الجنويين.

تجاهل ممثلو الكنيسة الرومانية مثل هذه الاعتراضات واستمروا في تقييد الحقوق المدنية والروحية للرافضين بطريقة جلفة وبكل السبل. مثل هذه السياسة ماكانت لتقف امام التأثير البيزنطي – الاغريقي في القرم والقفقاس الغربي.

لذلك، بقي الأديغة تحت تأثير الديانة الاغريقية. على أية حال، عندما احتل الاتراك والتتار المستعمرات الايطالية على ساحل البحر الاسود في القرن الخامس عشر، توقف انتشار المذهب الاغريقي – البيزنطي في القفقاس الغربي.

ساهمت عوامل أخرى عديدة في اختفاء المسيحية من القفقاس الغربي. أولها وأكثرها جدارة بالملاحظة كان التفكك التدريجي ولاحقاً، سقوط بيزنطه عام ١٤٥٣. بعدها بدأت جورجيا، التي ازدهرت مؤقتاً تحت حكم الباغراتيين، تضعف وانفرط عقدها سياسياً. العامل الثالث الاكثر أهمية في مساهمته بترحيل المسيحية القفقاس الغربي هو القوة العدائية المتنامية لتركيا وخانات القرم.

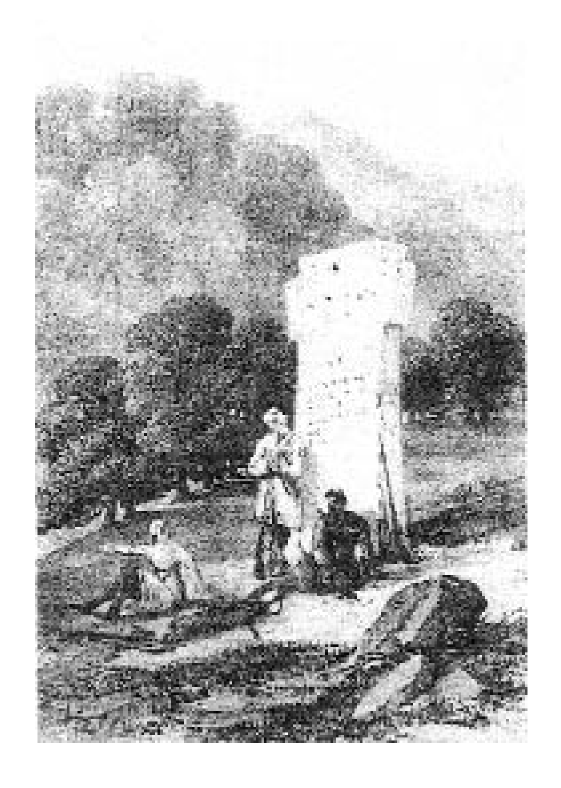
دمرت الكنائس القائمة وابيد القساوسة في القفقاس الغربي، بتأثير من نفوذ تركيا وخانات القرم. فشلت المسيحية في الصمود هنا لأسباب أخرى أيضاً. أولاً، كانت الصلوات الإلهية تقام باللغة اليونانية، والتي لم تكن الاغلبية العظمى من السكان المحليين تفهمها. ثانياً، لم تترجم كتب الصلوات بسبب انعدام الكتابة بين الأديغة. كما سبق ورأينا، كان لديهم هيكل ثري من آلهتهم الخاصة ومعتقداتهم التقليدية المحببة اليهم، والتي مارسوا الدين الاجنبي المفروض عليهم بموجبها بشكل جزئي. في نفس الوقت، يجب الاعتراف بان المسيحية لعبت دوراً تقدمياً في تاريخ الأديغة، خاصة إذ جمعتهم الى دول متقدمة مثل بيزنطه، جورجيا وايطاليا.




صليب حجري. القرن العاشر – الثاني عشر

عثر عليه اثناء الحفريات في نهر بشيش العلوي. يحمل الجزء نصف الدائري من الصليب شهادة على التأثير الابخازي. تتحدث الكتابات والنقوش على الصليب عن تأثير العبادات الوثنية " يقول إس. تي تشاموكوف " في رأي اسلافنا كان الصليب صنماً يمتلك قدرات سحرية، قبل ان تتغلغل المسيحية بين الأديغة ".

لا تزال آثار من المسيحية مرئية في بعض الاعياد ومناسبات الصوم لدى الشراكسة. مثلاً، فان شعائر الصليب " قاش " او " جور "، المرتبطة بشكل وثيق بشعائر "ماجاي" هي دليل واضح على ذلك. تشهد اسماء ايام الاسبوع الأديغة على ذلك أيضاً. مازال الأديغة يسمون يوم الأحد " تحاو ماف " تحاماخوه " ( يوم الله ). في ذلك اليوم، كانوا يمتنعون عن العمل. يطلقون على الاربعاء "باراسكيجي" والجمعه "باراسكاخو" أو "باراسكاشخو" ويفترض ان الأخير يتعلق بذكرى عبادة الباراسكيف (اليوم الذي يسبق السبت اليهودي: والجمعة الطيبة من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية). هناك اسماء شركسية أخرى "ووتيج" (صوم)، " ليميشخ " ( التمسك بشعائر يوم الصوم ) و " قويا شتا " ( اليوم الأخير قبل الصوم )، وهي بعض الآثار الباقية من المسيحية بين الشراكسة.



**صليب حجري**
**اقامة المبشرون البيزنطيون في احد اودية بلاد الشابسوغ**
**(من كتاب " سنة بين الشراكسة " لجون لونغوورث)**

## الاسلام بين الأديغة

ظهر الاسلام أولاً بين الاديغه من خلال الحشود الذهبية في القرن الرابع عشر. المثير للاهتمام، فان الحشود الذهبية نفسها، والتي كانت تجتذب مقاتلي الامارات المحتلة في جنوب روسيا الى جيشها،كانت ايضا ذات تأثير كبير في جلب المستوطنين الروس الاوائل الى القفقاس. عندما وصل مانجو خان الى التيريك عام ١٢٧٧، كان الروس الذين خدموا في جيشه اول الروس الذين استقروا في القفقاس.

بعد ذلك اصبح المذهب السني من الاسلام احد الادوات الرئيسة في بسط السيادة التركية في اقليم البحر الاسودمن القفقاس وفي صراعها ضد روسيا. يبدو على اية حال ان المبشرين بالاسلام، مثل المبشرين المسيحيين الذين سبقوهم، واجهوا صعوبة في ادخال الأديغة في ديانتهم الجديدة لمدة طويلة. حسب المصادر الادبية، فان حضور العنصر الاسلامي بين الاديغه ظل غير مهم حتى وقت متأخر أي قرابة النصف الثاني من القرن السابع عشر. فقد كتب الحاج حلفا، المؤلف التركي في تلك الفترة، عن الاديغه " بعضهم مسلمون، والبعض الاخر وثنيون." واضح انه حتى وقتها ظل الشراكسة متعلقين بقوة بمعتقداتهم القديمة".

منذ العام ١٦١٦، امر السلطان التركي مراد الرابع خانات القرم، دولت جيراي وكازي جيراي، بنشر الاسلام بين جبليي القفقاس. تبعاً لذلك بدأ خانات القرم ينشرون الاسلام في القفقاس الغربي، وبدأ النفوذ التركي يكتسب قوة متزايدة على الشراكسة.

سرعان ما اعتنقت الارستقراطية الاديغه الدين الجديد، تبنت تعاليم الاسلام واضافتها الى ايدولوجيتها وبدأت في ادخال اتباع.اكثر من ذلك، فقد عاد القادة الروحيون للاسلام، الذين أدوا فريضة الحج الى مكة المكرمة،حاملين لقب الحاج،فاصبح هؤلاء الادوات الجديدة لنشر الدين الجديد.بنيت مساجد جديدة وافتتحت مدارس دينية من خلال تشجيعهم، لتحضير كوادر تبشيرية دعوية. كذلك لعبت الزيجات دوراً مهماً في توسيع تأثير الاسلام والعدوان التتاري المغولي في بلاد الشراكسة.حسب شهادة محمد هاشم افندي (١٧٨٥-١٧٨٢) فان والي انابا، فرح باشا، الذي كانت غايته توسيع النفوذ التركي بين الاديغه، اختار زوجته من عائلة شابسوغ نبيلة. وهكذا، اصبح له نفوذ عظيم بين الشابسوغ." لم ينتظر افراد حاشيته ولا جنوده طويلا لاغتنام الفرصة من هذا المثال. " بغض النظر عن الجهود المشتركة للفاتحين الاتراك واتباعهم، لم يتلق الاسلام انتشاراً واسعاً بين الاديغه العاديين حتى القرن الثامن عشر.

تدريجياً بدأت هذه العملية تؤثر سلبياً على وحدة الشراكسة وصراعهم من اجل الاستقلال. بدأ بعض افراد الطبقات العليا من الاديغه ورجال الدين الاسلامي الجدد يصبحون تابعين للسلطة الاسلامية العليا في القسطنطينية. فقد تحول الدين الى اداة سياسية مرة أخرى، أرغم إطلاق العدوان الروسي الأديغة على اعتناق الدين الجديد بأعداد كبيرة. وهذه المرة لاجل تطبيق السياسة التركية في القفقاس. لم يرغم الاديغه على اعتناق الدين الجديد باعداد كبيرة الا اطلاق العدوان الروسي.

• • •

منذ القرن الثالث عشر بدأت قبائل الاديغه عملية تحولها الى أمة بخطوات بطيئة الى حد مؤلم.فقد تواجدت علاقات اقطاعية وعناصر عائلية،ولكن لم تكن هناك فروقات مهمة بين الجماعات المنفردة من قبائل الاديغه.

تشكلت بدايات مرحلة جديدة في الموقف الدولي في بلاد الأديغة عند نهاية القرن الخامس عشر.انتهى وجود الامبراطورية البيزنطية والمستعمرات الجنوية على ساحل البحر الاسود. وخلق انتصار تركيا الاقطاعية وصعود نجم خانات القرم تهديداً جدياً لوجود بلاد الاديغه. في نفس الوقت، وصلت حدود الدولة الروسية الى حدود القفقاس الشمالية تماماً، ما خلق وضعاً دولياً جديداً في القفقاس.

كتب سيمين برونيفسكي يصف القرن الثالث عشر في تاريخ الأديغة (الشراكسة): "احتلوا الشاطئ الشرقي لبحرآزوف حتى الدون، استولوا على كيرتش في القرم وقاموا بغارات متكررة على شبه الجزيرة اضافة الى اقطار عديدة في اوروبا. من هناك نزلت عصابات القوزاق، التي ظهرت في هذه الايام: كذلك اسسوا في مصر سلالة باسلة من السلاطين تحت اسم البرجية او الشركس، الذين كان اول سلاطينهم برقوق".

## قبائل الأديغة وأقاليمها

رأينا كيف اختفت اسماء المأوتية بشكل شبه تام من المصادر الادبية بعد تشكيل اتحادات الاديغه القبلية لزيخيا، كاسوغيا، وابازجيا.كذلك شهدنا قبائل أديغه جديدة تظهر تحت اسماء مختلفة، لم تكن مألوفة لدينا من قبل، مثلا في القرن العاشر. في نفس الوقت كانت املاك الاديغه تنكمش، وبحلول القرن السادس عشر، كانت حدودهم الشمالية تسير بمحاذاة نهر الكوبان على الاغلب. رغم ذلك، حسب رأي مؤلفي كتاب "تاريخ الاديغه القديم" ظل الاديغه يعتبرون الهضاب على الضفاف اليمنى لنهر الكوبان اراضيهم واستخدموها حسب حاجتهم اليها، لكنهم لم يستقروا فيها نظراً للصعوبات التي تنطوي عليها حمايتهم من

غزوات القبائل الرحل. من الناحية الاخرى، وصلت مستوطنات بعض الشراكسة قريباً من بحر قزوين.

لم تتغير حدود ابخازيا وبلاد الأديغة على البحر الاسود منذ القرن العاشر. في القرن الثالث عشر انحصرت الاراضي الاخرى التي استقر فيها الشراكسة في الشمال على نهر الكوبان بالمكان الذي يصب فيه نهر اللابا .امتدت حدودهم على البحر الاسود من تامان الى شاخا: في الجنوب كان الشراكسة متجاورين مع الاباظة: في الشرق سارت حدودهم بمحاذاة الضفة اليسرى لنهر لابا، وفي الشمال الشرقي تجاوروا مع النوغاي.

حسب كلمات لولي، فقد اعتبر الاديغه فقط القباردي، البيسليني، التيمرجوي، الحاتقواي، والخيجايك اديغه. وكان البجدوغ، الماخوش، والجانة يسمون احياناً " اباظة "سمى القباردي الابزاخ، الشابسوغ، والناتخواج بالاسم الشائع "ابازه تلبق " (شعب الاباظه)، وكل ساكني عبر الكوبان، ما عدا البيسليني " كياخ "، " تشاخة " (سكان الاراضي المنخفضة). سمى الابزاخ، الشابسوغ، والناتخواج جميع القبائل ذات التركيب الاجتماعي المتقدم "اديغة تشيلا" "اديغه جيله" (الشعب الاديغه).

يسمي الشراكسة انفسهم "اديغه". الاسماء الموازية هي "شركسي" "تشركس" "وشراكسة". اول من استعمل لفظ " تشركس" هم المؤلفون الشرقيون، الذين كتبوا عن الحشود الذهبية.

طبعاً امتلكت كل قبيلة منطقتها الخاصة واسمها. على اية حال، خلال عملية توحيدهم كأمة، اختفى الكثير من التسميات القبلية الفرعية، او كاد يختفي بحلول القرن الثامن عشر. بدات القبائل المقسمة سابقاً تفقد خصوصيتها المحلية ببطء وتشكل مجموعة إثنية كبيرة.

تباطأت هذه العملية بسبب التقدم البطيء في الاديغيه، التي تأثرت بالنتائج القاتلة لغزوات التتار والمغول بالاضافة الى اعتداءات الامبراطورية التركية وخانات القرم.

كثيراً ما كانت المنطقة التي تشغلها قبيلة أديغه أو أخرى تتغير تبعاً لاسباب مختلفة. فمثلاً فيما يتعلق بفشل الحروب او نجاحها. أحياناً أضطر الاديغه للتراجع نحو أعماق الجبال العصية، لتفادي ضغوط الجيران الاكثر قوة منهم.كذلك اضطرهم البحث عن اراضي الرعي وأسباب أخرى الى الانتقال من مكان الى آخر.

لم يتوحد الاديغه في دولة واحدة أبداً. مارست قبائل الاديغه أسلوب حياة اجتماعي سياسي منفصل على مدى قرون. الى جانبها كانت لديهم ملامح كثيرة متشابهة. حسب رأي

كاتب روسي في بداية القرن التاسع عشر، فإن الأديغة الذين يختلفون جزئياً حتى في الدين هم متشابهون في الشخصية، التقاليد، طريقة المعيشة، الملابس والاسلحة."

يجب على المرء أن يأخذ في الاعتبار أن أوضاع الاستيطان للأديغه تغيرت بدرجة اساسية في النصف الاول من القرن التاسع عشر. فقد بدأ السكان الروس يخترقون في القفقاس الشمالي الغربي، ولكن بما ان السياسة القيصرية كانت تهدف الى استغلال جميع الشعوب غير الروسية، فقد بدأت روسيا تزرع بذور الشقاق بين الاديغه والشعب الروسي.

**الشابسوغ:** كانوا منقسمين الى مجموعتين: شابسوغيا الكبرى والصغرى. كانت شابسوغيا الكبرى تحاذي الناتخواج بمحاذاة نهر اداجوم وسلسلة القفقاس الرئيسة وفي الشرق والجنوب الشرقي مع املاك البجدوغ والابزاخ.

كانت شابسوغيا الصغرى واقعة على المنحدرات الجنوبية لسلسة جبال القفقاس. في الشمال الغربي تحاذي الناتخواج بمحاذاة نهر جبغا(في مصادر اخرى بمحاذاة نهر الشاخا). في الشرق اتصلت شابسوغيا الصغرى باراضي الابزاخ على طول سلسلة جبال القفقاس الرئيسة.

الشابسوغ هم الاكثر عدداً بين جميع قبائل الأديغة. كانت بلادهم جبلية مغطاة بالغابات وكانت مهنتهم الرئيسة تربية المواشي بكثافة وكانوا شبه رحل. كذلك لعبت الزراعة، تربية النحل، الصيد وصيد السمك ادواراً مساعدة في اقتصادهم.

انقسم الشابسوغ الى ثماني مجتمعات "حابله"، وانقسمت الأخيرة الى عدد من الاحياء ( القرى، المناطق ) والتجمعات " بسيخو". يتألف كل تجمع من ٤٠ الى ١٠٠ عائلة.

لم يكن لدى الشابسوغ امراء. بل كانوا يحكمون من قبل كبار سن منتخبين.

تعتبر عائلات شيريتلوك، آبات، كيرزيك من الدرجة الاولى. تخو تشوه خورزاك، بيرزج، اعتبرت عائلات شابسوغ ثانوية.

اللهجات الشابسوغ هي: شابسوغ، تحاكوشينه، وتيمرجوي – شابسوغ.

**الناتخواج:** احدى أكبر قبائل الاديغه، وتعيش على المنطقة الممتدة من المجرى السفلي للكوبان في الشمال وحتى نهر جبغا في الجنوب. يعتبر بعض العلماء ان الحدود الجنوبية للناتخواج كانت نهر بشاد، الواقع ابعد الى الشمال قليلاً. في الشرق سارت حدودهم مع مجرى نهر اداجوم، وبعض روافده، وجزئياً مع سلسلة القفقاس. امتدت حدودهم الغربية بمحاذاة ساحل البحر الاسود. وهكذا مثلت املاك الناتخواج نوعاً من المثلث قاعدته نهر

الكوبان ورأسه نهر جبغا. في الشرق تحاذى الناتخواج مع شابسوغيا الكبرى وفي الجنوب مع شابسوغيا الصغرى.

مثل الشابسوغ، عاش الناتخواج متفرقين، في بيوت معزولة. اشتغلوا بتربية الماشية والزراعة، زرعوا كروم العنب وصنعوا النبيذ في بعض الامكنة.

لم يكن لدى الناتخواج امراء، لكن كانت لديهم عائلات متميزة: فيباكو، تشانغاكو، كيرزيك ،كويتسوك وآخرين.

كانت عادات، تقاليد ولغة الناتخواج طبق الاصل تقريباً عن عادات جيرانهم الشابسوغ.

**الشيجاك:** قبيلة أديغه صغيرة، عاشت بقرب انابا على نهر انابكا وروافده، مجاورة الناتخواج. عند بداية القرن التاسع عشر، انخفض عدد افراد قبيلة الشيجاك بحدة نتيجة اوبئة الطاعون والصدامات المتعددة مع الناتخواج، والذين ذابوا بينهم تدريجياً في نهاية المطاف.

هناك قبيلة صغيرة اخرى هي **التشيبسين**، اندمجت مع الناتخواج في بدايات القرن التاسع عشر. يذكر بعض المؤلفين قبيلة **غوايه** بالاضافة. حسب رأي لولي" شغلوا وادي بسيوزا وأودية اخرى عديدة. يثبت عدد العائلات التي اختلطت بالناتخواج والشابسوغ في يومنا هذا كم كانت هذه القبائل مهمة.

**الأبزاخ:** احدى اكبر قبائل الاديغه، شغلوا منطقة واسعة في جبال القفقاس الممتدة من حوض افيبس لغاية حوض اللابا. في البداية لم تكن املاكهم تصل الى نهر الكوبان في الشمال ونهر افيبس الى الغرب، لكن لاحقاً دفعوا البجدوغ الى أعالي حوض افيبس واحتلوا اراضيهم. ابتداء من نهر افيبس، امتدت املاك الابزاخ بمحاذاة نهر بسيكوبس باتجاه نهر بيلايا. بعد ذلك اتجهت حدود أملاك الابزاخ بمحاذاة نهر بيلايا الى مايكوب. هنا، بمحاذاة المجرى السفلي لنهر كورجيبس، شغل **المامكغ** مقاطعة صغيرة على شكل مثلث. بعد ذلك، سارت حدود الابزاخ مرة اخرى الى نهر بيلايا، متجهة شرقا نحو القسم العلوي من حوضي فارس وبسيفير، من هنا عادت حدودهم للالتفاف جنوباً نحو سلسلة القفقاس الرئيسة وتوجهت بين حوضي بيلايا ولابا.

في الغرب، جاور الابزاخ الشابسوغ: في الشمال، البجدوغ، الحاتوقي، الآداميي، وايجيريكواي (فرع من التيميرجوي): في الشرق، مع المامكغ وفي الجنوب الغربي، مع الوبيخ.

اشتغل الابزاخ في تربية الماشية والزراعة والبستنة وزراعة الخضار وازدهرت الحدادة بينهم. استخرجوا الصلب من الجبال وصنعوا منه الاسلحة.

عاش معظم الابزاخ في قرى صغيرة منفصلة ومجتمعات صغيرة. لم يكن لديهم امراء، بل كان لديهم نبلاء عائليون، تلقوا لاحقاً لقب " ورق " ( نبلاء ). كذلك كانت لديهم عائلات " تلاقوتلش " اعتبروا انفسهم فروعاً من عائلات اوزدميروكوشماز: الداور، بيشيكو، كوشتاكو، اينـاموكو ( احفاد اوزدمير: انتوكو، جانكيت، بيرزوقوه وتيمداج ( من كوشماز ): ايديغا، قسيه، اوناروكو، جوباتور، وادجيترال (من ميرزات النوغاي).

يتكلم الابزاخ لهجة خاصة بهم، وهي في سبيل الاندماج مع التيميرجوي.

**التيميرجوي(الشيمجوي)**: كانوا واحدة من اقوى قبائل الأديغة.عاشوا بين المجرى السفلي لكل من البيلايا واللابا. في الشمال امتدت اراضيهم بمحاذاة الكوبان وفي الجنوب، على خط نهر بيلايا بشكل تقريبي. في الغرب كان يحدهم الحاتقواي في الجنوب مع الاداميي، وفي الغرب مع الايجيريكواي.

تلاحظ المصادر ان التيميرجوي كانوا اكثر ثراءً من جيرانهم. اشتغلوا بتربية الماشية والزراعة فزرعوا الذرة البيضاء، الحنطة، الشوفان وعباد الشمس. اعتبرت عائلة بولونتوك الممثل البارز الامراء الأديغة الحاكمين. توحدت قبائل التيميرجوي، الايجيركواي، والمامكغ تحت حكمهم.

**الحاتقواي**: احد فروع التيميرجوي. عاشوا بين نهري بشيش وبيلايا وامتدت اراضيهم من الكوبان لغاية املاك الابزاخ. في الغرب جاوروا البجدوغ، وفي الشرق مع التيميرجوي، وفي الجنوب مع الابزاخ.

قبيل بداية القرن التاسع عشر، عاش الحاتقواي الى الغرب من كاراكوبان على نهري اوبين وافيبس، لغاية الاراضي المنبسطة (المغطاة بالقصب) للكوبان. والتي كان يحدها من الجنوب نهر يامانسو، بين املاك قوزاق البحر الاسود الشابسوغ، كانت عائلة كيركينوكو الممثل الرئيس لارستقراطيتهم.

اعتبرت قبيلة **خاتكو** فرعاً من الحاتقواي، وكان خانات القرم يسمونهم " ادالي ". عاشوا على شبه جزيرة تامان واندمجوا مع قبائل أديغه اخرى منذ نهاية القرن الثامن عشر.

**مامكغ**: قبيلة أديغه صغيرة، عاشت في منطقة تشكل مثلثاً، رأسه يحاذي التيميرجوي والايجيريكواي، الذين اعتبروهم تابعين لهم.

**الادامي:** أحد فروع التيميرجوي. في البداية عاش الآدامي في عدد من القرى على نهر بشيش، قرب الكوبان وعلى ضفتي المجرى السفلي لنهر بيلايا. لاحقاً اخرجوا من هناك الى الضفة اليمنى من نهر الكوبان. كانوا بدورهم تابعين لامراء بولوتوكو.

عاش **الايجيريكواي**: بين نهري بيلايا واللابا، محاذين لاملاك التيميرجوي في الشمال الغربي وبجوار الماخوش في الجنوب الشرقي والابزاخ الى الجنوب.

**البجدوغ:** سكنوا بداية في منطقة نهر شاخا، بين طوابسه وسوتشي. انقسموا لاحقاً الى مجموعتين اقليميتين: (ابخاز) البحر الاسود وأديغه ( ما وراء جبل " اوبور "على ما يبدو خلف سلسلة القفقاس ).

بدأ البجدوغ، تمشياً مع التقاليد، في البحث عن أودية أقل ازدحاماً بالسكان في شمال القفقاس بسبب تنامي اعداد السكان والحروب المتكررة ضد الجيران الاقوى.

بالحكم على شهادة ايفلي تشيليبي الذي وجد البجدوغ على ساحل البحر الاسود عام ١٦٤١، لا يمكنهم أن يكونوا قد اعادوا الاستقرار قبل منتصف القرن السابع عشر.

عاش البجدوغ على الضفة اليسرى الوسطى، وجزء من السفلى لنهر الكوبان، الذي شكل حدودهم الشمالية. كذلك شغلوا الضفاف اليمنى للكوبان قبل ظهور قوزاق البحر الاسود عند نهاية القرن السابع عشر. في الغرب جاورت اراضيهم شابسوغيا الكبرى، وفي الشرق امتدت الى نهر البشيش، احد روافد الكوبان، حيث بدأت املاك الحاتقواي. جاورت الحدود الجنوبية البجدوغ اراضي الابزاخ.

انقسم البجدوغ الى قبيلتين: الشيشيناي، والخمش، عاش الخمش بين نهري افيبس وبسيكوبس. اشتغل البجدوغ بتربية الماشية والزراعة وزرعوا الذرة البيضاء والصفراء، يتكلم البجدوغ لهجة خاصة بهم، مشتقة من التيميرجوي وقريبة منها.

**الجانه:** كانوا في السابق قبيلة اديغه قوية. يقول ايفلي تشيليبي انهم عاشوا على ساحل البحر بمحاذاة نهر بشاد. بعد قبيلة كوتاسه الابزاخ. على خارطة القفقاس، التي رسمها حاجي خلفا في النصف الاول من القرن السابع عشر، كانت اراضي الجانه واقعة على الضفاف اليمنى للمجرى السفلي لنهر الكوبان، قرب فرع كاراكوبان، بعد تامان واتشو. اقترب الجانه من الإبادة التامة نتيجة للصدامات التي لا تنتهي مع التتار والروس، خاصة اثناء الحرب الروسية – القفقاسية.

**الماخوش:** حسب بعض الاساطير الشعبية، كانوا اقارب للبجدوغ، ولهم نفس الاسلاف. اعتبر الماخوش الشقيق الاصغر للفرعين البجدوغ، تشيرشاكور وخمش.

عاش الماخوش عند سفوح الجبال ذات الشجر، التي كان يندفع منها العديد من الانهار، امتدت منطقتهم غرباً الى اراضي الابزاخ بمحاذاة مجرى نهر فارس باتجاه المجرى الوسطي لنهر لابا. في الشرق سارت حدودهم على الضفة اليسرى للابا. في الغرب مع البيلسيني، وفي الشمال مع النوغاي.

امتلك الماخوش العديد من القطعان، واشتغلوا ايضا بالزراعة. كان زعماء نبلائهم البوغور سوكو، وهم قبارديو الانتماء.

**البيسليني**: كانوا ينتمون بشكل خاص الى القباردي من حيث الاصل والثقافة وتكلموا باحدى تفرعات اللهجة القباردية الثلاث.

جاور البيسليني الماخوش في الشمال الغربي، والمامكغ في الغرب والاباظه في الجنوب والجنوب الشرقي. امتدت املاكهم غرباً بمحاذاة الضفاف اليمنى للمجرى العلوي لنهر اللابا وروافده خودز الى الشرق والشمال الشرقي بمحاذاة نهر اوروب ورافدية التيغين الكبير والصغير وانهار اخرى، بشكل عام الى خط الستانيتزات في ابورني واوترادني. حدد حاجي خلفا موقعهم تقريباً في نفس الامكنة في النصف الاول من القرن السابع عشر.

العائلات البيسليني العرقية هي القباردا والشالوخ، احفاد بيسلان، نجل اينال الاسطوري، وجد الامراء القباردي.

**قباردي الكوبان**: عاشوا في القباردا حتى عام ١٨٠٤، في منطقة المجرى الاوسط لنهر مالكا. خلال عامي ١٨٠٤ و ١٨٢٢ انتقلوا الى الاراضي خلف نهر الكوبان عند اعالي نهر لابا، المجرى الاعلى والاوسط لنهر اوروب، بمحاذاة نهر كوما وبعض الانهر الصغيرة الاخرى، كان اشتغالهم الرئيس بتربية الماشية.

**الحاكوش**: عاشوا عند منابع انهار الآشة، بسه زوبا وشاخا، والتي تصب في البحر الاسود بين طوابسه وسوتشي. جاوروا الوبيخ وشابسوغيا الصغرى. يعتقد بعض العلماء ان الحاكوش تشكلوا من الابريك المجاورين لقبائل الابزاخ، الشابسوغ، الوبيخ، وآخرين.

سماهم كل من البجدوغ، الشابسوغ والناتخواج "اغوي"، لكن التيميرجوي والقبائل الاخرى كانت تدعوهم "حاكوش".

في النصف الاول من القرن التاسع عشر، كانت المعلومات حول الامة الشركسية في كثير من الاحيان مبنية على افتراضات اعتباطية. لذلك فان المعلومات المتوفرة حول القبائل الشركسية والسكان بشكل عام تختلف بدرجات كبيرة. مثلاً، حسب معلومات الجنرال ميندا لعام ١٨٤٠، فان العدد الكامل لسكان بلاد الاديغة كان ٤٢٣،٠١٠ اشخاص، وحسب بيانات

البارون روزين ٥٠١،٠٠٠: وحسب البيانات المخفضة لوزارة الخارجية الروسية ٢٦٢،٨٠٠ وحسب الانجليز جيمس بيل، دافيد اوركهارت ولونغوورث، اكثر من مليون شخص.

من الصعب حقاً، تقديم رقم قريب من الدقة لمجموع سكان بلاد الشراكسة لتلك الفترة. فكما لاحظ احد الضباط الروس بصدق " كل هذه الارقام حول سكان القفقاس تم التوصل اليها بشكل تقريبي او كما يقال بالنظر "

من وجهة نظر الجبليين، لم يكن احصاء الرجال بلا فائدة فقط، بل حتى خطيئة. ذلك هو السبب في انهم كانوا يقاومون كلما امكن الاحصاء العام، او عندما يجبرون، يقدمون معلومات مزيفة"

بالاشارة الى هذا الموضوع،فان بيانات الضابط الروسي نوفيتسكي لعام ١٨٣٠، تعتبر اقرب الى الواقع في الادبيات. حسب معلوماته فان الرقم الاجمالي لافراد قبائل الاديغه هو ١،٠٤٢،٢٠٠ ويضمون الشابسوغ ٣٠٠،٠٠٠، الابزاخ ٢٦٠،٠٠٠، الناتخواج ٢٤٠،٠٠٠، التيميرجوي ٨٠،٠٠٠، البيسليني ٧٠،٠٠٠، البجدوغ ٦٠,٠٠٠ الحاتقواي ٢٠،٠٠٠ ، الماخوش ٨٠٠٠، الجانه ١٢٠٠، لآداميي ٣٠٠٠.

**الاباظه:** درسهم ال.اي لوباتينسكي بالتفصيل. في رأيه، فان الاباظه المعاصرين فرع من خليط سكان ساحل البحر الاسود،الى الشمال الشرقي من ابخازيا المعاصرة.حملت عملية اندماج السانيج، الابخاز والابسيل في امة ابخازية واحدة (في النصف الاول من الالف الاولى من الميلاد)، حملت اسلاف الاباظه ايضاً وجعلتهم ابخازاً. خلال القرون من الرابع عشر وحتى السادس عشر، عاد اسلاف الاباظه المعاصرين الى الاستيطان في شمال القفقاس من ساحل البحر الاسود، بشكل تقريبي من المساحة بين نهري طوابسه وبزيبا. يقول لافروف ان تاريخ الاباظه وحتى القرن العشرين، هو قصة تناقص مستمر للشعب الكبير القوي سابقاً. لقد لعب الاباظه دوراً بارزاً في تشكيل أمة الاديغه رغم تناقص اعدادهم، فقد اندمجوا فيهم باعداد كبيرة. أن لفظ "ابازين" يدل على بقية الشعب الابخازي، الذي يعيش في القفقاس الشمالي الغربي.

ينقسم الاباظه الى مجموعتين قبليتين رئيستين: " شكاراوا "و" تابانتا " وكل منهما مقسم الى تشكيلات قبلية اصغر.

احتل الاباظه القسم الجبلي العالي للمنحدرات الشمالية لسلسلة القفقاس، بين منابع نهري كوما وبودكومكا، على الضفاف اليسرى لنهر الكوبان وفي حوض وأنهار كيفار، اوروب، بيجغون، لابا الاكبر والاصغر، بيلايا، زيلينتشوك، خودز وغوبس. جاورت اراضيهم

البيسليني والنوغاي في الشمال، المامكيغ في الشمال الغربي، القرشاي في الجنوب الشرقي والحجم الرئيس للشعب الابخازي في الجنوب الغربي.

كان اشتغالهم الرئيس في تربية الماشية. اشتهروا بتربية الخيول وتدريبها.كذلك عرف عنهم زراعة الذرة البيضاء بشكل رئيس.

في التقاليد واسلوب الحياة ، كان لدى الاباظه قواسم مشتركة عديدة مع الاديغه.تأثروا بالقباردي، البيسليني والابزاخ بعمق. خلق الانقطاع الطويل بين الاباظه والابخاز الاختلافات الاولية ليس فقط في اللغة، بل ايضاً في اشكال أخرى من ثقافتهم المادية والروحية.

**الوبيخ**: يسمون انفسهم" بيوخ " ويسميهم الاديغة" وبيخ " خلقت مسألة الارتباطات الإثنية والثقافية للوبيخ مع الابخاز والاديغه جدالات متعددة. يعتبر اللغويون المعاصرون أن لغة الوبيخ، في مرحلة تطورها، تنتمي الى المجموعة الغربية من اللغات القفقاسية وقريبة من لغتي الابخاز والاديغه. تحتوي مفردات الوبيخ كلمات اديغه وابخازية كثيرة. ارقام الوبيخ وطريقة العد عندهم هي مزيج من الاديغه والابخاز.

عاش الوبيخ على ساحل البحر الاسود بين نهري خوستا وشاخا، في الجنوب الشرقي تجاورت منطقتهم مع اراضي قبائل الجيغيت( السارز ) والاختشيبسو الابخاز، اللتين استوطنتا منطقة جاجر الحالية وجزء من منطقة سوتشي. في الشمال الغربي جاورت املاك الوبيخ الشابسوغ، في الشمال، فصلت سلسلة القفقاس اراضيهم عن مناطق الابزاخ.

اشتغل الوبيخ بتربية المواشي اساساً. انقسموا الى عدة فروع، مختلفة عن بعضها الآخر في خصائص اقتصادية ولغوية.

كان لدى الوبيخ عدد كبير من العائلات النبيلة. منها عائلتي بيرزين وديشان.

## الاتراك العثمانيون وخانات القرم

اصبحت القفقاس ساحة الصراع للقوى الاستبدادية الثلاث:ايران، تركيا العثمانية وروسيا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. كانوا مدركين تماماً ان من يفوز منهم بامتلاك القفقاس، سيكسب فوائد سياسية واقتصادية هائلة على الآخرين. فقد امتلكت القفقاس أهمية استراتيجية ممتازة، وهي غنية بالموارد الطبيعية. تمر من خلالها اقصر طرق القوافل الى الهند والى الاسواق الرئيسة لبلدان الشرق الادنى الى سهول دجلة والفرات، الى تركيا، ايران وافغانستان. كان البحران الاسود وقزوين، مع روافدهما من الانهار الكبيرة، يشكلون طرقاً تجارية بين آسيا واوروبا.

كانت تركيا العثمانية الاحدث نشوءاً من الامبراطوريات المتنافسة لكنها اصبحت قوة رهيبة ذات شهوة الى التوسع لا تعرف الحدود. خلال قرون قليلة، احتل هؤلاء الاتراك الذين اخذوا مكان السلاجقة وظهروا في الاناضول عام ١٥٦١، احتلوا بيثينيا في البداية عام ١٢٩٩، ثم اخضعوا قسماً كبيراً من آسيا الصغرى، واسسوا الامبراطورية التركية، والتي سميت فيها بعد الامبراطورية العثمانية. عندما توفي عثمان عام ١٣٢٦، في باوسا، بيثينيا، وسع ابناؤه الميالون الى القتال سيطرتهم وعبروا المضيق الى اوروبا عام ١٣٥٧، كذلك نظموا الانكشارية،اكثر الآلات القتالية كفاءة، من الاطفال الذين اخذوهم اتاوة من الشعوب المسيحية التي هزموها. قلَّص مراد الاول الاملاك الاغريقية واتخذ ادرنه عاصمة الامبراطورية العثمانية. عام ١٤٥٣ فتح محمد الثاني " الفاتح " القسطنطينية بعد حصار طويل. تحت حكم سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) بلغت الامبراطورية العثمانية اوج قوتها واحتوت مساحة هائلة على ثلاث قارات: هي اسيا، افريقيا واوروبا.

عام ١٤٧٥ احتلت الامبراطورية العثمانية خانات القرم من المغول كجزء من زحفها نحو القفقاس، كان الحاج جيراي خان، الحفيد المباشر لجنكيز خان، قد اسس خانية القرم المستقلة عام ١٤٤١، بعد تفكك الحشود الذهبية. وفي هذه الفترة حولت الامبراطورية العثمانية هذه الخانية الى تابع مطيع، وحولت اراضيها الى نقطة انطلاق لغزواتها داخل روسيا وشمال القفقاس.

سرعان ما جعلت الامبراطورية العثمانية خانية القرم الاداة لتوسعها في القفقاس الشمالي الغربي. على اية حال،فقد نفذت خانية القرم سياسة عدوانية خاصة بها تجاه الامم القفقاسية، وضد بلاد الشراكسة بشكل خاص. يقول جاك دي لوكا " لا تمر حتى سنة واحدة لا يقوم فيها التتار بغزو بلاد الشراكسة ".

تدريجياً ظهرت الحصون التركية: ماتريجا( تامان )، سوجوك كاله (نوفوروسيسك) ، كوبولو (سلافيون على الكوبان) اتشو(اتشايف) تيمروك، اغاجيا وكيزيل تاش، على سواحل البحرين الاسود وآزوف.

عام ١٤٧٥، احتل الاتراك انابا وسرعان ما حولوها الى سوق ضخمة للعبيد ومركز للدعاية الى الاسلام بين الاديغه المقيمين في القفقاس الشمالي الغربي. عام ١٤٧٩ وفي عهد السلطان محمد الثاني، نفذت الامبراطورية العثمانية عملية عسكرية دموية ضد الشراكسة.

قام الاتراك خلالها حسب قول ابن كمال بقطع رؤوس الثوار كل يوم في بلاد الشراكسة. ثم قطعوهم الى اشلاء ورموا بها بعيدا لتأكلها الغربان. بعد ان دمروا الاقليم الساحلي، اندفعوا

مثل الامواج عبر القرى الشركسية. يأخذون من ٥٠ الى ١٠٠ اسير وسيم الهيئة ويحولوهم الى عبيد. في سلافيانسك – على الكوبان، وفي انابا، قاموا بتدمير اعدائهم سيئي الحظ يومياً، الذين شعروا بالكراهية تجاه ابناء الاسلام " بعد اخضاع الاقاليم اعلاه، وبعد ان انتزعوا مناطق عديدة من الوثنيين، رفعوا راية دين محمد، الدين الصادق لمحمد (صلعم) في هذه الارجاء."

اقيمت حاميات للانكشارية في تيمريوك، اتشو، سوجوك، وامكنة اخرى....كانت كوبولو مقر اقامة "سيراسكر" (قائد الجيش) الكوبان منذ بداية القرن السابع عشر. اقام القائد الاقليمي لقامان وكافا في انابا. فقد اسست الامبراطورية العثمانية نقطة قوية هنا لتعزيز حكمها على الشاطئ الشرقي للبحر الاسود: اصبح بحر آزوف (آزاك)، حيث يذهب الاديغه للتجارة، نقطة استراتيجية مهمة جداً للاتراك العثمانيين. اصبحت انابا في القرن الثامن عشر مركزا لنشر الاسلام بين الشراكسة.

عام ١٥٠١، قام مينغلي جيراي، خان القرم، بغزو بلاد الشراكسة وتعرض للهزيمة. لاحقاً، نجح التتار تدريجياً في اخضاع الاديغه للخانات. على كل حال استمر الاديغه في النضال من أجل حريتهم واستقلالهم باخلاص. حسب كتاب " وطن الاديغه " هناك معلومات كثيرة ومحفوظة في الوثائق الروسية لتلك الايام حول مقاومة الاديغه للمحتلين التتار. ورد في تقرير الى موسكو، مؤرخ في كانون الثاني عام ١٥١٩، ان جيش القرم بقيادة باغاتور-جيراي، ابن محمد – جيراي، زحف على قباردا في صيف عام ١٥١٨، لكن القبارديين هزموه. تقول المعلومات التي اوردها أي، تشيليشف، السفير الروسي "اشتبك بوغاتير- تساريفتش (ذاك هواسم بوغاتير-جيراي في الوثائق الروسية) مع الشراكسة وهزموه: يقال ان ثلث الرجال فقط خرج من بلاد الشراكسة، بينما قتل ثلثا الرجال".

علقت الامبراطورية العثمانية اهمية استراتيجية عظيمة على اهمية القفقاس، والتي سيفتح امتلاكها احتمالات واسعة للاختراق نحو جنوب روسيا، اقليم الفولغا وآسيا الوسطى. لذلك، بدأوا يخترقونها براً وبحراً عند نهاية الربع الاول من القرن السادس عشر. بينما ذهبت طريقهم البحرية، من طرابزون.

استغل كل من الفاتحين الايرانيين والاتراك المريدية والاسلام في حروبهم ضد شعوب القفقاس. تحت راية الصراع للاسلام، احتلوا اراضي عبر القفقاس وجورجيا وارمينيا، دمروا لغتهم التاريخية والثقافية، وساقوا آلاف الرجال والنساء الى العبودية. باختصار بدأوا ينظرون الى القفقاس على انه البلاد الخاضعة لهم. اصبح استغلال ارمينيا،

اذربيجان وجورجيا وسيلة الربح، بالنسبة لشاه ايران والسلاطين الاتراك. نتيجة لذلك ملأ ممثلو سكان القفقاس اسواق النخاسة في الشرق، والذي منه قادتهم السبل الى سفن وحريم الحكام الشرقيين.

ابتداء من القرن السادس عشر، دأب الاتراك وخانات القرم على تصدير اكثر من ١٢٠٠٠ عبد من الشاطئ القفقاسي سنوياً.

في القرن السادس عشر زادت خانية القرم غزواتها في بلاد الشراكسة في محاولة لتثبيت ملكية اراضيها. في النصف الاول من ذلك القرن وحده، شن خانات القرم ٤٣ حملة في جنوب روسيا وحملات عديدة ضد الشراكسة. نتيجة لذلك وصل بعض قبائل الأديغة (الخيجاك،على سبيل المثال) الى حافة الإنقراض. وقعت واحدة من اوائل الغزوات في بلاد الشراكسة قرابة بداية القرن.

لم يكتف الشراكسة بالفوز مرات عديدة على جيوش التتار الغازية، بل ظهروا اكثر من مرة عند اسوار كافا نفسها. على اية حال، هناك وثائق تشهد انه في نهاية المطاف اضطر عدد كبير من القبائل الشركسية الغربية الى اتخاذ موقف خضوع. فمثلا تباهى محمد جيراي في خطابة الى القيصر فاسيلي الثالث عام ١٥١٩ قائلا "حضر سفراء من الشركس الينا: انهم يرغبون في تقديم الأتاوة لنا."

ربما خضع اسياد اقطاعيون شراكسة لخانية القرم طمعاً في كسب " فسحة تنفس " مؤقتة، أو آملين في تأمين قدر معين من الامان لبلادهم من غارات التتار المدمرة، لكن الشراكسة اضطروا لدفع الثمن غالياً لاحقاً بالهدايا الثمينة، بالعبيد ابتداءً. في القرن الثامن عشر كان يوجد تقليد قائم بتقديم عدد كبير من الاولاد والبنات الشراكسة لكل خان قرمي يصعد الى العرش، والذين كانوا يرسلونهم في نهاية المطاف الى حريم السلاطين الاتراك في استنبول.

في ربيع العام ١٥١٣، قام النوغاي بدورهم بحملة كبيرة في بلاد الشراكسة. يصفها دي.غوبين السفير الروسي لدى حشود النوغاي كما يلي: ذهب كوشتم – مورزا " اسماعيل مورزا، كيلمجميت، اوراك، وكل المورزات الصغار.......ذهبوا لقتال الشركس ".

عام ١٥٤٥ قام خان القرم بغزو آخر على نطاق ضخم في بلاد الشراكسة. يقول ريمال – خوجا ان ذريعته لهذه الحملة على " الجانه "هي رفض اميرهم قونشاوقه ان يرسل للسلطان هدية من العبيد الشراكسة.

عبر صاحب – جيراي، خان القرم مضيق كيرتش بثلاثمئة سفينة اعدت له. ساعد جيشه جنود انكشاريون مدججون بالاسلحة النارية.

استعد الشراكسة مسبقا لوصول التتار ونصبوا له الكمائن على الطريق. قسموا جيشهم البالغ تعداده ١٠،٠٠٠ رجل الى عدة مجموعات وركزوا قوتهم في نقاط حصينة زودوا مقترباتها بالحفر والاعواد المسننة. على الرغم من هذه الاستعدادات تحطمت مقاومتهم. لعبت مدفعية العدو واسلحته النارية ، والتي لم يكن للشراكسة دراية فيها، الدور الحاسم في هزيمتهم. بعد المعركة استطاع الامير قونشاوقه أن يهرب ويختبئ مع مفرزة صغيرة.

يستطرد ريمال - خوجا "بعد ذلك بفترة، حضر حاكم قباردي اسمه البوزدو الى شبه جزيرة القرم. كان هذا الامير قد انهزم في الصراع ضد ابني عمه قانوقه والبوتوقه، وهرب من قباردا. وجاء في هذه الآونة يطلب المساعدة من خان القرم للعودة الى السلطة،وتطوع ليكون دليلا".

استغل صاحب جيراي الحادثة الملائمة له، وقام مرة أخرى بجمع جيش قوامه ٧٠،٠٠٠ رجل ضم عدداً من الانكشاريين أيضاً، وانطلق نحو قباردا في ربيع عام ١٥٤٥. اختار الخائن البوزدو اكثر اللحظات ملائمة للهجوم على شعبه. فقد اقترب الوقت الذي يقوم فيه القبارديون بحصاد مزروعاتهم في منطقة معينة. كذلك حذر التتار من انه سيكون هناك بعض البجدوغ هناك الى جانب القبارديين،يقومون بحصاد مزروعاتهم في نفس المنطقة.

ان معلومات هذا المؤلف التركي مثيرة للاهتمام. اذ يبدو ان البجدوغ الذين كانوا يعيشون بعيداً عن قبارديا في الجبال الى الجنوب من الحاتقواي، اضطروا الى القدوم هنا مرتين في السنة – مرة لزرع البذار في الربيع و لاحقاً لحصاد المحصول – لعدم وجود اراضي قابلة للزراعة في اماكن معيشتهم. لاحظ الخان القرمي الذي هزم القباردي والبجدوغ في هذه المعركة ثبات وشجاعة القبليين البجدوغ بشكل خاص.

انطلق الجيش القرمي عام ١٥٤٧، باتجاه داغستان واستراخان من خلال قباردا، نهب التتار القرى الشركسية في طريقهم، ساقوا الكثير من الناس للبيع كعبيد. تشهد الوثائق ان القرم قاتلوا في كل الاراضي الشركسية، احرقوها وساقوا منها اعداداً كبيرة من النساء، الاطفال، الماشية، والاغنام. فيما بعد تفاخر الخان محمد – جيراي شخصياً بنجاح غارته في قبارديا وكتب " أخذنا اكثر من عشرين الفاً "

خصصت الحملة التالية للخان صاحب –جيراي للحرب ضد الأديغة الغربيين. نظمت في القرم عام ١٥٥١، بامر من السلطان التركي. كان ذريعتها هجوم الحكام الشراكسة على

الاتراك قرب آزوف، تحت قيادة اليجوقه وانتانوقه، ولدي امير الحاتوقي جانبك. يقتبس ريمال - خوجا الكلمات المشحونة بالكبرياء لاحد الشقيقين " يقول الخان انه سوف ينهبنا ولكن لن نتصرف مثل الجانيين والقباردي. انه قوي بمدفعيته، ولكن مدفعيتي هي الجبال الحادة الارتفاع والخيل السريعة" من اللائق هنا ان نتذكر كلمات زد. جيربر شتاين عن الشراكسة " انهم يرفضون ان يخضعوا أنفسهم للأتراك ولا للتتار، معتمدين على استحالة مهاجمة جبالهم" ذهب الشقيقان الجوقه وانتانوقه، وقد توقعا وصول الجيش القرمي، الى الجبال مع رجالهما للاختباء لدى البجدوغ بعد قتال شرس، حطم صاحب - جيراي تحصينات الاديغه وسواها بالارض واحتلها ثم اسر انتانوقة.

اصبحت بلاد الشراكسة الغاية الرئيسية للسياسة التوسعية للامبراطورية العثمانية خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر. بدأ الاتراك يقومون بحملات عسكرية منظمة نمطية في بلاد الشراكسة، لاخضاع الاديغه وتحصيل الاتاوات منهم. رغم ذلك حتى عندما كانت الامبراطورية العثمانية في اوج قوتها في القرن السادس عشر، فقد دأب القراصنة الشراكسة على مهاجمة السفن العثمانية التجارية والعسكرية على البحر الاسود والقيام بغارات على الساحل التركي. وهكذا، كتب سفير البندقية في بلاد فارس، في تقريره المؤرخ ٢٥ حزيران عام ١٥٧٢، من قونيه ان الشراكسة المسيحيين الذين قدموا في ٢٤ سفينة، نهبوا واحرقوا كل المستوطنات على مسافة ٣٠٠ ميل هنا، قتلوا الكثير من الناس واخذوا معهم نساءً اسرى، وصادروا جميع البضائع والممتلكات.

عام ١٧٨٠، عين فرح علي باشا واليا - قائدا لحامية سوجوك — قاله. يكتب نهاد برزج انه " عند وصوله الى هناك استدعى على الفور النوغاي المحليين واسكنهم قرب الحصن. كان التتار الذين هربوا من القرم بعد احتلال روسيا لها — يقطنون في ذلك المكان ايضاً. خطط هذا الاستعمار ليضع بين يدي هذا القائد العثماني قوة عسكرية يمكن استخدامها ضد الشراكسة، اذا وعندما تدعو الحاجة الى ذلك. خلال السنوات الثلاث التي قضاها فرح باشا في القفقاس، حاول ان يدمج الشراكسة بالاتراك وان يدخلهم في دين الاسلام، لكنه لم ينجح. على كل حال، لم تكن هذه السياسة موجهة ضد الشراكسة وحدهم. في الواقع فقد كان التتريك والأسلمة اساس سياسة الدولة للامبراطورية العثمانية والدعم الاساسي لجيشها. ذلك هو السبب الذي من اجله كان اطفال الالبان، البوسنيين، البلغار، اليونان، الخورفات، الرومان، والعرب، وابناء امم اخرى، الذين ينتزعون من ابويهم، في اعمار ستة الى عشرة اعوام، يرسلون بصفة مستمرة الى استنبول من قبل الاتراك. يعرف التاريخ جيداً انه بمجرد وصولهم الى تركيا كان بعض هؤلاء الاطفال يحولون الى عبيد لكن غالبيتهم

كانوا يحولون الى اتراك، ويدخلون في الاسلام حتى تنمحي اصولهم الاثنية والدينية من ذاكرتهم كلياً. بعد ذلك كان اؤلئك الاطفال يدربون في فنون الحرب ويرسلون للقتال ضد ابناء جلدتهم. عمل هذا النظام القائم على تزويد الجيش بصفة تقليدية خلال فترة التوسع الكاملة للامبراطورية العثمانية في اوروبا. جرى توجيه سياسة التذويب والدمج هذه ضد الشراكسة بفعالية اكبر، عندما اضطروا بعد اخراجهم من وطنهم بالقوة للبحث عن الملاذ ضمن حدود الامبراطورية العثمانية.

في بداية القرن السابع عشر بدات هذه الامبراطورية العثمانية التي يفترض انها لا تقهر، تتعرض لاخفاقات عسكرية وبدأ سلطانها الاوروبي ينكمش. انشغلت طيلة هذا القرن بحروب ضد روسيا، المجر، النمسا، صربيا ورومانيا، متلقية الهزائم على الدوام. كل حملة عسكرية كانت تسبقها تعبئة إجبارية في الجيش، الأمر الذي كان يتسبب بإفراغ القرى في الأناضول، لم تعد الأمبراطورية العثمانية قادرة على إستخدام الأكراد، العرب والالبان الثائرين لتعويض خسائر جيوشها. حتى قبائل التركمان ثارت ضد الضرائب الباهظة والتجنيد " الطوعي " للأزمنة العسكرية، بدأ سكان آسيا الصغرى يهربون إلى الحقول لشدة يأسهم من استخدام ابنائهم علفاً للمدافع وهكذا وقع عبء الحرب الرئيس تدريجيا على اكتاف الاتراك انفسهم.

## التقرير الرسمي الأول عن الشراكسة

أول الاتراك الذين وطأت اقدامهم المناطق الشركسية هما القائد العام للجيش العثماني دانجيكلي علي باشا وأميرال القوات البحرية للامبراطورية، غازي حسن باشا، حينما نزلا في سوجوك قاله عام ١٦٦٨. يقول تقريرهما " ليس هناك العديد من المسلمين بين الشراكسة. لكن الباقين كلهم بطبيعتهم قريبون من الاسلام، ولذلك يمكن للمرء ان يعتبر انه يمكن كسبهم الى جانبنا، يمكننا ان نشكل جيشاً قوامه حوالي ٨٠،٠٠٠ رجل من القبائل المحلية. سيكون هذا الجيش بدون أي شك الاقوى في العالم. سيمكننا من بناء جدار بين الامبراطورية العثمانية وروسيا والذي سيصبح عقبة لا يمكن تجاوزها لروسيا على الجانب الاوروبي. وسيسمح لنا هذا الجدار نفسه بالحصول على ميناء على ساحل البحر الاسود بدل الموانئ القريبة التي فقدناها ".

بعد ذلك بسنتين استقر فرح علي باشا في سوجوك قاله مع حامية من ٢٠٠ جندي عثماني. طبيعي ان هذا تم بموافقة الشراكسة، الذين لم يروا في هذا الامر أي تهديد محتمل

لاستقلالهم. تجاهل مسؤولو الادارة الروسية وجود هذا المسؤول العثماني طيلة فترة اقامته في سوجوك – قاله، وظلوا يدخلون في مفاوضات حول مسائل الساحل مع اصحابه الحقيقيين، الامراء الشراكسة.

## العلاقات الأديغة - الروسية الأولى

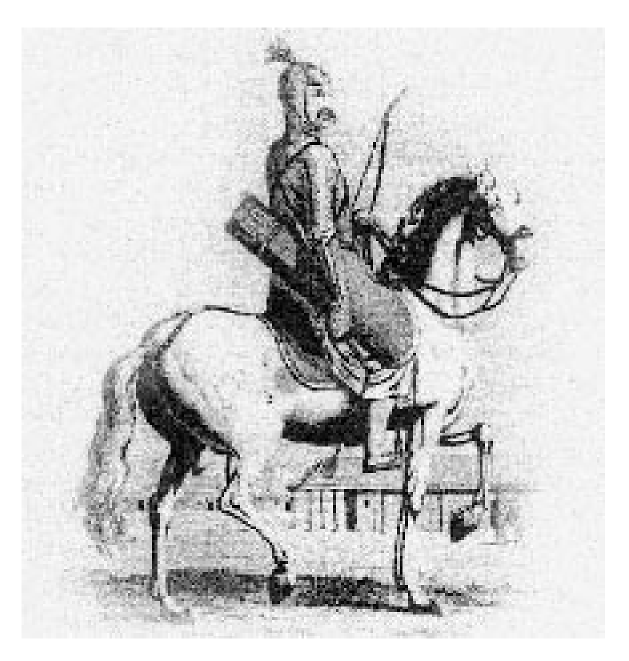
يعود التأسيس الاولي للعلاقات الودية للاديغه مع السلافونيين في جذوره الى ازمنة امارة تموتاركان التي يعود اصلها الى كييف. يقول شيربين، ان القوزاق احتفظوا باتصالات نشطة بين الجبليين منذ الازمنة القديمة، وكلما توغلت هذه العلاقات في الزمن، ظهرت العلاقات على شكل اقوى. فيما بعد على اية حال، وحسب رأي مؤلفي" بلاد الاديغه " فقد قطعت الغزوات التتارية – المغولية الاتصالات المؤسسة بينهما مؤقتا وعطلت العلاقات.

بدأت المرحلة الجديدة من العلاقات الودية بين الشراكسة والروس في منتصف القرن السادس عشر، بعد انهيار الحشود الذهبية وتشكيل الدولة الروسية المركزية. بادرت بها بعض القبائل الشركسية في بحثها عن مساعدة روسيا من اجل ازاحة نير الامبراطورية العثمانية وتتار القرم. في ذلك الوقت، كان الشراكسة يناضلون باستماتة ضد المستعمرين الاتراك – التتار (مثلا، ثورة الجانيين ضد تركيا وتتار القرم عام ١٥٥١)، توجهت بعض القبائل الشركسية لعجزها عن طرد هؤلاء المعتدين من اراضيها الى جارها الشمالي، روسيا طلباً للمساعدة. تظهر الوثائق التاريخية المحفوظة ان القباردي والأديغة الغربيين سعوا اكثر من مرة للحماية من روسيا من الغزوات المدمرة للاتراك العثمانيين وخانات القرم.

## السفراء الأديغة الى روسيا

كانت قبائل القباردي، الجانه، والبيسليني قد ارسلت اوائل السفراء الاديغه الى موسكو في تشرين الثاني عام ١٥٥٢ لمقابلة القيصر ايفان الرابع ( الرهيب ). حسب سجل مينكونوف، كانوا: الامير ماشوك قانوقه، من البيسليني، الامير ايفان ايزبوزلوقه من الاباظه، والامير تانا شوك. طلبوا من الحاكم الروسي ان يضعهم واراضيهم تحت حمايته وان يدافع عنهم من الخان القرمي. وعدوا بالمقابل ان يخدموا القيصر الى نهاية حياتهم وان يذهبوا الى أي مكان يرغب الحاكم في خدمتهم فيه.

اغضبت انباء وصول السفراء الأديغة الى موسكو خان القرم دولت جيراي. فقام بغزوة مدمرة في ارض شراكسة بياتيجورسك لمعاقبة الشراكسة على عملهم. عامي ١٥٥٣، ١٥٥٤. كتب بعدها متباهياً الى ملك بولندا سيجزموند بانه عاد من الحملة " بغنائم هائلة ".



**مقاتل شركسي**

يقدم لنا مؤلفو"بلاد الاديغة" المعلومات القيمة التالية عن هذا الحدث المهم في آب من عام ١٥٥٥ ،وصلت سفارة اخرى الى موسكو مؤلفة من ١٥٠ رجلا "كان يرأسها الامير الجاني سوبوك و نجله كوداديك وشقيقه اتسيمجوك،وكذلك الامير الاباظي توتاريقوه ايزبوزلويف، تكلموا باسم جميع الأرض الشركسية وطلبوا من الحاكم أن يقدم لهم المساعدة ضد الأتراك وخان القرم وآزوف، وعدوا بخدمته إلى الأبد. أبلغ أندريه شيبوتييف القيصر ايفان الرابع عن طلبهم ووعدهم، بحضور أعضاء البلاط الملكي والسفراء القباردي – الشراكسة.

قدم للسفارة الانتباه المستحق. جرى تعميد توتاريك وكوداديك وتلقيا اسمين مسيحيين هما إيفان والكسندر على التوالي. وعد السفراء الأديغة بالمساعدة ضد أعدائهم. رغم ذلك، عندما طلب الشراكسة المساعدة العسكرية ضد أعدائهم، أعلنت الحكومة الروسية أنها ستدافع عن الشراكسة من خانات القرم، ولكن ليس من الإمبراطورية العثمانية. كانت الذريعة هي أن روسيا في حالة "سلام" مع الأخيرة ولذلك، لا يمكنها أن تقوم بعمل عسكري ضدها.

تحسنت العلاقات الأديغة – الروسية نتيجة لهذه المفاوضات، مؤقتاً على الأقل. بحلول عام ١٥٥٥ - ١٥٥٦، كانت هناك قوة عسكرية شركسية من ٥٠٠٠ رجل في الخدمة الروسية.

بتشجيع من الدعم الروسي، قامت القوات الشركسية التابعة للأميرين تيمريوك وسيبوك بالهجوم على خان القرم و " احتلوا مدينتين " تيمريوك وتامان، عام ١٥٥٦ عندما غزا خان القرم شراكسة بياتيجورسك، أرغمت الجيوش الروسية التتار على العودة إلى القرم.

قام الأمير تيمريوك ايداروف بتنظيم المجموعة (الثالثة) من السفراء إلى موسكو عام ١٥٥٩ بغرض تدعيم التحالف مع روسيا. يقول عنها سجل نيكونوف "الأمراء الشراكسة الذين وصلوا للخدمة هم، الأمير ماشوك قانوقوف، والأمير سيبوك قانساوقوف، وتشينجوك – مورزا، وتاختا – مورزا، وتاتار - مورزا مع حراسهم الشخصيين.

يذكر سجل مراجعة آخر نفس الواقعة بكل مختلف قليلاً.



**ختم**

**الأمير ميخائيل ( سلطانوقه ) تشير كاسكي**

**كان شقيق القيصرة ماريا (كواشيني) تيمريوكوفنا- زوجة إيفان الرهيب.**

**قاد ميخائيل تشيركاسكي جيش النخبة، عام ١٥٧١، شغل منصب القائد العام للجيش الروسي.**

أعطت الحكومة الروسية وثائق مقابلة للسفراء الشراكسة، حسب هذه الوثائق، قبل الشعب القباردي (أحدى القبائل الشركسية) بالمواطنة الروسية، بشرط حقهم في الاحتفاظ بأمرائهم المحليين، في هذه المناسبة. نقل الأمراء الشراكسة إلى إيفان الرابع طلب القيصر الجورجي منحه نفس الحماية التي وعد بها جميع الأمراء الشراكسة.

## الصداقة الشركسية - الروسية

لا يوجد دليل على أن الشراكسة ابرموا تحالفاً قانونياً موثقاً مع روسيا على الاطلاق. كان التحالف المؤقت الذي تطور بينهما من خلال المفاوضات المذكورة آنفاً، بين السفراء الشراكسة وروسيا، كان مبنياً على الصداقة اكثر منه على التحالف. رغم ذلك، فقد خلق نوعاً من التعاون فيما بينهما. نتيجة لذلك بدأ بعض الأمراء الشراكسة يشاركون بفاعلية في العمليات العسكرية الروسية. فمثلاً، ذهب الامير سالنوك مع مقاتليه الى موسكو للخدمة الدائمة عام ١٥٥٨. لايوجد دليل على ان الشراكسة قد ارسلوه الى هناك بصفة رسمية. بكل الأحوال، أصبح هذا النشاط في ازدياد. خدم مقاتلون شراكسة آخرون في الجيش الروسي خلال الحرب الليفونية ( ١٥٥٨- ١٥٨٣ ). تشير السجلات الارشيفية الى ان الشراكسة ابدوا " شجاعة هائلة " واستولوا على ٢٠ قلعة، تحت قيادة الاميرين سيبوك وماشوك.

يخبرنا مؤلفو " بلاد الأديغة " اكثر من ذلك، بأن الضغط المتزايد لخانات القرم أجبر الشراكسة الغربيين عام ١٥٥٩ على الطلب من روسيا ان تساعدهم بالجنرال الروسي الشهير فيشنيفسكي. لبَّت روسيا الطلب فخلقت العمليات المشتركة للشراكسة وفصائل فيشنيفسكي تهديداً جدياً للاتراك والتتار في منطقة القفقاس الشمالي الغربي. عامي ١٥٦٠ – ١٥٦١ قامت قوات شركسية – روسية مشتركة بعدة حملات على شبه جزيرة القرم وسددت الى التتار ضربات قوية شعرت الامبراطورية العثمانية بالذعر نتيجة لها، فجهزت جيشاً للدفاع عن خانية القرم.



**كأس ايفان بوريسوفيتش تشيركاسكي**

**اعتبر إيفان بوريسوفيتش تشير كاسكي عام ١٦١٢ مرشحاً للعرش الملكي. فقد كان أمراء تشيركاسكي أعلى رتبة من الرومانوف في تسلسل بويار الهرمي. لكن دوما البويار فضل ترشيح ميخائيل رومانوف البالغ من العمر ستة عشر عاماً. بعد السماوات، كانت السلطة الحقيقية في روسيا بيد فيلاريت – والد القيصر الصغير. كما يشير إيه. إيه زيمين "بعد وفاة فيلاريت، انتقل حكم البلاد لمدة عقد إلى إيفان بوريسوفيتش تشيركاسكي (١٦٣٣-١٦٤٢) استمرت السيطرة المطلقة لعائلة تشيركاسكي حتى شباط عام ١٦٤٩، حينما رفض ياكوف (أوروسكان) كودينتوفيتش و ديميتري (قانشاو) ماستريوكوفيتش توقيع نص قانون المجلس.**

بحلول هذا الوقت، ظهرت فصائل سياسية معارضة في بلاد الشراكسة، خاصة في مسألة اختيار حلفاء الأمة. عام ١٥٦٣، اقترح بعض امراء الأديغة عملية عسكرية مشتركة ضد استراخان على السلطان، بغرض اعادة الاخيرة الى حكم الامبراطرية العثمانية. عام ١٥٦٥ قدم سفراء من " شركس الجبال " الى " باخشه سراي " كرروا نفس الاقتراح. رغم ذلك، فعندما قامت الامبراطورية العثمانية وخانية القرم بعملية ضد استراخان، رفض الشراكسة الغربيون المشاركة فيها. على اية حال، وكما اخبر إيه. ناغوي موسكو عن المسألة " هزم الشيركاس ابناء القيصر التتاري " ودفع التتار ثمناً غالياً لذلك.

من الناحية الأخرى، وفَّر التعاون العسكري الروسي – الشركسي قدراً من الأمان لبلاد الشراكسة. تدخلت روسيا لصالح حليفتها الجديدة، وقدمت المساعدة العسكرية والسياسية في مواقف مختلفة. مثلاً، عام ١٥٥٨، أمر القيصر الروسي أمير النوغاي " ان لايؤذي الشيركاس بأي شكل " عام ١٥٧٠، أشارت الحكومة الروسية في رسالة الى خان القرم عادل جيراي " بان لا يغزو اراضي التشيركاس "

كان الوضع في قبارديا بشكل خاص قد تحسن بعد ان تزوج ايفان الرهيب كوشيني، إبنة الأمير تيمريوف ايداروف، امير قباردیا ( يعرف الروس الأميرة جوشينيه باسم كوشيني، او باسمها المسيحي ماريا ). بعد هذا الزواج، بدأ الأمراء القباردي ينتقلون الى موسكو، حيث تنتظرهم رتب عسكرية عالية ووظائف مدنية. ( ميخائيل والكسندر تشيركاسكي، ديميتري مايستريوكوفيتش وآخرين، كمجرد عينة ).



اوروسكان ( ياكوف ) كودينيتوفيتش

( هذه الصورة لياكوف كودينيتوفيتش تشيركاسكي ماخوذة من كتاب اس. خوتكو ) هو نجل الامير كودينيت قامبولاتوفيتش، من اصل قباردي. ذهب الى موسكو عام ١٦٢٣. اصبح قائداً عاماً للجيش الروسي اثناء الحروب مع بولندا ( ١٦٥٤ – ١٦٦٧ ) ومع السويد ( ١٦٥٦ – ١٦٥٨ ). امتلك ضياعاً واسعة بما فيها اوستانكينو. مارينا روشا، ترويتسكويه، وكان لديه حوالي ٥٠،٠٠٠ من الاقنان. أسس اسرة كبيرة. اصبح حفيده اليكسي ميخائيلوفيتش حاكم سيبيريا، وعضواً في مجلس الاعيان ومستشاراً سرياً ( منذ العام ١٧٢٦ )، وزيراً، ولاحقاً رئيساً لوزراء الامبراطورية الروسية ( منذ العام ١٧٤٠ ).

**بعض الروس البارزين من اصل شركسي – اقارب آل رومانوف**



باكوف كودينيتوفيتش تشيركاسكي. وزير الحربية ووزير الشؤون الخارجية لروسيا



اليسكي ميخائيلوفيتش تشيركاسكي. رئيس وزراء روسيا، ورفيق سلاح بطرس الاول



ميخائيل بوريسووفيتش تشيركاسكي. رئيس اركان اسطول البلطيق اميرال البحر



ميخائيل اليغوفيتش تشيركاسكي. أول قائد عام روسي



الامبراطور نيكولاس الثاني بالملابس الشركسية

بدأت هذه العلاقة الودية بين الروس والشراكسة تتغير في اواخر ستينات القرن السادس عشر.من ناحية، بدأت العلاقات الروسية مع الشراكسة الغربيين تضعف. في نفس الوقت، ومن الناحية الاخرى، ازداد التوجه الموالي لتركيا لدى بعض القبائل الشركسية. اكثر من ذلك، وكما لاحظ إس خوتكو، " للمرة الأولى ، نجح الجيش التركي في المرور من خلال الاقاليم الشركسية بكاملها. حدث هذا عام ١٥٧٢: كان الجيش التركي تحت إمرة القائد العثماني المحنك، اوزدمير – اوغلوعثمان – باشا، وهو شركسي، رحب به رجال قبيلته على اساس انه ضيف عزيز " يخبرنا المؤلف التركي تشيليبي ان جيش عثمان باشا امضى فصل الشتاء في بلاد الشراكسة لمدة سبع سنوات " يقاتل الفارسيين في شيروان وشيماخا".

بغض النظر عن الاتصالات الدبلوماسية الآخذة في الضعف، استمرت الحكومة الروسية في اعتبار الشراكسة والاباظه على انهم مواطنيها. استمرت المصادر الروسية خلال العقود التالية في التشديد على ان " كل التشيركاس يخدمون الحاكم " وأن " امراء الجبليين واراضي التشيركاس: القباردي الاباظه وحشود النوغاي، بالاضافة الى البيسليني التشيركاس. هم جميعاً تحت يد القيصر الروسي ". اشتمل لقب القيصر بوريس جودونوف على عبارة "حاكم الأرض القباردية، أرض التشيركاس والامراء الجبليين ".



**طبق من الذهب، هدية ايفان الرهيب**
**إلى ماريا تيمريوكو فنا**

**أستقر عدد هائل من المواطنين الشراكسة في موسكو، عندما تزوج ايفان الرابع الأميرة القباردية. أظهرواً تميزاً في الحرب ضد النظام الليفوني. عبرت الاستقراطية البويار الروسية عن قلقها فيما يتعلق بالتجمع الشركسي المتنامي. لاحظ ايه.ايه زينين " ربط المعاصرون بين تقديم اوبريتشنينا ( نخبة ادارية خاصة) مع اسم القيصرة ماريا وأقاربها. أستنتج كاتب السجلات أن زمن المتاعب في بداية القرن السابع عشر على أنه الحرب ضد الشراكسة. يمكننا أن نفترض أن النخبة الشركسية كانت تسعى ليس فقط إلى الحصول على الدعم الروسي ضد القرم وتركيا، بل أيضا لتأسيس سيادتهم على شاكلة دولة المماليك الشراكسة في مصر. من العبث القول بأن جريجوري اوتريبييف كان القن السابق والتلميذ لدى الأمير ايفان بوريسوفيتش تشيركاسكي.**

## كيف كان الوضع الحقيقي؟

تأسست الصداقة والتحالف الروسي القباردي المؤقتين المذكورين آنفا من خلال مبادرة وجهود الشراكسة، الذين اضطروا إلى إيجاد مساعدة خارجية في ذلك الوقت، من أجل الدفاع عن ارضهم وحريتهم وحمايتها من الغزوات العدوانية لكل من الامبراطورية العثمانية وخانية القرم. لا شك في انها كانت حركة سياسية حكيمة من ناحية الشراكسة في ذلك الوقت، وأن الصداقة والتحالف المؤقتين اللذين توصلوا اليهما مع روسيا، ساعدتهم على إنقاذ بلادهم من الاحتلال التركي – التتاري. كذلك كان هذا التحالف المؤقت مفيدا بنفس المقدار لموسكو أيضاً. فقد أعطى لايفان الرهيب التحالف النفيس للشراكسة ضد شبه جزيرة القرم وتركيا، اللذين كانا يزعجان المناطق الجنوبية لروسيا باستمرار. لم يشر هذا التحالف المؤقت، ولا بأي معنى، إلى "ضم" أو " الحاق" بلاد الشراكسة أو اي جزء منها، إلى روسيا. كان ببساطة تحالفاً سياسياً مؤقتاً بين بلدين ضد عدو مشترك. سرعان ما بدأ الشراكسة، وفي وقت قريب بدأ بعض العلماء يطرحون السؤال: هل انضمت قباردا إلى روسيا طوعاً أم أنها ضمت إليها بالقوة؟.

في معرض بحثه لهذه المسألة، تحدث اس. نوغموف بدقة عن الحلف الدفاعي، ولكن ليس عن "الضم الطوعي" يقول ايه. شيوجين وزملاؤه في كتابهم " بلاد الأديغة" أن مؤلفي كتاب "بلاد الشراكسة في القرن التاسع عشر" لا يجدون أساساً يؤكد على أن نتيجة هذه السفارات كانت "الإلحاق الطوعي" لبلاد الشراكسة إلى روسيا. يقول المؤرخ القوزاقي بي.بي كورولينكو منذ عام ١٩٠٨ " لا يمكن تصديق أن يكلف الشعب الشركسي سفراءهم باستعدادهم لأن يصبحوا مواطنين روس. فقد كانوا يفضلون أن يقتلوا من قبل أعدائهم دفاعاً عن حريتهم بدلا من إخضاع أنفسهم لإرادة أجنبي، سواء كان ذلك قيصر موسكو أم لا...."

لقد تم إيضاح حقيقة النداء الشركسي إلى القيصر الروسي بوضوح والتصريح عنها أكثر من مرة وهي معروفة تاريخياً بشكل جيد. في تلك الحقبة من التاريخ، لم يكن لدى الشراكسة خيار آخر أو أفضل من البحث عن تحالف وحماية روسيا. كذلك رأت روسيا بدورها سانحة عظيمة في قبول هذا العرض.

كما لاحظ اس. ام. سولوفييف، فقد وصلت الحدود الروسية إلى مصب نهر الفولغا من خلال احتلال استراخان منذ القرن السادس عشر. تصادمت مصالح دول ثلاث كبيرة: روسيا، تركيا و بلاد فارس على البرزخ الواقع بين بحري قزوين و الأسود، بين السكان

المقسومين، المنفصلين دينياً، والذين انهمك بعضهم في صراع دائم ضد بعضهم الآخر. وعندما استدعيت روسيا للمساعدة من قبل السكان المسيحيين (كان الشراكسة جميعهم ما زالوا مسيحيين في تلك الأيام )، لم تستطع ان تسمح للتأثير المحمدي، خاصة التركي، ان يزداد هنا.

بالإضافة إلى ذلك، فقد كان تعميق الصداقة، بداية، مع الأمة الشركسية ذات السكان الأكثر في شمال القفقاس، يحمل مصلحة ملحة لروسيا. في نفس الوقت، فقد فتحت السفارات الشركسية التي ارسلت إلى موسكو في القرن السادس عشر، بكل تأكيد، مرحلة جديدة في تاريخ الشراكسة، مرحلة التقارب مع الدولة الروسية وشعبها، الأمر الذي استفاد منه الطرفان لوهلة. على اية حال، فأن نداءات السفارات الشركسية الى الحكومة الروسية للتعاون، لم تعن بأي شكل من الأشكال، ضمها المباشر إلى روسيا.

• • •

# المراجع


1. Проф. С.К.Бушуев، М.Г.Аутлев، Е.Л. Коджесау. Очерки истории Адыгеи. Адыгейский научно-исследовательский институт языка، литературы и истории. Майкоп، 1957.

1. Prof. S. K. Bushuev، M. G. Autlev، E. L. Kogesaw، Ocherki Istorii Adyghei (Studies in the History of Adyghey)i، Adygheiski Nauchno-Isledovatelski Institut Yazyka، Literatury e Istorii (Adyghey Scientific-Research Institute of Language، Culture، and History)، Maikop، 1957

١ - دراسات في تاريخ بلاد الأديغة – معهد الأديغي لأبحاث اللغات ، الأدب والتاريخ.

2. Jacquetta Hawkis. History of Mankind، Cultural and Scientific Development. Volume One، Part I: Prehistory، a Mentor Book. The New American Library، Inc.، New York، 1965.

2. Jacquetta Hawkis، History of Mankind، Cultural and Scientific Development، Volume One، Part I: Prehistory، a Mentor Book، The New American Literary، Inc.، New York، 1965.

٢ - تاريخ البشرية، التطور الثقافي والعلمي .

3. R. Traho، Cherkesy، Munich، 1956.

3. R. Traho، Cherkesy(Circassians)، Munchen، 1956.

٣ -الشراكسة.

4. А.Х.Шеуджен، Г.А.Галкин، Н.Е.Алёшин، А.А.Кушу، Б.Е.Шеуджен. Земля адыгов، Майкоп، 1996.

4. A. K. Sheugen، G. A. Galkin، N. E. Aleshin، A. A. Kushu، B. E. Sheugen، Zemlia Adyghov (The Land of the Adyghas)، Maikop، 1996.

٤ - بلاد الأديغة.

5. Н.А.Смирнов، З.В.Анчавадзе، Н.Е.Гуревич، В.П.Крикунов، Т.К.Кумыков، И.Ф.Мужев، К.М.Сабанчиев. История Кабарды от древнейших времён до наших дней. Москва، 1957.

5. Dr. N. A. Smirnov، Z. V. Anchavadze، N. E. Gurevich، V. P. Krikunov، T. K. Kumykov، I. F. Muzhev، K. M. Sabanchiev، Istoria Kabardy s drevneishikh vremen do nashikh dnei (The History of Kabarda Since the Most Ancient Time to Our Days)، Moskva (Moscow)، 1957.

٥ - تاريخ قباردیا منذ أقدم الأزمنة وحتى يومنا.

6. С.К.Хотко. Черкесские мамлюки. Майкоп، 1993.

6. S. K. Khotko، Cherkesskiye Mamliuki (Circassian Mamelukes)، Maikop، 1993.

٦ - المماليك الشراكسة.

7. С.Хотко. Очерки истории черкесов. Санкт-Петербургский Университет، 2001.

7. S. K.Khotko، Oherki Istorrii Cherkesov (Studies in the History of the Circassians)، St. Petersburgh University، 2001.

٧ - دراسات في بلاد الشراكسة.

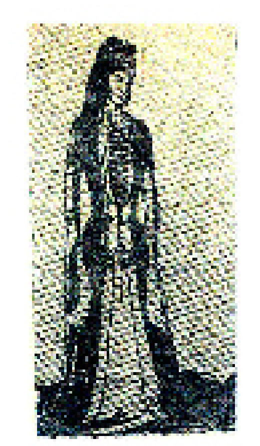
8. С.Хотко. История Черкесии. Санкт-Петербургский Университет، 2001.

8. S. K. Khotko، Istoria Cherkesii (The History of Circassia)، St. Petersburgh University، 2001.

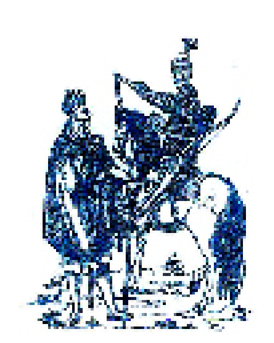
٨ - تاريخ بلاد الشراكسة .



شركسي ارستوقراطي مسلح
بلباسه العادي، نهاية عام ١٨٠٠ خ – جيسلر



سيدة شركسية. القرن الرابع عشر



شركسي عادي، وامير فارس مسلح بالكامل،
نهاية القرن الثامن عشر خ – جيسلر

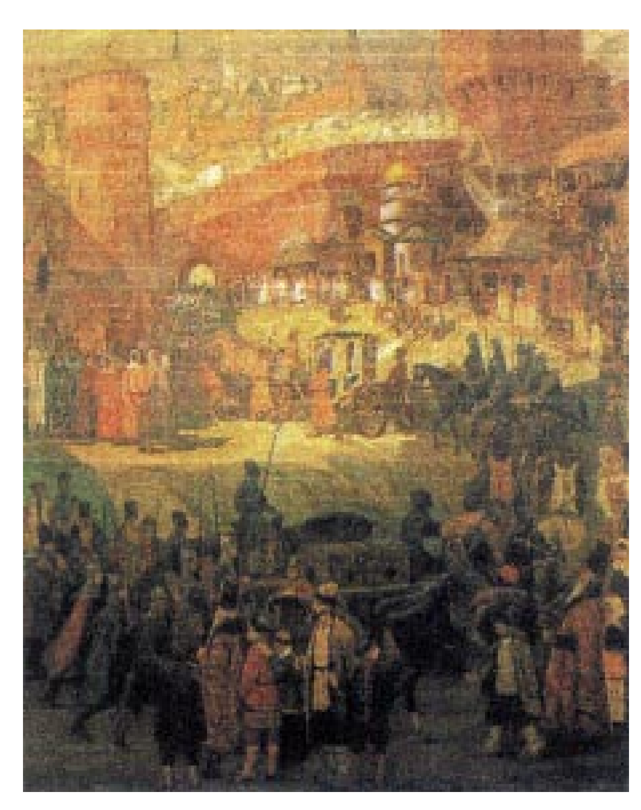


مستوطنة شركسية في غرب القفقاس في
القرن الخامس عشر. ظهر هذا المشهد
في مجلة فرنسية عام ١٦٧٩." نارت"
عدد شباط ١٩٩٧ صفحة ١٥





خوذ شركسية في العصور الوسطى



السفراء الشراكسة في موسكو

# الفصل الرابع

## المماليك الشراكسة

## أوائل الشراكسة في النظام المملوكي

ظهر الشراكسة في الساحة التاريخية للعالم الإسلامي خلال العصور الوسطى، في البداية كغلمان، وبعد ذلك كمماليك، ويوحي الإسمان بالخدمة المرتزقة، وهو تقليد عمره آلاف السنوات، وقد جرت ممارسته في العالم على نطاق واسع. خدموا كغلمان، أي عبيد مقاتلين، ضمن حرس الخلفاء العباسيين والفاطميين، الذي كان مقسما إلى مؤسستين: غلام حجري، وهو الحرس الشخصي للخليفة، وغلام داري، وهو الذي يحمي القصر ومقترباته. على أية حال، كان الخلفاء العباسيون،الذين خلفوا الأمويين في بغداد عام ٧٥٠، أول من أدخل تقليد إستخدام مرتزقة أجانب، شكلوا العمود الفقري لجيوشهم. منذ ذلك الوقت، بقي هذا الإستخدام قائما في الدول الإسلامية عمليا على إمتداد عشرة قرون.

تبنى الفاطميون، وهم الفرع الثالث من عائلة الرسول (صلعم) المطالبين بالسلطة، نظام الحرس هذا من العباسيين، بدون أي تغيير فعلي. في البداية، تشكل حرس الغلمان لدى الفاطميين من عبيد اتراك ومغاربة، ولاحقاً من صبية سودانيين تم شراؤهم من مصر، جرى تدريبهم وتعليمهم فنون القتال لاحقاً. على كل حال، سرعان ما تعلم هؤلاء الغلمان كيفية إستخدام مزايا وقوة مراكزهم وبدأوا يملون إرادتهم على الخلفاء. بحلول ذلك الوقت، كان الشراكسة قد شكلوا العمود الفقري لهذا الحرس الخاص. حتى أن أحدهم، واسمه نازوك وهو من الأديغة، أصبح قائد شرطة مدينة بغداد زمن الخليفة المكتفي بالله. وقد توفي نازوك عام ٩٢٩، أثناء إشتباك مع المرتزقة الأتراك.

قبل أن نمضي أبعد من هذا، لنقم بمراجعة سريعة لتاريخ الخلافات التي صعد المماليك الشراكسة إلى السلطة أثناء حكمهم، وحكموا أعظم امبراطورية في الدنيا لقرون طويلة ولعبوا دورا حيويا في السياسة العالمية.

## خلفية الخلفاء الأربعة الأولى

**الخلافة الأموية:** الأمويون، الذين أسسوا الخلافة الأموية، هم عائلة من أبناء عمومة الرسول محمد (صلعم). أصبحوا خلفاء للرسول، لأنه لم يترك ولدا، وحكموا امبراطورية امتدت من المحيط الأطلسي إلى الصين. كانت المدينة المنورة واحة في جزيرة العرب،

العاصمة الأولى لهذه الخلافة الواسعة الارجاء، عام ٦٦١ اتخذوا من دمشق عاصمتهم الجديدة. أشتهر العصر الأموي ( ٦٦١ - ٧٥٠ ) بأنه عصر فتوحات عسكرية.

**الخلافة العباسية:** العباسيون، المجموعة المنافسة الساعية إلى السلطة، طردوا الأمويين وأسسوا الخلافة العباسية عام ٧٥٠. كان العباس (رض) (٥٦٦ - ٦٥٢)، عم الرسول (صلعم)، معادياً له في البداية، ثم أصبح الداعية الرئيس للدين الإسلامي ومؤسس عائلة العباسيين. بنوا عاصمتهم ببغداد وظلوا خلفاء ببغداد من عام ٧٥٠ حتى الغزوات المغولية عام ٩٤٦.

أضطر العباسيون إلى مواجهة الشيعة، الذين رفضوا الإعتراف بهم كخلفاء، والزعماء البويهيين، شيوخ قبائل الديلم، جنوب بحر قزوين، الذين أكتسحوا البلاد وحكموا بغداد وغرب بلاد فارس من ٩٤٥ إلى عام ١٠٥٥، بدون التشاور الفعلي مع الخليفة. تحسن هذا الوضع بعض الشيئ مع ظهور السلاجقة، الذين أصبحوا مسلمين سنة وعاملوا الخلفاء بشيئ من الإحترام بصفتهم الزعماء الروحيين للعالم الإسلامي. بغض النظر عن هذه المشاكل، يعتبر العصر العباسي فترة من الغنى والثقافة.

**الخلافة الفاطمية:** كان الفاطميون أحفاد علي بن ابي طالب (رض) وزوجته فاطمة، ابنة الرسول (صلعم). ظلوا يسعون إلى السلطة لمدة طويلة. في النهاية، بعد أن استولوا على القيروان في تونس عام ٩١٠، اتخذ قائدهم اسم عبيد الله واطلق على نفسه لقب المهدي، فاحتل شمال افريقيا حتى المحيط الأطلسي، أسس السلالة الفاطمية وفتح مصر، في آب عام ٩٦٩. اتخذ الخليفة الفاطمي المعز لدين الله القاهرة عاصمة للامبراطورية عام ٩٧٢، بعد أن بناها. ضمت الخلافة الفاطمية ( ٩١٠ - ١١٧١) فلسطين وجزءاً كبيراً من سوريا إلى املاكها مع نهاية القرن العاشر.

**الخلافة الأيوبية:** على عكس الخلافات الثلاثة السابقة، لم يكن الأيوبيون من سلالة الرسول ( صلعم ). بل كانوا في الواقع مرتزقة من أصول كردية. مؤسس هذه السلالة هو صلاح الدين يوسف بن أيوب ( ١١٣٨ - ١١٩٣ ). عين صلاح الدين وزيرا أول للخليفة الفاطمي بعد وفاة عمه، شيركوه، عام ١١٦٩، قام صلاح الدين بخلع الخليفة بمساعدة الحرس المؤلف من الغلمان وانهى الخلافة الفاطمية، عام ١١٦١ أصبح سلطاناً لمصر وأسس السلالة الأيوبية. عام ١١٧٤، عندما توفي السلطان نور الدين زنكي، اعلن صلاح الدين نفسه سلطاناً على مصر وسورية. ضم بلاد الرافدين إلى حكمه وتلقى البيعة من الأمراء السلاجقة في آسيا

الصغرى. اشتهر صلاح الدين بحروبه ضد الصليبيين وبتوحيد املاكه الواسعة. رغم ذلك، أخفق التاريخ في أن ينسب إليه حقيقة أنه القائد الأول من غير العرب، الذي عزل خليفة وأسس سلالة من الغرباء في عالم الإسلام.

## أصول المماليك

في البداية، كانت تسمية "المملوك" تشير إلى العبيد البيض الذين يؤسرون في الحروب او يتم شراؤهم في الأسواق. واطلقت لاحقاً على "ملوك مصر العبيد". هناك روايتان حول أصل المماليك: تدعي احداهما ان المماليك " ظهروا في مصر أثناء حكم الخليفة العزيز (٩٧٥ - ٩٩٦). وتنسب الرواية الأخرى أصل المماليك إلى جلب الأسرى من القفقاس وآسيا الصغرى إلى مصر من قبل الملك الصالح أيوب في منتصف القرن الثالث عشر. رغم ذلك، فقد شغل المماليك والمرتزقة الشراكسة مركزاً بارزاً في مصر وسوريا في الحقبة ما قبل الأيوبية ( القرنين الحادي عشر والثاني عشر )، قبل أن يتسلموا السلطة وينشئوا مؤسسة خاصة في الامبراطورية.

## الوضع السياسي

الوضع السياسي الذي حفز ضرورة مثل هذا التغيير الكبير بحاجة إلى بعض الإيضاح. نظرا إلى حقيقة أن الفاطميين لم يكونوا قادرين على القتال كجبهة واحدة عند نهاية القرن الحادي عشر، فقد أسس الصليبيون مملكة القدس وثلاث دول تابعة لها ( طرابلس وأديسَّا وإمارة انطاكية) في الأراضي التي احتلوها من سورية وفلسطين. قام صلاح الدين بتغيير الوضع بعد تأسيس السلالة الأيوبية بوقت قصير. في البداية، استعاد دمشق من الصليبيين وضمها إلى منطقة نفوذ الزنكيين الأتراك السابقة مثل حلب وحماة وحمص. بعد ذلك حاصر الفرنجة قرب بحيرة طبريا عام ١١٨٧، وأسر ملك القدس مع جيشه وهكذا استطاع أن يوجد مصر وسوريا وجزءاً من بلاد الرافدين مؤقتا.

على اية حال، عندما توفي صلاح الدين يوم الثالث من آذار عام ١١٩٣، أعاد خلفاؤه القدس إلى الملك فريدريك الثاني، في مسعى إلى انتهاج سياسة التعايش السلمي مع الفرنجة. خلفت هذه القضية انقساماً بين الايوبيين وبدأت سلالتهم تضعف.

بدأ الصليبيون يستغلون هذا الوضع. حاولوا النزول في مصر مرتين في غزو بحري. حتى انهم سيطروا على مدينة دمياط عام ١٢١٩ لفترة قصيرة. عام ١٢٤٨، نزل جيش لودفيك الحادي عشر الفرنسي في المعركة التي وقعت قرب المنصورة. رغم ذلك فقد كان هذا الوضع

السياسي يسير بالامبرطورية إلى حافة الاحتلال الأجنبي والانهيار التام. فكان لابد لشخص ما أن ينهض لانقاذها.

## المماليك الشراكسة

هذه هي الفترة المحددة بدقة التي تعتبر فيها السلطنة المملوكية انها " نهضت على انقاض السلالة الأيوبية ". مهما كان السبب، فقد ظهرت السلطنة المملوكية إلى الوجود في الوقت المناسب. فقد أوصل كل من الأنقسام بين الأيوبيين الذي وقع في البلاد بعد وفاة صلاح الدين، والتهديد بالاحتلال الأجنبي للامبراطورية إلى حافة التفكك والانهيار التام. لو لم يكن المماليك موجودين لإنقاذها في تلك الفترة، لربما لم يبق شيئا منها، ولا حتى الانقاض.

حتى اثناء حكم الصالح نجم الدين ( ١٢٤٠ - ١٢٤٩ ) كان المماليك أفضل الجنود في الجيش المصري. أهم من ذلك، تألف هؤلاء المماليك على الأغلب من شراكسة إقليم الكوبان ومن القبجاك، الذين اسرهم المغول في هضاب البحر الأسود، وباعوهم إلى التجار الإيطاليين، والذين بدورهم باعوهم إلى سلاطين مصر. بحلول هذا الوقت، كان المماليك قد امسكوا بزمام السلطة داخل السلالة الايوبية، مثلما فعل الغلمان ايام الفاطميين، وباتوا يسيطرون على السلطان نفسه اضافة إلى البلاد التي يحكمها.

كان ف. مينورسكي يشير إلى هؤلاء المماليك، حينما كتب "الشراكسة محترمون في سوريا ومصر من قبل السكان المحليين بسبب عاداتهم القديمة ".

في الحقيقة، لا بد وأن رؤيتهم في هذه البلاد الاجنبية مؤثرة في النفس، يحترمون أنفسهم ويتعاملون بشرف، يطبقون المسلكيات الشركسية بدقة، الأمر الذي جعلهم حترمون الآخرين ويجاملونهم في الخلق، يتحفظون بكلامهم، ولكنهم ذوي كرامة وكبرياء في سلوكهم. القيم الأخلاقية الرفيعة، كونهم محلاً للثقة المطلقة، الاخلاص للصداقة، الشجاعة والمظهر الاميري المتأصل فيهم منذ بواكير الطفولة بسبب تنشئتهم التقليدية، لا بد وانه ساهم في نجاحهم المذهل في هذه البلدان الاجنبية. حتى اثناء حقبة الخلفاء العباسيين والفاطميين، فقد تقدموا بسرعة من مرتبة الغلام الحارس الى أن أصبحوا جنوداً مسؤولين، الى النخبة العسكرية والارستقراطية صاحبة الاطيان. أكثر من ذلك، ورغم انقسامهم الرسمي الى مؤسسات مختلفة، فقد شكل هؤلاء الشراكسة مجموعة خاصة في بلاط الخلفاء الفاطميين. الواضح انهم اضطروا، بسبب قلة أعدادهم، الى عقد اجتماعات سرية متكررة من أجل

التخطيط للخطوات الواجب اتخاذها لممارسة النفوذ على اشخاص معينين، وتحقيق الغايات المنشودة.

في الحقيقة لا بد وأن هذه كانت احدى التكتيكات التي استخدمها الشراكسة في الخدمة الخارجية في مكان آخر. مثلا، بالإشارة إلى شراكسة تركيا، وصف اس.بي.بورودين وضعا مطابقاً إذ كتب " الشراكسة في حرس السلطان يعيشون حسب تقاليدهم، يحتفظون بلباسهم القومي، يبقون على تفاهمات سرية ساعدتهم في التعرف على بعضهم بعضا، أو تبادل الأفكار من خلال نظرة، أو تنبيه صديق أو أمره باللحاق به من خلال حركة بالكتف أو غمزة برمش" لاحقاً، بعد أن قويت شوكتهم بزيادة اعدادهم، أحرز الشراكسة انتصارات مجيدة في المعركة المفتوحة ضد اعداء سلطنة المماليك.

## التنافس بين المماليك

إن حقيقة وجود تنافسات دائمة بين المماليك يجب أن لاتفاجئ أحداً. من ناحية، كانت هذه الطبيعة المميزة لجميع الأسياد والاقطاعيين والملوك في العصور الوسطى على مستوى العالم كله. من الناحية الأخرى، كان التنافس جزءاً أساسياً من التعليم والتدريب الذي يتلقاه هؤلاء المماليك صغار السن في المدارس المغلقة، حيث يدرسون الولاء لرؤسائهم واخوتهم في المعسكرات فقط. حتى أثناء تدريبهم وبعد أن يصبحوا مماليك، كان على هؤلاء "الأخوة" أن يتصارعوا فيما بينهم ضمن المنافسة الشرسة التي لا تنتهي طلباً للإمتياز والسلطة. كان هذا معيار الحياة ليس فقط للمماليك لذلك العصر عندما كان الأقوى وحده الذي ينجوبحياته ويحكم في الدنيا.

اضافة إلى ذلك، كان لكل واحدة من هذه "الإخوانيات" مجموعة مسماة على اسم أميرها، وتتنافس بشراسة ضد المجموعة الاخرى. استمرت "الإخوانيات" في الوجود على شكل تشكيلات منفصلة حتى وفاة آخر عضو من أعضائها. كان هذا الإنقسام عميقا بينهم لدرجة أن مماليك الامراء المختلفين لم يتمكنوا من التوحد في جماعة واحدة.

كانوا حتى يقاتلون بوحدات منفصلة في ساحات الوغى، كل مجموعة مماليك تحت راية أميرها، الذي كان يقودها. بغض النظر عن هذه المنافسة القوية بين " الاخوان ". سرعان ما يتحد المماليك في الصراع ضد أعدائهم بمجرد نداء رئيسهم في اللحظات الحرجة. يجب أن نتذكر أيضاً أن هؤلاء المماليك أحضروا إلى مصر من سن العاشرة وحتى الثانية عشرة، عندما يكونوا قد تشربوا الكثير من التقاليد والتركيبة النفسية لشعبهم، عندما يكونوا قد

تعودوا على العيش في أجواء المخاطر والصعاب، نشأوا وتدربوا على التعطش إلى مواجهتها وتجربتها بروح الفروسية الشركسية لمجرد إثبات قدرتهم على تحملها والنجاة منها. وأثناء عمل ذلك، الامتياز عن أي شخص وكل شيئ. حتماً ما كانوا لينجوا من هذه المنافسة الشرسة، لولا هذه الصفات والخبرات، ليصبحوا حكاماً عظماء في عالم مليئ بالحروب، سفك الدماء، الفتوحات وحكم سيف الأقوى.

في هذا الإطار، منح المماليك: العاديون والامراء على حد سواء. الولاء فقط لزملاء السلاح وللرجل الأقوى، الاشجع والأكثر جرأة من أنفسهم. لم ينجح ويعيش في نظامهم سوى الأكثر شجاعة ودهاء. لذلك، ظل هذا النظام يزودهم بأكثر الحكام قدرة والذين يخشاهم خانات المغول، السلاطين الأتراك، وملوك أوروبا على حد سواء.

ضمن هذا النظام، شكل الشراكسة دائماً مجموعة قوية من الطبقة الحاكمة واحتفظوا بمركز الحكم لقرون. خلال ذلك الوقت، كانت المنافسات التي يضطرون الى مواجهتها كثيرة و لا تنتهي. اضطروا الى التعامل مع مصدري القوات المسلحة مثل: الاتراك والسودانيين (الحقبة الفاطمية)، الاكراد (الحقبة الايوبية) القبجاك (القرن الثالث عشر)، المغول (الحقبة البحرية ) الإغريق (اثناء فترة فرج وكوش كادام)، البوسفنيين (القرن الخامس عشر) الجورجيين (القرن الثامن عشر). الارناؤوط (اثناء حكم محمد علي) والمصريين انفسهم (اثناء ثورة عرابي باشا). رغم ذلك، ثبت الشراكسة في مواقعهم، وتركوا بصمات واضحة تاريخ وثقافة الشرق الأوسط ومصر وظلوا الاسياد الاقطاعيين للامبراطورية.

## من هم السلاطين " البحريون " و " البرجيون "؟

الرأي التقليدي للمؤرخين في هذه المسألة هو أن سلاطين المماليك الاتراك حكموا اثناء السلالة "البحرية" وان سلاطين المماليك الشراكسة حكموا اثناء السلالة "البرجية". هذا استنتاج خاطئ توصل اليه المؤرخون الذين لاقوا صعوبة في تمييز القبجاك عن الاتراك. كما سنرى لاحقاً، ستكون هناك أكثر من مناسبة نشاهد فيها السلاطين المماليك الشراكسة يحكمون ليس فقط اثناء ما سمي " السلالة البرجية "، بل حتى اثناء " السلالة البحرية " التي سبقتها. بنفس الطريقة، كانت هناك مناسبات، عندما لاقى المؤرخون صعوبة في التمييز ما اذا كان بعض المماليك من اصل شركسي ام كيبشاكي. كانت العوامل التي ساهمت في هذا الارتباك عديدة. اهمها هو ان المؤرخين الذين كتبوا عنهم، لم يفهموا اللغة الشركسية او القبجاكية مطلقاً، ولم تكن لديهم معرفة كافية بخلفية أو جغرافية وطنهم الأصلي. ليس

هناك من شك في انه، كما يقول ك. بوزوورث " تكون المماليك البحريون على الأغلب من القبجاك الذين اختلطوا بالمغول والاكراد، بينما اغلبية المماليك "البرجيين" كانوا شراكسة من القفقاس. رغم ذلك، تكثر الأدلة التي تثبت ان جميع المماليك ( سواء كانوا من أصل شركسي، تركي، كيبشاك أو أي أصل آخر )، الذين تعلموا و تدربوا في المدرسة المملوكية الواقعة في جزيرة الروضة في نهر النيل، سموا المماليك " البحريين " بينما سمي المماليك الذين تعلموا وتدربوا في قلعة القاهرة، " بالبرجيين " بدون أي خلط، بصرف النظر عن جنسهم أو أصلهم.

صحيح ان الملك ايوب شكَّل المماليك "البحريين" أولاً، من اجل تقوية مركزه ضد الصلبيين واقربائه الحاسدين. صحيح كذلك ان السلطان قلاوون، من الناحية الأخرى. أسس المماليك " البرجية " كقوة مقابلة للمماليك " البحريين ". مرة أخرى، فان الرأي السائد هو أنه، خلال هذه الفترة، تكوَّن المماليك " البحريون " على الاكثر من الاتراك القبجاك، بينما تكونت القوة المملوكية الجديدة " البرجية " مجندة بشكل رئيس " من شبه جزيرة القرم ومن شراكسة القفقاس " بغض النظر عن هذه التصنيفات، على اية حال، كانت هناك اوقات حكم فيها السلاطين الشراكسة اثناء " السلالة البحرية " وحكم السلاطين غير الشراكسة اثناء " السلالة البرجية ".

## الدافع لصعود المماليك الى السلطة

يميل بعض المؤرخين الى التشديد على "التنافس المستمر بين المماليك" بحيث أنهم يقومون احيانا بقتل رئيس مجموعتهم او السلطان الذي يدينون له بالولاء، وأن عبيد الأمس اصبحوا هكذا حكام الامبراطورية اليوم. طبعاً لا يفكر هؤلاء المؤرخون ابداً باعطاء هؤلاء المماليك مايستحقونه من الإيضاح للوضع السياسي للامبراطورية الذي تطلب مثل هذا التغيير. لاشك في ان هذا الأسلوب قد استخدم من قبل المؤرخين المتحاملين من أجل التقليل من قيمة المساهمات التي لا تقدر بثمن التي قدمها هؤلاء الحكام الغرباء الاذكياء لمصلحة الامبراطورية وحضارة الاسلام. خلافاً لهذه المحاولة في التشهير والإساءة، فان اعمال المماليك تظهر بوضوح انهم خدموا بلادهم الجديدة وامبراطوريتهم بكفاءة عالية، وبقدر هائل من الكرامة و الإخلاص، وانهم استولوا على السلطة فقط للحلول مكان الحكام غير اللائقين في اوقات الازمات، وانهم تصدوا للحدث حينما كانت مصالح الامبراطورية والعالم الاسلامي مهددة ويجب انقاذها.

### الوضع في السلطة الأيوبية، والذي ادى الى صعود المماليك الى السلطة :

اضعف الانقسام الذي حصل بين الايوبيين بعد وفاة صلاح الدين، الدولة بدرجة رهيبة. استغل الملك لويس التاسع ( القديس ) ملك فرنسا هذا الوضع، فقاد الصليبيين من دمياط لغزو مصر. كان الملك الصالح ايوب، الذي ركز جيشه ضدهم في المنصورة في نيسان عام ١٢٤٩، قد توفي نتيجة مرض السل يوم ٢٣ تشرين الثاني عام ١٢٤٩. كان نجله توران شاه في الجزيرة ولم يتمكن من الوصول في الوقت المناسب. لذلك قامت زوجة الملك الصالح ايوب: شجرة الدر، باخفاء جثة السلطان وبدأت تقود الجيش بأسمه.

فجر يوم الثامن من شباط عام ١٢٥٠، عبرت قوة متقدمة من الصليبيين قناة البحر الصغير، وهاجمت معسكر المسلمين بدون ان تنتظر الجيش الرئيس.

فوجئ المسلمون، ولكن بعد ذلك بوقت قصير، قام المماليك " البحريون " بهجوم معاكس بقيادة بيبرس، وحطموا الحرس الصليبي المتقدم. عندما عبرت القوة الصليبية الرئيسة القناة، واجهت الجيش الاسلامي بكامله وحدثت المعركة الرئيسة بينهما جنوب القناة يوم ١١ شباط، ١٢٥٠. بدأ الصليبيون وقد قطعت الاتصالات مع دمياط عنهم، يضعفون تدريجياً من الجوع والدسنطاريا. يوم الخامس من نيسان ١٢٥٠، بدأوا ينسحبون لكنهم اجبروا على الاستسلام في اليوم التالي. لم تفصح شجرة الدرعن موت الملك الصالح ايوب حتى يوم ٢٨ شباط، ١٢٥٠، وهو اليوم الذي وصل فيه الشاب توران شاه الى المعسكر.

تسبب وصول توران شاه في تعقيد الموقف تدريجياً. سرعان ما تشاجر مع شجرة الدر، التي انقذت العرش من أجله. بدأ كذلك يقيم حفلات شرب الخمر كل ليلة مع اصدقائه الخليعين الذين احضرهم برفقته، ومنحهم رتباً عسكرية رفيعة، وعينهم فوق القادة المتمرسين. اكثر من ذلك، سمح للملك لويس، الذي أسر في المعركة الأخيرة، ان يذهب طليقاً.

### الصعود المملوكي الأول للسلطة

واضح ان المماليك ادركوا انه ( توران شاه ) لا يصلح لحكم الامبراطورية. يوم الأول من ايار عام ١٢٥٠، دخل بيبرس، الذي قاد الهجوم المملوكي المعاكس، الى خيمة توران شاه في فارسكور وطعنه بسيفه. ركض الأخير وهو يصرخ، لكن مماليك "بحريين" آخرين تجاوزوه وهو يخوض في النهر وقتلوه. وهكذا انتهت السلالة العظيمة التي اسسها صلاح الدين.

يمكن تلخيص إسهامات المماليك في خلال هذه الازمة كما يلي: كسروا العمود الفقري لجيش الصليبيين بهجومهم المعاكس الرائع على القوة المتقدمة. خلصوا مصر من الاحتلال

الاجنبي. باصرارهم العنيد على اعدام الأسرى الصليبيين، تمكنوا من اخذ مليون دينار ذهباً من الملك لويس التاسع، قبل ان يسمحوا له بالابحار من دمياط الى عكا مع فلول جيشه. يوم الأول من ايار عام ١٢٥٠ قتل المماليك "البحريون" المعظم توران شاه، ليس لأجل الاستيلاء على السلطة، بل لتخليص البلاد من حاكم غير لائق وانقاذها من الاندثار. عين المماليك شجرة الدر خلفاً لتوران شاه، التي قادت الجيش ضد الصليبيين بكفاءة واقتدار.

لكن، سرعان ما كتب الخليفة العباسي المستعصم بالله رسالة الى القاهرة "قال الرسول عليه الصلاة والسلام " لا خير في أمة تحكمها إمرأة – اذا لم يكن لديكم رجال، سأرسل لكم رجلاً ".

## السلطان آيبك

بعد قراءة رسالة الخليفة العباسي، زوَّج الايوبيون شجرة الدر الى الأمير آيبك، القائد العام للجيش، ونادوا به سلطاناً على العرش باسم الملك المعز آيبك. في نفس الوقت، عينوا معه سلطاناً مشتركاً هو الملك الاشرف موسى، ابن حفيد السلطان الكامل الطفل ذي السنوات الست، في محاولةلإضفاء قدر من الشرعية الأيوبية على السلطان الجديد.

رفض الملك الناصر يوسف الاعتراف بالعهد المملوكي الجديد للسلطان آيبك، وقام بغزو مصر على رأس الجيش الايوبي السوري من دمشق. في كانون الثاني عام ١٢٥١، وقعت المعركة لحسم هذا الخلاف في العباسية، قرب القاهرة، والتي فازت فيها مصر، والتي من الجدير بالاهتمام، ان كلا الجيشين المتقاتلين تكوَّنا من المماليك.

المشكلة الأخرى التي تعيَّن على آيبك مواجهتها هي من المماليك " البحريين "، الذين تدرب معظمهم وتحرر على يد الملك الصالح أيوب، وسموا لذلك بالصالحين، ويشكلون " أخوية " مترابطة شديدة التماسك. حاز الأمير أقطاي، قائدهم وزميلهم في المعسكر، على ولاءهم المطلق. كان السلطان آيبك بدوره مملوكاً " بحرياً " وخدم تحت إمرة الملك الصالح ايوب بعد أن نال حريته، لكنه لم يكن صالحياً. كان يلقب بآيك التركماني، لأن أميراً الذي يحمل ذلك الاسم هو الذي حرره. لذلك، بدأ المماليك " البحريون " يتصرفون بغرور متزايد، وفي محاولة لتجاهله. " اقام أقطاي مجلسه الخاص، يستقبل الالتماسات، ويكتب لملك سورية الأيوبي ويتصرف وكأنه هو رأس الدولة، وليس آيبك. كان المماليك البحريون، العمود الفقري للجيش يطيعون أقطاي وحده، ولايكترثون لآيبك ".

لم يعد لدى آيبك أي خيار آخر. دعا اقطاي الى مؤتمر ودبر مقتله في القاعة على يد ثلاثة مماليك يقودهم قطز، الذي عينه آيبك فيما بعد نائباً له. عندما تسربت الانباء المفجعة عن أقطاي، غادر بعض المماليك البحريين القاهرة في نفس الليلة، وكان بينهم من الضباط: بيبرس البندقداري، قلاون الإلفي وسنقر الأشقر، إذ عينهم الناصر يوسف ضمن قواته في دمشق. وتم إلقاء القبض على بقية المماليك البحريين الذين بقوا في القاهرة، صباح اليوم التالي.

بعد تخلصه من اقطاي، بدأ آيبك يتصرف على أنه السيد الوحيد للامبراطورية. عام ١٥٢٤، ارسل الصبي السلطان المشارك، الاشرف موسى، ليعيش مع ثيودور الثاني لاسكاريس، الامبراطور اليوناني. عام ١٢٥٦ ابرم آيبك اتفاقاً مع الناصر يوسف، من خلال وساطة الخليفة العباسي المستعصم بالله، يشترط فيه ان لايستخدم الناصر يوسف المماليك البحريين. لذلك تطوع المماليك البحريون الذين غادروا مصر، للخدمة تحت إمرة الملك المغيث عمر، أمير الكرك الايوبي المستقل".

شعرت شجرة الدر ان آيبك يعامل المماليك البحريين بقسوة لانهم كانوا مخلصين لها. كان آيبك مقتنعاً بان شجرة الدر اخفت كنز زوجها السابق عنه. كانت هناك نقاط احتكاك بينهما هي: استمرار شجرة الدر في إدارة الحكومة المدنية بينما يقود آيبك الجيش. وكانت قد حكمت مصر من قبل وظلت على قناعة من انها لاتزال تستحق الاستمرار، بينما اعتبر هو نفسه السلطان الوحيد. اكثر من ذلك، علمت شجرة الدر ان آيبك قد طلب يد إبنة الملك المنصور أمير حماة الأيوبي وطلب يد إبنة بدر الدين لولو حاكم الموصل. وقد اغضب هذا الأمر شجرة الدر. فبدأت تخطط لقتل آيبك انتقاماً ثم تتزوج الناصر يوسف وتعيد توحيد مصر وسوريا.

أخيراً، قام خمسة من خدم شجرة الدر في احد الايام بخنق آيبك في حمام القلعة. وهكذا قتل السلطان المملوكي الأول وهو في سن الستين. وكان لهذ الأمر نتائج محزنة غير متوقعة لشجرة الدر أيضاً. فقد دعت هي ومؤيديها الأمير عز الدين الحلبي ليصبح سلطاناً، لكنهم لم يفلحوا. فقد عارضهم مماليك مجموعة آيبك، وانتصروا في الصراع على السلطة ونادوا بعلي، نجل آيبك من زوجته الأولى، ليصبح السلطان التالي، ثم قبضوا على شجرة الدر وسلموها الى زوجة آيبك الأولى.

## السلطان علي

نودي بعلي، نجل آيبك سلطاناً، واتخذ لقب الملك المنصور، يوم ٢٠ آذار عام ١٢٥٧، من قبل المماليك الأمراء من مجموعة آيبك. كذلك عينوا الأمير قطز، نائب آيبك، ولياً للعهد. وخلال بقاء مجموعة آيبك في السلطة تحت سيطرة قطز، ظل المماليك البحريون، الذين كان يقودهم بيبرس البندقداري تحت قيادة المغيث عمر امير الكرك.

وهكذا، للمرة الأولى في تاريخ الخلفاء، بدأ الامراء المماليك يعينون سلاطين الامبراطورية.

## الانقاذ المملوكي الثاني للخلافة

اذا كان المماليك قد انقذوا الامبراطورية من الخلافات الداخلية للايوبيين ومن الغزو الصليبي، فقد انقذ المماليك الخلافة للمرة الثانية من غزو المغول.

بدأ هؤلاء المغول. ابناء الهضاب الآسيوية جنوب بحيرة بايكال، غاراتهم المدمرة في أراضي شعوبهم. المجاورة بعد انعقاد مجلسهم القبلي سنة ١٢٠٦ بقليل، وانتخبوا جنكيزخان زعيماً لهم. استمروا يغزون الصين من عام ١٢١١ وحتى ١٢١٦. ثم توجهوا غرباً من منغوليا عام ١٢١٩، ومن عام ١٢٢٠ وحتى ١٢٢٥، احالوا بلاد فارس إلى صحراء.

عندما توفي جنكيزخان في الثامن عشر من آب سنة ١٢٢٧، ورث ابنه الكبير جوجي، المنطقة الواقعة إلى الشمال من البحر الأسود وبحر قزوين. اصبح اوجاتاي، الابن الثالث لجنكيزخان، الخان الاكبر لمنغوليا ومكلفاً بفتح الصين.

على كل حال، انتخب مانجو، نجل تولوي خاناً اكبر يوم الأول من تموز عام ١٢٥١. حسب خطتهم للاكتساح، أنيط بكوبلاي خان اخضاع الصين. وهولاكو: اخضاع العراق، سوريا ومصر.

كجزء من هذه الخطة، احتل هولاكو بغداد يوم ١٣ شباط عام ١٢٥٨، ذبح جميع سكانها، داس الخليفة المستعصم بالله تحت سنابك الخيل و احال المدينة إلى اكوام من الدمار الذي يتصاعد منه الدخان. يوم ٢٠ شباط ١٢٥٨، اغار على تبريز.

ارسل الناصر يوسف، ملك سوريا، وفداً إلى هولاكو في تبريز حاملاً هدايا نفيسة، وعرض عليه صداقته، وطلب منه اعادة فتح مصر. لكن، بدلا من الصداقة، تلقى رسالة من هولاكو، جاء في جزء منها: "بمجرد أن تقرأ رسالتي، اسرع بالخضوع إلى الخان العظيم، ملك الملوك، وسيد الأرض. قدم له نفسك، ورعاياك، وجنودك وثروتك".

ارعب هذا الرد الناصر يوسف ونشر الرعب بين الناس في سوريا. اخذ بعضهم وقد تملكه الذعر، يهربون من بيوتهم ويتركون دمشق إلى القاهرة. ملأ اللاجئون الأرياف، ونهب بعضهم من قبل شعبهم نفسه، بينما مات آخرون على الطرقات. اضطر الناصر يوسف، الذي كان قد غزا مصر قبل بضع سنوات احتجاجاً على الحكم المملوكي الجديد، إلى الطلب من نفس المماليك، مساعدته، وارسل وفداً إلى القاهرة على عجل.

دعا قطز إلى اجتماع عاجل لأمراء المماليك وقاضي مصر. بعد أن قرأ رسالة الناصر يوسف إلى القاهرة، سأل قطز القاضي " ما اذا كان يجوز مصادرة ثروات العامة لدفع تكاليف مثل هذه الحرب ". وجاء جواب الأخير " اذا انفق المماليك كل ثرواتهم أولاً وليس العكس ". ما يثير الأهتمام أن المماليك قبلوا ذلك الأمر بسرعة. بعد ذلك شدد قطز على الامراء أنه في مثل هذه الأزمة، أمر حيوي أن يكون لديهم قائد وحيد – سلطان عسكري، وليس طفلاً. في البداية استنكر الامراء تلميحاته ضد الصغير علي، نجل آيبك. لكن قطز ظل مصراً. وأشار إلى أنه بامكانهم اختيار السلطان التالي بعد هزيمة العدو. وفي النهاية، حاز على دعم امراء المماليك.

## السلطان قطز

اعترف امراء المماليك، الذين فهموا خطورة الوضع، بقطز على أنه السلطان الجديد لمصر، تحت لقب الملك المظفر قطز. فبدأ على الفور يستعد للحرب بكل طاقاته. حتى أنه ارسل خطابا إلى الناصر يوسف.

في هذه الأثناء، احتل هولاكو حرَّان، عبر الفرات ووصل إلى اسوار حلب في كانون الاول من عام ١٢٥٩. واحتلها بعد سبعة أيام من المقاومة الشرسة. ثم استباحها المغول خمسة أيام يقتلون، ينهبون ويغتصبون النساء، يملأون الشوارع بالجثث ويدوسونها بسنابك خيولهم. احتلت قلعة حلب في كانون الثاني ١٢٦٠، وسويت كل بناية في المدينة بالأرض، وقطعت كل شجرة وسيق مئة ألف إمرأة وطفل كعبيد.

تكلم الناصر يوسف عن مقاومة هولاكو، لكنه دمر معنويات جيشه بتأرجحه المستمر. " عندما نصحه احد الضباط بالخضوع، اعترض بيبرس، احد المماليك البحريين بعنف رهيب، وخرج غاضباً، ثم توجه إلى مصر كذلك عاد قلاوون بدوره إلى القاهرة من الكرك. تداعى كل المماليك البحريين تقريبا إلى قضية الجهاد بصرف النظر عن حقيقة استمرار وجود جماعة آيبك في السلطة.

عندما وصلت انباء تدمير حلب إلى دمشق، زاد الفزع. وصار سكان دمشق يهربون في هلع، يتبعثرون في الأرياف. غادر الناصر يوسف دمشق، تاركاً سوريا لمصيرها، قاصدا غزة مع بضعة ضباط. أمير أيوبي آخر، هو الملك الأشرف موسى، أمير حمص، انحاز إلى هولاكو. اخذ الملك المنصور محمد، امير حماة، نساءه وأطفاله وغادر إلى مصر. وانحاز محي الدين زنكي، أحد قضاة دمشق، إلى هولاكو.

دخل الجيش المغولي دمشق بقيادة كتبغا يوم الأول من آذار ١٢٦٠. المفاجأة انه لم يؤذ أحداً في دمشق، بسبب العفو الذي وعدهم به الأمير المغولي. لكن " المغول انتشروا جنوبا مثل اسراب الجراد حتى وصلوا إلى غزة والخليل وزيزيا: يقتلون، يغتصبون وينهبون ما حلا لهم. ألقي القبض على الناصر يوسف في عمان وسلم إلى هولاكو الذي قطع رأسه.

جمع قطز الامراء المماليك مرة أخرى عندما تسلم رسالة احضرها إليه اربعة سفراء من قبل هولاكو. جاء ملخص محتواها كالآتي:

من ملك ملوك الشرق والغرب، الخان العظيم.

قطز مملوك، فرَّ ليهرب من سيوفنا... يجب أن تفكروا بما حدث لأقطار أخرى... وتخضعوا مصيركم لنا. نحن لا تحركنا الدموع و لا نتأثر بالعويل. لقد اكتسحنا مساحات شاسعة، وذبحنا جميع الناس. لا يمكنكم ان تهربوا من رعب جيوشنا. وحدهم الذين يتضرعون لحمايتنا سيكونوا آمنين. سارعوا بردكم قبل ان تشتعل نار الحرب... سوف تعانون من أسوأ الكوارث، ستصبح بلادكم صحارى، وسوف نقتل اطفالكم مع شيوخكم سوية.

قرأ قطز الرسالة للامراء المماليك، الذين كانوا جميعا مدركين لنوايا هولاكو. وكان الجميع مؤيدين لقتال المغول. تبعاً لذلك، قتل السفراء المغول الأربعة ودقت رؤسهم بالمسامير على بوابة زويلة في سور القاهرة.

سرعان ما عسكر الجيش المملوكي الذي تمت تعبئته في الصالحية، شمال شرق القاهرة. جمع قطز الامراء المماليك وأخبرهم ان الواجب المقدس للمؤمن يدعوه للدفاع عن نساء واطفال الإسلام، وأنه لهذا السبب يجب عليهم الآن الزحف ضد المغول. ثم عينوا الامير بيبرس البندقداري قائدا للحرس المتقدم، وتحرك الجيش المملوكي نحو عكا، عاصمة مملكة القدس.

في هذه اللحظة الحاسمة، كان الصليبيون بدورهم منقسمين، فقد خضعت طرابلس وانطاكية للمغول، ربما، للسبب البسيط الكامن في ان زوجة هولاكو المفضلة وقائده كتبغا قد

اعتنقا مذهب النسطوريين المسيحيين. انحاز سكان عكا إلى المماليك، ليس لحمل السلاح بل لتقديم المؤن الضرورية لهم.

## المعركة بين المماليك والمغول

قبل المعركة، دعا قطز مرة اخرى إلى اجتماع لامرائه وذكرهم بالفظاعات الرهيبة والخراب الذي تسبب به المغول في ارض الاسلام وأخبرهم أن الوقت قد حان للمماليك لمواجهة المغول الكريهين بشجاعة وتصميم لا يقبل الهزيمة، وإزالتهم عن وجه الأرض.

عندما سمع بتقدم قطز، زحف كتبغا من دمشق، عبر نهر الأردن، عند بيسان وتقدم صاعداً في مرج ابن عامر ( سهل ايزدرايلون ).

يوم الثالث من أيلول عام ١٢٦٠، التقى الجيشان قرب عين جالوت ( نبع غولياث )، بينما كان المماليك ينزلون راكبين تلال الجليل، وطبولهم تتجاوب اصداؤها في الأجواء، والمغول صاعدون. رأى كتبغا أن المماليك المتقدمين يفوقونه عدداً، لكنه كان مقتنعاً أن المغول لا يقهرون.

بكلمات السير جون غلوب "هجم كتبغا بعنف شديد إلى درجة أن الحرس المملوكي المتقدم أزيح جانبا واندحرت الميسرة. لكن المماليك لم يصابوا بالذعر، كما فعلت معظم الجيوش عند أول هجوم للمغول. ثبت الصدر والميمنة بقوة... وبدأ المماليك يهاجمون من الجوانب، والتتار يدافعون بوحشية. جرى كتبغا الذي لا يعرف التعب يمنة ويسرة بحصانه، يشجع رجاله ويشن هجمات مضادة جديدة. "

في هذه اللحظة الحاسمة، خرج قطز على جواده إلى مقدمة جيش المماليك، خلع خوذته حتى يتمكن الجميع من تمييزه، وزأر بصوت جهوري النغمات " أيها المسلمون! أيها المسلمون! أيها المسلمون! ثم أغار، محاطاً بمرافقيه ومتبوعاً ببقية الجيش، اندفع بين الصفوف المغولية مخاطراً بروحه. جاءت اندفاعة الهجوم مستحيلة على المقاومة وتم اكتساح المغول عن ساحة المعركة.

اخذ كتبغا الشجاع، بعد أن قتل حصانه تحته، أسيراً، اقتيد أمام قطز وقطع رأسه. أصبح المغول الآن في حالة هروب، والمماليك يطاردونهم، يرمون، يطعنون ويجزون. قاتل بيبرس جنباً إلى جنب مع قطز في قلب المعمعة.

"في بيسان، استدار المغول ليخوضوا معركة التحام يائسة، وتجددت المعركة. استلم قطز القيادة مرة أخرى، صائحا " يا رب، امنحنا النصر! " سمع صوته القوي في كل ارجاء ساحة المعركة. في النهاية، انهار المغول، وهرب الناجون، بينما ترجل قطز عن جواده وصلى ركعتين شكرا لله على النصر. ارسل رأس كتبغا المقطوع إلى القاهرة على جناح السرعة، كإثبات على الهزيمة المغولية.

هكذا هزم المماليك الجيش المغولي الذي لا يقهر وانقذوا سوريا ومصر من دمارهم، في الوقت الذي كان فيه الحكام الأيوبيون المصابون بالذعر، مثل الناصر يوسف، ملك سوريا، والذين تخلوا عن بلادهم و شعوبهم لمصيرهم، يهربون بلا خجل لإنقاذ رقابهم أو حتى ينضمون إلى المغول الذين يغتصبون نسائهم ويدمرون بلادهم. ليس هناك انسان لديه احساس بالعدالة يمكن أن يشك أبداً في أن المماليك انما قاموا بهذا العمل النبيل لانقاذ العالم الإسلامي من القسوة و الإذلال المغولي القادمين.

## بيبرس و قطز

بعد أن حطم الجيش المملوكي الظافر، الجيش المغولي الغازي، في طريقه من دمشق إلى مصر، توقف كل من بيبرس وقطز لتمضية يوم في الصيد قبل وصولهما إلى القاهرة التي كان يجري تزيينها من أجل مسيرة الظفر في اليوم التالي. كان قطز وبيبرس يركبان جنبا إلى جنب، وهما عائدان من رحلة صيد طيلة النهار إلى المعسكر. كان كلاهما مملوكين متميزين، محترمين بدرجة عالية من امراء المماليك لشجاعتهما وصفاتهما القيادية، لكنهما ينتميان إلى مجموعتين متنافستين، ولذلك، لا يمكنهما التعايش سوية لمدة طويلة. كان قطز ينتمي إلى مجموعة آيبك، وقد اضطهد المماليك "البحريين" معه. وبيبرس من المماليك البحريين الذين هجروا مصر هرباً من ذلك الإضطهاد. فكان لزاماً عليهم اتخاذ اجراء ما ضد قطز قبل أن يبدأ باضطهادهم مرة أخرى.

الخطة جاهزة ووقت تنفيذها هو الآن. ولذلك، طلب بيبرس من قطز اعطاءه فتاة أسرت من المغول، فوافق السلطان على ذلك. شكره بيبرس بحرارة، وأمسك بيده كأنه يهم بتقبيلها ادرك الامراء بيكتوت، انيس وبها دور الإشارة المتفق عليها، وسارعوا إلى تنفيذ الخطة. أدخل الأول سيفه في رقبة السلطان، وقام الثاني بسحبه عن جواده، وأجهز عليه الثالث بسهم من مسافة قريبة.

وهكذا مات قطز الذي قاد المماليك بشجاعته الاستثنائية وصفاته القيادية، فسحقوا جيش المغول الغزاة و انقذوا سورية ومصر من التدمير، يوم ٢٤ تشرين الأول عام ١٢٦٠.

لم تكن ردة فعل المماليك لهذا العمل التاريخي غير عادية. سأل أحد الامراء المماليك الذين تجمعوا في الغرفة الملكية على عجل " من منكم قتل قطز؟ " فأجاب بيبرس، حسب قول السيرجون غلوب "أنا فعلت " فقال الأول، " يا سيدي، إجلس في مكانه على مقعد السلطان ". بعد ذلك إندفع الامراء إلى الأمام، وقام كل بدوره بالمبايعة وأدى يمين الولاء.

## السلطان بيبرس

هكذا انتهى حكم مماليك جماعة آيبك في مصر بانقلاب بيبرس وتأسيس بداية السلطنة المملوكية "البحرية". في تلك الليلة، ركب بيبرس وضباطه إلى القلعة لتأمين مفاتيح السلطة. في الصباح التالي، وبينما الناس يملأون شوارع القاهرة المزدانة للمشاركة في مسيرة الظفر، المخصصة لهزيمة المغول، ظهر بينهم باكون يقولون " صلوا من اجل رحمة الله على الملك المظفر قطز. صلوا لطول العمر لسلطانكم بيبرس" اصيب كثير من الناس الذين سمعوا هذه الأنباء، بالذعر، فقد تذكروا الفظاعات التي ارتكبها المماليك " البحريون " ضدهم أثناء الفترة الأولى لحكم آيبك.

**من هو بيبرس؟**: المعلومات الموجودة حول الأصل الإثني لبيبرس متناقضة جدا، وهي تعكس الصعوبات التي عاناها المؤرخون في التحقق من الخلفيات الاثنية للمماليك. يدَّعي وليم موير انه تركي. بينما يقول المقريزي أنه مولود في هضاب القبجاك، فقد كان أسمر البشرة، قوي البنية، عيناه زرقاوان وصوته قوي. يكتب السيرجون غلوب: " عندما قام السلطان الصالح أيوب بتشكيل البحريين، او مماليك النهر، اشترى بيبرس من صاحبه. سرعان ما استرعى الإنتباه، فقد كان رجلاً ضخماً، ذا شخصية قوية، قائد بالسليقة وذو شجاعة لا تعرف الخوف. حرره الملك الصالح أيوب. وهكذا اصبح صالحياً. وهو الذي قاد الهجوم المملوكي المعاكس ضد الملك لويس التاسع وصليبييه في المنصورة. وهو المملوك البحري الذي لعب دوراً بارزاً جداً في حملة عين جالوت. في لحظات الازمات، كان بيبرس يتولى القيادة. بسبب عينيه الزرقاوين، لابد أن اصله كان مختلطا بدون شك. هو المؤسس الحقيقي لامبراطورية المماليك، التي تمسك بها البحريون واحفادهم لمدة مائة وعشرين سنة " حسب كتاب " المزارة الاسلامية والعصر العربي". فقد كان السلطان يشتري المماليك الاكثر لياقة ليكونوا حراسا شخصيين. اراد ٧٥ عبدا، منهم: ٢٥ أديغه، ٢٥ ابخاز و٢٥ جورجي. وجدوهم

للسلطان. بينهم كان صبي اديغه (شركسي)، اسمه بيبرس. يكتب ايفان غولوفني ان الاولاد الشراكسة، الذين كانوا مهرة في القتال، كانوا يباعون في اسواق بغداد منذ القرن الثالث عشر. كان اسم احدهم محمود بيبرس، وقد بيع أولا في بغداد ولاحقاً، تم شراؤه في حلب لحراسة الصالح نجم الدين.

المعلومات المقدمة حول أصل بيبرس من هذين المصدرين الأخرين اكثر دقة واعتمادية. كلاهما يشير تحديداً إلى أن بيبرس كان صبياً أديغياً ( شركسياً ). يظهر تاريخه الشخصي انه كان شركسياً، لكنه كان مملوكاً بحرياً، ربما أيضاً عضواً فعالاً في المجموعة الشركسية، ومواطناً مخلصاً لامبراطوريته. فقد دافع عنها من الصليبيين و المغول كقائد ومقاتل شجاع. خطط لإزاحة توران شاه ونفذ العملية لانقاذ الامبراطورية من حاكم غير صالح. وفي النهاية اصبح مؤسس السلطنة البحرية.

## السلالة المملوكية البحرية

هكذا، اصبح بيبرس البندقداري المملوك الشركسي البحري، حاكماً لمصر وسوريا عام ١٢٦٠ ولقبه السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس الأول الندقداري، وأسس السلالة المملوكية البحرية. بدأ السلطان الجديد يركز سلطته في الامبراطورية بحماس وهمة عظيمين. يوم ١٢ كانون الثاني ١٢٦١، ركب السلطان بيبرس في موكب خلال شوارع القاهرة مرتدياً شعار الملكية . بعد ذلك بوقت قصير، عين المستنصر بالله خليفة جديداً، ولقبه امير المؤمنين، بايعه بنفسه ووعده أن يحكم بالعدل.

لماذا استقبل احمد، نجل الخليفة الظاهر بكل تلك الحفاوة، يظل الامر غامضاً؟ لكنه كان الخليفة الأول الذي يعينه بيبرس، وليس الأخير. فقد عين وخلع الكثير من الخلفاء غيره. كتب فيليب حتي مشيرا إلى هذا الموضوع " أحد أكثر المناسبات المذهلة في حكم بيبرس تعيينه لسلسلة جديدة من الخلفاء العباسيين، الذين حملوا الاسم ولكن لا شيئ من سلطة المنصب ".

ربما كان احد الاسباب لذلك هو تدخل هؤلاء الخلفاء في شؤون الطبقة الحاكمة من المماليك. أكثر من ذلك، فان السلطان المملوكي، هو حاكم مطلق، بغض النظر عن حقيقة كونه منتخباً على العرش من قبل أعلى الامراء منصباً. كان السلطان يقسم على ان يخدم مصالح المماليك وهم بدورهم يقسمون على الولاء للسلطان. رسميا، كان صعوده إلى العرش مرتبطاً بتعيين من الخليفة. كان لدى السلطان مجلس من امراء المئة ذوي الخبرة، وكان

كبيرهم سناً يترأس الاجتماعات. يبدأ حكم السلطان منذ اللحظة التي يرتدي فيها عباءة السلطان . كان يعين او يعزل جميع مسؤولي الحكومة بارادته، بمن فيهم الخليفة، ويقود الجيش في الحملات المهمة، يوقع البلاغات وهو أعلى سلطة قضائية.

أصبح مقر اقامة سلاطين المماليك قلعة القاهرة، التي بناها صلاح الدين الايوبي. وحملوا لقب " سلطان الاسلام والمسلمين " اعتبرت دولتهم مركزاً للعالم الاسلامي. ظل المسلمون ينظرون الى ارض الاسلام على انها واحدة غير قابلة للقسمة. فالمسلم حيث يكون، هو تحت مظلة دينية، يعبد الإله نفسه ، ويؤدي الصلوات نفسها.

بعد توطيد سلطته، بدأ بيبرس يوسع حدود امبراطوريته بهمة وقوة. اغار في ربيع عام ١٢٦٢ على مقاطعة أمير انطاكية الذي ساعد المغول، احرق محاصيل الفرنجة، منحهم السلم الذي توسلوه منه وعاد بغنائم كثيرة. في دمشق، جمع شيوخ القبائل وجعلهم مسؤولين عن الأمن والنظام والعدل في مناطقهم. أنعم بلقب امير العرب على عيسى ابن مهنا وعينه زعيماً على بدو الصحراء السورية. في نفس الوقت، اكتسب احترام المماليك التابعين له بسبب انتصاراته المتوالية وبكرمه في توزيع الغنائم التي كسبها من هذه الحملات عليهم.

ذهب عام ١٢٦٣ الى سوريا، قبض على المغيث عمر، امير الكرك، في مدينة بيسان بسبب مساعدته للمغول، وأرسله الى القاهرة حيث اعدم. قام بيبرس لاحقاً باحراق محاصيل الفرنجة وحدائقهم وبساتينهم في عكا، دمر كنيسة الناصرة وساق مواشيهم لأن الصليبيين خرقوا الهدنة. ثم زحف على الكرك، حاصرها وعين في قلعتها حامية مملوكية.

اهتم بيبرس بتحسين اقتصاد ونوعية الحياة داخل امبراطوريته باهتمام بالغ. اعطى الأوامر باصلاح نظام القنوات و مجاري المياه في مصر حتى يرفع من انتاجيتها. قام بترميم جميع القلاع التي دمرها المغول، حتى تلك الموجودة في مدن مثل دمشق، السلط، عجلون، صلخد، بصرى، بعلبك، وشيراز، وعين في كل منها حامية مملوكية. اعاد بناء الاسطول حتى بلغت قوته اربعين سفينة حربية. وضع محطات لخيول البريد على الطرق الرئيسة، حتى يصل البريد والمراسلات الى القاهرة مرتين اسبوعياً من أية مدينة في الامبراطورية. اصبح لديه نظام بريد عالي التنظيم من الحمام الزاجل، مكنه من ارسال رسالة الى اي جزء من الامبراطورية او إستلامها بسرعة البرقية. عندما كانت الحمائم الزاجلة تصل، كان يتوجب إعلامه فوراً. لأن كل دقيقة كانت مهمة في التعامل مع اي موقف، معركة أو أزمة سياسية.

عمل على تحسين تجارة مصر الخارجية وجعل من القاهرة والاسكندرية مراكز للتجارة بين الشرق والغرب، لأن طرق التجارة من الهند، الشرق الاقصى، افريقيا وبلدان البحر

الابيض المتوسط كانت تمر من خلال مصر. كذلك عقد عدداً من الاتفاقيات التجارية مع كل من جنوا، صقلية واسبانيا.

كذلك منع بيبرس مواطنيه من تدخين التبغ او الحشيش. اغلق جميع الحانات وطرد البغايا اللاتي احضرهن الصليبيون من المدينة، تمهيداً لتنظيفها. اثناء المجاعة التي ضربت القاهرة في تلك السنة، أمر بالإفراج عن احتياطي حنطة الحكومة، وان تباع محتوياتها الى الفقراء بكميات صغيرة و بسعر محدد. كذلك أمر جميع كبار الموظفين والامراء بان يطعم كل منهم عدداً من الفقراء، حتى الجندي العادي، ان يطعم فقيراً او اثنين. بينما ترتب على الوزير أن يدعم كل شخص اعمى في القاهرة، ودأب السلطان نفسه على إطعام عدة آلاف من المواطنين الفقراء يومياً.

تدريجياً، بدأت سمعته تنتشر الى مسافات بعيدة خارج حدود امبراطوريته. في صيف عام ١٢٦٣، اعلن الوفد المرسل من قبل بركه خان الى بيبرس ان الحشود الذهبية قد اعتنقت الإسلام. بعد ذلك، وصل الى القاهرة الف وثلاثمئة مغولي، يرغبون في الخدمة تحت إمرة بيبرس. سرعان مالحق بهم مجموعتان مشابهتان. في الاثناء، اصبح نفوذ بيبرس واسعاً الى درجة انه شجع امير شيراز في نفس السنة، بشن الحرب على هولاكو وقبيلة خفاجة البدوية العربية – لإزعاج المغول.

يوم الحادي عشر من كانون الثاني عام ١٢٦٤، غادر بيبرس غزة لقتال المغول الذين يحاصرون بيرا على نهر الفرات. لكن المغول اختفوا بمجرد مشاهدة زحف المماليك.

أعلن الملك السعيد بركه، نجل بيبرس ولياً للعهد يوم العاشر من آب عام ١٢٦٤.

يوم ٢٦ شباط عام ١٢٦٥، احتل بيبرس بلدة قيسارية بهجوم مفاجئ عند الفجر. يوم ٥ آذار دمر قلعتها بشكل كامل. احتل حيفا يوم ١٦ آذار، ثم دمَّر عتليت، حاصر عسروف واحتلها يوم ١٨ نيسان ودمرها. ثم قام بتقسيم المنطقة كلها من عسروف الى حيفا، الى اقطاعيات ومنحها لستين أمير ممن شاركوا في الحملة.

في هذا الوقت، وبعد أن اصبح بطلاً وأباً لشعبه، قام بيبرس بتعيين أربعة قضاة رئيسين في القاهرة ودمشق، واحد من كل مذهب سني ( الشافعي، الحنفي، المالكي والحنبلي )، حيث لم يكن في السابق سوى " قاضي قضاة " واحد.

بنى بيبرس في دمشق قصراً ملوناً وسط حديقة جميلة على ضفة نهر بردى، من الحجارة البيضاء والسوداء، جدرانه الداخلية و أرضيته مغطاة بالرخام المتعدد الألوان، مزينة بالذهب

واللازورد والموازييك ". في تقليد مستحب لامجاد الأمويين في طراز بنائه، واناقته وجماله.

في نيسان من عام ١٢٦٦، زحف بيبرس على الخليل، ودمرت طوابيره كل المنطقة الصليبية شمالاً حتى طرابلس. اجبرت عكا على التوسل للاستسلام. حوصرت صفد يوم ١٤ حزيران واحتلت. عام ١٢٦٧ غزا بيبرس مملكة كيليكيا الأرمنية غرباً حتى طرسوس واستولى على المنطقة الحدودية الجنوبية، بما فيها قلعة ديربيساك. عام ١٢٦٨ احتل يافا عنوة، وسوى تحصيناتها بالأرض. في نفس السنة، استولى على انطاكية من بوهيموند السادس، امير انطاكية وطرابلس. بعدها، وقع على هدنة مدتها عشر سنوات مع فرنجة عكا، وعاد الى دمشق، وذكَّر أهلها بان المماليك وحدهم انقذوا المدينة من المغول، واجبرهم على دفع ستمائة الف دينار، مساهمة في المجهود الحربي.

استمر السلطان طيلة سنوات حكمة بالإغارات المتعددة على دول الفرنجة. عام ١٢٧٠، استولى على حصن الأكراد من الهوسبيتال. في ربيع عام ١٢٧١، ابرم هدنة مدتها عشر سنوات مع طرابلس، بعد أن سمع بان امير كورنوال، إدوارد، قد نزل براً في عكا. كان هذا قراراً حكيماً، لان الامير ادوارد الذي لم يكن معه سوى ثلاثمائة فارس، طلب من أبغا ان يمده بعشرة آلاف مغولي. وقد وصل هؤلاء الى حلب في تشرين الأول، لكن أبغا اضطر الى سحبهم على الفور، لأن مغول جاغاتاي قد هاجموا اراضيه في بلاد فارس. كما وقع بيبرس هدنة مدتها عشرة اعوام مع هيو الثالث، حاكم قبرص، الملك الصوري للقدس بحضور الامير ادوارد، يوم ٢٢ أيار، عام ١٢٧٢. ربما كان ذلك احتياطاً منه ضد احتمال تعاون مستقبلي بين الصليبيين من الغرب والمغول من الشرق.

حين سمع أن قوة من التتار قد اقتربت من الفرات في خريف العام ١٢٧٢، خاض بيبرس النهر بفرسانه وطردها. ارسل بعثة عسكرية الى بلاد النوبة، بقيادة حاكم اسوان، وقامت قوة اخرى بتدعيم سلطة حكومته غرباً حتى برقه ( سيرينايكا ). بعد ذلك وجه بيبرس طاقاته ضد الاسماعيليين، احد مذاهب الشيعة، الذين كانوا يسيطرون على تسعة حصون عظيمة في جبال سوريا بين المرقب وحماة، وحرر الحصون واحداً تلو الآخر بحلول عام ١٢٧٣. في آذار عام ١٢٧٥، غزا كيليكيا الأرمنية، واحتل عاصمتها سيس ودمر ميناءها أياس.

كانت غايته الاقتصادية في تدمير موانئ اياس، انطاكية، طرابلس وعكا، التي كانت تصدر البضائع الشرقية الى اوروبا، هي لدفع كل التجارة الشرقية صعوداً في البحر الأحمر وعبر مصر لإعادة تصديرها من الاسكندرية.

بعد عودته من كيليكيا، عسكر بيبرس في انطاكية، جمع الغنائم الهائلة ووزعها على جنوده، ولم يحتفظ لنفسه بشيء. هذا واحد من اسمى اعمال الفروسية الشركسية التقليدية. كما يعكس زواج ولي عهده، الملك السعيد بركه، من ابنة الامير قلاوون كذلك الى ان كلا من بيبرس وقلاوون كانا يحاولان المحافظة على اصولهما الإثنية الشركسية.

غادر بيبرس القاهرة في شباط من عام ١٢٧٧، مصحوباً بامراء من السلاجقة، لغزو آسيا الصغرى، وهزم يوم ٦ نيسان جيشاً مختلطاً من السلاجقة والمغول في البستان. اخذ الوزير السلجوقي معين الدين سليمان ( بيروانا ) الطفل الحاكم ذي السنوات الثلاث كاي خسرو الثالث، وهرب الى توكات. اجتاز جيش بيبرس المملوكي القمم الشاهقة وجدران الصخور في جبال طوروس بصعوبة بالغة. خرج جميع سكان قيصرية، العاصمة السلجوقية من الاتراك، المسلمين، وحتى النساء والاطفال، للترحيب بجيش المماليك ومقابلة البطل المسلم. يوم ٢٣ نيسان ١٢٧٧. " دخل السلطان بيبرس في موكب مهيب الى قيصرية وجلس على العرش السلجوقي ثم استقبل الأعيان والكبار ".

عندما سمع بيبرس ان ايلخان أبغا يتقدم بجيش مغولي ضخم، أمر بدفن المماليك الذين سقطوا في ارض المعركة، وانسحب الى البستان تاركاً المغول القتلى في العراء. كانت النتيجة مجداً عسكرياً لبيبرس وجيشه و " نهاية آخر ظلال الاستقلال السلجوقي ". تقاطر الاعيان والوجهاء والزعماء العرب والتركمان المحليون لاعطاء البيعة للسلطان البطل.

عند وصوله الى البستان، غضب أبغا لرؤية العدد الكبير من قتلى المغول نسبة الى العدد القليل من قتلى المماليك، فأمر جيشه بنهب قيصرية ومحاصرة البلاد. في الايام السبعة عشر التي تلت، ذبح مائتا الف مسلم، حسب قول المؤرخ المقريزي.

غادر بيبرس انطاكية يوم ٩ حزيران ١٢٧٧، قاصداً دمشق، حيث أعد له استقبال يوم ١٨ حزيران ١٢٧٧. كان السلطان في ذروة مجده. عاد الى القصر الملون، حيث لفظ آخر انفاسه مساء ٢٠ حزيران ١٢٧٧، في سن الخمسين.

كما رأينا، كان بيبرس قائداً ذا طاقة هائلة، حكيماً وشجاعاً. خدم مصالح امبراطوريته وشعبه بمنتهى الاخلاص. لم يكتف بالدفاع عن بلاده بشجاعة ضد اعدائها، بل استمر أيضاً في توسيع حدودها. زرع جيشه الخوف في قلوب المغول، لدرجة انهم لم يجرؤوا على غزو سوريا أثناء حكمه. كان ممتلئاً حيوية وطاقة، لدرجة انه وجد الوقت لكل شيء.

كلما سمح له الوقت، كان يقضي أيامه يتدرب على الفروسية والرماية بالقوس، لعب

البولو والصيد، بينما كان يخصص وقته في الليل للعمل المكتبي. اظهر اهتمامه بالناس وبناء المساجد والكليات، اصلح انظمة قنوات الري وحسَّنها، انشأ الطرق والجسور، وكذلك اسس العديد من المؤسسات الخيرية. يقول القاموس الموسوعي لبروكهاوس وايثرون عن بيبرس " مثل جميع الحكام الشرقيين، كان بيبرس في منتهى الكرم، كان عادة يوزع كميات كبيرة من الحبوب على الفقراء من صوامعه الخاصة، ويربي ابناء المقاتلين الشهداء، يبني المدارس، فنادق القوافل وغيرها. تلقى لقب " ابو الفتوح " لكثرة انتصاراته. باختصار، وبكلمات المقريزي " كان بيبرس احد افضل الحكام الذين حكموا المسلمين على الاطلاق ". كان عملاقاً بين الرجال، وافضل مثال على التفاني في خدمة امبراطورية المماليك.

## السلطان قلاوون

كان السلطان قلاوون، وهو مملوك " بحري " من اصل شركسي هو الآخر. ربما كان ذلك سبب زواج بركه، اكبر ابناء بيبرس، من ابنته.

يقدم لنا اس.ك.. خوتكو، في كتابه عن المماليك الشراكسة، معلومات مثيرة للاهتمام حول هذا الموضوع، اذ يكتب " شكَّل الاتراك والشراكسة، بالسيطرة العددية للأول و الهيمنة السياسية للأخير، العمود الفقري للمؤسسة البحرية وكتيبة الصالحية. جاء منهم السلاطين المماليك الأوائل: آيبك (١٢٥٠ – ١٢٥٧) كان تركياً او تركمانياً من آسيا الصغرى، قطز (١٢٥٩ – ١٢٦٠)، بيبرس (١٢٦٠ – ١٢٧٧) وقلاوون (١٢٨٠ – ١٢٩٠) كانوا شراكسة. يمكن مقارنة وضعهم بالامراء الجورجيين من عائلة كازدوغلي: علي بك، اسماعيل بك وابراهيم بك، الذين حكموا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. اعتبرتهم اكثرية المؤرخين شراكسة، على الرغم من اثبات لوزينيان حول اصولهم الجورجية. بنفس الاسلوب، ما زال بيبرس وقلاوون يعتبرون من اصل كيبشاك حتى الآن بصرف النظر عن إشارة العيني الواثقة من ان هؤلاء السلاطين كانوا كيبشاك من قبيلة بورج. لم توجد أبداً قبيله كيبشاك بهذا الإسم [1]، كما يؤكد المؤرخ صالح ذاكروف. لكن كلمة برج " كانت مترادفة مع كلمة "

(١) تثير عبارة صالح ذاكروف الواثقة بعض الشكوك . تذكر اس .ايه . بليتينيفا ، في كتابها "بولوفتسي" "أن التقسيم الفرعي المسمى بورتس صحيح لدى القبجاك . وهكذا ، اذا كنا سننطلق من حقيقة ان قلاوون كان من البورش ( البرج ) . حسب اللفظ العربي ) واذا كان قد اطلق على الحرس الجدد اسم بورج ، إذا الشراكسة – المماليك البرجيون ، جاؤوا أيضاً من نفس القبيلة لكن بورج كانت قبيلة شركسية في القرن الثالث عشر . كان مقر سكن هذه القبيلة ، حسب بيانات نيكولاس فيتسين ، تونمان والعيني ، القرم الشرقية والساحل الشرقي لبحر آزوف هذا الاقليم الذي سكنه الاديغة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، قدم اواءل المماليك لمصر . هناك خبير مشهور ، مثل عزيز عطيه ، يدعو المماليك البحريين شراكسة كذلك اعطى محمد خير حغندوقه مؤلف كتاب "الشراكسة" تفسيراً تحليلياً لهذا الموضوع .

شركس " لدى المؤرخين العرب ﭬ القرون الوسطى. كان العرب ينظرون الى الشراكسة على انهم من احدى القبائل التركية: دأبت السجلات المملوكية على استعمال كلمة " ترك " عند الإشارة الى السلاطين الشراكسة، على أساس مفهوم اكثر تعميقاً. ﭬ المقام الأول، أسهم العامل الجغرافي لدى المؤلفين العرب ﭬ العصور الوسطى ﭬ اظهار مثل هذا الفهم حول الأديغة. فقد ظل شراكسة الهضاب ( الجانه، التيمرجوي، القباردي وغيرهم ). على طول مناطقهم كلها، حتى حدود الأديغة، مجاورين بشكل قريب للشعب القبجاك. وجد العديد من المستوطنات الشركسية ﭬ النصف الشرقي من شبه جزيرة القرم، مثلاً، ﭬ المكان الذي ولد فيه بيبرس. يكتب تونمان ان موطن بيبرس كان مدينة سولخات قرب كافا التابعة لجنوا. يجب ان يذكر المرء هنا ان المماليك من اصل شركسي وحدهم ورثوا اسم بيبرس (بايبيريس)، ولم يحمله المتحدرون من اصل كيبشاك.

يجب ان نتذكر ان الايوبيين ( ١١٧١ – ١٢٥٠ ) الذين قاتلوا غير المسلمين بشكل مستمر، اعتمدوا أصلاً على العبيد الذين اشتروهم من القفقاس، الشراكسة على الأغلب، الذين خدموا لديهم كحراس شخصيين وشكلوا ثقلاً مضاداً للتكتلات العسكرية العربية والتركية. اصطحبهم السلاطين، صلاح الدين واتباعه، ﭬ كل من الحرب والسلم. وقفوا اثناء المعارك ﭬ وسط الجيش، يحمون رؤساءهم. مثلاً، شارك حراس صلاح الدين الشراكسة ﭬ المعركة الفاصلة بين الصليبيين والمسلمين، والتي وقعت ﭬ حطين يوم الثالث من تموز عام ١١٨٧. كذلك صمدوا بثبات ضد ضغط الخيل الثقيلة للفرسان الصليبيين، وبعد أن قاموا بهجوم معاكس، حطم الفرسان الشراكسة مشاة العدو. إمتاز فخر الدين إياس، أحد القادة الذين ترأسوا الفرسان الشراكسة ﭬ تلك المعركة، وبرز لشدة شجاعته. وقد استطاع أن يأخذ لوزينيان، ملك القدس، والعديد من الصليبيين أسرى.

يكمل اس. خوتكو " اشترى الملك الصالح عدداً هائلاً من المماليك، جرياً على سياسة سابقيه: كيبشاك، شراكسة واتراك من آسيا الصغرى ". يقول المؤرخ بوبر " ان الملك الصالح انشأ حرساً خاصاً، والى حد شبه كامل، جيشاً من العبيد البيض، بشكل خاص، من أتراك آسيا الصغرى ومن الشراكسة ". يجب الملاحظة هنا انه حتى خبير بارز ﭬ شؤون المماليك مثل وليم بوبر، لايذكر المماليك القبجاك ﭬ هذه الفترة مطلقاً. يتمسك امين الخولي، العالم السوري، برأي معاكس، كما يقول خوتكو " فهو يكتب عن سيادة عنصر القبجاك ﭬ النظام المملوكي، ولكن مع كل ذلك يضيف الشراكسة الى القبجاك، والذين ربما يعتبرهم احدى القبائل التركية. يكتفي موير بالتسمية العمومية " تركي " والتي كان السكان المحليون

يطلقونها على جميع الاجانب المتحدرين من اصول آسيوية. " تشير بحرية اوتشوك، وهي عاملة تركية، الى أن مماليك الملك الصالح كانوا شراكسة وجورجيين في اكثرهم. يؤكد اس. خوتكو ان ذكر الجورجيين في هذه الفترة له أساس ضعيف " بدأ الجورجيون يظهرون باعداد كبيرة في مصر في القرن الثالث عشر فقط.يكتب فيليب حتي في معرض حديثه عن هذه الفترة ان التركيبة الإثنية للمماليك كانت من اصول شركسية أو تركية في غالبيتها. يوضح هذا الصعوبة التي واجهها المؤرخون في التحقق من خلفية المماليك الإثنية. لم يدرك الخبراء في شؤون المماليك ان عامل علم الانسان يمسك بالمفتاح في عملية الكشف عن الخلفية الاثنية للمماليك الشراكسة. احد الاسباب التي ادت الى فشلهم في ايلاء الاهتمام الكافي لهذا الظرف عائد، حتماً، الى نقص في معرفتهم باللغة الشركسية.

وهكذا، بدون اي شك، فقد كان الشراكسة: بيبرس الثاني جشانغير (مملوك قلاوون) بيبرس المنصوري (مملوك قلاوون)، بيبرس الظاهري (قريب برقوق) الذي اصبح القائد العام للجيش المصري عام ١٤٠٠، بيبرس، ابن العم المباشر للسلطان قانصوه الغوري. يقول احسان تسي، المؤرخ السوري ان قطز أيضاً كان مملوكاً شركسياً، ويعتبر اسم " قطز " تحريفاً تركياً للإسم الشركسي الأصلي " خوتيج ".

كما نرى، فقد كان قلاوون مملوكاً " بحرياً " لكنه شركسي الأصل. كان طويل البنية، حسن التناسق، برقبة غليظة وذراعين قويتين الى درجة غير عادية. لم يكن يقل عن سلفه وصديقه بيبرس من حيث الطاقة والشجاعة، تظهر تسميته بالصالحي أنَّ قلاوون كان مملوكاً للملك الصالح ايوب. لقب بالألفي، لأنه تم شراؤه بمبلغ عالٍ جداً هو الف دينار ذهباً. يقول العيني ان قلاوون، مثل بيبرس، يعود مولده الى قبيلة بورج.

على أية حال، بعد وفاة بيبرس، لم يتمكن قلاوون من الانسجام مع السلطان بركه، النجل الاكبر لبيبرس، الذي ورث العرش. كان في سن التاسعة عشرة، لكنه لم يمتلك أياً من صفات أبيه الايجابية او قدراته. يقول اس خوتكو " وقع السلطان الفتي تحت تأثير أمه بشكل كامل، وكانت أولى خطواته فوق عرش السلطنة هي دس السم للوزير والقبض على موظفي البلاط الذين عينهم والده. " حاول بركه ان يتخلص من قلاوون أيضاً بنفس الطريقة. عام ١٢٧٨، ارسل قلاوون الألفي وبدر الدين البيساري للإغارة على كيليكيا. عام ١٢٧٩، اصدر بركه أمراً بالقبض عليهما. عندما اكتشف الاثنان ذلك، ثارا عليه وطالبا بان يتنازل السلطان بركه ويعيش في الكرك.

لم يبق لدى السلطان بركه أي خيار آخر سوى قبول شروط قلاوون. وهكذا، غادر القاهرة يوم ١٨ آب، ١٢٧٩، الى الكرك، ولم يدم حكمه سوى سنتين وتسعة عشر يوماً.

بمجرد ان غادر السلطان بركه الى الكرك، قدم الامراء السلطنة الى الأمير قلاوون، لكنه رفض ان يقبلها واقترح ان يمنح هذا الشرف لأبن آخر لبيبرس. كان هذا الرفض المتواضع خطوة حكيمة، لأن معظم الامراء الكبار والحكام كانوا ظاهريين، مماليك سابقين لبيبرس. فاختاروا بالتالي سلاميش، ابن السلطان بيبرس ذي السنوات السبع، سلطاناً، ومنحوه لقب الملك العادل. بسبب صغر سن السلطان، عينوا قلاوون قائداً عاماً ومراقباً للحكومة المدنية. كذلك عينوا الامير سنكور الأشقر نائباً للسلطان على دمشق.

اثبت قلاوون أنه سياسي فطن. قام بتقليص الامراء الظاهريين الذين يحتمل ان يعارضوه تدريجياً، بطريقة الإزالة والاحتجاز، واعاد الكثير من الصالحيين، زملاء المعسكر السابقين ورفاق السلاح، الذين يمكنه الاعتماد عليهم. في النهاية، دعا الى مجلس امراء المائة، يوم ٢٧ تشرين الثاني عام ١٢٧٩، وقال لهم " ان وجود رجل بالغ وذو خبرة أمر أساسي لحكم الامبراطورية بالطريقة اللائقة " في البداية استاء الامراء من تلميحاته ضد السلطان الفتي، ولكن في نهاية الأمر، وافقوه على توجهه وصوتوا على خلع السلطان سلاميش وارساله لينضم الى أخيه في الكرك.

## السلطان الملك المنصور قلاوون الألفي الصالحي العالي

نودي بقلاوون السلطان الملك المنصور يوم ٤ كانون اول عام ١٢٧٩، اسمه الشركسي قاله ون (برج او بناء بلدية) يظهر انه قدم أيضاً من نفس قبيلة برج الشركسية، كما جاء بيبرس. يقول خوتكو " وهكذا، تتوحد الترجمة الشركسية لإسم هذا السلطان مع الاسم العربي للقبيلة التي ينتمي إليها في الأصل ". في رأينا ان هذه الصدفة ليست عرضية: فهي تثبت الاصل الأديغة لقلاوون. كان مولده، اضافة الى مولد بيبرس في سولخات بالقرم، حيث أقيم مسجد عام ١٢٨٨، باموال قلاوون.

كان النظام البريدي في ذلك الوقت على درجة من الكفاءة بحيث ان انباء تعيين قلاوون وصلت من القاهرة الى دمشق في اقل من ثلاثة أيام – وهي مسافة تبلغ حوالي خمسمائة ميل. قالت رسالة قلاوون الى سنكور الأشقر، نائب الملك في دمشق، بتواضع " لقد خضع سكان هذه المملكة بالاجماع الى المملوك ".

اصبح المنصور سيف الدين قلاوون الألفي (١٢٧٩ – ١٢٩٠) مؤسس السلالة الحالية ضمن سلالة المماليك. اصبح " السلطان المملوكي الوحيد، الذي استمرت الوراثة في عائلته حتى الجيل الرابع " كان آخر سلطان " بحري " هو الصالح صلاح الدين الحجي الثاني، وهو ابن حفيده.

يقول خوتكو، لايقود اصل قلاوون الشركسي الى نفي شخصية سلالة القبجاك عن القلاوونيين – عن احفاده، الذين اندمجوا كلياً ضمن محيط القبجاك. ان وجود حامية كبيرة من الشراكسة البرجيين لم يمنع " تتريك " احفاد قلاوون، الذين تم ايقاف تقدمهم الى المناصب المؤثرة في الجيش ودوائر الدولة بكل وسيلة من قبل الامراء "البحريين". ضبط القلاوونيون تقدم البحريين بمساعدة " البرجيين "، والعكس بالعكس، عندما عين الأخير الشركسي بيبرس جشانغير عام ١٣٠٩، استعاد الناصر محمد بن قلاوون السلطة، مستنداً الى دعم " البحريين ".

بين عامي ١٢٧٧ – ١٢٧٩، حصل قلاوون على ١٢٠٠٠ شركسي، وشكَّل من بين اعدادهم حرسه الشخصي. لم يتجاوز عدد الحرس الشركسي لقلاوون لحظة اعتلائه العرش أربعة او خمسة آلاف. إذ انضم بقية الشراكسة الى " البحريين ".تلقى حرس قلاوون إسم مماليك البرج لأنهم كانوا مقيمين في الابراج المستديرة لقلعة القاهرة – البرجية. اسلاف البرجيين هم الحرس الشركسي لصلاح الدين ومماليك الكتيبة الصالحية. يمكن التأكيد في هذا الصدد بان المؤسسة البرجية أقدم بكثير من المؤسسة البحرية، بينما يجري تأكيد العكس في ادبيات دراسات المماليك. اعاد شراكسة قلاوون، كما يقول خوتكو، إحياء المؤسسة القديمة القوية، والتي اصبحت وظيفتها المباشرة حماية العرش من محاولات الامراء البحريين.

عام ١٢١٨ اثبت السلطان قلاوون نفسه مماثلاً لسلفه وصديقه بيبرس في الحيوية والشجاعة. فقد كانت لدى أبغا، نجل هولاكو، الذي اعتلى عرش ايلخانات بلاد الفرس، خططاً معدة لاكتساح سوريا، لكنه لم يجرؤ على غزوها اثناء حكم بيبرس البندقداري للقاهرة. لذلك، جاء الغزو الثاني على نطاق واسع لسوريا من قبل مغول ايران من نصيب السلطان قلاوون. يقول خوتكو" كان الجيش المغولي يفوق الجيش المملوكي عدداً بثلاثة اضعاف على الأقل ". ويشير المقريزي الى انهم كانوا اكثر بضعفين. لكن معلومات هذا المؤلف متحاملة جداً في كل ما يتعلق بشجاعة المماليك، الى درجة انه يمكن وصفه بأبي الإتجاه السلبي في علم التاريخ العربي حول المماليك بشكل عام والمماليك الشراكسة بشكل خاص. من المعروف ان ابغا كان يتعاطف مع المسيحية، وانه ابرم تحالفاً مع الفرنجة، ولذلك حضرت مفرزة كبيرة من الصليبيين – زهرة الفرسان الاوروبيين – لنصرته. كذلك احضر المغول عشرات الآلاف من المقاتلين الارمن والجورجيين تحت إمرة قادتهم. تعطشت حشود من الاتراك، الفرس، والقبائل الآسيوية الأخرى للإندفاع الى داخل سوريا الغنية. اقترب كل هؤلاء المقاتلين، الذين تراوح عددهم بين ١٥٠ الى ٢٠٠ ألفاً، تحت قيادة مينجو – تيمور

وافضل القادة العسكريين المغول، من مدينة حمص، حيث كان الجيش المصري بانتظارهم مسبقاً تحت قيادة قلاوون ( يوم ٣١ تشرين الأول عام ١٢٨١ ).

يصف خوتكو هذه المواجهة التاريخية كما يلي: شغل الملك محمد، وهو حاكم حماة الأيوبي، وعدد من امراء المماليك ميمنة الجيش المصري. وقف العرب من قبيلة بني مرة، بقيادة عيسى بن مهنا، امامهم. شغل سنكور الأشقر، امير المائة الميسرة، ووقف أمام فصائله الخيالة التركمان. وقف في الصدر أربعة آلاف شركسي " برجي " ووحدات أخرى منتقاة من المماليك. اتخذ قلاوون لنفسه موقعاً على تلة صغيرة يستطيع منها ان يراقب المعركة، ومعه مئتي مملوك. سرعان ما بدأت المفارز المغولية تظهر. تشكل امام المماليك وحلفائهم القلة جيش، حضر مقاتلوه من المساحة الهائلة من التيميز وحتى آمور، وكان لدى العديد منهم ثأرات يريد تصفيتها مع المماليك. هاجم المغول ميمنة المصريين بوحشية عنيفة. قاتل السوريون والمصريون بعناد عظيم وثبتوا امام هذا الهجوم. ثم انقض هؤلاء بدورهم على العدو ودفعوا ميسرته الى الصدر. لكن في هذه الاثناء، انسحقت الميسرة بقيادة سنكور وهربت باتجاه اسوار حمص. لاحقهم المغول الذين كانوا يهاجمونهم وبخاصة القبجاك التابعين لسنكور، وقد اغراهم الوضع، حتى اسوار المدينة، حيث ارتكبوا مجزرة. لكن مماليك سنكور استمروا في الهروب بلا توقف باتجاه دمشق، وهم ينشرون انباء هزيمة كاملة للمسلمين. ساد ذعر رهيب في مؤخرة جيش قلاوون، انتشر في بقية البلاد. جاءت الهزيمة الساحقة للميمنة بعد هروب سنكور: قاتل السوريون والمماليك بشجاعة يائسة، لكن القوات لم تكن متكافئة. وحده قلب الجيش المملوكي وقف بثبات، أمر قلاوون بقرع الطبول، وهي إشارة على التجمع. بدأت فلول الميمنة تتحرك نحو الوسط – القلب، باتوا ينتظرون هجمات جديدة من وحدات المغول، واصبح جلياً لدى كل فرد ان المعركة قد خسرت.

في هذه اللحظة بالنسبة للمماليك، هجم اوزدمير الحاج، امير المائة وأحد قادة المماليك البرجيين على حصانه برفقة بضعة من المقاتلين باتجاه المغول، صائحاً أنه يستسلم لرحمة مينجو- تيمور. بعد ان اقترب من المغول، قال أنه يرغب في ان يخبر القائد أمراً مهماً. اصطحب اوزدمير ومقاتلوه الى خيمة الخان. بمجرد رؤية مينجو – تيمور، هاجمه الأمير الشركسي وضربه برمحه واسقطه عن حصانه. فقد مينجو الوعي من شدة الضربة وسقط، فاعتقد الذين حوله انه مات. تبع ذلك اضطراب رهيب. قام مماليك اوزدمير بمذبحة حقيقية، وهم يحمون قائدهم. ماتوا جميعاً من ضربات حراس مينجو الشخصيين. خلق سقوط الخان الذعر في صفوف المغول. وكان المماليك البرجيون ينتظرون هذه اللحظة،

هاجموا العدو بضراوة، فتردد هؤلاء، ولم يعودوا يحتملون وطأة الهجوم وهربوا. هرب قسم من الجيش المغولي باتجاه حلب، بينما فر القسم الثاني باتجاه السلمية.

في هذه الاثناء، عاد التتار الذين طاردوا سنكور وحملوا الكثير من السرقات عند ضواحي حمص، وهم واثقون من هزيمة المماليك، وفي حالة من الإهمال. لم يجدوا أحداً في ساحة المعركة . كان السهل كله ممتلئاً بجثث اخوتهم. صدمهم هذا المنظر. في هذه اللحظة، وقف خلف التلة التي شكلت مقر قيادة السلطان، حرس قلاوون الشركسي، مختبئين ويمسكون بافواه خيلهم بقوة. لم يكن هناك اكثر من ألف منهم. اذ كان البقية منهمكين في ملاحقة المغول الفارين. عندما أدار أخر فارس مغولي ظهره للتلة الماكرة، اعطى قلاوون الإشارة وانقض الشراكسة فجأة على العدو، وبعد معركة جنونية، اجبروهم على الفرار. حدث هذا عند الغروب، الذي اصبح في ذلك اليوم قرمزياً فعلاً. جاء نصر المماليك تاماً، لكنهم كانوا مرهقين كلياً. اعتبر المماليك مدينين الى حد بعيد بنصرهم الى التصرف البطولي للأمير أوزدمير. تحمل المغول خسائر رهيبة. مات عدد كبير منهم اثناء الفرار، اكثر ممن قتل في المعركة نفسها. عند وصولهم الى ضفاف الفرات، اختبأت بقيتهم بين ادغال القصب. اشعل المماليك النار في هذه الأدغال فمات عدد هائل من هؤلاء الفارين جراء النار والدخان.

اصبح يوم المعركة في حمص يوم المجد للمماليك الشراكسة ولقائدهم اوزدمير. اثبت السلطان قلاوون أنه جدير بلقب الملك المنصور. من هذه المعركة نرى كيف يتصرف المماليك بطريقة مختلفة: بعضهم، مثل سنكور،عقد اتفاقاً مع العدو، لكن الآخرين ضحوا بارواحهم بدون أدنى تردد، لأجل النصر العام، كما فعل اوزدمير ومقاتلوه. ارتكب القبجاك خيانة بحق الشراكسة مرتين في الحرب ضد المغول: المرة الأولى في القفقاس اثناء المعركة ضد التومان، مقدمة جيش جنكيزخان، والمرة الثانية – معركة حمص.

عند عودته الى القاهرة، وجد السلطان قلاوون سفراء من الامبراطور الألماني، من جمهورية جنوا ومن امبراطور القسطنطينية اليوناني بانتظاره. " ارسل الامبراطور الألماني هدايا قيمة تضم فراءً نادراً: ابيض منقط وجلد سمور، واثواباً من الحرير القرمزي والأصفر وقماش من البندقية. ارسل الجنويون الحرير، وصقور الصيد وكلباً " بحجم الأسد ". ارسل الامبراطور البيزنطي كميات كبيرة من الحرير والسجاد. بعد بضعة أيام، وصلت سفارة من اليمن مصطحبة هدية ملكية مؤلفة من ثلاثة عشر خصياً، عشرة أحصنة، فيل، وحيد القرن، ثمانية ببغاوات، ثلاث قطع كبيرة من العنبر، وسبعين جملاً محملة بالبهارات وعدة صناديق من المنسوجات.



**ثلاثة ضباط مماليك من الحقبة الشركسية**
**يرتدون غطاء رأس التقية، التي تميز طبقة المماليك**

يثبت تواصل وصول السفارات من الأباطرة والملوك، حاملين مثل هذه الهدايا الثمينة القيمة، ان امبراطورية المماليك كانت تعتبر احدى أعظم دول الدنيا، وان أقوى الملوك كانوا يسعون الى صداقتها.

يثير المقريزي نقطة مثيرة للإهتمام، تتعلق بتشجيع التجارة، مفادها انه في عام ١٢٨٨، ارسلت سمات سفر من القاهرة الى التجار البارزين في اليمن، السند، الهند والصين. كان يفترض تعبئة النماذج قبل مغادرة التاجر لبلده الأصلي ويبرزها التجار عندما يدخلون الاراضي المصرية مع بضائعهم.

كتب السيرجون غلوب "يكفي القول ان الامبراطورية المملوكية وصلت الى ذروة عظمتها تحت الحكم الاستبدادي لكل من بيبرس البندقداري، قلاوون الألفي والناصر محمد. اضافة الى ذلك فقد بلغت الامبراطورية مبلغ الغنى واليسر تحت حكم هؤلاء الطغاة" وكان عامة الناس سعداء ".



**مقاتل شركسي مملوكي خلال معركة ضد نابليون**
**من كتاب اس. خوتكو**

اصبح هذا السلطان المملوكي مشهوراً ليس فقط لانتصاراته العسكرية وهزيمته الساحقة لجميع اعداء السلطنة " يقول خوتكو " بل أيضاً اظهر كثيراً من الاهتمام بالبناء: جرى توسيع قلعة حلب وتحصينها في زمنه، اضافة الى دمشق وبعلبك. بنى مستشفى رائعاً في القاهرة (١٢٨٤)، يحتوي على قاعات واسعة لمختلف المرضى، صيدلية، حمامات، مختبرات، مطبخ والعديد من غرف التخزين. كان موظفو المستشفى يدربون في قاعات المحاضرات. كانت امراض الحمى، الدوسنطاريا وامراض العيون تعالج في هذا المستشفى. والحقت به أراضي يصل دخلها الى مليون درهم.

كذلك كان قلاوون راعياً للفنون والعلوم والآداب. عامي ١٢٨٤ - ١٢٨٥ قام ببناء واجهة جميلة مكونة من ثلاثة اجزاء: ضريح، مستشفى وجامعة.

أصبح احد مماليك قلاوون: بيبرس المنصوري، مولعاً بالتاريخ وترك لنا تقريراً عن حكم سيده واحداث القرنين الثالث عشر والرابع عشر. هو المسجل المملوك الوحيد الذي شارك شخصياً في الحملات والمعارك ". بعد أن دحر المغول، استمر في الصراع ضد الصليبيين. في ايار عام ١٢٨٥، احتل قلعة المرقب من الاسبتاريين، وفي نيسان عام ١٢٨٩، احتل المماليك طرابلس عنوة. توفي السلطان قلاوون من الحمى يوم العاشر من تشرين الثاني عام ١٢٩٠، في سن السبعين، بينما كان يجهز للقيام بحملة ضد عكا، التي امتلكت اقوى التحصينات بين جميع قلاع الشرق الأوسط.

## السلطان الأشرف خليل

اعتلى السلطان الاشرف خليل، نجل قلاوون، عرش الامبراطورية المملوكية يوم ١٢ تشرين الثاني عام ١٢٩٠. دس السم لأخيه الاكبر، علي، حتى يرث العرش، واضطهد رفاق أبيه في السلاح بمجرد ان اصبح سلطاناً. احد أوائل ضحاياه هو تورونتاي، أمير المائة، والحاكم العام لمصر، بدعوى أنه تآمر لقتله. ضحيته الثانية هو سنكور الأشقر، الذي اتهمه بالخيانة وسجنه.

بعد ذلك قام بتجهيز حملة ضد عكا، من اجل صرف انتباه المماليك عن اجراءاته. ارسل فرساناً رسلاً الى الحكام السوريين يأمرهم ان ينزلوا بكتائبهم الى الميدان،، يوم الخامس من نيسان عام ١٢٩١، عسكر المماليك المصريون عند اسوار عكا. تكونت حاميتها من المعبديين و الاسبتاريين، فرسان قبرص، التيوتون، الفرنسيين، الانجليز، ابناء بيزا، ابناء البندقية ومرتزقة جنويين. وصل مجموعهم إلى ثمانية آلاف فارس واربعين ألفا من المشاة. يوم الخامس عشر من أيار، سقط جدار حصن القديس انثوني، بعد حصار أكثر من شهر. في اليوم التالي، تم الاستيلاء على البرج الجديد للمدينة، والذي كان يدافع عنه التيوتون، عنوة. يوم ١٨ أيار، بعد المغرب، اندفع المماليك إلى الامام بأمر من السلطان وزرعوا راياتهم على أسوار عكا بحلول الفجر واحتلوا كامل المدينة عند الظهر، بعد أن حطموا المقاومة اليائسة لعدو مساوٍ لهم في الاعداد. استمرت بقية المعبديين الذين الذين أغلقوا على أنفسهم حصن القديس اليعازر، ودافعوا عنه عشرة أيام أخرى، حتى انهارت جدرانه تحت ضربات الآلات ودفنت المدافعين.

قبل حصار عكا، القى السلطان القبض على حاكم دمشق الأمير لاجين، وهو مملوك برجي. عاد السلطان خليل في آب عام ١٢٩١ إلى القاهرة منتصراً. هرب لاجين من السجن في كانون الأول عام ١٢٩٣ بمساعدة أصدقائه المماليك "البرجيين" ودبر مؤامرة ضد السلطان، شاركه فيها الأمير بيدار، نائب سلطان مصر.

صباح أحد الأيام، بينما كان السلطان عائدا من الصيد مع شاوكو، رئيس صياديه الشركس، كمن له مماليك بيدار وقتلوه حسب الخطة. دخل بيدار خيمة السلطان وجلس على العرش. في تلك اللحظة، اندفع كتبغا إلى الداخل مع مائتي فارس وقتلوا بيدار ومعاونيه. هرب لاجين واختبأ في القاهرة.

يقول خوتكو أن جريمة قتل السلطان خليل، تبعتها سبع عشرة سنة من المؤامرات، الخيانات، والاغتيالات والمذابح العائلية، وبشكل خاص منذ عام ١٢٩٣ وحتى ١٢٩٩.

مرة أخرى قام شركسي آخر وأدى واجبه وانقذ الامبراطورية من الفوضى. في هذه المرة، كان اسمه شيوجي، قائد المماليك البرجيين. الذي كان مسؤلا عن " قلعة الجبل". بمجرد سماعه موت السلطان خليل، حرك جميع القوارب إلى الضفة اليمنى من نهر النيل. عندما لاحظ كتبغا أنه ترك معزولا على الضفة اليسرى، فهم خطورة الوضع الذي هو فيه. بدأت المفاوضات وتم التوصل إلى أن يشغل العرش محمد، نجل قلاوون الصغير، ويصبح كتبغا وصياً، وشيوجي الوزير الأول. رغم ذلك، لم يكن دوام السلم بينهم ممكناً، فقد تنامى نفوذ كتبغا باستمرار، بسبب المجموعة المغولية المتنامية بسرعة. قرر رئيس البرجيين ازاحته، لكنه قامر بالعملية كلها في ضربة واحدة. إذ لم تكن القوة الشركسية كافية لمواجهة مكشوفة.

يوم ٢٣ كانون الثاني ١٢٩٤، وبينما كان كتبغا راكباً متجها لحضور المجلس المملوكي في القلعة، حذره أحدهم من مؤامرة تحاك لقتله في قاعة القصر.

استدار كتبغا وهرب. سرعان ما جمع اتباعه وحاصر القلعة. بعد سبعة أيام من الحصار، فتح اتباع أرملة قلاوون البوابات، فاندفع المحاصرون الى الداخل وقتلوا شيوجي. وهكذا، انتهى الصراع بين شيوجي وكتبغا. حكم كتبغا لبعض الوقت كطاغية دكتاتور. في هذا الصراع أيضاً، كان القبجاك موالين كلياً للامراء المغول.

## السلطان كتبغا

اعلن كتبغا نفسه سلطاناً في كانون الأول عام ١٢٩٤. اثناء حكمه، أحضر عدداً هائلاً من المغول الى مصر. في كانون الثاني عام ١٢٩٦، رحب بقبيلة اوفيرات كلها، والتي هربت من جازان خان كما يبدو، فان ظهور الحي التتاري في القاهرة وصعود التتار الى السيطرة في الجيش المملوكي يعودان الى تلك الفترة. وقع القبجاك تحت السيطرة الكلية للتتار، بدون ان تكون لديهم اية سياسة مستقلة. قام قائد المماليك القبجاك، سنكور الأشقر، بخيانة المماليك واستسلم لمانجو تيمور. كذلك ذهب الامير كيبشاك ومماليكه الى جازان خان وساعدوه في الحملة السورية.

المقاومة الوحيدة التي لقيها التتار جاءت من الشراكسة، الذين رفعوا من بين صفوفهم امراء متنفذين وسلاطين مثل شيوجي، بيبرس جاشانغير، باشتاك، لاجين، تاز وطبعاً، برقوق، الذي بدأ حكمه على السلطنة كدكتاتور.

## السلطان المنصور لاجين

جلس المنصور لاجين على كرسي السلطان في المعسكر بالعوجا. اقسم الامراء يمين الولاء له ولكن بشرطين ١ - ان يستمر في التشاور معهم كأنداد، و ٢ - ان لا يفوض السلطة لمماليكه الشخصيين فقد كانوا يخشون مانجو تيمور بشكل خاص، الذي كان له تأثير كبير على سيده. قبل السلطان لاجين الشرطين.

لاجين هو مملوك للسلطان المنصور علي، نجل آيبك أصلاً. اشتراه قلاوون عندما عزل قطز السلطان الصبي علي. بعدها اصبح لاجين خادماً شخصياً لقلاوون، اطلق عليه لقب " الرأس الأحمر ". لاحقاً، عندما أصبح اميراً وحاكماً لدمشق في عهد قلاوون، أصبح والياً مثالياً وكسب محبة العامة.

أصله الإثني غير واضح، لكن وصف مظهره يتطابق كلياً مع النمط الشركسي. يدفعنا دعمه غير المتردد من قبل المماليك البرجيين الى التفكير بأنه كان قفقاسي الأصل. اكثر من ذلك، كان لاجين وفياً لبيبرس.

يوم الثاني من كانون الاول عام ١٢٩٢، كان لاجين احد الامراء الستة الذين أمر السلطان - خليل بخنقهم في حضرته. والأمير سنكور الأشقر الآخر. بعد خنق الامراء الخمسة الآخرين، جاء دور لاجين. بينما يجري خنقه، انقطع خيط القوس بطريقة ما، فوقع عند قدمي السلطان. "فتوسل الأمير بيدار، نائب الحاكم في مصر، وآخرون حاضرون، من أجل العفو عنه. منحهم خليل طلبهم، معتقداً، ربما، ان لاجين لن يتعافى. حملوه الى الخارج، والموت بادياً عليه، لكنه عاش لينتقم ". في نهاية المطاف، قام بيدار ولاجين وبعض الامراء الآخرين بقتل السلطان خليل. عندما سمع الأمير كتبغا بمقتل السلطان، لحق ببيدار وفرسانه على رأس الفي فارس، وقتله. ولكن لاجين تمكن من الفرار مرة أخرى والاختباء في القاهرة.

عفا عنه كتبغا وعينه وصياً على مصر، لكن ذلك المنصب لم يقنعه. فبدأ ينسج خيوط مؤامرة. يوم ٢٦ آب عام ١٢٩٦، هاجم المتآمرون المعسكر الريفي لكتبغا، لكنه تمكن من الفرار مع أربعة من حراسه الشخصيين وهرب باتجاه دمشق.

اتخذ لاجين مقر اقامته في القلعة يوم ٨ كانون الاول عام ١٢٩٦. في ذلك اليوم تم تخفيض أسعار المواد الغذائية بدرجة كبيرة. عين الأمير قاره المنصوري نائباً لحاكم مصر وقنجق المنصوري، نائباً للحاكم في دمشق. وعين كتبغا حاكماً لصلخد. بعد ذلك بوقت قصير، أعاد لاجين جميع الضرائب المتأخرة ومنع المسؤولين من ابتزاز المال بطرق غير مشروعة. اطلق سراح بعض الامراء من السجن، من بينهم بيبرس جاشانغير ومانجو تيمور، واسبغ عليهم

اثواب الشرف. منح الخليفة الحكيم مبلغاً ضخماً من المال بشكل جراية وبيتاً محترماً في المدينة. قدم عشرين الف دينار ذهباً لترميم جامع ابن طولون. بدأ يخطط لعملية إعادة توزيع رئيسة في اراضي الامبراطورية. حتى أنه جلس مرتين في قاعة العدل لرد المظالم. كان رجلاً تقياً، يكلم الناس بلطف ويصوم شهرين بدلاً من شهر رمضان. في كانون الاول عام ١٢٩٧، شاهد لاجين الناصر محمد، السلطان الصبي الذي خلعه كتبغا، وأخبره انه مملوك لأبيه قلاوون، وانه يشغل العرش حتى يصبح محمد في سن مناسبة للحكم.

قدَّر الناس الأعمال الطيبة لسلطانهم الجديد ودعوا الله سبحانه وتعالى ان يسبغ عليه بركاته. اتصل المراسلون من مصر بالأمراء في سوريا وحضوهم على الطاعة للسلطان الجديد.

ولكن سرعان مانكث بوعده للأمراء وعين مانجو تيمور نائباً للحاكم في مصر. ذكره الامراء الذين خابت ظنونهم بالقسم الذي أداه.

انزعج لاجين وبدأ يرسل الأمراء المعترضين الى مراكز بعيدة. والقي الامير قاره سنكور، نائب الحاكم لمصر، في السجن.

في نهاية المطاف، تعرض لاجين لحادث اثناء لعبة البولو. اقترح صديق لمانجو تيمور أن يرشح كوريث للعرش.

بعد بضعة أيام، حضر الامير بيساري لعيادة السلطان المريض. كان هو أول من اعترف بلاجين سلطاناً وصديقه المقرب. بعد ان دردشا لبعض الوقت، تشاور لاجين مع صديقه القديم حول مدى قابليته جعل مانجو تيمور وريثاً للسلطنة. فقد بيساري اعصابه وقال بخشونه " مانجو تيمور لا يصلح لان يكون جندياً عادياً لكنك جعلت منه نائباً للحاكم في مصر ".

بعد ذلك بوقت قصير، تناول لاجين طعام العشاء مع بيساري. عندما غادر الأخير القصر، ألقي القبض عليه واودع السجن. لاحقاً، عاش بيساري وزوجته في شقة مريحة اعطيت له، حتى وفاته.

في الاثناء، بدأ لاجين يتحول الى ناسك متدين. يقضي أيامه في الصوم والصلاة، بينما انهمك مانجو تيمور في أخذ دور السلطان أكثر فأكثر. سئم الامراء من هذا الوضع. قرروا قتله مع لاجين، الذي منحه كل تلك السلطة.

يقول خوتكو، عام ١٢٩٩، هرب كيبشاك، القائد العام للجيش المملوكي، الذي ارسل الى سوريا للتصدي للغزو المغولي المرتقب، برفقة ٥٠٠ فارس الى غازي خان في بلاد فارس.

استقبل كيبشاك، الذي كان متعشطاً لان يصبح حاكم سوريا تحت أية سلطة، استقبالاً حسناً.

في احدى امسيات كانون الاول عام ١٢٩٨، وبينما كان لاجين جالساً يلعب الشطرنج مع قاضي القضاة، هجمت على القصر مفرزة من المماليك، بقيادة الامير كورجي. كان الامير نوغاي، رئيس الحرس أحد المتآمرين. قاتل لاجين بضراوة، لكنه طرح أرضاً وطعن.

بعد مقتل لاجين، عاد جيش الاستطلاع بقيادة الأمير بيكتاش الفخري، من كيليكيا الى القاهرة. عاقب قادة المؤامرة، لكنه رفض ان يشارك شخصياً في شؤون القصر فهو جندي، وليس سياسياً. لذلك اقتسم كل من سالار، قائد البحريين وبيبرس جاشانغير، قائد البرجيين، السلطة بينهما. واعيد تنصيب الناصر محمد على العرش للمرة الثانية. حكم لمدة عشر سنوات ( ١٢٩٩ -١٣٠٩ )، ولكن لكونه صغيراً، بقي مجرد ألعوبة بين أيدي الرجلين القويين، سالار وبيبرس.

بدأ مغول ايران يعدون انفسهم لغزو سوريا في ربيع عام ١٢٩٩. زحف قسم من المماليك من القاهرة الى دمشق لمواجهتهم تحت قيادة الامير الشركسي اكوش " قاتل النمر ". في ايلول، تحرك جيش مملوكي آخر الى سوريا بقيادة سالار وبيبرس والسلطان الناصر البالغ من العمر خمس عشرة سنة.

في هذه الاثناء، كان مقاتلو المغول من قبيلة اوفيرات يخططون لإعادة تنصيب كتبغا على العرش. وكان بيبرس جاشانغير الذي يقف خلفه المماليك البرجيون، العقبة الرئيسة في وجه هؤلاء المتآمرين.

لدى التوقف في غزة، قام احد هؤلاء المغول بمهاجمة بيبرس وجرحه. أجفل الجواد ووقف على قائمتيه الخلفيتين فانقذ بيبرس من الضربة الثانية القاتلة. انقض البرجيون على المغولي وقطعوه إرباً.

هاجمت بقية الاوفيرات خيام السلطان، لكن المماليك ردوهم ورفعوا راية المعركة. ظن البرجيون ان سالار هو قائد المؤامرة وبدأوا يبحثون عنه. بينما شكك قسم من الامراء ان السلطان الشاب يحاول التخلص من سالار وبيبرس لكنهم وجدوه بريئاً. في النهاية، اعترف الاسرى التتار بمؤامرة اعادة تنصيب كتبغا. اعدم خمسون منهم على الفور. سادت الفوضى أربعة أيام، ونتيجة لها، انهارت المعنويات القتالية في الجيش بدرجة كبيرة.

وقعت المعركة قرب السلمية يوم ٢٢ كانون الأول عام ١٢٩٩. لم يشارك بيرس الذي كان قد جرح بالأمس في المعركة. قاد سالار المماليك البرجيين الذين شغلوا صدر الجيش في

الترتيب القتالي، كالعادة. كذلك تسلم القيادة العامة لكافة القوات. مني المماليك بهزيمة من العدو الذي فاقهم في العدد ثلاث مرات على الأقل. احتل جازان دمشق وعين كيبشاك حاكماً عاماً عليها. تحركت القوة الجورجية، التي احضرها جازان معه ضد المماليك، الى الجنوب اكثر من الآخرين ودخلت مدينة القدس.

بحلول شباط عام ١٣٠٠، أخلى جازان سوريا. يوم ٣١ آذار عام ١٣٠٠ نزل الجيش المملوكي بقيادة السلطان وسالار وبيبرس الى الميدان في سوريا. سلم كيبشاك دمشق بدون قتال مقابل العفو عنه. وهكذا اعاد سالار وبيبرس تثبيت الأمن في سوريا وعادا الى القاهرة.

خلال العام ١٣٠٢، قاتل كل من سالار وبيبرس ضد الثورات العنيفة للبدو والارمن الكيكيين. ارسلا الاسطول البحري ضد المعبديين في جزيرة أرواد (قبالة طرطوس). احتلتها القوة المملوكية التي نزلت الى البر، ذبحت كل سكانها واسرت مائتي مقاتل كانوا قد تحصنوا بالبرج.

ارسل الامير اكوش بريداً الى القاهرة يخبر فيه عن غزو مغولي جديد. خلال مهلة قصيرة، اعلن بيبرس وسالار التعبئة العامة وبنيا جيشاً من خمسة وعشرين الف رجل. زحف من القاهرة يوم ٢٤ آذار. اقترب الجيش الايراني المغولي وقوامه خمسين الف مقاتل من مدينة حماه يوم ٣ نيسان، بقيادة كوتلوغ شاه، القائد المحنك والوصي على جازان خان. حين رأى ان المماليك لم يصلوا الى سوريا، وصل التتار الى دمشق وحاصروها. وقفت حامية المدينة وجميع سكانها على اسوارها. في أتون المعركة، تلقى كوتلوغ شاه معلومات عن اقتراب القوات المصرية فأخلى الحصار بسرعة وتقدم لمواجهتها. التقى الجيشان في مكان صغير اسمه الشقب، جنوب دمشق، يوم ٣ نيسان عام ١٣٠٣.

احتل المغول الموقع الافضل على التلة. وقف الجيش المملوكي مقابلهم على الأرض المنخفضة. كان في صدره المماليك البرجيون، بقيادة بيبرس جاشانغير، كذلك تواجد سالار والسلطان الناصر. شغل كيبشاك الميسرة، وبيكتاش الميمنة.

عند ظهر يوم ٢٠ نيسان، تحرك التتار في كتلة ضخمة سوداء على ميمنة المماليك. نشبت معركة رهيبة، لكن جنود بيكتاش قاتلوا بشجاعة وردوا الضغط. رغم ذلك، فقد المماليك الف رجل وستة من امراء المائة في تلك المعركة.

شن التتار هجوماً جديداً استهدف قلب الجيش المصري. قاتل سالار وبيبرس والمماليك البرجيون قتالاً يائساً وقتلوا عدداً كبيراً من المهاجمين. استمر التتار في الهجوم مرة تلو الأخرى وبدأوا يدفعون المماليك الى الوراء. حتى ان قسماً من التتار ذهب الى المؤخرة، نهبوا

وسائط النقل وقتلوا جميع الحراس. استمرت المعركة حتى المساء. عند الغروب، أمر كوتلوغ شاه قادته بالانسحاب الى مواقعهم السابقة على الأرض المرتفعة. وقعت بالجيش المصري الصغير خسائر فادحة خلال معركة ذلك النهار. اعتبر كوتلوغ شاه نفسه منتصراً مسبقاً، لكنه بعد ان تراجع الى التلة، رأى ان المماليك لا نية لديهم في الانسحاب.

في معسكر الجيش المصري، ظلت الطبول تقرع طوال الليل كإشارة الى الجنود للالتحاق بكتائبهم. استمر كل من بيبرس، سالار، كيبشاك وكل الامراء الكبار في الركوب حول كتائبهم وتشجيع جنودهم. عينوا قادة جدداً بدل الأمراء الذين سقطوا في ارض المعركة. في الصباح، اندفع الجيش المملوكي الى الميدان جاهزاً لكسب الحرب او الموت. وقف على رأس كل كتيبة أمير ووقف امام الجيش كله سالار وبيبرس.

عند شروق الشمس، اندفعت خيالة التتار باتجاه الجيش المملوكي. احتفظ جناحا الجيش بموقعيهما. بعد ذلك، اجبرهجوم معاكس من القلب التتار على التراجع. بحلول المساء، دحروا التتار واعادوهم الى الأرض المرتفعة وقطعوا طريقهم الى جدول الماء في الوادي.

عانى التتار وجيادهم طيلة الليل من العطش وخارت قواهم. اصبح الوصول الى الماء الهدف الرئيس. قرر كوتلوغ شاه ان يهاجم قبل شروق الشمس.

هرب أحد المماليك الذي أسرهم المغول في المعركة، وأخبر قومه المماليك عن الخطة المغولية.

في الساعة الرابعة صباحاً، اندفع التتار نحو جدول الماء. دخلوا في الجدول على الفور على ظهور جيادهم وبدأوا يطفئون ظمأهم.

عندما تجمع الجيش المغولي في بقعة واحدة، ظهر المماليك وانقضوا على عدوهم بغضب وحشي و " حصدوا بيدراً كاملاً من الرؤوس " . استدار التتار ليهربوا، لكن المماليك استمروا في ملاحقتهم.

وهكذا، تلقى المغول الايرانيون الهزيمة الكبرى الثالثة على يد القوات المملوكية الأصغر حجماً. جلب النصر في ميدان صوفر سلاماً طويل الأمد على الحدود الشرقية لسلطنة المماليك. لم يعد ايلخانات بلاد فارس يجرؤون على غزو سوريا.

بدأ المماليك البحريون ينازعون على السلطة. تزايد التوتر بين سالار، المخطط الذكي، وبيبرس الرجل العنيف ذو الصوت العالي. ساند معظم الأمراء في دوائر الحكومة سالار، السياسي الداهية الفطن. لكن المماليك البرجيين، وهم في هذه الآونة أقوى كتلة عسكرية في العاصمة، فقد وقفوا خلف بيبرس.

كان مركز امبراطورية المماليك، " قلعة صلاح الدين " في يد البحريين، الأمر الذي مكنهم من التدخل بفاعلية في شؤون البلاط. كما ذكر سابقاً، فقد انشئت المؤسسة البرجية لموازنة التطلعات القيادية للامراء البحريين. في هذه الفترة (١٢٩٩–١٣٠٩)، كان سالار قائد البحريين. كان مشهوراً بدهائه. اما بيبرس، خصمه، فكان معروفاً بنزاهته. اوضحت المنافسة السرية بينهما بما لايدع مجالاً للشك، بان التوافق بين الاثنين أصبح مستحيلاً.

كان الملك الناصر في سن الثانية والعشرين خلال هذا الوقت. قرر أن يستغل المنافسة بين الطاغيتين وعبر عن الرغبة في اداء مناسك الحج الى مكة المكرمة. تركه سالار وبيبرس يذهب. على أية حال، ذهب السلطان الشاب بدلاً من الحج، الى الكرك وارسل من هناك خطاباً الى " الوصيين " في القاهرة، يعلن فيه تنازله عن العرش.

تعاطف قسم كبير من المماليك، ومن الناس في القاهرة، مع الناصر. مع تنازله عن العرش أصبح جلياً ان الصراع المكشوف على العرش لم يعد يمكن تجنبه. فقد بدأ المماليك البحريون يجهزون انفسهم على عجل للمعركة. أمر سالار، الذي لم تكن لديه قوات كافية، مماليكه بالتزام الهدوء.

عقدت طبقة المماليك الحكام اجتماعاً في بداية نيسان عام ١٣٠٩. فقد اضطر المجلس الى انتخاب سلطان جديد. حضر سالار الى القلعة محاطاً بحشد من حراسه ومسانديه ودخل قصره ( قصر الحاكم العام لمصر ونائب السلطان ). كما حضر بيبرس وكل الامراء الكبار. تحدث العديد من الأمراء عن ضرورة ان يكون سالار هو السلطان. نهض سالار وقال بدبلوماسية " ايها الأمراء! اشك في انني قادر على ان اصبح السلطان. ان صديقي بيبرس موجود هنا وهو مرشح اكثر أحقية " هتف البرجيون الذين ملأوا القاعة " الأمير على حق!" رفعوا بيبرس، اركبوه على الحصان، وضعوا بردة السلطان السوداء على كتفيه وقادوا الحصان خلال شوارع القاهرة. ركب المنادون من العامة أمامه، يعلنون ان بيبرس قد تم انتخابه ليكون السلطان.

## السلطان بيبرس جاشانغير

اضطر سالار وبقية الامراء ان يقسموا يمين الولاء للسلطان الجديد. ارسل سفراء الى حكام الولايات حاملين انباء استقالة السلطان الناصر محمد وانتخاب السلطان المظفر بيبرس.

لم يكن بيبرس سياسياً. كان يفترض فيه، عندما رأى تعاطف أغلبية المماليك والسكان مع نجل قلاوون، أن يتركه بحاله.

لكنه فعل العكس تماماً: أمر قائد الكرك ان يصادر الأملاك القليلة التي بقيت في يد الناصر.

الواضح ان هذا العمل اقنع الناصر أن بيبرس لن يتوقف حتى يدمره، فكتب رسائل الى مؤيديه يدعوهم الى الاجتماع. وقف كل الحكام السوريين الى جانبه، ماعدا تينكيز، حاكم دمشق (يحتمل ان تينكيز واكوش، ولقبه "قاتل الأسد" هو نفس الشخص). من القاهرة نفسها، بدأت جماعات جديدة من الأمراء تغادر الى سورية للانضمام الى السلطان المهان.

زحف الناصر على دمشق واحتلها بدون قتال. قابله سكان المدينة في الشوارع مهللين. استسلم تينكيز وعفا السلطان عنه. بدأت مسيرة احتفال النصر في القاهرة. اعلن سالار بصوت عال، ولاءه للقلاووني الشاب، وهو الذي يحتمل أنه أدى نصيبه في تأليب الناس ضد بيبرس، وبدأ التحضيرات لحفل استقبال مهيب.

ادرك بيبرس استحالة وضعه، فغادر القاهرة بصحبة مماليكه الخاصين واختفى في واحدة من الضياع النائية. تجنب بعمله هذا قيام حرب بين البحريين والبرجيين.

بعد ان جلس على العرش للمرة الثالثة، خشي الناصر محمد من ثورة المماليك البرجيين، لذلك اصدر مرسوماً بالعفو عن بيبرس جاشانغير وتعيينه نائباً للسلطان في سوريا. عندما سمع بذلك، وصل بيبرس الى غزة، لكنه القي القبض عليه واعدم في وقت لاحق. كان مصير " صديقه " سالار مشابها، لكن ذلك حدث بعد وقت لاحق.

## الصراع الفاصل

منذ العام ١٣١٠ ( وفاة بيبرس جاشانغير ) وحتى ١٣٧٥ (عندما اصبح برقوق وصياً)، رفع المماليك البرجيون العديد من السياسيين والقادة البارزين، الذين وصلوا الى ذروة السلطة في السلطنة، ولو كان ذلك لفترة قصيرة. عند نهاية حكم الناصر، كان اكثر الامراء نفوذاً هو قوصون التتاري، الذي جمع حوله ثلث الجيش المملوكي، ثم باشتاك، وهو شركسي، قائد البرجيين وصنيعة تينكيز، المذكور سابقاً.

يخبرنا وليم موير عن وصي شركسي للحاجي ذي السنوات الخمس عشره ( ١٣٤٦ )، الذي أوصل ابناء قبيلته الى ارفع المناصب في البلاط. اتهمته المجموعة المعارضة بمؤامرة

ما، فنفي الى غزة بأمر من السلطان وقتل هناك سراً. توزع مماليكه الشخصيون، وكل البرجيين، بين الكتائب البحرية.

يقول عبد سعيد ان اسم هذا الوصي هو جيرلاي. بوفاته، انتهى وجود مؤسسة المماليك البرجيين رسمياً. على أية حال، حافظ المماليك الشراكسة على استقلالهم ضمن إطار " البحريين " واستمروا في اعتبار انفسهم برجيين .

يقول السيرجلوب " جرى استيراد الفتيان الشراكسة حتى منذ ايام الملك الصالح ايوب، ولكن يبدو انهم ظلوا اقلية حتى ما بعد الملك الناصر محمد. يعتقد أن بيبرس جاشا نغير كان شركسياً، وان التنافس بين القبجاك والشركس بدأ يظهر منذ هذا الوقت فصاعداً. تطور الصراع على السلطة بعد وفاة الناصر محمد. اثناء حكم السلطان حسن، تناقص عدد الشراكسة، لكنه ارتفع اثناء حكم الحاجي. استغل الشراكسة الولاءات العرقية لمساعدة بعضهم بعضاً.

"كان الشراكسة تآمريون ويرفعون بعضهم بعضاً دائماً. بالاضافة، كثيراً ما جلبوا اقاربهم البالغين من القفقاس وجعلوهم امراء في الجيش بدون المرور بسنين طويلة من التنظيم والتدريب منذ الصغر، الأمر الذي شكل اساس النظام المملوكي التركي.

"يحتمل ان ثورة يلبغا ومنتاش كانت، في قسم منها على الأقل، ثورة الاتراك ضد السيطرة الشركسية التي اسسها برقوق. لو لم يقف القائدان احدهما ضد الآخر، لربما استطاع الاتراك ان يستردوا سيطرتهم وتم اخضاع الشراكسة ".

عام ١٣٤٧، وبعد إزاحة الحاجي، حاول المماليك الشراكسة انتخاب حسين الى العرش، لكن اجتماع الامراء فضل ترشيح حسن ( ١٣٤٧ - ١٣٥١ ).

حكم الامير الشركسي تاز امبراطورية المماليك شخصياً لمدة ثلاث سنوات. بعده، جلس صالح، نجل الناصر على العرش ( ١٣٥١- ١٣٥٤ ). لم يكن قيام تاز بثورة تأييداً له في آب عام ١٣٥١ وليد الصدفة. فبعد ان اصبح وصياً، والدكتاتور فعلياً ، اصطدم تاز بمعارضة كبار الامراء البحريين. كانوا برئاسة بايبغا أروس، الحاكم العام لحلب. احتلوا دمشق ونهبوها. زحف تاز على سوريا بجيشه. شكل البرجيون وقتها العمود الفقري للجيش فهزموا الامراء السوريين وهرب بايبغا شمالاً نحو التركمان. قدم له كاراجا ابن دلغادير، حاكم امارة البستان التركمانية في آسيا الصغرى الحماية. هزم تاز القوات المسلحة المتحدة لخصومه ونهب البستان ثم عاد الى القاهرة. حصل اثناء غيابه انقلاب في تشرين الأول عام

١٣٥٤ بقيادة الامير شيخو، احد القادة البحريين. اجلس ابن آخر للناصر حسن على العرش صغيراً. (للمرة الثانية). قاتل تاز ومماليكه رجال شيخو لدى عودتهم من رحلة صيد، لمدة يومين في شوارع القاهرة، لكنهم لم يتمكنوا من التغلب عليهم. نتيجة لذلك، توصلوا الى تسوية تنازلية، أصبح بنتيجتها تاز حاكماً عاماً لحلب، وبقي حسن على العرش.

باختصار، بدأت الغلبة تنتقل تدريجياً ولكن بثبات في السلطنة المملوكية من ايدي البحريين الى البرجيين الشراكسة وصنائعهم. رغم ذلك، فقد انحسرت سلالة القلاوونيين بوفاة الناصر. عام ١٣٦٥ قام القبارصة باحراق الاسكندرية وتدميرها، بعد أن ارتكبوا فيها مذبحة. فقد قام بيير الأول دي لوزينيان، ملك قبرص الذي كان يعد لغزو مصر منذ زمن طويل، بتجنيد محبي الكسب السريع و المتشددين دينياً من ارجاء اوروبا. تلقت هذه الحملة الصليبية الجديدة ضد المماليك بركات البابا، رغم انها نفذت باسلوب اعمال القرصنة العادية. رأى ملوك اوروبا في تدمير مدينة كبيرة من رعايا المماليك، نصراً كبيراً للجيش المسيحي. ترددت اصداء هذه الاحداث حتى وصلت الى موسكو. حتى سجلات ترويتسكي ونيكونوفسكي تخبرنا عنها تحت احداث سنة ١٣٦٦.

خلال هذه الفترة، كان السلطان الأشرف ناصر الدين شعبان الذي يتعاطف مع الشراكسة، على العرش المصري. هو حفيد الناصر محمد ونجل حسين، الذي حاول المماليك الشراكسة ان يجلسوه على العرش عام ١٣٤٧. اصبح زمن حكمه فترة الإنحسار للمؤسسة البحرية وصعود سلطة برقوق الجركسي السلطان القادم ومؤسس الدولة الشركسية، الى القمة.

كما رأينا، فان ما سمي بالسلالة المملوكية التركية كان ذلك بالاسم فقط. ويبدو ان سبب تلقيها هذا الإسم هو نتيجة سيطرة العنصر التركي في النظام المملوكي أصلاً. على اية حال، فقد كان في الواقع أول سلطان ومؤسس السلالة البحرية هو بيبرس البندقداري المملوك البحري الشركسي. كذلك ثبت السلطان قلاوون، وهو شركسي آخر، سلطة تلك الجماعة الحاكمة بتأسيس المماليك البرجية كثقل مقابل المماليك الاتراك او البحريين. حتماً، كانت هناك اوقات مال فيها ميزان القوى لصالح الاتراك، لكن الغالبية العظمى من السلاطين، الذين حكموا السلالة المسماة بالتركية من عام ١٢٦٠ وحتى ١٣٨٢، كانوا مماليك شراكسة.

حكم قلاوون وابنه ناصر الدين محمد من الاميرة المغولية اصلون خاتون مصر لمدة ٥٢ عاماً. في قصة النهضة الاسطورية للآداب والعلوم في المدينة، يرتفع اسم الناصر فوق الجميع.

بعد الناصر، حكم مصر ابناؤه التسعة على التوالي، مع أن أحداً منهم لم يحكم لمدة طويلة. وهكذا، بدأ المماليك الشراكسة يكسبون الصراع على السلطة داخل الامبراطورية.

## السلطنة الشركسية

في نهاية الصراع، استولت المؤسسة البرجية على السلطة في مصر بأن دعمت الامير برقوق الذي كان احد البحريين.

حسب المصادر العربية، فان اسمه الكامل هو الملك الظاهر ابو سعيد برقوق سيف الدين ابن انس الجركسي العثماني اليلبغاوي. أصبح برقوق سلطاناً على مصر عام ١٣٨٢. يبدأ وجود سلالة المماليك الشراكسة منذ ذلك الوقت.

لقد حكموا مصر لمدة ١٣٥ سنة. تبلورت قوتهم وانجازاتهم خلال ذلك الحكم. كسبوا الاحترام الهائل من دنيا الاسلام وحصلوا على لقب " قاهري المغول الوثنيين والصليبيين المسيحيين ". حكم هؤلاء المماليك الشراكسة امبراطورية تمتد شرقاً الى سيرينايكا، جنوباً الى النوبة ومساوا، غرباً الى جبال طوروس. باختصار، لم تكن هناك امبراطورية في الشرق الأدنى اكثر اتساعاً او أشد قوة من امبراطورية مملكة المماليك الشراكسة. كذلك قاموا بحماية المدن المقدسة في العالم العربي. في القرن الخامس عشر، اصبحت الامبراطورية العثمانية العدو الرئيس للمماليك الشراكسة.

اسهم اسلوب الحياة النبيل للمماليك في وحدة البلاد. كذلك، كانت طرق التجارة آمنة، خاصة في البحر الأبيض المتوسط، خلال حكم سلاطين المماليك الشراكسة، بغض النظر عن حقيقة كونهم في حالة حرب مع المغول والصليبيين.

كذلك احترم هؤلاء السلاطين المماليك العلماء والشعراء ورجال الآداب والفنون والحرف. كانوا مؤثرين لمدة ٢٠٠ عام في تحسين حياة المعرفة والفنون في القاهرة. بنى المماليك ١٥٠ مسجداً ومدرسة وضريحاً على أفضل التقاليد المعمارية في القاهرة.

## السلطان برقوق، مؤسس السلطنة الشركسية

ولد برقوق، مؤسس السلطنة " البرجية " الشركسية في اقليم زيخيا ( شركيسيا ) قرب

روسيا . حسبما يكتبه خوتكو. قبض القراصنة على الصبي بينما كان يرعى الخنازير، وباعوه الى تاجر رقيق، احضره الى كافا "مدينة الجنويين" وباعوا الصبي الى عثمان بن مسافر، التاجر الشهير ووكيل المماليك. علمه هذا التاجر الصلوات الاسلامية واخذه الى سوريا حيث باعه الى الامير يلبغا الحسكي. ومن هنا جاءت تسميات برقوق "العثماني" و "اليلبغاوي".

في ذلك الوقت، كان يعيش في بيت الأمير يلبغا ٤٠٠٠ مملوك: بعضهم محرر والبعض الآخر غير محرر. كان يلبغا الرجل الثاني في السلطنة ايام حكم حفيد قلاوون، الملك الاشرف شعبان. هناك، تدرب برقوق على استعمال الاسلحة، الفروسية وتعلم القرآن الكريم واللغة العربية. سرعان ماتفوق على اقرانه في كل الميادين بذاكرته الممتازة ومهاراته البدنية. على كل حال، توقفت رحلة نجاحه بشكل مفاجئ. فقد قتل مماليك من مجموعته يلبغا اثناء رحلة صيد وأمر السلطان باعدام المذنبين. وقع برقوق الصغير بين المشتبه بهم.

يعتبره موير قائد هذه الجريمة ومدبرها. لكن بيرتراندو مينانيللي، مؤلف سيرة حياة برقوق ومعاصره، لا يؤيد هذه الرواية. يضيف السيرجون غلوب هذه الحادثة كما يلي " جعلت السلطة يلبغا متسلطاً وسريع الغضب بشكل متزايد. اشتكى مماليكه لامراء آخرين، توسط هؤلاء لدى يلبغا. غضب كبير الامراء واقسم على الانتقام من مماليكه.

يوم التاسع من كانون الاول عام ١٣٦٦ ، حاول مماليكه ان يقتلوه لكنه هرب. بعدها اقسم مماليكه يمين الولاء للسلطان شعبان.

تحولت ثورة بيتية داخل منزل يلبغا في هذا الوقت الى منازلة بينه وبين السلطان الفتي. أمر كبير الامراء الخليفة بان يعلن عزل السلطان، لكنه تردد ورفض. يوم ١١ كانون الأول، استمر القتال طيلة النهار على جزيرة ارواد في القاهرة، استقبل السلطان العائد الى الضفة الشرقية بالهتاف الشعبي.

يوم الرابع عشر من كانون الأول عام ١٣٦٦، يئس يلبغا وعاد الى بيته، حيث القي القبض عليه وسجن في القلعة. لكن مماليكه الشخصيون اقتحموا السجن وقتلوه .

حسب رأي خوتكو فقد خشيت اغلبية المماليك اليلبغاويين من الانتقام، وتفرقوا في انحاء سوريا، وكان برقوق من بينهم، تشرد معه شقيقه بارتشا (بركه)، المعروف بطبيعة النارية ومزاجه الحاد.

في احدى الرحلات الى دمشق، واجها أسداً نصف متوحش، مربوط برسن من الجنزير. ركع هذا الأسد فور مشاهدته لبرقوق بين الحشد. فسرت هذه الحادثة على ان برقوق

سيصبح سلطاناً في المستقبل.

في دمشق، دخل برقوق وبركه في خدمة الامير منجق، الحاكم العام للمدينة. عامل الرجل ابناء قبيلته معاملة حسنة وبدأ يوكل برقوق بمسائل ذات أهمية.

عام ١٣٦٧ اصدر السلطان شعبان عفواً عاماً عن مماليك يلبغا واستدعاهم للعودة الى القاهرة جميعاً.

اضطر برقوق بدوره الى العودة. ودع سيده بحرارة ووعده بان يرسل أولاده له حتى يربيهم، فقد طلب منجق ذلك شخصياً.

استقبل السلطان ونجله، السيد الجديد لبرقوق وبركه، الرجلان بحفاوة في القاهرة. ترفع كلاهما مع صديق لهما هو جركس الخليل، الى رتبة أمير وبدأوا بدورهم بشراء مماليكهم. اخذ برقوق يقوي مركزة خطوة بعد خطوة، ويكتسب النفوذ في دوائر البلاط، بينما انصرف شقيقه بركه الى حياة اللهو والدعة، يصطاد ويتسلى.

عندما توفي السلطان شعبان اثناء اداء فريضة الحج، استدعى برقوق شقيقه بركه على الفور. تولى السيطرة على القلعة بمساعدة مماليكه وفعلوا كل ما هو ضروري من أجل إيصال سيدهم الصغير علي الى العرش. نتيجة لذلك حكم الملك المنصور علاء الدين علي الامبراطورية من عام ١٣٧٦ وحتى ١٣٨١. اصبح برقوق وبركه وصيين على السلطان الفتي وركزا كل السلطة الحقيقية بين يديهما.

تدريجياً، تولد انعدام الثقة بينهما. تنامى الى حد العداء المكشوف عام ١٣٨١. قام برقوق بوضع بركه في سجن الاسكندرية. حينما مات بركه هناك، ثار خمسة آلاف من مماليكه ضد الوصي. ولكن، بعد أن هدأوا في النهاية وتفرقوا في القاهرة، نزل عليهم برقوق على رأس قوة من مماليكه ومماليك السلطان وقتلوا كل واحد منهم تقريباً. فتح هذا العمل الطريق الى العرش أمامه.

بالإضافة الى استعمال قوته ودبلوماسيته، اكتسب برقوق التأييد الشعبي بدماثة خلقه أيضاً. اصبح برقوق القائد العام اثناء حكم الملك المنصور علي، وبدأ يعين الشراكسة في كل المناصب الحساسة في الامبراطورية. وهكذا بدأ حكم المماليك البحريين يصل الى نهايته.

يعترف السير جون غلوب ان يلبغا قد خالف ميثاق الشرف التقليدي المتبادل، والذي يقضي بان عليه ان يعامل مماليكه وكأنهم رفاق، وأنه بدأ يعاملهم بخشونة بحيث ارغمهم على ان يثورا ضده ويقتلوه. على أية حال، فهو يعتبر برقوق "المهندس الرئيس" لهذا "الانقلاب"، الذي خلق فوضى ثورية في القاهرة. صعد خلالها برقوق "من جندي نفرا الى أمير طبول"

ثم الى "أمير مائة" وأصبح دكتاتوراً شبه مطلق. خلال وقت قصير جدا.

خلال هذه الفترة، كان الصالح الحاجي، نجل شعبان، على العرش.كما يقول خوتكو: عام ١٣٨٢، طالب البرلمان المملوكي بإقالة الحاجي وتعين حاكم بالغ عاقل على العرش. رأى الجميع هذه القدرات في برقوق، بعد قليل من الاستياء، وافق اخيراً على قبول شرف ان يصبح السلطان.

## السلطان برقوق

يوم ٢٦ تشرين الثاني عام ١٣٨٢، عزل الملك الصالح الحاجي ونودي ببرقوق سلطاناً. أصبح لقبه الملك الظاهر برقوق اليلبغاوي العثماني. هو مؤسس السلطنة الشركسية أو "البرجية"، التي التي حلت مكان السلطنة التركية أو "البحرية". حسب رأي خوتكو، فقد حفلت فترة حكمه بالاحداث العاصفة الجسام، والتي أهمها على الإطلاق ظهور تيمور لنك على حدود الامبراطورية المملوكية. تصادفت فترة حروب فتوحات تيمورلنك، وهي اكثر الفتوحات قسوة في كافة الازمان، مع فترة ازدهار الغزوات الشركسية، وقد ترتب على هذا المقاتل العظيم ان يتعامل معهم تحديداً.

يروي الفلكلور الشركسي ان العصابات الشركسية اعتادت على الذهاب إلى خوارزم كل سنة، تنهب مدن تيمورلنك، تأخذ رعاياه أسرى وتغير على طرق القوافل. ربما كان هذا هو السبب الذي من اجله غزت جحافل تيمور لنك بلاد الشراكسة عام ١٣٩٥. السبب الآخر لها يحتمل أنه كان يرغب في ايذاء المماليك الشراكسة، الذين كادوا ان يبيدوا جميع قوات تيمورلنك المتقدمة في الصدامات الحدودية على شمال سوريا عامي ١٣٩٣ و ١٣٩٤.

بعد الاستيلاء على بغداد بوقت قصير، ارسل تيمور لنك نوابه إلى القاهرة، حاملين رسالة إلى السلطان المملوكي، جاء مضمونها وديا بصفة اجمالية. على اية حال، فقد قام برقوق باستضافة احمد بن عويس عدو تيمور لنك بحفاوة عظيمة، بدلا من الرد على رسالة تيمورلنك. كذلك أمر برقوق بإعدام السفراء. جاءت رسالة تيمورلنك الثانية ملأى بتهديدات شرسة موجهة إلى برقوق. وصفه برقوق في رسالة الرد ساخراً منه " ملاك الشر، الذي خرج من الجحيم الجهنمي ".

أخيرا، ذهب برقوق إلى سوريا منتصف العام التالي، على رأس جيش ضخم، وزحف من دمشق إلى حلب لمساعدة احمد بن عويس في محاولته العودة إلى بغداد. بقي في حلب بضعة أشهر. ثم اكتشف ان تيمورلنك قد تحرك باتجاه الشمال، فعاد إلى القاهرة في تشرين الثاني من عام ١٣٩٥.

وهكذا، تجنبت كل من مصر وسوريا أهوال الغزو المغولي، بفضل موقف برقوق الصلب وتحركاته السياسية الحكيمة. جلس برقوق على عرش السلطان في مصر وسوريا مرتين: ١٣٨٢ – ١٣٨٩ ثم ١٣٩٠ – ١٣٩٩ توفي يوم ٢٠ حزيران ١٣٩٩ في سن الستين. استقبل الشعب وفاته بحزن وندم صادقين.

عام ١٣٩٤، كتب برقوق، رئيس مماليك الاديغه، رسالة إلى أمير سمرقند يأمره فيها بعدم التدخل بين حلفاء مصر وسوريا. استشاط تيمورلنك غضباً منها، ورد على برقوق بقوله " نحن اعدادنا عظيمة. نحن نهزم اقوى الامم. اولئك الذين لا يقاومونا يبقون على قيد الحياة. اولئك الذين يرفعون أيديهم ضدنا، يندمون على ذلك لاحقاً...

لم ترهب هذه التهديدات برقوق. بدلاً من الخوف، أرسل برقوق جيشاً ضد حكام سمرقند. لكن تيمورلنك قرر أن لا يتصدى للمماليك الشراكسة و توجه لمقاتلة توختا ميش. يقول ابن حجري العسقلاني أن القبجاك انسحقوا عام ١٣٩٥، قبل ان تتمكن مساعدة السلطان من الوصول إليهم.

يقول البدر العيني أنه حينما تولى برقوق السلطة، كان عدد المماليك الاديغه قد وصل إلى حوالي الالفين. زاد ذلك الرقم على خمسة آلاف قرب نهاية حكمه.

يقول خوتكو: "برقوق هو أول حاكم لمصر يطبق سياسة انشاء دولة شركسية إثنية. وقد توجت جهوده على مدى السنين الطويلة في هذا الاتجاه بالنجاح: بحلول عام ١٣٩٥، احتل الامراء الشراكسة جميع مراكز الإمارة في السلطنة. اضافة إلى ذلك، فقد وصلت جميع المناصب الادارية العليا والوسيطة إلى ايديهم. لاقت المشاعر و التوجهات القومية الشركسية معارضة يائسة من الامراء التتار، لكن جميع ثوراتهم أخمدت.

يكتب السيرجون غلوب عن برقوق " في كثير من الاوقات، اعترفت به العديد من المدن البعيدة مثل تبريز، بغداد، الموصل، ماردين و سيواس حاكماً عليها لأنه كان الملك الوحيد الذي يتمتع بالاستقرار، لكنه كان اكثر فطنة من الانجرار إلى مغامرات عسكرية.... اسس حكمه استبدال السلاطين الشراكسة بالاتراك....

كتب فيليب حتي " بدأت مصر المملوكية تاريخها تحت سلطة حكام منتصرين ذوي كبرياء...."

جرت ممارسة طب العيون على اسس علمية في مصر وسوريا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر أكثر من أي مكان آخر في الدنيا. في ميدان العلوم الاجتماعية، كان الاسهام الرئيس للمماليك هو علم الاحياء...

أكثر المفاجآت السارة في الحقبة المملوكية... هي الانتاجية المعمارية و الفنية غير العادية في الحجم و النوعية التي لم تجد مثيلا لها... تلقت المدرسة المعمارية المملوكية تأثيرات سورية – ما بين النهرين حينما اصبحت مصر الملاذ للفنانين المسلمين الذين هربوا امام الغزوات المغولية ".

يقدم كثير من المؤرخين العرب والاوروبيين المماليك على انهم حكام قساة للامبراطورية. لدحض ادعاءاتهم، يشير السير غلوب إلى ابن طغري البيردي، الذي يصف الاحتفال بعيد المولد النبوي في القاهرة. "نصبت خيمة هائلة، جلس السلطان عند رأسها. جلس إلى يمينه ويساره كل من شيخ الاسلام، قاضي القضاة والمدرسون الدينيون. جلس أمراء المماليك في موقع أدنى من المدرسين الدينيين. نفاجأ، ونحن مهووسون بالقضية العرقية، حين نرى رجال الدين السوريين و المصريين، يجلسون في مرتبة أعلى من امراء المماليك. لم يكن العرق هو القضية العليا بالنسة لهؤلاء الناس. لا نستطيع ان نعتبر العصر المملوكي استبداداً عسكرياً على شعب مغلوب، ولكن أيضا لم تتساوى المجموعتين من الناحية السياسية. لم يكن وارداً مطلقاً التفكير في أن يصبح مصري سلطاناً، مع أن المصريين تسلموا ارفع التعيينات المدنية حول السلطان.

عندما جلس الجميع، تلا المقرئون آيات من الذكر الحكيم. ثم " نهض الوعاظ وعددهم عشرين واحداً تلو الآخر وألقوا خطباً ". ضم الجمهور المستمع الصبور، الذي اصغى بإحترام إلى عشرين خطبة، أولئك الامراء العسكريون الذين نصنفهم نحن بكل سهولة بالفاتحين الأجانب القساة. بعد أن انتهت الخطب، قدمت وليمة فاخرة " تحتوي على اطعمة مختارة كثيرة إلى درجة لا يجرؤ أحد على محاولة وصفها".

بعد الوليمة، انصرف القضاة والأمراء، بقي السلطان مع قلة من خلصائه بصحبة الدراويش والمتصوفين، أو النساك المتدينين الذين استمروا في الأداء وقراءة القرآن والترتيل حتى الفجر. جلس السلطان يراقبهم مالئاً يده بالذهب الذي استمر في نثره بسخاء على المؤدين. وقف أمين الخزينة خلفه، يعيد تعبئة كفه عند الضرورة".

يمضي السيرجون غلوب فيضيف قوله " يذكر عن العديد من السلاطين أنهم لجأوا إلى الشيوخ ( رجال الدين ) للتباحث والمشورة. عندما نرى أن الحياة اختلفت في مصر القرن الرابع عشر عن طريقة حياتنا، فاننا نفترض ان الناس كانوا غير راضين بالضرورة ".

في معرض حديثه عن التفكير العربي " بطريقة مختلفة قليلا"، يختتم غلوب بقوله "عينت وانا ضابط بريطاني فتي... مسؤولا عن منطقة صحراوية. لكوني استلهم مثاليات "الديمقراطية"، جمعت الزعماء القبليين، ودعوتهم إلى حكم أنفسهم.

باتوا أبعد ما يمكن ان يكونوا عن الامتنان. قالوا " انت مدفوع لك لتحكم هذه المنطقة، فلم إذاً يتعين علينا ان نقوم بعملك نيابة عنك؟ " الأمر كله يعتمد على وجهة النظر. هؤلاء الناس ذوي مزاج يعشق الحرية بشغف و صريحين إلى أبعد الحدود. هم بعيدون جداً عن الخنوع. ولكن ببساطة غير مهتمين بشؤون الإدارة أو السياسة.

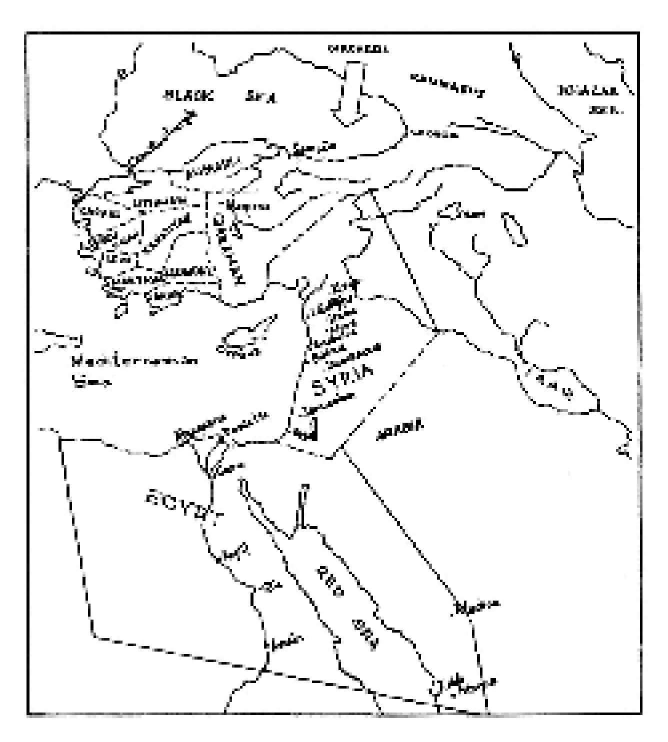
" كذلك، ربما، كان المصريون الذين يكرهون الحروب، قانعين بالسماح للمماليك ان يفتتحوا إمبراطورية لهم وان يبقوا المغول المتوحشين بعيدين عنهم".

**الامبراطرية المملوكية الشركسية**

خارطة الامبراطورية خلال حكم السلطان برقوق

يقول السير جون غلوب " يعتبر برقوق بشكل عام السلطان الشركسي الأول، مع ان بيبرس جاشانغير ربما كان من ذلك الجنس " حسب رأي ابن طغري بيردي " كان حاكماً عظيماً، قوياً، شجاعاً، نشيطاً، عاقلاً وخبيراً في التعامل مع المتاعب والصراعات والمعارك. " تغير من الثوري ايام شبابه الى المحافظ الفطن. كانت ضرائبه أقل ظلماً. أعطى ثمانية آلاف رغيف يومياً للفقراء في عام المجاعة. من بين الاشغال العامة المفيدة التي نفذها، بنى قناة

ﻓﻲ العرّوب، جسر فوق نهر الأردن وكلية ﻓﻲ القاهرة. قبل وفاته بقليل يوم ١٩ حزيران، اعلن برقوق نجله البكر الناصر فرج خليفة له على العرش. كذلك عين أميرين كبيرين، طغري بيردي وايتيميش البجاسي، مستشارين للسلطان الشاب - الأول نائباً له والثاني، قائداً عاماً.




**من بلاد الشراكسة الى مصر ( سلطنة المماليك )**

## السلطان الناصر فرج

أصبح نجل برقوق الناصر فرج سلطاناً يوم ٢٠ حزيران عام ١٣٩٩، ﻓﻲ اليوم الذي توفي فيه والده. ﻓﻲ ذلك الوقت، كان الظاهريون، مماليك والده، يشغلون كل المناصب الرفيعة ﻓﻲ المجلس وجميع مناصب نواب الملك ﻓﻲ سوريا ومصر.

مع الأسف، بدأت بعض جماعات المماليك تتصارع على السلطة، مستغلة صغر سن السلطان. حدثت الصراعات الاساسية بين المماليك من اصل يوناني والشراكسة البرجيين، الذين ظل قسم منهم موالياً للسلطان الشاب. ساهم عامل آخر ﻓﻲ اشعال هذه الصراعات، هو تصرف السلطان الشاب نفسه. فقد كان يستمع الى رفاقه الشباب بدلاً من الاصغاء الى

المستشارين ذوي الخبرة الذين عينهم والده . نتيجة لذلك ، استولى امراؤه الصغار على السلطة، ألقوا القبض على عدد من كبار الأمراء وسجنوهم في الاسكندرية. بدأ الأمراء ينظرون الى بعضهم بعضاً بالريبة. لم يعد امراء المائة يقبلون حتى بدخول القلعة. " ترك أمر الحكومة للسلطان ذي السنوات التسع ومماليكه الشباب.... على أية حال، في نهاية الأمر، تنازل الطرفان واقسموا على الولاء المشترك ". لكن سرعان ما انهارت الهدنة، حين ثار تانام الظاهري، نائب الملك في دمشق، وبدأ يأمر جميع النواب في سوريا بالخضوع له وليس للقاهرة.

سيطر الامراء الصغار، الذين كانوا في حوالي العشرين من العمر، على السلطان الصغير كلياً. يوم السادس من تشرين الأول، كان قد بلغ العاشرة من عمره، لكنهم اقنعوه بأنه قد بلغ السن القانونية وعليه ان يخبر الامراء بذلك. عندما أعلن السلطان الصغير عن رغبته للوصي عليه ايتيميش البجاسي، اجابة الرجل " كما تأمر ". وتبعاً لذلك، نظمت وثيقة تعلن أن السلطان في سن تخوله للحكم، لعدم وجود قوانين في مصر تحدد هذا الوضع بشكل خاص.

غادر الامراء القاهرة وانضموا الى تانام في دمشق. اندلعت الفوضى في جنوب مصر. رفض الجنود المسير الى هناك لإعادة النظام. على أية حال، اصطدم جيش مصر والحرس المتقدم للثوار في تل العجول خارج غزة يوم ١٥ آذار عام ١٤٠٠. انحاز نواب الملك في حلب وصفد وحماة الى السلطان. وقعت معركة في الجيتين. القي القبض على تانام وانهار العصيان.

يوم ٢٩ آذار عام ١٤٠٠ دخل فرج دمشق مع جيشه. قام صغار الامراء باعدام ايتيميش البجاسي، الوصي والقائد العام. حتى طغري بيردي، عم فرج، اجبر على الاستقالة والنفي الى القدس. كان معظم الامراء الذين اعدموا من اكثر المستشارين الذين تمتعوا بثقة برقوق.

بعد إخماد العصيان، دخل فرج الى القاهرة في موكب نصر يوم ٢١ أيار عام ١٤٠٠.

احيط تيمورلنك، الذي لم يخاطر بمواجهة المماليك اثناء حكم برقوق، علماً بوفاته وصعود السلطان الطفل الى العرش. حدث هذا عام ١٣٩٩. تحرك تيمورلنك الى تبريز على وجه السرعة، طرد التركمان " الغنم السوداء " منها واحتل سيواس من السلطان بايزيد العثماني في آب عام ١٤٠٠.



مملوك على جواد – باريس ١٨١٧
جان انطوان جروس



مملوك يحمل جريداً
كارل فيرني
( من الألبوم، وصف مصر )

خلال أيام اقترح بايزيد تحالفاً مع القاهرة ضد تيمورلنك. كان كارا يوسف واحمد بن عويس بدورهما جاهزين لمساعدة المماليك بفرسانهما البالغ عددها سبعة آلاف. لكن رفاق فرج الصغار، فشلوا في الاستفادة من هذه الفرص، لانشغالهم في مؤامرات مجموعاتهم.

يوم ١٦ ايلول، وصل تيمورلنك الى عينتاب، شمال حلب، داخل منطقة المماليك. في القاهرة تداعى المماليك الى اجتماع للامراء والقضاة على وجه السرعة. رفض القضاة في هذا اللقاء تمويل الحرب بدواعي دينية كما فعلوا ايام السلطان قطز. على الرغم من هذا الموقف غير الوطني الذي ابداه القضاة، قرر امراء المماليك الدفاع عن البلاد.

يوم ٢٩ تشرين الاول عام ١٤٠٠، قاتلت الحامية المملوكية جيش تيمورلنك في حلب، لكنها انهارت واضطرت الى الانسحاب. دخل المغول المدينة، سووها بالأرض وقتلوا كل الرجال والأطفال، وجمعوا النساء واعتدوا عليهن علناً. دخل ميران شاه، نجل تيمورلنك مدينة حماة وارتكب فيها نفس الفظائع. عندما سمع اهل دمشق الأخبار، حاولوا ان يهجروها خائفين، لكن امراء المماليك اغلقوا البوابات واوقفوهم. في هذه اللحظة الحرجة، وبينما ملأت النساء الباكيات الشوارع، وصل سفراء تيمورلنك الى المدينة، يطلبون استسلام دمشق. لم تكن لدى المماليك أية نية للخضوع للعدو. بدلاً من ذلك، بدأوا ينصبون المجانيق والمدافع على اسوار المدينة بتصميم قوي على الدفاع عنها. فجأة، سمعوا ان سلطان مصر قادم بجيشه.

مع ان حلب سقطت يوم ٣٠ تشرين الاول، لم تعلن التعبئة العامة في القاهرة حتى ١٥ تشرين الثاني. يوم ٨ كانون الأول، حينما وصل السلطان فرج بجيشه الى غزة، استدعى عمه، طغري بيردي من القدس، وعينه نائباً للملك على دمشق. نصح السلطان بعدم الاشتباك في معركة مفتوحة، واخبره ان دمشق قادرة على تحمل الحصار، ثم سبق الجيش على جواده ودخل المدينة خلسة قبل وصول تيمورلنك.

تحرك جيش السلطان من غزة يوم ١٤ كانون الأول و عسكر بالقرب من دمشق، سرعان ما وصل جيش التتار، وملأ الريف كله باعداده الهائلة. بدأت المعركة يوم ٣٠ كانون الأول. في البداية انسحقت ميسرة جيش المماليك، لكن الميمنة صدت هجوم التتار ودحرتهم، بوصة بعد بوصة، الى معسكرهم. كانت نتيجة المعركة التعادل. لم يواجه تيمورلنك من قبل عدواً يمكنه ان يوقف جيشه، كما فعل هؤلاء المماليك، الذين كانوا منقسمين مؤخراً وضعفاء نتيجة خلافاتهم الداخلية. لذلك، طلب تيمورلنك هدنة، لكن المماليك رفضوها.

بعد ذلك، شن تيمورلنك هجوماً على دمشق، لكنه تلقى هزيمة مكلفة. رأى ان الحصار سيطول، لذلك قرر ان يلجأ الى حيله. طلب من الدمشقيين إرسال رجل حكيم للبحث في هدنة.

عندما ارسلت دمشق ابراهيم بن مفلح احد قضاة دمشق البارزين اليه، اتخذ تيمورلنك وضعية تقية، واخذ يتمتم بالآيات ويداعب مسبحته. عامل القاضي باحترام كبير، وبعد ان اعلن نفسه مسلماً مخلصاً، عبر عن رغبته في اعطاء دمشق حريتها اكراماً للرسول (صلعم). أثَّر ذلك على القاضي الطيب، الذي عاد الى المدينة مسرعاً وأقنع مجموعته بالتوقف عن مقاومة الفاتح المخلص . وافق الجميع، ما عدا قائد حامية القلعة، الذي رفض أن يستسلم.

نجحت الخدعة. سمح لجماعة من جنود التتار بدخول المدينة. حتى ان القاضي جمع هدية قوامها مليون دينار للفاتح التقي، لكن تيمورلنك لم يعد كالسابق. رفض الهدية باحتقار وارغم القاضي على كتابة صك بعشرة ملايين.

سرعان ماملأ الجنود التتار المدينة. عين أحد الأمراء حاكماً لها. أبيدت حامية القلعة ابادة شبه تامة بعد تسعة وعشرين يوماً من المقاومة البطولية. اصبحت المدينة كلها تحت سيطرة التتار. بعد أن حقق الفاتح التقي غايته المنشودة، عاد الى طبيعة الوحش. منح جنوده حكماً حراً على السكان. انفلتت الطبيعة الوحشية للتتار على سجيتها. بدأوا بتعذيب وجلد الناس واحراقهم، حتى انهم اغتصبوا البنات والزوجات تحت أعين الازواج والآباء، في الشوارع والساحات وامام حشود الجنود. عندما قضوا وطرهم، ساقوا الباقين على قيد الحياة من الرجال والنساء، تاركين الأطفال دون سن الخامسة ليموتوا في الشوارع.

بعد ذلك، احرقوا المستودعات، المساكن، المساجد والقصور في المدينة. لم يبق من الجامع الأموي الذي بلغ عمره ستمائة سنة سوى بضعة جدران محترقة، رغم انه احد اجمل وأروع الأبنية في الدنيا. وهكذا، احال تيمورلنك احدى اقدم واجمل المدن في الدنيا الى كومة من الخرائب المدخنة. غادرها يوم ١٩ آذار ١٤٠١.

في القاهرة، استمرت المؤامرات السياسية بين الامراء. رغم ذلك، نظموا جيشاً جديداً في بداية آذار عام ١٤٠١. اخبرهم الشيخ المحمودي ،الذي أسره تيمورلنك ثم تمكن من الهرب، ان تيمورلنك قد غادر دمشق للعودة الى دياره. تم إعادة تعيين طغري بيردي نائباً للملك على وجه السرعة وأرسِل امراء آخرون الى هناك لتنظيم الإدارة.

زحف تيمورلنك على بغداد مروراً بحلب وماردين. بعد ان اشتهر بخداعه، توقفت المدن عن فتح ابوابها له. لذلك، احتل بغداد في ايلول عام ١٤٠١ بالقوة بعد مقاومة يائسة. بنى تيمورلنك فيها برجاً من مائة الف رأس مقطوعة من سكان المدينة، احتفالاً بالنصر التتاري.

يوم ٢٠ تموز عام ١٤٠٢، هزم تيمورلنك السلطان العثماني بايزيد خارج انقره. مات تيمورلنك يوم ١٩ شباط عام ١٤٠٥، في طريقه الى الصين. كان قد دمر الامبراطورية العثمانية وخرَّب شمال الهند. القوة الوحيدة التي استطاعت ان تقاوم حشوده الوحشية هي امبراطورية المماليك. على الرغم من كونها اضعفت كثيراً بالصراع على السلطة بين امراء المماليك اثناء حكم السلطان فرج، الا ان الامبراطورية صمدت.

رغم ذلك، فقد تهاوى الاستقرار السياسي للامبراطورية المملوكية. استمر الصراع على السلطة بين قطاعات الامراء المختلفة، مستغلين ضعف السلطان الصغير. حتى ياشباك، جاكام والشيخ المحمودي زحفوا على القاهرة من دمشق في أيار عام ١٤٠٥، لكنهم هزموا. في القاهرة نفسها، طالب الشراكسة بحكومة من الشراكسة وحدهم. كذلك طالبوا بالقبض على طغري بيردي الاناضولي، لأنه اتهم بالهروب الى خليل بن دو القادر، امير البستان التركماني. يوم ١٤ ايلول، تسلل طغري بيردي من القاهرة بصحبة مائة من مماليكه الشخصيين وهرب الى القدس. كذلك اختفى السلطان فرج في اليوم التالي. اضطر امراء المماليك الى التصرف بسرعة لخلافته لتجنب الفوضى الشاملة. ارسلوا في طلب الخليفة والقضاة ونادوا بشقيقه الأصغر، عبد العزيز، سلطاناً.

## السلطان المنصور عبد العزيز

الإبن الاصغر لبرقوق، عبد العزيز، نؤدي به سلطاناً يوم ١٤ ايلول عام ١٤٠٥. كان حكمه إسمياً، غير حافل بالاحداث، ولم يدم سوى شهرين وسبعة أيام.

عاد فرج الى الظهور في الشوارع يوم ٢٨ تشرين الثاني ١٤٠٥، وأعاده حشد من الامراء والمواطنين الى القلعة.

## السلطان فرج

بلغ السلطان الناصر فرج الثامنة عشرة من العمر، حينما اعيد تنصيبه على العرش للمرة الثانية. في البداية، ثار جاكام ضده واحتل دمشق يوم ١٧ حزيران عام ١٤٠٦، وهرب الشيخ المحمودي، نائب الملك في دمشق، الى القاهرة. فيما بعد، نودي بجاكام سلطاناً في حلب يوم ٢١ آذار عام ١٤٠٧. اعترف به في كافة انحاء سوريا، ماعدا صفد، حيث بقي الشيخ المحمودي موالياً لفرج. على أية حال، قتل جاكام اثناء قتاله التركمان قرب آمد يوم ٢٥ نيسان.

في القاهرة أيضاً، اشتكى ظاهريو برقوق من ان فرج استمر في شراء مماليك جدد واعطائهم الاسبقية على المحاربين القدماء ذوي الخبرة. راجت أيضاً اشاعات بان المماليك الملكيين يتآمرون لقتله.

يقول خوتكو: "خاض المماليك تحت قيادة بيبرس الظاهري، القائد العام للجيش المصري، عدة معارك دموية ضد الحشود الهائلة لتيمور، لكنهم اجبروا على الانسحاب لأن الصراعات الداخلية اضعفتهم. ابتدع بيبرس اسلوب حرب العصابات في سوريا، بينما كان المماليك يتقاتلون فيما بينهم في القاهرة. في التحليل النهائي، تحمَّل الشراكسة هذ الصراع على جبهتين. انسحب تيمورلنك من سوريا وقد حذرته الثورة التي اندلعت في بغداد، واستطاعت القوى البرجية الشابة من المماليك ان تخمد ثورة البحريين في القاهرة. وهكذا، اكد الشراكسة حقهم الحصري في السيادة على السلطنة المملوكية ".

خلال هذه الحقبة العاصفة، انطلق السلطان فرج الى سوريا ست مرات لإخماد ثورات مختلفة، بدون نجاح. المرة الأخيرة التي دخل فيها دمشق كانت يوم ٣١ تموز عام ١٤١٠، وحلب يوم ٨ آب. بقي في البستان حتى الاول من أيلول. رافقه طغري بيردي كقائد عام. في البقاع، طارد فرج الشيخ، الذي كان قد صمم على ان لا يقاتل السلطان، تجاوز الثوار وهجم عليهم، مشهراً سيفه بيده. ادرك، وقد غطته الجراح، ان قوة مرافقيه الصغيرة قد تخلت عنه. وقف بين الثوار مع مجرد ثلاثة من اتباعه. لذلك، ادار وجهة حصانه وعدا به عائداً الى دمشق، حيث وصلها يوم ٢٥ نيسان ١٤١٢.

طارده الثوار وحاصروا دمشق يوم ٢٧ نيسان. توفي طغري بيردي الذي كان راقداً على فراش الموت منذ مدة، في اليوم التالي. انحاز العديد من القضاة الى الثوار. قبض الثوار على الخليفة المستعين بالله واخذوا يضغطون عليه لقبول السلطنة. قاد فرج الدفاع بشجاعته المعهودة التي لا تعرف الخوف، لكنه خرج من القلعة يوم الثاني من حزيران عام ١٤١٢، مع نسائه واطفاله واستسلم. سجنوه في زنزانة، دخل عليه خمسة اشخاص وطعنوه حتى الموت يوم ٧ حزيران عام ١٤١٢.

توفي السلطان فرج عن عمر اثنين وعشرين عاماً. كان شركسي النسب، بقامة معتدلة، وشعر اشقر. حكم الامبراطورية المملوكية ثلاثة عشر عاماً.

اهتزت الامبراطورية خلال حكمه جراء الاضطراب السياسي ودمرها الطاعون الذي ضرب القاهرة سنوات عديدة. رغم ذلك، بنى السلطان الشاب ضريح برقوق. اصدر عام ١٤١١ قانوناً ضد استعباد الناس للمرة الأولى في التاريخ البشري.

## السلطان المستعين بالله

أعلن الامراء الثوار الخليفة المستعين بالله سلطاناً لسببين:

١ – لكسب تأييد الجيش والشعب من مجموعة فرج.

٢ – للحفاظ على السلم بين القائدين الثائرين: الشيخ المحمودي ونوروز الحافظي.

حسب الاتفاق المؤقت الذي تم التوصل اليه، يذهب الأميران سوية، في حاشية السلطان المستعين الى القاهرة، حيث يتسلمان سلطات ورتب متساوية.

فيما بعد، تم تعيين الشيخ المحمودي قائداً عاماً في القاهرة، وأصبح نوروز حاكماً عاماً لسوريا من غزة حتى الفرات بسلطة تمكنه من " تعيين واعفاء جميع الحكام والضباط، وتقدير الخراج ".

دخل السلطان – الخليفة المستعين القاهرة يوم ١٢ تموز عام ١٤١٢، سرعان ما دخل القلعة واتخذ القصر مكاناً لاقامته، حيث الفى نفسه وحيداً، بدون جهاز موظفين او واجبات. حتى سكرتيره الخاص اصبح مسؤولاً أمام الشيخ. لجأ الجمهور والجيش الى الشيخ وحده، الذي حصر كافة السلطات بين يديه، والذي يعين الأمراء ويرفعهم او يلقي القبض عليهم حسب ارادته.

في النهاية، ويوم ٦ تشرين الثاني، التأم مجلس من الامراء، القضاة وكبار المسؤولين وقرر بالإجماع أن واجبات الخليفة والسلطان غير متجانسة وان الخليفة يجب ان يعزل عن السلطة ويحل الشيخ محله.

## السلطان المحمودي

السلطان المؤيد الشيخ المحمودي شركسي. اسمه الحقيقي مؤيد شيخ قارموقه. كان في الثانية عشرة من عمره عندما اشتراه برقوق مقابل ثلاثة آلاف قطعة نقدية ذهبية من تاجر العبيد الشركسي المدعو محمود شاه اليزدي، ومن هنا جاء لقبه: المحمودي. الواضح ان برقوق دفع هذا المبلغ الهائل ثمناً له، لأن الصبي يتحدر من سلالة نبلاء. في ذلك الوقت كان برقوق قائداً عاماً. حين اصبح برقوق سلطاناً. اتخذ الصبي خادماً شخصياً له، ثم حرره وعينه حامل الكأس، ثم جعله أحد خلصائه المقربين، ثم رفعه الى رتبة أمير العشرة وبعدها أمير أربعين. فيما بعد، رافق الشيخ مع مماليكه الأربعين قافلة الحج الى مكة كل سنة. وهكذا احتصل على لقب امير الحج.... وهو منصب مشرف وفي غاية الأهمية. تم ترفيعه الى أمير مائة بعد وفاة برقوق بوقت قصير. اصبح نائباً للملك على دمشق بعد ثورة تانام.

أخلص الشيخ لبرقوق الذي رباه، ولعائلته بشدة. ذلك هو السبب الذي جعله يرفض القتال ضد فرج. عام ١٤٠٧، قام الشيخ بزحف سريع منطلقاً من صفد، وهزم الثوار الذين احتلوا غزة وجعلوا قضية السلطان تبدومنتصرة. مع ذلك، غادر فرج القاهرة في التاسع من تموز متجهاً الى دمشق، وبعد وصوله الى هناك، أمر بالقبض على الشيخ، الأمير الوحيد الموالي له في سوريا، فوراً. سرعان ما القي القبض على الشيخ، بالاضافة الى الأمير ياشباك، وسجنا في القلعة، لكنهما تمكنا من الهرب. تم اللحاق بياشباك وقتله، لكن الشيخ تمكن من الاختفاء في دمشق. بغض النظر عن ذلك، حينما غادر فرج دمشق يوم العاشر من ايلول عام ١٤٠٧، آخذاً معه ثمانية عشر أميراً يرسفون في السلاسل، وعاد الى القاهرة، خرج الشيخ من مخبئه واستولى على دمشق باسم السلطان. بدلاً من ابداء الامتنان، رفض فرج الاعتراف بولائه، واقسم على الذهاب ومقاتلته. مع ذلك، فعندما صوَّت الامراء على قتل فرج، كان الشيخ وحده الذي اعترض على مثل هذا الإجراء المبالغ فيه وأمر بالابقاء على حياته.

نودي بالشيخ سلطاناً يوم ٦ تشرين الثاني عام ١٤١٢، ثار نوروز الحافظي على ترفيعه في دمشق واستعد للحرب. لذلك اضطر السلطان الشيخ الى الزحف لإعادة الأمن والنظام الى امبراطوريته. وصل مع جيشه الى دمشق يوم ٢٩ نيسان عام ١٤١٤. أملى الشيخ رسائل على مساعدي امرائه طيلة الطريق من القاهرة، تعبر عن رغبة امرائهم الكبار في الانضمام الى نوروز وارسلها. صدقها نوروز وشعر بالارتياح للانباء الطيبة.

عندما اقترب الشيخ من المدينة، ارسل قاضياً محترماً الى نوروز طالباً منه هدنة. رفض الأخير الطلب وزحف خارجاً للقتال، مصدقاً أن جيش الشيخ مستعد للتخلي عنه والانضمام إليه. لذلك، تلقى هزيمة شنعاء في المعركة، التجأ الى القلعة وطلب السلم. تم التوصل الى الشروط. وافق السلطان على الابقاء على حياة نوروز فاستسلم.

يبدو من اللائق ان نشير هنا الى ان الشيخ، مثل الكثير من سلاطين المماليك الآخرين، الذين تم تصويرهم على شكل طغاة عسكريين، كان يهتم بشعبه بعمق. وسوف توضح الحادثة التالية هذا الأمر بجلاء: في آذار من عام ١٤١٩، حينما عاد الطاعون الى الظهور في القاهرة، نودي بصوم ثلاثة أيام في القاهرة. طبقه العديد من الناس لحين نهاية الجائحة. يوم الخميس ١١ أيار، ركب هذا السلطان " بدون سلاح ولا مرافقين، مرتدياً ثوباً من الصوف الأبيض مثل اي متصوف أو ناسك، الى السهل خارج القاهرة. مشى قاضي القضاة على رجليه، مصحوباً بجمهور غفير من القضاة، المدرسين الدينيين، الدراويش وقرابة جميع الاعيان من القاهرة القديمة، والجديده " كتب السيرجون غلوب.

"ترجل السلطان.... وأدى صلاة شكر صادقة لله تعالى.... مظهراً الندم على آثام الناس، والتي رأى الناس الجائحة كعقاب إلهي عليها. بعد الصلاة، عاد السلطان الى الركوب وتوجه الى ضريح – قبر السلطان برقوق، المقام على سهل قريب. اقيمت هنا وليمة، ساعد السلطان بنفسه على ذبح عدد كبير من الماشية... قدمت لحوم الأضاحي للفقراء، الذين تلقوا أيضا ثمانمئة وعشرين ألف رغيف. حسب قول ابن طغري بيردي، بدأت الجائحة تنحسر منذ ذلك اليوم.

"بعد اتمام الصلوات و توزيع الصدقات، ركب الشيخ عائدا إلى المدينة، وهو ما زال مرتديا لباس ناسك، بدون سلاح أو مرافقين. ضغطت عليه الجماهير الهائلة من جميع الجهات، ممسكين بلجام فرسه و ركابه، ويحتكون بجوانبه.

كذلك يجبرنا هذا المنظر على تعديل تقديرنا للمماليك كطغاة عسكريين والحقيقة أن ذلك أمر محتم. عمليا، أهتم جميع سلاطين المماليك، مثل الشيخ، بشؤون الشعب بعمق وعملوا من أجل رفاهيتهم.

اخمد الشيخ ثورات نواب الملك السوريين. كذلك، قام لوحده بتهدئة البلاد حينما بدأت غارات الحشود التركمانية المعادية عام ١٤١٧. إتضح الصراع ضدهم في اقاليم الامراء التابعين في آسيا الصغرى. قام الجيش المملوكي بعمليات عسكرية في الشمال تحت قيادة إبراهيم، نجل السلطان. استولى على قيصرية من امير كرمان في الاناضول. يقول خوتكو ان هرقلية، وطرسوس وأضنه ضمت حاميات قوية. " انزل إبراهيم ضربة قاصمة بكارايوسف، زعيم حشود الأغنام السوداء، وعاد إلى القاهرة بقافلة ضخمة من الأسرى والغنائم ". يقول السيرجون غلوب ان ابراهيم عاد إلى القاهرة في تشرين الأول عام ١٤١٩ وتوفي يوم ٢٧ حزيران عام ١٤٢٠. اقيم له حفل تأبين وعزاء في جامع المؤيد الذي كان السلطان قد فرغ من بنائه حديثا.

لم يعد الشيخ قادراً على المشي، شلت الآلام في قدميه قدرته على التحرك و اصبح محمولاً على محفة. صار يقوم بجولات متباعدة بالقارب في النيل، طلباً للتنزه. قبل وفاته، عين ولده أحمد سلطاناً، ولم يزد عمره على عشرين شهرا. أصاب قرار الشيخ هذا خلصاءه المقربين بالذعر. فقد خشوا انه سيعطي الفرصة لأمير خارجي ليستولي على العرش، فيبدأ هذا باضطهادهم.

نشأ فريقان متناحران نتيجة لهذا الوضع. ترأس الأمير تاتار أحدهما وترأس الآخر قوجار القردمي. كان الشيخ قد رفع تاتار، هو أحد مماليك برقوق ورفيق معسكر للظاهريين. أقنع

المماليك المؤيديين بأنه سيبقيهم في مناصبهم إذا وصل إلى السلطة. كان اعضاء الفريق المعارض التابعين لقوجار القردمي من اصل تتاري.

نظمت حملة ضد كارا يوسف، زعيم تركمان الاغنام السوداء في آب عام ١٤٢٠. فقد أصبح حاكما لتبريز و بغداد. أتم رجال القبائل المتوحشين التابعين له تدمير بغداد وكانت احدى أجمل مدن الدنيا وابرزها علوماً.

توفي الملك المؤيد الشيخ المحمودي جراء الإسهال يوم ١٣ كانون الثاني عام ١٤٢١، في سن الخمسين. اعاد حكمه القوي، الشجاع والحكيم، السلام والإزدهار إلى السلطنة المملوكية. لم تصل الامبراطورية المملوكية، التي دامت مائة و خمسة وستين سنة حتى ذلك الوقت إلى هذا المدى من القوة والإتساع.

يحمل ستانلي لاين – بول تقديراً عالياً جداً للسلطان المؤيد الشيخ المحمودي. إذ كتب أنه رأى" تهذيباً ورقياً متميزاً في الحضارة المادية واخلاصاً يدعو إلى الإعجاب بالفن لدى السلاطين المماليك. لم يكن الشراكسة أقل شأواً من اسلافهم الاتراك كمعماريين. كان بعض من ابناء الصف الثاني من السلاطين رجال ثقافة معتبرين، كانوا كذلك مسلمين بحق: يصومون، يبتعدون عن الخمر، ادوا مناسك الحج وضمنوا مكانهم في الدار الآخرة ببناء المساجد، الكليات، المستشفيات. فمثلا، كان الشيخ المؤيد رجلاً مؤمناً وشاعراً مثقفاً، موسيقياً، خطيباً وفوق ذلك، شديد البساطة وبعيداً عن التكلف في اسلوب حياته.

## السلطان المظفر أحمد

لم يكن أحمد، نجل الشيخ المؤيد المحمودي قد بلغ السنة الثانية من عمره عندما حمل إلى خارج الحريم، أجلس على حصان ونودي به سلطاناً يوم ١٣ كانون الثاني عام ١٤٢١، بحضور جميع الطبقة المملوكية الحاكمة. بعد الاحتفال، اعيد إلى الحضانة. اصبح تاتار، المملوك الملكي، الحاصل على تعليم قانوني، الوصي والنائب على السلطان الطفل. قام تاتار على الفور بسجن منافسه قوجار القدرمي، ذي الأصل التتاري.

اوائل شباط عام ١٤٢١، ثار نائب الملك في دمشق على سلطة تاتار. في ذلك الوقت كان الجيش المصري الذي ارسله الشيخ ضد الامير الكرماني، ما يزال موجوداً في سوريا. كان الامير الاكبر التون بغا، الذي لم يكن ولاءه مضموناً، قائداً لذلك الجيش. لذلك، خرج جيش مصري آخر من القاهرة وتحرك نحو سوريا، بقيادة تاتار، والسلطان الطفل بين ذراعي أمه. على أية حال، عندما وصلوا سوريا، استقبل التون – بغا، الذي فرغ لتوه من هزيمة نائب الملك الثائر، السلطان الطفل وقبَّل الأرض أمامه.

تأثر المؤرخ ابن طغري البيردي بهذا الأمير بشدة، فكتب: " هذا الامير التون-بغا، هو أحد تحف الزمان بذكائه، تواضعه، قيادته، كرامته وكرمه، المقرونة باللين واحترام الآخر والتواضع ". بكلمات أخرى، سيشكل مثل هذا الشخص معارضة خطيرة لأي شخص. ربما كان ذلك سبب مقتله على يد تاتار بعد بعض الوقت.

تحرك تاتار والسلطان الطفل من دمشق ووصلا حلب في تموز عام ١٤٢١. هناك تزوج تاتار والدة السلطان الطفل، وهكذا كسب تأييد المماليك المؤيديين وقوّى مركزه. بالاضافة إلى ذلك فقد حصل على الدعم الكامل من قبل مماليك برقوق الظاهريين. بعد ذلك، قام فجأة بالقاء القبض على "سبعة امراء مائة والعديد من امراء الطبول و العشرة، من مماليك المؤيديين وقضى على المعارضة دون إراقة الدماء. بعدها قام تاتار بعزل السلطان الطفل يوم ٢٩ آب عام ١٤٢١. ثم طلّق أمه رغم أنه لم يعاشرها سوى شهرين. توفي السلطان الطفل بعد أحد عشر عاما في الاسكندرية، حيث أرسله تاتار.

## السلطان تاتار

أصبح الأمير تاتار سلطاناً، وحمل لقب الظاهري، يوم ٢٩ آب عام ١٤٢١. هو شركسي الأصل. ركب عبر دمشق مرتدياً الشعار الملكي. قام بترقية بعض رفاق معسكره من المماليك ليحلوا محل الامراء المؤيديين الذين القي القبض عليهم.

قام بتنشئته وتعليمه أحد التجار، الذي باعه لاحقاً إلى برقوق. خلال حكم فرج، عمل محامياً ولعب دوراً بارزاً في مؤامرات وثورات عصره.

أصبح تاتار سلطاناً عادلاً وقديراً. وجه معاملته القاسية ضد منافسيه المحتملين فقط، مثلاً ضد المماليك الذين ظلوا مخلصين لآل المؤيد.

أصيب السلطان تاتار بالمرض يوم ٢٠ تشرين الأول عام ١٤٢١ ثم شفي. لكنه مرض مرة أخرى يوم السادس من تشرين الثاني. يوم ٢٨ تشرين الثاني، عين نجله محمد، الذي كان في العاشرة من عمره، خليفة له. توفي السلطان تاتار يوم ٣٠ تشرين الثاني عام ١٤٢١، فلم يحكم الإمبراطورية سوى أحد عشر شهراً – ثمانية كوصي وثلاثة كسلطان.

كان حكمه قصيراً، لكن تاتار أثبت نفسه حاكماً قديراً. عندما تسلم السلطة كان المماليك المؤيديون أقوياء جداً، لكنه إستبدلهم بمهارة وبدون إراقة دماء. أثرت دراسته للقانون والقرآن الكريم على شخصيته. لم يكن ضد اللجوء إلى الخديعة في السياسة، لكنه كان عطوفاً وودوداً تجاه خدمه. كان مقاتلا ومثقفا في نفس الوقت، "وشديد الإهتمام بالقانون، العلم، الفنون، الموسيقى والآداب".

## السلطان الصالح محمد

حُمِلَ الملك الصالح محمد ابن تاتار إلى العرش يوم ٣٠ تشرين الثاني عام ١٤٢١، في سن العاشرة. أصبح الأمير برسباي الدقماقي وصياً عليه. كما تم تعيين كبير الأمراء جانبيك الصوفي، القائد العام، نائباً للملك.

يوم عيد الأضحى الذي صادف في تلك السنة يوم الخامس من كانون الأول عام ١٤٢١، وبينما توجه كل مسلم للصلاة، تسلح جانبيك واتباعه استعدادا لقتل برسباي. عندما اكتشف برسباي المؤامرة، أرسل وفداً لإجراء التحضيرات ولدعوة جانبيك للحضور وبحث الأمر معه. قبل الأمير الأكبر الدعوة والإقتراح وحضر. بمجرد دخوله البيت، تم القبض عليه وتقييده، وهكذا تمكن برسباي بعد ستة أشهر من وفاة تاتار، من إخماد المعارضة ووضع جانبيك وكل اتباعه في سجن الإسكندرية، حيث كان يسجن خصوم السلطان الحاكم خلال عهد السلاطين الشراكسة.

وهكذا أصبح برسباي رئيساً للحكومة ورفع طرباي إلى منصب قائد الجيش. كان طرباي مساوياً له في المرتبة وقد ساعده في صراعه مع جانبيك. رغم كون برسباي رئيساً للحكومة، إلا أنه بدأ يشعر بأن منافسة طرباي له تنمو.

عقد صباح يوم ٢٦ شباط عام ١٤٢٢ استقبال صباحي في القصر. حضر الإحتفال برسباي والسلطان الصغير. ركب طرباي بدوره إلى القلعة مع حاشية كبيرة. قرر برسباي أن يتصرف . بعد وجبة الغداء المعتادة، نهض وقال للامراء والقضاة أن الحكومة لن تتمكن من الاداء بفاعلية حتى تقرر أن يكون لها حاكم واحد.

أجابه أحد الأمراء " أنت قائدنا. مرنا ما ترغب فيه!"

قال برسباي مشيراً إلى طرباي " اقبضوا على هذا الرجل!"

نفذ أمره على الفور، قبل أن يتمكن أصدقاء طرباي من شهر سيوفهم. بعد أن ربح تلك المنافسة، دعا برسباي الأمير تانبيك، الذي عينه نائباً للملك في دمشق، إلى القاهرة. عندما وصل، شرح له برسباي حاجة البلاد إلى حاكم فرد وأن تانبيك " بوصفه الأقدم في الخدمة والأكبر سناً يجب أن يكون ذلك الشخص.

صاح تانبيك "لا سمح الله!" ونهض من مقعده وانحنى لبرسباي.

## السلطان الأشرف برسباي

صعد برسباي إلى العرش يوم الأول من نيسان عام ١٤٢٢. كان قد اشتراه تاجر من القفقاس وباعه إلى الأمير دقماق، حاكم ملاطيا، الذي وهبه فيما بعد إلى برقوق كهدية. بعد وفاة برقوق، انضم برسباي إلى الأمراء الثوار: الشيخ ونوروز. عندما توفي فرج وخلفه الشيخ، أصبح برسباي أميراً لعشرة، ثم أمير طبول، ثم أمير مائة. عندما أصبح تاتار سلطاناً، عين برسباي سكرتيراً تنفيذياً، ومسؤلا عملياً عن الإدارة كلها. قبل وفاته بمدة قصيرة، عين تاتار برسباي وصياً على نجله. الأشرف سيف الدين برسباي واحد من أشهر العائلات المملوكية الشركسية.

ظل برسباي مخلصاً لرؤسائه إلى أن أصبح هو الملك. صحيح أنه سجن بعض معارضيه المحتملين في الإسكندرية، مثل جانبيك وطرباي، لكنه لم لم يعدمهم كما فعل الذين سبقوه. حتى أنه الغى تقليد تقبيل الأرض أمام الحاكم.

عندما أصبح برسباي سلطاناً كان الشراكسة يحتلون الأغلبية العظمى من مناصب السلطنة. وقد بدأوا، خلال حكمه، يقفون ضد بعضهم بعضاً، يشغلون ليس فقط مناصب مماليك السلطان، كما كان الوضع في السابق، بل أيضاً مراكز جماعات المعارضة. هذا الظرف بالذات هو الذي أدى إلى تهاوي عظمة السلطنة الشركسية عند التقاء القرن الخامس عشر بالسادس عشر.

وصلت الحروب ضد مصر إلى ذروتها في عهده. تزايدت أنشطة القراصنة الصليبيين. في آب عام ١٤٢٢، صادروا سفينة محملة من ميناء الاسكندرية. في عام ١٤٢٤ اسروا سفينتين محملتين بالنفائس من دمياط.

قام برسباي بالرد بأن صادر جميع املاك التجار الاوروبيين في الاسكندرية، ودمشق و دمياط أولا. ثم أرسل في تموز عام ١٤٢٤ " سفينتين من مصر وعدة سفن من طرابلس للبحث عن القراصنة الفرنجة " قامتا بنهب ليماسول في قبرص وعادتا إلى القاهرة بالأسرى.

بدأ برسباي ببناء اسطول حربي في كانون الأول عام ١٤٢٤. في حزيران عام ١٤٢٥، ابحرت ثماني سفن شراعية مزودة بمجاذيف من بولاق إلى طرابلس، حيث انضم إليها اسطول من أربعين سفينة، نزلت جنوب فماغوستا في قبرص، هاجموا المدن الداخلية، ينهبون، يحرقون ويأخذون الأسرى، وعادوا إلى القاهرة يوم ٨ ايلول عام ١٤٢٥، بسفن محملة.

يوم العاشر من أيار عام ١٤٢٦ قام اسطول مملوكي آخر من مائة سفينة بحملة بحرية أخرى ضد قبرص. احتل ليماسول ودمرها أوائل تموز. ثم زحف المشاة وفرسان المماليك

صعوداً في الساحل. حطموا الجيش القبرصي الذي قابلهم في تشويروكويتيا وأخذوا الفي أسير، بمن فيهم الملك يانوس نفسه، الذي كان يقود الجيش. يوم ١٨ تموز، عادت القوة المملوكية إلى سفنها متجهة إلى مصر. بعد أن أحرقت نيقوسيا، عاصمة قبرص، أخذت المزيد من الأسرى وعادت بالملك يانوس. جاء نصرها مكتملا.

في البداية، طلب برسباي من قناصل أمم الفرنجة خمسمائة ألف دينار ذهباً، فدية للملك يانوس، لكنهم لم يتمكنوا من جمع المبلغ. اتفقوا في البداية على مبلغ مائتي الف دينار ذهباً مقابل إطلاق سراح الملك. ولكن، بكل الأحوال، وافق الملك يانوس لاحقاً على أن يصبح تابعا للسلطان وأن يدفع له عشرين الف دينار ذهباً كل سنة. بعد اتمام الاتفاقية، اطلق برسباي سراح الملك يانوس، واعطاه بذلتين من ثيابه الخاصة. أبحر الملك إلى قبرص في نيسان من عام ١٤٢٧.

رفع النصر على قبرص من هيبة ومقام المماليك. فمثلاً، أرسل فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس في آذار عام ١٤٢٧ سفيراً إلى القاهرة لطلب الحماية من السلطان.

في تشرين الأول عام ١٤٢٩، عبر الشاه روح، حاكم تبريز، عن رغبة دينية، من خلال سفير أرسله إلى القاهرة "في ارسال كسوة للكعبة المشرفة، في مكة المكرمة" رفض برسباي بحزم أن يسمح له بهذا الشرف، فقد كان المماليك يحرصون على هذا الشرف بغيرة شديدة.

• • •

بين كانون الأول ١٤٢٩ ونيسان ١٤٣٠، عاث الطاعون وانتشر في مصر وسوريا، يقتل آلاف الناس يومياً ويوقف عجلة الأقتصاد. كان من ضحاياه الرئيسين صغار المماليك، والأطفال والأجانب. على أية حال، فقد قتل العديد من أمراء المماليك أيضاً وهكذا اضعف الجيش المملوكي بدرجة كبيرة.

• • •

في حزيران عام ١٤٣٢، وصلت انباء وفاة الملك يانوس، ملك قبرص في نيقوسيا، وان نجله يوحنا الثاني قد خلفه. على الفور، اجبره برسباي على اداء يمين الولاء. لم يكتف بالإذعان فحسب، بل وافق أيضاً على أن يدفع المبالغ المتأخرة للجزية السنوية واعلن نفسه مملوكاً للسلطان. نتيجة لذلك، عينه برسباي نائباً للملك في قبرص.

كذلك قام برسباي بعدة زيارات إلى المصريين الاثرياء لخلق المزيد من روح الألفة بين

المصريين و السوريين والمماليك. قال محمد البريزي عنه " كان الناس سعداء للغاية بسلوكه الممتاز في السلطة، بكفاءته، باخلاقه الجذابة، بكرمه وتواضعه الجم."

• • •

دأب كارا يولوك، حاكم " الاغنام البيضاء " في ماردين، آمد، أرضروم و دياربكر، على تهديد حدود المماليك، حتى حلب لسنوات عديدة. أخيراً أرغم برسيباي، الذي لم يكن يحب الحروب، على الاستجابة. غادر برسباي القاهرة يوم ١٢ آذار عام ١٤٣٣ على رأس جيش من المماليك الملكيين. زحف الجيش ماراً بحلب ووصل إلى آمد، دياربكر الحالية، عاصمة كارايولوك، يوم ٢٣ أيار عام ١٤٣٣.

لابد وان هذا الجيش المملوكي كان باعثاً على الرهبة. "عندما تقدم السلطان، قرعت جميع طبول الامراء في نفس الوقت " يكتب ابن طغري بيردي" وصدحت الأبواق بنفير واحد سوية، بحيث تغطى السهل باصوات الطبول والأبواق تدعو إلى المعركة.... امتدت الجيوش على مدى البصر.... ذهل سكان آمد من منظر هذه القوات.... البذخ الهائل في تجهيزاتهم، ألبستهم، خيولهم، وأسلحتهم".

توقف الجيش المملوكي عند الحاجز المائي للمدينة وبقي ثابتاً هناك لوهلة، وراياته تخفق. تردد كارايولوك في خوض المعركة. في النهاية اصدر برسباي الأوامر، وبدأ الجيش المملوكي يقصف الاسوار بالمدافع والمجانيق. " بعد خمسة وثلاثين يوما، عقد السلام على شرط أن يقبّل كارايولوك الأرض امام برسباي ويدخل اسمه في دعاء صلاة الجمعة ".

يوم الثاني من ايلول عام ١٤٣٤، ارسل شاه روح سفيراً آخر إلى برسباي، يخبره بقسمه على كسوة الكعبة الشريفة وطالباً مساعدته. مرة أخرى، جاء جواب برسباي سلبياً.

في هذه الأثناء، أخذ الجيش المملوكي يضعف نتيجة نقص التدريب الملائم وانعدام الإنضباط. كذلك فقد تردت الحالة الاقتصادية في مصر. لا شك في ان جائحة الطاعون قد اخذت حصيلتها من هذين الميدانين. بدأ صغار مماليك السلطان يتظاهرون في القاهرة، مطالبين ظاهرياً برواتبهم.

فجأة، ظهر جانبيك الصوفي في الاناضول، بعد أن هرب في وقت سابق من السجن في الاسكندرية في ايار عام ١٤٣٥، بعد ان تلقى دعماً من ابن دو القادر حاكم البستان وشاه روح، فقام جانبيك بمحاصرة ملاطيا.

مرض برسباي يوم ٢٩ كانون الثاني عام ١٤٣٨. قام بتسمية نجله يوسف خلفاً له بحضور الخليفة، القضاة والامراء، كما يسمى الأمير جقماق العلائي، نائباً للسلطان. توفي برسباي

يوم السابع من حزيران عام ١٤٣٨.

كتب عنه ابن طغري بيردي " كان سلطاناً عظيماً، كفؤاً، ذكياً، ومتديناً، ابدى عظمة هائلة في مسألتي المماليك والخيل. كان أشقر اللون، طويل القامة، نحيلاً، رشيقاً، بشعر أبيض لامع ومظهر وسيم. لم يكن يشتم او يستعمل الفاظاً نابية، بل ذو طبيعة سمحة ولطيفاً ".

بشكل عام، عاشت البلاد في سلام وازدهرت خلال السنوات السبع عشرة من حكم برسباي وامتدت حدود الامبراطورية من آسيا الصغرى الى ضفاف الفرات. بكلمات ابراهيم علي طيفان، دكتوراه في العلوم، اصبحت مصر مركز الثقافة الاسلامية للعالم الإسلامي.

## السلطان العزيز يوسف

أجلس يوسف، نجل برسباي على العرش يوم السابع من حزيران عام ١٤٣٨. خلال اسبوع بدأ الامراء المتنافسون يختصمون، متجاهلين سلطة السلطان الشاب ومهددين استقرار البلاد. بحلول هذاالوقت، تسببت اساءات مماليك برسباي صغار السن التي اقترفوها ضد كبار السن من المماليك، باثارة غضبهم وسخط الشعب.

تلقى كبير الامراء جقماق، الوصي على السلطان ذي الاعوام الاربعة عشر، الدعم الكامل من جميع الامراء والمماليك كبار السن. ركب يوم السابع من آب عام ١٤٣٨ الى القلعة، حيث تحصن الف وخمسمئة مملوك أشرفي صغير السن، لفرض النظام، وأرغمهم على الاستسلام خلال ثلاثة ايام.

يوم العاشر من ايلول عام ١٤٣٨، خلع الامراء السلطان يوسف ورفعوا جقماق على العرش. بقي يوسف، الذي حكم لمدة أربعة وتسعين يوماً، يعيش في القلعة.

## السلطان الظاهر سيف الدين جقماق

ترفع جقماق العلائي الى العرش يوم العاشر من ايلول عام ١٤٣٨. يقول خوتكو ان أسمه هو الظاهر سيف الدين جقماق. احضر من القفقاس وبيع الى اينال اليوسفي، القائد العام. لاحقاً، وهبه علي، نجل اينال الى برقوق الذي حرر جقماق وقرَّبه منه. كان جقماق في البداية حامل اكواب، ثم امير عشرة اثناء حكم فرج. اثناء حكم الشيخ اصبح امير الطبول. عين برسباي جقماق أميراً للخيل، ثم قائداً عاماً.

لم يكن قد مضى على جقماق اسبوعين في الحكم حين عاد مماليك برسباي الصغار الى الثورة مرة أخرى. قبض على ستين منهم وفرق البقية خلال ساعتين.

رغم ذلك، فقد انتشرت القلاقل في البلاد. ثار نائب الملك في دمشق خلال شباط عام ١٤٣٩. كذلك ثارت القبائل في حلب. هرب السلطان العزيز من القلعة وأثار مخاوف قيام حرب أهلية أخرى. اصبح السلطان مضطراً الى إظهار مقدرته على الحكم.

ألقي القبض على السلطان يوسف يوم ١٢ نيسان عام ١٤٣٩، وارسل الى الاسكندرية واسكن في شقة مريحة. بعد ذلك، أرسل جقماق قوة حملة من القاهرة إلى سوريا، هزمت القوة المتمردة لنائب الملك حاكم دمشق يوم ١٦ نيسان، وأعدمته. تكوَّن جيش السلطان من ستمائة وخمسين مملوك ملكي وعدد مماثل من المماليك الشخصيين. عاونهم عدد غير محدد من المقاتلين العرب غير النظاميين. تكوَّن جيش المتمردين من العرب والتركمان. لاحقاً، هزم الجيش المملوكي القوة المتمردة في حلب وأعدم الأمير المتمرد.

جائت المعارضة الرئيسة للسلطان جقماق من المماليك الأشرفيين صغار السن. واستمد قوته من دعم المماليك الظاهريين والمؤيديين.. مكنت القوة الأخيرة السلطان جقماق من إنهاء القلاقل في سوريا، ومعاقبة قادة المتمردين في دمشق وحلب، وإثبات أهليته للحكم.

بدأت سمعة السلطان جقماق تنتشر. قام زعيم البستان التركماني محمد ابن ذو القادر، الذي تمرد على برسباي سابقاً، بتقبيل الأرض في القاهرة في آذار عام ١٤٤٠. عامله السلطان بتشريف وتزوج ابنته. في أيار عام ١٤٤٠، عين السلطان جقماق خليل الشهاوي، وهو تاجر، مديراً على القدس والخليل. يوم ٢٤ أيلول عام ١٤٤٠، أرسل الشاه روح سفارة تحمل رسالة إلى القاهرة، يهنئ فيها جقماق على توليه العرش.

بقيت السفارة في القاهرة حتى ١٨ تشرين الأول. في ذلك اليوم "استدعي السفير إلى القصر وألبس "ثوب مغادرة" ذي فخامة استثنائية. كان مصنوعاً من قطيفة بوجهين، أحمر وأخضر، مع أكمام ذهبية مطرزة تبلغ قيمتها خمسمائة دينار. تلقى كذلك حصاناً بسرج من الذهب وغطاء من الحرير، وهدية ملكية من الحرير، السيوف المطعمة بالذهب ونفائس أخرى، تساوي قرابة سبعة آلاف دينار". وهكذا، أسس جقماق علاقات صداقة مع شاه روح، الذي سماه المؤرخ ابن طغري بيروي ملك الشرق.

من الناحية الأخرى، أرسل السلطان جقماق ثلاث حملات بحرية ضد جزيرة رودس. هزمت اثنتان منها، الثانية في ربيع عام ١٤٤٢. على كل حال، نزلت القوة البحرية الثالثة التي تحمل ألف مملوك ملوكي والعديد من المتطوعين، إلى اليابسة في رودس في تموز عام ١٤٤٤، ونهبتها بالكامل.

تدريجياً، بدأ السلطان جقماق يحظى بصيت ذائع حول رأفته، مجاملته وتقواه. لكن ذلك، على أية حال، لم يساعده في الحفاظ على الأمن والقانون في البلاد. فمثلاً، عندما ثار المماليك الشباب الذين اشتراهم في مهاجعهم بالقلعة، أخفق في اتخاذ أي عمل تأديبي ضدهم. نتيجة لذلك، بدأت إدارة الدولة تتفكك، وليس فقط الانضباط العسكري.

يوم ٢١ كانون الأول عام ١٤٤٤، تلقى القصر وفداً رسمياً كبيراً من شاه روح، يحمل الكسوة المطرزة للكعبة المشرفة. امتعض الأمراء والمماليك والعامة من الحفاوة التي أبداها بلاط جقماق للوفد. قابل الجماهير السفير، في طريق عودته إلى منزله، بالشتائم والحجارة. بعد ذلك، لحق بالسفير ثلاثمائة من مماليك السلطان صغار السن مع حشد من الرعاع حتى منزله، ثم نهبوا كل شيء بحوزته، إلى أن وصلت مجموعة من المماليك كبار السن وفرقتهم.

في هذه الاثناء، بدأ المسؤولون المصريون والسوريون يستخدمون نفوذاً متعاظماً، مستغلين غياب تطبيق القانون ومناصبهم. اخذت المؤامرات السياسية التي خلقوها تسيطر على الامبراطورية.

خلال آذار من عام ١٤٥١، تلقى السلطان سفارة من شاه جاهان ورحب باعضائها أربعة ايام. الشاه هو نجل كارايوسف والحاكم الجديد للاغنام السوداء في تبريز. يوم ١٧ أيار ١٤٥١، ارسل جقماق سفارة الى السلطان العثماني الجديد محمد الثاني، لتهنئته على اعتلائه العرش. لاحقاً، اصبح معروفاً باسم محمد الفاتح، الذي فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ و أخمد الامبراطورية البيزنطية.

يوم ٢٠ ايلول عام ١٤٥١، طالب المماليك الملكيون بزيادة " أموال ملابسهم ". في البداية، غضب جقماق من الطلب، لكنه دفعه لاحقاً وأعطى كل مملوك ألفا درهم بدلاً من الألف. وهكذا، بدأ المماليك الملكيون، الذين انشئ تنظيمهم للتقليل من القوات الأخرى وزيادة قوة السلطان الناصر، بدأوا يسيطرون على السلطان جقماق.

يجب أيضاً ملاحظة أن معظم الاضطرابات التي قام بها المماليك الصغار كانت موجهة ضد المسؤولين المدنيين، الذين كانوا من المصريين والسوريين. مثلاً، قبضوا على "ابو الخير" في الشارع، نزعوا عنه كل ثيابه وضربوه هناك، حتى تم انقاذه. كان قد ادخل نفسه تحت رضى السلطان واصبح مستشاره الموثوق، غنياً، متنفذاً، وقحاً ومتعالياً. اصبح الجمالي وهو مصري أيضاً، مسؤولاً عن المحفظة الخاصة، متنفذاً الى درجة رهيبة وصاحب تأثير على الحكومة وعلى جقماق.

بدأ جقماق حكمه بالحزم، حينما كان في الستين من العمر. بعد اخماد الثورات السورية، اصبحت علاقاته مع الدول الاسلامية المحيطة به سلمية بطبيعتها. كان جقماق قد نظم العلاقة مع روح شاه، نجل تيمورلنك، وسمح له باحضار كسوة الكعبة. احترم العديد من حكام آسيا الصغرى، الذين لم يخلصوا لتبعيتهم للسلطان، احترموه لدماثته وتساهله ودأبوا على ارسال السفارات حاملين الهدايا النفيسة والتأكيدات على ولائهم. طوَّر كذلك علاقات صداقة مع الامبراطورية العثمانية. ولكن، مع مرور الزمن، أصبح يقتنع بسهولة، متديناً بعمق، لطيفاً، محسناً وكريماً بما يفوق الحدود. لم يطلق عليه اسم جقماق المهذب عبثاً.

كتب فيليب حتي " تلقَّت مدرسة العمارة المملوكية التي تعود اصولها الى طراز النوري والايوبي، تأثيرات جديدة....شيدت قباب تتحدى المنافسة على خفتها، جمال خطوطها وثراء زخرفتها.... أمر مفرح أن اروع الامثلة على الابنية المملوكية قد بقيت... عينات رائعة من البرونز المزخرف لابواب المساجد، شمعدانات برونزية بتصاميم ارابيسك دقيقة...... فسيفساء متميزة في الزوايا واعمال نقش في الخشب في المنابر والمناضد تشهد على دولتهم المزدهرة". من بين هذه الفنون الأقل شأناً ليس هناك اكثر تفرداً وتميزاً من تزويق المخطوطات. ادوات فخامة كثيرة، اكواب، اطباق، صواني، ومحارق بخور تشهد باخلاص على صورة الحياة الراقية التي كتب عنها في السجلات المعاصرة..... قد وصلت الينا . زينت الاميرات الملكيات انفسهن باساور للكاحل ( خلاخيل )، اقراط، عقود وأساور.... من بين المماليك البرجيين، انفق جقماق ( ١٤٣٨ – ١٤٥٣ ) ثلاثة ملايين دينار في ثلاث سنوات.

يوم ٣١ كانون الثاني عام ١٤٥٣، استدعى السلطان جقماق الخليفة والقضاة الأربعة والامراء، اخبرهم انه سوف يتنازل وطلب منهم ان يختاروا خلفاً له. على الفور، اقسم الجميع يمين الولاء لعثمان، نجل السلطان، وانعموا عليه بلقب الملك المنصور. توفي جقماق في نفس السنة عن ثمانين عاماً.

## السلطان المنصور عثمان

جلس عثمان، نجل جقماق على العرش في سن الثامنة عشرة. بمجرد ان أصبح سلطاناً، طرد المماليك المؤيديين. ادى هذا العمل الى تحالفهم مع المماليك الاشرفيين.

صباح يوم ١٢ آذار ١٤٥٣، في اليوم الذي اقترح فيه السلطان الشاب توزيع العطايا على المماليك الملكيين، تجمع عدد كبير من المماليك المؤيديين، الاشرفيين والسيفيين خارج القلعة. قبضوا على كل الامراء الذين حضروا راكبين للمشاركة في الحفل الصباحي، بمن

فيهم القائد العام الأمير الاكبر اينال العلائي. ثم تنكروا لولائهم للسلطان عثمان وطالبوا بتنصيب اينال العلائي على العرش. رغم ان الاخير لم يقبل بذلك، إلا أن العصاة اصروا. يوم ١٦ آذار، اجتمع الخليفة والقضاة واصدروا مرسوماً بعزل الملك المنصور عثمان.

بعد ذلك، اختاروا اينال العلائي سلطاناً بالإجماع. اخذ عثمان في قارب الى سجن الاسكندرية يوم ١٩ نيسان عام ١٤٥٣.

## السلطان سيف الدين اينال

اختير سيف الدين اينال سلطاناً تحت لقب الأشرف. " ارتدى الثوب العباسي الأسود وركب في موكب مهيب الى القصر داخل القلعة، محاطاً بكل الأبهة الملكية " وجلس على العرش.

كان شركسياً. اشتراه برقوق من تاجر في القاهرة، ربما عام ١٣٩٧. عندما توفي برقوق، كان اينال بعد صبياً وتحت التدريب. حرره الناصر فرج وجعله أمير عشرة عام ١٤٢١. رفعه برسباي عام ١٤٢٢ الى امير طبول. اصبح عام ١٤٢٧ نائب الملك في غزة. صاحب برسباي عام ١٤٣٢ في حملته على آمد، اصبح بعدها حاكماً على الرها (ايديسا) بتردد. في السنة التالية، تم ترفيعه الى امير مائة. لاحقاً، اصبح السكرتير التنفيذي وعضواً في مجلس السلطان جقماق. وعين عام ١٤٤٥ في منصب القائد العام.

كانت فترة حكم السلطان إينال حقبة العربدة القصوى للمماليك الملكيين. فقد صاروا يعينون كبار المسؤولين لدى السلطان ويعزلونهم على هواهم. صار المصريون يلجأون مباشرة الى قادة مجموعات المماليك لحل مشاكلهم، بدلاً من الذهاب الى قضاتهم.

يجب الانتباه الى ان اسم السلطان مرتبط بشجرة عائلة امراء تشيركاسكي، كما يقول خوتكو، وعليه، فليس من الخطأ العودة مرة أخرى الى اصل الرجل الاسطوري إينال. يكتب ايه.آي ابدوكوف في مقاله " من اين أتى الاسم، قباردا؟ " " حسب التقاليد، جاء الجد الأسطوري لامراء الأديغة من مصر. قد لا يكون مستهجناً ان نذكر هنا انه من بين السلاطين المصريين لتلك الحقبة من سيادة المماليك الشراكسة، يصادف المرء اسم اينال، الذي كان سلطاناً عام ١٤٥٣. كان تيمريوك، نجل حفيد اينال، الامير الرئيس في قباردا اثناء النصف الثاني من القرن السادس عشر، اي... بعد مئة سنة لاحقة. اذا كان المرء يريد أن يستطرد بهذا الافتراض، يمكن ان نفترض ان هذا المملوك السلطان اينال هو تحديداً والد جد تيمريوك. عزل إينال من قبل اعدائه بسرعة، ربما يكون قد عاد الى وطنه الأم ". اكثر

الاحتمالات هي ان رواية عزل اينال التقطت من كتاب جاك فيران " اسماء عائلات الامراء في حقبة الامبراطورية الثانية لروسيا المهاجره " إن امراء تشيركاسكي هم من نسل إينال (الذي مات عام ١٤٥٣)، والذي كان احد السلاطين المماليك، الذين حكموا مصر من عام ١٢٥٤ الى عام ١٥١٧. بعد ما اطيح به عن العرش، هاجر اينال الى شمال القفقاس، حيث أسس دولة مستقلة في اقليم قباردا ". لكن الأشرف اينال لم يطح به أحد، توفي في القاهرة عن ثمانين عاماً (شباط ١٤٦١)، كما فعل سلفه وصديقه جقماق علي. كان هذا السلطان المملوكي الوحيد بهذا الإسم ولذلك فان محاولة تقصي نسله الى أمراء تشيركاسكي ستكون غير صحيحة. رغم ذلك، فربما يكون للأسطورة حول اينال، اساس تاريخي حقيقي.

اذا كانت هذه هي الحالة، فان اينال الذي قدم من مصر، لم يكن بحاجة لان يكون سلطاناً بالضرورة. نحن نعرف عدة معاصرين للسلطان اينال، حملوا نفس الاسم الشركسي:

- اينال اجرود، الذي ارسله برسباي ليحكم ايديسا، وربما كان أمير عشرة.
- اينال جقماق. قائد الاسطول المصري في الحرب ضد قبرص.
- اينال سيسماني، امير العشرة ونقيب في حرس القصر.
- اينال الظاهري، قائد قلعة صفد في سوريا. ثار اثناء صعود برسباي الى العرش. سرعان ما قبض عليه في كمين واعدم في القاهرة مع مائة مملوك آخرين.

كان بامكان أي من المماليك المذكورين آنفاً، ماعدا الأخير، ان يعودوا الى الوطن ويأخذوا هيئة سلطان مملوكي هارب، لكن احفاده على الاغلب اخترعوا هذه الرواية، كما يقول خوتكو.

خلال حكم الاشرف اينال، قام مماليكه الصغار بالعصيان مطالبين بزيادة رواتبهم. انضم الظاهريون الذين كان قد طردهم، اليهم، وارغموا الخليفة القائم على الانضمام اليهم. عند هذه النقطة، وبعد ان ادركوا مدى خطورة الوضع الذي أوجدوه، عادوا الى الطاعة. ففي نهاية المطاف، هم اوجدوا الاضطراب ليحصلوا على المزيد من المال من اينال، ولكن ليس لاسقاطه. سرعان ماتفرق المماليك الظاهريون، وسجن الخليفة في الاسكندرية وعاد الوضع الى طبيعته. في كانون الأول عام ١٤٥٦ تظاهر المماليك الشباب مرة أخرى طلباً لزيادة الرواتب ومنحهم السلطان طلبهم، بدون ان يعاقب احداً منهم.

في هذه الاثناء، قام القرمانيون الذين يحكمون المنطقة من قونيا الى قيصرية ويشكلون دولة حاجز بين المماليك والاتراك العثمانيين، بغزو اراضي المماليك قرب طرسوس. لذلك

ارسل اينال حملة ضد امير قونيه في حزيران عام ١٤٥٧. في نيسان عام ١٤٥٨، ارسل الأمير سفارة الى السلطان يطلب فيها السلام، وتم ابرام معاهدة.

عام ١٤٥٨، توفي ملك قبرص، وورثت ابنته كارلوتا، العرش. جاء جيمس، الابن غير الشرعي لذلك الملك، الى القاهرة " بحثاً عن دعم السلطان اينال، الحاكم الأعلى للجزيرة". استقبله اينال رسمياً في القصر " البسه ثوب الشرف ووعد بدعم مطالبته بالعرش ".

ظهر الطاعون في القاهرة في شباط عام ١٤٦٠، وصار يحصد أربعة آلاف نسمة يومياً. قتل كذلك الفاً واربعمائة مملوك ملكي.

أبحر الاسطول البحري الذي امر اينال ببنائه عام ١٤٥٨، باتجاه قبرص يوم ٥ آب عام ١٤٦٠، محملاً بقوة عسكرية وستمائة وخمسين مملوك ملكي. كانت مهمتهم وضع جيمس على عرش قبرص. لم تنجح المهمة، لكن جيمس بقي على الجزيرة مع قوة مملوكية.

يوم ٣ شباط، ١٤٦١، داهم المرض السلطان اينال. يوم ٢٥ شباط ، نادى الخليفة، القضاة والامراء بابنه الاكبر أحمد، خلفاً له. توفي يوم ٢٦ شباط عام ١٤٦١، في سن الثمانين، بعد ان حكم سبع سنوات وأحد عشر شهراً.

كان اينال شركسياً، طويل القامة نحيلاً. أبدى شجاعة كضابط عسكري. كان صبوراً، فطناً، هادئاً ويتكلم بهدوء كسلطان. لم يحسن القراءة والكتابة، لكنه عرف سكان الامبراطورية وطبيعة اراضيها واراضي جيرانها. لم تتعرض الامبراطورية المملوكية للثورات ولا الغزوات الأجنبية اثناء حكم السلطان اينال.

## السلطان المؤيد أحمد

وصل احمد، نجل اينال، الى العرش يوم ٢٦ شباط عام ١٤٦١، في سن الثلاثين. كان مفرط الطول، اشقر الشعر وسيماً. أثار منظره وهو يرتدي الاثواب العباسية السوداء اثناء الاحتفال بتنصيبه الاعجاب والإثارة الشديدين. كان القائد العام الامير خوش كادام الناصري.

عندما اصبح احمد سلطاناً، جدد المماليك المطالبة بزيادة الرواتب التي طلبوها من والده. ادرك جيداً انهم يتلقون رواتب مجزية، فرفض أحمد أن يزيدها. انضمت مجموعة المماليك الاشرفية التي تضم مماليك اينالية، الى مجموعة المعارضة للمماليك الظاهريين من اجل إسقاطه.

كان قائد الاشرفيين جانم، نائب الملك في دمشق، وقائد الظاهريين الأمير خوش كادام، وهو يوناني، وهو القائد العام الجديد. يوم ١٧ حزيران ١٤٦١، تجمع امراء المماليك الاشرفيين،

الظاهريين، المؤيديين والناصريين، واتباعهم في منزل خوش كادام. ألقى جانبيك الظاهري الشخصية الابرز بين الحضور، كلمة مؤثرة طالب فيها بازاحة السلطان احمد. وبما أنه لايمكن عزل سلطان الا باسم سلطان آخر، قال أنه يتوجب عليهم المناداة بسلطان آخر فوراً وفي نفس المكان. اقترح تعيين خوش كادام، على اساس انه غير شركسي، لديه القليل من الاصدقاء، ويمكن عزله بسهولة. نادى الامراء والمسؤولون المجتمعون خوش كادام سلطاناً، بعد أن وعدهم بان يتخلى عن العرش فور وصول جانم. في ذلك الوقت، كان جانم في دمشق. لكنه ارسل نجله الى مصر لكسب تأييد الامراء.

وصل الوضع السياسي في مصر الى هذا الحد بسبب ظهور الاحزاب السياسية للمماليك، المتنافسين على السلطة.

تنازل السلطان أحمد عن العرش صباح يوم ٢٨ حزيران ١٤٦١ لأنه وجد نفسه وقد تخلى عنه الجميع عملياً. لم يحكم سوى أربعة شهور. ترك بوابات القلعة مفتوحة والتجأ الى شقة والدته في القصر.

## السلطان الظاهر خوش كادام

تسلم خوش كادام العرش يوم ٢٨ حزيران عام ١٤٦١. كان يونانياً وكثيراً ما اسماه العرب الرومي. تم شراؤه صبياً في الاناضول حوالي عام ١٤١٢. اشتراه السلطان الشيخ، حرره ثم جعله مملوكاً ملكياً. اثناء حكم جقماق، اصبح خوش كادام حامل اكواب أولاً، ثم أمير عشرة. عام ١٤٤٦ اصبح امير مائة في دمشق. ثم عام ١٤٥٠ أصبح رئيس ديوان القصر. رفعه السلطان اينال الى امير السلاح وعضو المجلس. قاد القوة التي أرسلت ضد امير قرمان. أخيراً، عينه السلطان أحمد كبير الامراء والقائد العام.

الواضح ان خوش كادام لم يكن ينوي الوفاء بالوعد الذي قطعه على الامراء المماليك في يوم المناداة به. بعد أن اصبح سلطاناً، بدأ يرقي العديد من الأمراء ويمنحهم اقطاعيات من اجل كسب تأييدهم. منح جانبيك الظاهري الذي اقترح تعيينه سلطاناً، منصب السكرتير الأعلى للحكومة. أصدر أوامر باطلاق سراح يوسف وعثمان من سجن الاسكندرية وقدم لهم شققاً داخل القلعة حتى انه نزع القيود عن أحمد الذي اخذ مكانه، لكنه ابقاه في السجن. أخمد المماليك الظاهريين الذين ثاروا في تشرين الأول عام ١٤٦١، بسرعة. ثم عفا عن المسيئين رسمياً، لكنه فرقهم تدريجياً وكسر شوكتهم. ارسل بعضاً منهم الى قبرص، الى المماليك الذين يساعدون جيمس في حربه الأهلية. اوائل عام ١٤٦٣، اغتيل جانم في ايديسا.

في آب عام ١٤٦٣، اغتال صغار المماليك التابعين للسلطان خوش كادام، جانبيك، الذي كان يتمتع بتأييد إجماعي للظاهريين وبنفوذ عظيم. بعد ان تخلص بهذه الطريقة من جميع قادة المعارضة وصفى الاشرفيين، بدأ يقبض على اصدقاء جانبيك ويبعثر الظاهريين. باختصار، لم يبق حوله من يخشاه، لكنه ادخل موجة من الاغتيالات، التعذيب والاعدامات العلنية. فمثلاً، أمر في تشرين الاول عام ١٤٦٣ بتقطيع اثنين من صغار المماليك من عند الخصر، بزعم أنهما خططا لمؤامرة لقتله. وصل الأمر الى درجة شكه باخلاص المماليك الملكيين. لم يعد لديه احد من الامراء الكبار الذين يمكنه الاعتماد عليهم.

لذلك قام فجأة بالافراج عن الامراء الظاهريين الذين كان قد قبض عليهم، وأغدق عليهم العطايا. يوم التاسع من كانون الأول عام ١٤٦٣، عندما عادت قوة من المماليك من قبرص الى القاهرة بدون إذنه، أخفى السلطان انزعاجه وألبس القادة اثواب الشرف. قام صغار المماليك بعصيان مرة أخرى في كانون الول عام ١٤٦٦ مطالبين بزيادة المخصصات. اضطرت حكومة السلطان خوش كادام الى التوصل لتسوية معهم، بسبب كونها اضعف من ان تستطيع اخضاعهم.

في آب من عام ١٤٦٧، زحف الشاه سوار ابن ذو القادر، حاكم البستان، على حلب، كما قام أعراب بنو عقبة قرب العقبة، بنهب قافلة الحج العائدة من مكة المكرمة.

كما ثارت القبائل في أعالي النيل. على أية حال، كان السلطان اضعف بكثير من أن يتخذ أي إجراء.

يوم العاشر من تشرين الأول عام ١٤٦٧، وبينما السلطان ما يزال في سريره، يعاني من الدوسنطاريا. عقد كبار الأمراء اجتماعاً ونادوا بالأمير يلباي،القائد العام سلطاناً. في نفس اليوم، توفي السلطان خوش كادام عن قرابة خمسة وستين عاماً، بعد أن حكم لست سنوات وأربعة أشهر. ظل يضطهد المماليك الأشرفيين حتى آخر يوم في حياته.

## السلطان الظاهر يلباي المؤيدي

انتخب السلطان يلباي المؤيدي، الذي رفض قبول المنصب بداية، سلطاناً صباح العاشر من تشرين الأول عام ١٤٦٧، بعد وفاة خوش كادام. كان يلباي شركسي المولد. اشتراه الشيخ واعتقه. أصبح لاحقاً مملوكاً من برسباي، أمير عشرة، ثم أمير طبول أثناء حكم جقماق. رفعه اينال إلى أمير مائة. أثناء حكم خوش كادام أصبح كبير الموظفين، أمير الخيل ثم قائداً عاماً.

قبل وصول السلطان يلباي إلى العرش، استولى جيمس، الذي كان قد نزل في قبرص مع قوة مملوكية، على نيقوسيا وطرد الجنويين من فماغوستا. عام ١٤٦٤ احتل كيرينيا وأصبح جيمس الثاني ملك قبرص. في ذلك الوقت، كانت الملكة كارلوتا قد تنازلت عن حقوقها لدوق سافوي، قريبها. تبعاً لذلك، بدأ ملوك ايطاليا يطالبون بألقاب ملوك القدس وقبرص وأرمينيا.

في هذا الوقت، وبعد مجرد بضعة أيام من تولي السلطان يلباي العرش، وصلت التقارير إلى القاهرة تفيد بأن تركمان الشاه سوار بن ذو القادر قد هزموا القوات المملوكية في سوريا ونهبوا دمشق وحلب وكل القسم الشمالي من البلاد. هذا النصر التركماني كان مرده على الغالب إلى المساعدة التي تلقوها من بارد بيك، نائب الملك في دمشق الذي يحمل ضغينة ضدَ خوش كادام.

تجددت في منتصف تشرين الثاني عام ١٤٦٧ المؤامرات المعتادة التي سبقته ، قبل ان يتمكن من اتخاذ أي قرار حاسم. نشطت الاجتماعات السورية وتحالفات صغار المماليك. هدد الظاهريون الاقوياء بالقيام بانقلاب. ففي نهاية المطاف فإن السلطان يلباي هو مؤيدي. في هذا الوقت، اصبح المماليك المؤيديون مجموعة من كبار السن. لذلك تحالفوا مع الاشرفيين ضد الظاهريين.

مساء الثاني من كانون الاول عام ١٤٦٧ ، ذهب الظاهريون الى القلعة، وتجمع الاشرفيون والمؤيديون وكثير من الجمهور في المدينة. اصطدمت المجموعتان. مع استمرار القتال، قبض الظاهريون على يلباي الذي انضم الى مؤيديه. بعد ان سمع الاشرفيون النبأ، توقفوا عن القتال. يوم ٥ كانون الاول عام ١٤٦٧ ، عزل يلباي ونودي بتيمور بغا الظاهري سلطاناً. واضح ان سياسة احزاب المماليك بدأت تسيطر على الامبراطورية.

خرج صغار المماليك عن السيطرة. جنوب مصر في حالة عصيان. التركمان غزوا سوريا. رغم ذلك، استمرت الامبراطورية في الازدهار. تمتع السوريون والمصريون بثقافة عالية، كما يشهد بذلك انتاجهم الادبي والتاريخي الغزير، الذي ما زال بين ايدينا. كان ذلك عصر هندسة معمارية رائعة و لا يزال الكثير منها قائماً وماثلاً للعيان. كثر الطلب على الاعمال الفنية، وعاش ابناء الطبقة الغنية، امراء المماليك، كبار المسؤلين السوريين و المصريين و رجال الاعمال عيشة مترفة، يلبسون الحرير والساتان ويتزينون بالذهب والجواهر.

## السلطان الظاهر تيمور بغا الظاهري

أصبح تيمور الظاهري سلطاناً يوم الخامس من كانون الاول عام ١٤٦٧، و تم تعيين الامير قايتباي المحمودي الظاهري قائداً عاماً.

تيمور بغا عالي التعليم، جندي محترف، ذكي ومرح الحديث. كان خبيراً في شؤون القانون، التاريخ، الادب والشعر، افرج عن احمد وعثمان من السجن في الاسكندرية. كذلك افرج عن العديد من السجناء السياسيين.

هو من اصل الباني، اشتراه جقماق. حينما اصبح جقماق سلطاناً، جعل تيمور بغا مملوكاً مقرباً. عام ١٤٤٢ اصبح امير عشرة ثم سكرتيراً تنفيذياً ثانياً. اثناء حكم عثمان، اصبح السكرتير التنفيذي الاول. واصبح امير مائة اثناء حكم خوش كادام، ثم امير مجلس. اثناء فترة يلباي اصبح القائد العام.

اثناء احتفال تنصيبة، قام تيمور بغا بترفيع العديد من الظاهريين الى مراتب عليا. يوم ٣١ كانون الثاني عام ١٤٦٨، قام بعض المماليك الملكيين في القلعة بالقبض على السلطان وتسعة امراء ظاهريين وحبسوهم في زنزانة. ثم اعلنوا عن خير بك سلطاناً.

عندما سمع قايتباي، القائد العام بالخبر، جمع قوة لتحرير السلطان وهاجم بوابة السلسلة في القلعة. بينما اندفع قايتباي وقوتة داخل القلعة واستمر في التقدم، صاح احد امرائه " يعيش الملك المنتصر، قايتباي " وبخ قايتباي الامير، لكن آخرين رددوا النداء وقام بعضهم بتقبيل الارض امامه. كان ذلك انتخاباً اجماعياً وليداً للحظة وغير مخطط له.

## السلطان الاشرف قايتباي الظاهري

أصبح قايتباي الظاهري السلطان المملوكي الحادي والاربعين للامبراطورية في كانون الثاني عام ١٤٦٨. احتفل بتنصيبه في الاول من شباط، بينما تيمور بغا مازال يعيش في القصر.

كان تيمور بغا وقايتباي صديقين مقربين وزملاء ثكنة. شعر تيمور بغا بالارتياح العميق لان صديقه اصبح السلطان التالي. فقد عرف انه سيقتل لولا ان انقذه قايتباي. خاض الصديقان حديثاً خاصاً طويلاً وودع احدهما الآخر وداع محبة وهما يذرفان الدموع. اجيب تيمور بغا الى طلبه ، وهو السماح له بالاقامه في دمياط. بعد ذلك، ركب تيمور بغا وغادر مع عائلته. وهكذا فقد اصبح الضابط المخلص الذي انقذ سلطانه، يجلس مكانه بمحض الصدفة.

قايتباي شركسي العرق احضر الى مصر عام ١٤٣٥. اشتراه برسباي، لكنه اكمل تدريبه في عهد السلطان جقماق، الذي عينه سكرتيراً برتبه صغرى ومملوكاً مقرباً. هناك اصبح هو وتيمور بغا زملاء. جعله اينال امير عشرة. في عهد خوش كادام، اصبح امير الطبول ثم أمير المائة وأصبح قائداً عاماً في عهد تيمور بغا.

بعد تنصيبه بفترة قصيرة، أمر السلطان قايتباي بحملة ضد الشاه سوار ذو القادر. اضطر العديد من " اولاد الناس " الذين يمتلكون اقطاعات عسكرية، للالتحاق في الخدمة العسكرية. تلقى كل مملوك ملكي مشارك في الحملة مائة دينار. وهكذا تشكلت القوة العسكرية المنظمة بهذة الطريقة من الف مملوك وعشرين أمير. على أية حال، فقد هزمها الشاه سوار بن ذو القادر شر هزيمة شمال حلب في الاول من حزيران عام ١٤٦٨ واخذ القائد العام اسيراً.

بذل قايتباي جهوداً كبيرة لتنظيم جيش آخر، لكن القضاه رفضوا الافراج عن الاموال لاعتبارات دينية. مرة اخرى، اضطر " اولاد الناس"، اصحاب الاقطاعيات الى التجند. اخذ كل من يستطيع مجرد سحب وتر القوس الى الجيش، اوسمح لهم بدفع مائة دينار لإعفائهم. حرم الذين لم يستطيعوا ان يسحبوا وتر القوس من اقطاعياتهم.

كان السلطان قايتباي حازماً بعيد النظر. يمكن مقارنة حكمه بحكم بيبرس الاول المتميز. رغم ذلك، وبما ان سفير الامبراطورية العثمانية رفض ان يقبل الارض امام السلطان خوش كادام عام ١٤٦٣، فقد بدأت العلاقات العثمانية – المملوكية تتغير. وكانت العوامل المساهمه في هذا التغير: النمو المتواصل والقوة الاقتصادية والسياسية للامبراطورية العثمانية، انتشار المشاعر المؤيدة للعثمانيين في جميع العالم الاسلامي، والازمة العميقة التي استفحلت داخل السلطنة المملوكية.

ادت طموحات محمد الثاني، التي لاتعرف الحدود، بعد ان اتخذ لقب "سلطان" الى تردي العلاقات العثمانية المملوكية بدرجة كبيرة. ادى ضم قوتة الى الاملاك العثمانية الى وصول الامور لحد المجابهة السياسية. اصبحت كل من كيليكيا (ارمينيا الصغرى) والبستان ( كابا دوتشيا ) معترك الصراع بين الامبراطورتين. بذلت كل من القاهرة واسطنبول افضل جهودهما لتعيين صنائعهما في هاتين الامارتين. نظم العثمانيون حصاراً بحرياً من اجل اضعاف المماليك، منعوا بواسطته استيراد ملح البارود، المعادن، الاخشاب والعبيد.

اخمد طابور من المماليك العصيان في جنوب مصر بوحشية. كان حسن الطويل، حاكم الاغنام البيضاء، قد هزم "ابو سعيد" ابن حفيد تيمور لنك، وقتله، واحتل شمال بلاد

الفرس بكامله عام ١٤٦٧. بعد ان اصبح قوة قادرة على تهديد المماليك أو العثمانين، ارسل حسن الطويل (اوزون حسن)، سفارة متملقة الى قايتباي.

اثناء تعبئة حملة ضد الشاه سوار، اندلعت جائحة الطاعون في القاهرة. وقتلت عدداً هائلاً من المماليك. حتى بعد الزحف الى سورية، استمر الجنود يموتون يومياً. في حزيران عام ١٤٦٩، تم دحر شاه سوار وقتل اخيه في إحدى المعارك. بعد ذلك بوقت قصير، انهزم شاه سوار على يد أمير ملاطيا وابن رمضان، وهو زعيم تركماني من كليكيا، ظل مخلصاً لمصر. مع استمرار الحرب، تمكن حسن الطويل من هزيمة احفاد تيمورلنك وعاد الى آمير.

نظم السلطان قايتباي جيشاً مملوكياً جديداً في مصر. في اذار عام ١٤٧١، غادر هذا الجيش القاهرة الى سورية. في تموز من نفس السنة، استعاد هذا الجيش المملوكي بقيادة ياشبك الداودار: عينتاب واضنة وطرطوس. بعدها، دمر ياشبك قوات شاه سوار المسلحة في معركة مفتوحة على نهر سيحون. في حزيران عام ١٤٧٢، استسلم الثائر شاه سوار. عاد الجيش المملوكي الى القاهرة يوم ٢٤ اب عام ١٤٧٢، ظافراً منتصراً.

و لكن، وصلت انباء الى القاهرة بان حسن الطويل الذي هزم احفاد تيمورلنك، قد عبأ جيشاً لغزو سوريا. لذلك، انطلق الفان من المماليك الملكيين الى سوريا في كانون الاول عام ١٤٧٢، تحت قيادة ياشبك الداودار.

خلال هذه الفترة، كانت البندقية تحتل مستعمرات ومحطات تجارية في بحر ايجه. اصيبت بالذعر من القوة المتنامية للعثمانيين، فارسلت سفارة الى حسن الطويل، تشجعه على مهاجمة العثمانيين. هاجم حسن الطويل الاناضول عام ١٤٧٢، لكن جنوده ردوا على اعقابهم. رغم ذلك، فقد هدد هذا التفاهم الوليد بين البندقية وحسن الطويل كلا من الإمبراطوريتين المسلمتين: العثمانية والمملوكية.

في ذلك الوقت، علم العثمانيون ان الامير ياشبك وجيشه المملوكي قد هزموا قوة تركمانية على الحدود الشمالية، ارسلها حسن الطويل لمحاصرة بيرا. بعثوا برسالة الى ياشبك، يعرضون عليه المساعدة ضد حسن الطويل والاغنام البيضاء. كذلك ارسل العثمانيون سفيراً الى القاهرة لتنسيق الاجراءات ضد الاغنام البيضاء.

ظهرت في ايار عام ١٤٧٣ سفن الفرنجة امام دلتا النيل. وتحركت القوات العثمانية شرقاً ضد حسن الطويل. اشتد التوتر بين العثمانيين، المماليك، حسن الطويل والبندقية. ولكن، اعتذرت سفارة من حسن الطويل في ايار عام ١٤٧٤، عن اعماله الاستفزازية.

اندلع الطاعون في كانون الأول عام ١٤٧٦، و زادت حدته في كانون الثاني، راح ضحيته عدد هائل من المماليك والاجانب. بات يسبب الوفاة خلال اربع وعشرين ساعة. بحلول اذار عام ١٤٧٧، كان قد ازهق ارواح الفين من المماليك الملكيين.

يقول خوتكو: ان قايتباي زار سوريا عام ١٤٧٤. و يقول كراتشوفسكي" كانت الزيارة غير متوقعة اطلاقاً، وبقيت اسبابها سرية حتى للمشاركين مباشرة فيها. الواضح ان الغرض منها هو التفتيش على التحصينات الحدودية في حالة تقدم الاتراك من آسيا الصغرى الى سوريا. يضع السير غلوب هذه الرحلة في تاريخ متأخر ويصفها بطريقة مختلفة قليلاً. يقول " في تشرين الأول عام ١٤٧٧، غادر قايتباي الى سوريا بصورة غير متوقعة مع حراسة من مجرد اربعين مملوك، و عدد من الضباط و المسؤولين. بقي كل الامراء في القاهرة، و على راسهم الامير الاكبر اوزبك طاطاح، نائب الملك. يؤكد هذا الرحيل الواثق الى سوريا بدون جيش على الاستقرار الداخلي للإمبراطورية. اصبح التحسن في وضع الاستقرار داخل الامبراطورية منذ حكم خوش كادام أمراً باعثاً على الاعجاب.

بقي السلطان قايتباي في سورية اربعة اشهر. زار حلب، وصل الى الفرات، وقابل الكثير من الناس. عاد الى القاهرة اوائل كانون الثاني، وقد زادت شعبيته وقوته بدرجة كبيرة. زينت القاهرة على شرفه واخترق الموكب الملكي المدينة وسط مظاهر الترحيب والبهجة.

لكن، بدا وكأن الحكومة تفقد الاحترام الواجب لها. ثارت قبيلة الهواره، وهي من البربر المستعربين في جنوب مصر، لكنها طردت الى النوبة، يوم ٦ كانون الثاني عام ١٤٧٨، توفي حسن الطويل وتفككت امبراطوريته، امتدت امبراطوريته الواسعة التي حكمها من ديار بكر وشرقي الاناضول، بما فيها كل بلاد الفرس والعراق. ادت وفاة هذا الحاكم الى شعور المماليك بالارتياح.

عام ١٤٧٩، ذهب قايتباي لاداء فريضة الحج، واستخلف في القاهرة اميرين اكبرين: ياشبك واوزبك.

عام ١٤٨٠، ثار سيف، شيخ قبيلة الفضل البدوية في الصحراء السورية، وهزم نائب الملك في حماة وقتله. خرجت قوة عقابية بقيادة ياشبك على رأس خمسمائة مملوك ملكي. هرب سيف الى الرها، التي كانت تحت حراسة حامية من الاغنام البيضاء بقيادة يعقوب، نجل حسن الطويل. زحف ياشبك على الرها لكن الحامية التركمانية هزمت الجيش المملوكي في كانون الأول عام ١٤٨٠ وأسرت ياشبك ونائبي الملك في دمشق وحلب اضافة الى عدد كبير من جنودهم.

سمى ابن اياس هذه الهزيمة الاكثر اهانة للجيش المملوكي على الاطلاق. ربما لم يأخذ بحسبانه الحصيلة الرهيبة التي أخذها الطاعون من المماليك وإمبراطوريتهم في العامين ١٤٧٦ و١٤٧٧. بكل الاحوال، إعتذر يعقوب لأوزبك عن " الحادث المؤسف " في الرها وأعاد الأسرى المماليك.

توفي السلطان العثماني محمد الثاني (الفاتح) في الثالث من أيار عام ١٤٨١، بعد أن حكم واحداً وثلاثين عاماً ورفع الإمبراطورية العثمانية الى القمة الجديدة. في ذلك الوقت، كان نجلاه بايزيد وجيم حاكمين على أماسيا وقرمان على التوالي. على كل حال، انتخب الانكشاريون بايزيد سلطاناً، بدلاً من الإبن الثاني جيم، والذي يفترض أن والده اختاره ليرث العرش.

عندما هرب جيم إلى حلب، دعاه قايتباي إلى القاهرة. زادت الحادثة في تعقيدات العلاقة العثمانية – المملوكية، لأن بايزيد، السلطان العثماني الجديد، اعتبر استقبال قايتباي لجيم عملاً غير ودي.

يقال إن بايزيد دعم حصار علي دولت ابن ذو القادر لملاطيا في تموز ١٤٨٣، حاكم البستان، انتقاماً " لدعم " قايتباي لجيم.

كانت القاهرة قد أرسلت قوة الى هناك، ضمت خمسمائة مملوك ملكي، لكن علي دولت هزمها. لكن وصلت تعزيزات من القاهرة عام ١٤٨٤، فانهزم علي دولت، وأسرت القوة عدداً من الجنود العثمانيين وقادة الكتائب الذين قاتلوا الى جانب التركمان.

أقام العثمانيون حصاراً بحرياً يحظر استيراد ملح البارود، الخشب والمعادن.

عام ١٤٨٤، قام العثمانيون بحملة الى بلاد الشراكسة، حيث دمروا المحطات التجارية الإيطالية الساحلية، والتي كان يتم منها تزويد الفصائل المملوكية بالمقاتلين.

عام ١٤٨٥، أرسل قايتباي جيشاً جديداً ضد علي دولت، الشقيق الاصغر لشاه سوار، الثائر ذو القادري. كذلك أرسل قايتباي قوة أخرى من ثلاثة آلاف مملوك الى الشمال عام ١٤٨٦ قامت بأسر عدد من ضباط الجيش العثماني. رغم ذلك، استمرت التقارير التي تشير الى حشود من الجنود العثمانيين في الوصول. في اذار عام ١٤٨٧، قاموا اخيراً بغزو سهل كيليكيا ووصلوا الى أضنه، ووصلوا في نيسان الى أياس على خليج الاسكندرونه، مهددين بذلك أمن امبراطورية لمماليك.

لم يهدر المماليك أي وقت وجهد لمواجهة الأزمة. جمع الامير الاكبر أربعة الاف مملوك للجيش الجديد الذي تحتاجه الامبراطورية. كذلك جمع المماليك مائة الف دينار لنفقات

الحملة. اكثر من ذلك، أرسلوا ضباطاً مماليك الى منطقة نابلس لاستنهاض القبائل لدعم الجيش الجديد. أخيراً، هزم هذا الجيش الجديد العثمانيين يوم ١٨ آب عام ١٤٨٨. كذلك أُجبرت قوة عثمانية اخرى على الاستسلام في أضنه بعد حصار دام ثلاثة أشهر، بشروط.

عام ١٤٨٩، بدأ صغار المماليك مرة آخرى يطالبون بعطايا قيمتها مائة دينار لكل شخص لمواجهة الزيادة في تكاليف المعيشة. لم يستطع قايتباي أن يدفعها لهم بسبب نقص الاموال. فقد أفرغت نفقات الحملات ضد العثمانيين الخزينة. لذلك جمع القضاة والامراء، وطلب منهم اختيار سلطان آخر وبدأ يخلع ثوبه كعلامة على التنازل. لكن القضاة منعوه من خلع الثوب. تدخل الأمراء وتوصلوا الى تسوية مع المماليك الشباب على خمسين دينار. بعد ذلك، دعا القضاة والامراء قايتباي وجددوا له البيعة سلطاناً.

بينما كان قايتباي يشكل جيشاً جديداً آخر في شباط من عام ١٤٩٠، وكان الدافع اليه التقارير الاستخبارية الجديدة التي تلقاها حول الاستعدادات العسكرية العثمانية. بحلول ذلك الوقت أصبح الانكشاريون مجهزون بأسلحة نارية شخصية وقد تدربوا على إستخدامها. لذلك، تم تجنيد أربعة الاف مملوك ملكي ضمن البعثة. صدر الأمر لبعض من " أولاد الناس " بتعلم إطلاق النار وتم تجنيدهم في هذا الجيش. وصل هذا الطابور الى قيصريه في الأناضول تحت قيادة الامير الاكبر طاطاح. من هناك مشى هذا الطابور على طول الحدود طيلة الصيف، ولم يقابل أية مقاومة. حضرت سفارة عثمانية الى القاهرة ربيع عام ١٤٩١، لبحث السلام.

يقدم لنا خوتكو معلومات أكثر تفصيلاً عن هذه الحروب " دارت الحرب العثمانية المملوكية (١٤٨٥-١٤٩١) في منطقة إمارات آسيا الصغرى، وقد عبأ لها الأتراك كل قواتهم. قاد القوات التركية أفضل القادة العسكرية بين الذين امتازوا في الحروب الأوروبية: كانت الوحدات الانكشارية المنتقاة مزودة بالاسلحة النارية، وكان الفرسان السباخيون من النبلاء الاتراك أنفسهم متحفزين لخوض القتال. رغم ذلك، أثبت كل ذلك هذا عقمه أمام شجاعة الفرسان المماليك ومهاراتهم القتالية..."

هزم المماليك الاتراك ثلاث مرات. في المعركة الأخيرة، قام أربعة آلاف من مماليك السلطان بتمزيق الجيش العثماني حرفياً. تركت جثث أربعين ألف تركي في ميدان المعركة، وأحضر جمع غفير من الاسرى، بمن فيهم القائد العام أحمد بك هرسك – أوغلو، الى القاهرة. تم تحريرهم جميعاً مقابل فدية بعد اتفاقية السلام. اعتبر الشراكسة أنفسهم المنتصرين بحق، بعد أن ربحوا واحداً من أروع الانتصارات في تاريخهم. خلال هذه الفترة،

أصبحت قوة الإمبراطورية العثمانية لا تعرف الكلل، وصار بمقدورها أن تنشئ جيشاً هائلاً جديداً بكل سهولة. أدرك قايتباي هذه الحقيقة وقبل المفاوضات المقترحة من قبل بايزيد الثاني. اختتمت المفاوضات بتسوية سلمية في صالح الشراكسة. يكتب آي.اي فانوف " سحب الاتراك جميع مطالبهم في البستان و كيليكيا، والتي اتفق على أن توضع تحت رعاية مدينتي مكة المكرمة و المدينة المنورة المقدستين، أي أنها تحت حماية المماليك بدرجة شبه مطلقة ".

وصف صالح ذاكروف هذه الحقبة بطريقة مختلفة قليلاً " سددت الدولة الموحدة للمماليك، التي كان لديها جيش قوي ووصلت الى تطور اقتصادي عالٍ، ضربات ثقيلة متوالية الى الصليبيين، المغول والأتراك العثمانيين ".

أدرك قايتباي مبكراً أن السلطان العثماني سيهاجمه. لذلك استولى على مدينتي أضنه وتارا الواقعتين على الحدود السورية، بهجوم صاعق، كذلك أسر صهر السلطان التركي وعدد من الباشوات. صمم الحاكم العثماني الغاضب على احتلال مصر، فأنشأ جيشاً جديداً عام ١٤٨٨ وبدأ الحرب الجديدة في آسيا الصغرى. مرة اخرى، هزم قايتباي، قائد المماليك، الأتراك.

مع ذلك، أدرك السلطان قايتباي أنه ليس من الفطنة أن يبقى عدواً للامبراطورية العثمانية. اقترح على الأتراك معاهدة سلام وأن يعيد اليهم، حسب طلبهم، جميع الأراضي التي استولى عليها في آسيا الصغرى بالاضافة الى مدينتي أضنه وتارا عام ١٤٩١. وهكذا أنهى قايتباي الحرب المصرية – التركية، والتي سددت فيها البلد الأضعف ضربات موجعة الى العدو الأقوى.

بعد وفاة قايتباي، أحال المماليك البلاد الخاضعة لهم إلى سلسلة من الحروب الداخلية الدموية. صعد الى العرش أربعة حكام شراكسة في الفترة من ١٤٥٦ الى ١٥٠١. ومع أنهم كانوا جميعاً منهمكين في الاضطرابات الداخلية، الا أن أحداً منهم لم يفوت الفرصة ليغيظ العثمانيين.

في صيف عام ١٤٩٥، هرب الأمير الأكبر اوزبك، الذي ظل قائداً عاماً للجيش لمدة سبعة عشر عاماً، والذي حرر الحدود الشمالية من الغزوات العثمانية مرتين، هرب الى مكة المكرمة. اضطر الى تجنب غضب المماليك الشباب الذين أساء اليهم. بعد فرار اوزبك طاطاح، أصبح الأمير تمراز الشمسي قائداً عاماً للجيش المصري.

أمر السلطان قايتباي باجراء استعراض عام في صيف عام ١٤٩٦. أصبح لزاماً على كل ضابط وجندي أن يجدد قسم الولاء والطاعة له أثناءه. بعد ذلك قدم عطاياه لجميع المماليك.

اصيب السلطان بالمرض في آب عام ١٤٩٦. وحيث أنه ظهر على السلطان الاعياء، وجه الامير قانصوه خمسمائة الدعوة للخليفة والقضاة والامراء للاجتماع. يوم السابع من آب أعلن عن عزل السلطان قايتباي وتعيين نجله محمد سلطاناً. توفي قايتباي يوم الثامن من آب عن ستة وثمانين عاماً، بعد أن حكم ثمانية وعشرين عاماً. تميزت وفاته بإنفجار حقيقي للحزن الشعبي.

• • •

كان قايتباي طويل القامة، نحيلاً، يميل إلى السمرة بلحية غزاها الشيب. حظي بالإحترام طيلة حياته. كان مهيب الطلعة، يوحي بالإحترام. وكان فارساً بارعاً. كان يتقن لغته الأصلية و يتذكرموطنه الأصلي القفقاس، دائما......

كان واسع العقل و حكيماً. خبيراً عليماً بشؤون الامبراطورية، ولم يفاجأ بالأحداث مطلقاً، كذلك لم يتخذ أي قرار قبل أن يخصص لكل مشكلة تفكيراً حريصاً دقيقاً.

يقال أنه جمع ٧،٠٦٥،٠٠٠ دينار لدفع تكاليف الحاملات العسكرية وشراء ثمانية آلاف مملوك. لكنه فعل ذلك لسببين: -١ إعتداءات الشاه سوار، حسن الطويل والاتراك العثمانيين الذين أجبروه على الدفاع عن الإمبراطورية و-٢ قضت جائحات الطاعون على الكثير من المماليك فأصبح مضطراً إلى إعادة ملء صفوفهم.

كتب البكباشي عبد الرحمن زكي أن قايتباي بنى العديد من الواجهات المعمارية المتميزة في حياته، والتي يمكن مقارنتها بأبنية ناصر الدين محمد. ما زالت مساجد الأديغة تجتذب المعماريين، الفنانين، والسياح من زوايا الدنيا البعيدة كلها.

لم يكن قايتباي قائداً حكيماً فحسب، بل قائداً عسكرياً شجاعاً أيضاً. إكتسب لقب "القائد المملوكي الذي لا يقهر " في الحروب الكثيرة التي شارك فيها و كسبها.

كذلك كان قايتباي شخصاً متعلماً، يكثر من القراءة، ومؤلفاً للعديد من الأعمال الأدبية. كان متديناً، مضيافاً، عطوفاً على الفقراء، يتمتع بموهبة التحدث بحرية الى كل الطبقات وجعلهم يشعرون بالاسترخاء. ظل على الدوام يساهم في أعمال الخير بكرم واضح.

بنى المدارس في الإسكندرية، دمشق، دمياط، غزة، القدس، مكة المكرمة والمدينة المنورة. المساجد والمدارس التي شيدها في مصر أكثر من أن تعد. أكثر من ذلك، إفتتح الطرق الجديدة، أصلح قنوات الري ونفذ أعمالاً أخرى مفيدة وجميلة.

كتب السير جون غلوب " كان قايتباي سيكون حاكماً عظيماً في أي عصر و أي بلاد ".

• • •

كتب المقريزي، متحدثاً عن المماليك الشراكسة وإسهاماتهم في الفنون والآداب:
" لم يكن هناك بيت في القاهرة لا تجد فيه آنية برونزية متميزة. إعتادة المصممون على وضع رموز أديغه معينة ضمن نماذج الفن الإسلامي بأمر من أثرياء المماليك. يمكن رؤيتها حتى اليوم في القاعات، البيوت، والقلاع، التي بنيت في العصور الوسطى في سوريا (دمشق، حلب، حمص)، لبنان، فلسطين، مصر (القاهرة، الإسكندرية، دمياط).

يقول جيمس اولدريج في كتابه " القاهرة " أن إسهاماتهم العظيمة محفوظة حتى اليوم. هناك الكثير منها، ولكن إثنين منها هما الأجمل، الأكثر إثارة للإهتمام من غيرها، والأكثر إذهالاً في فن العمارة ".

## السلطان الناصر محمد

نودي بالناصر محمد، نجل قايتباي سلطاناً في سن الخامسة عشرة، يوم السابع من آب عام ١٤٩٦، عين قانصوه الخمسمائة قائداً عاماً. بعد ذلك بفترة قصيرة ظهر وباء الطاعون في القاهرة عام ١٤٩٨، وثارت القبائل على أطراف الدلتا، رافضة دفع الضرائب. إضافة إلى ذلك، نشأت منافسة حادة بين قانصوه خمسمائة وأقبيردي الداودار على خلافة السلطان الفتي.

زادت التصرفات المراهقة للسلطان الفتي من فداحة الوضع. فقد كان فتىً وسيماً، نحيلاً، أشقر متوسط القامة، يتمتع برفقة الرعاع ويتصرف بشكل مشين ويتجول في شوارع القاهرة مع رفاق السوء. لذلك، عندما أمر بإرسال طابور معاقبة ضد القبائل الثائرة، رفض الامراء والمماليك أن يذهبوا.

في هذه الأثناء نشط قانصوه خمسمائة في التحضير لتنصيبه هو، بأن بدأ يسجن ويعدم أعداءه ويعطي المناصب الحساسة لمسانديه. يوم ٣ شباط عام ١٤٩٧، حاول أن يحل محل السلطان الفتي، لكنه فشل. يوم ٢١ شباط، قام قانصوه خمسمائة بمحاولة فاشلة آخرى لنفس الغاية، وقتل في إشتباك بخان يونس، جنوب غزة. وصل أقبيردي داودار من سوريا على أمل أن يصبح قائداً عاماً للجيش، لكن مماليك القلعة رفضوا السماح له بالدخول. بعد حصار فاشل لمدة واحد وثلاثين يوماً، إرتحل.

لم تعد هناك سلطة قائمة في القاهرة لتعيد النظام والأمن. عندما قتلت مجموعة من المماليك المشاغبين تمراز الشمسي، القائد العام، استدعي الأمير الأكبر اوزبك طاطاح من مكة المكرمة واعيد تعيينه قائداً عاماً. أصبح واضحاً أن مستقبل الإمبراطورية معرض للخطر. فهي بحاجة إلى حاكم قوي قادر على إعادة فرض الأمن والنظام.

خرج السلطان راكباً مع ابني عم صغيرين في الأول من تشرين الثاني عام ١٤٩٨. ركب باتجاه مجموعة صغيرة من الخيام تحت إمرة طومان باي وتوقف. بينما كان السلطان يشرب وهو راكب من سلطانية لبن قدمها له طومان باي الذي أمسك بلجام فرسه، إندفعت مجموعة من مماليك طومان باي من الخيام وانهالت على السلطان ومرافقيه طعناً وضرباً حتى الموت. هل أقدموا على هذه الفعلة بسبب قلة أدب السلطان الفتي، أم للتخلص من حاكم لا يصلح للإمبراطورية؟ مهما كانت الدواعي إلى قتله، فقد حفل حكمه بالجرائم، الاضطرابات، انعدام القانون، الحرب الأهلية وحتى الطاعون.

## السلطان الظاهر قانصوه بن قانصوه

خلف للسلطان قانصوه محمداً. كان مملوكاً سابقاً لقايتباي وشقيقاً لزوجته. أعطاه قايتباي خيولاً وملابس ومنصباً في ملاك القصر. كذلك كان أحد قادة المماليك الشباب الذين هزموا المحاولة الانقلابية لقانصوه خمسمائة. نتيجة لذلك، عين السلطان الناصر محمد عمه أمير الطبول.

بعد وفاة السلطان محمد، ضغط الأمراء على الوزير الاكبر اوزبك طاطاح ليتولى السلطنة لكنه رفض. بعد ذلك، استدعوا الخليفة و القضاة وعينوا قانصوه سلطاناً يوم الثالث من تشرين الثاني عام ١٤٩٨، باسم الملك الظاهر. عين طومان باي سكرتيراً تنفيذياً للحكومة.

أصبح قانصوه سلطاناً في سن الثلاثين، ولم يمضي على إحضاره إلى مصر سوى ستة أعوام كعبد. ومع ذلك، فقد قوبل تنصيبه بالترحيب الشعبي.

سرعان ما حاصر اقبيردي الدوادور مدينة حلب. قام قانصوه بتعبئة حملة وأمر بالمسير ضده. في الوقت نفسه، عرض السلطان قانصوه على الثائر منصب نائب الملك في طرابلس، فقبله الاخير.

توفي كبير الأمراء اوزبك طاطاح، عام ١٤٩٩. شغل في حياته عدة مناصب، إذ أصبح قائداً عاماً في عهد قايتباي عام ١٤٦٨، واحتفظ بهذا المنصب ثلاثين عاماً وأظهر تصميماً عظيماً في الحرب ضد العثمانيين في كيليكيا. كان أحد عظماء المماليك، محترماً بدرجة عالية، كريم النفس، وبشخصية قوية، وأخلاق سامية. أنفق جزءاً كبيراً من ثروته على الجيش وفي الإحسان العام وعمل الخير والخدمة. تبقى حديقة الاوزبكية، التي بناها في قلب القاهرة، ذكرى منه حتى يومنا هذا.

ثار الأمير قاسروه، نائب الملك في دمشق، في تشرين الثاني عام ١٤٩٩. بعد أن فشل السلطان قانصوه في إرضائه، أمر بتجنيد ألفين من المماليك لإرسالهم إلى دمشق. ولكن، فجأة قام السكرتير الأول طومان باي بنصب معسكره في الجيزة وأعلن عن عصيانه. ثم عبر النيل من إمبابة إلى بولاق وجعل مركزه في الاوزبكية. بعد أن جمع الأمراء واتفق معهم على عزل السلطان، تقدم وحاصر القلعة.

لأن صعود قانصوه كان سريعاً في السلطة، لم يتمكن من تكوين مجموعة قوية من رفاق المعسكر لدعمه. ربما أيضاً لم يكن قوياً بما يكفي للتعامل مع أمراء في مثل عنف طومان باي. على أية حال، لم يكن معه سوى ألف مملوك ليدعموه حينما حاصر طومان باي القلعة. لذلك، عندما استولى طومان باي على بوابة السلسلة، تسلل قانصوه خارجاً من القلعة وذهب للاختباء.

كان نحيلاً، باهت البشرة، بمزاج سلس، اجتماعياً ناجحاً. كان عهده لسنة وثمانية أشهر فترة إعادة بناء. خفت الاضطرابات القبلية وتدنت تكاليف المعيشة، وتحسن تصرف المماليك الملكيين بدرجة كبيرة.

## السلطان الأشرف جانبولات (جنبلاط)

كان الأشرف جانبولات بن ياشبك الأشرفي شركسياً. اشتراه الأمير ياشبك الدوادار السكرتير الأول، صبياً. علمه اللغة العربية والقرآن الكريم. لاحقاً، وهبه ياشبك إلى قايتباي الذي حرره وجعله مملوكاً مقرباً. عام ١٤٨٩ أصبح أمير عشرة ولاحقاً أمير مائة والسكرتير الرئيس للحكومة. خلال حكم السلطان قانصوه، أصبح القائد العام بعد وفاة الأمير الأكبر اوزبك.

بعد اختفاء قانصوه، بقيت الامبراطورية المملوكية بدون سلطان ثلاثة أيام. كان طومان باي متلهفاً على استلام السلطة، لكنه كان أقل مرتبة من جانبولات. لذلك قرر أن يسمح لجانبولات أن يصبح سلطاناً. لم يكن جانبولات يطمح إلى العرش لكن الأمراء ضغطوا عليه ليقبل.

كانت غلطته الأولى هي عرض منصب القائد العام على قاصروه، نائب الملك في دمشق، الذي كان في حالة عصيان فرفض المنصب. قرر طومان باي أن يستغل الموقف. عرض أن يتوسط بين جانبولات ونائب الملك الثائر في خريف عام ١٥٠٠. قبل جانبولات العرض، غير مدرك لحقيقة أن طومان باي هو الذي حرَّض قاصروه. جهزت قوة، تضم ألف مملوك ملكي،

بقيادة طومان باي للذهاب لقتال قاصروه. عندما وصل الجيش إلى دمشق، أصدر كل من طومان باي وقاصروه بياناً، يعلنان فيه تنصيب طومان باي على العرش، باسم الملك العادل، وتعيين الثائر قاصروه قائداً عاماً، وقانصوه الغوري، سكرتيراً رئيساً.

غادر طومان باي دمشق أواخر أيلول ودخل القاهرة في موكب النصر يوم الثاني من كانون الثاني عام ١٥٠١، ولم يعترضه أحد. استولى رجال طومان باي على القلعة يوم التاسع من كانون الثاني، وألقوا القبض على جانبولات. نقل إلى قلعة الإسكندرية بنهاية الشهر.

كان طومان باي في الأربعين من عمره، طويل القامة، أشقراً، بلحية سوداء ومظهر وسيم.

## السلطان العادل طومان باي

السلطان العادل طومان باي الأشرفي (قايتباي) شركسي. اشتراه نائب الملك في دمشق، ووهبه إلى قايتباي. علمه قايتباي وعينه كاتباً، ثم حرره وجعله مملوكاً مقرباً ثم أمير عشرة. أصبح حاكماً للإسكندرية عام ١٤٩٦، ثم عاد إلى القاهرة كأمير مائة. أصبح سكرتيراً رئيساً في عهد قانصوه، ثم تولى عدة مناصب في الوقت نفسه في عهد السلطان جانبولات:

تمتع السلطان طومان باي بشعبية واسعة لدى المصريين، عين قاصروه قائداً عاماً، بعد ذلك بفترة قصيرة، تناول قاصروه طعام العشاء مع طومان باي في القصر. بعد العشاء قال السلطان " أنا خائف منك، أيها الأمير الأكبر ". قبض مماليكه على قاصروه وعزلوه.

بدأ تدريجياً يشك في أمراء آخرين ويقبض عليهم. أثار هذا التصرف عداء المزيد من الأمراء والمماليك تجاهه. قام بعض المماليك، بتحريض من الأمراء، بإعلان العصيان في القلعة. رفع طومان باي لواءه، لكن لم يتقدم أي من المماليك استجابة النداء. اختفى طومان باي مساء ذلك اليوم. كان في الأربعين من عمره، ذكياً، قاسياً و غادراً.

## السلطان الأشرف قانصوه الغوري

نودي بقانصوه الغوري ابن بيبرد الأشرفي سلطاناً في نيسان عام ١٥٠١، وأعطي لقب العرش الملك الأشرف. وعين الأمير قايت الرجبي قائداً عاماً. كان قانصوه الغوري يحظى بشعبية واسعة بين سكان القاهرة، لذلك استقبلوا تنصيبه على العرش بابتهاج حقيقي.

كان قانصوه الغوري شركسياً، لم يغير أسمه الحقيقي أبداً، لأنه كان كبير السن حينما حضر إلى مصر. هو مملوك لدى قايتباي الذي جعله أمير عشرة عام ١٤٨٤. أصبح حاكماً لطرطوس لفترة ثم لملاطيا. أصبح السكرتير الرئيس في عهد طومان باي.

بعد أثنين وأربعين يوماً من البحث، تم العثور على طومان باي، وقتل وهو يحاول الفرار.

عندما أصبح قانصوه الغوري سلطاناً، كانت الخزينة فارغة، لذلك فقد هدد صغار المماليك الذين أخفق في منحهم العطايا المعتادة، بالعصيان في تموز عام ١٥٠٢. فرض السلطان ضرائب خاصة على الحمامات، والأبنية، الحدائق، البقالات الخ، للتعامل مع هذه الأزمة. كذلك ابتز ثلاثين الف دينار من اليهود والنصارى. بعد ذلك بوقت قصير اعاد السلطان الحالة المادية للامبراطورية الى الوضع العادي.

خلال الشهر نفسه، كان لدى حكومة السلطان: اربعة وعشرين أمير مائة، خمسة وسبعين امير طبول، مائة وخمسة وثمانين امير عشرة. المسؤولون الرئيسيون هم: رئيس الوزراء، القاضي بدر الدين الحنفي، مراقب الجيش القاضي شهاب الدين ومراقب الخزينة القاضي صلاح الدين ابن جيان.

أخمد السلطان قانصوه الغوري المعارضة بسرعة واعاد ملء الخزينة من خلال اجراءات غير عادية. أذهل بلاطه خيال معاصريه لروعته وفخامته. حسب قول موير، فان الذهب الخالص استعمل ليس فقط على مائدة السلطان بل في كل القصر لغاية المطبخ. اشترى قانصوه اثناء حكمه ١٣٠٠٠ عبد، ويجب الافتراض ان قسماً كبيراً منهم ارسلته بلاد الشراكسة. اضطرت الامبراطورية المملوكية اثناء حكم هذا السلطان الشركسي الى مواجهة تناحر حاد ليس فقط مع تركيا العثمانية بل أيضاً مع ايران الشيعية والصليبيين البرتغاليين. كان الاخيرون قد شنوا حملة رعب رهيبة ضد المسلمين في ذلك الوقت. اثبتت الوقائع ان القوة الوحيدة القادرة على وقف اختراقهم نحو البحر الأحمر هي المماليك، تحت لواء القائد العثماني المتميز اوزدمير باشا، الشركسي الأصل.

رغم ذلك، ظل العدو الرئيس للشراكسة هم الاتراك العثمانيون. كانت الجماعتان تعدان نفسيهما بكثافة وتركيز لصراع مكشوف. تزايدت هذه العملية في تركيا، حين صعد سليم الأول الى السلطة يوم ١٢ نيسان عام ١٥١٢. كان هذا العدو اللدود للمماليك الشراكسة، قد التجأ الى الأمير الشركسي تيمريوك في القفقاس، حينما كان والده يطارده.

ان مسار احداث الحرب العثمانية – المملوكية الثانية معروف جيداً وقد وصفه العديد من المؤلفين. كتب في. بارتولد " كان سبب الحرب استيلاء العثمانيين اثناء الحرب ضد بلاد فارس، على املاك ذو القادر، الذي كان تابعاً لمصر، ثم المساعدة غير المباشرة التي قدمها السلطان المملوكي الى بلاد فارس، اثناء حربها ضد تركيا. ظل سليم يشدد على ان غايته الرئيسة هي القتال ضد المماليك الكفرة. اثرت هذه الفكرة بعمق في سكان سوريا، الذين

باتوا ينتظرون قدوم العثمانيين بقلق، على اساس انهم المخلصين الوحيدين من السيطرة الطاغية للشراكسة.

في النهاية، التقى الجيشان الهائلان يوم ٢٤ آب عام ١٥١٦، في سهل مرج دابق ( قرب حلب، سوريا ) والذي قرر اصطدامهما مصير السلالة الشركسية المقدر سلفاً على ضفاف النيل. سجلت هذه المعركة الهائلة الى الأبد في دواوين التاريخ العالمي كصفحة بطولية ومحزنة الى درجة كبيرة للحقبة الشركسية التي استمرت قروناً في مصر وسوريا.

ترك لنا ابن اياس الوصف التالي للمعركة: حسب تأكيد بعض الناس، أول من دخل المعركة هو الاتابك سندن العجمي وممثل دمشق مالك العمر سباعي، قائد المماليك في كرانيس، لكن مماليك حلب لم يشاركوا بداية. هؤلاء المماليك، اضافة الى عدد من السوريين، كانوا يقاتلون ببسالة مجنونة واضطروا قوات ابن عثمان الى الهروب، بعد أن انزلوا بهم خسائر رهيبة، اسروا سبعة قادة ألوية ومدافع على عربات وبنادق. نتيجة لذلك، بدأ ابن عثمان يفكر جدياً بالانسحاب او الاستسلام بسبب مقتل عشرة آلاف من جنوده. في البداية، كان جيش مصر منتصراً، فقط لو أن كل شيء كان مقدراً له ان يستمر على هذا المنوال! لكن اشاعة وصلت الى مماليك كرانيس مفادها أن السلطان قد أمر مماليكه بعدم الاشتباك في المعركة، وأنه ارسل مماليك كرانيس ليقاتلوا وحدهم. اثرت هذه الشائعة على معنوياتهم. في الاثناء، قتل الاتابك سودون ومالك العمر سباعي وارتد الكثير من مماليك الميمنة الى الخلف. كان هذا نتيجة انسحاب خيربك، نائب الملك في حلب، وهزيمة الميسرة. أخذ الأمير قانصوه ابن السلطان شركس أسيراً. اكثر من ذلك، انتشر القول بان خير بك قد دخل في تحالف مع ابن عثمان ضد الغوري – شائعة جرى تأكيدها لاحقاً. بالاضافة الى ذلك، كان هو اول من اندفع الى الفصائل واعلن الهزيمة. على اية حال، فان هذه الهزيمة لحقت بالجيش المصري بقدرة الله سبحانه وتعالى وتنفيذاً لمشيئة.

ظل السلطان قانصوه الغوري، البالغ من العمرخمسة وسبعين عاماً مقاتلاً قوياً، حتى بمعايير المماليك. أراد أن يتعامل مع سليم شخصياً، و شق طريقه بالقوة على رأس مماليكه الخاصة، الى خيمة السلطان التركي، لكنه اكتشف ان الخيمة فارغة. في حمأة المعركة، عندما قيل للسلطان قانصوه الغوري ان قسماً من الشراكسة الذين يقودهم خير بك قد انحازوا الى جانب الاتراك، اصيب بجلطة دماغية وتوقف الجانب الايسر من جسمه عن اطاعته. طلب المقاتل العجوز الماء فاحضر له في كوب. شرب الماء، تراجع في سرجه وبدأ الدم يتدفق من فمه. توفي السلطان بين يدي حراسه الشخصيين. بعد المعركة، لم يستطع الاتراك ان يجدوا

جثته. الواضح ان مماليكه الخاصين حملوا جثته بعيداً عن ارض المعركة عملاً "بالأديغة خابزه" (التقاليد الشركسية) أو تمكنوا من اخفائها. "لن يعرف احد الى الأبد ما حل به، وكأنما قد ابتلعته الأرض".

يذكر ابن زنبل ثلاثة اسباب رئيسة، تسببت في هزيمة المماليك: ١ – الصراع بين الجلبان والكرانيس، بكلمات أخرى النزاع بين مماليك السلطان أنفسهم. ٢ – الغلبة العددية الطاغية للعثمانيين على المماليك، ٣ – خيانة قسم من كبار الامراء، خاصة خير بك وجانبيردي الغزالي، والتي حطمت معنويات المماليك في نهاية المطاف. نضيف اليها سبباً آخر. كان الجيش التركي مزوداً بقوة نارية الى حد الامتياز، الامر الذي منحهم ميزة عظيمة على الجيش المصري الذي كانت حاجته الى الاسلحة النارية شبه كاملة. "لم يقتل احد من الشراكسة بسيف او رمح، بل مات جميعهم من قذائف المدفعية وطلقات الرصاص" يضيف ابن زنبل.

دخل سليم حلب بدون أية مقاومة. تقدم نحو القلعة مصحوباً بخير بك، حيث اكتشف خزنة المماليك. يذكر ابن إياس رقم مائة مليون قطعة ذهبية. ربما كان الرقم اقل. على اية حال، اتم سليم احتلال السلطنة المملوكية بهذه الأموال. هذا هو ثمن الخيانة. بعد اقامة ثمانية عشر يوماً في حلب، زحف سليم على دمشق. حاول المماليك ان يدمروا السد ويغرقوا السهل الواقع امام المدينة، لكنهم فشلوا. في الاثناء، استمرت الخلافات بين الامراء الذين كان قسم منهم يريد أن ينصب جانبيردي الغزالي على العرش، وقسم آخر: نجل قانصوه الغوري. لم يتمكنوا من التوصل الى اتفاق، فغادر انصار الغزالي دمشق الى القاهرة، مع فصائلهم. انضمت البقية الى سليم، الذي دخل المدينة في الثاني من تشرين الأول عام ١٥١٦.

وصلت انباء هزيمة ووفاة قانصوه الغوري الى القاهرة بداية أيلول. انقضى شهر قبل عودة القادة العسكريين من سوريا. كانت الطبقة المملوكية الحاكمة تنتظرهم للبدء في انتخاب سلطان جديد. الا ان كل فرد منهم. كان ميالاً الى الأمير طومان باي، الذي تولى مهام الحاكم العام لمصر، في غياب قانصوه الغوري.

• • •

حكم قانصوه الغوري إمبراطوريةالمماليك خمسة عشر عاماً وستة أشهر. يقال انه عندما تولى الحكم، كانت امبراطورية المماليك في طريقها الى الانحسار لبعض الوقت. بغض النظر عن ذلك، فقد ظلت تحتفظ بهيبة كبيرة على مستوى العالم كله. مثلاً، يوم ٢٥ آذار عام

١٥١٢، وصلت الى القاهرة سفارة من لويس الثاني عشر، مللك فرنسا، مؤلفة من حوالي خمسين شخصاً، حاملة هدايا قيمة الى السلطان قانصوه الغوري من ملكها. يصف جان ثينو، وهو عضو في تلك السفارة، القصر الذي انزلوا فيه بالقاهرة باعجاب. يقول ان القصر ضم حوالي سبع شقق مبلطة بالرخام والحجر الاسفنجي والحجر الأخضر المرقط والحجارة النفيسة الأخرى. والجدران ملبسة بنفس الطريقة ومطلية بالذهب واللون الازرق والوان اخرى غنية. كانت الابواب مطعمة بالعاج، الابنوس والمواد الأخرى. كانت صنعة تزيينهم باعثة اكثر على الدهشة من المواد المستخدمة التي لا تقدر بثمن. في هذه الغرف، وحتى في الشقق الأقل فخامة، توجد نوافير وحمامات، يجري الماء اليها في انابيب مخفية، يضيف " قيل لنا، انه يوجد في القاهرة مائة الف مسكن اكثر فخامة من هذا، وقد رأينا بعضها فعلاً. " تعين على اوروبا ان تنتظر ثلاثمائة وخمسين سنة أخرى حتى تحصل على الماء الجاري: بارداً وساخناً.

يوم الحادي عشر من أيار، حضرت سفارة من البندقية الى القاهرة. جاء السفير، وهو رجل مسن ليرجو من السلطان اعادة فتح كنيسة القبر المقدس التي اغلقت بسبب هجوم فرسان رودس. " في حزيران وتموز من عام ١٥١٢، ازدحمت القاهرة بسفارات من فرنسا، البندقية، الشاه اسماعيل، ملك جورجيا، ابن رمضان: زعيم التركمان في كيليكيا، ملك تونس والسلطان العثماني، والسفير الصفوي. اعلنت السفارة القادمة من استنبول وفاة بايزيد الثاني وتنصيب.. سليم " يوم ١٧ تشرين الثاني عام ١٥١٤، احضر سفير عثماني التفاصيل الكاملة لمعركة تشالديران الى القاهرة. يوم ١٥ شباط ويوم السابع من آب عام ١٥١٥، ارسل السلطان سليم سفراء الى القاهرة. عام ١٥١٦ تلقى السلطان قانصوه الغوري رسالة من سليم، قال في قسم منها " انت والدي وانا اتمنى لك الخير. لقد اكتسحت ممتلكات علي دولت باذن منك.....سأعيد اليك الاراضي التي اخذتها من علي دولت وسنفعل كل مايرغب فيه السلطان". بدأت رسالة أخرى من السلطان سليم الى السلطان قانصوه الغوري بالقول "ياوالدي، اطلب دعواتك لأجلي، ولكنني ارجوك ان لا تتدخل لتجبرني على اقامة الصلح مع الشاه اسماعيل ". توضح هذه التفاصيل السلطة والقوة التي ظلت امبراطورية المماليك تتمتع بها حتى في فترة انهيارها.

كتب ستانلي لاين - بول " هناك شخصيات قليلة اكثر إثارة للاهتمام، من السلطان العجوز الغوري، فقد كان رجلاً ذا قرار شجاع وطاقة لا تعرف الحدود. اعاد فرض الأمن على فوضى

القاهرة واعاد ملء الخزينة بضربة واحدة......ومضى ينفقها على اعمال عامة رائعة. كان فخماً في بلاطه وكريماً على الشعراء والموسيقيين........ يدرك تماماً اهمية التجارة الهندية التي كان البرتغاليون يهددونها، إذ قام بتوفير اسطول في البحر الأحمر وارسله الى الهند. في النهاية، ولكن في وقت متأخر جداً، قاد جيشه الى سوريا ليقاتل العثمانيين الزاحفين، وسقط وهو يقاتل في سن السادسة والسبعين ".

كتب جون غلوب " استولى السلطان سليم على معسكر المماليك مساء المعركة، وبعد أربعة ايام احتل حلب بدون معارضة. وضع الاتراك ايديهم على كنوز لا تحصى......اسلحة مطعمة بالذهب، سروج من الذهب، حجارة كريمة، اعمال فنية.....لم يشاهد السلطان مثلها أبداً. ظلت العظمة المملوكية بدون منافس لمدة قرنين. ارسل سليم في طلب خيربك، نائب الملك في حلب، وألبسه ثوب الشرف. لكنه لم يوفر مشاعره نحوه لأنه اطلق عليه اسم خاين بك ".

## السلطان الأشرف طومان باي

اصبح طومان باي سلطاناً يوم ١٢ تشرين الأول عام ١٥١٦. كان قد رفض تسلم المنصب بشكل قطعي، حينما انتخبه الامراء سلطاناً بالإجماع. في ذلك الوقت كان الخليفة اسيراً في يد الاتراك العثمانيين. لذلك، دعا الامراء قائداً دينياً مصرياً، جعل الامراء يقسمون يمين الولاء وعين طومان باي سلطاناً في سن السابعة والثلاثين.

اشترى قانصوه الغوري طومان باي ومنحه الى قايتباي. عندما اصبح قانصوه الغوري سلطاناً، ترقى طومان باي الى رتبة أمير واصبح أميناً على اقبية الخمور (١٥٠٤). اصبح عام ١٥٠٧ سكرتيراً للسلطان وبقي في هذا المنصب حتى مغادرة سيده في الحملة ضد الاتراك العثمانيين.

وصل جانبيري الغزالي، حاكم حماة وبعض الامراء من سوريا الى القاهرة يوم ١٣ تشرين الأول عام ١٥١٦. يوم ١٦ تشرين الأول، اقام السلطان طومان باي استعراضاً لحامية مصر المؤلفة من الفي مملوك، الذين تركهم قانصوه الغوري خلفه. بعد حرب مرج دابق، اصبح السلطان سليم سيد سوريا كلها، وارسل سفراءَه الى القاهرة حاملين اقتراحاً للسلم، معتبراً أنه قد كسب الحرب. كانت بعض الشروط المطلوبة من طومان باي: الخضوع، الاعتراف بالسيادة العثمانية وسك النقود باسم السلطان سليم. بالمقابل، يقوم السلطان سليم بتعيين طومان باي حاكماً له على مصر من غزة وحتى الجنوب. ستظل سوريا مقاطعة



امير مملوكي مع فصيله ( القرن السابع عشر )
من كتاب إن. بيثروفسكي و ﭬﻲ. ماتفييف " مصر – بدون "



مملوك مشهراً سيفه
كارل فيرنييه

تحت الحكم العثماني. كتب الى طومان باي " إفعل هذا، وسوف تترك مصر بدون مساس. وإلا فسوف....ادمرك وامحو مماليكك، وانت، عن وجه الأرض ".

فهم إن. إيه. ايفانوف روح المماليك الشراكسة ذوي الكبرياء بدرجة ممتازة، خلال هذه الفترة النهائية من الوجود المستقل في مصر. وصفها بهذه الطريقة " على اية حال، لم يكن ممكناً للمماليك ان يقبلوا فكرة الهزيمة بأية طريقة: اعتبروا الانحناء والتحول الى رعايا هؤلاء الرعاع الأجلاف عاراً عليهم. هكذا بدا الحكام العثمانيون في أعينهم. انتخبوا طومان باي سلطاناً عليهم يوم ١١ تشرين الاول عام ١٥١٦، وهو ابن شقيق قانصوه الغوري البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً. كان مقاتلاً شجاعاً ذا همة نشيطة، يجسد في شخصه أفضل صفات الفارس المملوكي. لم يفكر الا بالنصر، وطبعاً، رفض عرض السلام. قتل السفراء العثمانيين الذين تصرفوا بتحدٍ زاد عن الحدود، حسب رأي المماليك. اصبح استمرار الحرب أمراً لا مفر منه ".

امتدت الامبراطورية العثمانية في هذا الوقت بعيداً داخل اوروبا حتى المجر والبوسنة.

اضطر سليم للعودة الى الشمال، حيث مازال يخوض حرباً ضد الشاه اسماعيل. اكثر من ذلك، ادرك أن اغلبية الشعب المصري تنتظر قدوم العثمانيين بترقب قلق. لذلك، أعلن سليم مرة أخرى أنه قادم الى هناك لقتال المماليك وحدهم. احتل العثمانيون غزة وقتلوا كثيراً من الناس يوم ٢٢ كانون الأول عام ١٥١٦.

من الناحية الأخرى، وقف البدو والاثرياء من سكان المدن في مصر، الى جانب المماليك. تمكن طومان من بناء جيش قوي نسبياً في فترة قصيرة من الزمن. كذلك، عاد قسم من القوة التي ارسلت الى اليمن للقاهرة في ذلك الوقت. أنجز طومان باي اكثر من قايتباي وقانصوه في مسألة تصنيع الاسلحة النارية وتسليح الجيش بها. كذلك جند مائتي تركماني وجزائري كرجال مدفعية، لأن المماليك رفضوا الخدمة إلا كفرسان. في النهاية، اقيم عرض عسكري في القاهرة. ملأت الجماهير الغفيرة الشوارع، تراقب وتصفق مهللة. بكى كثير من الناس وتضرعوا الى الله تعالى ان يهب سلطانهم النصر.

ركز طومان باي جنوده في الريدانية، يوم ١٤ كانون الثاني عام ١٥١٧. وضعت المدافع في المؤخرة خلف خندق طويل وتحصينات حفرت من المطرية حتى الجبل الأحمر. مع ذلك، فقد كانت الروح القتالية مشلولة بسبب ميل الناس الى العثمانيين. فلا هناك اتفاق، كما في الايام السابقة بين المماليك، والتي بسببها اضاعوا فرصة مهاجمة الحشود العثمانية في طريقها الى خارج صحراء سيناء.

في هذه الاثناء، استولى العثمانيون على بلبيس يوم ١٨ كانون الثاني ، وصلوا الى بركة الحجاج يوم ٢١ كانون الثاني وهاجموا الريدانية نفسها يوم ٢٢ كانون الثاني عام ١٥١٧.

بدأت المعركة بتبادل القصف المدفعي، لم يتمكن طومان باي من المناورة بالمدفعية المملوكية الثابته. لذلك، اخرس الاتراك العثمانيون، الذين كانوا مزودين بمدافع اثقل عياراً واكثر كفاءة، اخرسوا معظم مدافع المماليك في وقت قصير. تبع ذلك توقف. كان الاتراك يعدون أنفسهم لصد هجوم الفرسان. في نفس الوقت، احتل جنودهم الجبل الأحمر وظهروا خلف مواقع المماليك.

تحرك الخيالة الشراكسة خارجين وتوقفوا امام المعسكر المحصن. ادهشت روعتهم الاتراك العثمانيين الذين كانوا يعولون على مدافعهم، ملأت قلوبهم بالرعب. قبيل المعركة، كان السلطان طومان باي مع صديقيه الان باي وكردباي قد اقسموا على قتل سليم والانتقام لموت عمه قانصوه الغوري. وقفوا في تلك اللحظة متقدمين امام الجيش كله، وقد تركزت عيونهم على خيمة سليم. ظهر الى جانبها شكل فارس يرتدي ملابس رائعة. في تلك اللحظة، لم يعرف الوزير الاكبر، سنان يوسف باشا، انه مقدر له الموت بسيف السلطان طومان باي. أخيراً، انطلق الشراكسة نحو عدوهم، باشارة من سلطانهم. كان هذا آخر هجوم عظيم لفرسان القرون الوسطى. تبع ذلك قتال شرس، بخسائر فادحة. كتب عن طومان باي أنه جندل اكثر من الف عدو في ذلك اليوم، بمن فيهم سنان يوسف باشا. لكن المماليك كانوا اقل عدداً بكثير. لم يتمكنوا من هزيمة حشود السلطان سليم البالغة مائة ألفاً. لذلك، انسحب المماليك واحتلت الجيوش العثمانية عاصمة مصر.

دخل العثمانيون القاهرة يوم ٢٣ كانون الثاني، والخليفة اسير لديهم. اعلن المنادون عن السلام في الشوارع وهددوا كل من يخفي المماليك بالموت. بدأ الجنود العثمانيون يقتحمون البيوت الخاصة بحجة البحث عن المماليك، ينهبون ويغتصبون ويقتلون الناس. قطعوا رأس كل مملوك عثروا عليه على الفور وعلقوا أربعة آلاف رأس في المعسكر العثماني.

في الحقيقة، اختبأ قسم من المماليك في القاهرة نفسها، على الاغلب في بيوت الأعيان، الذين كان كثير منهم من اصل مملوكي. في ذلك الزمن، كانت القاهرة ماتزال واحدة من اغنى المدن في العالم، مزدانة بالعديد من مظاهر وأدوات الجمال والفخامة. كان كل بيت كبير فيها ممتلئاً بالذهب، الفضة، الجواهر، السجاد والكثير من الاعمال الفنية الرائعة. لم يتمكن أحد من منع الجنود الاتراك المصابين باللوثة من وضع ايديهم على النفائس. وهكذا استمر النهب، القتل والاغتصاب بدون ان يوقفه أحد.

فجأة، وبينما كان السلطان سليم موجوداً في بولاق، هاجم السلطان طومان باي المعسكر العثماني يوم ٢٨ كانون الثاني عام ١٥١٧. خلق هذا الهجوم المملوكي المفاجئ حالة ارتباك كاملة في المعسكر وتكبد الجنود خسائر فادحة. قطع المماليك رأس كل جندي عثماني امسكوا به. كذلك فعل المصريون الذين شجعهم طومان باي على اتباع خطاه، نفس الشيء بالاتراك. استمرت المعركة ثلاثة أيام. بدا لوهلة أن المماليك قد انتصروا. فقد تمكنوا من دفع الاتراك الى خارج القاهرة. وأدى الناس صلاة الجمعة في كل المساجد باسم السلطان طومان باي. على اية حال، عاد الاتراك الى الاندفاع داخل المدينة مرة أخرى وكسروا شوكة المقاومة لدى ألف او الفي مملوك شركسي في المدينة. عندما انسحب طومان باي عبر القاهرة القديمة، كانت الشوارع ملآى بالاجساد المقطوعة الرؤوس للعثمانيين والمماليك.

استمر العثمانيون في بحثهم عن المماليك وقتلوا ثمانمئة آخرين منهم. قارن ابن إياس الذي عاش في القاهرة خلال هذه الفترة، بين افعال السلطان سليم هذه وأفعال هولاكو في بغداد. كذلك اتهم سليم باعطاء الأمر للمزيد من الاعدامات والمصادرات يومياً. كذلك اشتكى " لم يطع أياً من قواعد العدل التي حافظ عليها السلاطين السابقون لمصر. " ربما سيغير هذا رأي أولئك الذين يميلون الى التفكير بالمماليك على انهم طغاة.

انتقل سليم ورجاله الى القصر وبدأوا يهدمون ارقى الابنية المملوكية. نزعوا منها الرخام وشحنوه الى استنبول. يقول ابن اياس انهم ربطوا خيولهم في كل مكان في القلعة ولم يكنسوا الروث.

في الاثناء، جمع طومان باي قوة هائلة في مصر العليا من فصائل المماليك غير المتناسقة والبدو المحليين. بعد ذلك بوقت قصير، ظهر فجأة قرب الجيزة على رأس تلك القوة. عبر سليم وجيشه النيل يوم ٣٠ آذار عام ١٥١٧، لمجابهة المماليك. نشبت معركة وحشية بينهما يومي الثاني أو الثالث من نيسان، بقيت مستمرة حتى اليوم التالي. في البداية شن المماليك هجوم خيالة يائس وشردوا قوات العدو. لم يستطع الاتراك لوهلة أن يستفيقوا من صدمة هجوم الخيالة المماليك المفاجئ. لكن بعد ذلك، تمكن العثمانيون من تسليط مدافعهم على المماليك وبدأوا يقطعونهم إرباً.

قال كارل بروكلمان انه بما ان المماليك أهملوا تطوير المدفعية، على اعتبار انها سلاح لا يليق بهم، فقد عانوا من هزيمة ماحقة.

هرب طومان باي وبحث عن الملجأ لدى شيخ بدوي، كان قد انقذه قبلاً. لكن الشيخ خالف تقليد الضيافة البدوية المقدس وسلم ضيفه الى الاتراك، ودفع الثمن غالياً في وقت لاحق.

وصف ابو الشؤون العربية الروسية. كيه. إم بازيلي هذه الأحداث كما يلي: انجز المماليك معجزات في الشجاعة اثناء المعارك على حدود مصر، في غزة وفي القاهرة. لكن خيانة اثنين من البكوات سلمت مصر الى الاتراك. سقط خمسة وعشرين الف مملوك قرب القاهرة، وقتل عدة آلاف آخرين من قبل سليم اثناء احتلال العاصمة، وعندما لم تعد هناك اية فرصة للإفلات من السيف العثماني، استمر بقيتهم في الكفاح مدة طويلة مع سلطانهم سيء الحظ الذي انهى السيادة الشركسية على ضفاف النيل بمرثية مؤثرة، كتبت على حجر الهرم الخالد في لهيب المعركة ".

اعدم الاشرف طومان باي شنقاً يوم ١٣ نيسان عام ١٥١٧ تحت قوس بوابة القاهرة في باب زويلة. عانى المماليك الشراكسة من الهزيمة في الحرب القاسية غير المتكافئة. على اية حال، وكما قال مونتين العظيم " هنالك هزائم، يثير مجدها حسد المنتصر ".

كان طومان باي آخر السلاطين ولم يحكم سوى ثلاثة اشهر ونصفاً. خلال تلك الفترة القصيرة، خدم امبراطورية المماليك بطاقات خارقة، وشجاعة وتصميم وسعة حيلة. عمل كل مابوسعه لتحديث الجيش المملوكي وتجهيزه بالمدفعية والبنادق، بدون ان يلجأ الى زيادة الضرائب والمصادرة. ان جهوده الأخيرة لانقاذ مصر من الاحتلال الاجنبي مذهلة. نقتبس من السيرجون غلوب " هاجم الجيش العثماني المرة تلو الآخرى بقوات مرتجلة، معرضاً نفسه للخطر بشجاعة متهورة، وفي النهاية، مات ميتة بطل بهدوء وكرامة". انتهت معه الامبراطورية المملوكية. ادام المماليك الحكومة التي ربما كانت الاكثر خروجاً عن المألوف مما رآه العالم على الإطلاق لمدة مائتين وسبعة وستين سنة بالعنف، والغيرة، وانعدام الخوف والابداع.

في الحقيقة، كانت الامبراطورية المملوكية واحدة من اعظم القوى في تاريخ الإنسان. يقول خوتكو "لم يكتف المماليك الشراكسة بترؤس هذه الدولة الأقوى في العصور الوسطى، بل كانوا في قلب السياسة العالمية لمدة طويلة. كانت القاهرة عاصمتهم، ومنها حكموا العالم الاسلامي وأثروا في اوروبا ثقافياً، علمياً وسياسياً. لو لم يحطم فرسان المماليك المبدعون الذين لا مثيل لهم في الدنيا، الغزو المغولي في سوريا، ويهزموا الصليبيين ويخمدوا الحشاشين، لكان العالم يختلف اليوم حتماً. بغض النظر عن كل ذلك، يظل تاريخهم غير مدروس عملياً".

العوامل الرئيسة التي اسهمت في هذه الحالة المحزنة لتاريخ المماليك الشراكسة هي عوامل التحامل الوطنية والدينية المستمرة التي زرعت لقرون طويلة في اعماق الوعي الانساني. مازال المؤرخون والكتاب العرب والمصريون مترددين في الاعتراف بالاسهام الذي

لا يقدر بثمن الذي لعبه المماليك الشراكسة في تاريخ وثقافة الاسلام، لأن كبرياءهم القومي لا يسمح لهم بالاعتراف بان هؤلاء الحكام اللامعين لم يكونوا مصريين أو عرباً من حيث الأصل. يحاول المؤرخون والكتاب من العالم الغربي ان يتجاهلوا الدور الذي لعبه المماليك في تاريخ العالم لأنهم ببساطة اعتنقوا الاسلام، قاتلوا ضد الصليبيين ووقفوا حياتهم لقضية العالم الاسلامي ورفعته. نتيجة لهذا التحامل الكلي من قبل كلٍ من المسيحيين والمسلمين، فان تاريخ الامبراطورية المملوكية العظيم، التي اسهمت بمنتهى الجود في عصر النهضة الثقافية للعالم الاسلامي واوروبا، والعالم كله بشكل عام، يبقى متجاهلاً.

السؤال هو، ماالذي يكسبه العالم من رفضه الاعتراف بمديونيته للمماليك على انقاذ سوريا، فلسطين ومصر والبحر الابيض المتوسط من التدمير المغولي الرهيب؟ لكن خدمة المماليك لم تنتهي هنا. كذلك اوقفوا تقدم التركمان الآسيويين الرحَّل، الذين اخضعوا العراق، شمال بلاد فارس وشرق آسيا الصغرى للتدمير المتكرر. بلاد فارس، التي كانت في غابر الأيام واحدة من اعظم وأغنى واكثر الأمم تمدناً في العالم، لم تتعافى منهم مطلقاً. لو لم يكن المماليك موجودين في مصر وسوريا ايامها، لوقف تقدم هذه القبائل الرحَّل: الاغنام البيضاء والسوداء على حد سواء، فما هو الثمن الذي كانت اوروبا ستضطر الى تقديمه والى متى في تحمل تدميرهم الذي كان سيعيق الحضارة الغربية؟ حسناً، ذلك مجرد جزء واحد من الدور الذي لعبه المماليك الشراكسة في التاريخ.

## الصعود الثاني للمماليك الشراكسة الى السلطة.

كان الاتراك العثمانيون قد حطموا الامبراطورية المملوكية القوية من خلال استخدام الأسلحة النارية. على مدى أيام، استمروا في قطع رأس كل مملوك عثروا عليه في القاهرة. وقع شيني بك، القائد العام للجيش المملوكي، ضحية للخيانة وأعدم، مثل سيده الشجاع، السلطان طومان باي، الذي تم أسره بالخيانة، تصرف بكرامة وكبرياء عظيمين. في النهاية، احضر الى السلطان التركي. يقول ابن زنبل، ان هذا هو ما قاله طومان باي لسليم: " انتم لستم فرساناً افضل منا ولستم اكثر منا شجاعة، وليس هنا، في كل جيشك، من يستطيع ان يقابلني في ميدان المعركة.. " في المجسم العربي المصغر، الذي يصور اعدام طومان باي، يحيط الجنود المسلحون بالسيوف الشركسية. بجسمه المعلق، الفاقد للحياة. كتب ديميتري كانتيمير: " لقد ملأ هذا المنظر المصريين بالرعب، ولكنه كان مصدر سرور سري لهم، لأن هذا الشعب الذي ظل يخفي كراهيته تجاه السيطرة الطاغية للشراكسة زمناً طويلاً، ركض

بمجموعه نحو سليم ووعده، بل وعد الجنس العثماني كله، بالولاء الأبدي. " الواضح انهم فشلوا في رؤية وتقدير دفاع المماليك المستميت الدائم عن بلادهم ضد الغزوات الاجنبية، وانهم لم تكن لديهم النية للانحناء لحكم الأجنبي.

أوصل الاكتساح العثماني لمصر، ووفاة طومان باي: وجود الامبراطورية المملوكية الى نهايته، لكن المماليك ظلوا قوة عميقة الجذور في تلك البلاد. بغض النظر عن صعوبة وضعهم، ظلوا يعبرون عن كراهيتهم تجاه المحتلين بشكل مكشوف. اقتحم بعض مماليك طومان باي الخاصين، الذين نجوا من الاضطهاد العثماني، القلعة في الليل للانتقام لاعدام سيدهم. فقد كانوا فخورين بانجازاتهم ولم تكن لديهم نية للاعتراف بالحكم العثماني عليهم.

عبَّر ابن اياس عن حالة النفسية للاستقراطية الشركسية " لقد قتل ابن عثمان ابطال مصر، يتم اطفالها، استعبد رجالها – لم يحصل شيء مشابه منذ ايام الملك نبوخذ نصَّر ". ثم اضاف " يقولون ان ابن عثمان اخذ معه الف بعير عندما غادر مصر، محملة بالذهب والفضة، وهذا بدون احتساب الغنائم، التي تكونت من الأسلحة، البورسلان، البرونز، الخيول، البغال، الجمال و..... الرخام الممتاز. وانتقى من هذا أفضل الأفضل...الادوات التي لم يسنح لآبائهم واجدادهم ان يفرحوا باستعمالها ". وهكذا انتهت حقبة حكم السلاطين الشراكسة المذهلة في مصر، الذين دافع كل منهم عن مصالح امبراطورية المماليك ودنيا الاسلام ودفعها الى الأمام.

كانت أغنى المدن في تلك العصور تحت سيادة المماليك. نهبت جميعها بلا رحمة. يقول هنري هارت ان التجارة ازدهرت مع الهند اثناء حكم المماليك الشراكسة. ازدهرت الاسكندرية كما فعلت فقط ايام البطالسة. ذهل الكشاف البرتغالي بيرودي كوفيليان، الذي زار الاسكندرية والقاهرة اثناء حكم قايتباي، من الثراء المدهش لهاتين المدينتين. انتهى كل هذا مع هزيمة الشراكسة.

لابد وان سليم ادرك تماماً انه سيكون في منتهى الصعوبة الابقاء على بلاد بهذه القوة وهذا البعد تحت حكمه. وحسب القاعدة القديمة " فرق تسد "، قرر أن يترك حكم البلاد المفتوحة لاسيادها السابقين. وهكذا، احتفظت مصر وسوريا باستقلالهما الداخلي بعد هزيمة المماليك. كتب في. في. بارتولد " بقي كل شيء كما كان سابقاً في البلاد التي افتتحها سليم من حيث الجوهر، رغم تغيير الزي العسكري وبعض العادات الخارجية. تم تعيين القادة الشراكسة حكاماً عامين لمصر وسوريا. حتى الرسوم التي جمعت في مصر بقيت هناك ولم ترسل الى القسطنطينية. احتفظ الحرس المملوكي بتنظيمه السابق ورواتبه. غضب رعايا

سليم من سلطانهم، لأنه اخذ المملكة من الشراكسة لمجرد اعادتها اليهم، بدون أية فائدة او مزايا للعثمانيين: رأى الاعداء في هذا علامة ضعف ". حسب رأي الكتاب العرب، لوكان العثمانيون قادرين على حكم الأقاليم المفتوحة بانفسهم، لما اعادوا مصر الى خير بك وسوريا الى جانبيردي الغزالي أبداً.

تشكلت وحدات خيالة شراكسة في الجيش العثماني من المماليك الناجين، الذين كانوا موالين لطومان باي حتى النهاية، ومن مماليك خير بك. اصبح اسمها الجديد جماعة الجراكس (الفرقة الشركسية). كتب إن. إيه. ايفانوف ولكن، اضطر المماليك الى التخلي عن شكلهم الأنيق النبيل فلبسوا القفطان والطاقية والأحذية التركية. ولم يحتفظوا من روعتهم السابقة الا بلحاهم. ميزهم هذا الأمر عن السباهي ( الخيالة ) العثمانيين، الذين كانوا يحلقون ذقونهم كلياً وبدقة ".

يوم ٢٩ آب عام ١٥١٧ جرى تعيين خير بك حاكماً عاماً لمصر، وفي السادس عشر من نيسان عام ١٥١٨ أصبح شركسي خائن آخر، جانبيردي الغزالي، حاكماً لسوريا. تلقى كل منهم املاكه طيلة الحياة. اضافة الى ذلك، حكم خير بك تحت لقب ملك الامراء. وقعت يوم ١٦ تشرين الأول عام ١٥١٧ حادثة ترمز الى انتقال المماليك تحت السيادة المطلقة للباب العالي. في ذلك اليوم، حمل الروم ( الاتراك العثمانيون ) علماً من قلعة دمشق الى الجامع الأموي. كان هذا العلم الأحمر، بدون تطريز، يحمل الهلال الفضي في أعلاه، والذي حل محل العلم الاكثر روعة العائد للمماليك الشراكسة، المكون من المخمل الساتان الأصفر، وعليه تطريز وهلال ذهبي.

توصل الخبير في شؤون المماليك بي. إم. هولت الى استنتاج: ان إدارة مصر اثناء ولاية خير بك استمرت في اتباع ممارسات السلطنة المملوكية ". لم يدخلوا العثمانيين الى الإدارة. كانت حامياتهم المؤلفة من الانكشاريين بشكل رئيس، مركزة في المدن الكبرى. ظلت تركيبة الفرق العثمانية تتغير باستمرار ولم يؤثر قادتها بأي شكل من الأشكال في المسار الحقيقي للأحداث. يرمز اللقب الملكي لسيف الدين خير بك " الى المنزلة الخاصة لمصر كحليف وتابع للباب العالي ". بقي بلاط خير بك متوافقاً كلياً مع البروتوكول المملوكي. احتفظ بجيش خاص وظل مستقلاً بدرجة مطلقة في شؤونه الداخلية. سخَّر خير بك كل جهوده لإعادة النظام التقليدي في الحيازة، التعليم والترقيات العائد للمماليك.

بغض النظر عن كل ذلك، اعتبر العثمانيون مصر جزءاً من الامبراطورية العثمانية. في البداية ، قسَّم سليم امبراطورية المماليك الى ثلاث مقاطعات هي حلب ودمشق ومصر.

رسمياً، كان الباشا الذي يرسل الى مصر من قبل السلطان العثماني، حاكماً لها. في الواقع، ظل البكوات المماليك يحكمون جميع مناطق البلاد. كل منطقة (محافظة ) كان لها "البيك" الخاص بها، والذي يمتلك أفضل الأراضي. تؤشر هذه على المرة الثانية التي اسس فيها المماليك الشراكسة حكمهم على هذه البلاد.

المدهش الى درجة كبيرة، هي أنه صدر الأذن للمماليك الشراكسة بامتطاء الجياد وحمل الأسلحة بعد مغادرة سليم. في ذلك الوقت، يقال أن حوالي خمسة آلاف من المماليك كانوا يسكنون القاهرة وما حولها. احتفظ بعضهم باقطاعياتهم، رغم ان البعض الآخر وصل الى حالة الفقر المدقع.

لابد وان سليم أخطأ في احتساب الصعوبات التي سيواجهها في حكم مثل هذه البلاد الواسعة كمصر، وفي التعامل مع المماليك الشراكسة الاشداء، الذين اسسوا جذوراً ضاربة في اعماق تلك البلاد. تبعاً لذلك، بدأت مشاكله تتضاعف في مصر. اخذت الحامية العثمانية غير المنضبطة تثور، تتحدى الأمن والنظام، تسرق المدنيين الابرياء وتخطف البنات. رفض العديد من الانكشاريين والسباهي مجرد الذهاب الى دمشق، فروا من الخدمة العسكرية وتبعثروا في القرى المصرية. كذلك، هرب من الحامية المخصصة لحلب مائة وخمسين جندياً عثمانياً في ايار عام ١٥١٨. لذلك، لم يعد لدى الحكومة العثمانية في مصر خيار غير طلب المساعدة من المماليك الشراكسة. الواضح أن الاخيرين رأوا في هذا الحدث فرصة ممتازة للانتقام فوافقوا على تقديم العون. خرج طابور مماليك شركسي لمطاردة الاتراك الفارين من الخدمة وقطعوا رأس كل واحد أمسكوه منهم.

كتب هوود جارفيس في معرض الإشارة الى هذه المسألة " عام ١٥١٧، احتل سليم واتراكه البلاد.... بعد الاحتلال اصبحت مرتبة مصر في البداية باشوية، يعرف حاكمها التركي باسم الباشا فقط. على اية حال، سرعان ما استرد المماليك سلطتهم السابقة. بحلول القرن الثامن عشر تحول الباشا الى مجرد شخص تافه واصبح الحاكم المملوكي للقاهرة – شيخ البلد – السيد الحقيقي للبلاد.

تمركزت وحدة خيالة شركسية في القاهرة، بسبب حركات العصيان المتكررة للجنود العثمانيين. ومع ان الدولة العثمانية كانت تدفع رواتب الخيالة الشراكسة، إلا انهم لم يعترفوا سوى بسيادة قادتهم المماليك. تدريجياً، " فقدت الامبراطورية العثمانية معظم سلطتها في مصر وعادت البيوتات المملوكية العظيمة لتستلم السلطة ".

عام ١٥٢٠، اعاد خير بك الى الشراكسة طراز ملابسهم السابق. الغيت وضعية المملكة التابعة مع وفاة خير بك في تشرين الأول عام ١٥٢٢. حقق هذا الشخص حلمه في حكم مصر بثمن هو احط انواع الخيانة. لكنه كان نتاج الحقبة وممثلاً نمطياً لشعبه. كتب حكيم امين عبد سعيد أن كل مملوك شركسي كان يريد ان يصبح سلطاناً.

اثناء الوقت الذي حكم فيه خير بك مصر سلمياً، كانت الاحداث العاصفة تجتاح سوريا. في البداية، كان جانبيردي الغزالي موالياً للأتراك العثمانيين. أخمد الثورات البدوية بقسوة. بشكل خاص، سحق ثورة الشيخ ابن الحنش، قرب بعلبك، عام ١٥١٩. ضعفت شوكة البدو الى درجة انهم امتنعوا عن مهاجمة القوافل والقرى فترة طويلة. بكلمات ابن إياس " حل وضع أمني في البلاد الى درجة ان الذئب والشاة كان بوسعهم المشي سوية ". تعلم جانبيردي درساً من هزيمة مرج دابق، فأنشأ فرقة من حملة البنادق بين مماليكه. لم يستطع جانبيردي ودوائره الشركسية ان يتعلموا الاجراءات العثمانية فباتوا ينتظرون اللحظة الملائمة، لإعادة تأسيس سلطتهم وامتيازاتهم. بعد وفاة سليم في ايلول عام ١٥٢٠ مباشرة، ثار النبلاء المماليك، بقيادة جانبيردي وبدعم من شيوخ البدو. دمرت الحامية التركية في دمشق. اعلن جانبيردي انفصال سوريا عن الامبراطورية العثمانية واعلن نفسه ملكاً ( الملك الاشرف ). نفي الاتراك من كافة مدن سوريا الرئيسة، باستثناء حلب. تمكنت الحامية في حلب من الصمود حتى وصول جيش من الاناضول. يوم ٢٧ كانون االثاني عام ١٥٢١، قاسى جيش جانبيردي من هزيمة ساحقة في معركة مسطب، قرب دمشق. حاول الملك المملوكي ان يهرب متخفياً بزي درويش، لكنه القي القبض عليه وأعدم. الغي الحكم الذاتي لسوريا.

حكم الخائن المملوكي الآخر، خير بك، مصر اكثر من خمس سنوات. توفي يوم ٦ تشرين الأول عام ١٥٢٢ عن ستين عاماً.

خلف سليم ولده سليمان. أوغرت ثورة جانبيردي صدر السلطان الجديد على المماليك. ارسل مصطفى باشا الى القاهرة ليعيد تنظيم ادارة البلاد على النمط العثماني. اعتبر وصوله الى القاهرة يوم ٨ تشرين الثاني عام ١٥٢٢ بداية لتغيير شامل. فقد ظلت مصر التي افتتحها الاتراك العثمانيون تحكم من قبل الامراء المماليك.

مع وصول الحاكم العام الجديد، مصطفى باشا، اصبحت مصر مقاطعة عادية للامبراطورية العثمانية تحت سلطة كبير البكوات، الذي يخضع له قادة الحاميات، الكاشفون ( ممثلو الحكومة في المقاطعات ) وشيوخ البدو. كان كل الكاشفين مماليك. حُلَّ الحرس المملوكي، لكن افراده انضموا لاحقاً الى الفرقة الشركسية، التي كانت واحدة من

سبع فرق تشكل الجيش العثماني في مصر. بشكل عام، احتفظ المماليك بتنظيماتهم التي مكنتهم لاحقاً من إعادة احتلال مناصبهم السابقة. كان السنجق بك، وهو في العادة من اصل مملوكي. يحكم كل مقاطعة في مصر – سنجق. في الواقع، فقد كان بكوات المماليك في القرن السادس عشر خلفاء الامراء المماليك من حقبة السلطنة. على اية حال، لم يكن شرطاً ان تخدم في الحكومة لتحصل على لقب بك، لان هذا لقب وليس منصباً. كانت رتبة بك تعني الدخول ضمن النخبة الحاكمة لمصر. لذلك، حرص المماليك بغيرة شديدة، على أن لا تتم ترقية القادة العثمانيين او البدو الى بكوات.

اثارت تصفية الحكومة المملوكية امتعاضاً قوياً للارستقراطية الشركسية وبعض القادة البدو. قام اقرب اتباع خير بك: جانم السيفي، كاشف باخنيسافيا والفيوم ( فعلياً حاكم مصر الوسطى ) و اينال، كاشف الغربية ( محافظة في مصر السفلى ) بثورة عام ١٥٢٣. ارسل مصطفى باشا رسولاً مع خطاب الى معسكر اينال، اقترح فيه ايقاف العصيان مقابل العفو. ظهر أن الرسول معروف لدى اينال منذ احداث ١٥١٦ – ١٥١٧، فأمر باعدامه لكونه " خائناً لقضية المماليك ". اتحدت قوات اينال وجانم في محافظة الشرقية وبقيت هناك حتى وصول فصائل عسكرية أخرى.

رغم ذلك، فقد تمكن جيش مصطفى باشا البالغ عدده خمسة آلاف جندي، مسلحين عن آخرهم بالاسلحة النارية، من سحق جيش الكاشفين المتمرد. قتل جانم في المعركة، ونجا اينال ثم هرب باتجاه غزة. عادت قوة المطاردة التي ارسلت في اثره خالية الوفاض. يمكن للمرء ان يستنتج انه هرب اما الى القفقاس، او الى اليمن التي كان الامراء الشراكسة يحكمونها.

بعد إخضاع التمرد، لم يعاقب على الأغلب سوى المشاركين الفاعلين. لأنه، على سبيل المثال، اصبح كاشف باخنيسافيا والفيوم من عائلة جانم في منتصف القرن السادس عشر.

حدث عصيان آخر للمماليك عام ١٥٢٣ تحت قيادة قانصوه بك المحمدي. كان مدعوماً من قبل فلاحي عدد من المقاطعات، الذين ساءت اوضاعهم كثيراً اثناء حكم العثمانيين مقارنة بايام السلطنة المملوكية. وصل العصيان الى درجة ان قاسم باشا، الحاكم العام الجديد، أخبر الباب العالي عن عدم استطاعته السيطرة على الوضع في البلاد. على اية حال، لم تستطع كتيبة قانصوه بك الصغيرة، والفلاحين عديمي الخبرة في شؤون الحرب، مقاومة البنادق العثمانية. اخضعت العصيان بقسوة، واعدم قائدها الذي كان قد نادى بنفسه سلطاناً.

وصل احمد باشا، الحاكم العام الجديد الى القاهرة في كانون الأول عام ١٥٢٣. كان من اصل جورجي، قائداً بارزاً ورجل دولة في الامبراطورية العثمانية. استولى في نفس السنة على آخر معاقل الصليبيين في الشرق، جزيرة رودس، وتوقع ان يحصل على منصب الوزير الاكبر، كجائزة له على هذا النصر المهم. لكن سليمان القانوني عيَّن ابراهيم باشا، المفضل لديه، وزيراً اكبر، وقدم مصر للجورجي المحب للسلطة. شعر أحمد بامتعاض رهيب، عندما وصل الى المكان المحدد له، وجد بسرعة لغة مشتركة مع المعارضة المملوكية.

نستطيع ان نرى بان الشعور بالوحدة القفقاسية كان قد تطور بقوة ملحوظة خلال تلك الحقبة. كانت هذه هي المناسبة الوحيدة التي اصبح فيها حاكم عثماني عام لمصر، قائداً لحركة انفصالية للمماليك. يوم ٢٤ كانون الثاني عام ١٥٢٤، اعلن احمد نفسه سلطاناً على مصر واعلن عودة الدولة المملوكية. القى القبض على جانم الحمزاوي، الضابط الشركسي الذي قدم معه من القسطنطينية، والذي لعب دوراً هاماً في العلاقات بين القاهرة والقسطنطينية منذ العام ١٥١٧. حضر قائد الانكشاريين المصريين الى أحمد ليعبر عن سخطه على ما يجري، لكنه قبض عليه هو الآخر وأعدم. بسبب قلة اعداد الشراكسة، قرَّب احمد الزعماء البدو اليه، ومنحهم وظائف في وزارة الخارجية. تلقى البدو كمية كبيرة من الضياع ليصبحوا دعماً يمكن الاعتماد عليه للعهد الجديد في المستقبل. كتب إن. ايه. ايفانوف " حاول احمد باشا، في معرض بحثه عن حلفاء جدد، أن يؤسس ارتباطات مع البابوية الرومانية، السيد الأعلى لمذهب يوحنا، والشاه اسماعيل الصفوي " تلقى احمد باشا لقب " قابيل " لمحاولته التوصل الى اتفاق مع الشيعة في دواوين التاريخ العثماني.

أثار احضار البدو الى الواجهة حفيظة الفلاحين وسكان المدن البرجوازيين. رفض الفلاحون دفع الضرائب. في القاهرة، ثار العامة، بتحريض من جانم الحمزاوي، الشركسي المرتد الذي افرج عنه من السجن. فوُجئ احمد بالثورة وهو في الحمام. هرب من القاهرة بصعوبة بالغة، تجول في الارياف حتى القي القبض عليه واعدم في السادس من آذار عام ١٥٢٤.

لا يعرف الكثير عن المزيد من تاريخ المماليك في القرن السادس عشر لقلة ماكتب عنهم في السجلات. كان البكوات المماليك يجري تجنيدهم مع فصائلهم في خدمة السلاطين العثمانيين للقيام بعمليات عسكرية خارج حدود مصر. وكانت سلطة الحكام العامين قوية وتسلطية بما يكفي لحفظ العهد.

بحلول هذا الوقت، بدأت الامبراطورية العثمانية التي وصلت الى سمت قوتها اثناء حكم السلطان سليمان، تتراجع بعد وفاته عام ١٥٦٦. بدأت عند نهاية هذا القرن، تزحف تدريجياً نحو منطقة الأزمة. انعكس ذلك على حالة الأوضاع العامة في اقليم ابعد واكثر غنى، وهو مصر. إذ تبدأ منذ العام ١٥٨٦، سلسلة من الثورات المسلحة للوحدات التركية، التي تطالب اما بزيادة الرواتب او بالدفع المنتظم لها. حدثت عصيانات اخرى مشابهة للوحدات العسكرية والحاميات في الاعوام ١٥٨٩، ١٥٩١ و ١٦٠١. في مثل تلك الحالات، كثيراً ما كان نائب الملك العثماني يلجأ الى دعم العائلات المملوكية الرائدة، الذين كانوا الآن يسمون البكوات بدلاً من الأمراء.

حسب النظام العثماني، كان لمصر نائب ملك وقائمقامين. كان الاخيرون مماليك على الدوام: حينما يغادر نائب الملك، كان القائمقام يعين في مكانه حتى يحضر خلفه. باختصار، أصبح البكوات المماليك في هذا الزمن يسيطرون على البلاد سيطرة شبه تامة.

يمكن تقسيم تاريخ المماليك للحقبة العثمانية الى ثلاثة أجزاء رئيسة: الفترة الأولى من عام ١٥١٧ وحتى ١٧١١، والتي يمكن تسميتها الفترة العثمانية حقيقة، لأن الباشا التركي كان مسيطراً خلالها. القسم الثاني من عام ١٧١١ وحتى ١٧٩٨، تلقى في علم التاريخ اسم الإمارة أو البكوية المملوكية ويميزها اهمال تام لهيمنة السلطان التركي على مصر. الفترة الثالثة من عام ١٧٩٨ وحتى ١٨١١، تتميز بالتفكك التام للنظام المملوكي.

خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر وحتى بداية التاسع عشر، كان البكوات المماليك، باستثناء قلة قليلة، من أصل شركسي. ومن بينهم، لعب الشراكسة الدور الحاسم كما فعلوا في الماضي. زاد عدد الاباظه والمنجريليين بينهم بشكل ملحوظ، بالمقارنة مع الفترة السابقة. مع حلول منتصف القرن الثامن عشر، لم يشكل البكوات الشراكسة اكثر من نصف العدد الإجمالي للطبقة المملوكية الحاكمة، بينما شكّل الشراكسة حتى منتصف القرن السابع عشر، الغالبية العظمى.

رغم ذلك، لم يغير السكان المحليون مفهومهم عن الأصل العرقي للغرباء الذين يحكمونهم واستمروا، محافظين على التقليد المستمر من قرون، بتسميتهم شراكسة. يفسر موقفهم هذا بحقيقة ان بلاد الشراكسة زودت هذه المنطقة بعدد كبير من المماليك. كقاعدة، قدمت بلاد الشراكسة مماليك اكثر من كل اقاليم القفقاس الأخرى. أدت السيطرة العددية لممثلي هذه المجموعة العرقية الى التعريف بهم مع بقية المماليك، بمن فيهم اولئك المتحدرين من اصل غير قفقاسي.

اضافة الى ذلك، من المهم جداً ان نلاحظ، ان احدى الفرق العثمانية في مصر "جماعة الجراكس" تشكلت حصرياً من الشراكسة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كما في الماضي. يشهد على ذلك البيانات التي قدمها كل من الجبرتي وبي. ام. هولت. ابديت الأفضلية في اجتذاب المرتزقة والعبيد الشراكسة بسبب سمعتهم العالية جداً في الدوائر العسكرية. شعر أوليا تشلبي، المسحور بشجاعة فرسان القرم، شعر باضطراب شديد وهو يشاهد كيف يقوم الشراكسة بذبح " فرسان الاسلام " بدون اكتراث ، وصف الشراكسة باختصار ووضوح شديدين " إنهم يدخلون المعركة مثل دببة غاضبة ". لاحظ الرحالة الفرنسي فولني كونستانتين فرانسوا " يضع الاتراك قيمة أعلى للعبيد الشراكسة او الشركس، من الابخازيين ".

كانت " العائلات " التي انشئت من قبل غير الشراكسة، موجودة في النظام المملوكي ( القرنين السابع عشر والثامن عشر ) . لكن زعماء هذه العوائل – البيوتات، كانوا يجبرون على شراء عدد كبير من العبيد الشراكسة حتى يتمكنوا من منافسة البيوتات الشركسية، وقد قوي نفوذ هؤلاء حتى احتلوا المراكز القيادية في هذه البيوتات – العائلات. وهكذا اصبحت عائلة الكازدوغلي الجورجية ( المنجريلية ) التي صعدت الى السلطة منتصف القرن الثامن عشر، شركسية مع نهاية ذلك القرن.

شارك قادة المماليك بفاعلية كبيرة في الاضطرابات العسكرية للوحدات العثمانية في مصر منذ نهاية القرن السادس عشر وحتى بداية السابع عشر. في تلك الفترة، على كل حال، لم يكونوا قد دخلوا في مواجهة مفتوحة مع نائب السلطان، مفضلين أن يحرِّضوا قادة الفرق العثمانية.

حدث العمل السياسي المستقل الأول للمماليك عام ١٦٣٠ – ١٦٣١، واتخذ صفة انفصالية على الفور. جمع موسى باشا، نائب السلطان زعماء المماليك تحت قيادة الامير الشركسي قيطاس بك واعلن عليهم أمر السلطان بالزحف ضد بلاد فارس. كان يفترض ان تكون قيادة الحملة لقيطاس بك، لكن الباشا الجشع، بعد أن جمع الضرائب واستدان مبلغاً من قيطاس بك نفسه، اخبر القسطنطينية انه ليس لديه اية اموال لتنظيم الحملة، وان البكوات الشراكسة يعترضون على هذا الوضع. أغضب تصرف الباشا المماليك بشدة. اراد قسم منهم معاقبة نائب السلطان على الفور، لكنهم امتنعوا عن ذلك من قبل قيطاس بك. دفع ثمن تردده. يوم التاسع من تموز عام ١٦٣١، واثناء الاحتفال بالعيد، هوجم قيطاس بك. اصيب بجرح قاتل في الاشتباك وتوفي على الفور. تبع ذلك رد الفعل من البكوات على الفور.

قادوا فصائلهم في القاهرة، قبضوا على الباشا وطلبوا منه تفسيراً مقنعاً. رفض الباشا ان يقول اي شيء وارسل خطاباً الى السلطان مراد الرابع.

بعد ان عين المماليك قائمقام (مساعد نائب سلطان مؤقت )، من بين صفوفهم، ارسلوا خطاباً الى القسطنطينية يحتوي على روايتهم للأحداث مع طلب بانشاء منصب قائمقام جديد كضمانة ضد تصرفات المحاسيب. اعطى السلطان رداً ايجابياً للوفد المملوكي، ما يعني عملياً أنه وافق على استبدال نائبه. وهكذا، أوجد المماليك سابقة لتغيير الباشا غير المرغوب فيه بينهم. منذ ذلك الحين، اصبحت كل القوة الحقيقية في ايدي القائمقام المملوكي، وغطس الباشوات حسب كلمات نابليون " في انعدام الشخصية ".

بعد وفاة قيطاس بك، وصلت وحدة المماليك الى نهايتها. انقسموا الى فئتين رئيستين: الفقارية والقاسمية. اصبح رضوان بك على رأس الفئة الأولى. ينحدر من عائلة شركسية نبيلة، يعود بنسبه الى برقوق وبرسباي، ويتمتع بنفوذ هائل على قطاعات واسعة من المجتمع المصري. كان بيت الفقاري عائلة شركسية نقية وبقي كذلك حتى لحظة انهياره منتصف القرن الثامن عشر. كان بيت القاسمي، المؤسس في بداية القرن السابع عشر من قبل قاسم الشركسي، يعارضه. بحلول عام ١٦٣١، كان القاسميون برئاسة قانصوه بك (قانشاو). اشترى قانصاوبك عدداً كبيراً من العبيد البوسنيين ليحتفظ بمحيط يعتمد عليه، ولا يستسلم لدعايات قادة الفقارية. كان ساعده الأيمن ماماي بك [١] وهو شركسي.

شغل رضوان بك الفقاري المنصب الاكثر وجاهة وهو امير الحج، وكان في مكة المكرمة اثناء الاحداث المذكورة آنفاً. كان مساعده علي بك يقوم بقيادة الفقارية في القاهرة. حكم رضوان بك مصر خمسة وعشرين عاماً، لكنه لم يحاول مطلقاً أن ينادي بنفسه سلطاناً. خلال عهده، قاد قوافل الحج سنوياً الى المدن المقدسة كالمعتاد. بقي مركزه القيادي في عهدته بسبب النفوذ والشعبية اللتين تمتع بهما بين الناس. حاولت المعارضة المتحالفة مع الباشا مرة واحدة أن تخلعه وفشلت. عامي ١٦٣٥ و ١٦٣٧، عينه السلطان مراد الرابع قائداً على الحملة العسكرية الموجهة ضد بلاد فارس، لكن رضوان باشا تجاهل مراسيم السلطان. ثم عين نائباً للسلطان في الحبشه ( اثيوبيا ) عام ١٦٣٩. علم رضوان بك بذلك التعيين اثناء رحلته الى

---

(١) هذا هو القائد المملوكي الثاني الذي يحمل اسم ماماي "التتاري" . كان الامير الشركسي ماماي قائدالشرطة اثناء حكم السلطانين قانصوه الغوري وطومان باي الثاني . يصادف هذا الاسم أيضاً بين القفقاسيين الشراكسة على شكل "ماماي" و"مامي" يحتمل أن ديكتاتور الحشود الذهبية ماماي ، الذي قاد التتار في ميدان كوليكوف ، من نسب شركسي . اثناء حكم ماماي ، حكم الحاجي شركس في استراخان ، وهو طامح مثل جانوقه جركس او جانكاسيوس زيخ ، حاكم سولخات في القرم (في الواقع نائب الملك لشبه جزيرة القرم ) الذي حاول ماماي المهزوم ان يختبئ لديه .

الحج فذهب مسرعاً الى القسطنطينية. كان مراد الرابع حانقاً عليه، فاتجه رضوان بك الى صديقه خوجا جورجي ( جورجي ) الوزير الاكبر. على اية حال، سرعان ما اندلعت ثورة في القصر وصعد ابراهيم الأول ديلي ( المجنون ) الى العرش، الذي قرَّب كل شخص اضطهده شقيقه. عاد رضوان بك الى القاهرة منتصراً واستأنف منصبه، أمير الحج.

عام ١٦٤٧، حاول الباشا، بمساعدة القاسمية، ان يتخلص من رضوان بك، لكن الأخير استدعى علي بك مع مماليكه على وجه السرعة من مصر العليا وهزم القوات المتحدة للباشا، قانصوه بك وحليفه ماماي بك. استطاع الباشا ان يتحصن في القلعة، لكن كلا البيكين قبض عليهما وسجنا. وافق السلطان ابراهيم على افعال رضوان بك. تم استدعاء الباشا. انهى كل من قانصوه بك وماماي بك حياتهما في السجن.

تصرف الباشا الواصل حديثاً بمنتهى السلبية، ولكن بعد استبدال ابراهيم المجنون، بدأ يحرض المماليك المعارضين، وقام عام ١٦٥١ بدعوة علي بك الى القلعة في غياب رضوان بك، واسبغ عليه لقب امير الحج. اراد بهذا العمل ان ينسف وحدة الفقارية ويحظى بالسلطة لنفسه. على أية حال، اندفع مماليك علي بك في اليوم التالي الى مسكن الباشا واعتقلوه. لدى عودة رضوان بك، استقبله علي بك بحفاوة استقبال المنتصر. توفي علي بك عام ١٦٥٥، ولحقه رضوان بك عام ١٦٥٦.

انقسمت عائلة الفقارية بعد وفاة علي بك ورضوان بك، الأمر الذي مكَّن نائب السلطان من تعيين احمد بك اميراً للحج. كان احمد بك زعيم القاسمية وهو بوسني. ثار القاسميون واستبدلوا الباشا ثم نفوا احمد بك البوسني من القاهرة. شغل قائد الشراكسة، حسن بك منصب امير الحج. مع ذلك، استمر احمد بك في نسج المؤامرات واستطاع عام ١٦٥٩ ان يتبوأ منصب القائمقام. عام ١٦٦٠، تسببت سياسته في قيام نزاع مسلح، انجرت اليه القوات التركية المسلحة والبدو وحتى الفلاحين البسطاء وسكان المدن، اضافة الى المماليك. حمل هذا النزاع تسمية " حرب البكوات ". في النهاية، حلت بالفقارية هزيمة واضطر الى التخلي عن مناصب عالية لصالح صنائع البوسنيين. لكن حكمه لم يدم طويلاً بكل الأحوال. فقد ذهب في تموز عام ١٦٦٢ لتهنئة الباشا على انتهاء مهمته، فالقي القبض عليه وقطعت رأسه. تظهر حقيقة صعود المماليك البوسنيين الى قمة السلطة، كما كتب السيرجون غلوب " ان مصر بقيت كما في السابق، جنة للجنود الباحثين عن الثروة الضخمة ".

في هذا الصراع على السلطة لحكم مصر، بدأ العثمانيون يفقدون نفوذهم لصالح المماليك تدريجياً، وبعد عام ١٦٧١، تسلمت البيوتات المملوكية القوية السلطة. أصبح

القائمقام مملوكاً على الدوام. وسيطر البكوات على البلاد بدرجة شبه كاملة. استطاع رضوان بك الفقاري ان يهِّمش نواب السلطان في مصر.

بعد عام ١٦٧٥، دعمت عائلة الفقارية الانكشاريين، بينما دعمت القاسمية حامية الأباظه في الصراع الذي نشب بينهما.

استمر التناحر على مدى السنوات الثلاثين التي اعقبت ازاحة أحمد بك، ولو بدرجة خامدة بين العائلتين المملوكيتين. بحلول عام ١٦٩٢، استجمع الشراكسة قواتهم، وظهر بينهم زعيم على درجة عالية من الهمة والنشاط: ابراهيم بن ذو الفقار. استطاع بمناوراته الذكية ان يشل القادة الاتراك ويجعل السلطة طوع بنانه. اراد ابراهيم بك ان يعيد الهيمنة الكاملة للفقارية على مصر، لكن جائحة الطاعون انتشرت في مصر عام ١٦٩٤، ووصلت الى حياته نفسها. سيطر بكوات الشراكسة من عائلة رضوان بك على البلاد حتى عام ١٧١١. في نفس الوقت، استمرت عملية " شركسة " عائلة القاسمية بنشاط. في نيسان عام ١٧١١، ثار مماليك القاسمية. جرت معركة قاسية قرب القاهرة، قتل فيها عيواظ بك احد قائدي القاسمية. اتخذت احداث عام ١٧١١ شكل الحرب الأهلية وسجلت في تاريخ مصر تحت اسم "العصيان العظيم". لم يتخل القاسميون عن اسلحتهم ويستسلموا بعد هزيمتهم الأولى. اكثر من ذلك، جذبوا قادة الوحدات التركية وزعماء البدو الى صفوفهم بالدعايات التركية. عانى شراكسة الفقارية، الذين وجدوا انفسهم في حالة عزلة، من الهزيمة. خدع زعيمهم قيطاس بك(١) وادخل في كمين قتل فيه عام ١٧١٤.

بعد مقتل قيطاس بك، شغل بكوات عائلة القاسمية المناصب المهمة في الحكومة. بين عامي ١٧١١ وحتى ١٧١٩، كان القائمام هو البوسني ابراهيم، اكبر آل القاسمية سناً. كان امير مصر ( حاكم القاهرة ) اسماعيل بك، نجل عيواظ. كان في مصر أربعة وعشرين - سنجق بك- في مصر. نصفهم ينتمي الى عائلة القاسمية: ثلاثة من عائلة الفقارية، والبقية لفئات أصغر. على كل حال، من بين عشرين بك قاسمي، كان خمسة شراكسة. قائدهم هو ابو شنب. وهكذا انقسمت عائلة القاسمية فعلياً الى قسمين بحلول عام ١٧١١: العيواظية التي يرأسها اسماعيل بك وشراكسة ابو شنب. بقي الأخير موالياً لاسماعيل بك بن عيواظ وابراهيم بك حتى وفاة قائدهم عام ١٧١٨. بعد ذلك، بدأوا يشعرون بدعم ابناء جلدتهم من عائلة الفقارية. ترأس هذه الجماعة جركس محمد بك، او جركس بك. كان هذا قائد

---

(١) كان، حسب علمنا، آخر مملوك شركسي يحمل اسماً أديغياً صرفاً. كتب اندريه دهراين ان المماليك اعطوا اسماء اسلامية خلال الحقبة العثمانية: محمد، علي، اسماعيل، ابراهيم، احمد وهكذا. استعمل اسم قيطاس بدرجة شائعة بين شراكسة القفقاس في القرن الثامن عشر: مثلاً، كان قيطاس اسم أحد قادة البجدوغ في معركة بزيوك.

الانكشاريين المصريين في الحرب بين تركيا والنمسا. حمل محمد بك اسم شركس في الدوائر الانكشارية، الأمر الذي يؤكد على أصله.

فور سماعه بوفاة ابراهيم بك، عاد شركس بك الى مصر مسرعاً. رأى فيها ان اسماعيل بك بن عيواظ قد ورث السلطة كاملة. كان صغير السن لدرجة ان النساء في القاهرة اطلقن عليه لقب " كريم بك "، كان شركس بك يتمتع باكبر قدر من السلطة من بين كل المماليك الذين اشتراهم القاسميون، واعتبر نفسه وريث ابراهيم بك بحق، خاصة وانه، حسب التقاليد المملوكية، لم يكن ابناء المماليك ضمن النخبة الحاكمة، ولايفترض فيهم ان يرثوا سلطة وقوة آبائهم. في البداية، خلف اسماعيل بك والده عيواظ بك، ثم ورث ابراهيم بك. اعتبرت هذه مخالفة صريحة للتقاليد في نظر المماليك. اكثر من ذلك، كان من بين المتعضين ابناء ابراهيم بك. ولا يستطيع ان يضمن الحفاظ على ارواحهم وممتلكاتهم الا اتباع ابراهيم بك.، لأن المملوك كان مجبراً على اظهار الولاء لعائلة مؤسس البيت. اثناء الامارة المملوكية (١٧١١ – ١٧٩٨)، كما لاحظ د.أيالون، اشتد التناحر بين الفئات المملوكية المختلفة. وكان السبب الرئيس لهذا التناحر في نظر هذا الخبير بشؤون المماليك، هو الابتعاد عن القاعدة الحيوية لتنظيم المماليك، والذي لا يمكن بموجبه تسليم طبقة أو منصب مملوك الى الإبن عن طريق الإرث.

يقدم هـ. دهراين تاريخ شركس بك بتفصيل أشمل، فهو لم يكتف بمعلومات سجل الجبرتي، بل استند أيضاً الى تقارير القنصلية الفرنسية في القاهرة. كتب " انفجرت الحرب الداخلية بين اسماعيل بك ومحمد بك شركس يوم السادس من حزيران عام ١٧١٩. لم يتوقف سفك الدماء لمدة أحد عشر يوماً. قتل العديد من الرجال في هذه الحرب، حسب تقرير القنصل الفرنسي ليمبير المؤرخ في ٢٧ حزيران عام ١٧١٩. انهزم محمد بك واضطر الى الهروب من القاهرة مع خمسين مملوك. لكن البدو ادركوا مفرزته، وحصل اشتباك قرب بلبيس. سقط جميع المماليك وهم يحمون سيدهم، لكن شركس محمد استمر يقاتل. انكسر سيفه الى قطع، لكنه سحب سيفاً أخر كان معلقاً في سرجه، استطاع بواسطته ان يجندل عشرين رجلاً، وفي النهاية، أسر بعد ان اصيب بطعنتي رمح، واعيد الى القاهرة. أظهر خصمه اسماعيل بك قدراً كبيراً من التسامح الانساني. لم يعدم محمد، بل اكتفى بنفيه الى قبرص ".

رغم ذلك، لم يكن شركس بك رجلاً يتقبل ضربات القدر بالخضوع. بحلول ٢٠ ايلول، عاد الى القاهرة سراً وبدأ يحيك خيوط المؤامرة ضد اسماعيل بك. كتب ليمبير " دفع

للسلطان خمسمائة الف قرش، بشرط أن يعيد اليه املاكه وسلطته ". في القاهرة نفسها، وجد محمد بك ( شركس بك ) دعماً كبيراً من الفرقة الانكشارية التي كانت ماتزال على ولائها لقائدها السابق، وكذلك من نائب السلطان رجب باشا، الذي رأى في ثروة اسماعيل بك غنيمة مغرية.

حدث انقلاب يوم ٢٠ تشرين الثاني عام ١٧٢٠. استغل رجب باشا ذهاب اسماعيل بك الى مكة المكرمة، والقى القبض على اثنين من اكثر مساعديه نفوذاً في الديوان ( مجلس الدولة ) وقطع رأسيهما على الفور. بعد ذلك، عين الباشا شركس بك أميراً ( حاكماً ) للقاهرة وألبسه ثياب الامير النفيسه بيديه واهداه عدة رائعة لجواده. توجه شركس بك الى منزل ابناء ابراهيم بك، سيده السابق، بصحبة مفرزة من الانكشارية. ظل ابناء الشعب البسطاء، ذوي الولاء المتقلب، يهتفون له بصوت عالٍ طيلة الطريق. في هذه الاثناء، قام الباشا التركي بمصادرة اربعمائة قرية تابعة لاسماعيل بك.

قطع محمد بك الطريق الى السويس على رأس مفرزة من الف رجل، من اجل القبض على اسماعيل بك لدى عودته من الحجاز. اكتشف البدو المتمرسون في مثل هذه الأمور، الخطة. احضروا اسماعيل بك الى القاهرة بعد أن البسوه ثياب أمرأة. وهكذا بدل الخصوم ادوارهم.

حرَّض البك الشاب الاعيان والنبلاء ضد الباشا " الذي سلَّم هذه البلاد الى سيطرة السلطان كلياً ". اتخذ محمد بك جانب المتآمرين فجأة. فقد وحَّد التطلع الى التخلص من الباشا التركي الرجلين اللذين كانا عدوين. نجح اسماعيل بك في تحريك الناس. فقد سانده جميع قادة الميليشيات وجميع البكوات تقريباً. وهكذا حقق المتآمرون النجاح بسرعة فائقة. بعد اطلاق صلية واحدة من البنادق وبضعة قذائف مدفعية على القلعة، استسلم رجب باشا وفرضت عليه الإقامة الجبرية. لم يمارس اي دور مهم في شؤون مصر بعد تلك الحادثة. حكم محمد بك مصر شخصياً حتى بداية عام ١٧٢٦. كتب ليمبير يوم ١٧ تموز ١٧٢١ " في الوقت الحاضر يحكم شركس كل هذه المملكة. انه يبني قصوراً جميلة، ومحاط على الدوام بسبعة بكوات ". شغل ثلاثة عشر بك اهم المناصب في الدولة.

رغم ذلك، لم يشعر شركس بك بالأمان على شخصه. توصل الى اتفاق مع ذو الفقار بك، زعيم الفقارية، للتخلص من اسماعيل بك. اطلق مماليكه النار على اسماعيل بك على درجات قصره. تم التخلص من جميع بكوات عائلة العيواظية. بعد هذه الضربة، لم يستطع المماليك البوسنيون أن يتعافوا، ولم تعد لهم اية سلطة مستقلة في مصر.

وهكذا بحلول عام ١٧٢٥، تكرر الموقف الذي ساد عام ١٦٤٧. حينما عارض الامراء الشراكسة من مختلف البيوتات بعضهم بعضاً. لم يقبل شراكسة الفقارية بالسكوت على موقعهم الثانوي. يوم التاسع من شباط عام ١٧٢٦، دخلت فصائل ذو الفقار بك الى القاهرة وحاصرت مقر اقامة شركس بك. قاوم الأخير بضراوة مع مجموعته الصغيرة، رافضاً الاستسلام، وقام بهجمات يائسة. في اليوم التالي، اخترق شركس بك صفوف القوات المحاصرة بعد ان رأى استحالة الموقف، بصحبة خمسين من مماليكه، وهرب.

عثر شركس بك على الملاذ في طرابلس، ليبيا، التي كان الباشا الذي يحكمها يطبق سياسة انفصالية بدوره. هرب جميع من بقي في عائلة القاسمية، وكل الذين استاؤوا من ادارة ذو الفقار بك، نحو شركس بك في طرابلس الغرب. اشتعلت الحرب البينية بقوة جديدة عام ١٧٢٩، مع تصاعد المرارة من الجانبين. ارسل ذو الفقار بك قوة من ثلاثة آلاف رجل تحت قيادة عثمان بك " الثائر شركس ". سحقه شركس بك وزحف على القاهرة. لكنه، على كل حال، لم يتمكن من احتلال المدينة. اشترك البيكان العدوَّان خلال شتاء عام ١٧٢٩ – ١٧٣٠ في حكم مصر. تمسك ذو الفقار بالعاصمة، بينما سيطر شركس بك على باقي البلاد كلها. ارسل خطاباً الى الشقيقين يوسف وسليمان ابو ضايف، تابعيه السريين في القاهرة. يوم ١٢ نيسان عام ١٧٣٠ إندفع البيكان، بصحبة ثلاثة عشر مملوكاً الى داخل قصر ذو الفقار وقتلوه. لكن الوقت كان تأخر فقد كان ذو الفقار قد أمر قوة كبيرة لتخرج من القاهرة تحت قيادة علي بك في المساء السابق. أخذت قوات محمد بك شركس على حين غرة، فانهزموا وتفرقوا. حاول شركس محمد بك ان يهرب واندفع ليسبح عبر النيل، لكن حصانه الجريح لم يتمكن من حمله وغرق. سقطت جثته في شباك صيادين وانتشلت من النهر. نهبت ملابسه ودرع الزرد الذي يرتديه. تعرف احد المماليك على شركس بك من خاتمه وقام بدفن جثمانه بالاحترام الواجب.

في صراع ذو الفقار ضد القاسمية، حظي بدعم من عائلة كازدوغلي، بزعامة ابراهيم كتخدو كازدوغلي، قائد الاوجاق التركي ( فرقة عثمانية ). كان هذا يشغل منصباً مهماً في الكياه ( ادارة الشؤون ) للباشا التركي، خلال العام ١٧٣٠. كتب فيشنياكوف في تقاريره من استنبول " كان له نفوذ عظيم في حكومة الشؤون المحلية، وساعد على تحسين وضع العلاقات الشائكة بين البكوات بشكل خاص ". احاط ابراهيم كياه نفسه بعدد ضخم من المماليك من اصل جورجي والمنجريليين بشكل خاص. رغم ذلك، لم يحاول ان يرفعهم الى

رتبة بكوات، فقد ادرك جيداً، أنه بمجرد ان يصبح مماليكه بكوات، سيصبح بيته عرضة لهجمات المماليك القاسمية والفقارية.

بعد وفاة ذو الفقار، اصبح عثمان بك زعيم آل الفقارية. اتخذ لنفسه لقب شيخ البلد، الذي ابتدعه شركس بك للمرة الأولى، وحكم مصر حتى عام ١٧٣٩. بعد ذلك احتل ابراهيم بك كاهيا ذلك المنصب من عام ١٧٤٨ وحتى ١٧٥٤. عام ١٧٥٦ اصبح علي بك شيخ البلد، وبدأ يأمل في اعادة انشاء الامبراطورية المملوكية.

حكم السادة الاقطاعيون القفقاسيون ( المماليك من أصل شركسي، ابخازي ومنجريلي ) مصر من فترة حكم محمد بك شركس وحتى غزو نابليون. حمل حكم البكوات القفقاسيين طابعاً استبدادياً. لكن اسلوب تصرفهم تجاه الباب العالي ساعد على تنامي استقلال مصر بطريقة موضوعية، وعلى دخولها المعترك الدولي بصفة مستقلة. كتب ايفانوف " كان تنامي قوة المماليك يحرك مصر بعيداً عن الامبراطورية العثمانية. توجهوا في حكمهم البلاد الى التقاليد المحلية للجماهير والحياة الحكومية، كما تبنوا العلماء والشعراء والموسيقيين المصريين، ودعموا التقاليد المحلية واللغة. شددوا على اصالة مصر بكل طريقة ممكنة، فساعدوا بذلك على ايقاظ الوعي الوطني للشعب المصري و تقوية المشاعر الخاصة في البلاد".

وصف كونستانتين فرنسيس فولني الذي زار سوريا ومصر في الاعوام ١٧٨٣، ٨٤ و ٨٥، من بين عدة أمور، حياة شركسي اسمه علي بك ( ١٧٢٨ - ١٧٧٢ ). وصل في سن الثانية والعشرين الى منصب حاكم محافظة في مصر. بعد ثلاثة عشر عاماً، اصبح هذا الشركسي شيخ البلد، اي حاكم بقية المحافظات كلها. في تلك السنة، منح لقب " الكبير " الشديد الاحترام. بعد بضعة اشهر سحق الحامية التركية في القاهرة واحتل المدينة. ثم ذهب الى الحجاز وسوريا قائداً للجيش المملوكي وحقق عدة انتصارات. اختير علي بك خليفة على مكة المكرمة. وهكذا، حررت مصر نفسها من الامبراطورية العثمانية ونالت استقلالها مرة أخرى.

كتب محمد حفيتسه " حتى اثناء الازمنة العثمانية الصعبة، تمتع بكوات مصر بالحرية الكافية لتقوية الجيش المملوكي والجيش بكامله. استغلوا هذه الحرية واحضروا العديد من المقاتلين من القفقاس، أديغه على الأغلب، ثم اباظه ومنجريليين. كان من بينهم يوسف الاباظي، البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة، نجل داود شوجن، من ضفاف الكوبان. اصبح هذا فيما بعد احد أشهر المماليك. هو الذي تشرف بحمل لقب الكبير، واشتهر اسمه

لشجاعته وحكمته. لكن حياته كانت قصيرة. خلفه مراد بك وابراهيم بك، التابعين لعلي بك الكبير، وحكما مصر بالاشتراك. استمرا في حكم مصر حتى هاجم نابليون القاهرة. اشتبك الفرنسيون والمماليك عام ١٧٩١ عبر النيل قرب إمبابه، غير بعيد عن الجزيرة ".

عام ١٧٣٩، عزل عثمان بك الفقاري نتيجة لعصيان، قام به ابراهيم الكازدوغلي، فهرب أولاً الى مصر العليا ثم الى القسطنطينية حيث توفي عام ١٧٧٦. رغم ذلك، لم يتمكن مماليك كازدوغلي من احراز موطئ قدم ثابت على البلاد كلها. استمرت الحرب الأهلية حتى عام ١٧٤٨، لكنها لم تكن حرباً بين الشراكسة والجورجيين. فقد كان بين الكازدوغليين العديد من الشراكسة والاباظه، وكان رضوان بك قائد الفرقة الشركسية، حليفاً مخلصاً لابراهيم كتخدو. نتيجة لهذا الصراع، فقد الفقارية أخيراً مركزهم القيادي في القاهرة وجميع اقاليم مصر. منذ هذا الوقت وحتى عام ١٨١١، حكم مماليك كازدوغلي البلاد، على الرغم من حقيقة أن فترة هيمنة البكوات الجورجيين مقتصرة على خمسة وعشرين عاماً، من ١٧٤٨ الى ١٧٧٣، حين صعد الأباظي محمد بك ابو الذهب الى السلطة.

مارس ابراهيم كتخدو السلطة متجاهلاً استنبول. ظل منصب الباشا شاغراً اثناء حكمه لفترة طويلة، ولم تعد الضرائب ترسل الى السلطان. كان يقود المعارضة ابراهيم بك شركس. كتب التاجر والرحالة الأرمني لوزينيان، مؤلف كتاب " تاريخ ثورة علي بك ضد الباب العالي العثماني " أن ترفيع ابراهيم كتخدو من المماليك الجورجيين الى رتبة بك قد ارسى اسس العداء بين الابراهيمين، والذي لم ينته الا بعد أن أصبح ابراهيم الجورجي ضحية للجانب الشركسي عام ١٧٨٨ ". رغم ذلك، حسب رأي الجبرتي، فقد مات ابراهيم كتخدو ميتة طبيعية عام ١٧٥٤.

بعد ابراهيم كتخدو، انتقلت السلطة كلها إلى يدي رضوان بك، الذي لم يكن راغباً في الحكم مطلقاً، لكنه كان شغوفاً بمهنته المفضلة وهي بناء القصور. إعتبر ابراهيم بك شركس رضوان بك خائناً للقضية الشركسية لأنه لم يرفع أياً من مماليكه او جنوده الى رتبة بك. نتيجة لذلك، عندما اشعل الزعيم الجديد للكازدوغليه: علي بك، ثورة بعد ستة أشهر، تم استبدال رضوان بك لعدم تمكنه من المقاومة. كذلك كان مصير بيت الكازدوغلي، والذي عانى منه أيضاً الفقارية والقاسمية والبيوتات المملوكية الأخرى. فقد تبع ذلك صراع طويل على السلطة المطلقة بين العشائر المنفصلة. انتهى الصراع عام ١٧٦٣، حينما وصل علي بك الى السلطة واتخذ لقب شيخ البلد. وصلت انفصالية المماليك الى ذروتها اثناء حكم علي بك. فقد اعلن نفسه سلطاناً على مصر، احتل الحجاز وبدأ الحرب ضد الامبراطورية

العثمانية بهدف امتلاك سوريا. توحدت القوات المملوكية غير المتناسقة لتشكل جيشاً واحداً قوياً، قام بحملات ناجحة ضد الاتراك، السوريين والبدو. اعطى كل هذا اساساً للمؤرخ ك. إم بازيلي ليؤكد بان علي بك اعاد إحياء الجبروت الشركسي على ضفاف النيل. لم يكن علي بك نفسه شركسياً. فكما يقول لوزينيان الذي عرفه شخصياً، هو مولود في ابخازيا، في عائلة القس المسيحي دافيد. وقد توصل المؤرخ جي إيه ماميكويان من ذلك الى ان أصله جورجي.

أول عمل قام به علي بك بعد وصوله الى السلطة، هو تدبير اغتيال ابراهيم بك شركس. بعد ذلك رفَّع محمد الابخازي، مملوكه الخاص، الى رتبة بك. تشكلت الدائرة الأقرب لعلي بك من ستة عشر بك: ثلاثة ابخاز، تسعة جورجيين ( منجريليين ) واربعة شراكسة.

بدأت المجموعة الشركسية تزداد قوة داخل الكازدوغليين تدريجياً. ادت هذه العملية بحلول العام ١٧٧٣، الى شبه تعادل في ميزان القوى. بعد ان استولى على السلطة، قام محمد بك ابو الذهب بقتل بعض زملاء السلاح لعلي بك، ونفى بعضهم الآخر خارج مصر. اضافة الى ذلك، ترك معظم رفاق السلاح لعلي بك الشراكسة والابخاز جانبه، وانحازوا الى محمد بك، مع انه كان اصغر سناً منهم بكثير. تعرض علي بك للخيانة وقتل في مواجهة وحشية، قتل فيها معه حراسه الشخصيين.

استمر محمد بك في سياسة سلفه وقام عام ١٧٧٥ بغزو فلسطين. يكتب ه. آي. كيلبيرت " في حمأة المعركة، وبعد الاستيلاء على غزة ويافا وعكا توفي محمد بك فجأة " تم اختيار تابعه الأقرب " مراد بك الشركسي، قائداً جديداً للمماليك بالإجماع. اضافة الى ذلك، يخبرنا الجبرتي ان الأمراء انصاعوا الى مطالب مماليك مراد بك. وقد كان مماليك مراد بك، في غالبيتهم العظمى، من ابناء قبيلته، كما يشهد بذلك كل من ارتين باشا، والجبرتي وكلوتا انثيوني.

تشارك مراد بك في حكمه مع زميل السلاح والمعسكر ابراهيم بك الكاخيتي. توافق الرجلان القويان للمرة الأولى منذ عقود. احتل ابراهيم بك منصب شيخ البلد، بينما أصبح مراد بك امير الحج. حسب اللغة المعاصرة، كان الأول رئيساً لحكومة مصر، والثاني القائد العام لقوات المماليك المسلحة. في الواقع، كان كل منهما منغمساً في العمل الذي يميل اليه. تقنعنا سجلات الجبرتي ان الحاكم الفعلي في عيون السكان المحليين كان مراد بك، لأنه ظل يتدخل في شؤون الإدارة باستمرار ويقرر الأمور العسكرية كلها شخصياً. كتب الجبرتي: " كان مراد بك خفيف الشعر متوسط القامة وذو بنية قوية، له لحية كثيفة وصوت خشن. كان يحمل ندبة في وجهه من ضربة سيف. كان طاغية، غير عادل وقاسياً، متعجرفاً، مغروراً

ومعتداً بنفسه ". كان في فصيله عند غزو نابليون ١٢٠٠ مملوك، بينما لم يكن لدى شريكه في الحكم سوى ٦٠٠ مملوك. وقد كان لخفض عدد المماليك الجورجيين سبب موضوعي بحت، من بين أمور اخرى. فقد تجنب وكلاء المماليك وتجار العبيد الاقتراب من حدود جورجيا، حيث كانت مشاعر السكان والحكام عدائية تجاه الاتراك. بعد الحرب الروسية - التركية للاعوام ١٧٦٨ - ١٧٧٤، تعهد الباب العالي بعدم التدخل في الإدارة الداخلية لإيميريتيا ومنجريليا. عام ١٧٨٣، قبل قيصر جورجيا ( كارتليا وكاخيتيا ) ايراكلي الثاني الحامية الروسية حسب معاهدة جورجيفسكي. في ذلك الوقت وصلت مفرزة روسية الى جورجيا " ساعدت على دحر غارات الأجار ". باختصار، اصبحت جورجيا منطقة في غاية الخطورة اثناء الثلث الاخير من القرن الثامن عشر، بالنسبة لتجارة العبيد، ولم يعد بكوات الكازدوغلي الجورجيون قادرين على التمتع برفاهية الإحاطة بابناء جلدتهم حصرياً. على العكس من ذلك، لم يتعرض بكوات الشراكسة الى اية صعوبة في هذا الميدان.

وجه غزو الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨، الضربة الأقسى الى السيادة المملوكية. على اية حال، كان المماليك الشراكسة والقبجاك. بقيادة الامير بيبرس،قد تصدوا لجيش لودفيك التاسع عام ١٢٤٩. كذلك،، قابل المماليك الشراكسة والجورجيين، بقيادة الامير مراد بك، جيش نابليون.

حسب رأي إي. في. تارل، فقد ظل الحكام الفرنسيون يفكرون بمصر منذ ايام لويس الرابع عشر. حتى وزير الشؤون الخارجية المتميز، شوازيل فكر بمصر اثناء حكم لويس الخامس عشر. بعد الثورة ألقى تاليران محاضرة في اجتماع الاكاديمية الفرنسية حول المنافع التي يمكن لفرنسا ان تجنيها من امتلاك مصر. بعد أن قرأ نابليون مقالات سافاري وفولني، أصبح شديد الاهتمام بهذا المشروع. سيوجه احتلال مصر ضربة وحشية الى النفوذ البريطاني في الشرقين الأدنى والأوسط. جاءت شكاوى القنصل الفرنسي ماجالون في القاهرة حول الظلم المملوكي كذريعة جيدة لتنظيم الحملة. هناك اقتباس من مذكرات نابليون نفسه يقول عن هذه المسألة ما يلي: " عام ١٧٧٥، ابرم المماليك معاهدة مع الشركة الانجليزية الهندية الشرقية. منذ تلك اللحظة أصبحت العائلات التجارية الفرنسية تتعرض للإهانات وكل انواع الإذلال. اعلن الباب العالي أنه لا يمكنه عمل شيء في هذا الصدد، لأن المماليك " شعب جشع، ملحد وينزع الى العصيان ".

اقترب الاسطول الفرنسي من الاسكندرية يوم ٣٠ حزيران ١٧٩٨. بدأ الانزال بمجرد هبوط الظلام. كتب نابليون " ولكن عند الساعة الواحدة ليلاً، علم قائد المدينة كورايم

من عربي بدوي، أن الكفار احتلوا حصن مرابط، وان البحر مغطى بقواربهم، وان شاطئ البحر قد حال الى السواد من الجنود الذين نزلوا عليه. ثم ركب حصانه واسرع الى هناك مع عشرين مملوكاً. عند الفجر، واجه مفرزة من حملة البنادق الفرنسيين من المركز العسكري المتقدم، هاجموه، قطعوا رأس النقيب القائد وحملوه منتصرين عبر شوارع الاسكندرية ".

لقد وصف الكثير من المؤلفين هذه الحرب بدقة، من ضمنهم نابليون نفسه، ستمكننا بعض المقتطفات منها أن نقيِّم الجانبين من حيث الأحقية.

هذا وصف فيجو روسيليون للحرب الفرنسية - المملوكية : " المعركة الأولى، التي تلقت اسم شبريس من اسم احدى القرى، برهنت لنا أننا سنتعامل في مصر مع افضل الفرسان في الدنيا، وان لدى المماليك خيولاً ممتازة. وهم يركبونها بمهارة ويستخدمون اسلحتهم بشكل ممتاز. عثر جنودنا على الكثير من الذهب، الحجارة الثمينة والأسلحة الرائعة على الميتين.

اننا نلاحق من قبل العدو باستمرار، ومن بعيد، بالبدو. كل شخص يتخلف مئتي خطوه وراءنا، هو شخص ميت ".

اثناء هذا الزحف، اقترب أحد الضباط المماليك بجواده الى فصيلنا وصاح بالايطالية: "اذا كان بين الفرنسيين رجل شجاع، فأنا بانتظاره!" لم يكن اي من فرساننا في حالة تسمح بقبول هذا التحدي. لاحقنا المملوك، مستمراً في اهانتنا، وهو يطرد حصانه حولنا ". استمر الجيش بنفس النظام، كما في الأيام السابقة، أي بفرق مربعة.

وفجأة، حوالي الساعة العاشرة صباحاً، لاحظنا العدو على البعد. خلف العدو، الى اليسار قليلاً، كان يمكن تمييز معسكره: خيام وبيارق من مختلف الألوان. فوق هذه الخيام العالية، وكما في أيام الصليبيين، رفرفت الاعلام والأهلة المذهبة. في البعيد، كانت مآذن القاهرة العالية قد بدأت تظهر، وعلى اليمين هيمنت الأهرام. اكتسب وسط هذه الصورة الرائعة الحيوية بوجود الجيشين الجاهزين للقتال.

" من الصعب تخيل اي شيء على هذا القدر من الجمال، اكثر روعة وبهاءً وتنوعاً من فرسان المماليك. فقد غطوا السهل بكامله......وقد اجتذبت الألوان البراقة لملابسهم وروعة بيارقهم أبصارنا. بدا لنا عدد الفرسان اكثر بكثير عما كان عليه في الواقع، لأنهم وقفوا في جبهة ممتدة وعلى صف واحد، يشكلون بين الواحد والآخرين ثلاث الى خمس خطوات، لاعطائهم مزيداً من الحرية في ركوب خيولهم وفي استخدام اسلحتهم بشكل أفضل ".

قدَّر نابليون عالياً شجاعة المماليك واعجب بفنونهم القتالية " لم ينتظر العرب أبداً

ابتداء هجمات الفرسان الفرنسيين، ربما لأن عددهم كان أربعة لواحد " كتب في مذكراته " على العكس من ذلك، استمد المماليك شجاعتهم من احتقارهم للوضع..... لم يتحرك الخيالة الفرنسيون في كتائب كبيرة أبداً، بدون مصاحبة جياد المدفعية. قبل الهجوم دأب المماليك على اطلاق النار من المدافع، من البنادق ومن مسدسين يحملهما كل منهم..... واحد على المعدة، والآخر على الصدر. كان الرمح محمولاً من قبل " السايس " الذي يتبع الفارس راجلاً. كانوا ميليشيا شجعاناً وجميلي المنظر ". باختصار، فقد اصطدم اقوى الجيوش الأوروبية في ذلك الوقت في مصر مع عدو خطير ذي شأن رفيع.

حصلت المعركة الشهيرة قرب الأهرام يوم ٢١ تموز عام ١٧٩٨. عرض المماليك بقيادة مراد بك ومعسكرهم الأخاذ عند اقدام الأهرام، وانتظروا قدوم العدو، واثقين من النصر. لم يزد عددهم عن اثني عشر ألفاً، بينما وصل عدد الفرنسيين، حسب معلومات كلوت بل الى اكثر من ثلاثين ألف. لم يشارك خيالة ميورات، الذين تشكلوا من ألوية ليكليرك و زايوينتشيك في المعركة فعلياً، لأنهم كانوا متمركزين داخل المربع. لم يستغل المماليك امكانية مهاجمة الفرنسيين ليلاً، حيث كان يمكنهم، بسبب براعتهم في التعامل بالسيف والخنجر، ان يقتلوهم جميعاً أو غالبيتهم. بالنسبة لفرسان القفقاس، لاشك في ان مثل هذا العمل الحقير، أمر لا يمكن مجرد التفكير فيه. عند الفجر، انتشر الجيش الفرنسي على ضفة النيل استعداداً للمعركة الفاصلة. يتذكر رئيس هيئة اركان الجيش الفرنسي، المارشال بيرتي " كان الخط مقسماً بالطوابير والفرق، والتي كانت الى جانب بعضها، استدارت جانباً الى اليسار. أمر بونابرت الخط بالتحرك، لكن المماليك الذين ظهروا وكأنهم ثابتين حتى تلك اللحظة، توقعوا ذلك، وهاجموا الوسط بضراوة مهددينه، تحديداً على فرقتي ديزي ورينيير، اللذين شكلا الميمنة. هاجموا الطوابير الذين وقفوا ثابتين ومستعدين، والذين لم يفتحوا النار قبل ان يسمحوا لهم بالتقدم الى نصف مرمى المدافع وطلقات البنادق. تحطمت الشجاعة المتهورة للمماليك امام جدران النار، وسياج الحراب. تقلصت صفوفهم من العدد الهائل ممن قتلوا او جرحوا، والذين غطوا ميدان المعركة. وسرعان ما انسحبوا بدون نظام.... " تذكر المحاربون الفرنسيون القدماء هذا الهجوم المجنون الرائع لمدة طويلة، والذي لم يختبروا مثيلاً له بعد ذلك مطلقاً. كان هذا تحديداً نوع الهجمات ضد فرسان القديس لويس ومغول هولاكو – خان الذي لم يقدروا على مجابهته في القرن الثالث عشر. بالحكم على ملاحظات بيرتي ومذكرات نابليون، فقد وقعت معركتان اقتصرتا على الفرسان فقط خلال الحملة المصرية الكاملة. وقد استطاع المماليك ان يجبروا الفرنسيين على الفرار في الموقعتين.

جنَّد نابليون بونابرت سرية من المماليك كجزء من حرسه الخاص. مع ان المماليك كانوا الحراس الشخصيين للامبراطور، الا انهم شاركوا في العمليات الحربية، وبشكل خاص في معركة اوسترليتز، حيث وضع هجومهم المباشر المستمر القرار بالنسبة لنتيجة الحرب. لدى عودته من مصر كان نابليون " يحمل السيف التركي دائماً ويظهر في العلن، مصحوباً بالمماليك بازيائهم القومية ". حتى في عام ١٨١٢، ظل المماليك جزءاً من حرس الامبراطور. "كان المملوك رستم حارسه الشخصي المفضل. وهو ارمني الجنسية، بيع في وقت ما من قبل وكيل مماليك في بلاد الشراكسة. يظهر في اللوحة التي رسمها سكوت " هزيمة نابليون في الممر عبر نهر بيريزنيا ". راكباً حصانه خلف نابليون. يعكس لباسه مزيجاً غربياً من ازياء المماليك والفرنسيين: الجواد مزين على طريقة المماليك، ويرتدي الفارس سراويل عريضة، ومسلح بسيف تركي معقوف، مسدسين على الصدر، ومع كل هذا سترة فرنسية بصدر مفرد بياقة عالية ويعتمر قبعة الفرسان الفرنسيين. ظل رستم يحرس الامبراطور طيلة الطريق من موسكو الى باريس. كتب عنه في. ايه بوغوصيان: "جاءت سنة ١٨١٤ المصيرية. وقَّع نابليون وثيقة تنازله عن العرش الأولى يوم السادس من نيسان. في تلك الأيام، اقدم العديد من كبار المسؤولين والقادة العسكريين على خيانته. بدا وكأنه قد تعود على خيانة رفاقه في السلاح له. على اية حال، يمكن للمرء ان يتخيل درجة ذهوله، حينما يكتشف خيانة الشخص الذي يدين له اكثر من أي شخص آخر بمهنته الحياتية الرائعة. يوم ١٨ نيسان، وقبل يومين من مغادرة نابليون الى جزيرة إلبا، حيث اضطر الى قضاء بقية حياته ، خانه مملوكه رستم. صحيح، أنه عرض مئة يوم من خدماته على نابليون، لكن الأخير رفض قبولها ".

ظل المملوك الآخر المقرب من نابليون: خوزت علي، وهو شركسي الأصل، مخلصاً لسيده العظيم حتى نهاية حياته على جزيرة سانت هيلانة. وبعد سنوات ثلاث من ذلك، عاد خوزت علي الى بلاد الشراكسة وهو في سن السادسة والاربعين، ليسكن في مسقط رأسه، قرية على نهر بسه كوبس. هناك اسم حارس شخصي شركسي آخر لامبراطور فرنسا، مذكور في أدبيات. بي. يو. أوتليف " مساء السابع من تشرين الأول عام ١٨١٢، حينما غادر نابليون الأول منطقة الكرملين في موسكو، ركب خلفه مباشرة شركسي اسمه ريجستان وخلفه – مارشالات فرنسا ". بعد هزيمة نابليون، استقر المماليك في مرسيليا، بعد أن اسسوا فيها مستعمرة كاملة. حاول الملكيون المتعصبون أن يدمروا مستوطنة المماليك المسالمة، لكنهم تراجعوا في كل مرة مجللين بالخزي. ادرك المماليك انهم لن ينعموا بعيش آمن في مرسيليا، فانتقلوا الى بلدان أخرى تدريجياً.

غادرت بقية الجيش الفرنسي مصر نهاية ايلول عام.١٨٠١ قامت جيوش السلطان، والتي تشكل القسم الرئيس فيها من فرقة البانيين - ٤٠٠٠ شخص، انجليزي وشركسي، باحتلال هذه المنطقة. انبثق موضوع السلطة بكل حدته. احتل المماليك على الفور مركزهم السابق كأسياد اقطاعيين في البلاد، لكنهم كانوا قد أضعفوا بدرجة شديدة جراء الخسائر التي تحملوها في معاركهم ضد الفرنسيين. اصبح وضعهم اشد تعقيداً لأن الباب العالي منع استيراد الشراكسة، مستغلاً ضعف البكوات، وكذلك الابخازيين والجورجيين، الى مصر. كان قادة المماليك في ذلك الوقت عثمان البرديسي ومحمد الإلفي. تناسيا الاختلافات بينهما، ونزلا سوية الى ميدان القتال ضد الجيوش التركية التي ارسلها خسروف باشا. هزم المماليك الاتراك، بما فيهم الفرقة الالبانية. اراد خسروف ان يضع اللوم في الهزيمة على محمد علي، قائد الألبان. لكن الأخير انضم الى المماليك والقى القبض على خسروف. ارسل السلطان حاكماً عاماً آخر، لكنه قتل. حاول محمد علي كل شيء ممكن لجعل البرديسي والإلفي يتخاصمان، وقد حاول كل منهما أن ينتزع السلطة من الآخر، بدلاً من المشاركة فيها، كما فعل سلفيهما مراد بك وابراهيم بك. بالمناسبة، كان كلاهما شركسياً وله صلة قربى بمراد بك، الذي توفي جراء الطاعون يوم ٢٢ نيسان عام ١٨٠١. شجع تنازع المماليك "وقاحة الالبان ". فقاموا تحت قيادة محمد علي بعصيان عام ١٨٠٤، واستولوا على السلطة في القاهرة. اطلق سراح خسروف باشا. عندما ادرك الباب العالي استحالة محاولة إزاحة محمد علي عن مصر، ارسل اليه فرماناً يؤكد منصبه كنائب للسلطان.

في هذه الاثناء برز الى الساحة محمد الإلفي، العائد من رحلته الى لندن. كان قد وعد الانجليز بفتح جميع الموانئ المصرية لهم، في حالة وصوله الى السلطة. طلبت الحكومة البريطانية من الباب العالي إعادة الاعتبار الى المماليك تحت قيادة الإلفي. استجاب الباب العالي وأرسل فرماناً الى القائد الألباني بتعيينه حاكماً لباشوية سالونيك. على اية حال، عارض هذا الأمر محمد علي نفسه ومماليك مجموعة البرديسي، الذين كان لهم توجه موالٍ للفرنسيين ومصالح معاكسة لمجموعة الإلفي بطريقة مباشرة. لم يتذكر أحد المصالح المشتركة للمماليك. استمال محمد علي البرديسي الى جانبه، وتمكن، في غياب الوحدة بين المماليك، من الخروج من الموقف المتأزم، والحصول على فرمان آخر، بمساعدة القنصلية الفرنسية في استنبول، بتعيينه نائباً للسلطان في مصر.

توفي كل من عثمان البرديسي ومحمد الإلفي في نفس الوقت تقريباً. توفي الأول يوم ١٩ تشرين الثاني عام ١٨٠٦، والثاني يوم ٣٠ كانون الثاني عام ١٨٠٧. اصبحت الطريق مفتوحة

امام مؤسسة محمد علي. في الأول من آذار عام ١٨١١، دعي جميع بكوات المماليك من مصر الوسطى والسفلى الى قلعة القاهرة من قبل نائب السلطان للاحتفال بتعيين نجله طوسون باشا على رأس الحملة المصرية الى الحجاز لقتال الثوار الوهابيين. بدأ الجنود الألبان يطلقون النار من فوق على البكوات المماليك وعلى حملة سيوفهم ويعدمونهم بمجرد عبور موكبهم على الخيل بوابات القلعة، لكنهم لم يكونوا قد وصلوا الى البوابات الثانية فظلوا محشورين بين جدار القلعة والهاوية. تقول الحكايات التقليدية ان احد المماليك استطاع الهروب من المذبحة بالقفز الى الهاوية على ظهر حصانه. مازال المكان يسمى "قفزة المملوك". قتل معظم المماليك في القلعة رمياً بالرصاص. اصبح اعدامهم رمزاً لمذبحة المماليك في القاهرة والأقاليم. صودرت بيوتهم واملاكهم. هرب قسم من المماليك الى سوريا لكن المماليك الجنوبيين ذهبوا الى السودان مع عائلاتهم ومفرزاتهم الصغيرة، حيث اصبحوا اصحاب مزارع الذرة البيضاء.

عام ١٨١٦، صدر عفو عن المماليك فبدأوا يعودون الى مصر تدريجياً وبمجموعات صغيرة. يتحدث الجبرتي عن التركيبة العرقية للطبقة الحاكمة في مصر بين عامي ١٨١١ - ١٨٢٦ على انها ارناؤوطية - شركسية.

لم يشمل الغاء المؤسسات المملوكية في مصر التوقف عن استيراد العبيد من القفقاس، والذين كان معظمهم من مواطني بلاد الشراكسة.

شغل الشراكسة الى جانب الاتراك ( كان اسم اتراك يطلق على كل المهاجرين من اقاليم الامبراطورية العثمانية، بما فيهم الارناؤوط والالبان ) أعلى المناصب في الحكومة، شكل شبانهم الاغلبية بين خريجي مؤسسات التدريب العسكري. قدم محمد علي ميزات هائلة لابناء المماليك، الذين يتمتعون بالتعليم المعاصر، في التقدم ضمن الخدمة المدنية والجيش بشكل خاص. من بين ٤٤ شخصاً ارسلوا الى اوروبا لتلقي العلم عام ١٨٢٦، كان ثمانية شراكسة. من بينهم كان محمود نامي، المتحدر من عائلة مملوكية عريقة. أصبح هذا عام ١٨٣٤ حاكماً لسوريا، وشغل منصب وزير مالية مصر من عام ١٨٤٨ حتى عام ١٨٥٩.

جاء ابراهيم رأفت، الخريج الشركسي من مدرسة باريس العسكرية ، من عائلة الملاكين و كبار المسؤولين. عاد من فرنسا عام ١٨٦١. خدم في قيادة الجيش بالسودان من عام ١٨٦٣ وحتى عام ١٨٨١. تلقى عام ١٨٨١ رتبة عقيد، الأمر الذي كان يعني الدخول في طبقة النخبة العسكرية في ذلك الوقت. كذلك تخرج العميد محمد راتب، الذي درس مع ابراهيم من مدرسة باريس العسكرية أيضاً. كان في شبابه الحارس الشخصي لسعيد باشا، حاكم مصر

بين عامي ١٨٥٤ – ١٨٦٣ وخدم لاحقاً في القيادة العامة. ترفع الى رتبة عميد عام ١٨٦٤ واصبح عام ١٨٦٧ قائداً للقوات المسلحة. ثم اصبح عام ١٨٧٩ وزيراً للحربية.

في سبعينات القرن التاسع عشر، كان جميع الجنرالات شراكسة او اتراكاً. حرص هؤلاء الجنرالات على السلطة المطلقة للخديوي. كذلك ترأس الشراكسة ضباط المعارضة العرب . مؤسس الحزب الوطني ( حزب الأمة ) هو محمود سامي البارودي [١]، وهو شركسي. علي عرابي باشا منظِّر الحزب الراديكالي، وحميد أمين، المشارك النشيط في عصيان عرابي باشا، كانا ايضاً شركسيين، بعد الهزيمة، نفي الأخير الى السودان. كذلك ادى هذا الموقف الى حدوث خلافات هائلة داخل المجتمع الشركسي نفسه. ربما استمر الشراكسة من اصل مملوكي في التناحر بين بعضهم على المنصب المسيطر في جهازي الجيش و الإدارة الحكومية.

**ختاماً:**

١ – شكل الشراكسة الطبقة الحاكمة للامبراطورية المملوكية في مصر منذ أيام الفاطميين.

٢ – حكم السلاطين الشراكسة امبراطورية المماليك خلال السلالتين البحرية والبرجية.

٣ – كان بيبرس البندقداري، وهو شركسي، المؤسس والسلطان الأول للسلالة المسماة البحرية او التركية. دامت من عام ١٢٦٠ وحتى عام ١٣٨٢، وحكمها السلاطين الشراكسة على الأغلب، مثل بيبرس، قلاوون وأحفاده، الخ.

٤ – عام ١٣٨٢، أسس برقوق السلالة البرجية او المملوكية الشركسية، التي حكمت الامبراطورية المملوكية حتى عام ١٥١٧.

٥ – هزم السلطان سليم وجيوشه العثمانية المماليك واحتلوا مصر عام ١٥١٧، لكنهم سرعان ما ادركوا انهم لن يقدروا على حكمها بدون مساعدة الشراكسة.

---

(١) تتبع ارتين باشا اصوله الشركسية في رسالته الى وليم موير " مثال آخر، ربما تعرفه هو هذا الاسم، محمود باشا سامي هو من عائلة البارودي، والموجود الآن في سيلان ( منفياً – س. ك ) مع عرابي باشا. يدعي أنه متحدر من السلطان الغوري، لكن من الواضح انه نجل حفيد المملوك علي بك، الذي استند اليه إدارة مخزن الاسلحة الذي انشأه في بولاق. حتى بعد وفاة سيد علي بك، حافظ هذا المملوك على مركزه – فقد كانت خبرته بالبارود والسكب ضرورية. ومن هنا جاء لقبه البارودي. الذي يعني " صانع ملح البارود ". خلفه نجله وتزوج فتاة شركسية مملوكة: تزوجت ابنتهما الوحيدة مملوكاً شركسياً أصبح والد محمود سامي.

٦ – وهكذا خرجت الى الوجود " البكوية الشركسية "، الفترة الثانية من الحكم الشركسي للامبراطورية.

٧ – يوم ٢٩ آب عام ١٥١٧، عيَّن السلطان سليم: الشركسي خير بك حاكماً عاماً على مصر. وفي ١٦ نيسان ١٥١٨، عيَّن جانبيردي الغزالي حاكماً على سوريا.

٨ – قسَّم الامبراطورية المملوكية الى ثلاثة اقاليم: حلب، دمشق ومصر.

٩ – بدأت العائلتان المملوكيتان الفقارية والقاسمية العيواظية، تتنافسان رسمياً على السلطة في القرنين السادس عشر والسابع عشر. نائب السلطان في مصر مملوك على الدوام.

اولاً، رضوان بك، زعيم عائلة الفقارية وأمير الحج، حكم مصر خمسة وعشرين عاماً. بعده، أصبح زعيم العائلة المملوكية الحاكمة يتخذ لقب شيخ البلد ويحكم الامبراطورية. حكم محمد بك شركس المملكة بكاملها من عام ١٧٢٠ وحتى ١٧٢٦. شغل ثلاثة عشر من بكوات هذه العائلة اهم المناصب في الدولة. حكم كل من ذو الفقاربك والباشا المرسل من الحكومة التركية مصر في شتاء عام ١٧٢٩ – ١٧٣٠. في الواقع، استأثر بكوات المماليك بحكم كافة اقاليم البلاد.

١٠ – يمكن تقسيم التاريخ السياسي للمماليك خلال الحقبة العثمانية الى ثلاثة اقسام:

أ – في القسم الأول ١٥١٧ – ١٧١١، كان الباشا التركي يسيطر على مصر في البداية، ولكن جرى تشكيل قوة من الفرسان الشراكسة عادت الى ارتداء زيها القديم بحلول عام ١٥٢٠. تدريجياً، فقدت الامبراطورية معظم نفوذها في مصر، واحتفظت البيوتات المملوكية العظيمة بالسلطة.

ب – يحكم في الفترة الثانية ابراهيم بك والكاخيتي، امير الحج السابق، ويصبح الأخير شيخ البلد.

ج – في الفترة الثالثة، ١٧٩٨ – ١٨١١، لايزال المماليك يحتلون نفس مواقع السلطة ١٧١١ – ١٧٩٨، يتجاهل المماليك الشراكسة سيادة السلطان التركي على مصر كلياً . يحكم مصر محمد بك شركس وذو الفقار بك مشتركين. بعد وفاة ذو الفقار، اتخذ عثمان بك لقب شيخ البلد، الذي ابتدعه محمد بك شركس للمرة الأولى، وحكم مصر حتى العام ١٧٣٩. اصبح ابراهيم بك كاهيا شيخ البلد من ١٧٤٨ وحتى ١٧٥٤. اصبح علي بك شيخ البلد عام ١٧٥٦، نادى بنفسه سلطاناً على مصر، استولى على الحجاز واشعل حرباً ضد الاتراك العثمانيين لامتلاك سوريا. عام ١٧٧٣ تشارك مراد بك الشركسي في حكم مصر، عندما حل الاندثار الكامل للنظام المملوكي.

١١ – انزل غزو نابليون لمصر أقسى ضربة بالسيادة المملوكية. في المعركة التي وقعت قرب الاهرام يوم ٣١ تموز عام ١٧٩٨، هزم جيش نابليون الفرنسي الجيش المملوكي تحت قيادة مراد بك.

١٢ – عندما غادر الجيش الفرنسي مصر عام ١٨٠١، استعاد المماليك مركزهم الحاكم في البلاد على الفور، تحت قيادة عثمان البرديسي ومحمد الإلفي.

١٣ – قاتل الاثنان مجتمعين الجيوش التركية التي ارسلها خسروف باشا وهزما الاتراك والفرقة الألبانية.

١٤ – اصبح محمود نامي الحاكم العسكري لسوريا عام ١٨٣٤ ثم وزيراً لمالية مصر من عام ١٨٤٨ وحتى عام ١٨٥٩. خدم ابراهيم رأفت في قيادة الجيش بالسودان ١٨٦٣ – ١٨٨١. بعد ان اصبح محمد راتب علي نائباً للسلطان في مصر، دعا جميع بكوات المماليك في مصر الوسطى والوسطى الى القلعة، يوم الأول من آذار عام ١٨١١، ذبحهم وصادر املاكهم.

١٥ – عام ١٨١٦، بعد صدور العفو عن المماليك، بدأوا بالعودة الى مصر وشغل ارفع المناصب في الحكومة والجيش والاحزاب السياسية والدوائر الثقافية والعلمية. مثلاً: أصبح محمود نامي الحاكم العسكري لسوريا عام ١٨٣٤، وزيراً لمالية مصر، وحصل عللى رتبة عميد سنة ١٨٦٤، وقائداً عاماً للقوات المسلحة عام ١٨٦٧، ووزير الحربية من عام ١٨٧٩. كما أصبح احمد شوقي اميراً للشعراء الخ. وهكذا، فقد حكم الشراكسة امبراطورية المماليك منذ العام ١٢٦٠ وحتى ١٨١١، على الأقل.

• • •

## المراجع

1. Sir John Glubb، Soldiers of Furtune،  Stein and Day/Publishers، New York، 1973.

١– السير جون غلوب : جنود الثروة ، نيويورك ، ١٩٧٣ .

2С. Х. Хотко، Черкесские Мамлюки، Майкоп، 1993 г.

2. S. K. Khotko، Cherkesskiye Mamliuki (Circassian Mamelukes)، Maikop، 1993.

٢ – اس . كيه خوتكو المماليك الشراكسة .

3. Sir William Muir، The Mameluke or slave Dynasty of Egypt، 12601517- A.D.، London، 1896.

٣ – السير ويليام موير : المماليك او سلالة العبيد في مصر ١٢٦٠ – ١٥١٧

4. Rasim Rushdi، The Tragedy of a Nation، Jerusalem، 1939.

٤ – راسم رشدي . مأساة أمة ، القدس ١٩٣٩ .



المماليك الشراكسة

**بعض صور للسلاطين الشراكسة لامبراطورية المماليك**



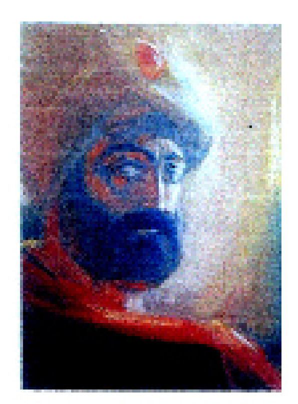
**الاشرف قايتباي**
**سلطان مصر وسوريا**
**( ١٤٦٨ – ١٤٩٦ )**



**الاشرف اينال ( قارموقه )**
**سلطان مصر وسوريا**
**( ١٩٣٨ – ١٤٥٣ )**



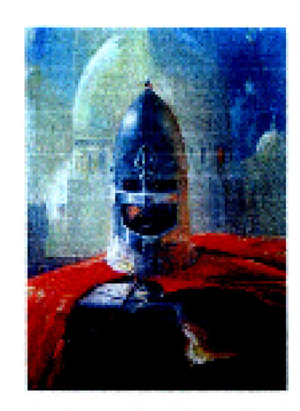
**الظاهر برقوق**
**سلطان مصر وسوريا**
**( ١٣٨٢ – ١٣٨٩، ١٣٩٠ – ١٣٩٩ )**



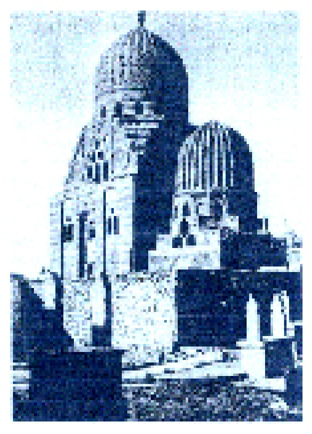
الاشرف طومان باي
سلطان مصر
( ١٥١٦ — ١٥١٧ )



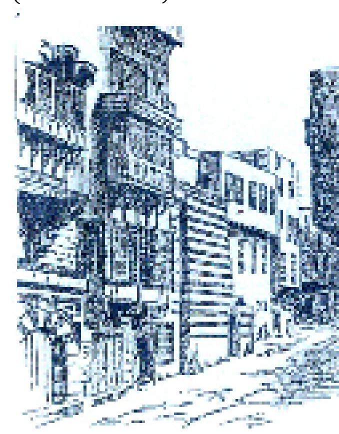
قانصوه الغوري
سلطان مصر وسوريا
( ١٥٠١ - ١٥١٧ )



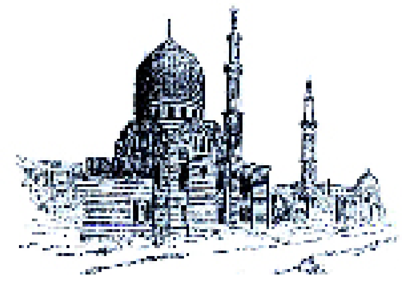
قانصوه الغوري بن بيبارد
سلطان مصر وسوريا
( ١٥٠١ — ١٥١٦ )



ضريح مملوكي في ضواحي القاهرة
( القرن الخامس عشر )



شارع الفسطاط أو القاهرة القديمة



مساجد وأضرحة السلطانين برقوق وفرج

# الفصل الخامس

## الحرب الروسية الشركسية

### المعلومات المتوفرة حول الحرب

كتب المؤرخوون الشراكسة والروس والآخرون، مجلدات حول هذه الحرب، الأطول والأشد قسوة في سجلات التاريخ، والتي ظلت مشتعلة اكثر من قرن ونصف بين امتين غير متساويتين كلياً، الامبراطورية الروسية العملاقة وبلاد الشراكسة الشجاعة الصغيرة: احدهما، المعتدية، بآلة عسكرية هائلة القوة، والأخرى المدافعة عن أرضها وحريتها، بدون حتى مجرد جيش منظم. الهبت الاستمرارية غير العادية، الشجاعة، وحب الوطن والحرية، التي قاومت بها هذه الأمة الصغيرة الهجوم الذي لم يعرف التوقف للمعتدي القوي لكل هذه المدة الطويلة، خيال اعظم رجال ذلك العصر، الكسندر بوشكين، الكونت ليو تولستوي، ميخائيل ليرمونتوف، تاراس شيفتشينكو، كارل ماركس وآخرين. ومع ذلك، فمن الغرابة بمكان، ان المؤرخين لم يكتفوا فقط بالتسمية الخاطئة لهذه الحرب، بل ان معظم المعلومات التي قدموها عنها غير دقيقة مطلقاً، ومتناقضة. بكلمات أخرى، بينما مجدت اعمال العقول العظيمة كرامة وبطولة الشركس ( الشراكسة )، فقد تجاهل المؤرخون الأمة التي وجه اليها العدوان الروسي وبدأوا يطلقون عليها تسميتين مختلفتين: الحرب الروسية - القفقاسية والحرب القفقاسية. جرى تصميم التسمية الأولى لاخفاء حقيقة ان روسيا، في اندفاعها نحو البحار الدافئة، قد شنت هذه الحرب لاكتساح بلاد الشراكسة. التسمية الثانية، الحرب القفقاسية، والتي يحب الروس ان يستخدموها في الإشارة الى هذه الحرب، للإيحاء بان جميع القفقاسيين قد بدأوا الحرب وخاضوها ضد روسيا. طبعاً، ليس هناك ابعد من هذا عن الحقيقة. بعض الأمم القفقاسية، ارمينيا وجورجيا على سبيل المثال - لم تقاتل ضد روسيا مطلقاً في هذه الحرب. ولم يعلن القفقاسيون الحرب على روسيا كما توحي التسمية الأخرى. الواقع هو أن روسيا بدأت هذه الحرب وغزت ارض الشراكسة - الأرض التي سعى شعبها الى حماية روسيا القيصرية ضد اعتداءات الامبراطورية العثمانية وخانات شبه جزيرة القرم في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

السبب؟ كانت روسيا قد صممت على فتح نافذة باتجاه البحار الدافئة. وكانت بلاد الشراكسة، جارتها الطيبة الودودة، بشاطئها الواسع على البحر الأسود، تقف في طريقها.

لذلك، استلت روسيا آلتها العسكرية الهائلة القوة لاكتساح بلاد الشراكسة وبناء الموانئ التي تحتاج اليها لتنفيذ خطتها الرئيسة العظمى على مناطق البحر الأسود. سوف نتطرق، في هذا الفصل، بشكل رئيس، الى مسيرة الحرب الروسية - الشركسية، تخصيصاً وباختصار.

## متى بدأت الحرب الروسية - الشركسية؟

ليست المعلومات القائمة حول هذا التاريخ دقيقة، وهي متناقضة. بحسب مؤرخي ما قبل الثورة، فقد استمرت هذه الحرب مدة طويلة، حوالي مئتي عام تقريباً. هناك مؤرخون آخرون، يدعون بأن هذه الحرب لم تبدأ الا عام ١٨١٧. هؤلاء هم اتباع

إيه. إيه. جاسباري، الذي اطلق هذا الرأي عام ١٩٠٤ حول الحرب القفقاسية. انهم يحاولون ان يربطوا بداية هذه الحرب بالسنة التي قدم فيها الجنرال ييرمولوف الى القفقاس. على أية حال، فقد استنتجت الغالبية العظمى من المؤرخين بان " الحرب الروسية - القفقاسية " بدأت في العام ١٧٦٣ واستمرت حتى العام ١٨٦٤. رغم ذلك، فان معلومات هؤلاء المؤرخين ليست دقيقة، لأن الغزو الروسي الأول لبلاد الشراكسة حدث عام ٩٨٥، والذي قاده الامير سفياتوسلاف. فقد احتل قسماً من شبه جزيرة تامان، ووضع حجر الأساس لبلدة تموتاراكان، في الموقع الحالي لقرية تامان، وأسس هناك إمارة تاماتارخا. حدث هذا الأمر قبل ١٠١٦ سنة، قبل ٧٧٨ سنة من التاريخ الذي يفترض أنه بدأت فيه الحرب الروسية - القفقاسية!

بعد ذلك قامت القوات الروسية المسلحة، تحت قيادة الأمير مستيسلاف، من امارة تاماتارخا، بغزو كاسوغيا الشركسية عام ١٠٢٢. وقد واجهه الجيش الشركسي بقيادة الامير ريديدي. لقد حفظ الفولكلور الشركسي تفاصيل هذه المواجهة الشهيرة وهي مدونة في السجلات الروسية.

عام ١٥٦١، تزوج ايفان الرهيب، أول ملك روسي يتوج قيصراً، الأميرة كوشيني، إبنة الأمير ايدار تيمريوق، لوضع قبارديي بلاد الشراكسة الشرقية تحت سيطرته. بدأ على وجه السرعة ببناء تحصينات قوزاقية في قبارديا: تومين، سونجا واندرييفو، بحلول العام ١٥٧٩. كان معروفاً بسياسته التوسعية وقسوته. لم يكن يحاول فقط المطالبة بشرقي بلاد الشراكسة، بل قام بإخضاع قازان واستراخان وضم سيبيريا الى حكمه، لتوسيع حدود روسيا. حقق كل ذلك بتصميم معاند وقسوة لا تعرف الرحمة، الأمر الذي اكسبه لقب " الرهيب ". على أية حال، فان قسوته لم تكن موجهة الى الشعوب التي اكتسحها فقط، فقد عامل بويار مملكته

وسكان بعض المدن مثل موسكو، تفير ونوفجورود بنفس الأسلوب. فقد أمر بقتل ٦٠،٠٠٠ شخص خلال ستة اسابيع في نوفجورود وحدها . ليس ذلك فقط، بل إنه " ذبح نجله الأكبر في سورة غضب ". عام ١٥٩٤، منح خليفة ايفان الرهيب، القيصر فيودور ايفانوفيتش لنفسه لقب " حاكم الأرض الايبيرية، وقياصرة جورجيا، وقباردا، والشراكسة، وامراء الجبال " بكل غطرسة. بكلمات أخرى، فقد بدأ القياصرة الروس بالمطالبة مقدماً عن طريق الألقاب، بخطط التوسع التي كانوا ينوون تحقيقها.

يوم ١٣ ايار عام ١٧١١، أمر القيصر بيتر الكسندروفيتش الأول، المعروف باسم بطرس الأكبر، أراكسين، حاكم استراخان، بغزو بلاد الشراكسة. زحف اراكسين على رأس قوة روسية مسلحة من ٣٠،٠٠٠ جندي، واقتحم اراضي الشراكسة يوم ٢٦ آب عام ١٧١١، على بعد ١٠٠ كيلو متر شمال نهر الكوبان، واحتل بلدة كوبيل (سلافيانسكي اليوم). من هناك، توجه نحو البحر الاسود واستولى على موانئ نهر الكوبان ونهب القرى واحرقها. بعد ذلك، زحف بمحاذاة الكوبان ٨٦ كيلومتراً، ينهب القرى، يخرب الأرض ويقتل السكان.

طبيعي ان هذا الهجوم المفاجئ أربك الشراكسة في البداية. على أية حال، سرعان ما تعافوا من الصدمة وارسلوا قوة من ٧٠٠٠ فارس، اشتبكت مع قوات العدو عند نهر شالو، لكنهم هزموا بسبب افتقارهم الى المدفعية، يوم ٦ أيلول.

خلال هذا الغزو الوحيد في بلاد الشراكسة، قتل الروس ٤٣،٢٤٧ شركسي بين رجل وإمرأة، ساقوا ٣٩،٢٠٠ حصان، ١٩٠،٠٠٠ رأس ماشية و ٢٢٧،٠٠٠ رأس غنم من بلاد الشراكسة. استمرت روسيا في شن هذا النوع من العمليات الحربية على بلاد الشراكسة خلال الفترة من ١٧١٦ وحتى ١٧٦٣، لكن غايتها من هذا الاندفاع المجنون لم تكن مادية محضة. فقد كانت هذه مجرد المقدمة للحرب الرهيبة التي ستشنها ضد بلاد الشراكسة لتحقيق الخطة السرية التي كانت تحاول ان تخفيها عن قوى العالم العظمى الآخرى.

## الغاية من الحرب

دخلت روسيا المعترك الدولي بقوة خلال حكم بطرس الأكبر، كانت هذه فترة ضعف الامبراطورية العثمانية وايران، وتنامي قوة روسيا. في ذلك الوقت، اصبحت بلاد الشراكسة ارض التناحر لهذه القوى، بسبب اهميتها الاستراتيجية. من الناحية الأخرى، اجتذب هذا الوضع اهتمام القوى الأوروبية الرئيسة، انجلترا وفرنسا اللتان تحتلان موقعاً مهماً في السياسة الاوروبية والعالمية، وبدأتا، بغض النظر عن المجابهات التي كانت تحصل بينهما، ببذل جهودهما المشتركة للحد من نفوذ روسيا الدولي المتنامي. وضع هذا الموقف بلاد

الشراكسة داخل دائرة المشاكل المهمة للسياسة العالمية للقرن الثامن عشر، وأوصل تاريخها الى مرحلة حرجة.

كان بطرس الاكبر قد ترك وصية تتضمن خطته: توسيع حدود روسيا شمالاً وجنوباً، على امتداد البحر الأسود، بهمة لا تعرف الكلل، والاقتراب من القسطنطينية والهند. من يملكهما سوف يمتلك العالم. مع الابقاء على هذا الهدف في الذهن، اشعال الحروب باستمرار أحياناً ضد الاتراك، واحيانا ضد الفرس، وبناء احواض السفن على البحر الأسود، الذي ينبغي الاستيلاء عليه تدريجياً، بالإضافة الى بحر البلطيق: لأن كليهما ضروري لانجاح الخطة – للتعجيل بسقوط بلاد فارس، لاختراق الخليج الفارسي، لإعادة الحياة الى تجارة الشرق القديمة من خلال سوريا، والوصول الى الهند، اذا أمكن. جعلت خطة بطرس الاكبر من ايران البوابة الى الهند، والقفقاس، مفتاح تلك البوابة.

لتحقيق ذلك الحلم القديم – الاندفاع نحو البحار الدافئة – باتت روسيا مصممة على احتلال بلاد الشراكسة وبناء الموانئ الضرورية على البحر الأسود. بعد تحقيق ذلك، ستحتل روسيا مضيقي البوسفور والدردنيل مع الممر نحو البحر الأبيض المتوسط. تضعف مركز لامبراطورية العثمانية، وتوجه ضربة قاصمة الى مصالح بريطانيا العظمى التجارية، وتمتلك اليد العليا على القوى الأوروبية في الصراع للسيطرة على العالم.

يعرِّف تقرير بودوجين الى القيصر الكسندر الثاني موقع بلاد الشراكسة والقفقاس بشكل عام، في خطط السياسة الخارجية الروسية بوضوح: يجب ان يخضع الشرق لنا بالأحقية. يجب ان لا نسترخي في انشطتنا بذلك الاتجاه للحظة واحدة. ليست لدى القسطنطينية اية معرفة بنوايانا الحقيقية. عندما نستولي عليها، سنحوز على اهم نقطة في الدنيا، ويجب ان تبقى هذه البوابات المؤدية الى آسيا في أيدينا. ان بريطانيا سيدة البحار منذ فجر التاريخ. يجب ان تكون لنا نفس المنزلة، استناداً الى القوة التي نحققها على الأرض. يجب ان نستولي على ساحل البحر الأسود، البوسفور والدردنيل. يجب ان يصبح البحر الأسود مكاناً لمناوراتنا.

إن الافكار الاسلامية والدين الاسلامي، اللذين عملا كأساس وجود الشعوب لعدة أقطار، ينهاران تدريجياً ويتلاشيان. لقد اصبحت المؤسسات الاجتماعية القديمة بالية: لم تعد انشطتها تحقق اي تقدم. اذا استغلينا هذا الموقف وبدأنا نتدخل في بلادهم، لن يكون هناك اي اجراء اوروبي فعال ضدنا. ستكون نجاحاتنا عامة ومتوالية. لدينا الفرصة الآن للتأثير في الأحداث في كل الأقاليم وصولاً الى القسطنطينية نفسها.

لقد اثبت الانصياع الذي أبديناه في الاجتماع الأخير انه كافٍ جداً " لنزع سلاح " الخصم المتوثب لمقاومتنا بعنف. بغض النظر عن مثل هذه الأوضاع، فان لدينا عمل كثير يتوجب إنجازه – بناء الحصون على ساحل البحر الأسود، وتزويد جميع النقاط الاستراتيجية بكافة انواع الاسلحة. من المحتم علينا انهاء الحرب مع شعوب القفقاس، الأمر الذي ما زال يتطلب نفقات كبيرة ومثابرة عظيمة. يجب ان تخدمنا هذه الحرب في الحصول على خبرة ملائمة لجيوشنا وتصبح الستار لجميع عملياتنا التحضيرية للسيادة على البحر الأسود.

لقد أدت مرونتنا عند توقيع معاهدة ادرنه الى خدمة النتيجة المتوخاة. استبعدنا بموجبها التدخل المستقبلي المحتمل لانجلترا. حركنا التمرد الشعبي في مصر، استطعنا ان نضعف الباب العالي بنفس الطريقة. ليس اليوم الذي " ستتكلم " فيه مدافعنا بعيداً ".

بدأت المدافع الروسية " تتكلم " في بلاد الشراكسة أولاً، بوحشية غير مسبوقة.

## قباردیا – بلاد الشراكسة الشرقية

منذ أن تزوج ايفان الرهيب الأميرة كوشيني، وروسيا تحاول أن تغير قبارديا والقبارديين تدريجيا وضد ارادتهم إلى شيئ غير قابل للتمييز. قامت بذلك العمل من خلال سياسة فرق تسد: بتسليط الأمراء القبارديين ذوي الكبرياء على بعضهم بعضاً، بغمرهم "بخيرات الحاكم"، بأخذ الرهائن منهم لضمان ولائهم، وباعطاء مناصب رفيعة في الجيش والإدارة الروسية وحتى في البلاط الملكي، إلى فئة قليلة منتقاة.

خلال تلك الفترة، شكَّل القباردي، احدى قبائل الشراكسة، القسم الشرقي من البلاد. وقد شغلت المنطقة الحالية لجمهورية قباردينو - بلقاريا على وجه التقريب، وكانت مقسمة إلى جزئين: قبارديا الكبرى وقبارديا الصغرى. بحلول القرن الخامس عشر تنامت قوة الأمراء القباردي إلى درجة أنهم وسعوا نفوذهم على جميع الشعوب المحيطة بهم. في الواقع كان ذلك السبب الرئيس الذي من اجله تزوج ايفان الرهيب إبنة الأمير تيمريوق ايداروف.

ولكن، قبل ذلك، كان القبارديون هم الذين يسعون إلى صداقة وحماية القياصرة ضد عدوان الاتراك العثمانيين وخانات القرم. بغض النظر عن ذلك، فقد جهز بطرس الأكبر برنامجا متماسكا متكاملا لاحتلال هذا الإقليم. واقترح أن يتم شن هجوم في ثلاثة اتجاهات: من آزوف إلى الكوبان، من استراخان إلى ايران مروراً باذربيجان ومن بياتيجوريا إلى تفليس.



**أمير من قباردا الصغرى**
**بداية القرن التاسع عشر**

عام ١٧١١، كتب بطرس الأكبر إلى القبارديين: "نحن نتمنى اليوم أن تظهروا لنا صداقتكم واخلاصكم ضد السلطان التركي والخان القرمي، اللذين بدآ الحرب ضدنا... اذا قبلتم أن تكونوا مواطنينا، لن نطلب منكم أية ضرائب." أخبر ايه. بيكوفيتتش- تشيركاسكي، الذي زار القفقاس سابقا، بطرس الأول عن الاستعداد الذي أبداه الملاكون الشراكسة لخدمة القيصر الروسي" بقبارديا كلها ". رغم ذلك، فقد ظهرت القوات المسلحة القيصرية في منطقة بلاد الشراكسة خلال الحرب الروسية - التركية عامي ١٧١٠-١٧١١، وتصرفت وكأن افرادها هم الفاتحون الحقيقيون. لم يكتفِ الجنرال ابراكسين بتوجيه ضربات شديدة إلى قوزاق نيكراسوف، الذين كانوا قد هربوا من الظلم القيصري، بل أيضا إلى الشراكسة الذين قدموا لهم الملاذ. كتب جيربر عام ١٧٢٨ " اظهر الشراكسة من جهتي قباردیا، على الدوام ميلاً شديدا إلى روسيا، واعتبر العديد من أمرائها مع رجالهم رعاياها، لكن ذلك كان بالكلمات فقط، ولم تعان حريتهم مطلقا جراء ذلك ".

تم اجلاء سكان المستوطنات المحيطة بحصن سفياتوي كريست من حوض التيريك عام ١٧٢٤. اشار بي. جي. بولكوف عام ١٧٢٧، كانت تقطن هناك ٣٠٠ عائلة، تحت زعامة المرزا بيكوفيتش، الذي انعم عليه بطرس الاكبر برتبة مقدم والذي ظل في الخدمة الروسية طيلة

حياته. على أية حال، غادرت القوات الروسية المسلحة حصن سفيا توي كريست والمنطقه المجاورة، اضافة إلى ديربينت، باكو، وخانية الكوبان، بسبب الاتفاقيات الملحقة بمعاهدة السلام مع ايران. رغم ذلك، بقيت السياسة الخارجية الروسية " ضمان أمن الحدود الجنوبية لروسيا والحصول على ممر نحو البحار الدافئة ". من أجل تحقيق هذه الخطة، اضطرت روسيا إلى تأسيس حضورها في القفقاس وعلى شاطئ قزوين. لذلك، وحتى تحصل على الممر إلى القفقاس، اصبحت روسيا مضطرة إلى الاستيلاء على قباردیا، القسم الشرقي من بلاد الشراكسة، الذي كان يشغل موقعاً مركزياً ومهماً من الناحية الاستراتيجية في اقليم شمال القفقاس.

في هذه الاثناء، ادى الجدال بين روسيا وتركيا حول "المسألة الشركسية" إلى الحرب الروسية - التركية للاعوام ١٧٣٦-١٧٣٩. يوم ١٣ نيسان ١٧٣٦، وجهت الامبراطورة آنا ايفانوفنا نداء إلى القبارديين بالنهوض إلى الصراع ضد العدو المشترك. استجابوا بسرعة ووقفوا في الميدان إلى جانب الروس في تلك السنة، بسبب الوعد الذي اطلقته بالاعتراف باستقلال قباردیا. وفي الحقيقة، اعترفت كل من روسيا وتركيا بقباردیا كدولة مستقلة في معاهدة بلغراد يوم ١٨ أيلول عام ١٧٣٩ (المادة السادسة). رغم ذلك، لم تحترم روسيا شروط السلام لمدة طويلة. في البداية حاولت أن تتدخل في الشؤون الداخلية لقباردیا، ولكنها عندما فشلت في تحقيق الغاية المرجوة، بدأت روسيا تلجأ إلى استخدام آلتها العسكرية القوية.

كتب المؤرخ الروسي إن. جرابوفسكي، أن روسيا، بعد أن صممت بقوة على تأسيس سيادتها في القفقاس، لم تعد تستطيع أن تتصرف بطريقة مخالفة: أصبح لزاماً عليها أن تركز كل الجهود على الغاء معاهدة بلغراد، تأكيداً للسياسة الروسية في القفقاس فيما يتعلق بقباردیا، اقوى واغنى الشعوب في القفقاس في ذلك العهد. لهذه الغاية، اكتسبت مدينة مازدوك، التي بناها القبارديون عام ١٧٥٩، أهمية هائلة، ووقعت تحت التهديد المباشر لروسيا. بعد اربع سنوات، حولتها إلى قلعة روسية وربطتها بخط عسكري مع كيزليار عام ١٧٦٣. اعترض القبارديون ضد هذا العمل العدواني وطالبوا باخلاء البلدة، لكن الروس تجاهلوا مطالبهم.

بعد وصول الجنرال دي ميديم، القائد الجديد للقوات المسلحة الروسية إلى شمال القفقاس بوقت قصير، ارسل جانخوت سيدوكوف، وهو زعيم وصاحب املاك قباردي، والأوزدن شاباز - جيراي، إلى شراكسة الكوبان -الشيمجوي والبيسلين- ليقنعهم بأن يصبحوا مواطنين روس. على أية حال، اجابت كلتا القبيلتان بأنهما غير جاهزتين لقبول "المواطنة الأبدية"

ولكنهم مستعدتان للتعهد بعدم القتال ضد الروس. أغضب هذا الرد الجنرال دي ميديم، الذي أخبر بدوره القيصرة كاثرين الثانية عنه يوم ١٣ تشرين الثاني عام ١٧٦٤. يوم ٢١ آب عام ١٧٦٥، صدر إلى الشراكسة انذار نهائي: اما قبول المواطنة الروسية، أو الاخضاع بقوة السلاح الروسي والقامليق.

كان السبب وراء الانذار واضحاً. توجد وثائق تثبت أن لدى روسيا خططاً مؤكدة تنوي تنفيذها في قبارديا. اقترح الأمير بوتيومكين – تافرتشسيكي، بعد ان قام بدراسة الوضع في جنوب روسيا بعد معاهدة كوتشوك – كاينارجي، تحديد الحدود الروسية في شمال القفقاس بدقة، والتحرك تدريجياً إلى داخل منطقة الجبليين الداخلية، تحت ذريعة حمايتهم. بناء على تلك الخطة، تم بناء الخط القفقاسي عام ١٧٨٠، خط شريط تشيرنومورسكي عام ١٧٩٣، وخط سونجا عام ١٨١٧. عام ١٧٧٠، كتب النقيب جاستاتي في مذكرته إلى الحكومة الروسية ان قبارديا يجب ان توضع في موقف معين بحيث يمكن ارغامها في المستقبل "على عمل كل شيئ يسرنا ونحتاجه". عبر الجنرال ديلبوستو عن رأي مشابه في تقريره إلى الامبراطور الكسندر الأول عام ١٨٠٨، حول المسألة نفسها، إذ كتب "بمجرد ان يتم اخضاع اوائل القبارديين، ستلحق بهم الشعوب التي تعتنق الدين المحمدي على الفور، وترغم على الخضوع لسلطة وحكم الحكومة الروسية... ولسيف العرش الروسي".

شدد الروس على أهمية إخضاع قبارديا أولا مراراً وتكراراً، لأنهم كانوا مقتنعين بأن شعوب الاقليم المستقلين الآخرين "يتبعون قبارديا الكبرى في كل شيئ". من اجل تنفيذ ذلك الواجب بدأت روسيا تبني التحصينات على خط آزوف – موزدوك العسكري عام ١٧٧٧.

اضافة إلى ذلك بدأت روسيا تجلب المزيد من القوزاق لتوطينهم في قبارديا وتبني المزيد من الحصون: موزدوك، قاش-تلاب، وكيزليار. اثارت هذه العملية الذعر لدى امراء القباردي فناشدوا الامبراطورة كاثرين الثانية بازالة حصن موزدوك. بدلاً من منحهم ذلك الصنيع، بدأت في بناء المزيد من الحصون ما بين موزدوك وكيزليار، الأمر الذي بدأ الامراء القباردي يعترضون عليه بقوة. كانت الامبراطورة كاثرين الثانية، بوصفها أصدق وريث لسياسة بطرس الاكبر، مصممة على تنفيذ المخطط العظيم. لذلك، بدأت روسيا منذ العام ١٧٧٩ بارسال الحملات العسكرية إلى داخل قبارديا، والتي كانت مصحوبة على الدوام بإبادة السكان المحليين والاستيلاء على قطعانهم من الخيل والماشية. على سبيل المثال، حدث ذلك يوم ٢٩ أيلول عام ١٧٧٩، حينما هاجم الجنرال ياكوبي، على رأس قوة من الجيش الروسي، قبارديا قرب نهر بالكا. هزم الجيش القباردي في تلك الناحية، احتل مراعي كوما، بسه فابا ودزيلوكو، ثم تامبوكان ومحيط بسه خوراي. بعدها اجبر قبارديا على دفع ١٠،٠٠٠ روبل إلى

روسيا، وساق الفي جواد، ٥٠٠٠ رأس ماشية و ٥٠٠٠ رأس غنم من قبارديا.

بعد ذلك بوقت قصير، اعلنت روسيا لقبارديا أن حدود دولتها ستسير منذ ذلك الوقت محاذاة نهر بالكا! وهكذا، صادرت روسيا ثلث أراضي قبارديا. في الشهر نفسه، قام المقدم سافيلييف بتخريب قبارديا الصغرى.

سرعان ما قامت روسيا بتأسيس حكم استعماري قاس في قبارديا. شكل القبارديون الذين استنكروا السياسة الاستعمارية القاسية التي تطبقها روسيا في أراضيهم، حركة قوية مناهضة للإستعمار. تحولت عام ١٨٠٤ الى ثورة، شارك فيها ليس فقط القبارديون والشراكسة الغربيون، بل أيضاً جيرانهم البلقار، القرشاي، الأباظه، الاوسيتيون، الإنجوش والشيشان. طالب الثوار من السلطات الروسية بالغاء تحصينات كيسلوفودسك وتصفية الخط الشريطي. عندما رفض الروس الإستجابة، هدد الثوار المسلحون حصن كيسلوفودسك. حاول قائد القوات الروسية المسلحة، الجنرال تسيتسيانوف ان يرهبهم بالتهديدات القاسية. أخبر الثوار أنه تواق الى إراقة دماء " الافراد غير المطيعين " وأنه سيروي اراضيهم بدمائهم.

بدلاً من الشعور بالرهبة، تحول الثوار الى المزيد من العدوانية. دفعت الفصائل القباردية المسلحة قوات الجنرال جلازيناب الى جورجييفسك وحاصرتها. حضرت ست فصائل بقيادة الرائد ليخاتشيف لنجدتهم، وتم إخضاع العصيان. نتيجة للاجراءات العقابية القاسية، تم تدمير حوالي ٨٠ قرية قباردية في اقليم بياتيجورسك، وأجبر الفلاحون، الذين باتوا بلا مأوى، على الاستقرار خلف نهر الكوبان. في صيف عام ١٨٠٩، جرى انتخاب جانخوت دوخشوكين واتازوخو اتازوخين اميرين رئيسين لقبارديا. اضافة الى ذلك، قرر مؤتمر امراء قبارديا اطاعة " أوامر الحكام الروس ". بغض النظر عن ذلك، ظهرت قوة من الف قباردي على نهر المالكا، مهددة بمهاجمة الخط القفقاسي.

نتيجة القلاقل التي كانت تحدث في قباردیا عامي ١٨٠٩ - ١٨١٠، دفعت روسيا بالمزيد من القوات المسلحة الى هناك. بدأت هذه القوات الروسية بمنع القرويين القباردي من الاستقرار في الجبال، وفي القبض على الامراء القبارديين والذين يعارضون الحكم الاستعماري الروسي في بلادهم، والحكم عليهم بالسجن. عند رؤية هذه الاحداث، قام بعض القبارديين الغيورين المعارضين للحكم الروسي بالهرب والاستقرار في الاراضي الواقعة خلف الكوبان. على أية حال، قرر معظم امراء القباردي الذين رأوا استحالة اوضاعهم، إخضاع انفسهم للحكم الاستعماري، وفي النهاية، تعهدوا بإطاعة الاستبداد القيصري الدكتاتوري. طلبت السلطات الروسية منهم الف حصان، ٥٠٠ رأس ماشية، وعشرة آلاف روبل.

اتضح ان هذا العقاب فشل في ترهيب القبارديين بالقوة التي رغب فيها الروس. لذلك نزلت حملة روسية عقابية كبيرة تحت قيادة الجنرال بولغاكوف، مرة أخرى على قبارديا عام ١٨١٠، قامت بنهب واحراق ٢٠٠ قرية بلقارية وشركسية، قتلت معظم سكانها وساقت امامها ٢٠،٠٠٠ رأس ماشية.

عام ١٨١١، ذهب وفد قباردي بقيادة برزوكو خامورزين، كوتشوك كاسايف وتيمريوك كازانشيف الى سانت بطرسبرج حاملاً عريضة تطالب بالحفاظ على امتيازات الارستقراطية القباردية الاقتصادية والسياسية وتقويتها. احتوت العريضة على نقاط حول الزراعة، الأقنان، التجارة الحرة، توريد الملح الى قبارديا، إعادة الأراضي التي تحتلها التحصينات الروسية، وأخيراً، الحقوق السياسية للزعماء الاقطاعيين. يوم ١٢ كانون الثاني عام ١٨١٢، تسلم الوفد من الكسندر الأول الوثيقة الرسمية، التي تثبت وتؤكد جميع الحقوق والامتيازات التي منحت الى النبلاء القباردي بموجب الوثيقة الرسمية لعام ١٧٧١. بموجبها، سمح للقبارديين بالسفر الى المدن الروسية بحرية لغايات شراء الملح والحبوب من مخازن المقايضة في روسيا. رغم ذلك، فقد احيلت مسألة طلب إعادة الأراضي الى الإدارة القفقاسية لغايات " التحري المناسب ".



**قباردي — شركسي**
**من البوم جي. جي. جاجارين**

لاغراء الزعماء والاقطاعيين للانحياز الى جانبها، شكلت روسيا القيصرية "ليب كونفوي "من مائة فارس مسلح، منتقى من الامراء والنبلاء، يجري استبدالهم مرة كل ثلاث او خمس سنوات. جرى تحويل مبلغ حوالي ٢٠،٠٠٠ روبل الى ميزانية الإدارة القفقاسية " لتدليل الأسياد الاقطاعيين القباردي ". اعطي العديد من امراء ونبلاء القباردي رتباً عسكرية (عقيد، مقدم، رائد، وهكذا) مع راتب سنوي من ٣٠٠ الى ٥٠٠ روبل فضة. بكلمات أخرى، بدأت روسيا تكسب تأييد الأمراء القبارديين الذين تقدر على شرائهم، وتعاقب بقسوة أولئك الذين يرفضون منهم الرشوة او الترهيب ويستمرون في الدفاع عن حريتهم وبلادهم الحبيبة.

عام ١٨١٦، توحدت كافة القوات المسلحة الروسية في القفقاس لتشكيل فرقة قفقاسية موحدة. اصبحت تحت قيادة الجنرال ييرمولوف، الذي عاقب اعداء الحكم الاستعماري الروسي في بلاد الشراكسة بقسوة، وطلب منهم " الخضوع غير المشروط " وحاول ان يحصل عليه منهم بكل الوسائل.

عام ١٨١٨، أمر الجنرال ييرمولوف زميله الجنرال ديلبوستو بتدمير قرية تراموف "عش اللصوص والبلاء الأبدي". حاصر الجنود القرية في الليل من جهاتها الأربع واشعلوا فيها النار. ذبحوا معظم السكان واستولوا على ممتلكاتهم وقطعان الخيل والماشية. كتب الجنرال ييرمولوف الى القبارديين " لقد اكتفيت هذه المرة بهذا القدر. في المستقبل. لن تأخذني اية رحمة بقطاع الطرق المذنبين: سيتم تدمير قراهم، مصادرة املاكهم، وذبح نسائهم واطفالهم ".

بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، شيدت روسيا تحصينات فلاديكافكاز، كونستانتينو جورسك، كيسلوفودسك، وغيرها في قبارديا لغايات تثبيت وضعها الاستعماري في بلاد الشراكسة. عام ١٨١٨، اضافت اليها التحصينات الجديدة في جروزني ونالتشك. كذلك اقيمت تحصينات أخرى بمحاذاة خط سفوح التلال وعلى انهر تشيريك، تشيجيم، باقسان، وعلى الضفاف العليا لنهر المالكا. ابقيت حاميات روسية عسكرية في جميع هذه التحصينات.

احتاجت روسيا الى الاراضي لانشاء كل هذه التحصينات ولتوطين المستوطنين الروس والقوزاق الذين احضروا اليها. لأجل ذلك السبب، بدأت روسيا القيصرية بمصادرة الاراضي القباردية بكثافة.

عام ١٨٢٤، منح الجنرال ييرمولوف الى الامير بيكوفيتش تشيركاسكي صك تمليك لأرض مساحتها مائة الف ديسياتن ( على أساس اداء العشر ).

اصبح الجنرال قائد جيوش الخط القفقاسي الروسية الجديد. تلقى عام ١٨١٩ أوامر السياسة، والتي اصبحت قبارديا الصغرى أولى ضحاياها. فقد دخلت القوات المسلحة الروسية مناطقها في ايلول عام ١٨٢٠ وبدأت عملية إعادة التوطين القسري للقرى الواقعة بمحاذاة نهر اوروب قرب تيريك.

تمشياً مع سياسة " فرق تسد " الاستعمارية، فقد نصح الجنرال ييرمولوف يوم الأول من تموز عام ١٨٢١ الجنرال ستال، ان يستخدم الإنجوش، التاوجور وسكان وادي الأغيرسكي الساخطين على جيرانهم القباردي، بسبب ظلمهم لهم في السابق. بعد ذلك، ارسلت عدة مفارز روسية خاصة عديدة الى قباردیا لتحرم القبارديين من قطعان خيولهم ومواشيهم. تكوَّن الفصيل الرئيس للحملة، بقيادة العقيد كوستاريف، من ١٥٠٠ حربة وسبعة مدافع. ازعج ظهورهم القبارديين بحدة وبدأ العديد منهم يستقر في الجبال. انتقلت قرى بكمرزا وعائلات قيتوقه الى منابع انهر أوروخ، ليسكين وتشيريك. انتقلت قرى الميسوست والاتازوخه الى منابع جونديلين والباقسان، حتى يكونوا اقرب الى الشراكسة الذين يقطنون خلف الكوبان، والذين يدعمون روح المقاومة لديهم.

سرَّ هذا الوضع الجنرال ييرمولوف. أمر الجنرال ستال بان يطلب من هؤلاء المستوطنين الانتقال الى الأماكن الجديدة قبل الربيع واعطاء اراضيهم السهلية الى قوزاق الخط العسكري.

بدأت القوات المسلحة الروسية اعمالها العقابية في قباردیا بحلول خريف عام ١٨٢١، فأحرقت عشرات القرى القباردية والأباظية، قتلت معظم سكانها، نهبت ممتلكاتهم، صادرت قطعان الاغنام، والمواشي والخيول، ودمرت مخزوناتهم وتموينهم من الحبوب والتبن. كانت هذه، كما كتب آر. يو. توغانوف، بحق، واحدة من اكثر الصفحات المخزية في التاريخ الاستعماري لروسيا القيصرية في القفقاس. كاد تأثيرها ان يسحق الروح المعنوية في قباردیا بشكل كامل. خاطب الجنرال ييرمولوف الشعب القباردي، معتقداً ان الشروط المؤاتية قد تحققت، بالنداء الروتيني المعتاد وانهى خطابه بالقول

" ليس لدى انتقام ضد الناس البسطاء، وللمرة الأخيرة اعدهم بحياة مريحة، سعيدة وحرة. بعد ذلك سيكون طلب الرأفة متأخراً جداً! " في نفس الوقت، أعلنت أرض قباردیا بالكامل ملكاً للحكومة الروسية.

تسبب خطاب الجنرال بيرمولوف في تسريع وتيرة عملية "الخروج" للقبارديين من مواطنهم. في شهر آذار وحده من عام ١٨٢٢، هربت اربع عشرة قرية من مواطنها في القباردي. استقر قسم كبير منهم على الضفاف اليسرى من نهر تيريك، والقسم الآخر، على ضفاف نهري أوروخ والباقسان. اضيفت عائلة البابوق، الذين غادروا قبارديا في نهاية القرن الثامن عشر، الى نبلاء القوزاق، وخدموا مع القوزاق، وغالباً ما شاركوا في العمليات الانتقامية ضد ابناء قبيلتهم. اصدر الجنرال فيليامينوف أمراً مثيراً للاهتمام، من اجل قطع كل الصلات بينهم وبين القبارديين.

بموجب ذلك الأمر، كان يعطى لآل بابوق حصة من آخر قسم من الغنيمة المأخوذة من العمليات العقابية، وفي حالة رفضهم قبولها، كانوا يرغمون على أخذها بالقوة.

اندلعت ثورات جديدة في القبارديا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. كانت الأسباب المباشرة التي سببتها هي انشاء الخط العسكري الجديد عبر القبارديا وانشاء المحكمة القباردية المؤقتة. تمكنت الحملات المتوالية للقوات المسلحة القيصرية في النهاية من تحطيم هذه الثورات. قام الجنرال بتحرير فلاحي جميع السادة الاقطاعيين القباردي الذين شاركوا في هذه الثورات، كاجراء عقابي. جاءت هذه كضربة على اكثر النقاط حساسية لدى السادة الاقطاعيين الثوريين. في نفس الوقت، ولتضخيم تأثير الضربة، حافظ على حقوق وامتيازات السادة الاقطاعيين الذين خدموا الحكومة القيصرية بإخلاص.

عام ١٨٢٢، اخضعت روسيا بلاد القباردي للحكم العسكري للجيوش الروسية المحتلة واجبرت الامراء القباردي على اطاعة اوامر الجنرالات القادة الروس. في نفس السنة، اسست المحكمة القباردية المؤقتة، ومنحت صلاحيات وواجبات قضائية وإدارية. اصبحت هذه المحكمة، من خلال عملها تحت سيطرة الضباط القيصريين المسؤولين، عضواً تنفيذياً مهماً للحكومة الداخلية. قيدت المحكمة حرية عمل السادة الاقطاعيين القباردي الى درجة كبيرة، وحددت من سلطاتهم التحكمية. لذلك، فقد اتجهوا الى الحكومة الروسية مرات عديدة بعرائض تدعو الى الغاء سلطة المحكمة وترك سلطة القرار في جميع الدعاوى المدنية تحت تصرفهم.

في محاولة لاستعادة حقوقهم وامتيازاتهم، سلم الامراء والنبلاء القباردي عريضة عام ١٨٢٧ الى الجنرال ديبيتش، احتوت على نقاط عديدة: الغاء المحكمة القباردية المؤقتة والعودة الى حكم الشريعة الاسلامية، منحهم نفس الحقوق التي يتمتع بها النبلاء الروس، احترام الحقوق "الوطنية" والتقاليد، احترام الحرية الدينية، فصل القوانين المدنية عن

الروحية، اعادة الجزية التي كانوا يتقاضونها من الأوسيتيين في الماضي، إعادة الاراضي التي تشغلها تحصينات الخط القفقاسي، واخيراً، إعادة الرهائن الذين اخذوا منهم اثناء ثورات عامي ١٨٢٢ و ١٨٢٥.

حدثت الحملة الجديدة في القبارديا في ربيع عام ١٨٢٢. شرح ييرمولوف اسبابها في رسالته، يوم ٢٩ نيسان، كما يلي " يلعب القبارديون حيلاً قذرة ضدنا، في اشعال شراكسة ماوراء الكوبان ضدنا، الذين يأتون لمساعدتهم في جماعات ويهاجمون الخط. انني اعتزم تعليمهم بشكل جيد جداً ".

قامت الفصائل التي يقودها الجنرال ييرمولوف، المقدم كوتساريف، العقيد بوبيدنوف والجنرال ستال قرى تاو سلطان اتاجوكو في وادي الباقسان وطردت الاوروسبي. بكلمات الجنرال ييرمولوف، فقد نشرت هذه القوات " رعباً عظيماً " بين الأسياد الاقطاعيين القباردي.

باختصار، احتل الجنرال ياكوبي قباردي عام ١٧٧٩ واقتطع الثلث من اراضيها . في الفترة ما بين ١٧٧٩ و ١٨١٨ وحدها، قتلت الحملات العقابية للجيوش القيصرية ٣١٥ الف قباردي، من مجمل السكان البالغ عددهم ٣٥٠ ألفاً.

عام ١٨٢٢، جردت روسيا الامراء القباردي من حقهم في الحكم في أراضيهم واخضعتهم، مع بلادهم، الى دكتاتورية الجنرالات القادة للقوات الروسية المسلحة. وهكذا، تمكنت روسيا، بنجاح باكر، من قطع قبارديا عن اقاربها الغربيين وسحقت قوة الشراكسة بدرجة هائلة. رغم ذلك، لم تستطع روسيا أن تسحق الشراكسة كلياً وتحولهم الى عبيد مطيعين.

## الحرب الروسية - الشركسية في غرب بلاد الشراكسة

بينما كانت روسيا تسحق قبارديا القوية فيما مضى لتحولها الى تابعها المطيع، استخدمت وسائل خداعية في تنفيذ خطتها لاكتساح غرب بلاد الشراكسة. اطلقت حملة دعاية عالمية لتصوير هؤلاء الناس للعالم على أنهم " المتوحشون المغيرون " الذين يستمرون في مهاجمة وسرقة القرى الروسية، والذين يجب، تبعاً لذلك، محوهم من على وجه الأرض لتأمين السلام في الأقليم. جاءت هذه الحملة كمقدمة لتلقي الترخيص من المسرح الدولي لارتكاب المذابح الجماعية بحق شعوب شمال القفقاس. كذلك انهمكت، بدون اية دعوة أو سبب، وفي منطقة اجنبية، فيما عرف بالحروب الروسية – التركية، حيث تولت مهمة تحرير شراكسة ساحل البحر الاسود من الأتراك. في الحقيقة، اكملت عملياً استعمار الهضاب الشركسية

وأسست مواقعها بطريقة أكثر صلابة على الضفاف اليمنى لنهر الكوبان تحت هذا العذر المزيف. في الوقت نفسه، استمرت في توطين القوزاق على هذه الهضاب الشركسية، والذين اصبحوا يعرفون فيما بعد ب " تشيرنومورتسي (سكان البحر الأسود). تجاهلت هذه السياسة الروسية العدوانية مصالح السكان الأصليين لبلاد الشراكسة بشكل كلي.

استمرت بلاد الشراكسة وشمال القفقاس كله، بل كامل القفقاس، في أن تكون ميدان الصراع الحاد بين الامبراطوريتين العثمانية والروسية لفترة طويلة. نتيجة لهذا التناحر، أصبح الشراكسة والجبليون الآخرون تدريجياً منقطعين عن العالم الخارجي، الأمر الذي تسبب في تدهورأوضاعهم بدرجة كبيرة.

يجب ان نتذكر هنا، ان روسيا نجحت بدرجة باهرة في عزل شرقي بلاد الشراكسة (قباردیا) عن غربيها منذ العام ١٨٢٢، كجزء من هذه الخطة. كذلك، وفي وقت سابق، كان الشامخال في داغستان قد قبلوا بالسيادة الروسية منذ العام ١٦٣٨. عام ١٧٢٢، حينما زحف بطرس الاكبر على ديربينت، قدم له تابعه الشامخال عادل غيراي، خدمات جليلة في التموين والنقل. على اية حال، عندما باشر الروس في بناء قلعة الصليب المقدس على منطقته، انقلب الشامخال ضدهم، فتم أسره ونفيه الى البحر الأبيض، حيث مات. عام ١٧٧٦ اصبح الشامخال مرتضى علي بدوره تابعاً روسياً. حافظ هو وخلفاؤه على ولائهم للقياصرة بدون تبديل حتى وقت قريب. تخلوا طوعاً وتدريجياً عن حقوقهم السيادية حتى لم يبق لهم شيء سوى اللقب والأرض. كذلك الحقت روسيا جورجيا عام ١٨٠١، واذربيجان عام ١٨٢٨. في نفس السنة، رحبت ارمينيا بالسيادة الروسية وقبلتها مفضلة اياها على سيادة اي من تركيا او بلاد فارس، لأسباب دينية بلا شك. انضمت مينجريليا الى روسيا طوعاً عام ١٨٠٣، ايميريتيا عام ١٨٠٤، ابخازيا مع سامورخان عام ١٨١١، سفانيثيا عام ١٨٣٧، واخضعت تسيبيلدا عام١٨٣٧.

عند نهاية الحرب الروسية - التركية الأولى، عندما جرى تعيين سمو الأمير جريجوري بوتيومكين نائباً للقيصر وحاكماً عاماً على نوفوروسيسك، آزوف واستراخان، اتخذ قرار ببناء عدد من الحصون الجديدة بين نهري الدون والتيريك، لإيقاف هجمات الشعوب الجبلية على الحدود الروسية، ولتكون بداية للمستوطنات الروسية في بلاد الشراكسة وشمال القفقاس. نتيجة لذلك، تم تأسيس خط موزدوك — آزوف الجديد بين عامي ١٧٧٧ و ١٧٨٢، الذي بدأ من ايكاتيرينودار، حيث يصب نهر المالكا في التيريك، قطع الهضبة القفقاسية باتجاه شمالي

غربي عبر سانت ديميتري (روستوف) وانتهى في آزوف. لاستيطان هذا الخط، المكون من عشرة حصون، تم جلب قوزاق خوبرا والفولغا الذين شكلوا لوائي القوزاق المسميين خوبرا والفولغا.

استمرت عملية دعم القوات الروسية المسلحة في شمال القفقاس عام ١٧٨٢، بتشكيل ما عرف بفرقتي كوبانسكي وكافكازسكي.

أغلق خط آزوف – موزدوك منطقة الدون والهضاب الروسية الجنوبية من هجمات الشعوب الجبلية، لكنه فشل في التأثير على حشود النوغاي شبه المتوحشه التي عاشت متنقله من مكان الى الآخر شمال نهر الكوبان واستمرت في الإغارة على مستوطنات القوزاق. عام ١٧٨٣، وبعد ضم شبه جزيرة القرم الى روسيا، أمر الامير بوتيومكين باعادة توطين النوغاي في الهضاب الواقعة خلف الفولغا. اوكلت هذه المهمة الى الكسندر فاسيلييفيتش سوفوروف، الذي وجه ضربة رهيبة الى النوغاي عند نهر اللابا. بعد ذلك اخضع قسم كبير من النوغاي وجرى توطينهم في شبه جزيرة القرم وأجلي القسم الآخر. ربطت هذه الحادثة اسم سوفوروف بالقفقاس الى الأبد. تركز الاهتمام الرئيس للقوات المسلحة الروسية خلال الحرب الروسية – التركية الثانية على الحصن التركي أنابا، الواقع على ساحل البحر الأسود في بلاد الشراكسة. كان السبب في ذلك، حسب رأي الروس، عائداً الى المساعدة القوية التي كانت الحامية التركية في ذلك الحصن، تقدمها للعداء الشركسي ضد روسيا. كذلك اتهم الشيخ منصور الذي كان يقيم في ذلك الحصن، بالتأثير في نفس الجهد المبذول.

اصبحت ضرورة احتلال هذا الحصن مشكلة دائمة لروسيا، لأنها كانت تدرك جيداً ان نجاح تنفيذ خطتها العظمى مرتبط بالحصن بدرجة لا تقبل الفصل. لذلك، ارسلت روسيا الجنرال تاليزين الى هناك يوم ١٤ تشرين الأول عام ١٧٨٨، مع جنوده لاحتلال أنابا. على أية حال، فقد قام بطل باشا، قائد الحامية هناك، بالدفاع الرائع عن هذه المدينة وحصنها، ضد جنود الجنرال تاليزين والفرقة القفقاسية بقيادة الجنرال تيكيللي التي اندفعت لمساعدتهم. ( يجب ان نذكر هنا ان روسيا القيصرية استخدمت قوات مسلحة مجندة من الجورجيين والقفقاسيين الآخرين بكثافة اثناء الحرب ضد الشراكسة ). عام ١٧٩٠، قاد الجنرال بيبيكوف حملة روسية فاشلة أخرى على أنابا، وقد قام الاتراك بعدها مباشرة بتعزيز دفاعاتهم. يوم ٢١ حزيران عام ١٧٩١، اندفع الجنرال جودوفيتش الى داخل انابا على رأس قوة من ١٢ ألف رجل في أربعة طوابير، استطاع في النهاية أن يحتل الحصن.

استولى على ٨٣ مدفع، ١٢ مدفع هاون، ثلاثة ضباط أركان، وأكثر من ١٣٠ راية، وكميات كبيرة من المؤن والامدادات العسكرية.

قتل في هذه المعركة ٨٠٠٠ من الاتراك. القي القبض على مصطفى باشا والشيخ منصور. ضحى الروس بثمانية عشر ضابط قتيل و٨١ جريح، وبلغ عدد قتلى الجنود ٨١٢ والجرحى ١٩٣٤ أنهى هذا الحدث الحرب الروسية – التركية الثانية.

أكدت المعاهدة التي ابرمتها روسيا مع تركيا يوم ٢٩ كانون الأول عام ١٧٩١، حقوق روسيا في قباردیا والضفاف اليمنى لنهر الكوبان (أي في بلاد الشراكسة الشرقية والغربية!) أعيدت انابا الى تركيا، التي تعهدت بنفسها ان تتخذ الاجراءات لايقاف هجمات الشراكسة على المناطق الروسية. على مايبدو، كانت هاتان القوتان العظميان تكرمان بعضهما بعضاً بمحض ارادتهما في هذه المنطقة، التي لم يمتلكها اي منهما قانونياً أبداً، بتجاهل تام للقانون الدولي والحقوق الشرعية التاريخية للسكان الأصليين. تبعاً لذلك، فقد منحت الاراضي الشركسية على الجهة اليمنى للكوبان الى القوات المسلحة القوزاقية التشيرنومورسكي (البحر الأسود) بموجب صك من صاحب الجلالة الامبراطورية صدر في الثلاثين من حزيران عام ١٧٩٢، أي قوات زابوروجيا، التي عزز بها الجنرال جودوفيتش الخط القفقاسي بعد الحرب. في ربيع عام ١٧٩٣، اقامت القوات المسلحة الروسية الكوردنات (وحدات جنود القوزاق الزابوروجيا)، التي امتدت من قلعة اوست – لابينسكي الى شاطئ بحر آزوف. فيما بعد، اصبحت هذه "الكوردنات" معروفة باسم ستانيتزات (مستوطنات القوزاق). في العام التالي، أسس الروس مدينة ايكاتيرينودار، التي سميت على شرف امبراطورة روسيا. اقامت روسيا هنا عدداً كبيراً من القلاع، المواقع الحصينة ومرابض المدفعية تحت ذريعة حماية هذه الستانيتزات من الغارات الشركسية، والتي شكلت خط شريط تشيرنومورسكي.

بينما كان يجري بناء حدود محصنة في شمال القفقاس، في اقليم عبر القفقاس وضع ايراكلي الثاني، قيصر جورجيا، بلاده تحت الحماية الروسية عام ١٧٨٣، وقام خلفه جريجوري الثاني عشر بضم جورجيا الى السلطة الروسية طوعاً عام ١٨٠١. غيرَّ هذا الضم لجورجيا اهداف الدولة الروسية بدرجة اساسية – قدم لها الفرصة لتأسيس نفسها على كامل القفقاس. رغم ذلك، ظلت روسيا مضطرة لبذل جهود عظيمة وتضحيات كبيرة من أجل " التهدئة " الكلية للقفقاس.



خارطة منطقة الشراكسة

على الرغم من الحروب الفجائية التي شنتها روسيا ضد الليزجين، الشيشان وبعض القبائل الأخرى لشرق القفقاس، فقد وجهت القدرة الكلية للآلة العسكرية الروسية الهائلة في هذا الوقت ضد القفقاس الشمالي الغربي، منطقة الشراكسة.

بحلول هذا الوقت، كانت روسيا قد قسَّمت هذه المنطقة الى خط شريط تشيرنومورسكي، الضفة اليمنى، وخط تشيرنورموسكي الساحلي. كان السبب، او الذريعة لهذه الخطوط هو حماية الحدود الروسية من "هجمات القبائل الميالة الى الحروب التي تشغل المنحدرات الشمالية للسلسلة الرئيسة لجبال القفقاس". على أية حال، اضطرت روسيا الى ابقاء القبائل المعادية تحت الطاعة بقوة السلاح، وذلك حتى تتمكن من الحفاظ على الاتصالات والمواصلات مع اقليم عبر القفقاس الذي ضم اليها، والحفاظ على الهدوء في منطقة خط الشريط.

حتى المصادر الروسية تدعي بان "الشعب المعادي لغرب القفقاس ينتمي الى قبيلتين رئيستين: الأديغة والاباظه". ينتمي الى قبائل الأديغة: البيسليني، البجدوغ، الايجيريكوي، التيميرجوي (شيمجوي)، الخاميش، الناتخواي (الناتخواجا)، ابزاخ المناطق العليا والسفلى، والشابسوغ الادنى والاقصى والوبيخ. وتكونت قبائل الاباظه من: الباشلباي، التاموف، الكازلبك، الشاخجيراي، الباراكاي، الباغ، الاخشيبسو والجيغيت ( السادزين ) من هؤلاء، ابرز القبائل الشركسية هم: البيسليني، الابزاخ، الوبيخ، الشابسوغ و الناتخواجا.

لم يقم الشراكسة بغارة واحدة بدون البيسليني. اظهروا براعتهم في القتال خلال الثلاثينات بشكل خاص، حينما كان الأمير آيتك – قانوقه حاكماً عليهم وقائداً لهم. كثيراً ما عانت مستوطنات القوزاق من غاراته الجريئة.



**ارستقراطيون شراكسة. نهاية الحقبة الثامن عشر**
**من البوم بي. إس. سالاس**

سكن الابزاخ، الذين كانوا اقوى الشعوب واكثرها ميلاً الى الحروب من بين القبائل الشركسية، اقليماً جبلياً مجاوراً لسلسلة القفقاس الرئيسة كما سكنوا بمحاذاة نهر بيلايا (شاغواشا) وروافده كورجيبس وبشيخ، بشيش، بسه كوبس وغيرها حتى نهير سوبس، الذي اعتبر خط حدودهم مع الشابسوغ.

شكلت أرض الابزاخ صعوبات رئيسة بالنسبة للعمليات العسكرية. الأودية السحيقة المكسوة بالغابات الكثيفة، الجداول العديدة ذات المستنقعات، جبل اوشتى الضخم الذي تكسوه الثلوج في السلسلة الرئيسة – شكلت جميعها دفاعات طبيعية ممتازة ضد الهجمات الروسية. لم تشق الطرق الملائمة لمرور الخيول الا عبر اودية نهري بشيش وبسه كوبس لعبور الجبال التي نزل من فوقها الابزاخ الى البحر، نحو وادي طوابسه. تواصل الابزاخ من خلال هذه الممرات مع الوبيخ على الدوام.

تشكل الابزاخ من سبع عشائر رئيسة، ترجع بأصولها الى عائلتين: كاتشميز وأوزدمير كان الكبار المنتخبون ( التحماده ) من ممثلي هاتين العائلتين، يحكمون الشعب. كانت قراهم

( الآول ) متعددة وغنية. قاتلوا بشجاعة لا تعرف الخوف ضد القوات الروسية المسلحة في جميع مواجهاتهم.

عاش الوبيخ في اقليم جبلي تكسوه الغابات الكثيفة ويمتد من البحر الأسود الى السلسلة المغطاة بالثلوج، بمحاذاة انهار بسه زوابسه، آشا، شاخا، فاردانا، دوغاميس، وسوتشي.

شكلت منطقة الوبيخ هذه صعوبات للعمليات العسكرية اكثر من اي قسم آخر من الإقليم. إذ لم يكن الشخص ليستطيع ان يمتطي حصانه هنا الا في الممرات التي تخترق الغابات الكثيفة، الملتفة بالدوالي البرية والنباتات المتسلقة. في العادة، كان الوبيخ يمرون من وادٍ الى الآخر على شاطئ البحر بشكل رئيس، عند مصبي سوتشي وشاخا. كانت تركيبتهم الاجتماعية مماثلة للابزاخ، الذين عاشوا معهم في اتحاد لصيق. كانت العائلات المتحدرة من عشيرتي بيرزيك وديشان، والتحمادات المنتخبون، يحكمون شعب الوبيخ.



**موعد غرامي في بلاد الشراكسة**

**من كتاب " ملابس شعوب شمال القفقاس ل إي. آي. ستودينيتسكي.**

سكن الشابسوغ والناتخواجا الى الغرب من الابزاخ والوبيخ، على جانبي سلسلة جبال القفقاس. كان الشابسوغ الشعب الاكبر عدداً، مقاتلون بطبيعتهم، لكنهم أقل إقداماً من جيرانهم. شغلوا منطقة غنية بين نهري شاخا وبشادا على الجانب الجنوبي من السلسلة الرئيسة وبين نهري سوبس و أداغوم، على الجانب الأيمن من السلسلة. اعتبر الشابسوغ مدافعين قديرين عن ارضهم، وجيراناً خطرين للتشيرنومورتسي. فقد عانى البلاستون

( القوزاق الراجلون ) من عمليات تدمير متكررة حلت بهم من غارات الشابسوغ الجريئة على مناطقهم. كان كل من شيرتلوكه وكازبيتش، وهما فارسان جريئان، من بين القادة الشابسوغ المتميزين، الذين خدموا بلادهم بشجاعة وامتياز مثاليين. على اية حال، لم يعرف عن الشابسوغ ولعهم بسفك الدماء، عدم الثبات على المبدأ، والشغف في النهب. كانوا معتادين على مباهج الحياة أكثر من الابزاخ، وكانت لديهم عدة أرصفة لرسو السفن التركية الصغيرة ( كوتشيرما ) في طوابسه وبشاد. وعاشوا في وئام وصداقة مع جيرانهم الناتخواج.

سكن الناتخواج خلف نهر أبين لغاية نوفوروسيسك، أنابا ومصب نهر الكوبان في البحر الأسود.

تكونت ارضهم من أودية غنية وجبال مكسوة بالغابات. تميزوا لدى إشغالهم ساحل البحر الأسود بميلهم اكثر الى السلام ورغبتهم القليلة في القتال. اسسوا ثراءهم كله على التجارة النشطة المربحة.

وعاش الجيغيت بين نهري مزيمتا وبزيبا، بين قبائل الاباظه. وقطنت قبائل بشخو و اختشيبشخو على ضفتي نهر بشخو، الى الأعلى من الجيغيت. أخيراً، شغلت قبيلة حاكوتش منابع نهري آشا وبسه زوابسه. اضافة الى ذلك، فقد سكن النوغاي،

و" القباردي الفارين " بين زيلينتشوك الكبرى والصغرى، والبجدوغ، بمحاذاة نهر الكوبان، وصولاً الى ايكاتيرينودار.

تميز اسلاف الشراكسة بطباعهم الميالة الى النبل، والثقافة، اضافة الى النشاط والانتاجية العالية والجد في العمل. رغم ذلك، ومع مرور الزمن، فقد انتهكت حياتهم المسالمة اكثر من مرة، بالاحداث العسكرية الطارئة. ارغمهم هذا الوضع على ان يطوروا في أنفسهم ميلاً عسكرياً استثنائياً، جعلهم مصدر رعب لجيرانهم، إضافة الى حبهم الذي لا يضاهى للحرية. علمتهم التربية التقليدية الصارمة ان يواجهوا اي خطر أو صعوبة بشجاعة، وان يتحملوا أية مشقة او حرمان بكبرياء وجلد عظيمين. باختصار، اصبحت المهمة الرئيسة لأي شركسي هي إتقان استعمال الأسلحة. اصبح يخرج الى الغارات راكباً حصاناً

جامحاً، وهو يرتدي قميصه الزرد الفولاذي، مسلحاً الى درجة ممتازة، ماهراً لا يعرف التعب، ليغير على اعدائه او يدافع عن أرضه بروح عاصفة من الفروسية والنبالة. " ظل الشركسي لا يخاف من الموت، بل يرفض حياة المذلة، فيواجه العدو بثقة ".



شركسي يرتدي قميصه الزرد ومصحوباً بزوجته وابنته ١٨٣٧. من كتاب "
رحلات في بلاد الشراكسة " لإدموند سبنسر



مجلس شركسي
صورة مستنسخة في متحف عُمان

لم يكن الشركسي يوفر أي جهد أو ثمن من اجل الحصول على سلاح جيد. كان ملماً بالغارات، قادراً على الإفلات من ملاحقة الاعداء في الوقت الملائم، ثم مهاجمتهم على حين غرة. اصبح الشراكسة مثالاً يحتذى لجيرانهم الميالين الى القتال.



**ارستقراطي من الناتخواج في أنابا**
**من البوم جي جي جاجارين**

كان الشراكسة يفضلون مهاجمة العدو بسيوف الفرسان في السهول المفتوحة. اما في المناطق الوعرة، فقد استغل الشراكسة محيطهم بامتياز، يقابلون العدو ويهاجمونه بنيران فائقة التصويب من خلف الصخور والأشجار.

وجد القوزاق الروس، الذين وصلوا الى ضفاف نهر الكوبان، في الشراكسة الذين تصدوا لهم اعداءً استثنائيين فاصبحت منطقة بلاد الشراكسة موقعاً لصراعهم الدامي. وفرت سهول الكوبان الواسعة حرية كاملة لتحرك الخيالة الشراكسة وقوزاق الخط العسكري

"اشتهر الشراكسة والقوزاق بشجاعتهم، وعندما كانوا يلتقون، لم يتراجعوا ولم يطلب احد منهم الرحمة ".

اضطر قوزاق البحر الأسود الى انشاء قوة من الكشافة المشاة من نوع خاص للتصدي للشراكسة. كان هؤلاء يتجولون بجرأة وذكاء متقدمين عن خط الشريط فوق المناطق المهجورة وغير القابلة للوصول لاراضي الكوبان المنبسطة، لتزويد المواقع العسكرية بالمعلومات الملائمة عن التحركات الخطرة للشراكسة. أصبح هؤلاء الكشافة المسميين "بلاستون"، النمط

الوحيد من القوزاق الذي تربى ضمن الشروط الاستثنائية للخدمة العسكرية على خط الشريط. كانت مواقعهم في مقدمة الخط الشريط، للمراقبة اليقظة لغارات الشراكسة غير المتوقعة. باختصار، اصبح البلاستون حراس خط الكوبان الذين لا يمكن استبدالهم – عيون وآذان مواقع الشريط. ما كان للشخص ان يعتبر من البلاستون اذا لم يكن يعرف كيف يزيل آثاره، يكتم ضجة خطواته فوق القصب الجاف المتكسر، او يقتفي آثار العدو ويقرأها ليفهم منها الاتجاه الذي يسلكه الهجوم على الخط.

امتد شريط خط تشيرنومورسكي لاكثر من ٢٦٠ فيرست بمحاذاة الكوبان، بدءاً من أحد مصبات فروعه وحتى مصب اللابا الاكبر فيه. تشكل الخط من مستوطنات القوزاق ومواقع على الكوبان، ظهرت بسرعة هناك في فترة إعادة توطين قوزاق زابوروجي من الدنيبر الى بلاد الشراكسة.

كذلك انشئت هنا حصون فارينيكوفسكي، اولجينسكي والكسييفسكي، التي كانت تحمي المخاضات عبر الكوبان من هجمات الناتخواج، الشابسوغ، والبجدوغ. كان بامكان الشخص ان يقود عربته من رصيف فارينيكوفسكي الى ساحل البحر الاسود، نحو انابا. كانت الطريق من اولجينسكي تؤدي الى قلعة ابينسكي: تمت المحافظة على الاتصالات مع قلعة افيبسكي من خلال مخاضة اليكسييفسكي. كانت توجد هنا قلاع قديمة أيضاً. النقطة الرئيسة للإدارة العسكرية ومقر الإقامة الدائم للاتامان هو حصن ايكاتيرينودار وموقع حصن فاناغوريسكي على شبه جزيرة تامان. كانت إدارة خدمة الشريط والكوبان وصيانة الحاميات المسؤولية المباشرة لقوزاق تشيرنومورسكي. اقيمت جميع القلاع والحصون الروسية المذكورة آنفاً لتسهيل العمليات الروسية العسكرية الهجومية في بلاد الشراكسة.

شكل خط الكوبان مع خط لابينسكي الذي بني عام ١٨٤٠، الجناح الأيمن للخط القفقاسي وامتد من حدود تشيرنوموريا ولغاية قلعة كاميني موست، التي كان موقعها في الوادي الضيق الذي حفره نهر الكوبان في الجبال. استوطن هذا الخط ودافعت عنه ألوية القوزاق التالية: كافكازسكي (منطقة اوست – لابينسك)، كوبانسكي (منطقة بروتشنو – اوكوبسكي)، ستافروبولسكي (منطقة ستافروبول) وخوبيرسكي (منطقة باتالباتشينسك ). شكلت قلعة كاميني موست النقطة الأخيرة على خط الكوبان والجناح الأيمن بكامله. سكنت قبيلة القرشاي اعالي نهر الكوبان وحرست الممرات المؤدية عبر الكوبان فوق الكاميني موست بيقظة تامة. لذلك، فقد كانت طاعة القرشاي لروسيا ذات أهمية حيوية لمنع اتصال قبائل

عبر الكوبان مع قبارديا وكذلك مع شعوب الجناحين الأوسط والأيسر للخط القفقاسي.

شكل خط لابينسكي، بمحاذاة نهر اللابا، غطاءً يعتمد عليه بدرجة مقبولة للشريط بأكمله، مع أن الغابة كانت تسهل اقتراب جماعات العدو في بعض الامكنة. من الناحية الأخرى، فقد كانت المساحة كلها بين الكوبان، اللابا وسفوح الجبال السوداء سهلاً هضابياً مفتوحاً على إتساعه، وجافاً في معظم المناطق، بحيث يروى من جدولين صغيرين هما تشيمليك و أوروب. كان خط لابينسكي يتكئ في جناحه الأيسر على الجبال نفسها. إن قمم الجبال السوداء حادة للغاية بين الكوبان واللابا. حفرت أنهار اوروب وزيلنتشوك الكبير والصغير أودية عميقة في خلال هذه السلسلة بالاضافة الى القوزاق، عاش في هذه المنطقة القباردي الهاربون، والباشلباي الذين سكنوا في اودية زيلينتشوك الكبير والصغير. كما سكن البيسليني، الماخوش، الشيمجوي الايخيروخواي، الحاتقوي والبجدوغ في كامل السهل وسفوح الجبال السوداء خلف نهر شاجواشا. بنيت قلعة بيلوريشينسكي، رأس تلك السلسلة، عند القسم الأسفل من نهر شاجواشا من اجل إخضاع القبائل التي تقطن خلف نهر اللابا ، رغم ذلك، فقد كانت الغاية الرئيسة منها ان تخدم كنقطة دعم للعمليات العسكرية الروسية الهجومية ضد القبائل الشركسية العنيدة التي تسكن خلف نهر اللابا، ضد الابزاخ بدرجة رئيسة.

بنيت المتاريس ذات العقبات، المغطاة بالاسلاك الشائكة في جميع مستوطنات القوزاق. كان لدى عدد كبير من الستانيتزات مدفعيتها الخاصة. تشكلت المسافات بين الستانيتزات من المواقع والخفارات. كانت المسافات بين الواحدة والاخرى حوالي ستة فيرست في العادة، وتتكون من كوخ طيني، اسطبل، سياج مع حفرة، وبرج مراقبة. كان قسم من القوزاق المعينين لهذه المواقع، جاهزاً على الدوام لركوب الجياد والانطلاق جرياً. وضعت خفارات من شخصين او ثلاثة من القوزاق على مواقع مرتفعة، لانذار المواقع من الظهور المفاجئ للعدو. في هذه الخفارات، تم تثبيت منارات من اكوام القش والتبن، أو من براميل صغيرة من القار. كلما اكتشف القوزاق اختراقاً للشراكسة، كانوا يشعلون النار في اكوام التبن لنشر الانذار على كامل الخط. وهكذا فان تبادل اطلاق النار الذي يبدأ في موقع خفارة معين، يستدعي القوزاق من اقرب المواقع للمساعدة. في حالات الضرورة كان جنود الاحتياط المقيمين في الستانيتزات، أو حتى القوات المسلحة الروسية النظامية، تهرع الى منطقة الإنذار.

كان للانشطة الشركسية المعادية غاية واحدة رئيسة بشكل عام: قتال العدو وطرده من الاراضي الشركسية التي يحتلها. كانوا احياناً يغيرون على ستانيتزات ومواقع القوزاق في

مجموعات صغيرة لقتل ونهب وإزعاج سكانها الجدد، أو للاستيلاء على وسيلة نقل. احياناً، كان الشراكسة يتجمعون في اعداد كبيرة تمهيداً لمهاجمة واحتلال قلعة أو اكثر من القلاع التي اسسها الروس في اراضيهم. أحياناً، كانت يقظة القوزاق في المواقع والخفارات كافية لمواجهة الغارات الشركسية الصغيرة. على أية حال، كان الاحتفاظ بالعدد الكافي من القوات المسلحة الروسية على الخط كله ضرباً من المستحيل، للدفاع عن كل نقطة من هجمات الشراكسة الجريئة، الذين كانت اعدادهم احياناً تصل الى عدة آلاف من الفرسان. لذلك كان يتم الاحتفاظ بالقوات الروسية النظامية داخل الستانيتزات في فصل الشتاء، ولكن في فصل الصيف كانوا يقادون خارجاً الى الخط استعداداً للعمل، حيث كانت الفصائل أو الطوابير المتحركة تتمركز في مواقع متميزة، يستطيعون انطلاقاً منها ان يصلوا الى جميع الوحدات التي يقومون بحمايتها في الوقت المناسب.

ظل الاتراك يحاولون ان يؤسسوا نفوذهم على الساحل الاوروبي للبحر الأسود بكامله. ولأن هذا الأمر يمس المصالح الحيوية لروسيا، فقد ظلت هاتان القوتان تصطدمان مراراً لحل المشكلة بقوة السلاح، لكن الحروب التي نشأت بينهما كانت تجري في بلاد الشراكسة، دائماً.

اثناء الحرب الروسية – التركية عام ١٨٠٧، اقتربت مجموعة القتال تحت قيادة الاميرال بوستوشكين، مع قوة انزال من لواء البحرية الرابع من البحر، ومجموعة جانجيبيلوف من تشيرنوموريا، من قلعة أنابا. رفض الباشا التركي تسليم القلعة كما طلب منه. بدأ الروس يقصفون المدينة وقلعتها بالمدفعية. احالت النيران خمسمائة منزل الى رماد يوم ٢٩ نيسان عام ١٨٠١. مات نصف الحامية التركية وحوالي نصف السكان جراء الحرائق، وهرب النصف الآخر، بمن فيهم الباشا نفسه، الى الجبال " تحت حماية الخيالة الشراكسة ". استمرت غارة مجموعة بوستوشكين على انابا اسبوعاً كاملاً، وهم يعبئون السفن بغنائم الحرب ويصدون الهجمات الشركسية اليومية. بعد ان انهت المجموعة مهمتها، افردت اشرعتها وغادرت.

استغل الباشا التركي مغادرة الاسطول، وعودة وحدة جانجيبيلوف، فعاد الى انابا، وعاود الشراكسة مهاجمة خط شريط البحر الاسود.

عام ١٨٠٩ استانفت روسيا حربها ضد تركيا، ارسل القائد العام الماركيز دي ترافيرس فيلقاً الى انابا في خمس سفن، بقيادة النقيب – ملازم بيرخوروف، مع قوة إنزال من لواء البحرية الرابع، كتيبة حامية فلاديميرسكي والكتيبة البحرية المؤقتة. كما تم ارسال كتيبتي مشاة و ٢٣٠٠ من قوزاق البحر الأسود من تامان الى انابا للمساعدة في الإنزال. جاءت

هذه القوة من خلال البوغاز تحت قيادة اللواء بانشوليدزه. كذلك اضطر اسطول القوزاق إيصاول ( نقيب القوزاق ) بورزيكوف الى مساعدتهم في نفس الوقت بمحاذاة المصب. إضافة الى ذلك، أصدر الماركيزدي – ترافيرس أوامره الى اتامان بورساك ان يهاجم منطقة عبر الكوبان بجميع قوات التشيرنومورسكي المسلحة.

اقترب فيلق بيرخوروف من أنابا يوم ١٥ حزيران، ودفع الجنود الذين انزلوا بالشراكسة بعيداً عن انابا في نفس اليوم. وصل الجنرال بانشوليدزه الى القلعة في ١٨ حزيران وضم كتيبة حامية فلاديميرسكي الى المجموعة القتالية. صعدت بقية القوات الروسية المسلحة الى سفن الفيلق واعيدت يوم ١٩ حزيران.

ارسل بانشوليدزه، الذي أصبح قائداً لحامية أنابا، قوة خاصة بقيادة العقيد زولوتينسكي لمعاقبة الناتخواج. حطمهم زولوتينسكي ونهب ما يقارب اربعين قرية، ولكن، هاجمته في طريق عودته قوة من اثني عشر ألف شركسي، بقيادة الباشا التركي حاكم انابا. استمرت المعركة طيلة النهار، واظهر الشراكسة شجاعة مثالية فيها. وقع زولوتينسكي في موقف عصيب. اضطر بانشوليدزه ان يسرع اليه بكل القوات الروسية المتبقية لديه، لانقاذه. في النهاية، تمكنت القوات المتجمعة من هزيمة الشراكسة في تلك المعركة.

سرعان ما اخضع الشابسوغ بدورهم لمصير مشابه. يوم ١٨ حزيران، عبر اتامان بورساك نهر الكوبان مع مجموعة قتالية من خمسة آلاف من قوزاق البحر الأسود وكتيبة ايجيرسكي رقم ٢٢، وتحرك خلف نهر بسه كوبس، وقام بتدمير ١٨ قرية على مدى خمسة أيام.



**الاتامان ف. واي. بورساك**
**من ارشيف آي. جي. فيدورينكو**

عام ١٨١٢، اعادت معاهدة سلام بوخارست مدينة انابا الى الاتراك. حسب نصوص نفس المعاهدة، اصبح الساحل الشركسي على البحر الأسود، من مصب نهر بزيبا الى ريون، جزءاً أساسياً من الامبراطورية الروسية. رغم ذلك، ظل الساحل الشركسي منطقة نفوذ للباب العالي، بما فيه انابا وسوجوك كاله (نوفوروسيسك). في الواقع ظلت انابا المركز الذي تنشر منه تركيا نفوذها وتجارتها على قبائل عبر الكوبان. هنا، تلقى الشراكسة كل المواد الضرورية، ولكن الأسلحة والذخائر بشكل رئيس. ذلك هو السبب الذي من أجله أمر الامبراطور نيكولاس الأول، عندما اندلعت الحرب الروسية - التركية عام ١٨٢٨، ببدء العمليات العسكرية الروسية من انابا تحديداً.

اشتدت المقاومة الشركسية للسياسة الاستعمارية الروسية عام ١٨١٨. إذ تصاحبت عملية انشاء حصون روسية جديدة في شرق بلاد الشراكسة ونقل الخط العسكري الى الضفاف العليا لنهر الكوبان، مع المزيد من الغارات الشركسية على التحصينات الروسية. رغم ذلك، لم يتمكن الشراكسة غير النظاميين، بتسليحهم القليل، ان يقاوموا الجيوش النظامية للدكتاتورية الروسية في ذلك الوقت.



**الامبراطور نيقولاي الأول**

ادت التناقضات الروسية - التركية حول بلاد الشراكسة تدريجياً الى قيام حرب عام ١٨٢٨ - ١٨٢٩، والى احتلال قلعة انابا من قبل القوات الروسية المسلحة. شاركت في هذه العملية القوات المشتركة لأتامان القوزاق بيسكروفني، العقيد بتروفسكي والاميرال جريج.



**الاتامان ايه. دي. بيسكروفني**
**من ارشيف آي. جي فيدورينكو**

نورد هنا بعض تفاصيل هذه العملية، استناداً الى بعض المصادر. يوم ١٨ أيار ١٨٢٨، وقعت معركة على نطاق كبير في أنابا. كان الاتراك يخرجون في عمليات إغارة، منسقة مع هجمات الشراكسة غير النظاميين. من بين الشراكسة المهاجمين كان الشيمجوي، الشيشيناي، الشابسوغ، والناتخواج. ترأس الأمير بشقوي وداشه نونوكو، الاقطاعي الناتخواج، الذي نال رتبة عقيد من السلطان التركي في القسطنطينية، فصيلهم البالغ عدده خمسة آلاف رجل. على الرغم من الدعم المدفعي الذي حصلوا عليه من القلعة، تحطم قسم من المهاجمين والقي سبعمئة رجل منهم عن الصخرة العالية الى ساحل البحر وتراجع الباقون الى الجبال. قتل داشه نونوكو في هذه المعركة. بعد هذا الإخفاق العسكري، غادر قسم من الشراكسة انابا، وكان الناتخواج من بين اوائلهم. أرغم الشاط عثمان اوغلو، قائد أنابا، على الاستسلام. وقع حوالي ٤٠٠٠ تركي أسرى، وفي النهاية كان الروس قدغنموا ٢٩ راية و ٨٥ قطعة مدفعية. كان من بين الأسرى صفر بك، الشابسوغ البارز، الذي حفل مصيره بمعاكسات الاقدار.

انتهت هذه الحرب الروسية – التركية بنصر روسيا، الأمر الذي اطلق يديها أخيراً ومنحها حق المطالبة في المستقبل بأساس " قانوني " لعدوان مفتوح ضد بلاد الشراكسة.

بعد نهاية الحرب الروسية – التركية عامي ١٨٢٨ – ١٨٢٩، وقع الفريقان معاهدة ادرنه يوم ٢ أيلول عام ١٨٢٩ بموجبها " تلقت " روسيا باشوية اخالتسيخسكي، قلعة بوتي ومدينة انابا وجميع اقليم عبر الكوبان وساحل البحر الأسود. رغم ذلك، خاضت روسيا صراعاً طويلاً مستقبلياً في سعيها لتأسيس سيطرتها على بلاد الشراكسة. كتب الامبراطور نيقولاي الأول الى مارشال الميدان باسكيفيتس،قائد الفرقة القفقاسية المستقلة: بعد ان انهينا مهمة مجيدة بهذا الشكل، لديك مشروع مهمة أخرى، يبدو بنفس المجد في عيني و.. اهم بكثير – وهو الإخضاع المطلق لشعب الجبليين او إبادة المتمردين منهم ". هذا على الرغم من ان

تركيا لم تمتلك هذه المنطقة قانونياً أبداً، ولذلك، لم "تتلقاها" روسيا من تركيا. اكثر من هذا، وكما لاحظ إس. ايسادزه بحق " لم يعترف شراكسة عبر الكوبان ولا شراكسة ساحل البحر الأسود في الجوهر بانفسهم كرعايا للسلطان أبداً ".

ومع ان بلاد الشراكسة كانت حتى عام ١٨٢٩، حسب معاهدة إدرنه، إسمياً جزءاً من الامبراطورية التركية، واستمرت عدة حصون على الشاطئ الشركسي في البقاء بيد الباب العالي، إلا ان الشراكسة لم يخضعوا فعلياً للسلطان أبداً وظلوا مستقلين الى حد بعيد. اضطر الجنرال ييرمولوف الى كتابة ذلك في تقريره الى سانت بطرسبرج " ان شعوب عبر الكوبان غير مطيعة للحكومة التركية بشكل واضح بارز ".



**مارشال الميدان أي. ف. باسكيفيتش**

## المقاومة الشركسية

وضعت معاهدة ادرنه نهاية شبه تامة للتدخل التركي في القفقاس الغربي وجعلت من روسيا السيد المطلق عليه. ظلت بلاد الشراكسة، رغم صغرها المطلق مقارنة بالمعتدي الهائل على اراضيها، القوة الوحيدة الباقية في هذا الوقت للتصدي للهجمات القوية لجارها الجشع. لم يترك الشراكسة خلفهم تاريخاً مكتوباً عن هذا الصراع البطولي. إن التاريخ الذي كتبه الروس عن هذه الحرب متحامل ومشوه الى درجة رهيبة. مع ذلك، فكل ما يسعنا عمله حتى

ننصف الشجاعة والقدرة على التحمل، اللذين قاومت بهما بلاد الشراكسة الهجمات التي لم تتوقف لعقود من قبل الآلة العسكرية الهائلة لروسيا، هو ان نقدم الوقائع من السجلات الروسية العسكرية نفسها. سنترك القارئ يتخيل البطولة والقدرة على التحمل التي اضطرت هذه الأمة الصغيرة الى إظهارها حتى تقدم هذه المقاومة الطويلة التي اذهلت العالم.

اصبح الهدف التالي لروسيا هو احتلال رأس آدلر. حسب اقوال الروس، فان السبب الرئيس لذلك هو قطع كل الاتصالات التي تمتلكها بلاد الشراكسة مع تركيا. رغم ذلك، فإن خطة الكونت باسكيفيتش تكشف عن الغاية الفعلية لاحتلال رأس آدلر. حسب تلك الخطة، فانه يمكن احتلال القفقاس في فترة قصيرة من الزمن. لإنجاز ذلك، كل ما على روسيا عمله هو انشاء خط محصن من مضيق كوبان الى غيلينجيك، بناء العديد من التحصينات على ساحل البحر الاسود، ثم ارسال عشرة فصائل صغيرة من خط غيلينجيك الى الغرب لدفع الشراكسة الى البحر وتهديدهم بالإفناء هناك، اذا رفضوا الخضوع للحكم الروسي. حتى تنفذ هذه الخطة، ترتب على روسيا استكشاف الطرق المؤدية الى مناطق القبائل المتمردة والحصول على المعلومات الضرورية حول هذه القبائل، الأمر الذي انطوى على صعوبات جمة. فقد كان دخول هذه الاراضي يعني المخاطرة بالقتل أو الأسر، ليس فقط بالنسبة للروس، بل أيضاً للرحالة الاجانب. رغم ذلك،فقد قام بعض الضباط الروس المغامرين مثل ايسكريتسكي، زوبوف، بارتينييف و نوفيتسكي، بالتعبير للكونت باسكيفيتش عن رغبتهم في التوغل بين الشراكسة وتقديم كل المعلومات الضرورية له حول اسلوب معيشة الشراكسة واراضيهم. من بين هؤلاء، لم ينجح سوى نوفيتسكي في العثور على متنفذين شراكسة، قبلوا باستقباله كضيف ورحالة في بلاد الشابسوغ. كان مضيفيه الأخوان آبات، بيسليني ووبيخ، الفارسان الشهيران، اللذان ارعبا خط الكوبان، واللذان يتمتعان بسمعة عظيمة بين كل من الشراكسة المتمردين والمسالمين على حد سواء. توجت الصداقة التي اسسها نوفيتسكي مع الشقيقين آبات بالنجاح، لكنها دمرت المحسنين اليه نهائياً. رغم ان تركيا تنازلت لروسيا عن الساحل الشرقي للبحر الاسود بموجب معاهدة إدرنه، وذلك من الكوبان وحتى قلعة سانت نيقولاي، استمر الشراكسة في إدامة تعاملهم مع تركيا لغايات الربح التجاري. حتى دوريات البحرية الروسية لم تتمكن من منعها، لأن السفن الروسية الضخمة لم تكن تستطيع ان تقترب من الشاطئ، بينما كانت السفن التركية الصغيرة، المسلحة عادة بمدفع أو اثنين، تشق طريقها بقوة وجرأة وسرعة نحو الساحل، تدخل مصبات الأنهار، حيث تفرغ حمولتها

وتقايض بها. استنكر الروس هذه التعاملات، لأن كلاً من الانجليز و الاتراك قدموا للشراكسة الأسلحة وملح البارود والذخائر.

بدأ التدخل الانجليزي في شؤون القبائل الشركسية بعد ابرام معاهدة إدرنة فوراً تقريباً. في البداية كان التدخل مقتصراً على ابداء النصح والاقتراحات، الهادفة الى جعل الشراكسة يشككون في صحة شروط المعاهدة. على أية حال، سرعان ما انضمت الى هذه الاقتراحات ضرورة قيام ثورة عامة ضد روسيا، نشر الإشاعات حول القدوم المحتم العاجل للقوات التركية المسلحة، وعودة الساحل الى الشراكسة. خلال هذا الوقت، كان صفر بك زان، الوسيط الرئيس بين السفارة البريطانية في القسطنطينية وشراكسة الساحل. اضافة الى ذلك، كان الملالي الاتراك يحاولون اقناع الشراكسة بالبدء في حرب مقدسة (جهاد) كما فعل الليزجين والشيشان.



**ازياء النساء الشركسيات في القرن الثامن عشر**
**من كتاب " ملابس شعوب شمال القفقاس "**
**ل.إي. آي. ستودينيتسكي**

عام ١٨٣٤ وصل لونجوورث الى بلاد الشراكسة كرحالة واستقبل بجدية. عام ١٨٣٦ استولت البوارج الروسية على سفينة شحن تجارية انجليزية، كانت تنوي تسليم قذائف حية وذخائر أخرى. عام ١٨٣٧، وصل صاحب هذه السفينة: بيل ومعه لو نجوورث، الى الساحل الشركسي، وذهبا الى قبيلتي الشابسوغ والناتخواج اللتين كانتا بصدد ارسال بعض الاشخاص الى القسطنطينية مع تفويض بمعرفة ما اذا كان عليهم انتظار المساعدة التي وعدوا بها

أم لا؟ اوقف بيل ارسال الوفد، واكد لهم ان المساعدة سوف تقدم لهم بدون ابطاء. تشجع الشراكسة من هذا الكلام. فارسلوا وفداً الى الجنرال فيليا مينوف يطلبون منه ايقاف العمليات العسكرية، وسحب القوات المسلحة من الاراضي الشركسية وتفكيك التحصينات الروسية من اولجينسكي وحتى غيلينجيك. كذلك ارسلوا وفداً مماثلا الى الجنرال مالينوفسكي، الذي كان يتقدم على رأس مجموعة قتالية من اولجينسكي الى آبين.



**الجنرال ايه. ايه. فيليا مينوف**

ذكَّر الجنرال مالينوفسكي الشراكسة انه بموجب معاهدة إدرنه، فقد تنازل السلطان عن جميع الشراكسة الى روسيا، " وكل شاطئ البحر الأسود من مصب الكوبان الى رصيف القديس نيقولاي وحتى حدود جورجيا، ايميريتيا وغوريا ".

أجابة احد الشراكسة " جنرال طيب!" ثم اشار الى طائر، جالس على شجرة، واضاف "وأنا اعطيك هذا الطائر الى الأبد، مقابل كلماتك اللطيفة. خذ ه!" ثم أومأ برأسه، قفز الى ظهر حصانه، وانطلق يعدو مبتعداً. لحق به اصدقاؤه.

نتيجة لجهود العملاء الانجليز، توحد جميع شراكسة الساحل ضد الجناح الأيمن، وقرروا ان يقاوموا المؤسسة الروسية على ساحل البحر الأسود الشرقي مجتمعين. نتيجة لذلك، تنامت الغارات الشركسية على القوات المسلحة الروسية في جرأتها وتعددها. بحلول هذا الوقت، قررت روسيا ان تحتل جميع الامكنة على ساحل البحر الأسود الشرقي، حيث يمكن للسفن أن تدخل. تحقيقاً لهذه الغاية، أمر الامبراطور نيقولاي الأول ببناء عدد كبير من التحصينات التي ستشكل الخط الساحلي للبحر الاسود، بمساعدة اسطول البحر الأسود.

كان يجب احتلال رأس آدلر أولاً، من قبل القوات الروسية بقيادة قائد الكلية البحرية البارون روزين والجنرال سيمبورسكي.

نزل فيلق البحر الأسود، المؤلف من إحدى عشرة سفينة مختلفة الأنواع، بقيادة الاميرال ايزمونت، في سوخومي يوم الثالث من حزيران عام ١٨٣٧ ثم توجه الى رأس آدلر، حيث بلغه يوم السادس من حزيران. تشكلت القوة الروسية، بقيادة الجنرال فولخوفسكي من: ثمانية سرايا جورجية، ستة فصائل من تفليس، ستة ألوية من منجريليا، سرية كتيبة الهندسه القفقاسية، مع ١٦ قطعة مدفعية ومليشيات من شعوب ايميريتيا ومنجريليا. بعد التشاور مع الادميرال، ارسل البارون روزين سفينة شراعية ضخمة بمحاذاة الساحل مع المقدم نورد ستريم من هيئة الاركان العامة، لاختيار موقع الإنزال. عندما اقتربت السفينة، فتح الشراكسة عليها نار بنادقهم من التحصينات والخنادق.

يوم السابع من حزيران عام ١٨٣٧، اقترب الفيلق من الساحل، وشكل خطاً قتالياً. فتحت السفن نيران مدافعها، دمرت الخنادق واجبرت الشراكسة على التراجع الى داخل الغابة. احتل الجنرال فولخوفسكي، الذي ترأس القسم الأول من الإنزال، طرق الغابة على رأس الكتيبة الرابعة من اللواء والميليشيا المنجريلية. استغل الشراكسة الكثافة الشديدة للغابة، التي ملأتها عيدان القصب والأشواك، واقتربوا من السلسلة الروسية وفتحوا النار. طلب الروس المساعدة من المتطوعين. كان بيستوجيف من اوائل الذين استجابوا. عين النقيب البرانت المعروف لدى القفقاسيين بشجاعته، قائداً للمتطوعين. رافقهم المقدم في الميليشيا الايميريتية، الأمير تسيريتيلي. اندفعوا الى داخل الغابة. تصاعد تبادل النيران. بعد وهلة، بدأ الشراكسة بالتراجع. لاحظ المتطوعون الذين كانوا يطاردونهم فجأة، سياجاً من الاغصان المجدولة، ثم سمعوا نباح كلاب.

ادرك البرانت انهم استدرجوا الى ابعد مما ينبغي. طلب من بيستوجيف ان يصطحب جنديين، ويعود الى قائد القوة، ليطلب منه تعليمات جديدة. نفذ بيستوجيف أوامره، وبعد ان تلقى التعليمات من الجنرال فولخوفسكي، بدأ يتخذ طريقه خلال الاجمات الكثيفة عائداً الى البرانت، لكنه اصطدم بمجموعة من الشراكسة، وتلقى اصابتين، واحدة في ساقه، والأخرى في رأسه. ثم انقض الشراكسة عليهم بالسيوف وقتلوا الجنديين وضابطهم المحبوب. هكذا مات بيستوجيف.

كان الشراكسة قد التحموا بالجيش الروسي في قتال بالأيدي، حينما وصلت ثلاث سرايا مينجريلية لمساعدة البرانت. رغم ذلك، فقد كان الفضل للسرايا الخمس من لواء تفليس، التي حضرت لتدعيم القوات الروسية، التي تمكنت بشكل رئيس من ازاحة الشراكسة من الغابة.

بعد انزال القوات الى البر، ارسل الجنرال سيمبورسكي لاحتلال المعسكر الواقع في مصب نهر مزيمتا.

زحف بمحاذاة الساحل برفقة كتيبة من اللواء الجورجي، مدفعية جبلية وسرية مهندسين. استمر الشراكسة في اطلاق النار على الجورجيين المتقدمين، حتى اجبرتهم قذائف المدافع الجبلية على التراجع.

جاءت جميع القوات الروسية الى المكان المخطط لإقامة حصن الروح القدس عليه، وبدأوا يؤسسون لبناته يوم ١٨ حزيران، عام ١٨٣٧. اعيدت تسميته كونستانتيوفسكي من قبل البارون روزين، على شرف الجنرال الادميرال الدوق الاكبر كونستانتين، قائد لواء رماة القنابل الجورجي. لدى تلقيه الانباء، اصدر الامبراطور نيقولاي الأول أوامره بتوجيه الإمتنان لجميع الجنود الروس. كتب الكونت تشيرنيشيف وزير الحربية، معبراً عن اعطائه الأهمية القصوى لهذه الاحداث، الى البارون روزين " لقد وفرت عملية احتلال رأس آدلر من ناحية من قبل سعادتكم، والاستيلاء على نهر بشاد من قبل الجنرال فيليا مينوف من ناحية أخرى، البداية لتنفيذ الخطة المقدرة سلفاً من صاحب الجلالة الامبراطورية للسيادة على كامل امتداد الساحل الشرقي للبحر الأسود، وايقاف وسائل الاتصال للعملاء الأجانب مع الجبليين ".

زار الامبراطور نيقولاي الأول القفقاس عام ١٨٣٧، لمشاهدة الوضع فيه شخصياً. كان هذا هو الامبراطور الأول، بعد بطرس الاكبر، الذي يزور القفقاس. في هذه المرة، على أية حال، لم يتوجه من بحر قزوين، بل من الساحل الشمالي الشرقي للبحر الأسود، حيث كانت الحرب الروسية ضد الشراكسة في قمة اشتعالها. وصل الامبراطور الى خليج غلينجيك قادماً من سيفاستوبول يوم ٢٠ ايلول عام ١٨٣٧، على متن الباخره " بوليارنايا زفيزدا ". كان ولي العهد تسيساريفيتش بصحبته. كان الطقس عاصفاً، والجبال المغطاة بالغابات مختفية تحت سحابة سميكة. ثار البحر. نزل الامبراطور الى الشاطئ، حياًّ حرس الشرف بعد استراحة قصيرة في منزل القائد واستقبال الجنرال فيليامينوف، قائد القوات الروسية المسلحة على الخط القفقاسي، وبعض الاشخاص الآخرين، ثم قام بعيادة السيد شتايبن الذي أصيب في حملة اليوم السابق بجرح قاتل، وكافأة بثلاثة آلاف تشيرفونت. ثم قام لاحقاً بزيارة للمستشفى الميداني وانعم بصلبان جورجييفسكي على بعض الجرحى من الجنود ذوي الرتب المتدنية. في اليوم التالي، ذهب الامبراطور الى المعسكر الواقع على بعد فيرستين من الحصن. عندما اقترب من القوات المسلحة، ترجل عن جواده ومشى بمحاذاة صف

المقدمة، وولي العهد الى يمينه. هبت الريح بقوة في تلك اللحظة الى درجة بات معها من الصعوبة بمكان استمرار الجنود في الوقوف على اقدامهم. لم يستطع المرء ان يفكر في اي نوع من الاستعراض. ودع الامبراطور قوات فيليامينوف يوم ٢٢ أيلول وتوجه نحو السفينة التي تنتظره.

اقتربت " بوليارنايا زفيزدا " من خليج انابا يوم ٢٣ ايلول. وصل الامبراطور صباح اليوم التالي على سفينة شراعية الى الرصيف، حيث رحب به الكونت تسوكاتو، القائد الذي استضافه في منزله. هناك، تقبل الامبراطور تقرير القائد واستجوبه بالتفصيل عن العمليات العسكرية ضد الشراكسة.

لاحقاً، ذهب للتفتيش على الحصن، زار المستشفى وجدران الحصن، ثم دخل الى ساحة واسعة، استعدت القوات المسلحة لحامية انابا لاستقباله الخضوع لتفتيشه. مروا من أمامه في مشية استعراضية رائعة، ونالوا امتنان جلالته. بعد أن كافأ كل ضابط وجندي بمبلغ خمسة روبلات، سافر الامبراطور الى شبه جزيرة القرم على متن السفينة، حيث افترق عن ولي العهد، ثم توجه يوم ٢٥ ايلول، عائداً الى " ريدوت – قاله " في القفقاس على متن " بوليارنايا زفيزدا ".

دار الحديث منذ زمن طويل في جورجيا حول الزيارة المرتقبة للامبراطور، لكن الكونت تشير نيشيف، وزير الحربية، اخبر البارون روزين يوم ١٨ آذار ان جلالته سيزور القفقاس في ايلول. تشكلت لجنة على الفور في تفليس، برئاسة فرولوف، اصبحت مسؤولة عن ايجاد السبل لتوفير مرور بدون توقف لجلالته. غادر البارون روزين في اوائل ايلول للتفتيش على نقاط الطريق المقترح ووصل الى ريدوت –قاله.

القت " بوليارنايا زفيزدا " مراسيها يوم ٢٧ ايلول على مرأى من المدينة. كان البارون روزين يقف على الشاطئ.هتف جلالته " لدي شرف الوصول "، بعد ان نزل الى الشاطئ. ادى التحية ومد يده للبارون.

تألفت حاشية جلالته من: الجنرال المرافق الكونت اورلوف، الكونت آدلبرج، الطبيب العام آريند، المعاون المقدم لفوف، العقيد راوخ من الجيش البروسي ، وثلاثة ضباط مراسلين.

من ريدوت – قاله، توجه الامبراطور الى زوغديدي، مقر اقامة الأمير ليفان داديانى، عمدة مينجريليا، ثم استمر ماراً بكوتايس، سورام، ووادي بورجومسكي نحو اقليم عبر القفقاس.

يوم ١٣ نيسان عام ١٨٣٨، اقترب فصيل الادميرال أرتيوكوف مع فصيل الإنزال من مصب نهر سوتشي ونزلت أول دفعة من جنود الإنزال، من على قوارب التجديف، على الشاطئ واحتلت المرتفعات المجاورة. بدأ الجبليون الذين كانوا مختبئين في الوادي السحيق، بالظهور على المرتفعات المقابلة. استطاعت السرية الثالثة للرماة من اللواء المينجريلي ان تحمل مدفعاً واحداً الى قمة الجبل. انضمت السريتان السابعة والثامنة، اللتان شكلتا السلسلة المتقدمة الى السرية الثالثة، واشتبكوا، بدعم من ميليشيا ايميريتيا وجورجيا بقيادة النقيب بلاتس – بيك – كوكوم، من لواء فرسان نيجيغورودسكي، في تبادل اطلاق نار عنيف مع الشراكسة.

عندما ادرك الجنرال سيمبورسكي الوضع الخطير الذي وقع فيه المشاة، دعمهم بسريتين اضافيتين من المينجريليين والمدفعية. حقق المنجريليون موطئ قدم قوي على الجبل واحتلوا قرية سوتشي. وصلت سريتان من لواء ايريفانسكي لاحقاً، واستطاع مدفعان خفيفان من البطارية الثالثة، مع القوة كلها، ان يحتلوا الجبل، ويدفعوا الشراكسة الى الخلف.

في اليوم التالي، تغطت قمم الجبال المجاورة بحشود من الشراكسة، فرساناً وراجلين. تبين ان مجرد نصف الوبيخ كان متواجداً في سوتشي، وان النصف الآخر كان ينتظر للنزول قرب ماماي. استمر تبادل النيران في الأيام التالية. يوم ١٧ نيسان وصل الأمير كيريندوق بيرزك، ابن شقيق الحاج بيرزك الشهير، الى المعسكر. اكد أ ن الوبيخ يتجمعون من جميع الانحاء وانه تم تحديد تاريخ الاجتماع المخصص لحل مسألة القتال ضد الروس بجهد موحد. اقترح الجنرال سيمبورسكي على بيرزك ان ياخذ النداء الذي يبين الشروط التي يمكن للوبيخ ان يخضعوا فيها للحكم الروسي، فوافق بيرزك. على كل حال، في هذه الاثناء، كانت القوات المسلحة الروسية تجهز المواد اللازمة لبناء حصن يسمى الاسكندرية. بدأوا في وضع لبنات الحصن يوم ٢١ نيسان، لكن كتيبة هندسة كافكازسكي هي التي اكملت بناءه تحت قيادة النقيب جيرنيت.

يوم ٩ أيار، وعندما شارف العمل على الانتهاء، دوّى صوت اطلاق مدفع المعسكر من المرتفع المجاور وكادت قذيفة مدفع عيار ستة ارطال ان تصل الى الاستحكام الهلالي الذي يجري تجهيزه. فتح المدفعيون الروس النار من ستة مدافع. لم يرد الشراكسة لساعتين. ثم بدأوا يطلقون النار من الجبل الذي كان على بعد نصف فيرست، بقذائف من مختلف الأعيرة.

قرر الروس عند فجر اليوم التالي الاستيلاء على المدفع من العدو. نفذ المقدم رادكيفيتش من لواء تيفليسكي ايجيرسكي، العملية بذكاء. صعد الى الجبل على رأس سرية من تفليسيي ايجيرسكي، سريتين من لواء ايريفانسكي، مدفعين جبليين وفصيل ميليشيا، من النقطة التي كان الشراكسة يطلقون المدفع فيها في اليوم السابق. سرعان ما اكتشف على أية حال، ان الشراكسة قد نقلوا المدفع الى مواقع آخر قريب. بعد ان اسستولى راد كيفيتش على الجبل، ارسل الجنرال سيمبورسكي الرائد ايجادزه الى هناك مع سريتين من لواء ايريفانسكي، مدفعين جبليين ومجموعة ميليشيا للتعزيز. كذلك ارسل سريتين من المينجريليين مع مدفعين جبليين وفصيل ميليشيا الى التلة المجاورة، لمراقبة تحركات الشراكسة ولمساعدة الإيجر ورماة البنادق اذا دعت الحاجة.

اندفع المقدم رادكيفيتش، وقد تقوى بكل تلك التعزيزات، مقتفياً آثار العجلات، الى المكان الذي اخذ اليه المدفع واستولى عليه بالقوة، برغم النيران القاتلة للشراكسة، الذين تجمعوا هناك باعداد غفيرة واحتلوا المناطق الوعرة. اختفى الشراكسة الذين انهزموا في الأودية المكسوة بالاشجار. عاد رادكيفيتش الى المعسكر مع المدفع الذي استولى عليه، بعد أن نفذ العملية البطولية التي القيت على عاتقه واحرق آولين (قريتين) كبيرتين للوبيخ.

اتخذت سريتان من لواء ايريفانسكي مع مدفعين خفيفين موقعهما عند مدخل المعسكر، لحماية ودعم القوات العائدة. قامت سرية المينجريليين مع خمسين من المليشيا باحراق آولين وراقبت تحركات العدو الى ان اتمت جميع الوحدات التي شاركت في المعركة عودتها الى المعسكر.

نفذت عملية طابور المقدم رادكيفيتش بنظام تام واستمرت في صد الشراكسة، الذين هاجموا حرس المؤخرة تكراراً، متكبدين خسائر جسيمة. لقد فاقت شجاعة ومرارة الوبيخ كل التوقعات. حتى باعدادهم الصغيرة، اندفعوا مشهرين سيوفهم الى وسط المشاة الروس وماتوا فوق أسنة الحراب.

كتب الجنرال سيمبورسكي في تقريره عن المعركة " إنني اعزو الفضل كاملاً في النجاح لهذا اليوم، الى الأوامر الذكية والشجاعة الشخصية للمقدم رادكيفيتش.. " حسب مصادر أخرى، كان هناك آخرون قاتلوا بامتياز في تلك المعركة هم: النقيب جلينكو، عضو هيئة الاركان العامة، الملازمان الأولان قارابابيف وايفانوف، الملازم لاغودا، مدفعي، نافخ البوق – فرسان كبزوخوف، والنقيب سافيتسكي من لواء رماة البنادق إيريفان، وتشيتفيريكوف من لواء تفليس ايجيرسكي.

نزل الجنرال رايفسكي الى اليابسة في شواطئ طوابسه يوم ١٢ أيار. في الساعة العاشرة صباحاً، وصل فيلق بحرية تشيرنومورسكي، بقيادة الجنرال المرافق لازاريف عند مصب النهر. كان قادة المشاة مجتمعين على السفينة "سيفيرنايا زفيزدا". واتفقوا على نقطة الاحتلال.

منذ وصول الفيلق، بدأت عدة مجموعات من الشراكسة تتجمهر على الشاطئ.

توجهت قوارب التجديف في قسمين نحو الشاطئ بعد تلقي الإشارة من سفينة القيادة، بقيادة النقيب صنف أول سيريبرياكوف والنقيب كورنيلوف. فتحت النيران من السفن، وتراجع الجبليون نحو الغابة. انزلت مع الرحلة الأولى ثلاث كتائب من لواء تينجينسكي، كتيبتان من لواء نافاجينسكي، وثلاث سرايا من كتيبة تشيرنومورسكي الرابعة بقيادة الرائد سيريدين.

بعد أن ارسلت الكتيبة الثانية من لواء تينجينسكي كتيبة البنادق في المقدمة بقيادة العقيد فون برينك، تحركت بتشكيل طابور الى الهجوم. تبعتها كتيبة التينجين الأولى بقياده العقيد أولشيفسكي، رئيس اركان المجموعة، والكتيبة الثانية من لواء نافاجينسكي بقيادة العقيد بولتينين، قائد اللواء. ارسلت كلتا الكتيبتين رماة البنادق لحماية جناحي القوات الروسية المسلحة. بقيت الكتيبة الثالثة من التينجين والأولى من النافاجين بقيادة العميد لينجين، والتي شكلت الطابور الرئيس، لغايات التنزيل والحماية بواسطة ستة مدافع خفيفة واربعة مدافع جبلية. بعد أن انهوا ذلك العمل، تحركوا بدورهم خلف المقدمة.

عندما بدأوا يحتلون المرتفعات المجاورة، فتح الشراكسة النار. هاجم كل من النافاجين والتينجين واستولوا على الاستحكامات التي بناها الاعداء. في نفس الوقت، استمرت خمسة قوارب آزوف، واقفة في صف واحد عند مصب نهر طوابسه، بقيادة المقدم البارون جراتش، في قصف الغابة الواقعة بين الاستحكامات والنهر، بحيث منعت الجبليين من قطع النهر الى ضفته اليمنى. استحكم الشراكسة على جبل آخر. دحر العقيد اولشيفسكي مع التينجين، الشراكسة الذين هاجموه بالسيوف. جاء هذا الهجوم عنيفاً متهوراً الى درجة ان كتيبة النافاجين الأولى، التي ارسلت كتعزيز مع مدفع خفيف، لم تتمكن من الوصول للمشاركة في المعركة.

استمر الانزال في هذه الاثناء. ارسلت كتيبة مشتركة من البحارة مع مدفعين بقيادة النقيب بوتياتين لتعزيز المقدمة. تحرك باقي القوة التي تم انزالها الى المرتفعات و شكلت الاحتياط. خلال كل هذا الوقت، عملت ثلاثة ألوية من مشاة قوزاق تشيرنومورسكي على

قطع اشجار الغابة خلف الجنود وسائر الانحاء المحيطة بالمعسكر. بعد ان انهزموا نتيجة هجومين، بدأ الشراكسة ينسحبون في الخامسة من بعد الظهر.

يوم ١٣ أيار، بدأ الروس يجهزون المواد لبناء حصن آخر. شرح الجنرال رايفسكي للشراكسة الذين حضروا لطلب الإذن لجمع رفات مواطنيهم الذين سقطوا في المعركة، الفوائد التي سيجنونها من خضوعهم للامبراطور الروسي، ووعد بتأسيس اسواق قرب كل حصن، وعبر عن احترامه الشديد لشجاعتهم. رغم كل هذه التمنيات الطيبة، اجاب الشراكسة بأنهم غير مفوضين لحل مثل هذه المشكلة المهمة.

في اليوم التالي، اقتربت مجموعات كبيرة من الابزاخ من المعسكر الروسي الى مدى طلقة البندقية، ثم بدأوا يطلقون النار. كان العقيد بولتينين مكلفاً بقطع الغابة الى مجرى نهر طوابسه تقريباً. بعد أن اطلق العقيد بولتينين عدة قذائف اشعلت النار هناك، ارسل الكتيبتين الأولى والثانية من لواء نافاجينسكي مع كتيبة البحرية الموحدة.

بعد هذه العمليات، اكمل الروس احتلال كامل مساحة نهر طوابسه.

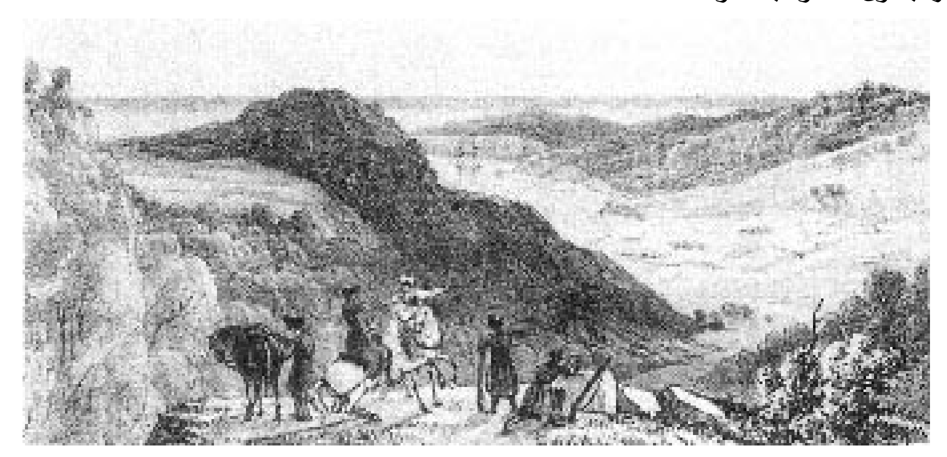
اصيب الملازم تيمشينكو بصدمة جراء اطلاق النيران الذي لم يتوقف، وجرح ستة بحارة، قوزاقي واحد ومدفعي من لواء نافاجينسكي.

تلبية لرغبة صاحب الجلالة الامبراطورية، اوكلت عام ١٨٣٩، بفصيل مؤلف من ثماني كتائب (اربع من لواء نافاجينسكي واربع من لواء تينجينسكي)، سريتين من المهندسين، لوائين من قوزاق تشيرنومورسكي مع ٢٤ مدفع، بقيادة اللواء رايفسكي، عملية النزول من السفن في سوباش وبناء حصن هناك. وصل الفيلق بقيادة الادميرال لازاريف الى مصب مضيق كيرتش، بعد ان ابحر من هناك يوم ٢٨ نيسان، فوصل بفضل الريح المواتية الى مصب نهر سوباش يوم الثاني من أيار. في ذلك الوقت، احضر زايفسكي الاسلحة الروسية الى اراضي الوبيخ. في اليوم التالي، انزلت السفن قوارب تجديف محملة بالنافاجين والتينجين. استمرت جماعات الوبيخ الراجلين في التزايد. تجول في المنطقة حوالي ٣٠ قائد على جيادهم. ركع حوالي خمسمائة رجل تحت الاشجار المعمرة في السهل. امامهم ملاً على رأسه عمامة بيضاء. كان هذا مؤشراً على ان الشراكسة قد صمموا على الدفاع عن انفسهم الى الدرجة القصوى وان الروس سيدفعون ثمناً غالياً لاحتلال ذلك المكان المقدس.

رفع الادميرال شارة " بدء المعركة " وفتحت السفن نيران المدافع. تحركت قوارب التجديف بقيادة النقيب كورنيلوف بانتظام نحو الشاطئ في صفين وانزلت الجنود هناك.

بغض النظر عن اقتراب الفيلق، واجه الوبيخ القوات الروسية النازلة في خمسين "ساجين" من الشاطئ. اجبر عمل مدافع البحرية الشراكسة على التخلي عن خنادقهم الساحلية، التي حصنوا بها المسافة كلها بين مصبي سوباش والشاخا، والبحث عن ملاذ آمن في المرتفعات والأودية العميقة المكسوة بالغابات.

كانت القوات الروسية قد وصلت الى الشاطئ لتوها، افرغت مدفعين جبليين، وارسلت المقدمة، عندما اندفعت مجموعة من اكثر من الف شركسي الى السهل. اندفع امامهم عدة ملالي بعماماتهم البيضاء والقوا بانفسهم على المقدمة، مطلقين صرخات الحرب المرعبة. كتب لورير في ملاحظاته " بدا لي انني لن انسى الانطباع المرعب الذي تركه هذا الهجوم المفاجئ على نفسي. هاجم قائدان شركسيان على ظهر جوادين أبيضين، امامهم بشجاعة "تقدم الجنرال كاشوتين بكتيبة من لواء تينجينسكي، لكن الشراكسة اشهروا سيوفهم وهجموا عليهم. في تلك اللحظة، ظهرت الكتيبة الثالثة من لواء تينجينسكي، بقيادة المقدم تانسكي من اجمات الغابة وهاجمت جناح الشراكسة بالحراب مطلقة صرخة "وُرا! ". بأمر العقيد بولتينين، قائد لواء نافا جينسكي، هاجم الرائد جيرمانز الشراكسة بسرية البنادق الثالثة ( نافاجينسكي ) التي شكلت احتياطي الجناح الأيمن. كذلك هاجم العقيد تانسكي معه. توقف الشراكسة، بدأوا يطلقون النار ويتراجعون. لكن الوقت كان قد تأخر. فقد اطبق النافاجين عليهم من الجانبين، الا ان الشراكسة قاتلوهم بضراوة في قتال بالأيدي، بينما هم يتراجعون خطوة بخطوة.



**معسكر روسي في طوابسه**
**من "أجندة المطالب الشركسية" لجيمس بيل**

في هذه الاثناء، نزلت مجموعة كبيرة من الشراكسة من الجبل العالي الذي يفصل شاخا وسوباش. ارادوا ان يستولوا على المرتفع البارز الى البحر، لأن نظام دفاعهم الرئيس كان موجوداً عليه. كان الجنرال اولشيفسكي قد حذر من هذه التحركات وقاد بسرعة كتيبة المقدم خليو بين من التينجين نحو الصخرة المغطاة بالغابة في الجبل. بدأ بتبادل قوي للنيران. مكّن الموقع المسيطر الروس من ايقاف ضغط الشراكسة وقصفهم بمدفعين خفيفين من هناك. لم يهرب الشراكسة الذين يتلقون الضرب من ثلاث جهات، بل بدأوا يتراجعون ببطء في السهل، محتمين بسلسلة مزدوجة. اخذت الجماعات التي تخرج من الوادي المشجر العميق تحمل القتلى أو تحل محلهم.

خلال هذا الوقت، انضمت الكتيبة الموحدة من النافاجين والتينجين، المدفعية، وكتيبة البحرية الموحدة، التي انزلت في الرحلة الثانية، الى الفيلق الروسي. ارسلت الكتيبة الموحدة من النافاجين والتينجين بقيادة المقدم دانزاس، لتعزيز المقدمة.

بدأ الجنرال كاشوتين يضغط على الشراكسة بقوة اكبر. مع وجود الكتيبة الثانية من التينجين والكتيبة الثالثة من النافاجين. اقترب من سفح الجبل الذي يفصل سوباش وشاخا، وأرسل المقدم ليبيدينسكي مع سريتين الى المطل الحاد المرتفع، الذي تراجع اليه الشراكسة.

تسلق ليبيدينسكي الصخرة المطلة وتمركز عليها، والنيران تطلق عليه من ثلاث جهات. بقيت مساحة كبيرة فارغة بين ليبيدينسكي والتغطية اليسرى في الجبل.

ترك رايفسكي امر الاستيلاء عليها للجنرال اولشيفسكي، الذي ارسلت اليه كتيبة البحرية الموحدة بقيادة النقيب بوتياتين. قسم الكتيبة الى قسمين: وضع سريتين تحت قيادة المرافق جلازيناب، والأخريين بقيادة النقيب ميتلين. ارسل الطابوران الى الجبل فوق القمم النائية. ازاح البحارة الشراكسة بالحراب عن الموقع المشرف في الغابة. قاتل الشراكسة بقوة اثناء انسحابهم وظلت اعدادهم تزداد بلا توقف.

جرح النقيب بوتياتين في ذراعه وساقه واضطر الى تسليم القيادة الى النقيب ميثلين.

ارسلت الكتيبة الثانية من النافاجين مع سرية مهندسين، من قوة الانزال الثانية، لتعزيز الجناح الايسر. وضعها الجنرال اولشيفسكي تحت قيادة ميثلين أيضاً. بعد ذلك، وضع جلازيناب كتيبة البحارة الموحدة تحت قيادته. حمل النافاجين والمهندسون مدفعين جبليين فوق الجبل بصعوبة بالغة. بدأ ميثلين يقص الاشجار ويغطي المنطقة كلها بعوائق عالية من الاشجار بحلول الساعة الثانية بعد الظهر.

استمر الجنرال كاشوتين والعقيد بولتينين في السهل، مع المقدمة ورأس الجناح الأيمن، في الضغط على الشراكسة، الذين تراجعوا ببطء وهدوء شديدين. كانت كل قذيفة فعالة في تلك المسافة القريبة. اسرع الشراكسة الى قتلاهم وجرحاهم ثم قاتلوا بمرارة شديدة بعد ذلك، واراقوا الكثير من الدم الروسي. اضافة الى قتلى الرتب المتدنية، قتل في هذه المعركة الملازم الثاني كولودكا والمكلف بريكر من لواء نافاجينسكي، والملازم الثاني بافلوف من لواء كوليفانسكي، وجرح ملازم البحرية لو شكو فسكي من لواء تينجينسكي، والملازم الثاني اوفسيانيكوف من الكتيبة الخامسة من خط اورينبوغ.



قادة شراكسة ( عسكريون )
في ثلاثينات القرن التاسع عشر

بعد الوصول الى الجبل، استولى عليه الجنرال كاشوتين والعقيد بولتينين مع النافاجين والتينجين وهكذا أنجز الاحتلال المقرر للمساحة.

قام الشراكسة بمجهود أخير وهاجموا فجأة احتياط لواء تينجينسكي، الذي كان يحمي المدفعية.

بعد أن سمح تشيربين، من لواء المدفعية العشرين للشراكسة بالاقتراب الى مسافة قصيرة، فتح عليهم النار بقذائف الرش. دفع الملازمان رايكوف وماجاروف الشراكسة الى الخلف، لكن كليهما اصيب بجروح بليغة. خلال مسار هذه المعركة، استمر مشاة تشيرنومورسكي، يقيمون السواتر من الاشجار المقطوعة تحت نيران الشراكسة، والتي اصبحت جاهزة بحلول الساعة السادسة مساءً.

خسر الروس في هذه المعركة ثلاثة ضباط قتلى، سته ضباط جرحى، و ١٢٨ آخرين من رتب ادنى بين قتيل وجريح.

من بين القادة الشراكسة كان بياراصلان بيرزك، شخص متميز بالمولد والشجاعة، يتمتع بنفوذ هائل بين ابناء شعبه. كان معه تولبار، النبيل الوبيخ المتحدر من سلالة محترمة. ذهبا الى الروس لشراء جثث ابناء شعبهم الذين سقطوا في المعركة.

يقسم الشركسي الذاهب الى المعركة يميناً على ان يموت مع رفاقه في السلاح أو يحمل جثة الصديق الذي يقع في ساحة الوغى ويعود به. كان الإخفاق في الوفاء بهذا القسم ينطوي على المهانة، مما يضطر الحانث الى إعانة عائلة القتيل. استرد الشراكسة ٤٨ جثماناً من ميدان المعركة لذلك النهار.

دافعوا عن شاخا بدرجة كبيرة من اليأس، لأن الأجمة الشاطئية في هذا المكان كانت تحه غابك أي غابة مقدسة، حيث يتجمعون لاداء مناسك وثنية ويعقدون اجتماعات العشيرة. لذلك، عندما رأوا الأسطول الروسي، اقسموا يميناً مغلظة على ان يموتوا حتى آخرهم ولايسمحوا للكافرين الانذال أن ينجسوا موقعهم المقدس.



**أجمة شركسية مقدسة**
**من كتاب جيمس بيل**

إضافة الى ذلك، كان وادي شاخا نقطة حرة ذات كثافة عالية للوبيخ ومهمة بالنسبة لتجارتهم الساحلية. استقرت القوات الروسية في هذا المعسكر على ساحل البحر الأسود وبدأوا في تشييد الحصن المسمى غولوفينسكي. اثناء العمل في بنائه، استمر الشراكسة في مضايقة الجنود الروس. يوم ٢٧ أيار وحده، اضطر النافاجين والتينجين الى صد ١٣ هجوماً شرساً من الشراكسة.

اكتمل عمل البناء يوم الخامس من تموز. في اليوم التالي صعدت القوات الروسية الى السفن وتوجهت نحو مصب نهر بسه زوابا. هنا تم تأسيس حصن لازاريف. كما بني حصن رايفسكي بين نوفوروسيسك وأنابا.

اكمل انشاء هذه التحصينات الثلاثة تأسيس خط البحر الأسود (تشيرنومورسكي) الساحلي، وتم تعيين الجنرال رايفسكي قائداً له.

تأسس خط البحر الأسود الساحلي وبنيت الحصون على جميع النقاط الرئيسة، وضعت فيه حاميات ضعيفة بسبب نقص القوات الروسية.

اثرت الأحوال المناخية على القوات الروسية بطريقة مدمرة، بحيث انهم لم يتمكنوا من الحفاظ على العدد اللازم للدفاع عن الخط بكامله. كذلك، ضربت المنطقة مجاعة رهيبة اصابت الشراكسة في خريف وشتاء عامي ١٨٣٩ و ١٨٤٠، بحيث فضلوا الموت واسلحتهم في

ايديهم، بدلاً من ان يكون قدرهم الموت جوعاً. اتحد الشراكسة في جسم واحد، بعد أن ادركوا نقاط ضعف الحصون الروسية المبنية حديثاً، وان الحاميات فيها ضعيفة، وبدأوا يهاجمون الروس في سبيل الاستيلاء على الطعام وذخائر الأسلحة النارية الموجودة فيها.

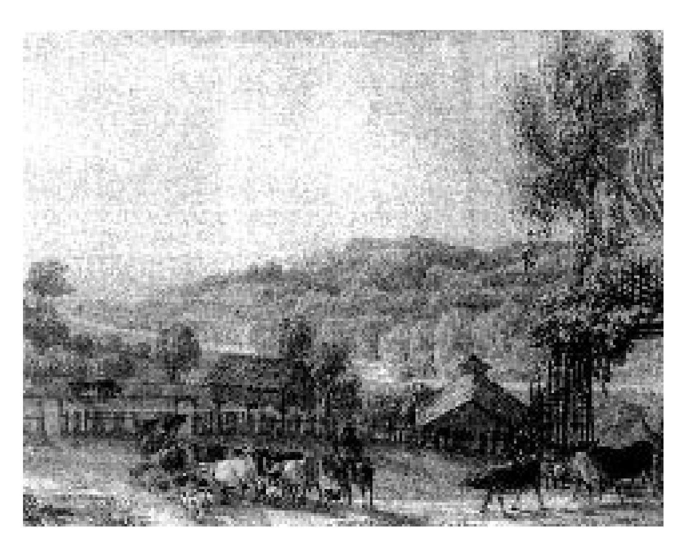


**سيدة شركسية**
**من كتاب ادموند سبنسر**

أظهر الشراكسة بطولة رائعة، بالهام وتشجيع من القائد الوبيخ الشهير حاجي بيرزك، الذي طار صيته بالشجاعة والحكمة.

يوم السابع من شباط عام ١٨٤٠، حاصرت مجموعات هائلة من الشراكسة حصن لازاريف. تكونت حاميته من مجرد سرية من لواء تينجينسكي. اندفع الشراكسة الى داخل الحصن في الصباح الباكر. انقضوا أولاً على جناح الضباط وذبحوا جميع الضباط ثم ذبحوا الجنود في المهاجع.

منح احتلال حصن لازاريف الشراكسة تشجيعاً قوياً. بعد ذلك استولوا على حصن فيليامينوفسكي. يوم ١٧ آذار، أخبر جاسوس الروس بان مجموعة الشراكسة وصلت الى أحد عشر ألف رجل وانهم قرروا مهاجمة حصن ميخائيلوفسكي.



**مزرعة وبيخ**

تكونت حامية هذا الحصن من: سرية من لواء تينجينسكي بقيادة الملازم كراوفرجولد والملازم البحري جايفسكي، السرية السادسة من لواء نافاجينسكي بقيادة الملازم تيمشينكو ومساعديه الملازمين البحريين سميرنوف وزيمبورسكي، سريتان من خط تشيرنومورسكي، الكتيبة الخامسة، بقيادة النقيب ليكو والملازم الثاني بيسونوف، مع مسؤول المدافع الملازم البحري ايرمولايف التابع لمدفعية الحامية رقم ١١، المجموع ثمانية ضباط، الطبيب ساموفيتش، القس اوجستين و ٤٨٠ من باقي الرتب. كان النقيب ليكو، الأعلى رتبة، هو قائد الحامية.

بعد تلقي الأخبار حول الاستيلاء على حصن لازاريفسكي ومعرفته بان الحامية غير قادرة على الحفاظ على كامل الخط، قسم النقيب ليكو التحصين الى قسمين واشغل القسم الذي يمثل الاحتمال الأكبر في التعرض للهجوم. ثم استدعى الضباط واخبرهم عن الخطر الذي يتهددهم.

أخيراً جاءت الليلة المصيرية. نبحت كلاب الحراسة التي اطلقت من الحصن، طوال اليل باتجاه الجبل الذي يتوقع قدوم الشراكسة منه. وقفت الحامية جاهزة. كان الليل شديد العتمة. في الفجر الباكر، ظهر الشراكسة في البعد. وصلوا في النهاية الى الحصن، وبغض النظر عن قذائف الرش التي اطلقت عليهم من المدافع وصليات نيران البنادق التي اطلقت عليهم من الحامية، اندفعوا الى داخل الحصن واشتبكوا في معركة عنيدة بالأيدي. اصيب النقيب ليكو الذي قاد الدفاع، بجرح بليغ. قتل معظم الضباط، وتراجع الجنود خطوة بعد الأخرى.

حسب رواية المرشح ميروسلافسكي، اصاب شركسي الملازم البحري ايرمولايف، مسؤول المدفعية بطلقة في صدره. رقد الملازم تيمشينكو، الجريح، في بركة من الدماء وقال له " خذ مكاني يا مرشح ميروسلافسكي. خذ مكان القائد العسكري، لأن جميع الضباط قتلوا ".

استدعى الناجين وكان يقودهم نحو بطارية المدافع البحرية، آملاً أن يعثر على بعض صناديق الذخيرة هناك. بينما كان يمر أمام جناح الضباط، سمع صوت النقيب ليكو. كان مصاباً بجرح في رأسه. كان المراسل والحلاق يحملانه من تحت ذراعيه. قال ليكو " مرشح ميروسلافسكي: خذ مكاني، لم تعد لدي القوة. دافع عن المكان بافضل ما يمكنك ".



**قوزاق في القفقاس**
**من كتاب ادموند سبنسر**

كان كل شيء سليماً في بطارية مدافع البحر، ولكن قبل ان يتمكن الجنود من إخراج الذخيرة من الصناديق سقط حوالي ٢٨ رجل ميتين في ثانية واحدة بفعل رصاص الشراكسة.

كان الحصن قد اشتعل بالنيران. افردت الرايات الشركسية الحمراء في كل مكان. صرخ ارخيب اوسيبوف " لقد حان الوقت، ايها الأخوة! كل من سيبقى حياً فليتذكر إنجازي! " ركض نحو مخزن البارود حاملاً شعلة متقدة، وتبع ذلك انفجار رهيب. اندفع عمود من الدخان مع اللهب، الاجساد البشرية والحجارة الى السماء. مات جميع افراد الحامية تقريباً، ولكن مات معهم أيضاً الف من الشراكسة. سطعت الشمس واضاءت الصورة الدامية للموت والدمار. مات جميع الضابط، ماعدا المصابين بجراح بليغة ، ليكو والملازم الثاني بيسونوف،

والقس الأب اوجوستين. أخذهم الشراكسة جميعاً أسرى، اضافة الى ثمانين رجل من الرتب الأدنى".

بعد الاستيلاء على ميخائيلوفسكي، هاجم الشراكسة حصن غولوفينسكي، لكن السرية الثانية من لواء نافاجينسكي صدتهم. بعد ذلك، توجه الشراكسة نحو الكوبان واقتربوا من أبينسك. كان يدافع عن هذا الحصن ١٢ مدفع، ثلاث سرايا من لواء النافاجينسكي وسرية من التينجينسكي، وسريتين من كتيبة تشيرنومورسكي الأولى. قاد الحصن المقدم فيسيلوفسكي، قائد سرايا تشيرنومورسكي. يوم ٢٥ أيار، عام ١٨٤٠، وفي الساعة الثانية صباحاً، زحف الشراكسة بقيادة منصور شوباكو من قبيلة الناتخواج، حتى كادوا ان يصلوا الى جدران الحصن بدون أية ضجة، وهجموا.

لكن الجنود الروس كانوا مستعدين وقابلوا الشراكسة المندفعين بصلية نيران البنادق وقذائف الرش. تسلق الشراكسة على الدفاعات بسيوف مشهرة وخناجر في افواههم، لكنهم ردوا بحراب الحامية.

زاد الإخفاق الأول من شجاعة الشراكسة اكثر فأكثر. ارتدى العديد منهم قمصاناً من زرد الفولاذ. تسلقوا الجدران مرة أخرى، محتقرين الموت، لكن جداراً من الحراب الروسية قابلهم مرة أخرى. إن الاشارة الواضحة على درجة استبسال الشراكسة في القتال تلك الليلة هي حقيقة انهم تركوا في الحفر المحيطة بالحصن ٦٨٥ قتيلاً ومجرد عشرة جرحى.



**حرب العصابات في القفقاس**
**أدموند سبنسر**

يوم الرابع من تموز، تلقى الأمير فورونتسوف، الحاكم العام، رسالة من الكونت تشيرنيشيف تخبره ان جلالته قد سمح لولي العهد بزيارة القفقاس وان برنامج الرحلة سوف يرسل لاحقاً. وصلت الانباء المتوقعة اخيراً يوم ٢٤ تموز. ضمت حاشية ولي العهد: الكونت العقيد آدلربيرغ والكونت لامبيرت، النقيب الأمير جاليتسين والطبيب اينوخين. وقد ذكر بوضوح انه يجب تجهيز ٦٠ حصان لتكون موجودة في كل محطة على الطريق. لذلك يعني انه كان يجب تجهيز اكثر من ٥٠٠٠ حصان.

تم تخزين الاعلاف في كل محطة. تم تدريب الخيول على عدة جر العربات، وسماع الطلقات والموسيقى والنيران، في حالة اضطروا الى إنارة الطريق بالشعلات خلال السفر الليلي. اصلحت الطرق على وجه السرعة في كل مكان. أعطيت الجسور، الشجيرات، المحطات والقرى منظراً محترماً. قام مسؤولون مختصون بالتفتيش على اماكن الاستراحات الليلية. اصدرت الأوامر في المدن والحصون بالترحيب بولي العهد بقرع الأجراس واطلاق نيران المدافع. كتب الامير فورونتسوف الى جميع الممثلين الكبار للحكومة بأنه، حسب الأوامر التي تلقاها من صاحب السمو الملكي، فان الوكلاء الذين سيقومون بتقديم الخبز والملح له يجب ان لا يستخدموا أية اطباق من الذهب او الفضة. أخيراً، وضع قوافل خيالة مع مدفعية الخيول، وترك موضوع توزيع مفارز من المشاة على الطريق الى قادة الدوائر العسكرية، الذين يعرفون درجة الخطورة في النقاط المختلفة من الطريق.

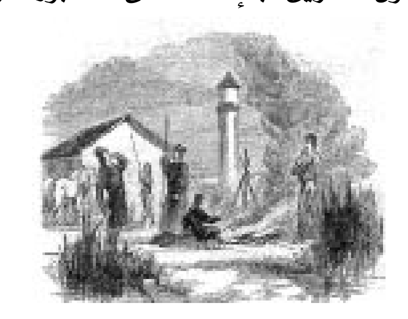


**غارة الجبليين**

**جي جي. جاجارين ١٨٣٧ – ١٨٣٨**

غادر ولي العهد في الثاني من ايلول، على متن السفينة " فلاديمير " وكان مبرمجاً له أن يرسو في نوفوروسيسك، ولكن بسبب تطور عاصفة قوية على البحر، اضطرت السفينة الى القاء مرساتها في توزلوسكي سبيت قرب تامان، في موقع مهجور وغير مأهول على الاطلاق. ربما أنه لم يكن هناك أية امكانية ظاهرة لدخول خليج نوفوروسيسك، فقد نزل ولي العهد الى البر يوم ١٤ أيلول، وهنا، على حدود أرض قوات تشيرنوموروسكي المسلحة، استقبله الجنرال زافادوفسكي، الأتامان وقائد القوات الروسية على الخط القفقاسي، الذي كان بصحبته مائة فارس من خيالة تشيرنوموروسكي. كذلك اسرعت العربات بالقدوم الى المكان.

ذهب ولي العهد، مع الأمير بارياتينسكي الى تامان، تجول في حصن فاناغورسكي المجاور، زار مستشفى الميدان، ووصل الى مستوطنة تيمريوفسكي. يذكِّر كل من تامان وتيمريوف، باسميهما المجردين، بالادوار الهامة التي لعباها في التاريخ القديم، يوم كانت الرمال الكثيفة المحيطة مخبأة تحت ثقافة دوالي العنب، بساتين الفاكهة، والحقول المروية بانابيب مياه ضخمة. والآن هي مستوطنات فقيرة، والتي، رغم كل ذلك وقع عليها شرف الترحيب بولي العهد أولاً. في اليوم التالي ، ركب ولي العهد بمحاذاة خط شريط البحر الأسود، ضفاف الكوبان، شاهد مستوطنات الحراسة وابراج المراقبة، والقوزاق واقفين فوقها في هيئة استنفار دائمة. مع ان الشراكسة ابعدوا الى الخلف من الكوبان، الا ان العديد من الاختراقات كانت تحدث، فاصبحت الرحلة الى ايكاتيرينودار والبالغة مسافتها ٢٢٨ فيرست، محفوفة بالمخاطر. لذلك، فقد وزعت اعداد من الجنود في المناطق الخطرة على طول الطريق، بالإضافة الى الطابور المرافق.



بيت حراسة قوزاقي رسم ادموند سبنسر



اجتماع امراء بلاد الشراكسة المتحدين على ضفاف نهر أوبين. رسم ادموند سبنسر

وصل ولي العهد الى ايكاتيرينودار في الثامنة مساء "، ونزل في بيت الاتامان. أضيء الشارع الرئيس بكامله مع مقدمة الحصن بالمصابيح. لم تكن ايكاتيرينودار في ذلك الوقت

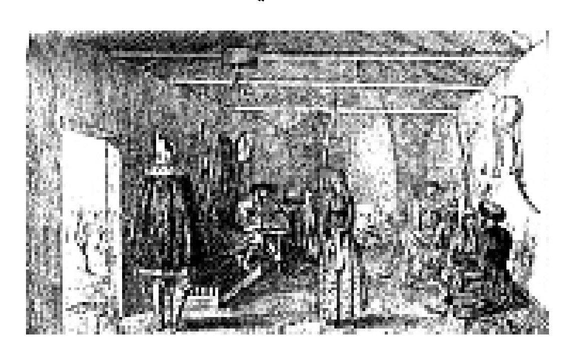
كما نعرفها اليوم: بدلاً من الأبنية الجميلة، الشوارع المبلطة والأرصفة، الإضاءة الكهربائية وكل اسباب الرفاهية التي تتمتع بها المدينة اليوم، شاهد ولي العهد قرية كبيرة، لاتتميز بشيء عن القرى الأخرى أو "الكورين" (الامكنة المدخنة) بأية طريقة. البناء الحجري الوحيد من طابقين هو المشغل العسكري، وكل البيوت الأخرى، بما فيها بيت الأتامان، من طابق واحد. لكن مايثير الاهتمام في ايكاتيرينودار هو الكاثدرائية ذات القباب الستة، الموجودة في الحصن، والتي بنيت، كما هو مذكور في قرار تأسيسها " لتوكيد الصمود والثقة لأولئك الذين يخدمون في الحرس الحدودي للشريط ". مع أن هذه الكاثدارائية بنيت من الخشب، الا أن ضخامة وتعقيد بنائها اعطى انطباعاً قوياً، وقد اطلق عليها احدهم تسمية صادقة "وقاحة الهندسة المعمارية". كان داخل الكاثدرائية يتماثل تماماً مع مظهرها الخارجي. هنا احتفظ التشيرنوموريون بكنوزهم النفسية: الرايات، الأردية الخاصة، والذكريات الأخرى لصفاتهم العسكرية الشجاعة.

استقبل ولي العهد جميع المسؤولين والممثلين الفخريين لجيش تشيرنومورسكي في قاعة بيت الأتامان يوم ١٦ أيلول. خرج اليهم بلباس الزي الخاص لفرقة الحرس، مع "بيشميت" ازرق و"تشيركيسك" أحمر باردان سوداء قابلة للطي الى الخلف – هذا الزي، الذي ضم بالنسبة للقوزاقي كل ماضيه وحاضره – "الكونتوش" العائد للهيتمان الاوكراني، واللباس العسكري للشركسي. بعد أن عبر عن امتنانه للتشيرنوموريين الشجعان ونقل اليهم امتنان الامبراطور " لخدمتهم الحدودية الطيبة " دخل ولي العهد الى الساحة الغاصة بالجماهير، وتوجه الى الكاتدرائية، تفحص مجلس الكنيسة الغني، المحفوظ منذ أيام زابوروجيا، الرايات القوزاقية القديمة، الكينودات، وسجلات الجيش. تبع ذلك استعراض عسكري، قام في نهايته بشكر القوزاق على صفات الشجاعة التي ورثوها عن اجدادهم المشهورين، ثم زار الدوائر العسكرية كلها. خلال العشاء الاحتفالي، انشد التشيرنومورديون اغانيهم الاوكرانية، التي تمتدح شجاعة السيتش والاتامان والهيتمان القدماء.

يوم ١٧ أيلول، غادر ولي العهد ايكاتيرينودار، وبعد مغادرته لحدود جيش تشيرنو مورسكي، توقف في موقع ايزريادني، الذي منه يبدأ الخط القفقاسي. هنا، رحب به الجنرال كروكوفسكي أتامان قوات القوزاق المسلحة على الخط القفقاسي.

اثناء انهماك ايكاتيرينودار بالتحضير للترحيب بالضيف المميز، وصل الحاكم العام الأمير فورونتسوف الى مستوطنة اوست – لابينسكي يوم ١٥ أيلول. كان الوصي مصحوباً: برئيس هيئة الأركان الجنرال المرافق كوتسيبو، مساعدة الفريق وولف، مدير المكتب

سافونوف، المرافقين العقيد الأمير اوربيلياني، الرائد مورينتز، الامير النقيب شاخوفسكي وثلاثة مسؤولين: سوكولوف، اليكساندروفسكي وزولوتاريف.



**داخل بيت شركسي**
**رسم جيه ايه. لونغووورث**

كان خط لابينسكي، الذي يجب على ولي العهد أن يسافر عليه من اوست - لابينسك، قريباً جداً من نهر البيلايا، حيث يعيش الابزاخ. وقد تعرض للغارات اكثر من المواقع الأخرى. كتب الامير فورونتسوف، محذراً الكونت آدلبرغ، أن ولي العهد يجب أن يصل الى اوست – لابينسك في وقت أبكر، حتى يتمكن من عبور حصن تيمرجويفسكي قبل غروب الشمس. كان المراسل المبعوث بهذا الخطاب لايزال على الطريق، حينما تلقى ولي العهد انباءً مزعجة للغاية من جهتين مختلفتين في الوقت نفسه. كتب الجنرال ايفدوكيموف ان حشداً هائلاً من الجبليين، تحت القيادة الشخصية لمحمد امين، وصل الى البيلايا لمهاجمة الخط، حيث سيكون ولي العهد ماراً. أصر ايفدوكيموف على ضرورة تغيير طريق السفر. كذلك أخبر الجنرال ريسفيل، قائد خط شريط تشيرنومورسكي ان محمد أمين قد وصل الى نهر البيلايا مع مجموعات كبيرة من الجبليين.

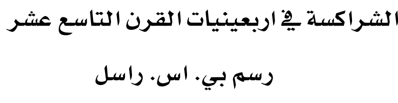
بعد ان قابله الامير فورونتسوف في اوست – لابينسك، واستمع الى تقريره، اشار ولي العهد الى موافقته على تغيير الطريق، وانطلق يوم ١٨ أيلول في طريقه بمحاذاة الكوبان. في ذلك اليوم نفسه، تحرك محمد أمين مع حشوده باتجاه ستانيتزا فوسنيسنسكي، ولكنه حينما علم بتغيير الطريق، توقف عبر نهر اللابا، عند الغابة الطويلة، بعد ان فشل في تنفيذ خطته. في هذه الاثناء، استمر ولي العهد في رحلته، بدأت من اوست لابا بلاد القفقاس القديمة، الشجاعة. هنا، في هذه الستانيتزات نفسها، تطورت وقويت قوزاقية الخط بسجل كامل من الانجازات الجريئة. هناك الكثير مما يدهش المرء في اصالته لدى هذا الجيش، بدءاً من



معسكر مؤقت في القفقاس

رسم ادموند سبنسر





الشراكسة في اربعينيات القرن التاسع عشر

رسم بي. اس. راسل

الملابس والمعدات، التي تبنوها من الشراكسة، وانتهاءً بمظهر اسلوب المعيشة. اعجب ولي العهد على الدوام بمهارة وحيل فروسية القوزاق.

مر ولي العهد في طريقه بأماكن عديدة، دخلت صفحات التاريخ، سمع العديد من اسماء ممثلي ملاحم القوزاق المهمين، وقابل في طريقه العديد من الستانيتزات التي تحولت الى مدن من القبور، والعديد من القبور التي ليس لأصحابها اسماء في هذه الأودية، والتي يحتفظ كل منها تقريباً باسطورة دامية. وهكذا عبر ستانيتزات لادوجسكي، تفليسكي، كازانسكي، كافكازسكي، تيميجبيك، نيكولايفسكي، بيلورتشينسكي، بطل باشينسك وسوفوروفسكي. هنا بدأت المناظر الرائعة لوادي بياتيجورسكي. كانت هذه المناطق مليئة بذكريات أخرى، غير التي تركتها الستانيتزات خلفها. هنا كانت عبقرية وشهرة شعر ليرمونتوف تتنفس. من سوفوروفسكي، ركب ولي العهد الى كيسلوفودسك، ماراً ب ايسينتوكي، حيث كان الحصن مايزال قائماً. كانت صالة نارزان الرائعة ما تزال في بداية بنائها وشاهد ولي العهد الربيع الفوار في حالته البدائية.

ان مذكرات إقامة ولي العهد مدونة بشكل جيد في كيسلوفودسك. اللوحة الرائعة محفوظة – كتذكار لإقامة ولي العهد في كيسلوفودسك – وهي تظهر العشاء الاحتفالي الذي اقيم يوم ٢١ ايلول في بيت ايه. إف. ريبروف، مستشار الدولة. هذه اللوحة نفيسة نظراً لحقيقة انها تمرر الينا الصور المعاصرة لولي العهد نفسه ولكل شخص رافقه في ذلك الوقت. الصورة الفوتوغرافية لهذه اللوحة موجودة في المتحف العسكري التاريخي القفقاسي ( خرام سلافي ) في تفليس.

من كيسلوفودسك، وصل ولي العهد الى بياتيجورسك للمبيت ليلة، وفي اليوم التالي، بعد أن تجول في الينابيع ، المعدنية، غادر الى نالتشك. كانت الرحلة طويلة، ٧٥ فيرست، مع مخاضتين عبر نهرين سريعين في حالة فيضان. احاط لواء فولجسكي، الذي شكل المرافق، بالعربة، ويمكن القول، انهم حملوها عبر نهر المالكا الهائج بأيديهم. على الضفة المقابلة، قابلت مجموعة المرافقين المتميزة من امراء القباردي ولي العهد. تبدأ قبارديا بعد المالكا. تركت الهضاب مع آخر مستوطنة قوزاقية خلفه، وانفتحت امام أعين المسافرين المناظر المدهشة للجبال واوديتها الداكنة الظليلة، التي تندفع منها انهار باقسان تشيجيم، اوروخ، وغيرها الهادرة. المراعي الخصبة الثرية، الخضرة وبقايا الغابات، في كل مكان حولهم، وبينهم تبعثرت القرى القباردية هنا وهناك. كانت بطولات الفرسان القباردي التي تميزوا بها في الحملة الهنغارية عام

١٨٤٩ ، ماتزال حية في ذاكرة ولي العهد، وراقب بفضول هؤلاء الفرسان الذين يتسابقون بعنف في حقول بلادهم في قلب ارض القباردي. في الحقيقة، قدَّم القبارديون منظراً لا يستطيع اي سلاح فرسان اوروبي بمفردة ان يقدمه، إذ يرتدون قمصانهم من زرد الفولاذ الخفيف، باسلحتهم الثمينة البراقة، ممتطين جيادهم السريعة.

وصل ولي العهد الى نالتشك في وقت متأخر من المساء. صباح اليوم التالي، ٢٣ ايلول، استقبل الأمراء، كبار السن، والوجهاء من قبائل القباردي، القرشاي والقبائل الأخرى. نقل اليهم امتنان القيصر على خدمتهم المخلصة والموالية لروسيا. كان بين الوفود توكوم بوجوف، من سكان آول بابوكوف، والذي كان من " الأبريك " اليائسين قبل اربع سنوات، وقد خطف عام ١٨٤٣ زوجة العقيد ماخين قائد بطارية المدفعية في بياتيجورسك، واحتفظ بها في بيته ثلاث سنوات، حتى تلقى الفدية، لكنه عاملها بمجاملة فروسية راقية الى درجة ان الامير فورونتسوف سامحه على كل افعاله الماضية وسمح له بالعودة للاستقرار في آول بابوكوفسكي. قبيل قدوم ولي العهد، ذهب توكوم بوجوف الى الجبال، سرق سجينين قوزاقيين من قرى ثائرة وقدمهما الى الحاكم العام في نالتشك. من هنا، ذهب ولي العهد على الطريق الجورجي العسكري مروراً بفلادي كافكاز، للتفتيش على إقليم عبر القفقاس.



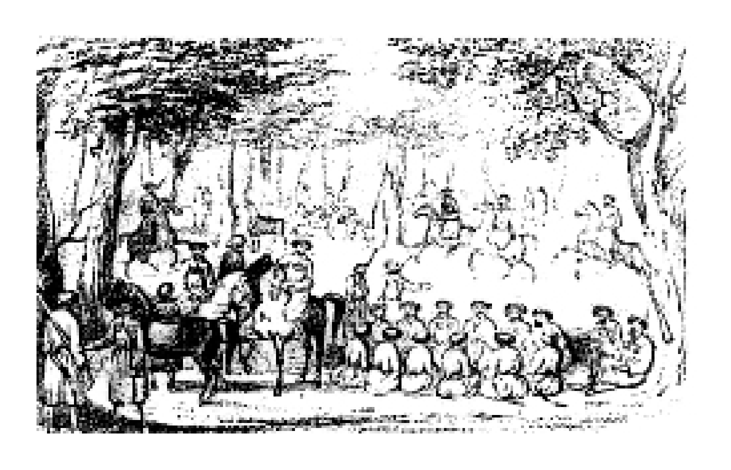
شراكسة. اربعينات القرن التاسع عشر

رسم بي. إس. راسل



محارب شركسي

رسم ادموند سبنسر



مؤتمر شركسي

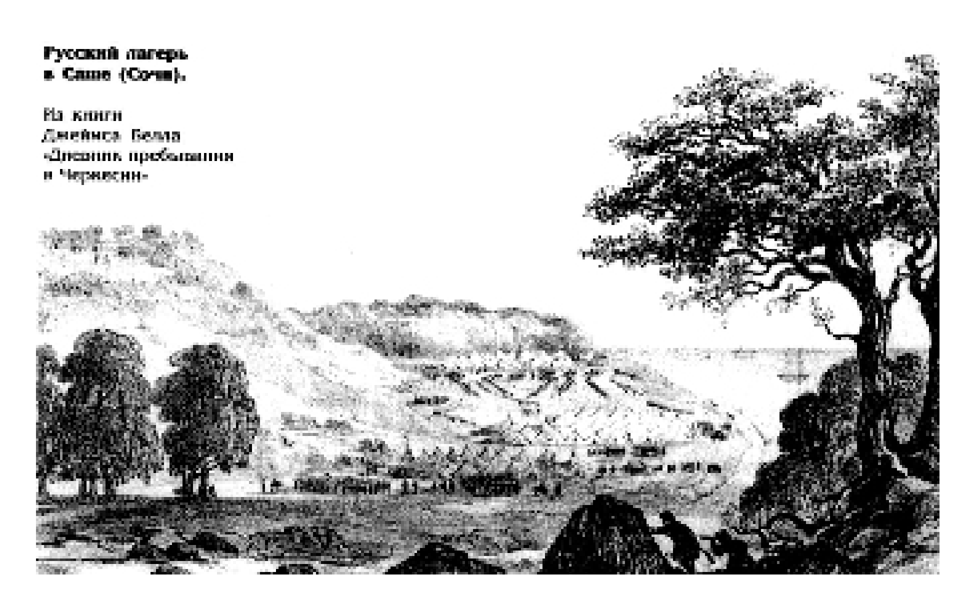
رسم جيه. ايه.لونغوورث

ظهر محمد أمين في اقليم عبر الكوبان عام ١٨٤٨. كان الشيخ شامل قد أرسله الى هنا كنائب له.

استغل محمد أمين، الواعظ الذكي الفطن، الوضع النفسي للأبزاخ. خلق الغموض الذي احاط به نفسه، خطابته الآسرة، اللهجة المتكبرة الآمرة التي يخاطب بها الكبار المحيطين به، معاملته اللطيفة غير المتكلفة للناس، ووعده لهم بمستقبل أفضل، خلق انطباعاً قوياً لدى الابخاز. سرعان ما انتخبه الناس سيداً لهم. كان نجاح خطابته ووعظه قوياً الى درجة انه كان يصدر القوانين، ينظم حكومة الشعب و انشأ جيشاً دائمياً نظامياً بحلول شباط عام ١٨٤٩. اكثر من ذلك، بدأت جميع قبائل عبر الكوبان الشركسية تعترف تدريجياً بسلطة محمد أمين حتى اصبحوا جميعاً الأسلحة الطيعة لهذا الجبلي المثير للإهتمام. استغل هذا النفوذ، وقام بغارات ناجحة جداً على الخط. لم يكتف محمد امين بخضوع قبائل عبر الكوبان، فانتقل الى الوبيخ و الشابسوغ. أخيراً، نجح في توسيع نفوذه على الشراكسة القاطنين على ساحل البحر الأسود، ولكن ليس بدون صراع مع الامراء المحليين المتنفذين. على أية حال، تأثر كل من الوبيخ، الشابسوغ والناتخواج بنفوذ امرائهم وفي النهاية قطعوا التواصل مع النائب قبل الحرب الشرقية لأعوام ١٨٥٣ – ١٨٥٦، حينما ظهر المواطن الشركسي الأصل، الأمير صفر بك زان، الذي بقي في تركيا حتى ذلك الحين، بين صفوفهم.

اثناء الحرب الشرقية، تركت القوات المسلحة الروسية كامل خط البحر الأسود الساحلي، لأن امتداده الهائل اصبح مستحيلاً على الدفاع عنه من الشراكسة والاتراك في نفس الوقت. عند نهاية الحرب، كان أول أمر للامبراطور الكسندر الثاني هو الاستيلاء على انابا، حيث كان يقيم صفر بك زان في ذلك الوقت، والذي اتخذ لقب " القائد العام لجميع شعوب الجبليين وقائد القوات التركية في أنابا ".

عاش صفر بك زان، تلميذ ريشيليفسكي السابق في الليسيه والمرشح في احد ألوية الفرسان، الذي هرب الى الجبال، عاش في القسطنطينية خلال الثلاثينات. ارسل عام ١٨٥٤ الى ابخازيا لاستمالة جميع القبائل الساحلية الى جانب تركيا. عندما غادر الروس انابا، ذهب صفر بك الى هناك وبدأ يسمي نفسه باشا أنابا. عامل الضباط الفرنسيون، الانجليز والاتراك الذين حضروا الى انابا لإشعال الجبليين في ثورة عامة، عاملوا صفر بك زان على أنه الزعيم المكلف. زاد هذا من اهميته بين الجبليين. خضع الناتخواج لنفوذه من اجل تسليطه ضد محمد أمين. ذهب الضباط الاوروبيون الى الأخير، لكنهم لم يتمكنوا من اقناعه بالقيام بعمل مشترك مع صفر بك زان.




**معسكر روسي في سوتشي**
**من كتاب جيمس بيل**

تطورت علاقات معادية بين قائدي قبائل الجبليين. كان الأمر مفهوماً: محمد امين، ظل يعظ بالاخاء بين جميع المسلمين على قاعدة المريدية، لمدة طويلة. لكن صفر بك، الارستقراطي المولد، كان يلمِّح للنبلاء والامراء باعادة الحقوق القديمة التي فقدوها بين قبائل عبر الكوبان. تحولت هذه العداوة بين محمد امين وصفر بك الى صدام مكشوف. قبل ان يستولي الروس على انابا، هرب صفربك الى نوفوروسيسك، ثم استقر لاحقاً بين الشابسوغ والناتخواج، حيث لعب، كالسابق، دور القائد في كل الانشطة ضد روسيا، والتي ساعده فيها نجله الشهير كارا باتر.

قاتل محمد امين، مثله صفر بك ونجله، الروس بعناد ويأس خلال الفترة الأخيرة من الحرب في القفقاس الغربي.

مع سقوط جونيب وأستسلام شامل، تم اكتساح القفقاس الشرقي. ركز الامير بارياتينسكي كل اهتمامه على القفقاس الغربي. بدأت القبائل المعادية التي انحشرت بين خطي اداجومسكي وبيلوريتشينسكي، اللذين أقيما في الاعوام ١٨٥٦ – ١٨٥٩، تدريجياً تظهر الخضوع أو تنتقل الى تركيا. ضرب البجدوغ أول الأمثلة بعد الضربة القوية التي سددها اليهم العقيد بابيتش. في ايار عام ١٨٥٩، ذهب ٣٩ من كبار البجدوغ، واحد من كل آول، الى مساعد الأتامان الجنرال كوساكوف واعلنوا ان الشعب سيخضع للقيصر بدون شروط.



**سيدتا ناتخواج ارستقراطيتان من غيلينجيك في**
**اربعينيات القرن التاسع عشر. من كتاب " ملابس شعوب شمال القفقاس "**
**لمؤلفه إي. آي. ستودينيتسكي**

حضر وفد مشابه من جميع عشائر البجدوغ الى اللواء فيليبسون في ايكاتيرينودار بداية حزيران. بالإضافة الى الخضوع غير المشروط، وقسم الطاعة واعطاء "الأمانات" (الرهائن). طلب منهم ان يستقر الناس في آولات كبيرة في الأمكنة المحددة لهم. في القسم الأول من تموز، اخذ يمين الطاعة في نقاط لمجمع خلف الكوبان.

تبع مثال البجدوغ كل من قبائل الشيمجوي، الماخوش، الايجيروخواي، البيسليني، والشاخ – جيراي الذين كانوا يسكنون بين اللابا والشاجواشا، والقباردي القاطنين خلف الكوبان.

أدى ظهور القوة الكبيرة للجنرال فيليبسون عند منابع نهري فارس وبسه فير، وانشاء حصن في غابات خامكيت، الى اجبار الابزاخ أيضاً على التفكير الجدي في وضعهم. بدأوا التفاوض وفي العشرين من تشرين الثاني، ادى الموفدون من جميع طبقات الابزاخ، والبالغ عددهم من ١٥٠٠ الى ٢٠٠٠ شخص، يمين الطاعة في المعسكر. كان محمد امين أول من ادى القسم. ساعد على قبول الناس له بصفته الشخصية الدينية الرئيسة، وذلك بان شرح

للشعب ان الشرع الاسلامي لا يمنع المسلمين من ان يكونوا رعايا لحاكم مسيحي. سمح الجنرال فيليبسون لمحمد امين بالبقاء بين الابزاخ كشخصية دينية، بطلب من كبار السن الابزاخ، ولكن بدون لقب النائب. رغم ذلك، تبين بعد بضعة شهور أن خضوع الابزاخ لم يكن مستقراً.

فقد استأنفت مجموعات منهم عمليات الإغارة على المستوطنات والحصون الروسية.

حاول محمد امين بجدية ان يوقف هذه الغارات، ولكن، عندما رأى ان الابزاخ لا يستمعون اليه، وانهم يحنثون بقسم الطاعة الذي أدوه، انتقل الى تركيا سراً.



**حاشَشْ( غرفة استقبال ) لدى الشراكسة**
**رسم ادموند سبنسر**

باقتراب نهاية عام ١٨٥٩، كان الشابسوغ والناتخواج من القبائل الشركسية التي لم تعترف بالحكم الروسي. قام قسم من الناتخواج، خاصة اولئك القاطنين منهم بين انابا، سوجوك وآداجوم، حوالي ٤٠٠٠٠ شخص – باداء يمين الطاعة لروسيا يوم ١٢ كانون الثاني عام ١٨٦٠، بعد الهزيمة التي تلقوها من العقيد بابيتش ووفاة زعيمهم، صفر بك زان.

حان الوقت الذي يستطيع فيه الأمير بارياتينسكي ان يصعِّد العمليات العسكرية في القفقاس الغربي. سمح له اخضاع الداغستان وبلاد الشيشان بإرسال الأولوية الروسية التي تصالبت في المعارك الى اقليم عبر الكوبان. لذلك، سرعان ما عززت ثلاثة ألوية من الفرسان نيجه جورودسكي، سيفيرسكي و بيرياسلافسكي ) القوات الروسية المسلحة المتواجدة هناك.

كان لواء تيرسكي موجوداً هناك منذ العام ١٨٥٧، وعززت كذلك بأربعة كتائب بنادق –

الجرينا ديرسكي رقم ١٩، ٢٠، و٢١، واثنتي عشرة كتيبة موحدة من سرايا فرق كافكازسكي جريناديرسكي. ظهرت هذه الوحدات في بلاد الشراكسة بداية العام ١٨٦٠.



**هجوم رجال العصابات الشراكسة**
**رسم ادموند سبنسر**

سحبت الوحدات العسكرية الروسية التي احضرت الى بلاد الشراكسة على الفور الى عمليات عسكرية والى العمل على تأسيس ستانتيزات روسية وفي قطع الغابات. لنذكر بعض الحكايات للوائي الفرسان سيفيرسكي ونيجه جورودسكي، و كذلك لواء قوزاق الكوبان التابع لفرقة نوفوترويتسكي، الذي كان يقوده الملازم الكونت فورونتسوف – داشكوف.

توفي الامير العقيد باغراتيون، قائد لواء فرسان سيفيرسكي عام ١٨٦٠ في الظروف التالية: يوم ٧ تشرين الثاني.

توجه الأمير من حصن آداجوم الى ستانيتسا كريمسكي جالساً في عربة، مصحوباً بسبعة فرسان، للتفتيش على وحدات اللواء. غادر الملازم ليونتوفيتش، أمين تموين اللواء، مع الأمير، لكنه سلك اقصر الطرق. كان الامير يركب بسرعة، بدون ان يدرك ان العربة تأخرت خلفه، لعدم تمكنها من مجاراته. كانوا قد قطعوا نصف المسافة، عندما سمعوا صلية بنادق آتية من الغابة، واندفعت مجموعة من الشراكسة، تعدادها حوالي المائة شخص على الطريق وحاصرت العربة. انهال الشراكسة على الأمير ومرافقيه الاثنين بضراوة. بدأ الصراع. قتل سائق العربة والخادم. أصيب الأمير نفسه بجراح بالغة. بدأ الشراكسة يفكون الخيول ويسرقون الطاقم. عندما سمع فرسان القافلة الطلقات، تركوا "الترويكا" المرهقة

وركضوا لينقذوا ليونتوفيتش، لكن، عندما شاهدوا مايجري، ركضوا الى الحصن واخبروا قائد الحامية، الرائد مانياتي بما حدث. انتشرت الانباء بسرعة في ارجاء الحامية، واندفع الملازم الكونت جراب الى الانقاذ مع بعض رجال سيفيرسكي. عند سماع الإنذار، تحركت سريتان خروجاً من ستانيتزا كريمسكي أيضاً، لكن كان الوقت قد فات، فقد أخذ الشراكسة القائد الجريح أسيراً.

انطلق الكونت جراب مع الفرسان في حملة مطاردة. على الطريق، عثروا على حوائج تخص القائد، رماها حتى يترك أثراً خلفه. لاحقاً قال الكشافة أن الشراكسة قد أخذوا الأمير أسيراً فعلاً، للحصول على فدية كبيرة مقابله. عندما سمع الشراكسة الإنذار، اندفعوا بسرعة جعلت الأمير الجريح يتعرض لآلام لا تحتمل، فتوسل معذبيه ليركبوا بسرعة أقل. طبعاً، لم يعر الشراكسة رجاءه أي اهتمام. وجد رجال سيفيرسكي جثة القائد، اخذوها الى ستانيتزا كريمسكي، ودفنوها تحت التراب.



**داخل مسكن زعيم شركسي**
**رسم ادموند سبنسر**

في ليلة ساكنة لآب عام ١٨٦٠، غادر فيلق نوفوترويتسكي بقيادة الكونت فورونتسوف – داشكوف، الذي كان وقتها ملازماً صغيراً، حصن جريجورييفسكي. تحرك خلف هذا الفيلق فيلقان من فرسان نيجه جورودسكي، تحت قيادة الامير إيفان جيفينتش اميلا خفاري، الذي كان نقيباً في ذلك الوقت.

كانت هذه المقدمة الطيارة، ارسلت خروجاً للإغارة على احدى اكبر القرى الشابسوغ. تأخرت ثلاث كتائب مع المدفعية لمسافة بعيدة خلف المقدمة، على شكل احتياط. كانوا – صيادي لواء كباردينسكي، مشهورين في سجلات الحرب القفقاسية – يتبعون الخيالة بدون التأخر خلفهم.

كان هؤلاء الرجال يسيرون بسرعة مدهشة. لم يسمهم الامبراطور الكسندر الثاني "الفرسان القباردي" مازحاً، بلا سبب. كذلك كان جورشيلدت، الفنان، مع القوزاق.

يقول جورشيلدت في مذكراته " صدرت لنا أوامر بالمحافظة على اكبر قدر من الصمت، فتحرك رجال الخط، المعتادون على مسيرات الليل، بدون اي صوت، مثل اشباح الليل. كان الطقس يتنفس بالبرودة المحببة. النجوم تلتمع في السماء الخالية من الغيوم، لكن كانت الظلمة شديدة الى درجة لا يتمكن المرء فيها من تمييز الشكل الخارجي لقوتنا، التي تتحرك بين الشجيرات الكثيفة. كان غراب عجوز ينعق بين الفينة والأخرى، وقد ارعب من عشه الليلي، أو يطير حجل من فوق رؤوسنا بصمت. مثل ذلك المسير الليلي كان دوماً شيئاً غامضاً، وهو في اعلى درجاته، مليء بالشعر. صمت الليل، الخطوات الكتومة، الأوامر التي تعطى باصوات خفيضة، توقظ الروعة، ويرسم الخيال صوراً، تتجاوز الحقيقة نفسها بمسافات. فجأة، يومض ضوء صغير من الجهة اليمنى، وتقطع الرصاصات الصافرة خلال الهواء. كانت تلك مفرزة طوارئ العدو، وقد لاحظت حركتنا. بعد هذه الطلقة. تنير مشاعل الإشارة فجأة جميع التلال المجاورة. انكشفنا، لذلك لم يعد الصمت ضرورياً. "الحمد والشكر لله، يستطيع الشخص الآن أن يتمخط من أنفه باقصى ما يستطيع" قالها القوزاق الملتحي، الذي وقف الى جانبي.



سرج وسوط شركسيين



خناجر شركسية

كان الفجر ينبلج لحظتها. بعد ان نزلنا الى وادي نهر افيبس، ظهرت آول سوخونياك، مكونة من الف بيت، وتبدأ خلفها مباشرة غابة كثيفة. كانت نباتات الذرة البيضاء تنمو متطاولة في كل مكان، وبساتين الفاكهة مسورة بأسيجة من العليق – العقبة الدائمة في وجه عمل الفرسان. سمع الأمر " القوزاق والفرسان، الى الأمام خبباً! "

يقول جورشيلدت " اندفعت مجموعتنا، منحنين الى الأمام، حاملين البنادق عالياً فوق رؤوسنا. اختلطنا مع الفرسان وطرنا باقصى سرعة لنا مع رغبة واحدة، وهي الابتعاد امام

الشخص المجاور. حاول الضباط عبثاً ان يخففوا من سرعة هذا السباق غير المنطقي، خوفاً من لا تتحمله خيولنا.

في ذلك الوقت، ظهر الشابسوغ على التلة التي عليها الآول، وبدأت الرصاصات تصفر اكثر واكثر وهي تمر قرب آذاننا. استطعنا ان نرى الاضطراب الذي حل بالسكان في القرية (الآول) وانهم سرعان ما سيحتمون بالغابة المجاورة. أثارنا هذا المنظر اكثر حتى الضباط كانوا يصرخون الآن "إذهب واذهب". اندفعنا الى داخل الآول، ولخيبتنا العامة، وصلنا على الفور الى الأسيجة. ترجل القوزاق، ازاحوها جانباً وطاروا في الشوارع أبعد وأبعد. في ذلك الوقت، اندفع الصيادون القباردي داخلين من الجهة الأخرى، واضرمت النار في الآول من جهاته الأربع.

رغم ذلك، فقد تمكن جميع السكان من الاختباء في الغابة، حيث اصبحوا في أمان، تحت حماية أشجار الدلب والبندق الموغلة في القدم، والتي وقفت ثابتة تشكل جداراً غير قابل للاختراق.

رغم ذلك، عثر القوزاق الذين كانوا يتجولون في الشوارع والطرقات، على عربات عديدة بدون خيول، محملة الى قمتها بمحاصيل غير " مدروسة ". صدحت الأبواق. جرى القوزاق بسرعة نحو قادتهم من جميع النواحي. تبين ان الشابسوغ قد اخفوا قطيعاً كبيراً خلف الجبل. اطلقت مجموعة الحماية الصغيرة التي تحمي القطيع صلية واحدة وتفرقت. احاط القوزاق بالقطيع على الفور، والذي اجفل الى ناحية نتيجة الخوف. خلال هذا الوقت ظهرت مجموعة لا بأس بها من فرسان الشابسوغ، تعدو باقصى سرعتها. من اجل حماية الغنيمة المستولى عليها، اسرع الأمير اميلاخفاري نحو الفيلق الثالث من النيجه جورود وأمرهم بالثبات، حتى يبتعد بقية الفرسان والقوزاق المشاة الى مسافة معقولة. فقد بدأت معركة حامية الوطيس.

عندما دفع القوزاق بالقطيع الى مسافة بعيدة، ارسل الامير اميلاخفاري الملازم ماخاتادزه حاملاً الأمر الى الفيلق الثالث بالتراجع. عدا ماخاتادزه بجواده عبر المنخفض المغطى بالشجيرات......في الاثناء، كان الفيلق الثالث يتراجع، مطارداً من الشابسوغ. أصبح القتال اشد ضراوة. وصل فورونتسوف – داشكوف ليساعد. كان الشابسوغ بدورهم يتلقون التعزيزات. بدأ الفرسان والقوزاق الراجلون يتراجعون ببطء، يترجلون الواحد تلو الآخر، لكن الشراكسة كانوا بدرجة من العناد اضطرت الروس في النهاية الى طلب كتيبة كاملة، حلت محل الخيالة المرهقين. اتجه الفرسان والمشاة عائدين الى المعسكر.



**نساء ناتخواج ارستقراطيات من غيلينجيك**
**في اربعينات القرن التاسع عشر**
**من ملابس شعوب شمال القفقاس " ل. إي. آي ستودينتسكي**

نفذ نفس قوزاق الخط وفرقة نيجه جورودسكي غارة مماثلة يوم ٢ أيلول، بينما كانوا سائرين من حصن جريجوريفسكي الى ايكاتيرينودار. لاحق الشراكسة، الذين الفوا رؤية الجنود الروس يمرون منذ مدة طويلة، الطابور لعدة فيرستات وتركوه بحاله، بعد أن اخفقوا في رؤية الامير أميلاخفاري يخوض نهر شايش سراً ويقفز مسرعاً نحو الغابة الكثيفة، حتى يستولي على القطعان التي ترعى في فسحة الغابة القريبة من قريتين كبيرتين. انقض الفرسان والمشاة القوزاق باقصى سرعة لهم. بينما اشغل الفرسان انفسهم حول القطعان، اندفع المشاة الى داخل القرية وسقط كل من لم يتوفر له الوقت ليهرب، تحت ضرباتهم أو أخذ أسيراً.

قتل الأطفال والنساء وسط هذه الفوضى. ارسل الامير اميلاخفاري الملازم ماخاتادزه ليوقف سفك الدماء. بينما كان ماخاتادزه يعدو وبخط مستقيم، التقى ب ١٨ فتاة شركسية في الغابة، اصابهن الرعب لمرأى الخيالة الروس. قام ماخاتادزه، الذي يتحدث اللغة الشركسية، بتهدئة روعهن، وأمر نافخ البوق ان يرافقهن الى الفصيل. قابلهن القوزاق المشاة العائدين بغنيمة طائلة من القرية في الطريق. كان الخيالة يحمون الانسحاب. كانت الغارة ناجحة

كلياً، وغادر الفصيل الغابة الخطيرة، قبل ان يتسنى للشراكسة الوقت للتجمع بعد الانذار. سجل جورشيلدت في لوحته الممتازة، العودة من هذه الغارة. تقدم اللوحة الصباح الباكر، شكل ضابط قوزاقي، معطف ملقى على كتفيه، واضح في البعد. هذا هو الكونت فورونتسوف – داشكوف، قائد الفيلق. الى جانبه العقيد شيريميتيف. لقد اتموا عبور نهر الشابس، ويراقب القوزاق من الضفة العالية عبور القوزاق، الذين يسوقون القطيع المستولى عليه، يحملون القتلى، وياخذون الأسرى من الرجال والنساء.



**سيدة شركسية. منتصف القرن التاسع عشر**
**رسم فنان اوروبي غير معروف**

كان لمثل هذه الغارات دور حاسم في مسار العمليات العسكرية في بلاد الشراكسة. بدونها، ما كان الروس سيتمكنوا من الاستيطان في الأودية الخصيبة التي شكلت اهراء الشراكسة. لم يكن لديهم خيار سوى ترك هذه المواقع والاختباء في الجبال، حيث لم يتمكنوا من البقاء والمعيشة لمدة طويلة. عجل هذا النمط في الاكتساح الروسي لبلاد الشراكسة.

اعيد تقسيم شمال القفقاس عام ١٨٦٠: اعيد تسمية الجهة اليسرى من خط كافكازسكي الى اقليم تيرسكي، والجهة اليمنى، مع تشيرنوموريا، اصبحت جزءاً من اقليم كوبانسكي. من الألوية الستة التابعة لخط كافكازسكي لقوات القوزاق، وقوات تشيرنومورسكي، تم تنظيم جيش قوزاق كوبانسكي واحد. كذلك احدثت تغييرات في قيادة الأركان: عين الجنرال المعاون ميليوتين، رئيس هيئة القيادة العامة لجيش كافكازسكي، مساعداً لوزير الحربية. خلفه الفريق فيليبسون. عين الاتامان الجنرال المعاون ايفدوكيموف قائداً للقوات الروسية المسلحة في اقليم الكوبان.



الشراكسة في الهضاب

بعد القيام بجولة في الاقليم الواسع، قدم الكونت ايفدوكيموف اقتراحه في تشرين الثاني حول العمليات العسكرية للاكتساح النهائي للقفقاس الغربي، والذي كانت الوسائل الرئيسة له سيتم خدمتها بتوطين ستانيتزات القوزاق في المسافة الكاملة بين نهري شاجواشا ولابا، والساحل الشرقي للبحر الأسود، وان يعرض على الجبليين الهجرة الى الأودية أو الرحيل بعيداً، الى تركيا. تمت الموافقة على نوايا الكونت ايفدوكيموف، وقامت أداجومسكي، شابسوغسكي، وابزاخسكي المشكلة حديثاً بالمساعدة في تأسيس الحكم الروسي الحازم وتنظيم الستانيتزات الجديدة. غادر الباشلبي، الكازيلبك، التاموف، وقسم من الشاخجيراي امكنتهم في الاوقات المحددة وانتقلوا الى تركيا. وحدهم البيسليني رفضوا الانصياع للأوامر. يوم ٢٠ حزيران عام ١٨٦٠، حوصروا بشكل مفاجئ ونقلوا بالقوة، وعددهم حوالي أربعة آلاف عائلة الى نهر اوروب تحت حراسة الجنود الروس، ومن هناك، بعد أن تلقوا الإذن، بالرحيل الى تركيا.

قرر الشراكسة، في آخر مرحلة من صراعهم، الدفاع عن استقلالهم ليس فقط بالسلاح، بل أيضاً باعادة التنظيمات الداخلية. ساعد على هذا الأمر وجود الاجانب، الذين اقنعوهم بالاستمرار في القتال ضد روسيا واقنعوهم بان انجلترا، فرنسا، وتركيا سوف تضعهم تحت حمايتها وتعلن الحرب ضد روسيا. تشجع الشراكسة الى درجة كبيرة بهذه النداءات، وارسلت قبائلهم الرئيسة: الابزاخ، الشابسوغ، والوبيخ، كبارها المنتخبين الى سوتشي، حيث توصلوا يوم ١٣ حزيران الى تفاهم للعمل بموجب قوات موحدة.



**القائد الحاج بيرزك وسط وبيخ الاراضي العالية. سوتشي**
**عام ١٨٣٩. رسم جي جي جاجارين**
**من ارشيف أي جي فيدورينكو**

قرر الشراكسة بالاجماع خلال هذا الاجتماع تأسيس اتحاد غير عادي، والمحافظة على الأمن الداخلي في البلاد. تأسست هيئة من خمسة عشر من العلماء واصحاب الخبرة لإدارة الاتحاد. سميت هذه الهيئة " المجلس " أو " المؤتمر الحر العظيم " تم تقسيم الاقليم كله الى اثني عشر أوكروغ ( منطقة، مقاطعة ) ، وتم تعيين المسؤولين لكل واحد منها. لم يقتنع الوبيخ باعادة التنظيمات هذه، فطلبوا المساعدة من تركيا وانجلترا. اتجهوا الى ديكسون، القنصل الانجليزي في سوخومي، طالبين منه ان يخبر الحكومة الانجليزية عن العدوان الروسي على استقلالهم: اشتكوا اليه بان الجنرال ايفدوكيموف قد احاط ببلادهم من جميع الجهات لإخضاع الشراكسة.

على أية حال، لم تثمر جهود الشراكسة كلها، في تغيير المخطط النمطي المقصود به اكتساح روسيا للقفقاس. في البداية، قرر الجنرال كوليوبين ان يوجه ضربة معنوية من جهة ابخازيا. بعد أن نزلت الى اليابسة في سوتشي، أحرقت القوات الروسية مباني " المؤتمر الحر العظيم " ودمرتها كلياً. هرع الشراكسة من كافة الجهات، يحاولون انقاذ ابنيتهم المقدسة، بلا طائل.



**الكونت جي جي جاجارين**

ولكن، نزلت الضربة الأهم بالشراكسة في اقليم عبر الكوبان. يوم ٢٠ تموز، تجمع فصيل فيرخني – أبازخسكي بعد ان اتم العمل في بناء الستانيتزات الجديدة المقصود بها احتلال أعالي ضفاف نهر فارس وتثبيت السيطرة على ذلك الإقليم.

أثار ظهور الستانيتزات الروسية على نهر فارس فوراناً عاماً بين القبائل الشركسية. جاء كبار الابزاخ الى الكونت ايفدوكيموف في معسكر خاميتسكي، وطلبوا منه عدم الزحف على ارضهم وعدم بناء الطرق أو قطع الغابات لأنهم كانوا قد اقسموا على طاعة القيصر ويرغبون في العيش بسلام. اخفق الكونت ايفدوكيموف في الإنصات الى كلماتهم، وتحرك باتجاه فارس واتخذ موقعه في قرية تيمريوك – اوجوي المعزولة. اعلن من هنا للزعماء الابزاخ الذين حضروا اليه مرة أخرى انهم هم الذين بادروا بخرق الخضوع بابرامهم الاتحاد مع الشابسوغ والوبيخ، بالقيام بالسرقات، بايواء المجرمين الفارين، وانهم اذا كانوا راغبين فعلاً في التعهد بالولاء للقيصر الروسي، يجب عليهم ان يقبلوا بالادارة والزعامة التي سيتم تعيينها. طلب الابزاخ الإذن في إرسال وفد من جميع الاتحاد الى بطرسبرج، للتأكد من تقديم مطالبهم الى القيصر. عند رفض طلبهم هذا، طلبوا إرسال الممثلين الى الحاكم العام في تفليس للغاية نفسها. تنازل الكونت ايفدوكيموف بقبوله لهذا الطلب، وهو مدرك ان هذه المرحلة سوف تؤجل الانشطة المعادية للابزاخ.



**توغوجوقه كيزبتش ( شيريتلوقه )**
**رسم بي. جي. اماسبيان**

كان دوغجوقه كيزبتش البطل الشركسي للحرب الروسية – الشركسية. قاتل ضد الروس قتالاً يائساً من عام ١٨١٠ وحتى ١٨٤٠. كان القائد العسكري الأنجح، الموثوق، والأحب الى الناس، ليس فقط بين رجال قبيلته الناتخواج، بل أيضاً بين الابزاخ، الشابسوغ، والشراكسة الآخرين.

في ذلك الوقت، لم يعد الامير بارياتينسكي موجوداً في تفليس. وهكذا قدم الموفدون: حسن بيدخوف، من الابزاخ، الحاج كيريندوق بيرزك من الوبيخ، وإسلام تحاوشيف من الشابسوغ، الذين رافقهم لواء الامير مامات لوف، انفسهم الى الجنرال المعاون الأمير اوربيلياني، قائد الجيش. كرر اوربيلياني على الموفدين كل مطالب ايفدوكيموف وأعلن أن الامبراطور نفسه سوف يحضر الى اقليم الكوبان، واذا رغب، فسوف يتنازل لسماع طلبهم. في الوقت نفسه، خاطب الأمير اوربيلياني شعب الوبيخ، الشابسوغ والابزاخ كتابةً قائلاً: لا يريد الامبراطور الحاكم أن يسفك دماءكم، لا يرغب في الإساءة الى دينكم، ولا الى حقوقكم في الملكية. انه

يريد السلام والرخاء لجميع شعوبه الموالية. انكم تنقضون ذلك السلام. لقد أمر القيصر ان يعطى كل واحد منكم يظهر الخضوع، الأرض للاستيطان، والسماح بممارسة الإسلام بدون قيود، وببناء المساجد في قراكم، وبعدم تجنيد أي منكم كعسكري، او تسجيله كقوزاق، السماح لكل قرية وأوكروغ ( مقاطعة ) ان تختار من بين صفوفها القضاة والوجهاء لجميع قضاياكم. على أية حال، سوف يتم تعيين رؤساء للتأكيد أن قرارات القضاة ستنفذ وأنه لن يسيء احد منكم الى الآخر ".

بينما كانت هذه المفاوضات دائرة، تمكنت القوات الروسية من فتح الطرق وقطع الغابات عبر كامل المساحة التي تقطنها قبائل الابزاخ بمحاذاة انهار بسه فير، فارس وجوبسا، وعلى الضفة اليمنى لنهر شاجواشا ( بيلايا ).

في خريف العام ١٨٦١، اراد الامبراطور الكسندر الثاني ان يقتنع شخصياً بالنجاحات التي أحرزت في القفقاس الغربي، فزار اقليم الكوبان.

نزل القيصر الى اليابسة يوم ١١ ايلول، عام ١٨٦١ في تامان، على حدود القفقاس التي يحكمها الحاكم العام. كان ضمن حاشيته: الجنرال المعاون الأمير دولجوروكي، الكونت آدلربيرغ، الكونت لامبيرت، جلازيناب، والطبيب اينوخين. كان الجنرال المعاون الأمير أوربيلياني، قائد جيش كافكازسكي، مع أعلى رتب القادة، ينتظرون في الميناء. كذلك حضر اكثر من خمسمائة من الشراكسة المسالمين والمعارضين على حد سواء، الى تامان، للطلب من القيصر أن لا يطردهم من القفقاس. لاحظ الامبراطور المجموعة الشركسية على الفور، وبعد ان سأل اوربيلياني عمن يكونون، اتجه نحوهم مسرعاً. لحظة وصول القيصر الى قربهم، نزع جميع الشراكسة اسلحتهم بحركة رجل واحد، وضعوها على الأرض، واحنوا رؤوسهم باحترام.

بعد ذلك، قام اكبرهم سناً بالتقدم الى الأمام قليلاً، وارتجل خطاب الترحيب التالي:

" أيها القيصر العظيم! نحن محظوظون لانك منحتنا انتباهك الكريم: نحن محظوظون اكثر لأنه، بغض النظر عن الحرب الأخيرة ضد قواتك المسلحة، فأنت منحتنا ثقتك بكل شهامة. نحن نقدر ذلك ايما تقدير، يا قيصرنا العظيم، ونقسم من الآن فصاعداً ان نكون رعاياك المخلصين حقاً. نحن نعلم انك قيصر بلاد عظيمة، وانه ليس في العالم من هو اقوى منك: وكذلك نعلم ان لديك العديد جداً من الرعايا، اننا بينهم مثل قطرة ماء اثناء زخة مطر كبيرة. رغم ذلك، نحن نطلب منك ان لا تتخلى عنا، ولكن ان تنظر الينا مثل بقية رعاياك. صحيح، نحن حتى الآن نقاتل ضد قواتك المسلحة، ولكننا نقسم اننا سنكون في

المستقبل أفضل عبيدك واكثرهم اخلاصاً لك. مرنا، ايها القيصر، ونحن جاهزون جميعاً لتنفيذ اوامرك بإخلاص وتقوى[1].

---

(١) هناك ثلاثة مصادر تاريخية أخرى تؤكد بأن الخطاب الذي ألقاه السيد (حاج موقه حاج) المصادر هي:

١- غازي شمسو في كتابه (حنين التراب) نقلاً عن كتاب سفر بي الصادر في نالتشك عام ١٩٧٩ وكتاب سيجموند. ن (احتلال غرب القفقاس).

٢- فحوص ارسلان "تاريخ حرب القفقاس ونتائجها» مترجم إلى العربية- دمشق عام ١٩٩٥، ص ٤١-٤٢.

٣- فوان فيل "السنة الأخيرة لحروب الشراكسة من أجل الاستقلال" مترجم إلى العربية نقلاً عما كتبه الجنرالات الذين حضروا لقاء القيصر ومنهم الجنرال (والتفيسكي) ص: ٦-٧. ونحن ننقل نص الخطاب لأهميته:

"إنني ولشدة حبي لوطني، حريص على أن يرثه أولادنا، لقد حارب الذين سبقونا وضحوا من أجل هذا الوطن، وما زلنا إلى الآن نقدم التضحيات، ولكن يبدو واضحاً اليوم أننا لن نتمكن من حماية وطننا بقوة السلاح، وقد أصبحنا في موقف لا بد فيه من أن نخضع لحماية دولة أخرى.. نحن أقرب إلى تركيا من ناحية الدين، لكنها لم تساعدنا بتقديم السلاح لنا، والروس كثيرو العدد ونحن قلة، قوانا غير متكافئة ولن نستطيع بعد الآن أن نحافظ على حريتنا.

إن قلبي يراودني بأن ما قاله القيصر هو قدرنا ويجب أن نقبل به وأن الله لن يعتبرنا خونة مذنبين".

ثم قام السيد (لشه تسي) المشهور باسم (حاتربي تسي)

(المترجم)

وهو رجل أشقر نحيل ذو لحية بيضاء ووجه صارم، وكان معروفاً بجرأته ويجاهر برأيه ولا يخشى لومة لائم.

وجه نظره إلى الحاضرين، ثم توجه إلى القيصر قائلاً: (لقد قال القيصر ما يجب عليه أن يقوله، وأنا لا اعتبره مخطئاً، لكن ما سأقوله لن يوافق رغباته، ولن ينطبق على ما قاله.

إن الأمم تنشأ كما الأفراد، حياتها كالفرد (يولد وينمو، يشيخ ثم يموت) إن أطول عمر للفرد هو مائة عام، أما الأمة فتحيا آلاف السنين، إن قيصر روسيا معجب بالقفقاس وينوي احتلاله، أنه يحاربنا حرباً متصلة منذ ستين عاماً. لكن نحن أيضاً نحب وطننا مثل حبنا لأمنا ونقدسه. سنحميه ولن نبالي بأرواحنا، وهذا واجبنا، ومسؤوليتنا: أن نحمي الوطن إرضاء لربنا وأجدادنا.

لن نبخل بدمائنا وأرواحنا، عندها لن يستطيع أحد أن يتهمنا بأننا تقاعسنا عن حماية الوطن، سوف نهلك، لكن الهلاك أفضل من العبودية.

يعدنا الروس بأنهم سيحفظون حريتنا القومية والدينية إذا ألقينا السلاح، لكن ذلك لا يمكن أن يتحقق: ألقوا بقبضة ملح في برميل ماء، فماذا سيحصل للملح!! سيذوب طبعاً وهذا ما سيحدث للشعب الصغير إذا احتل بلاده شعب كبير، اعلموا أننا حين نفقد حريتنا سنفقد خصوصيتنا القومية. ولكي نحمي أنفسنا من هذا المصير وحتى نظل أمة حرة، فإن علينا أن ندافع عن أنفسنا ونناضل بشجاعة لحماية حريتنا وقوميتنا، إن الله لا ينصر الأقوياء إذا كانوا على باطل إنما ينصر المناضلين في سبيل المساواة والعدالة. علينا أن نحارب حتى النهاية، لأجل الوطن، ولأجل بقاء أمتنا والحفاظ على ماء وجهنا. فإذا قضينا دفاعاً عن قيمنا وحريتنا فإننا لن نخجل من مصيرنا. ربما يتمكن الروس من احتلال القفقاس، لكن الشراكسة لن يخضعوا، لن يصبحوا عبيداً لروسيا طالما يجري الدم في عروقهم، لقد جاء القيصر الذي يسفك دماءنا منذ ستين عاماً ليفاوضنا الآن وكأن مصيرنا يقلقه، وكأنه يريد مصلحتنا. هذا أمر عجيب، فلا تصدقوه، لا! فإما أن يكون القفقاس مهداً لنا، أو يصبح لحداً لنا، لن نتنازل عن وطننا ما دمنا أحياء، خير لنا أن نموت أحراراً من أن نحيا عبيداً. لن نفرط أبداً بالمجد الذي حققه أجدادنا برجولتهم، فإما أن نحيا رجالاً أو نموت رجالاً.

ليست العادة أن تقال الحقيقة للملوك مباشرة، لكنني لا أستطيع أن أنكر حقيقة أن القيصر ليس صديقاً، بل هو عدو لا يمكن مهادنته أبداً، عنده دين من دمائنا، إنه ينادي بأن نكون تحت حكمه، إنه ينادي بذلك عبثاً، سيقتل الشجعان، سيموتون رافضين للعبودية، وإذا قبل بعض الضعفاء من أمثال حاج موقة حاج بما يقوله القيصر، فإن رجولة الشركس لن تقبل ذلك.

أيها الشجعان: الموت للمعتدين الغاصبين، والمجد للأبطال، ولتستمر جذوة الغزوات.

سوف نبني الطرق، الحصون، المهاجع لقواتك المسلحة ونقسم على اننا سنعيش معهم في سلام ووئام. فقط لا تطردنا من هذه الأماكن، حيث ولد آباؤنا واجدادنا وعاشوا. من الآن فصاعداً، سوف ندافع عن هذه الأماكن من الاعداء حتى آخر قطرة من دمائنا، على قدم المساواة مع قواتك المسلحة، فقط لا تطردنا وانظر الينا كما تنظر الى بقية رعاياك الاوفياء....".

سيطر صمت عميق على الحشد خلال هذه الخطبة وبينما كانت تتم ترجمتها. لم يتحرك أحد. أصغى القيصر بانتباه الى الشركسي المسن ووعد بعمل كل ما هو ممكن. بمجرد ان انتهت ترجمة هذه الكلمات، سمعت صرخات مرحة بين الشراكسة، وتحرك الحشد بكامله مرافقاً القيصر بامنيات السعادة والازدهار باصوات مرتفعة.

كان الانطباع الذي احدثه الشراكسة لدى القيصر في غاية الايجابية، وسأل اوربيلياني عنهم لاحقاً المرة تلو الأخرى.

أمضى القيصر ليلة في حصن تيمريوك المعاد افتتاحه حديثاً. يوم ١٢ أيلول، وصل الى ايكاتيرينودار، حيث كان في استقباله الجنرالات ميليكوف، مرسكي، وايفانوف. بعد أن أصغى الى القداس العام في الكاثدرائية القديمة، حيث نقل اوائل التشيرنوموريون كل الأثاث الداخلي للكاتدرائية الرئيسة للزابوروجي، تقبل الخبز والملح من القوات الروسية المسلحة. لم يتوقف التشيرنوموريون عن تحية ضيفهم المهم طيلة ذلك المساء.

يومي ١٣ و ١٤ أيلول، قام القيصر بالتفتيش على القوات الروسية المسلحة لفصيلي شابسوغسكي ونيجه – ابزاخسكي. ثم عبر حصن جريجورييفسكي واوست – لابينسكي في مايكوب. يوم ١٥ ايلول، وفي طريق عودته من زيارة استطلاع خلف نهر شاجواشا ( بيلايا )، استمر من خلال ستانيتزا نيجه - فارسكي الى حصن خاميتسكي، حيث كان موقع معسكر مجموعة فيرخنه – ابزاخسكي في ذلك الوقت.

هبت عاصفة رعدية رهيبة، مع ريح قوية ومطر غزير في منتصف الطريق. تبع ذلك الغسق، جعلت الغيوم الداكنة الكثيفة والغابة باشجارها العالية، التي كانوا مضطرين لعبورها، الاختراق مستحيلاً. وحدها المشاعل التي اعطيت للقوزاق المرافقين في وقت سابق، أنارت الطريق. لم يسترد المعسكر الصامت والمتوتر القلق حيويته ويستأنف مظهره العسكري المنتصر الا بعد الثامنة مساءً. فقد حيَّت اصوات الموسيقى والطبول وصرخات وُرا (مرحى) العالية الصادرة عن الجنود، دخول القيصر الروسي الى المعسكر وملأت الجبال والغابات المحيطة.

بحلول منتصف الليل، ران الصمت على المعسكر. لم يبق خافراً سوى الحراسة المشددة، كذلك بقي الجنرال اولشيفسكي نفسه، قائد الفيصل، خافراً. خرج القيصر من مقر اقامته مع شروق الشمس. بعد أن ابدى اعجابه بسلسلة جبال القفقاس من ضفاف نهر فارس العالية، ودار حول المعسكر من الجهة الجنوبية الغربية، بمحاذاة قوات ايريفانسكي والجورجية الاحتياطية، وعشرين كتيبة مشاة، وفرقة مدفعية القوزاق، اضافة الى فرسان نيجه جورودسكي الذين رافقوه في اليوم السابق، عاد القيصر الى مبنى القيادة العامة.

عند منتصف النهار، في الوقت الذي كانت القوات المسلحة الروسية تشكل طوابير من مقر قيادة القيصر وحتى مافريوك – تشاي، كانت السفوح المكسوة بالاشجار للضفاف العليا لنهر فارس، تمتلئ بمئات من الخيالة الابزاخ، الشابسوغ والوبيخ. بينما كانت القوات الروسية المسلحة تحيي القيصر بصيحات " وُرا " واصوات الموسيقى والطبول، انفصل خمسون موفد من الخيالة الشركس عن المجموعة وتوجهوا نحو المعسكر. وافق القيصر على استقبالهم. ناشد الحاج بيرزك ممثل الوبيخ، الامبراطور باسم جميع الشراكسة، على ان يقبلهم كرعايا. قال القيصر أنه سيكون مسروراً بقبولهم كرعايا له تحت الشروط التالية: أولاً وقبل كل شيء، يجب ان يوقفوا غاراتهم، يطيعون كل طلبات السلطات الروسية وينفذوها، ولتحسين استعدادهم لها، ينبغي عليهم تسليم جميع الأسرى والمجرمين الفارين حالاً. جاء رد الموفدين الشراكسة بالصمت. أصبح واضحاً ان وجهاء الشراكسة وممثليهم الذين حضروا الى المعسكر، لم يكونوا ممثلين لكل الشعب، بل مجرد قسم منه، الذين كانوا يريدون ايقاف الحرب حقيقة.

عندما سأل القيصر لماذا هم صامتون، اضاف الحاج بيرزك انهم احضروا معهم نداءً مكتوباً أيضاً. أمر القيصر بقبول النداء واعلن أنه يضع تقدير مناشدة الشراكسة بين أيدي السلطات الروسية في القفقاس، ويوكلهم بتنظيم طريقة حياتهم بشكل عام.

طلب الممثلون الشراكسة في مناشدتهم التاكيد على عدم قابلية التعدي على حقوقهم في اراضيهم، ايقاف بناء الحصون، الستانيتزات والطرق الروسية عليها. لاشك في ان مثل هذا الخضوع المشروط سيطيل عملية إحلال السلام في الاقليم لسنوات طويلة. لذلك قال القيصر " امنحكم شهراً واحداً، يجب على الابزاخ أن يقرروا، سواء كانوا يريدون ان يستقروا في الكوبان، ما اذا كانوا سيتسلمون أراضي لامتلاكها الى الأبد، والاحتفاظ بتنظيمهم القومي ومحاكمهم، او الرحيل الى تركيا ".



**لقاء الوفد الشركسي مع الكسندر الثاني، يوم ١٨ ايلول عام ١٨٦١. ﮯ مامروق تشي، على بعد ٣٠ – ٣٥ كيلو متر من مدينة مايكوب**

لابد وأن هذه الإجابة الفظة قد صدمت الموفدين الشراكسة. أصبح واضحاً أنه قد اعطى لجنرالاته الحق ﮯ معاملة الشراكسة كما يحلولهم. عاد الشراكسة الذين خابت ظنونهم الى قومهم، واكمل الامبراطور تجواله ﮯ المعسكر، و قامت كتيبة بنادق جيناديرسكي وسرايا البنادق السبعة التابعة لكتيبة الخط بتوفير الحماية للموكب.

غادر القيصر يوم ١٩ أيلول، عبر من مافريوك – تشاي، ستانيتزات جوبسكي وبيريبوافني وبعد ان امضى الليلة ﮯ ستانيتزا تيميرجويفسكي: مقر قيادة لواء فرسان تيرسكي، وخاض نهر الكوبان ﮯ ايكاتيرينودار، من نقطة بسه بداخه، سافر خلال اراضي الناتخواج، ووصل الى حصن كونستاتينوفسكي على ساحل البحر الأسود. ظهر الشابسوغ والجبليون الآخرون عدة مرات ﮯ مجموعات كبيرة، كما حدث مثلاً، خلال الهجوم على موقع جورجيفسكي وعلى ستانتيزا نوفو- باجانسكي. استقبل الحاكم كوليوبين والمعاون اوربيلياني، زعيم نبلاء مقاطعة تفليس ﮯ حصن كونستانتينوفسكي.

توجه يخت الامبراطور الى سوخومي يوم ٢١ أيلول، حيث رحب به حاكم ابخازيا، الأمير شيرفاشيدزه. من هناك اكمل القيصر رحلته الى بوتي، ومن هناك، اكمل الى مينجريليا على نهر ريون، حيث تكوَّن الإفطار الذي قدم له من ثور كامل مشوي على السيخ. حمله أربعة من المنجريليين الكبار. فتحوا الثور واخرجوا منه عجلاً، ومن العجل خروفاً، ومنه ديك حبش، ومن ديك الحبش فروجاً – وكل منهم مطبوخ بفنية عالية. عندما رأى الابزاخ ان الروس سينقلون عملياتهم العسكرية الى الجبال، اصيبوا بقلق شديد. ساندت جماعات كبيرة من

الوبيخ والاختشيبسوق الذين قدموا من الساحل، بحماس كبير الحالة العدائية لدى الابزاخ. ادرك الروس وتوقعوا أن لا يكتفي الابخاز بالدفاع عن أوديتهم، بل أنهم سيقوموا بمهاجمة المستوطنات الروسية الجديدة في اراضيهم.

شكَّل الروس في شباط عام ١٨٦٢ فصيل بشيخسكي من فصيلي ابزاخسكي للقيام بعمليات ضد الابخاز. بدأ العمل في " تنظيف " الغابة من حول ستانتيزا خانسكي. ستكون تلك بداية غزو اقليم الجبال.

يوم الثاني من آذار، ارسلت كتيبة من حملة البنادق تابعة للواء ابشيرونسكي وجناح قوزاق كوباني بقيادة الرائد شيمانسكي، من مايكوب الى المركز المنشأ حديثاً عند مصب نهر فيونتفا، لإيصال تموين الأرزاق الى الحامية. بعد ان سلم الطابور التموين، بدأ رحلة العودة. اثناء صعود الجبل المسمى سيميكوليني، لاحظ الرائد شيمانسكي ان الأودية والمرتفعات المحيطة ممتلئة بحشود كثيفة من الشراكسة، وأنهم اقاموا قواطع على الطريق. في الوقت نفسه، ظهرت مجموعات اخرى من الشراكسة خلف الطابور.

ادرك الرائد شيمانسكي ان الخيار الوحيد المتاح له هو اختراق طريقه عنوة بالحراب. ارسل سرية من الابشير ونصف جناح القوزاق لخداع الشراكسة الى نهر شاجواشا، بحيث يبدون وكأنهم يبحثون عن نقطة يخوضون منها في النهر. نجحت الخدعة. اندفع معظم الشراكسة الى هناك. استغل شيمانسكي اللحظة السانحة وتوجه الى المرتفعات على رأس ثلاث سرايا وبقية القوزاق. بدأت المعركة. حسب قول ايساردزه، خسر الشراكسة مائتي قتيل في هذه المعركة. خسر الروس النقيب ياكوفليف و٢١ آخرين من باقي الرتب، وجرح سبعة ضباط و ٨٩ من الجنود. كشفت هذه الحادثة انه شارك فيها الشراكسة الذين كانوا قد اقسموا يمين الطاعة. لذلك، صدر امر الى جميع المواطنين الذين يقطنون بين منابع نهري لابا وشاجواشا (بيلايا)، ان يخلوا المواقع التي يشغلونها على الفور والاستقرار في الكوبان. والا، قيل لهم انهم سيرحلون بالقوة. على اية حال، فلا ابزاخ المناطق العليا ولا الماخوش ولا حتى الايجيروخاي او الباراكي، اذعنوا للتهديد. لذلك ارسلت حملة لتدمير مساكنهم، محاصيلهم ومؤنهم. بحول ٢٧ آذار، كانت القوات الروسية قد طردت الشراكسة من اراضيهم وارغمتهم على الانتقال خلف نهر شاجواشا، وبدأت في بناء المراكز والمستوطنات على اراضيهم.

في نيسان عام ١٨٦٢، احتل فصيل فيرخني - ابزاخي وادي نهر داخا. بدأ عملياته هنا واطلق عليه اسم "فصيل داخوفسكي".

بعد عبور نهر شاجواشا، بدأ بتأسيس ستانيتزا داخوفسكي وتعبيد الطريق. هاجمتهم جماعات الشراكسة أحياناً . إحدى هذه الحوادث حية بشكل خاص في ذاكرة اللواء القباردي.

يوم ٦ حزيران، اخرجت كتيبة من لواء سيفاستوبولسكي لمرافقة قافلة النقل الى ستانيتزا تسارسكي. بقيت كتيبة من لواء كباردينسكي التي تضم ٧٠ قناصاً، بقيادة النقيب شيلخاتشيف، لحماية المعسكر. تحركت قافلة النقل حسب الخطة الموضوعة. بعد برهة، سمعت صلية طلقات نار من ذلك الاتجاه ثم صرخات من اصوات حوالي مائة رجل.

اسرع الرقيب باجينيوك الى النقيب شيلخا تشيف وأبلغه ان القناصين، مع سريتين من الكتيبة الثالثة المشتركة: خط - بنادق، قد أمرت بالذهاب لتقديم المساعدة، بقيادة الرائد كليوكي -فون - كلوجيناو. تحركت القوة مسرعة باتجاه الطلقات والتفت حول الشراكسة، الذين كانوا يطلقون النار بكثافة على قافلة النقل. بعد ان احتل شيلخاتشيف الجزء الشمالي من الآول، وضع خط دفاع في المقدمة. بمجرد ان اتخذ الخط موقعه، ظهر القوزاق هناك فجأة. ارسل شيلخاتشيف اليهم المرشح زايتسيف، ليفهم منهم من الذي ارسل هذا الدعم غير المتوقع، عاد زايتسيف ليخبره ان القوزاق مائتان، لكن ليس بينهم ضابط يقودهم.

في هذا الوقت، ظهر حوالي ١٧٠٠ شركسي من ناحية نهر شاجواشا، مسرعين للإنضمام الى المجموعة الأولى في الوادي المشجر السحيق. وجد القوزاق وقيادة قناصة القباردي انفسهم في موقف يحمل منتهى الخطورة. مع انه بحلول هذا الوقت، كان قد انضم ٩٠ رجل من لواء كباردينسكي، بقيادة الملازم نيتشو، الى القناصة، الا ان التعزيز ظل ضعيفاً، أمر شيلخاتشيف الملازم نيتشو ان يتبع القوزاق مع القباردي الذين احضرهم وينتظر انضمام القناصة، حتى يدافعوا عن انفسهم من العدو بقوات مدعمة، أو، كملاذ أخير، للتراجع سوية. لم يكن القبارديون قد ركضوا بضع عشرات من الخطوات في ذلك الوادي الذي وقف فيه القوزاق، حين اندلع اشتباك عنيف. اسرع شيلخاتشيف الى الوادي مع القناصة. كان الشراكسة قد حاصروا القوزاق من جميع الجهات، لكن القناصة هاجموا بالسيوف ومكنوا القوزاق من التراجع بانتظام. بدأ شيلخاتشيف يتراجع بدوره مع جنوده، يقود الطابور من بيت الى بيت ومختلف انواع الحماية. اعتقد الشراكسة ان هذا التراجع سببه نقص في الشجاعة، هجم حوالي خمسمائة شركسي مطلقين صرخة الحرب، مشهرين سيوفهم. لحسن حظ القبارديين، كانوا في تلك اللحظة داخل احدى الساحات المسورة بسياج، فاضعفت هذه العقبة الضربة واعاقت الشراكسة الى حد ما. استغل القبارديون الفرصة،

فخرجوا من الآول بانسحاب منظم وهم يطلقون النار ويدافعون عن انفسهم. كانت اعداد القناصة تتناقص مع مرور كل دقيقة. وكان شيلخاتشيف مثالاً للفداء كالعادة. دافع قناصته عن انفسهم بنفس الشجاعة من الشراكسة الذين طاردوهم بدون توقف. بسبب حقيقة توجه الشراكسة لمصادرة قافلة النقل، تمكن شيلخا تشيف من قيادة مجموعته نحو طابور كلوجيناو. لوكان الرجال في هذا الصدام الشهير مع القناصة القبارديين اقل شجاعة واقل تجربة في القتال، لما غادر اي منهم المذبحة حياً.

تلقت القفقاس مع نهاية عام ١٨٦٢ قائداً وحاكماً عاماً جديداً، هو الامير العظيم ميخائيل نيقولاييفيتش. اضطر الى تثبيت الانتصارات الجديدة واكمال اخضاع القسم الغربي من القفقاس، بشكل أدق بلاد الشراكسة. جاء سموه الى القفقاس في بداية العام ١٨٦٣، واصدر في ١٤ شباط، الأمر التالي الى الجيش الروسي في القفقاس.

"ياجنود الجيش القفقاسي الشجعان! (مايعنيه بالطبع، هو الجيش الروسي في القفقاس) انني أحييكم باحترام من الامبراطور القيصر وانقل لكم شكر القيصر على خدمتكم الجريئة والصعبة. احييكم باسم قائدكم السابق، مارشال الميدان الجنرال الامير بارياتينسكي، الذي حزن بصدق لأن المرض الشديد أجبره على الافتراق عنكم، ويشكركم من خلالي، يارفاقه في السلاح، على الخدمة المثالية للقيصر وللوطن الأب. اعتبر نفسي محظوظاً. لانني عينت على رأس الجيش القفقاسي، وانا فخور بالمنصب، الذي شرفه المشاهير الذين سبقوني.

" انني اطلب العون من الرب. فليبارك في اسلحتنا ويتوج جهودنا بنجاح سريع لتأسيس السلام والوفاق في القسم الباقي غير المحتل من القفقاس ".

قام الامير العظيم برحلة من ستافروبول على اقليم الكوبان وزار الجنود على خط النار. انتقل يوم ٢٨ شباط عام ١٨٦٣ من نهر اوسينوبات الى نهر بسه كوبس، مع القوة. الفوجين الأول والثاني من لواء فرسان سيفيرسكي وقطع نصف المسافة على رأس القوة في منتصف الطريق نحو الوجهة، وصلوا الى واد سحيق، مغطى بغابة من اشجار البلوط. عبرته المقدمة بدون عوائق، ولكن، فجأة، دوَّت صلية الى يمين القوة الرئيسة، وهاجمتها مجموعة من الابزاخ بسيوفها.

انهار الطابور، لكن الاحتياط فتحوا النار واوقفوا معركة العدو واشتباكه القريب. بعد ذلك استدار الشراكسة نحو المؤخرة. هاجموها ثلاث مرات، لكنهم صدوا المرة تلو الأخرى. انطلق فرسان سيفيرسكي نحو مؤخرة كمين العدو بقيادة العقيد بيتروف. كذلك ارسل في

اثرهم فوج من لواء الفرسان القوزاقي العاشر، قسم التدريب لقوات القوزاق، سرايا البنادق المينجريلية، وقيادة القناصة من ألوية ايرفانسكي، جروزينسكي (الجورجية)، وكريمسكي (القرمية).

سمع السيفيرسكي صلية بنادق اثناء مسيرهم. عدا الفرسان الى مصدر الصوت ووجدوا مجموعة من الشراكسة في حوض، وكان قسم كبير منهم مترجلاً. هاجمهم السيفيريون بالسيوف.

كان النصف الثاني من المسير بدون عقبات، ووصل الفصيل الى نهر بسه كوبس في المكان الذي وقفت فيه قوة العقيد أوفرين. حضر الى هناك من اتجاه نهر بشيخ.

يوم الأول من آذار، بينما كان الامير العظيم يقوم بجولة في الاقليم، كان يمكن لمح الشراكسة بين الشجيرات. أو يعدون على خيولهم في السهول المفتوحة. انطلق رئيس مقاطعة البجدوغ، العقيد كريم – جيراي جوساروف عدواً باقصى سرعته ليهاجم العدو مع ميليشياته. لم يلاحظ الحفرة الصغيرة أمامه، والتي اختبأ فيها عدد من الشراكسة بانتظار الرئيس، الذي انطلق مسرعاً مع ثمانية فرسان مبتعداً عن قيادته. دوَّت صلية وقتلت كريم – جيراي جوساروف، الملازم كيمتشرييف، وثلاثة من رجال الميليشيا.

اندفع فوجان من قوزاق كوبانسكي، مع قوة من التفيرتسي، ومدفعين من بطارية الخيول القوزاق رقم ١٣ وثلاثة قاذفات صواريخ، اضافة الى ميليشيا القبارديين، للنجدة، لكن الشراكسة كانوا قد اختفوا داخل الغابة. اكمل التفيرتسي والقوزاق الهجوم. عندما بلغوا فرجة واسعة في الغابة. تصدت لهم مجموعة من خيالة الشراكسة فجأة. فتحت قاذفات الصواريخ والمدافع النار عليهم. انضمت ثلاث سرايا من كتيبة البنادق رقم ١٩ (لواء البنادق الثاني كافكازسكي) وكتيبة البنادق شيرفانسكي الى القتال. حدث اشتباك بين الشراكسة وكتيبة البنادق ١٩ في اليوم التالي. فتحت بطارية قوزاق كوبانسكي نيران الرش على الشراكسة، لكنها لم تزعجهم. وصلت كتيبتا جريناديرسكي وسامورسكي (بنادق)، واستولت الأخيرة على قسم من الغابة. وصل العقيد ايكيلون على راس كتيبة ١٩ بنادق، للمساعدة.

يوم ١٣ نيسان، اتم جنود قوة بشيخسكي ستانيتزات: بشيخسكي، كوبانسكي، بجدوغوفسكي، بايوقايفسكي وابشيرونسكي، واخلوا هذا المكان الواسع كله من السكان الشراكسة، ثم احاطوه بالمواقع الروسية.

اصدر الكونت ايفدوكيموف اوامر في منتصف نيسان الى فصيل بشيخسكي بالبدء في فتح الطرق بمحاذاة بشيخ الى آول امينوفسكي، وفتح الاتصال مع فصيل داخوفسكي، الذي

كان مركزه قرب ستانيتزا سامورسكي.

خرجت مجموعة بشيخسكي المؤلفة من كتيبة كافكازسكي جريناديرسكي رقم ١٤ وكتيبة بنادق شيرفانسكي، الكتيبتان الثالثة والرابعة من لواء كوبانسكي، بطاريات المدفعية التابعة لخيالة القوزاق رقم ١٣، الجبلية الخفيفة رقم ٤، من ستانيتزا ابشيرونسكي يوم ٢٧ نيسان عام ١٨٦٣، في تمام الساعة السادسة صباحاً. خلال المسير، ارسل التفيرتسي، قوزاق الكوبان، الشيرفان وحملة بنادق الكتيبة ١٩ لنهب القرى الشركسية التي شوهدت في الغابة. ارغم هذا العدوان من قبل القوات المسلحة الروسية الشراكسة الحانقين على التجمع باعداد كبيرة. عندما وصلت مجموعة القتال الروسية الى الساحل الجبلي في دينشيكادز، وعلى مرمى بندقية، بدأ الشراكسة يطلقون عليهم النار من خلف السواتر. ضرخ العقيد ايكيلي "وُرا"، وركضت كتيبة ١٩، التي شكلت الطليعة مع الشيرفان، لتتسلق المنحدر الحاد، وصارت تصعد المرتفع. ضرب الشيرفان الذي كانوا على يمين الطابور، الشراكسة من الجانب، الذي كان مشغولاً بالقتال ضد حملة البنادق. تراجع الشراكسة وبدأوا يطلقون النار على مؤخرة الطابور وعربات النقل. اندفعت بطاريات المدفعية الرابعة الى العمل، لكن لا قنابلها اليدوية ولا قذائف الرش أفلحت في التأثير في الشراكسة. في النهاية، رصت السريتان صفوفهما وبدأتا تضربان الشراكسة من خلف السواتر.

لاحظت كتيبة بنادق جريناديرسكي التي كانت تتقدم الى الأمام، ان مجموعة الشراكسة قد هاجمت السرية الثالثة من لواء كوبانسكي. كان قوزاق كوبانسكي يدافعون عن انفسهم ضد الشراكسة، الذين كانوا يرمون بانفسهم عليهم، بشجاعة. أسرع جنود كتيبة جريناديرسكي، بقيادة الملازم الكونت مينجدين لانقاذ قوزاق كوبانسكي. قتل الكونت بطلقة بندقية. بحلول ذلك الوقت، كان قوزاق كوبانسكي قد ارغموا الشراكسة على التراجع. الى جانب الكونت. قتل ٢٩ جندياً من سرية كوبانسكي، قتل من فصيل اللواء السادس لقوات قوزاق كوبانسكي ايصاول لاجودا و الملازم كوروبكا، كما جرح ٨٦ من الرتب الأخرى من القوة بكاملها.

بعد الاستطلاع، يوم ٢٨ نيسان، استأنفت قوة بشيخسكي بناء الستانيتزات كالسابق.

بعد أن أفرزت قوة اداجومسكي بقيادة الجنرال بابيتش من قوة جبغا، اتمت واجباتها على المنحدرات الجنوبية في تثبيت و تأسيس الاحتلال الروسي في بشاد.

مع نهاية العام ١٨٦٣، اخضع اقليم الكوبان بكامله الى السيطرة الروسية، وازفت الساعة التي مكنت السلطات الروسية من نقل العمليات العسكرية الروسية الى المنحدرات الجنوبية من سلسلة القفقاس الرئيسة.

كتب الأمير العظيم يوم ٢ كانون الأول عام ١٨٦٣، الى الكونت ايفدوكيموف " ان تقاريرك حول اخضاع الابزاخ، حول احتلال بشاد وجبغا، وعن هزيمة الوبيخ في الضفاف العليا لنهر طوابسه، قد بعثت فيَّ سروراً عميقاً. انها جميعاً ثمار افكارك، عملك، وحزمك، يمكنني القول انها ثمار الجهود غير المسبوقة للقوات الشجاعة العاملة تحت قيادتك.

" لقد احتلوا المنحدرات الشمالية من القفقاس. لقد اقترب الوقت الذي ستنظف فيه المنحدرات الجنوبية الغربية من الشعوب الشرسة المعادية لنا، وحتى الآن، بعد أن قبل الساحل الشرقي للبحر الأسود العصي على الاختراق، السكان الروس، سيصبح حقاً الساحل الروسي. آمل ان تحل تلك الدقيقة سريعاً، التي سنضع فيها القفقاس الغربي بكامله تحت اقدام الامبراطور، هادئاً وخاضعاً ".

استطاع الروس ان يسحبوا قسماً من قواتهم المسلحة من اقليم الكوبان في بداية عام ١٨٦٤. عادت كتائب بنادق ايريفانسكي، جروزينسكي وألوية منجريلسكي الى مقار قيادتها في اقليم عبر الكوبان، بأوامر من الأمير العظيم.

يوم ١٤ شباط عام ١٨٦٤، خرج قناصة اللواء ٢٦ خيالة، التابع لقوات قوزاق كوبانسكي، المؤلف من ٩٢ مشاه و ٣٠ قوزاق فارس، تحت قيادة الملازم دوجين، باتجاه ستانيتزا سامورسكي. كان المرشح سادلوتسكي على رأس الفرسان القوزاق. صدر أمر لدوجين بتفتيش المنطقة حول قمم كورجيبس والروافد اليمنى لنهر بشيخ وان يعثر على الطرق المؤدية الى محلة توبينسكي على نهر شاخا والى الحاكوشين. بعد ان عبر القناصة القمة في اليوم التالي، وصلوا الى محلة توبينسكي. ارغمت الطبيعة الوعرة غير الملائمة لعمليات الفرسان، دوجين على ارسال القوزاق الخيالة عائدين الى ستانيتزا سامورسكي. وصل الى ضفاف بشيخ مع المشاة القوزاق الباقين واتخذ موقعاً له للمبيت تلك الليلة في احدى الآولات التي نهبها فصيل داخوفسكي.

يوم ١٧ شباط، قام دوجين بتقسيم القوزاق التابعين له الى ثلاث مجموعات، وأمرهم بالنزول الى الوادي في اتجاهات مختلفة، وان يصادروا ويدمروا كل ما يجدونه، ثم يعودوا الى نقطة التجمع المتفق عليها.

اطلق الشراكسة في كامل منطقة توبينسكي الإنذار، فبدأ القوزاق الذين اضطروا الى التخلي عن نواياهم، الانسحاب نحو نقطة التجمع. كان التراجع في منتهى الصعوبة.

اضافة الى ذلك، فقد قتل شراكسة توبينسكي الملازم دوجين والمرشح سادلوتسكي في أول صدام، ولم تتمكن مجموعات القوزاق المتفرقة من التجمع اثناء النهار، بسبب وعورة

المنطقة، لكنهم تمكنوا من ذلك في المساء. انتخبوا القوزاقي ايفتوشينكو قائداً لهم وقرروا الدفاع عن انفسهم حتى آخر واحد منهم. اتخذوا موقعاً حصيناً وتمسكوا به طيلة الليل واليوم التالي، وهم محاصرون بالتوبين من كافة الجهات، والذين استمروا في مهاجمتهم. على اية حال، ظل وضع القوزاق يسوء باستمرار وعدد جرحاهم يتزايد.

بحلول مساء اليوم التالي، لاحظ القوزاق وجود كهف في صخرة عالية قريبة، فاسرعوا للاستفادة من هذا الاكتشاف السعيد الحظ. استغلوا عتمة الليل، فاخذوا جرحاهم الى الكهف، وبعد ان حصنوا المدخل بالحجارة، صمدوا في هذا الملجأ أربعة ايام بدون طعام او شراب، وهم يصدون هجمات الشراكسة باستمرار ويرفضون طلباتهم بالاستسلام. في هذه الاثناء، ظل ايفتوشينكو يرسل القوزاق الى الخط، واحداً بعد الآخر، ليخبرهم عن وضعهم الميئوس منه. مات العديد منهم في المحاولة، لكن في النهاية نجح القوزاقي تشيسنوكوف في الوصول الى ستانيتزا سامورسكي وإخبار الرائد بيستيلكورس، قائد اللواء ٢٦. انطلقت سريتان من لواء اليزابيتولسكي، مع الفوج الثاني من نيجه جوروديي الرائد عمروف، وفوج من القوزاق، لانقاذهم. كانوا كلهم تحت القيادة العامة للرائد بيستيلكورس. بعد وصولهم الى المدخل الضيق للوادي السحيق، اضطروا الى التوقف. فقد احتله الشراكسة، ولم يعد بالامكان اختراقه الا بخسائر فادحة. كان المقدم الأمير اميلاخفاري، قائدخط فيرخني – بشيخسكي قد عاد من مايكوب في نفس اليوم، وعندما سمع النفير، ارسل الفوج الأول من النيجه غورود الى بيستيلكورس ثم انطلق بنفسه من ستانيتزا سامورسكي مع الفوج الثاني من النيجه غوروديين وسرية من لواء اليزابيتبولسكي، وفوجين من القوزاق. زحف بدون توقف وانضم الى قوات بيستيلكورس.

بعد ان ترك المشاة في المنطقة الوعرة، دخل اميلاخفاري الى منطقة توبينسكي مع الخيالة والقوزاق. جمع نافخي الابواق وأمرهم بعزف نغمة " التجمع ". ثم اطلق صلية. بعد بضع دقائق، دوت ثلاث طلقات إجابة. ارسل الامير ٢٠٠ من المشاة والقوزاق تحت قيادة الرائد عمروف الى هناك. جهز الشراكسة انفسهم للمقاومة. هاجم قناصة لواء نيجه غورود سكي في البداية، تحت قيادة النقيب الركن الأمير تشافتشادزه، دفعوا الشراكسة عن الجبال، واقتربوا من الكهف.

من مجموع ٩٢ قناص، الذين كانوا تحت قيادة دوجين، قتل ٢٣ من القوزاق الى جانب الضباط، وجرح ١٦. اصدر الجنرال جرابه أوامر في نيسان بالاستيلاء على مجتمع توبينسكي بواسطة قوات بشيخسكي وطرد جميع سكانه وتدميرهم.

في كانون الثاني عام ١٨٦٤، قدم ايفدوكيموف خطة العمليات العسكرية النهائية التي جهزها، والتي ضمت اقتراحاً بالقيام بحملة على المنحدرات الجنوبية من جبال القفقاس في اسرع وقت ممكن. وافق الامير العظيم على هذه الخطة بالكامل، وانطلقت قوة داخوفسكي التابعه للجنرال جيمان يوم ٨ شباط من ستانيتزا شيرفانسكي وتوجهت الى ممر بشيخسكي. وصل الكونت ايفدوكيموف الى حصن جايتخ يوم ١٩ شباط، حيث توقفت قوة داخوفسكي. كان مع الكونت ايفدوكيموف كتيبة بنادق كباردينسكي، الفوج الأول من لواء تفيرسكي دراجونسكي، ثلاثة افواج من ميليشيا كباردينسكي، اضافة الى الكتيبة الخامسة من لواء كوبنسكي، زادت اعداد قوة داخوفسكي الى ١٣ ونصف كتيبة، ستة مدافع، فوجين وخمس سرايا.

تحركت قوة داخوفسكي الى الممر يوم ٢٠ شباط. كلما ازدادوا ارتفاعاً، زادت الصعوبات التي واجهوها. سقط ثلج رطب ثقيل، التصقت العيون. في بعض المناطق، كان الوادي حاداً الى درجة انه توجب حفر درجات في الثلج على الممرات، لكن بعض الجنود فضلوا ان يجلسوا على الثلج ويتزحلقوا بكل بساطة. بعد العبور الذي لا تصدق صعوبته فوق الجايتخ. نزلت القوة الى وادي طوابسه في المساء. وصل وجهاء الشابسوغ المحيطون الى المعسكر، يعبرون عن الخضوع التام. طلبوا الإذن بالانتقال بدون تعرض الى الساحل ثم الرحيل الى تركيا. ارسلت بعض الطوابير الروسية يوم ٢١ شباط لاحراق القرى والنهب. بعد يومين نزلت القوة الى الوادي السحيق، وصلت الى البحر، واحتلت حصن فيليامينوف السابق.

بقيت قوة داخوفسكي في هذا المكان حتى الثاني من آذار. كان التاريخ النهائي المعطى لرحيل الشابسوغ يقترب من نهايته. وكانوا يرحلون الى الساحل، وحضر من الجهة الشمالية للجبال حشد كبير من الابزاخ.

غادر الكونت ايفدوكيموف بحراً يوم ٤ آذار، بعد اصدار التعليمات الضرورية، الى ستافروبول.

مع رحيل الكونت، اعيد جميع القوزاق، الميليشيا، وفوج من خيالة تفيرسكي الى القيادة. في نفس اليوم، تحركت قوة داخوفسكي في ثلاثة طوابير بمحاذاة الشريط الساحلي واحتل حصن لازاريف السابق يوم ٥ آذار. من هذه النقطة بدأت العمليات العسكرية الروسية ضد قبيلة الوبيخ القوية.

كان اكثر الوبيخ نفوذاً في ذلك الوقت الممثلون الثلاثة لعائلة بيرزك: الحاج كيريندوق دوغوموكو، الحاج عليم – جيراي بابوق، البوز- بيك حاباخ، وممثل عائلة زيفش، إسماعيل

باراكاي. كانوا كلهم رجالاً اثرياء. القى باراكاي، الذي كان لديه العديد من الاقرباء في تركيا، خطباً حماسية عن مساعدة القوى الاوروبية. هو الشخص الذي جلب المغامرين الاوروبيين الى ارض الوبيخ. وقف دوغوموكو على رأس المجموعة المتشددة، وكثيراً ما ترأس الاجتماعات الموحدة للابزاخ، الوبيخ والشابسوغ.

يوم ٥ آذار، حينما وصلت القوة من بسه زوابسه، وارسل الجنرال جيمان خطاباً الى الوبيخ يقول فيه " تعلمون جيداً ان شعبي الابزاخسكي والشابسوغسكي قد خضعوا دون شروط الى اسلحتنا وانهم ينتقلون بحرية الى تركيا: اولئك الذين يرغبون في ذلك، قدموا الينا وهم يستلمون أراضي على الكوبان واللابا.

والآن، الوبيخ، انتم آخر من بقي. اذا رغبتم في معرفة مطالبنا منكم، فها هي: تسليم الأسرى الروس على الفور، بدون تاريخ نهائي، اولئك الراغبين في الانتقال الى تركيا، يجب ان يجتمعوا في المعسكر على الساحل عند مصبات انهر شاخا، فاردان وسوتشي: تستطيع السفن والقوارب التركية التي يمكنكم الذهاب الى تركيا على متنها، ان تتوقف عند هذه النقاط. يمكن السماح ببيع الاشياء غير الضرورية الى الجنود. اولئك الراغبين في القدوم الينا، عليهم التحرك الى الكوبان فوراً حيث سيتم تخصيص اراضي لهم.

اعرف ان هناك رجالاً عقلاء بينكم، وانكم لا تريدون ان تقاوموا حتى لا يتم نهبكم. لانني سأقوم بتحرير اقنانكم بقوة السلاح، واغلق الطريق الى تركيا، وسيتم توطينكم على ساحل بحر آزوف. تذكروا انكم حرضتم الابزاخ ضدنا واجبرتم الشعب التعيس الحظ على ان يصل الى درجة الفقر المدقع ".

حقق هذا النداء هدفه. في اليوم التالي، حضر ١٥ من وجهاء الوبيخ الى المعسكر، برئاسة إلبوز حاباق بيرزك. كان الحاج بابوق أيضاً معهم. طلبوا من الجنرال جيمان المزيد من الوقت للانتقال الى تركيا، لكنه رفض ان يمنحهم ذلك الصنيع.

انتشرت القوة الروسية في حصن لازاريفسكي السابق على مسافة واسعة في الفرجة بين الغابات. استراح الرجال في السهل الفسيح. وصل التاريخ النهائي المعطى للشابسوغ الى نهايته مساء يوم ٦ آذار. أصبح الامتداد الكامل بين نهري طوابسه وبسه زوابسه خاضعاً لعملية " إخلاء ". بعد أن ترك ثلاث كتائب في حامية موقع لازاريفسكي، تحرك الجنرال جيمان يوم ٧ آذار، الى داخل البلاد مع الكتائب الخمس الباقية، واربعة مدافع جبلية، وفوج من لواء خيالة تفيرسكي. قامت هذه القوات الروسية التي قسمت الى ثلاثة طوابير باحراق جميع القرى في الاقليم على مدى ثلاثة ايام، وطردت جميع السكان الى ساحل البحر الأسود.

بحلول مساء يوم ٩ آذار، تجمعت القوة في مركز فيليا مينوفسكي، حيث كان تجمع الجبليين الراحلين الى تركيا هائلاً. كذلك انضم اليهم هنا القوات المسلحة التابعة للواء جوبغسكي المفصول.

يوم العاشر من آذار انتشرت القوة الروسية بمحاذاة نهر طوابسه. فقد بدأت الحملة على الشريط الجبلي. قضى الجنود الروس ستة أيام وهم يتسلقون المنحدرات الحادة صعوداً وهبوطاً. كانت الاشتباكات التي حصلت خلال التحركات الطويلة للطوابير، قليلة الأهمية. فقد كان السكان يتحركون باتجاه البحر. يوم ١٨ آذار فتحت مجموعة كبيرة من الوبيخ النار في بستان الكستناء قرب الدير المسيحي القديم، على بعد خمسة فيرستات من بسه زوابسه، ومعهم الاختشيبسخو. أمر الجنرال جيمان بالهجوم على القرية، التي كانت موجودة في الوادي السحيق. هجم مشاة سيفاستوبولسكي وباكينسكي وهم يصرخون " ورُا". هاجم الرائد شيلخا تشيف الجبليين مع القبارديين في نفس الوقت من جهة اليمين. تم الاستيلاء على الأول. تجمع الشراكسة خلف السواتر وفتحوا النار. تسلق رماة بنادق سيفاستوبولسكي فوق السواتر. صاح الشراكسة، اطلقوا الصلية بعد الأخرى، وهجموا بالسيوف، لكنهم استسلموا في النهاية لضغط القباردي والسيفاستوبول. توجهت اغلبية الشراكسة نحو البحر، لكن البقية ذهبت الى الجبال. طاردهم القبارديون والسيفاستوبوليون بلا هوادة.

وهكذا، فشلت اول محاولة من الوبيخ لايقاف هجوم قوة داخوفسكي. استأنفت القوة مسيرها وتجمعت في مصب النهير الساحلي تشوخاخ.

يوم ١٩ آذار، احتلت القوة حصن غولوفينسكي، بنت جسراً على نهر شاخا، تحركت أبعد، وأحرقت كل قرى عشيرة فاردان، بما فيهم آول باراكاي.

تم الاستيلاء على حصن نافاجينسكي السابق يوم ٢٥ آذار بدون اطلاق رصاصة واحدة.

وهكذا فقد وضع الاستيلاء على داخو نقطة البداية لاكتساح الجزء الاكثر صعوبة في القفقاس الغربي، لكن احتلال سوتشي اكمل تأسيس السيطرة الروسية على كامل الشريط الجبلي.

يوم ٣٠ آذار، وصل الكونت ايفدوكيموف بالسفينة. استدعي زعماء القبائل الذين عبروا عن خضوعهم للامبراطور الروسي، احتفالاً بهذه المناسبة. فحضر زعماء الشابسوغ، الجوي، الوبيخ، الجيغيت، والعديد من وجهاء الاختشيبسوخ. تواجد هنا زاوربك، دوغوموكو، بابوق، إلبوز، غيتش – رشيد، ومعهم جماهير من الخيالة. يوم ٣١ آذار حضر زعيم اقليم الناتخواج وقائد فصيل اداجومسكي المسرَّح الجنرال بابيتش، واتامان قوات قوزاق كوبانسكي، ومن مرافقي سموه، اللواء سيماروكوف ايلستون.

يوم ٢ نيسان، وبعد استعراض القوات الروسية المسلحة، مشى الأمير العظيم نحو وجهاء الشراكسة الذين تجمعوا. قالوا له مامعناه انهم يفضلون الرحيل الى تركيا بدلاً من اخذ الأراضي التي خصصت لهم في الكوبان وطلبوا منه ان يمنحهم الوقت. اجاب الأمير العظيم ان اراضيهم قد خصصت للمستوطنات الروسية، وأنه يمهلهم مدة شهر للاستعداد للرحيل الى تركيا مع عائلاتهم، وانه، اذا اخفق بعض الناس في تطبيق هذه المطالب بعد نهاية هذه المدة، فانهم سيعاملون كأسرى حرب، وانه سترسل قوات روسية جديدة لهذه الغاية.

عملياً، كان يمكن اعتبار هذه نقطة النهاية للحرب الروسية – الشركسية. لم يبق سوى سكان اختتشيبسو وبشكو، الذين يقطنون في الأودية التي لا يمكن الوصول اليها عند منابع نهري مزيمتا وبزيبا، رافضين التخلي عن حريتهم ومستعدين للمقاومة. من اجل "تنظيف" هذا الإقليم بشكل كامل وتحطيم هذه البقايا الضعيفة للجبليين المعادين، أمر الامير العظيم القوات الروسية المسلحة بالزحف عليهم من اتجاهين: من اقليم الكوبان، عبر السلسلة الرئيسة، الى منابع مزيمتا وبزيبا، ومن محافظة كوتايسكي من مصبي هذين النهرين، ليتقابلا هنا.

يوم ١٤ نيسان، جهز الجنرال جيمان قوة داخوفسكي للزحف على حوض سوتشي. تحركت لقوة مدمرة كل القرى على طريقها.

كان يعتقد بشكل عام انه يجب بذل كافة الجهود لإنهاء الحرب. لتنفيذ اكتساح البلاد، جرى تقسيم القوات الروسية في القفقاس الى اربعة طوابير.

انطلق الطابور الأول[١]، بقيادة اللواء شاتيلوف من جاجر الى وادي نهر بشكو، الطابور الثاني [٢] بقيادة الفريق الأمير سفيا توبولك – ميرسكي، تحرك من حصن دوخ السابق صعوداً في نهر مزيمتا. الطابور الثالث [٣] للواء جيمان، زحف من منابع نهر شاخا بموازاة السلسلة الرئيسة عبر اراضي الوبيخ الجبليين، وزحف الطابور الرابع[٤]، تحت قيادة اللواء جرابه، من منابع اللابا الصغير عبر السلسلة الرئيسة لجبال القفقاس. واجه هذا المجتمع القوات المسلحة الروسية معتمداً على صعوبة المسالك المحلية ومساعدة القبائل المجاورة ، وقد زحفت هذه القوات عليهم فوق الممر الوحيد الموجود والذي اغلقوه بالسواتر. يوم العاشر من أيار، ارسل الامير العظيم قوة الى هناك، من الطابور الثاني، يتألف من كتيبة ايريفانسكي وكتيبتين من لواء جروزينسكي جريناديرسكي وفوجين من المليشيا، بقيادة اللواء باتيزاتول. بدأت القوة بتسلق جبل دزيخرو صعوداً. مع أنه كان على بعد مجرد ثلاثة فيرستات، اضطروا للتسلق عليه لمدة اربع ساعات بسبب الضباب والحدة الشاهقة، التي التف عليها الممر الوحيد. ثم جاء النزول عن قمة جبل دزيخرو الى وادي بسخو بنفس القدر من الصعوبة. ابلغ الكشافة قائد القوة عن وجود عدد كبير من الايبوغ، الاختشيبسخو والأبريك من قبائل أخرى الذين قرروا الدفاع عن أنفسهم. يوم ١١ أيار، دخل الجنرال باتيزاتول أراضي الايبوغ مع كتائب جروز ينسكي والمليشيا. اخذهم الممر الذي مشوا عليه، عبر منحدرات حادة وذات

---

(١) كتائب الخط رقم ٣٢، ٣٣ و ٣٥ وكتائب المشاة الموحدة رقم ٥، ٦، ٧ و ٨. سرية الكتيبة الهندسية الأولى كافكازسكي: الفوج الجبلي من مدفعية حصن سوخومسكي، الفوج الموحد من لواء خيالة كوتايسكي غير النظامي. فوج ميليشيا خيالة تسيبيلدينسكي، ربع فوج ميليشيا سوخومسكي الدائمة.

**(٢) الكتيبتان الأولى والثانية من لواء جريناديرسكي تيفليسكي، الكتيبتان الأولى والثانية، لواء جريناديرسكي جروزينسكي، الكتيبة الأولى من لواء جريناديرسكي تيفليسكي، الكتيبتان الثانية والثالثة من لواء جريناديرسكي مينجريليسكي، كتيبة كافكازسكي جريناديرسكي مشاة، سرية كتيبة مهندسي كافكازسكي الأولى، سرايا الجبل ١ و ٢ لبطاريات لواء كافكازسكي جريناديرسكي، نصف فوج دونسكي رقم ٢ التابع للواء القوزاق، نصف فوج من قافلة القائد العام للجيش، قافلة قائد القوة واربعة أفواج من المليشيا المشاة: الايميريتسكي، المينجريلسكي واثنتين جورييسكي.**

(٣) الكتيبة الثانية من لواء كريمسكي، الكتيبة الخامسة وقيادة القناصة في لواء سيفاستوبولسكي، الكتيبة الثالثة من لواء كوبانسكي، كتيبة مشاة سامورسكي، سرية بطارية مدفعية الجبل التابعة للواء المدفعية ١٩. فوجين من القوزاق، قيادة المهندسين وبعض الميليشيا.

**(٤) كتيبة مشاة لوائي ابشيرونسكي وشيرفانسكي، كتيبة المشاة الموحدة، فوج ميليشيا من منطقة فيرخني – كوبانسكي، فوجين موحدين من قوزاق اللواء السابع وسرية مدفعية من بطارية المدافع الجبلية الرابعة.**

مهاوي رهيبة. جعلت الحجارة الناتئة وجذور الاشجار الحركة غاية في الصعوبة فوق الممر. هنا، كان يمكن لأية خطوة خاطئة أن تنطوي على سقوط في الهاوية التي لا ترى نهاية قعرها. وحدها الضجة كان يمكن سماعها من نهر بسخو، الذي جرى على شكل شلال واحد قوي. قوبلت الطلائع الروسية بطلقات افرادية، عجلت في تقدم القوة بأكملها. بدأت حجارة ضخمة تتساقط من الصخور. اندفعت الميليشيا بقيادة النقيب الركن الأمير ناكاشيدزه عبر الوادي الضيق، الذي لم تتوقف الحجارة عن السقوط عليه من الصخور. ارسلت سرايا من لواء جروزينسكي للمساعدة. تخلى الشراكسة عن الصخرة العالية، خوفاً من أن يدور الروس حولهم. عبر جنود الطليعة الوادي بسرعة واستولوا على ثلاثة سواتر تباعاً. كذلك شاركت ميليشيا التسيبيلديين التي حضرت ركضاً من طابور الجنرال شاتيلوف، خلال الاستيلاء على الساتر الثاني. فقد هجموا الى الأمام بحماس لدرجة أن الامير شاخان – جيراي مارشاني كان من اوائل الذين قتلوا. وهكذا، قررت حملة الأيام الأربعة ليس فقط مصير الايبوغا، بل مصير القبائل المجاورة أيضاً. تخلى الاختشيبسخو والبسخو عن اي أمل في المقاومة. وعاد الفصيل الروسي الى معسكره في اختشير.

تركزت كل الطوابير الأربعة للقوات الروسية من الجهات المختلفة، في وسط أرض الاختشيبسخو، في منطقة كبادا. قدّر لهذا الآول المعزول ان يصبح مكاناً لحدث تاريخي مهم، هو نهاية الحرب الروسية – الشركسية.

يوم ٢١ أيار عام ١٨٦٤، أقام الجيش الروسي عرضاً عسكرياً في كبادا، للاحتفال بنهاية " الحرب القفقاسية ".

يوم ٢٢ أيار، تحركت قوة داخوفسكي الى نهر سوتشي، وتحرك فصيل اختشيبسخوسكي الى مصب نهر مزيمتا، لكن قوتي بسخوسكي ومالو – لابينسكي باشرتا بعملية الطرد النهائي للشراكسة. بحلول منتصف حزيران، كان قد تم ارسال ٤١٨ الف شركسي الى تركيا، ابتداءً من عام ١٨٥٨.

اوضح الامبراطور الكسندر الثاني بجلاء، السبب الذي دفع روسيا الى احتلال بلاد الشراكسة في رسالته الى الكونت ايفدوكيموف. " ان الاقتراح المقدم من قبلك عام ١٨٦٠، والمصادق عليه من قبلنا حول سبل العمليات للاسراع في انهاء الحرب في القفقاس الغربي، قد توِّج الآن بنجاح باهر، تجاوز توقعاتنا، بتحقيق سريع للهدف، الأمر الذي يثبت عمق وصحة الاجراءات التي اتخذت حسب افكاركم ".

خلال ثلاث سنوات، اصبح القفقاس الغربي، الذي تم تهدئته و " تنظيفه " من السكان المعادين لنا، في غالبيته مستوطناً بالسكان الروس، وقد انتهت الحرب الدامية الطويلة، الأمر الذي وفر على الدولة ضحايا باعداد هائلة، اثقلت عليها طيلة مئة وخمسين عاماً، وسلمت اليها اقليما واسعاً وغنياً، سيكافئ تلك التضحيات السابقة بلا شك ويزيد عليها بفائض.. "

لقد كان لدى الامبراطور الكسندر الثاني سبب وجيه ليهتم بالتضحيات الجسام التي تقدمها روسيا في حربها ضد بلاد الشراكسة. فقد ظن الجنرالات الروس في الأصل أنهم سيكسبون هذه الحرب بين عشية وضحاها، لكنها استمرت مائة وخمسين عاماً حسب رأي الامبراطور الكسندر الثاني. لقد كانت المقاومة التي قابلت روسيا في بلاد الشراكسة قوية وعنيفة الى درجة انها جعلت الآلة العسكرية الهائلة لروسيا تبدو عاجزة وغير ملائمة. لم يستطع الملوك الروس ان يفهموا لماذا لا يستطيع جيشهم الشجاع ان يحطم مقاومة بضع قبائل شركسية. الواضح انهم لم يدركوا ان جنرالاتهم المحرجين اليائسين لم يحسنوا تقديم الطبيعة الحقيقية للموقف في تقاريرهم، بأن يظهروا الإخفاق العسكري وكأنه نصر، بينما استمر سفك الدماء سنة بعد أخرى وعقداً بعد آخر، بين هاتين الامتين غير المتكافئتين على الإطلاق. نورد هنا بعض المقتطفات من وصفها من قبل الروس الذين شاركوا فيها: " كل قرية في هذه البلاد هي ساراجاسو. لقد كنا نستولي على أول محصن بثمن هو عدة آلاف من الضحايا، لمجرد ان نفتح خلفه عدداً آخر من الآولات المشابهة، التي تتطلب ضحايا مشابهة " كتب ر. فادييف.

" لم يفكر آول تشوخ، بغض النظر عن الجيش المؤلف من عشرين الف رجل الذي يحاصره،و رغم القصف المدفعي، بالاستسلام، مجرد تفكير. ورغم اننا امطرناه بالفين ومئتين من القنابل اليدوية و ١٢ الف قذيفة وحوالي مليوني طلقة بندقية، اضطر الجيش الروسي الى الانسحاب. " كتب A إيه. قندوق كما كتب إل. بلانش " كانت اصغر الخطوات تتخذ بصعوبة بالغة. فقد كان العدو يقفز من خلف كل صخرة وكل شجرة. كان الروس يسقطون حيث وقفوا. لم يتمكنوا من الرد على نيران اعدائهم، الذين يظهرون مثل البرق ويختفون على الفور. لم يتمكن من العودة الى المعسكر احياء إلا القليل ".

عام ١٨٤٥، زحف الجنرال فورونتسوف، قائد الجيش الروسي في القفقاس، على بلاد الشيشان مع فرقتين. فقد جيشه المؤلف من عشرة آلاف ثلاثة جنرالات، مئتا ضابط و٣٥٣٣

جندي في هذه الحملة. بعد كل تقرير عن مثل ذلك الإخفاق العسكري في القفقاس، دأب الأباطرة الروس على تغيير جنرالاتهم القادة، متهمينهم بانعدام الكفاءة في قيادة العمليات العسكرية الفاعلة. بالاضافة الى ذلك، فقد استمرت روسيا في زيادة حجم قواتها المسلحة في هذا الإقليم.

فمثلاً، كان هناك جيش روسي قوامه ٥٠ ألف جندي مركَّزاً في القفقاس الشمالي عام ١٨١٩، بدون حساب القوزاق. فيما بعد، واثناء قيادة ييرمولوف، ارتفع عدد افراد الجيش الروسي في هذا الإقليم الى ٧٥ الفاً. منذ العام ١٨٣٧، تم تشكيل ٤٧ كتيبة جديدة هنا: تمت زيادة عدد الكتائب في الألوية. عام ١٨٤٠، أضيف ٤٠ الف جندي آخر الى الجيش الروسي في هذا الإقليم.

قبيل اندلاع حرب القرم ( ١٨٥٣ - ١٨٥٦ )، كان هناك ٢١٠ آلاف جندي روسي و ٨٠ ألف فارس قوزاقي ينفذون العمليات الحربية في بلاد الشراكسة. بعد الحرب، جرى تعزيز هذا الجيش ب ٢٤ الف جندي روسي من المشاة، لوائي فرسان، مدفعية وأسلحة أخرى. نقلت هذه القوات المسلحة الروسية الى القفقاس من اجل تنفيذ الحل النهائي للمشكلة القفقاسية.

فيما يلي الوصف الذي قدمته ليزلي بلانش لإحدى لحظات زيادة الجيش الروسي في القفقاس عام ١٨٤٣. " كان يجب تعزيز جيش القفقاس على الفور، كما قيل للجنرال: ستة وعشرين كتيبة، أربعة ألوية من القوزاق، واربعين مدفعاً ضخماً، بالإضافة الى تعبئة الرتب الموجودة في الموقع باثنين وعشرين الف ممن انتهت مدة خدمتهم والمجندين المدربين حديثاً. "كتب القيصر " بالنسبة الى خطتك للعمل، فسوف يرسل لك وزير الحربية تعليمات كاملة. سيكون قبول هذه الافكار بالكامل، أو جزئياً، عائداً اليك، على ان تتذكر على الدوام انني اتوقع نتائج مماثلة لهذه الامكانيات الهائلة ". أنهى رسالته بالقول انه لا ينوي ترك التعزيزات الموكل بها الى نيدهارت في القفقاس، الى ما بعد شهر كانون الأول عام ١٨٤٤ تحت أية ظروف. باختصار، يتعين على نيدهارت ان يكسب الحرب خلال ذلك العام ".

كتبت كذلك " كان الرجال رخيصون في روسيا. جنود الاحتياط لا نهاية لهم، كان الرجال يجندون من السجون والمناجم، حتى لا يتم تسجيلهم، اما الاقنان، فكان يؤتى بهم من سيبيريا...... " لم تكن الأرقام تسجل بدقة على الورق مطلقاً: رغم انه يعتقد بأنه مات في حملات القفقاس نصف مليون روسي بين الاعوام ١٨٣٤ – ١٨٥٩.

تكبدت روسيا خسائر رهيبة في الحرب الروسية - الشركسية. فقد كان الجيش المؤلف من ٢٠٠ الف جندي يخسر ٢٠ الف رجل سنوياً في القفقاس. كل سبع سنوات، كان يموت ١٢٠

الف رجل في هذا الاقليم. سقط في هذه البلاد مليون ونصف جندي روسي منذ ايام كاثرين الثانية وحتى عام ١٨٦٤. على أية حال، لايعكس هذا الرقم خسائر القوزاق، لانهم لم يعتبروا جزءاً من الجيش الروسي النظامي.

المؤسف أن الشراكسة لم يتركوا خلفهم تاريخاً مكتوباً عن هذه الحرب. كل البيانات التي نقدمها هنا مستقاة من المصادر الروسية في زمن أوآخر. لذلك، فهي مبنية على أسس متحاملة بدرجة رهيبة، مشوهة ومن جانب واحد. فالمعلومات تصور الروس على انها الأمة المتمدينة التي جاءت الى هنا لتضع نهاية الغارات الشركسية الوحشية، غير المتمدنة وجلب السلام والنظام الى إقليم الاحتلال. ربما، ظنوا ان ذلك يفترض فيه أن يبرر الغزو الروسي في بلاد الشراكسة ويمنح روسيا الحق في ذبحهم بلا رحمة. يبدو أن روسيا قد نجحت في اقناع الأمم المتحضرة في العالم انها يجب ان تنفذ تلك المهمة بدون معارضة. على أية حال، فقد قوبل العدوان الروسي بمقاومة شرسة من السكان المدنيين للأمة الشركسية الصغيرة، بحيث ارغم الامبراطورية القيصرية على ان ترسل ضدها قواتها المسلحة الهائلة والاستمرار في ارسال التعزيزات من عام الى آخر ومن عقد الى الآخر.

يقول المؤرخ سبنسر ان الشراكسة كانوا يقولون قبل كل معركة " لقد انتزعونا من زوجاتنا وصغارنا، لقد احرقوا قرانا، دمروا قطعاننا الماشية والاغنام، وخربوا اراضينا! لقد حانت ساعة الانتقام " ثم ينشدون الأغنية الشعبية التالية:

إسمع! إسمع! ان البوق يصدح!
هيا، الى التلال، هيا:
نقفز بخفة فوق القمم والمهاوي
كما الوعول عند انبلاج النهار
ستتقدم لنذبح العدو:
موتوا ايها " الأورا " المكروهون!
ليسدد الانتقام الضربة –
فلينطق السهم والرصاصة.
يدوِّي سقوط قذيفة المدفع عالياً،
تصدح الابواق، وتدق الطبول،
تصطدم السيوف المتبارية،
بين الصخور والتلال المحيطة.

نقاتل من اجل الذين نحبهم،
للحرية والحياة:
ياتحه! ... يامن تحكم من عليائك
احمنا في هذا الصراع
ستلقي الشمس الغاربة
فوق البحر احمرارها الدامي:
قبل أن يتخذ شعاعها الأخير جناحاً
سيشرق فوق الاوروس الميتين
انتقم!انتقم! لموتنا!
اصوات من قبور آبائنا:
تلعن بانفاسها المغادرة
خذ، ياأوروس، خذ قدرك!
يا ظلال أبنائنا، انظروا،
لقد وجد العقاب فريسته:
لتشهد الأرض والسماء
اننا انتصرنا، اننا كسبنا النهار!

تخلت الامبراطورية العثمانية عن شمال القفقاس ( الذي لم تتملكه أبداً ) بعد نهاية الحرب الروسية – التركية عامي ١٨٢٨ – ١٨٢٩ الى روسيا، وبدأت الامبراطورية الروسية عملياتها العسكرية من اجل إخضاع " رعاياها " الجدد فعلياً. استجابة لذلك، عقد الابزاخ، الشابسوغ، الوبيخ والقبائل الشركسية الأخرى ( مؤتمر الولاء القومي ) عام ١٨٣٠ ووحدوا جهودهم ضد العدوان الروسي. أرغم التصعيد المستمر للعمليات العسكرية الروسية في بلاد الشراكسة، القائمين على مؤتمر الولاء القومي على ارسال نداء – " إعلان استقلال بلاد الشراكسة " – الى جميع الحكومات الصديقة في العالم.

كتب الشراكسة: " لا ينبغي لأمة عظيمة مثل انجلترا، التي تتجه اليها اعيننا وترتفع نحوها أيدينا، ان تفكر فينا مطلقاً، اذا كانت ستفعل ذلك لتظلمنا. لا ينبغي لها ان تفتح أذنها للخدع الروسية، بينما تغلقها عن صلوات شعب بلاد الشراكسة. لتحكم بالوقائع، بين شعب موصوف بالبربرية، وبين من يفترون عليه! "

مرة أخرى، يقولون باللغة الجريئة لرجال صمموا على الحياة أو الموت مستقلين " نحن مستقلون: نحن في حالة حرب، نحن المنتصرون. لقد فتح ممثل الامبراطور وجنرالاته وقادته – ممثلو ذلك الامبراطور الذي يعدنا ضمن اتباعه في اوروبا، الذي يعلِّم بلادنا على الخارطة بأنها ملكه – فتح الإتصال مؤخراً مع الشراكسة، ليس ليعرض العفو على الثورة، بل ليساوم على تراجع عشرين ألف رجل، محاصرين من قبل شعبنا، ولاتخاذ الترتيبات لتبادل أسرى الحرب ".

سحقت القوات المسلحة الروسية التابعة للأمير بارياتينسكي مقاومة الشيشان في شرق الإقليم. استسلم الشيخ شامل الى مارشال الميدان بارياتينسكي يوم ٦ أيلول عام ١٨٥٩. بحلول هذا الوقت، لم يبق خارج سيطرة القوات الروسية المسلحة سوى أراضي الابزاخ، الحاكوش، الشابسوغ، الوبيخ وقسم من اراضي البجدوغ. كذلك انتقل عدد كبير من الشراكسة الذين احتل الروس اراضيهم، الى هناك.

عام ١٨٥٩، صعَّدت القوات الروسية ضغوطها. عقد الابزاخ، الشابسوغ والوبيخ "خاسه" ( مؤتمراً ) صيف عام ١٨٦١، للتصدي بفعالية اكبر، وشكلوا حكومتهم، التي يرأسها " مجلس بلاد الشراكسة الحرة ". احاطوا الروس وجميع القوى الصديقة علماً بذلك على الفور.

جاء في الخطاب الذي ارسلوه الى القنصلية البريطانية في سوخومي " في اليوم السابع عشر من ذي الحجة عام ١٢٧٧ ( الثالث عشر من حزيران عام ١٨٦١ )، دعي جميع الشراكسة الى المجلس، لاستعادة السلطة وتأسيس الاستقلال. قرروا بالإجماع تأسيس اتحاد غير عادي...... شكلوا مجلساً من خمسة عشر من العلماء والحكماء، سموه "المجلس الحر العظيم". قسَّم المجلس الإقليم الى ١٢ منطقة، وعين لكل منطقة مفتياً، وقاضٍ ومختار لتنفيذ أوامر المجلس والعمل بانسجام مع المجلس الحر العظيم. وجه الشراكسة نداءً الى انجلترا لتقدم لهم المساعدة في صراعهم من اجل الاستقلال. على أية حال، فقد جاءت المساعدة، ليس من القوى الاوروبية، بل من الوطنيين البولنديين. انحاز مئات من البولنديين المنفيين الذين خدموا في الجيش الروسي. الى صفوف الشراكسة.

حتى المراهقين الشراكسة قاوموا العدوان الروسي. لا يملك تاريخ العالم أي شبيه للشجاعة التي دافع بها الشراكسة عن حريتهم. عبَّر كارل ماركس مراراً عن اعجابه بفدائية الشراكسة في صراعهم لأجل ارضهم في صحيفتي " نيويورك تايمز " و" الهيرالد تريبيون ". اجبرت الاساليب الوحشية للعمليات العسكرية والاعمال الشريرة للجيوش الروسية في القفقاس جان كارول على ان يعلن " ان اكتساح شمال القفقاس من قبل روسيا هو احدى اكثر

الصفحات المحزنة في التاريخ حول بربرية العالم. احتاجت روسيا الى ستين سنة من التوسع العسكري والإبادة الجماعية حتى تسحق الجبليين... "

مع نهاية العام ١٨٦٣، كانت روسيا قد نجحت أخيراً في احتلال اراضي الابزاخ والشابسوغ. عام ١٨٦٤ سحقت روسيا مقاومة من بقي من الوبيخ. أجبر جميع الوبيخ. باستثناء اولئك الذين يسكنون منهم في اقاليم أخرى من شمال القفقاس، على الخروج الى الامبراطورية العثمانية.

يوم ٢١ أيار عام ١٨٦٤، اكَّد الأمير العظيم ميخائيل – القائد العام لجيش كافكازسكي (الجيش الروسي في القفقاس) – في الأمر اليومي "الاكتساح النهائي لغرب القفقاس ونهاية الحرب القفقاسية". نورد هنا كيف استجاب إدموند بيلز في انجلترا لهذه الحادثة المأساوية " انه حقاً حدث محزن وجاد، ان جنساً من الرجال الأحرار والمقاتلين الذين حافظوا على حرياتهم غير مدنسة عبر قرون طويلة، بينما نهضت سلالة بعد الأخرى وأمة بعد أخرى فازدهرت ثم ذبلت من حولهم: الذين يرجع وجودهم القومي الى حقبة تسبق سجلات التاريخ، الذين كانوا موجودين قبل ان يوجد الاغريق وروما: الذين كانت أرضهم موطناً للجمال، الفروسية، والرومانسية، التي خلدتها قصائد الشعراء الأسياد منذ القدم، وحنطتها في الاساطير الخالدة: جنس من الرجال الأحرار والمقاتلين الذين لم يخضعهم الاسكندر أبداً: والذين لم يفتح نسور روما الامبراطورية اجنحتهم فوق حصونها الصخرية منتصرين أبداً...... انه امر محزن ويبعث على الصدمة التفكير بان مثل هذا الجنس يجب إبادته! ".

وفر جيش اداغومسكي الروسي الحماية للمستوطنين الروس الجدد الذين انتقلوا الى ضفاف نهر خابلا بعناد وباتجاه نهر الجبغا من ٢٤ كانون الأول عام ١٨٦١ وحتى الثالث من تموز عام ١٨٦٢.

• • •

## المراجع


1. Prof. S. K. Bushuev، M. G. Autlev، E. L. Kogesaw، Ocherki Istorii Adygheii (Studies in the History of Adyghey)، Adygheiski Nauchno Issedovatelski Insitut Yazyka، Literatury e Istorii (Adyghey Scientific-Research Institute of the Language، Literature، and History)، Maikop، 1957.

١– دراسات في تاريخ الأديغي .

2. Semen Esa-dze، Pokorenie Zapadnogo Kavkaza e Okonchanie Kavkazskoi Voiny (The Conquest of the Western Caucasus and the End of the Caucasian War)، Maikop، Izd. (the Publishing House، "Meoty"، 1993.

٢– اكتساح القفقاس الغربي ونهاية الحرب القفقاسية .

3. R. Traho، Cherkesy (Circassians)، Munchen، 1956.

٣– الشراكسة .

4. A. K. Sheugen، G. A. Galkin، N. E. Aleshin، A. A. Kushu، B. E. Sheugen، Zemlia Adyghov (The Land of the Adyghas)، Maikop، 1996.

٤– أرض الأديغة .

5. Dr. N. A. Smirnov، Z. V. Anchavadze، N. E. Gurevich V. P. Krikunov، T. K. Kumykov، I. F. Muzhev، K. M. Sabanchiev، Istoria Kabardy s Dreneishikh Vremen do Nashikh Dnei (The History of Kabarda Since the Most Ancient Times to Our Days)، Moskva (Moscow)، 1957.

٥– تاريخ قباردیا منذ العصور الاقدم حتى ايامنا .

6. N. Berzeg، Izgnanie Cherkessov (The Expulsion of the Circassians)، Maikop، 1993.

٦– تهجير الشراكسة .

7. E. Astavtsaturian، Oruzhie Narodov Kavkaza (The Weapons of the Peoples of Caucasus)، Moskva (Moscow)، 1995.

٧– اسلحة شعوب القفقاس .

8. Circassian World (magazine)، Spring'98، 1; Summer'98، 2، and July، 2000، Moscow.

٨– العالم الشركسي .

9. Capt. Spencer، Turkey، Russia، the Black Sea and Circassia، London، 1854.

٩– تركيا ، روسيا ، البحر الاسود وبلاد الشراكسة .

10. Edmund Spencer، Esq.، Travels in the Western Caucasus ،vol. I and II، London، 1838.

١٠– رحلات في القفقاس الغربي.

11. S. K. Khotko، Ocherki Istorii Cherkesov (Studies in the History of the Circassians)، St. Petersburgh University، 2001.

١١– دراسات في تاريخ الشراكسة .

12. S. K. Khotko، Istoria Cherkesii (The History of Circassia)، St. Petersburgh University، 2001.

١٢– تاريخ بلاد الشراكسة .

13. R. I. Makhosh، Zov Rodiny (The Call of the Motherland)، Maikop، 2002.

١٣– نداء الوطن الأم .

14. M. K. Meretukova-Neguch، Tuguzhuko Kyzbech، Maikop، 1999.

١٤– دوغجوقه كيزبيتش .

15. J. A. Longworth، Esq.، A year Among the Circassians، London، 1840.

١٥– سنة بين الشراكسة .

16. James Bell، Residence in Circassia،Vol. I and II، London، MDCCCXL.

١٦– الإقامة في بلاد الشراكسة .

17. John F. Baddeley، The Rugged Flanks of Caucasus، Vol. I II، London، 1940.

١٧ – الجوانب الوعرة للقفقاس .

# الفصل السادس
# الإبادة الجماعية للأمة الشركسية

## طبيعة وسبب الإبادة الجماعية

ليس هناك ما يماثل الإبادة الجماعية التي اقترفتها روسيا ضد الأمة الشركسية في تاريخ الانسان من حيث الوحشية، حجم القوات العسكرية التي ارسلتها لتلك الغاية، وفي استمرارية الوقت الذي دأبت على تحقيقه. كانت الحرب الروسية – الشركسية التي وصفناها في الفصل السابق، جزءاً من عملية الإبادة الجماعية. كانت عملية طرد الشراكسة من اراضي موطنهم وتوطين القوزاق فيها، والتي بدأنا نشاهدها خلال الحرب الروسية – الشركسية، هي البداية للمرحلة النهائية لإتمام تلك الابادة الجماعية المخطط لها بشكل جيد والمنفذة بنمطية منظمة.

اذا كان تعريف "الإبادة الجماعية" يعني "القضاء الكلي على شعب أو أمة" فقد بدأت روسيا في تنفيذه ضد بلاد الشراكسة منذ حكم بطرس الأكبر، الذي اعتلى العرش عام ١٦٨٢. فقد سعى الى بناء اسطول بحري من اجل اندفاعه نحو البحار الدافئة. لايجاد ساحل له، فقد حارب الاتراك أولاً واستولى على مدينة آزوف منهم عام ١٦٩٦. بعد ذلك بدأت روسيا توجه جهودها للاستيلاء على ساحل البحرالاسود الشركسي من اجل بناء موانئ واسطول روسي عليه.

اكثر من ذلك، فقد بدأت روسيا تهب الاراضي الشركسية حتى في عهد كاثرين الثانية، كجزء من الابادة الجماعية المخطط لها في بلاد الشراكسة. فقد انعمت على قوات قوزاق تشيرنومورسكي بجزيرة فاناغوريا ( شبه جزيرة تامان ) بمنتهى الأريحية، مع كل الاراضي الواقعة على ضفة اليمنى للكوبان، من مصبه في منتج اوست – لابينسكي، حتى تشكل ضفة نهر الكوبان من جهة ومن الجهة الأخرى بحر آزوف حتى آيسك، حدود الأرض العسكرية. ظلت كل هذه الاراضي، حتى هذا الوقت، تابعة للشراكسة.

حسب سجلات السلطان دولت – جيراي فقد كانت قرية كوشميزوكو (بستان كوشميزوكو) واقعة حيث تقع اليوم كروغليك، ضاحية ايكاتيرينودار ( كراسنودار ). هنا عاش البجدوغ، الذين كان قائدهم كوشميزوك. بعد تأسيس ايكاتيرينودار، انتقل بعض هؤلاء الشراكسة الى الضفة اليسرى للكوبان، وهاجر قسم آخر منهم الى قباردا وبنى هناك قرية أخرى. كوشميزوكو، والتي ماتزال قائمة ( حتى العام ١٩١٠ )

يعدد اسخاد خازريتوفيتش شوجن في كتابه " بلاد الاديغه " صفحة ٨٩، " الكورينات " (المستوطنات القوزاقية التي تم تأسيسها في الكوبان ذلك الوقت، وهي:

ايكاتيرينوفسكي، باتورينسكي، بوبوفيتشيسكي، (اصبحت اليوم ستانيتزا كالينينسكايا)، فاسيودينسكي، نيزامايفسكي، ايركليفسكي، شيربينوفسكي، تيتاروفسكي، شكورينسكي، كورينيفسكي، روجيفسكي، كيسلياكوفسكي، ايفانوفسكي، كولينوفسكي، سيرجييفسكي، دينسكي، كريليفسكي، كانيفسكي، كورسونسكي، كالنيبولوتسكي، نيجه ستيبلييفسكي، فيشه ستيبلييفسكي، دجيريلييفسكي، بيرياسلافسكي، بولتافسكي،ميشاستوفسكي، مينسكي، تيماشوفسكي، فيليشكوفسكي، ليوشكوفسكي،بلاستونوفسكي، ديادكوفسكي، فيدميدوفسكي (الآن ستانيتزا ميدفيدوفسكايا)، بلاتنيروفسكي، بلاشكوفسكي، كوشوفسكي وبيريزانسكي.

مازالت هذه الكورينات الاربعون قائمة على شكل ستانيتزات أومدن. ظهر مع هذه الأماكن في نفس الوقت، ستانيتزات اخرى أواخر القرن الثامن عشر وبدايات التاسع عشر، على الضفة اليمنى للكوبان. كانت هذه: اوست – لابينسكي، كافكازسكي، بروشنوكوبسكي، جريجوربولسكي، تيمنوليسكي وفوروفسكوليسكي. ما بين ١٧٩٤ و١٨٠١، جاء الفلاحون الروس الى هنا قادمين من أقاليم كورسكي، اورلوفسكي، وفورونيجسكي وشكلوا المستوطنات التالية: روجديستفينسكي، نوفوترويتسكي، بوجويافلينسكي – سينجيلييفسكي، كامينوبرودسكي، بيزباشبو – كروفسكي (نوفوبوكروفسكي) راسشيفاتسكي، دميترييفسكي، ايليجنسكي، ارخانجيلسكي، وغيرها. بين عامي ١٨٠٢– ١٨٠٤ تأسست ستانتيزات لادوجسكي، تيفليسكي، كازانسكي، تيميجبيكسكي وفورونيجسكي.

وصل مجموع مساحات الاراضي الشركسية التي " منحت " للقوزاق ما يقارب ٣ ملايين ديسياتين، او حوالي ٣,٢٧ مليون هكتار. كان هذا أحد اساليب الإبادة التي تنفذها روسيا ضد الشراكسة خلال الحرب الروسية – الشركسية الطويلة.

توجد وثائق أخرى تثبت ان الدكتاتورية القيصرية الروسية كانت تمتلك خططاً، بالإضافة الى خطط بطرس الأكبر، للاستيلاء على الشراكسة. بعد أن درس الامير بوتمكين - تافريشيسكي الوضع في جنوب روسيا بعد معاهدة كوتشوك - كاينارجي، اقترح " تحديد الحدود الروسية في شمال القفقاس بدقة، والاختراق تدريجياً، الى داخل البلاد في منطقة الجبليين، تحت ذريعة حمايتهم ".

قامت روسيا، بالتوافق مع هذه الخطة، ببناء: خط كافكازسكي عام ١٧٨٠، خط شريط تشيرنومورسكي عام ١٧٩٣، وخط سونجينسكي عام ١٨١٧. كتب النقيب جاستوتي في مذكرته الى الحكومة الروسية عام ١٧٧٠. " ان شعوب الجبال الذين يعيشون مستقلين، يتبعون قباردا الكبرى في كل شيء. يجب اخضاع قباردا حتى تصل الى حالة يمكن معها في المستقبل ارغامها على عمل كل شيء نريده ونطلبه " عام ١٨٠٨، كتب الجنرال ديلبوستو في تقريره الى الامبراطور الكسندر الأول " بعد ذلك ( بعد إخضاع قباردا ). يمكن إجبار جميع هذه الشعوب الى سلطة ونفوذ الحكومة الروسية......."

بدات روسيا عام ١٧٧٩ بارسال الحملات العسكرية الى قباردا، والتي كانت دائماً مصحوبة بقتل السكان، وبمصادرة قطعان الماشية والخيول. احتل الجنرال ياكوبي ثلث قباردا. قامت القوات القيصرية المسلحة عام ١٨٠٤ " بنهب كامل بلاد قباردا او تشتيت أهلها ". الأمر الذي أدى الى عملية إعادة توطين بالجملة. عام ١٨١٠ قامت حملات عقابية عسكرية روسية ارسلت الى قباردا بقيادة الجنرال بولغاكوف بنهب ٢٠٠ قرية شركسية وبلقارية واحراقها، والاستيلاء على ٢٠٠،٠٠٠ رأس ماشية. لاشك في أن هذا الأسلوب من قتل السكان كان جزءاً من الإبادة الجماعية الروسية المخطط لها ضد بلاد الشراكسة. مع أن الأرقام والبيانات القائمة متناقضة، إلا أن عدد السكان الشراكسة قد انتقص باعداد كبيرة حتى في المراحل المبكرة لتلك الحرب. فمثلاً، يقول محمد أمين "لم يكن عدد سكان بلاد الشراكسة يربو على نصف مليون". من الناحية الأخرى، فان بيانات إيه. ك. بيجيف، إم.ايه كيراشيف وآخرين، ان عدد السكان الشراكسة كان ثلاثة ملايين. جاء في النداء الشركسي "نحن أربعة ملايين" بينما بلغ الرقم الذي قدره راسم رشدي لعدد السكان الشراكسة بستة ملايين نسمة. يدعي بعض المؤلفين في معرض شرعنتهم للإبادة الجماعية ان الشراكسة هم الذين استفزوا الحرب.

كتب إن. تي ميريتوكوف كتاباً عام ١٩١٢ بعنوان "القاء الضوء على تاريخ الشراكسة" قال فيه أن الجهة المذنبة في قيام الحرب هي الشراكسة. حسب رأيه، فقد كانوا يخترقون روسيا حتى الدون والفولغا للنهب، الأمر الذي ايقظ روسيا النائمة، واجبرها على تجميع قوات هائلة للدفاع عن النفس، ثم تحريكها ضد الأديغة. رأى إف. شيربين جذور ومصادر هذه المأساة في البداية بهجمات الشراكسة على التحصينات الروسية ومستوطنات القوزاق. لذلك، زحف القوزاق مع القوات الروسية المسلحة على الشراكسة ودمروا املاكهم وبيوتهم. حسب رأيهم، هكذا "بدأت الحرب القفقاسية، التي دامت ٦٥ سنة مستمرة، من عام ١٨٠٠

وحتى ١٨٦٤" يحاول هؤلاء المؤرخون وزملاؤهم ان يبرروا الفظاعات التي اقترفتها روسيا ضد الأمة الشركسية.

طبعاً، كان السبب في الحرب الروسية – الشركسية، اكثر تعقيداً بكثير. فقد كانت لدى روسيا دوافع اكثر ثقلاً وأهمية من تلك لضم بلاد الشراكسة، خاصة بعد ان انضمت كل من جورجيا وارمينيا الى الامبراطورية منذ ايام بطرس الاكبر، وروسيا تتبع سياسة السيادة المطلقة على البحر الأسود. يوضح تقرير بوجودين الى الكسندر الثاني بجلاء موقع بلاد الشراكسة في خطط روسيا. " إن الشرق ينتمي الينا بالأحقية. يجب ان يصبح البحر الاسود موقعاً لمناوراتنا... " كانت لدى المؤرخ الروسي في. أو. كليوتشكوفسكي الفكرة نفسها " ولكن، بمجرد أن استولى على سواحل بحري قزوين والأسود في عبر القفقاس، فمن الطبيعي انهم اضطروا الى تأمين مؤخرتها من خلال اكتساح القبائل الجبلية " لاحظ في ايه بوتّو: " هذا الاكتساح ضروري تاريخياً، فرضته حاجات الدولة الروسية الملحة ". اثناء حكم الامبراطور نيقولاي الأول، كان هدف روسيا " اخضاع الشعوب الجبلية أو افناء غير المنضبطين " كتب ايه ك. شيوجين " وهذه ليست مجرد كلمات مؤثرة ففي الحقيقة، كان هدف روسيا القيصرية هو " تدمير السكان جسدياً والاستيلاء على ارضهم. فقد رأت في ذلك الأمان لتأسيس سيطرتها في القفقاس ". يشدد ايه. شحالاخوه محقاً " لم تكن الحرب القفقاسية حرب جيوش ( لان الاديغه لم يكن لديهم جيش – بل قاتلوا بميليشيا شعبية ) ، ولم تكن حرباً لأجل الاجتياح والإخضاع، بل للإفناء ".

تلقى أتامان قوات تشيرنومورسكي المسلحة " الإذن " الامبراطوري " لعبور الكوبان، الأمر الذي كان ممنوعاً بدرجة قطعية في السابق، وملاحقة العصابات المتراجعة "للهجرة – أبريك". احدى التعليمات التي تلقاها الاتامان أمرته بانزال عقوبة مثالية بالشابسوغ.

عقد الناتخواج والشابسوغ اجتماعاً في حزيران عام ١٨٣٦ قرب منطقة فاردان، كانت الغاية منه الدخول تحت حماية روسيا . عام ١٨٣٧، كتب زعماء قبائل الابزاخ، الناتخواج والشابسوغ، في ردهم على الامبراطور الروسي، " نحن مقتنعون تماماً.. بأن الصداقة والتوافق سيحلان بيننا عندما يتم سحب جميع جيوشك وتحصيناتك خلف نهر الكوبان، وفي تلك الحالة ستكون كلنا جاهزين للخضوع بالإجماع ".

رغم ذلك، لم تكن السياسة الرسمية للدكتاتورية محسوبة على أساس التسوية السلمية للمسألة، بل على طرد الشراكسة بالقوة من اراضيهم وتوطين ستانيتزات القوزاق على هذه الاراضي "المحررة". ظل نداء القادة الشراكسة للامبراطور الروسي بدون اجابة. واستمر

الاستيلاء على الاراضي الشركسية. عام ١٨٤٠، تم تأسيس ٣٦ ستانيتزا قوزاقية، وقد تم نقل خط الشريط، الذي كان بحماية لوائي كوبانسكي وكافكازسكي من الكوبان الى لابا في هذه السنة. تشكل فصيل لابينسكي تحت قيادة الجنرال زاس، لتنفيذ هذه الخطة. بحلول الربيع، اصبح خط لابينسكي محمياً من الجبليين بتحصينات زاسوفسكي، ماخوشوفسكي وتيميرجويفسكي، وفي عام ١٨٤١، بستانيتزات فوزنيسينسكي، لابينسكي، تشامليكسكي و أوروبسكي.



الجنرال زاس

ذهب المستعمرون مع طابور القوات المسلحة المهاجمة، لكن فصائل ضاربة أصلية من الجنود الروس النظاميين والقوزاق كانت " تطهر " المنطقة من الجبليين. " اجتاحت الجيوش القيصرية اراضي الجبليين مثل الأعاصير، تاركة خلفها آثار دامية واكواماً من الخرائب ".

كان القانون الرئيس الذي تستخدمه روسيا هنا هو القوة. اعترف الجنرال ييرمولوف، قائد جيش كافكازسكي بنفسه بذلك. فقد ادعى " وحده الخوف من الاسلحة الروسية يمكنه ان يبقي الجبليين في حالة إذعان " ودمر ليس فقط الجبليين، بل أيضاً مساكنهم،بساتينهم، حقولهم، حبوبهم وتبنهم.

اعلن بسخرية "نحن بحاجة الى الاراضي الشركسية، ولكن ليست بنا أية حاجة الى الشراكسة أنفسهم" كان التلميذ النجيب "للجنرال الدموي" هو الجنرال زاس. إن كلماته الصريحة هي عملياً تكرار لكلمات معلمه " تريد روسيا ان تكتسح القفقاس بأي ثمن " ثم سأل " وكيف نكتسحهم، اذا لم يكن بالرعب؟ " أعلن كذلك " إنني اقتل الشراكسة كما يحلو لي ويسر قلبي ".

حاصرت الجيوش القيصرية الشراكسة الغربيين وضغطت عليهم من الجانبين في الفترة الأخيرة من الحرب: من خط كافكازسكي بمحاذاة نهر الكوبان، ومن ساحل البحر عبر خط

تشيرنومورسكي. بلغت القوات المسلحة التي حشدتها روسيا ضد الشراكسة ٧٠ كتيبة، فرقة فرسان، ٢٠ لواء قوزاق، و١٠٠ مدفع. في المجموع، وحسب بيانات كيراشيفا وآخرين، فقد بلغت القوات المسلحة الروسية المسماة "جيش كافكازسكي" التي عملت ضد الجبليين عام ١٨٥٩ نحواً من ٣٠٨ آلاف رجل. كان جيشاً هائل الحجم، لكن الأمة الشركسية الصغيرة قاومته بشجاعة لخمس سنوات أخرى.

هكذا يصف إم. فينيوكوف، شاهد عيان، طبيعة الحرب التي كانت روسيا تنفذها ضد الشراكسة: استمرت الحرب بقسوة متصلبة لا تعرف التوقف. كنا نتحرك الى الأمام خطوة بخطوة، ولكننا نخلي كل الأراضي التي تخطو فوقها قدم الجندي، بلا رجعة، من الجبليين. احترقت قرى الجبليين بالمئات: بمجرد ذوبان الثلوج، كانت المحاصيل تدمر بالخيول أو حتى بالدوس بالأرجل. اذا استطعنا ان نلقي القبض على سكان القرى بشكل غير متوقع، كانوا يرسلون الى البحر الاسود في قوافل فورية، ومن هناك يشحنون الى تركيا. لم يخجل القادة القيصريون العسكر من افعالهم الدموية، فقد كتب العقيد شاراب " اتذكر، انه في احد اجمل ايام بداية الصيف، تحركت قوتنا بقيادة الجنرال بابيتش، مثل الجراد الى اراضي الجبليين الرائعة وحقولهم الغنية المذهلة من القمح، الشوفان، الذرة البيضاء والصفراء، ودمرناها تحت أرجل الجنود والخيل والمدفعية: كانت القرى، المبعثرة في احياء جميلة، تحترق، وبرغم الدخان المتصاعد منها، اوراق الغابات المحيطة الجديدة بلون الزمرد، الى لون بني غير طبيعي ". صرح المفكر الرئيس لهذه الإبادة الجماعية، الكونت ايفدوكيموف بوضوح، عن الهدف، و " الاستراتيجية ". خلف الإخلاء القسري للشراكسة من وطنهم التاريخي. كان مقتنعاً بقوة، حسب رأي فينيوكوف، بان افضل نتيجة للحرب الطويلة المكلفة بالنسبة لروسيا هي اخلاء جميع الجبليين خلف البحر. فعل كل مابوسعه لتقليص اعداد الشراكسة الباقين وجعل ظروف الحياة قاسية بالنسبة لهم. هناك العديد من الوثائق التي تشهد بقوة على ان الحكومة الروسية كان لديها نية حازمة " بتطهير " شمال غرب القفقاس (بلاد الشراكسة) من سكانها الأصليين.

عام ١٨٦٠، بدأت روسيا بنزع الشراكسة بالقوة من الجبال الى سهول الكوبان، وبتوطين ستانيتزات القوزاق بشكل نمطي منظم على الاراضي الشركسية في الجبال. ارغمت هذه العملية الشراكسة على النضال بقوة اكبر من اجل حريتهم واستقلالهم، لكن القوات الروسية الضخمة تغلبت عليهم. استسلمت قبيلة الناتخواج بعد ان حصرت بين البحر وخط اداجومسكي، في ربيع عام ١٨٦٠. فقد علمت من خبرة فصول الشتاء السابقة العديدة أنها

مقدرة للهلاك من قبل القوات الروسية التي تحاصرها. يقول احد المصادر الروسية " مع بداية العام ١٨٦٠، بقي شعب مقاتل واحد، هو الشابسوغ، ضدنا، وكان طبيعياً ان يصبح الهدف الرئيس من العملية هو الإخضاع الحازم لهؤلاء، ومسألة تحتل الأهمية الأولى ".

تبعاً لذلك، بدأت فصائل اداجومسكي، شابسوغسكي و لابينسكي العمليات العسكرية ضد الشابسوغ في ربيع تلك السنة، " و أخلت " جميع المنطقة الواقعة بين نهري ابين وافيبس من سكانها الاصليين.

كذلك استمر البجدوغ يناضلون بيأس ضد المستعمرين القيصريين. كتب إن فيشنيفيتسكي في مذكراته: هاجم الجنرال بابيتش البجدوغ مرة أخرى. على الرغم من السخف والطيش الواضحين في المقاومة، فقد قرر البجدوغ القتال، والقتال بشدة، حتى النفس الأخير. عند اقتراب القوات الروسية، هب كل السكان، صغاراً وكباراً الى السلاح: اختبأ الجميع، مثل وحوش متعطشة الى الدماء، خلف الحجارة، الاشجار، السواتر، تشتعل في قلوبهم رغبة واحدة، وهي القضاء على " الجاور " المكروهين. تحت هذه الظروف، اصبح إخضاع البجدوغ امراً في غاية الصعوبة، انجازاً عظيماً " ثم يستطرد قائلاً: " كانت القوات المسلحة البطلة، بقيادة القائد البطل (الجنرال بابيتش) تستولي على أرض العدو بوصة بعد بوصة. قاتلوا هنا حتى الموت. لم تأخذهم الشفقة هنا: لم يطلبوا الرحمة هنا: مات كل من الجندي الروسي والقوزاق التشيرنومورسكي، والمقاتل البجدوغ بدون صرخة أنين واحدة. كان كل واحد منهم مدركاً أن القتال حتى الموت يأخذ مجراه. وهكذا استمر القتال من ١٨ شباط عام ١٨٥٩ وحتى الثالث من شباط عام ١٨٦٠ بدون توقف، خلال ٣٥٠ يوماً مستمرة! طبعاً، لا يذكر المؤلف أن المعركة حصلت بين طرفين غير متساويين على الاطلاق – بين القبيلة الشركسية الصغيرة، حتى بدون جيش، والجيش النظامي لروسيا، احدى اقوى الدول في العالم. كان السبب من أجلها واضحاً وبسيطاً. خجلت روسيا من الاعتراف بأنها غير قادرة على سحق الأمة الشركسية الصغيرة لهذه المدة الطويلة. كان هناك السبب الذي من اجله استخدمت روسيا تعريف "الجبليين" في الإشارة الى الشراكسة، بحيث تعطي للأجانب الانطباع الخاطئ بان روسيا تقاتل جميع شعوب شمال القفقاس.

بدأت عملية " تهدئة " الشراكسة تكتسب زخماً. رأت السلطات الروسية ان البيسليني هم "الأشد خطورة وايذاءً" بين الشراكسة، وانهم يقدمون قادة ممتازين على الدوام " لذلك، لم يكن مسموحاً لهم بالبقاء فوق اراضيهم السابقة. قيل لهم اما ان يرحلوا الى الامكنة المخصصة لهم او الرحيل الى تركيا " في اقصر وقت ممكن ". في النهاية، حسب قول شهود

عيان، حاصر الجنود القيصريون البيسليني " واقتادوهم بالقوة من وادي خودز الى الكوبان، الذي غادرت منه ٦٠٠ عائلة متجهة الى تركيا تحت حماية قافلة " واستقرت المائتا عائلة الباقية فوق الامكنة " المعطاة " لهم من قبل الروس على ضفاف اليسرى للكوبان. وهكذا تشكل " الكوز الأول من قرى عبر الكوبان ". بعد ذلك جاء دور قباردي الكوبان، الذين كانوا يعيشون خلف نهر اللابا، ثم الشيمجوي والاباظة وآخرين. رغم ذلك، فقد ادركت الكتلة الرئيسة من شراكسة عبر الكوبان المقاومة، ان الساعة النهائية لاستقلالهم قد وصلت الى نهايتها . لكنهم لم ييأسوا واستمروا يقاومون المستعمرين بعناد.

استولى الجنرال بابيتش على غيلينجيك عام ١٨٦١ " بعد أن اسلمت بيوت العدو للنيران، تقدمت القوات المسلحة الى الأمام، وبعد أن دمرت عدة قرى في محيط قلعة غيلينجيك، اكملت انجازاتها العظيمة " ذهب المستعمرون، الذين استولوا على الاراضي الشركسية " المحررة "، مع عربات " نقل " القوات القيصرية المسلحة في سنة واحدة، من ربيع عام ١٨٦١ وحتى ربيع عام ١٨٦٢، استقرت ٣٥ ستانيتزا قوزاق، مجموعة سكانها ٥٤٨٠ عائلة في منطقة عبر الكوبان. أعطي مؤسسو المستوطنات الروسية الاوائل قطع الأرض كملكية خاصة متوارثة الى الأبد.

استوطن الروس المنطقة مابين لابا وشاجواشا وكذلك بين اوروب وخودز. خلال هذه العملية، اجبر قسم كبير من الشراكسة على الرحيل خلف نهر الشاجواشا، والبقية الى هضاب الكوبان.

يوم ٢٤ حزيران عام ١٨٦١ وقع الكسندر الثاني المرسوم "الامبراطوري" المتعلق "باستيطان شمال القفقاس"الذي يقول" الآن، وبعون الله، فان مسألة الاكتساح الكامل للقفقاس قد اقتربت من الإكتمال. بقيت سنوات قليلة من الجهود المتواصلة الدؤوبة من أجل إجبار الجبليين المعادين خارج البلاد الخصيبة التي يشغلونها، واسكان شعب روسي مسيحي فوق الأخيرة الى الأبد. ان شرف انجاز هذا العمل المجيد يعود بشكل رئيس الى القوزاق قوات كوبانسكي المسلحة ". وعد الأمبراطور القوزاق بتعويض مالي وامتيازات اخرى من أجل تشجيعهم وتسريع العملية.

جاء الكسندر الثاني الى ايكاتيرينودار للتفتيش على المناطق المخصصة لإقامة مستوطنات روسية وصل يوم ١١ أيلول الى تامان، حيث قابله وفد من ٥٠٠ شركسي. اقيمت المفاوضات مع ممثلي الابزاخ في خامكيت. دعي العقيد الأمير محمد – جيراي لوف، المتحدر من عائلة اباظية متميزة، ليقوم بالترجمة. ناشد الأبزاخ الامبراطور الروسي ان لا يبعدهم

عن اراضيهم ووعدوا بالدفاع عنها ضد اعدائها مع جيوشه. كان جوابه " اعطيكم شهراً واحداً. يجب على الأبزاخ ان يقرروا ما اذا كانوا يريدون أن يعيدوا الاستقرار في الامكنة المخصصة لهم على ضفاف الكوبان، أو الانتقال الى تركيا " بعدها تحدث بشماف، اصلان بك حاجميقوه " الآن، أرى أننا لا نمتلك القوة الكافية للدفاع عن ارضنا بالسلاح. الروس كثيرون. ونحن مجرد قلة. القوى غير متكافئة.... إن رأيي هو ان نستسلم. لن يلومنا الله " عندما رأى الامبراطر أن الجمهور المحتشد قد استاء من هذه المقولة، أصفَّر وجهه.

بعد ذلك تكلم حاتربي تسي " كل أمة تولد، تنمو، تشيخ، ثم تموت، تماماً مثل الانسان الفرد. يقولون أن عمر الانسان هو مائة عام، لكن الأمة تعيش لآلاف الأعوام. لقد أحب القيصر الروسي القفقاس كثيراً وهو يشن حرباً دموية لاكثر من ستين عاماً ويريد أن يستولي عليها. على أية حال، فان أرضنا، وطننا الأم، عزيز علينا نحن أيضاً. لقد دافعنا عنه مضحين بدمائنا وارواحنا، نحن ندافع عنها، وسوف ندافع عنها في المستقبل باسم آبائنا وأجدادنا، باسم اطفالنا واحفادنا.....لقد اخبرنا القيصر أن القفقاس ستصبح روسية. ربما، ستصبح القفقاس روسية، لكن الشراكسة لن يكونوا عبيداً للقيصر، ما دامت الدماء تسري في عروقهم...."

عاد الامبراطور الى مقر قيادته على الفور. يوم ٢٧ تشرين الثاني عام ١٨٦١، تلطف بإصدار مرسوم امبراطوري لتسمية اللباس العلوي لقوات قوزاق الكوبان والتيريك المسلحة "تشيركيسكا" بدلاً من "الزي الرسمي". وصف إيه. شيوجين هذا العمل من قبل الامبراطور بأنه "تشليح" الضحية، الأمة الشركسية.

عام ١٨٦٢، استوطنت ١٥ ستانيتزا روسية اضافية في القفقاس الشمالي الغربي. كانت ابزاخسكي، باغوفسكي، بيلوريتشينسكي، جياجينسكي، داخوفسكي، ايجيروكاينسكي، ماخوشوفسكي، بسه بياسكي، بسه فيرسكي، سيفاستوبولسكي، خانسكي، خامكيتسكي، تسارسكي ( اليوم سفوبودني ) بشيخسكي، وكيليرميسكي. في اقليم ناتخوايسكي (ناتخواجيا) استوطن: أنابسكي، بلاغوفيشينسكي، فارينيكوفسكي، فيرخني ابخازسكي، جوستاغيفسكي، كريمسكي، ناتوخايفسكي، نيبيرغايفسكي، نيجني باكانسكي، نوفوروسيسكي ورايفسكي. في المجموع، استوطن في هذه الستانيتزات السبعة والعشرين، ٤٣٨٧ عائلة قوزاقية. وفر جيش اداغومسكي الروسي الحماية للمستوطنين الروس الجدد الذين انتقلوا الى ضفاف نهر خابلا بعناد وباتجاه نهر الجبغا من ٢٤ كانون الأول عام ١٨٦١ وحتى الثالث من تموز عام ١٨٦٢.

ظل السكان المحليون يعيشون بكثافة على ضفاف نهري إيل وآبين. كتب ن. فيسنيفيتسكي " لقد قرروا ان يقاوموا، فهم مازالوا يغذون الحلم غير المنطقي في الدفاع عن استقلالهم" مرة أخرى اشتعلت البيوت الشركسية واستعرت المعارك الدامية في قلب القبائل المعارضة. توجد وثيقة محفوظة في الأرشيف تشهد على الموقف غير المشرف الذي اتخذته السلطات القيصرية تجاه الشراكسة، وبشكل خاص، تجاه البجدوغ. عام ١٨٦٢، كان م. فينيوكوف يعمل على انجاز خارطة إثنية لمنطقة عبر الكوبان، تعكس منطقة البجدوغ بلون مختلف. عندما شاهدها الجنرال ايفدوكيموف قاله له:.. "إمسح البجدوغ. سوف اطردهم الى تركيا، مثل بقية الجبليين".

قيل للناتخواج في ايار عام ١٨٦٢ انه " يتوجب عليهم الانتقال على الفور الى الأمكنة المشار اليها لهم " وإلا فانهم سيجبرون على ذلك. على اية حال اذا اختاروا الذهاب الى تركيا، فانهم سيتلقون المساعدة " دائماً ". انتقل الجنرال بابيتش الى نهري بوغاتش وباقسان مع جيشه لتنفيذ هذا الأمر يوم ٢٢ تموز عام ١٨٦٢. كان قد تجمع حوالي ١٥ الف شركسي هناك، راجلين وفرساناً، صغاراً وكباراً: من الشابسوغ والناتخواج، البجدوغ وحتى الابزاخ والوبيخ البعيدين. "يقول شاهد عيان " بمجرد دخول القوات الروسية الى الوادي الضيق، هدرت الصليات من جميع الجهات وانطلقت كتل من الجبليين مثل انهيار ثلجي، باتجاه القوات الروسية. حمي وطيس المعركة. كانت في الحقيقة معركة دموية رهيبة. ضرب الجبليون قواتنا وكأنهم امواج بحر هائج على جرانيت ساحلي، مرة تلو الأخرى. كان الهجوم يتلوه هجوم آخر، مكان الشخص الذي يسقط كان يظهر عشرات، مئات و آلاف الجبليين الجدد مشهرين سيوفهم المدماة، بوجوه شوهها الغضب والجنون. تسلقوا فوق الحراب وقاتلوا الأداغوم ( الروس ) بالأيدي، قطعوا، طعنوا وداسوا بخيلهم، وهم يصرخون. لم يكونوا رجالاً، بل شياطين: لم تكن هذه معركة، بل الجحيم الجهنمي ".

ارسل الجنرال اوربيلياني تقريراً في آب من عام ١٨٦٢ يقول فيه ان القوزاق قد احتلوا جزءاً كبيراً من بلاد الشابسوغ والناتخواج، وان الجبليين محصورون في ذلك المكان بحيث سيصعب عليهم الحياة على الأرض التي بقيت في حوزتهم ".

زار الامير الاكبر ميخائيل، الحاكم العام للقفقاس، جيش الجنرال بابيتش يوم ٢٣ شباط عام ١٨٦٣، بغرض تسريع عملية " تهدئة " الشراكسة. على أية حال، كان هؤلاء مازالوا مصممين على الدفاع عن انفسهم. بكلمات شاهد عيان " جمعوا كل شيء مفيد للحرب يمكن تجميعه في الجبال المجاورة. وصل البجدوغ، الابزاخ، الوبيخ والشابسوغ الذين هربوا

الى هناك: بشكل عام، تجمع هنا ما يصل الى ١٢ ألف مقاتل شجاع معتاد على المعارك، تم نسيان الخلافات والثارات القديمة بين القبائل، ورصت الصفوف لتشكل قوة ضخمة واحدة تشتعل برغبة واحدة: تحطيم بابوك ( الجنرال بابيتش ). وقعت المعركة يوم ٢٨ شباط في بسه كوبس، بمحلة دوغاي. رغم ذلك، مرة أخرى، اثبتت المدافع انها اقوى من تصميم وشجاعة الجبليين الصامدين.

في تشرين الأول عام ١٨٦٣، استسلم الابزاخ والشابسوغ " بدون شروط ". اسكن قسم من الشابسوغ في الكوبان، وآخر في المنحدارات الجنوبية الغربية لسلسلة جبال القفقاس. جرى تكديس شراكسة آخرين، طردوا من بلادهم بواسطة القوات المسلحة القيصرية، في شريط ضيق على شاطئ البحر الأسود. كان مقرراً لهم ان يشحنوا بالسفن الى تركيا. نصح اسماعيل بك كارا باتير، وقادة آخرون من المجتمع الشركسي في استنبول الابزاخ والشابسوغ والوبيخ بالاستمرار في صراع التحرير والبقاء في ارضهم الوطنية.

بحلول نهاية العام ١٨٦٣، استولت روسيا على قسم كبير من منطقة بلاد الشراكسة والمنحدرات الشمالية لسلسلة جبال القفقاس. حسب ايه قاسموف و ك. قاسموف، ظل ١١٠،٠٦٨ شركسي في موطنهم الأصلي. منهم بقي في منطقة الناتخواج ٢٦،٦٨٤، الشابسوغ ١٦،٦٠٠، البجدوغ ٢٣،٧٨٢، الابزاخ ١٦،٣١٤، مقاطعة نيجني – كوبانسكي ٤،٣٤٠، وفيرخني – كوبانسكي ٢٦،٣٤٨ شخص. كان عدد السكان الروس في منطقة عبر الكوبان قد وصل الى ١٠٦،٠٠٠ موزعين على ٩٢ ستانيتزا. يدعي بينكوفسكي انه في عام ١٨٦٣ وحده، استوطنت ٢٠ ستانيتزا هنا، وهي: ابشيرونسكي، بجدوغوفسكي، داغستانسكي، كوبانسكي، كورغيبسكي، نيجه جورودسكي، بروسكي، بشيشسكي، سامورسكي، تفيرسكي، ايريفانسكي، شيرفانسكي، ابينسكي، اختيرسكي، جروزينسكي، ايلسكي، مينجريلسكي، خابلسكي، وشابسوغسكي. اقيمت هذه الستانيتزات بين نهري شاجواشا وبشيش، اضافة الى المنطقة بين نهري اديجوم وإيل.

في مرسومه الى الجنرال ايفدوكيموف يوم ١ كانون الأول عام ١٨٦٣، اخبرّ الأمير الاكبر ميخائيل نيقولايفيتش، قائد جيش كافكازسكي، " لقد تم اكتساح المنحدرات الشمالية للقفقاس! لقد اقترب الوقت الذي سيتم فيه تطهير المنحدر الجنوبي – الغربي من الشعب المتوحش المعادي لنا، والساحل الشرقي للبحر الاسود، الذي ظل حتى الآن غير قابل للوصول من قبلنا، سيصبح حقاً ساحلاً روسياً، بعد أن قبل بالسكان الروس ". كان هذا فعلاً السبب الرئيس الذي شنت من أجله روسيا الحرب الروسية – الشركسية بهذا القدر من التصميم

والإدامة لكل هذا الوقت الطويل. الفكرة معروضة بقدر اكبر من الوضوح في الخطاب الذي ارسله الحاكم العام للقفقاس الى امبراطور روسيا: " يمكن القول بيقين ان كل السكان المعارضين، الباقين على المنحدر الشمالي للسلسلة، سيتم طردهم من هناك خلال شتاء ١٨٦٣ – ١٨٦٤، وأن كامل هذا الإقليم سيتم تنظيفه ".

يوم ٥ كانون الأول عام ١٨٦٣، انهى الجنرال الذي لا يعرف التعب: بابيتش، عملياته العسكرية لاكتساح القفقاس الغربي، لكن الحرب ظلت مستعرة.

استسلم الابزاخ " بدون شروط "، لأنهم اصبحوا محشورين من الشرق والغرب بخطوط ستانيتزات القوزاق على نهري بشيش وشيبش، ومعزولين عن الجبال بالقوات الروسية، في شباط عام ١٨٦٤. اجبرهم الجنرال ايفدوكيموف على ترك منازلهم وأوديتهم. ساق بعضاً منهم الى سهول الكوبان، وآخرين الى تركيا.

" وهكذا " حسب تقرير كالتسوف الى سانت بطرسبرج " لم يبق جبلي واحد على المنحدر الشمالي للجزء الجنوبي من جبال القفقاس: أخلي المنحدر الجنوبي، حتى شاطئ البحر من خليج نوفوروسيسك وحتى طوابسه، بشكل كامل من جميع انواع السكان " بحلول ربيع ١٨٦٤، " أخلي " كل اقليم عبر الكوبان، وكما يقول شهود عيان، دفعت الجيوش القيصرية بالجبليين، مثل الماشية، الى ساحل البحر الأسود.

قرر الجنرال بنهاية شباط " تجديد العمليات العسكرية على المنحدر الجنوبي لإجبار القبائل التي تسكن هناك....على المغادرة " تم تنفيذ هذا العمل بالتحديد في الشتاء، حينما، بكلمات رئيس اركان جيش كافكازسكي " كان لتدمير المؤن والقرى تأثير مميت: فقد ترك الجبليون بدون مأوى على الإطلاق، بوسائل دفاع اقل و بنقص غاية في الحدة بالنسبة للطعام ".

كتب احد المشاركين في هذه الحملة في يومياته "ترتب على فصائل داخوفسكي التابعة للجنرال جيمان أن تصل الى سلسلة جبال القفقاس الرئيسة عند منابع نهر بشيش وتحتل وادي طوابسه. صدر الأمر الى الجنرال سوماروكوف بالتقدم على رأس قوة جبغوفسكي الى حوض نهر شابسوخه والتوجه من هناك الى مصب نهر طوابسه للانضمام الى قوة داخوفسكي: وبحيث يعمل القسم الباقي من قوة جبغوفسكي من اتجاه بسه كوبس والانضمام الى قوة بشيخسكي. يوم ٢١ شباط، عبرت قوة داخوفسكي، تحت القيادة الشخصية للجنرال ايفدوكيموف، الممر الرئيس لسلسلة جبال القفقاس ووصلت الى مصب الطوابسه، حيث

استولت على حصن فيليامينوفسكي. نتيجة لهذه العمليات، تم إخضاع جميع القبائل الجبلية التي تسكن بين طوابسه وبسه زوابسه. في نفس الوقت، وصل قسم من قوة جبغوفسكي الى مصب نهر شابسوخه مروراً بمنابع نهر شيبش. بحلول الأول من آذار، زحفت قوة بشيخسكي التابع للجنرال جرابه من منابع بسه كوبس الى وادي طوابسه، وبعد أن اخلى السكان من اعالي مجرى النهر، دخلت حصن خاديج، الواقع على المنحدر الجنوبي...." يكتب آي. درودزوف، وهو مشارك آخر: " بنهاية شباط، خرجت قوة بشيخسكي باتجاه نهر مارتا للإشراف على طرد الجبليين، وسوقهم بالقوة اذا اقتضت الضرورة ذلك. قدم منظر مدهش مفاجئ نفسه الى أعيننا: جثث اطفال، نساء، عجائز مبعثرة، مقطعة الى اشلاء، نصف مأكولة من قبل الكلاب: مهجرون مهزولون من الجوع والأمراض، بالكاد يقدرون على رفع ارجلهم عن الأرض لشدة الهزال، يسقطون على الأرض من الإجهاد، والذين كانوا يصبحون فريسة للكلاب الجائعة، وهم مازالوا احياء ".

يوم ٤ آذار، زحف الجنرال جيمان على رأس قوة داخوفسكي بمحاذاة نهر بسه زوابسه واحتل في اليوم التالي حصن لازاريف وتحصينات جولوفينسكي. من ٦ الى ١٦ آذار، اخلت قوةالجنرال جيمان المساحة من طوابسه الى بسه زوابسه على المنحدر الجنوبي كلياً. كانت نتيجة هذه العمليات الحربية إعادة توطين جماعية للشابسوغ الذين طردوا الى مصب نهر طوابسه، حيث سيشحنون من هناك الى تركيا.

في آذار عام ١٨٦٤، ارسلت قبيلتا السادزه والجيغيت الساحليتان ممثليهما الى الحاكم العام للقفقاس. واعلنوا " نحن الجيغيت، نحن شعب حر: لم نقاتل ضد أحد بشكل مكشوف ولم نكن خاضعين لأحد مطلقاً. والآن نرى كل من حولنا يقدمون الولاء للروس، ونحن نعتبر ارضنا قد اصبحت ملكاً للامبراطور الروسي. " تبع عدد آخر من الشعوب مثالهم واعلنوا " الخضوع غير المشروط ". أعطاهم الحاكم العام مهلة شهر واحد لتحضير انفسهم للرحيل الى تركيا. " في حال أخفق اي واحد في تنفيذ هذا الأمر، سيتم ارسال قوات جديدة ".

كتب احد كبار القادة العسكريين ملخصاً نتيجة استعمار القفقاس " في هذه السنة ١٨٦٤، تم انجاز حقيقة، لايوجد مايوازيها في التاريخ: شعب جبلي هائل، كان يمتلك ثراءً كبيراً فيما مضى.... اختفى بشكل مفاجئ من هذه الأرض.... لم يبق واحد من السكان الجبليين في مكان السكن السابق – كل واحد يحاول ان يخلي الأقليم من اجل تسليمه الى سكان روس جدد....." إتخذ استعمار اقليم عبر الكوبان بعداً جديداً عام ١٨٦٤، وخلال

تلك السنة وحدها، تأسست ١٧ ستانيتزا روسية جديدة هنا كانت: باكينسكي، كليوتشيفايا، كالوجسكي، جورجي – افيبسكي، مارتانسكي، نوفو – ديميترييفسكي ، بينزينسكي، سمولينسكي، ساراتوفسكي، آزوفسكي، سيفيرسكي، خولمسكي، غوربيسكي، ايميريتسكي، كاباردينسكي، كوتايسكي، خاديجسكي، بالاضافة الى سبعة مستوطنات: ستافروبولسكي، سوزدالسكي، آزوفسكي، خولسكي، لينيني، نيفتيانوي وتشيرنومورسكي.

اقتربت الحرب الروسية – الشركسية، التي دامت حوالي قرن ونصف، من نهايتها. نزف واحد من اشجع شعوب العالم على ساحل البحر الأسود تحت الحراب الروسية. فيما يلي الوصف الذي قدمه إس. سيوخوف لهذه المرحلة من انتهاء الحرب الروسية – الشركسية " حاولت القيصرة، بأقسى الاساليب غير الانسانية والحقيرة، ان تحطم مقاومة الجبليين، فدمرت مستوطناتهم، حقولهم، ومراعيهم بالنار المجردة. هاجمت القيصرة: ساقت قطعان الماشية، وساقت الرجال الأسرى كالماشية الى الداخل البعيد، سالت الدماء انهاراً، مات الرجال، منهكين ونازفين: كانت قبائل الجبليين تتراجع نحو البحر الأسود. ارتكبت القيصرة جريمة هائلة على مرأى من العالم كله – أعدمت مئات الآلاف من الجبليين بالدم البارد أسوة باسلوب منفذ الإعدام المحترف. إن الفظائع تستحق ريشة دانتي ".

احتفلت روسيا بنهاية " الحرب القفقاسية " يوم ٢١ أيار، ١٨٦٤، في وسط أرض شعب الاختشيبسو، تحديداً في جوبا ادفا ( اليوم كراسنايا بوليانا )، لكن الحرب استمرت في السنة التالية أيضاً، على شكل حرب عصابات. كان الشراكسة الذين لم يرغبوا في ترك بلادهم يلتجئون الى الجبال، ومن هناك يكملون النضال من اجل حريتهم واستقلالهم. اوجدت روسيا فصيلاً خاصاً من "القناصة" أو "المدمرين" للتعامل معهم. فيما يلي الوصف الذي قدمه احد المشاركين لانشطة " القناصة ".

"نظمت فرق من الكوماندوز الخاصة لطرد اولئك الشراكسة الذين رفضوا التخلي عن وطنهم الأم، فاختبأوا في الأماكن الكثيفة من غابات الجبال وجلسوا هناك ينتظرون موتهم بهدوء. كان هناك الكثير من اولئك الجبليين المتجولين في جبال القفقاس، حيث وجدوا قبورهم في نهاية المطاف." الواضح انه، حتى تحقق روسيا الإبادة الجماعية ضد الأمة الشركسية، اضطرت الى اتباع سياسة التدمير البدني الفعلي للسكان الشراكسة الأصليين واستعمار المنطقة الشركسية " المنظفة " من قبل الشعب الروسي – القوزاقي.

## طرد الشراكسة

الرأي السائد تقليدياً هو ان طرد الشراكسة من بلادهم الى تركيا استمر بشكل رئيس من عام ١٨٥٨ وحتى ١٨٦٥. على اية حال، فقد حدثت عملية هذه المأساة قبل ذلك بوقت طويل واستمرت بعد هذه السنوات مدة طويلة. تعود هذه المأساة فعلياً الى ثورة القبارديين ضد الطغيان الروسي، والتي بدأت عام ١٧٩٤ واستمرت على فترات حتى عام ١٨٠٥ ومابعده. سحقت الثورة. وانطوت على اعادة توطين قسم من القبارديين وراء نهر الكوبان. في ذلك الزمن، كان نهر الكوبان يشكل الحدود بين روسيا وتركيا، مقسماً الشراكسة بين الامبراطوريتين. لذلك، قام القبارديون الذين عبروا هذه الحدود اعوام ١٧٩٤ — ١٨٠٥، اوائل الشراكسة الداخلين تحت سلطان الامبراطورية العثمانية. تعود المرحلة الثانية من اعادة توطين القبارديين الشراكسة الى عامي ١٨٢١ - ١٨٢٢، وكانت أيضاً نتيجة للعمليات العقابية للقوات المسلحة القيصرية الروسية.

كانت الاعمال العقابية للقوات المسلحة الروسية تنطوي دائماً على إعادة توطين العديد من القرى القباردية وراء الكوبان، في المنطقة التي كانت خاضعة للنفوذ التركي في ذلك الوقت. حسب رأي خان — جيراي، فقد كان في قباردا ١٧٦ آول قبل عملية اعادة التوطين - ١٥٦ منها في قباردا الكبرى و ٢٠ في قباردا الصغرى. بعد اعادة التوطين، لم يبق سوى ٩٤ آول في قباردا الكبرى. بكلمات أخرى، فقد خسرت قباردا الكبرى حوالي ٦٠ آول في عامي ١٨٢١، ١٨٢٢ وحدهما.

يعزو بعض المؤرخين السبب في طرد الشراكسة الى التأثير الاستفزازي للعملاء الاتراك. ويتهم آخرون الارستقراطية الشركسية في انها حمست الشعب على سلوك هذا المنحى. وهناك آخرون أيضاً يدعون ان التطرف الديني قد دفع بالشراكسة الى تفضيل الانتقال الى تركيا بدلاً من الخضوع الى الروس الكفرة. ولكن، على كل حال، فان الحقائق الدامغة تظهر ان السبب الرئيس لطرد الشراكسة من مواطنهم الأصلية ووطنهم الأم هو السياسة الروسية، الحرب، والإبادة الجماعية، من اجل استعمار بلاد الشراكسة. فقد احتاجت روسيا الى المنطقة الشركسية وليس الشراكسة. ذلك هو السبب الرئيس والوحيد. لو ان روسيا لم تشن الحرب ضد الشراكسة وتجبرهم على الخروج من اماكن سكناهم الأصلية، لما غادر الشراكسة بلادهم المحبوبة أبداً. تلك هي الحقيقة التي لا تدحض.

تم تنفيذ طرد الشراكسة من بلادهم على ثلاث مراحل ١ - ١٨٥٨ - ١٨٦٢، ٢ - ١٨٦٣ - ١٨٦٤ و ٣ - ١٨٦٥.

في عامي ١٨٥٩ و ١٨٦٠، بدأ الاباظه ونوغاي الكوبان في مغادرة أراضيهم باعداد كبيرة. سرعان ما تبعهم القباردیون والشيشان. عام ١٨٥٩، عبَّرت ٦٦ عائلة من آول لوف عن رغبتها في المغادرة الى تركيا.

اكثر من ذلك، غادرت ٢٩٦ عائلة ( ٢٦٩٣ شخصاً ) من نوغاي عبر الكوبان، اضافة الى ٣٠٦ عائلة حتقواي (حوالي ٣٠٠٠ شخص) اتخذت نفس المسلك العملي. حسب رأي إيه. بيرج، فقد تم طرد ٣٠،٠٠٠ أباظي في الاعوام ١٨٥٨ – ١٨٦٤. في تموز عام ١٨٦١، أبلغت جميع العائلات المتفرعة من الأباظه (الباغ، الكازلبك، الباشلبك، الشاجيراي، والترAموف) بمغادرة مواطنهم. قامت هذه القبائل " باخلاء " اماكن سكنها وانتقلت الى تركيا بسبب وجود القوات المسلحة الروسية وجاهزيتها لمباشرة العمليات العسكرية على الفور. حاصر الجنود الروس ٤٠٠٠ بيسليني فجأة، كانوا قد رفضوا "بعناد" إطاعة الأوامر، ودفعوهم نحو نهر أوروب، ومن هناك غادر قسم كبير منهم الى تركيا.

عام ١٨٦١، غادرت ٤٤٢ عائلة قباردية موطنها. عامي ١٨٦٠ – ١٨٦١، طردت ٩٤٠ عائلة ( ١٠٣٤٣ شخص ) قباردية من قباردا الكبرى وارسلت الى تركيا. اعتبر الجنرال ايفدوكيموف أنه يجب طرد ١٠،٠٠٠ عائلة ( ما بين ٨٠،٠٠٠ الى ١٠٠،٠٠٠ شخص ) من منطقة الكوبان وحدها.

يمكن الحكم على حجم عملية طرد الشراكسة من الحقائق التالية: في يوم ٢١ ايار ١٨٦٤ وحده، ارسلت ٢٤٧٦ عائلة ناتخواج ( ١٦٥٠٠ شخص ) الى تركيا من ميناء أنابا. يوم ٢٧ أيار، ارسل ٥٨٤٨ من الشابسوغ الى تركيا من حصن كونستانتينوفسكي. عند نهاية عام ١٨٦٤ ابلغ رئيس منطقة الشابسوغ " بعد طرد الشابسوغ، الذين ارسلوا الى تركيا للاستيطان العادي هناك، لم يبق سوى ٩٩ عائلة في جميع مناطق السكن مقابل ستانيتزات اليزابيتنسكي ومارينسكي، وقد عبر هؤلاء عن موافقتهم على البقاء كمواطنين لروسيا ". حسب البيانات الرسمية، فقد طرد في عامي ١٨٦٣ – ١٨٦٤ ما لايقل عن ١٩٩٢٥ من السادز – الجيغيت (تبعاً لحسابات دياشكوف – تاراسوف، العدد هو ٢٥٠٠٠ شخص).

بدأت عملية الطرد الجماعي للجبليين من شمال القفقاس عام ١٨٦٥. اقدمت السلطات الروسية على ذلك فقط من اجل "تفريغ الإقليم من الجبليين الذين لا يعتمد عليهم". حسب أرقام توغويف، فقد تأرجح عدد الجبليين "المعاد توطينهم" بين ٤٠،٠٠٠ و ٥٠،٠٠٠ شخص. اضافة الى الداغستانيين، حسب رأيه، فقد قدمت اوسيتيا وقباردیا عدداً كبيراً من هؤلاء "المعاد توطينهم" حسب بيانات ایه. اوبيتشيني وبه. دي – كورتيل، فقد بلغ مجموع سكان

القفقاس الأصليين الذين طردوا عام ١٨٦٦ الى المليون شخص. يشارك إيه بيركوك، المؤرخ التركي، في هذا الرأي. إن رأي الشراكسة في عملية طردهم معبر عنه بطريقة مؤثرة في هذه الأغنية:

اخذت ترابي معي حتى الى الغربة
سبع قبضات مقدسة من كفي!
سأخبر ابني: هذا كل ما استطعت انقاذه
من وطنك الأم!

استمرت الجيوش القيصرية في الاعوام ١٨٥٨ – ١٨٦٤ في تطبيق خطة الجنرال ايفدوكيموف في " إخلاء " المنطقة الشركسية. كانت الفصائل الروسية تحاصر الشراكسة، تدمر قراهم وتحرقها، تجبر سكانها على مغادرة اماكن سكناهم الوطنية والانتقال الى السهول ذات المستنقعات حيث سادت الملاريا. استوطن القوزاق الروس على الفور في هذه الاراضي الخصيبة التي " أخليت ". وهكذا اسست ١٤٢،٣٣٣ عائلة قوزاقية، ١١١ ستانيتزا هنا مع نهاية الحرب الروسية – الشركسية.

شجعت الحكومة الروسية الشراكسة على الهجرة الى تركيا عن طريق انتزاع الأرض من اصحابها الأصليين. يجب ان يفسر هذا الأمر بدقة، كما كتب الجنرال اوربيلياني عام ١٨٦١ " السرعة والسهولة التي هجرت بموجبها قرى كاملة، ومجتمعات كاملة في بعض الاحيان، الاراضي التي خصصت لهم وهربت الى الجبال، لزيادة اعداد الناس المعادين لنا، مؤخراً، للانتقال الى تركيا ".

تكبد الشراكسة المطرودون خسائر مادية فادحة. فقد تركوا اراضيهم، بيوتهم، قطعانهم، وعملياً كل ممتلكاتهم. اصبحت كل الاراضي التي غادروها ملكاً للدولة. منع الحاكم العام للقفقاس الشراكسة من بيع اراضيهم. هبطت اسعار كل شيء الى الحضيض، بما في ذلك اثمان المواشي. كتب الجنرال تولستوي أنه في تسيبيلدا وحدها كان هناك ١١ الف راس ماشية و ٥٣٠٠٠ راس غنم للبيع بطريقة التصفية (بثمن متدنٍ جداً). لم يزد وزن الامتعة التي سمح للشراكسة باخذها معهم على السفن عن ٤ بود (حوالي ١٤٤ رطل). لم يسمح باخذ العربات، الخيل والماشية على السفن.

تعكس الحقائق التالية الجو السائد في عملية طرد الشراكسة. كتب آي. دروزدوف ..... "بعد أن استولينا على بشيخ في بلاد الابزاخ، اقتحمنا منطقة مزدحمة بالسكان: آولات على

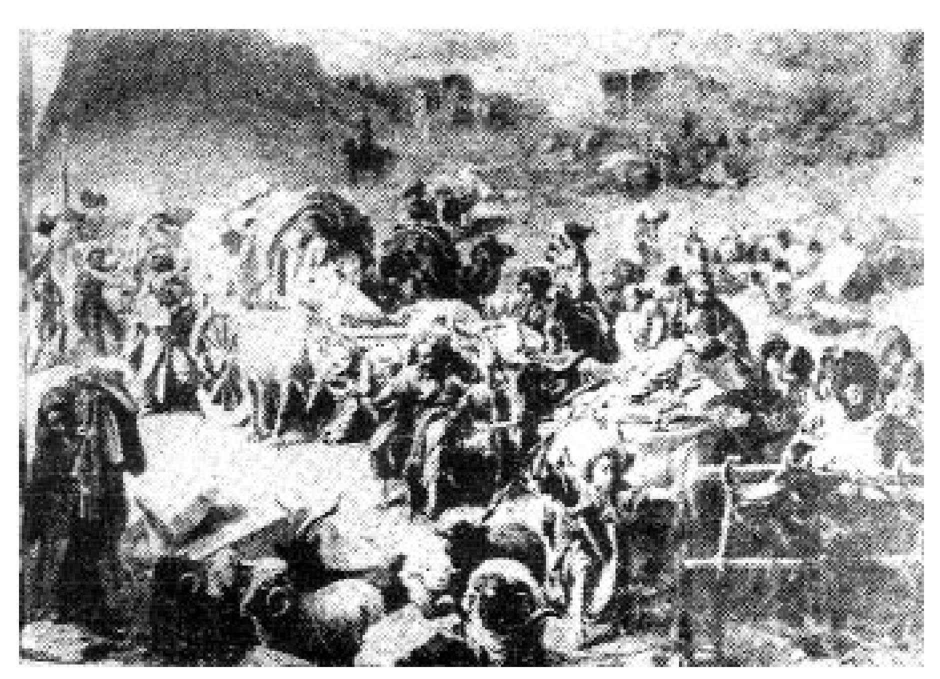
كل فيرست، او للمزيد من الدقة، فقد امتدت الآولات بدون انقطاع لخمسة فيرستات في بعض الأمكنة، وهي موزعة على شكل تجمعات. بالحكم على عدد البيوت وتموين الحبوب، يجب على الشخص أن يفترض وجود عدد كبير من السكان هنا:

ولكن، عندما كنا ندمر بيوتهم، لم يكن يخرج لمواجهتنا في العادة اكثر من رجلين او ثلاثة، حتى ذلك كان نادر الحدوث ".

بدأ الطرد الجماعي للسادز - الجيغيت عام ١٨٦٧. لم يريدوا ان يتركوا مواطنهم الاصلية. اخبر مراسل صحيفة " دروبيا " ان السكان كانوا مستعدين لتحمل أي عقاب بشرط ان لا يتم طردهم. كتب " العديد منهم، الذين لا يريدون مغادرة هذا المكان، على ما يبدو، كانوا يضربون رؤوسهم بجدران بيوتهم وجذوع اشجارهم، وكان صوت نحيبهم وبكائهم يسمع من كل مكان، عندما كانوا يطردون من بيوتهم قسراً " كتب الجنرال تولستوي ان السادز – الجيغيت. الذين نجوا من اعادة التوطين سنة ١٨٦٤، أمروا بالرحيل الى تركيا، لكنهم لم يرغبوا في الذهاب الى هناك. تظهر الوثائق حالات، حينما كان الجبليون فيها يختبئون في الجبال فترات طويلة، ليتجنبوا الطرد من بلادهم الحبيبة. لقد انطبع الحزن المّر الذي احسَّه الشراكسة لمغادرتهم وطنهم الأم في هذه الاغنية:

في غابة ماريكو
تهدر المدافع
نحن نغادر الوطن الأم
مجبرين من الله
بي – وو –ووي
نحن راحلون الى استنبول

كانت الجيوش الروسية تطرد الشراكسة من امكنتهم التاريخية وتسوقهم، قبائل كاملة، الى ساحل البحر الأسود. ارغم الناتخواج، الشابسوغ، الابزاخ، الوبيخ وقبائل أخرى، ليس فقط على فقدان ممتلكاتهم ووطنهم الأم، بل أيضاً اقاربهم واصدقاءهم وكل ما هو عزيز عليهم. بينما هم يعبرون قمم الجبال والممرات، أصيبت ايديهم وأرجلهم بقضمة الصقيع، ومات الاضعف من بينهم.



**احد مناظر طرد الشراكسة من وطنهم الأم**

**( من كتاب نهاد برزج )**

اعترف الجنرال زيسرمان: " تحمل نصف المليون من السكان المطرودين خطوة بعد خطوة، من السهل الى سفوح الجبال، من سفوح الجبال الى الجبال، ومن الجبال الى ساحل البحر، تحملوا كل فظاعات الحرب المدمرة، الحرمان الرهيب، الجوع، والاوبئة، وبعد ان وجدوا انفسهم على الشاطئ، اضطروا الى البحث عن الخلاص في الانتقال الى تركيا. "وصف العديد من المشاركين الآخرين مشاهد من هذه المأساة. إن مجرد قراءتها تجعل الشخص يرتعد بدون ارادة. كتب إيه. فونفيل (١٨٦٤)، " لقد اتيحت لنا الفرصة لنشاهد الفقر المرعب لهذا الشعب التعيس: قابلنا يومياً جماعات جديدة من الجبليين المتجهين الى الاراضي التي لم تحتل بعد من قبل القوات المسلحة: قتلت الامطار والفيضانات عدداً كبيراً من هؤلاء المهجرين، وكنا نصادف الجثث على طريقنا باستمرار. كانت المجاعة رهيبة: لقد رحبوا بنا في الآولات، لكننا كنا نهرب منها، خائفين من الإصابة بعدوى الأوبئة، التي كانت تدمر جميع سكان القرى". كتب كذلك "كبرت الكارثة العمومية، ازداد عدد المهجرين باستمرار. كان السكان يهربون على التوالي من كل قراهم التي يحتلها الروس، وعبرت مجموعاتهم الجائعة البلاد في اتجاهات مختلفة، مبعثرة المرضى والمشرفين على الموت في طريقها: في بعض الاوقات كانت حشود كاملة من المهجرين تتجمد، او تطمرها العواصف

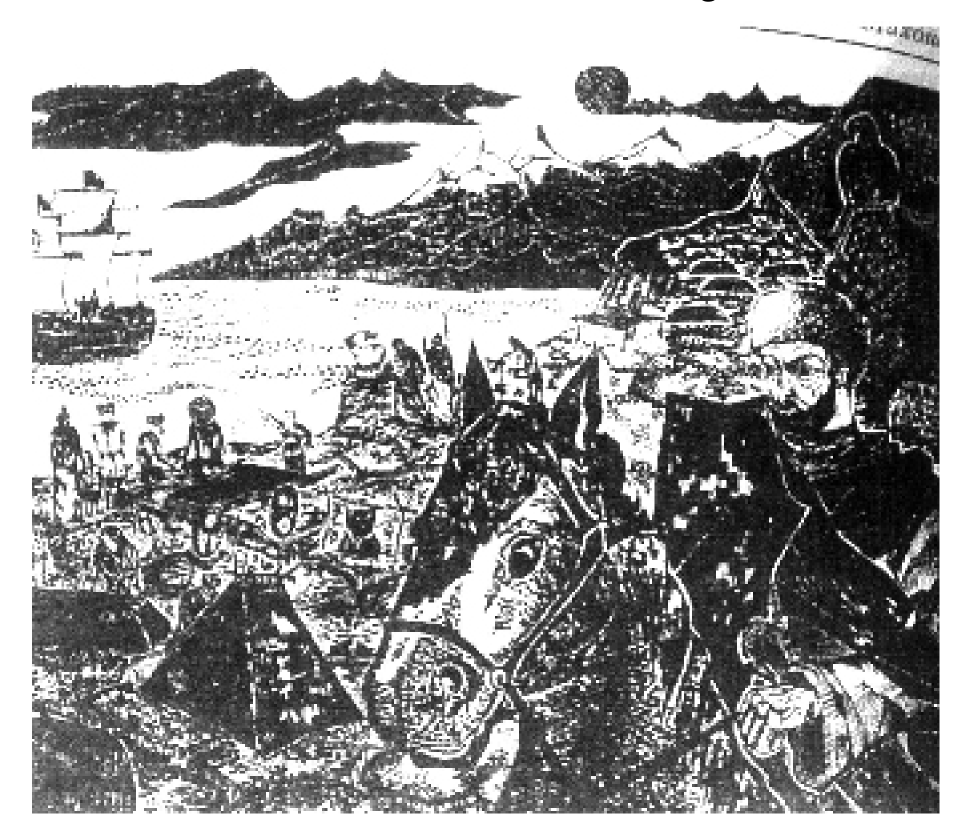
الثلجية، ولاحظنا في مرات عديدة اثناء مرورنا، آثارهم الدامية. كان الدببة والذئاب يكنسون الثلج ويحفرون ليخرجوا الجثث البشرية..."

اصبحت البيوت، الماشية، ومخزونات الحبوب العائدة للشراكسة المطرودين، ملكية للقوزاق الذين استوطنوا في أمكنة الشراكسة التي " أخليت ". يصف سيوخوف هذا الموقف بحزن وألم شديدين: " تدفقت بقايا الشراكسة المهزومين، مثل حمم البراكين، نحو ساحل البحر الأسود على الطرق العريضة. ذكرت هذه الصورة الواحد منا بتهجيرات العصور الوسطى. اصبحت المنطقة ما بين انابا وسوتشي معسكراً واحداً هائلاً: الكبائن، الحفائر، والعرائش ملأت الفضاء الواسع. نشأ سوق كبير هنا، بيع تصفية لكل الممتلكات الوطنية. كانت الاسعار متدنية بنسب غير مسبوقة. كانت السرقة العالمية قائمة تحت الذريعة الواسعة للحرب. ترك الناس المسروقون لرحمة القدر تحت السموات المكشوفة، بدون تغذية أو مأوى. قفز الجوع، التيفوس، الدوسنطاريا، والجدري الى الواجهة، وهي الرفاق التي لا يستغنى عنها في التهجيرات الشعبية الكبيرة. مات الناس على الشاطئ بالجملة ".

تركز الشراكسة المطرودون في أنابا، نوفوروسيسك، والخلجان الأخرى على الساحل. قال إيه. بيرج " لن انسى ابداً ذلك الانطباع الطاغي الذي خلقه الجبليون لديَّ في خليج نوفوروسيسك، حيث تجمع حوالي ١٧٠٠٠ شخص على الشاطئ. بحلول تشرين الثاني عام ١٨٦٤. اجتمع حوالي ٢٤،٧٩٠ من الابزاخ، الشابسوغ والبجدوغ في نوفوروسيسك. لم يغادر منهم الى تركيا سوى ١٤٩٠٠ شخص، وهلك البقية. ليس هناك من لايرتعد قلبه من منظر، مثلاً، سيدة شركسية شابة، راقدة على خرق بالية على الارض الرطبة شتاءً، تحت السماء المكشوفة، مع طفلين، احدهما يصارع سكرات الموت في تشنجاته الأخيرة، بينما يحاول الآخر أن يطفئ عائلة الجوع من ثدي الجثة المتيبسة لأمه. وقد صادف المرء مناظر عديدة مشابهة".

تجمع الجبليون جزئياً في انابا ونوفوروسيسك، وجزئياً في خلجان صغيرة على ساحل البحر الاسود، بدون اية ممتلكات. لأن اسطول النقل لم يكن كافياً بالمرة ولا مهيئاً لنقل حوالي نصف مليون شخص، فقد اضطرت مجموعة من الجبليين ان تنتظر دورها لنصف سنة، لسنة، او حتى اكثر. انتظروا طيلة هذا الوقت على شاطئ البحر تحت السماء المكشوفة، بدون اية مقومات للحياة. ماتوا من الجوع حرفياً، بالآلاف. أضيف البرد في الشتاء الى الجوع. اصبح الشاطئ الشمالي الشرقي للبحر الأسود مغطى بالجثث والمشرفين على الموت، الذين رقد بينهم مجموع الباقين على قيد الحياة، ولكنهم كانوا ضعفاء الى الحد الاقصى،

ينتظرون عبثاً ان يتم ارسالهم الى تركيا ". يصف شهود عيان آخرون مناظر رهيبة أخرى شاهدوها. يصف احدهم جثة أم يرضع وليدها من ثديها وآخر، أيضاً يصف أماً تحمل بين ذراعيها طفلين متجمدين ولا تريد أن تتركهما: الثالث، عن كومة من الاجساد البشرية، يضغط افرادها على بعضهم بعضاً على أمل الحفاظ على الدفء الداخلي والذين تجمدوا حتى الموت في ذلك الوضع، وما الى ذلك.



يقول فونفيل ان الاتراك كانوا جشعين وانانيين الى درجة انهم حملوا ٣٠٠ أو ٥٠٠ شركسي على قوارب تبلغ حمولتها في الأحوال العادية من ٥٠ الى ٦٠ شخصاً. تكونت المؤن التي حملوها معهم من بضعة اكواب من الذرة البيضاء والماء. كان الإبحار يستمر احياناً لخمسة او ستة أيام. كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر ومميتة لهؤلاء الناس التعساء تحت هذه الظروف ومع هذا القدر القليل من المؤن.

خلال الطقس السيء، كانت مياه البحر تصل الى حواف هذه القوارب المحملة فوق استيعابها، بحيث كانت تغرق لعدم قدرتها على الصمود. اولئك الذين كانت حمولتهم أقل،

عانوا من التعرض للتقاذف اثناء هيجان البحر بحيث ان الركاب المساكين كانوا يصطدمون ببعضهم لدرجة التكسير. كان الطقس الهائج يؤخر ابحارهم، فوقعوا فريسة للجوع والموت. يقول: أخبرنا البحارة الاتراك العائدون بتفاصيل المناظر المرعبة.

فقد غرقت عدة سفن بالمهجرين: وفي بعضها مات نصف الركاب على الطريق وألقي بهم في البحر " أبحر فونفيل في قارب صغير يحمل ٣٤٧ راكباً، وقد " اتخذ الرجال مقاعدهم على ظهر المركب بكثافة الى درجة اضطرت البحارة ان يمشوا فوق رؤوس الركاب " من مجموع ٦٠٠ مهجر صعدوا الى واحدة من هذه السفن، نزل على الساحل التركي ٣٧٠ شخص بعد مجرد ثلاثة او أربعة أيام.

يقول شاهد عيان آخر " العديد من المراكب الخشبية المحملة بالجبليين، كانت قيعانها مثقوبة، وبعد أن تخرج الى عرض البحر، تغرق مع المهجرين، وتبقى الأموال المخصصة للمصاريف في جيوب السلطات المسؤولة عن الموضوع. كانت هذه الحالات تسجل رسمياً على انها غرقت " بفعل العاصفة ". يدعي شاهد عيان آخر ان مالكي المراكب، بعد ان يقبضوا الأجرة سلفاً، يحملون المهجرين، يأخذونهم الى عرض البحر، يلقون بهم في الماء ويعودون بسرعة من اجل مجموعة أخرى، ويحصلون بهذا على مبالغ كبيرة من المال. هذا الفعل الذي لا يكاد يصدق مثبت من قبل مصادر أخرى أيضاً. يقول سيوخوف "........العديد من القباطنة، بعد تحميل " الكاشيرما "، ياخذون الركاب الى عرض البحر، ينزعون ثياب الركاب وينهبونهم، ثم يلقون بالحمولة الحية الى البحر، ويعودون الى الشاطئ للمزيد من الضحايا. ألقت امواج البحر، الشهود المحايدون بآلاف الجثث من الشراكسة الى الشاطئ".

عندما كان الشراكسة يطردون من مواطنهم وبيوتهم وبلادهم، ربما كان لديهم بصيص من الأمل في أن يتم الترحيب بهم في استقبال أخوي من المسلمين في تركيا، لكن حتى ذلك لم يتحقق. عندما بدأ الشراكسة يصلون الى تركيا في مجموعات كبيرة، بالآلاف وعشرات الآلاف، كشفت الحكومة التركية عن كونها غير مستعدة مطلقاً لاستقبالهم أو توفير أدنى مستويات متطلبات الحياة. نتيجة لذلك، بدأ الشراكسة يموتون بالآلاف في شوارع استنبول نفسها.

بعث الجنرال موشنين، القنصل الروسي، بالتقرير التالي يوم ٢٥ كانون الأول عام ١٨٦٣: منذ بداية الطرد وصل منهم ٢٤٧٠٠٠ الى ميناء طرابزون ومحيطه...وبقي الآن ٦٣٢٩٠ شخص. ان معدل الوفيات يتراوح بين ١٨٠ الى ٢٥٠ شخص يومياً. يعيش في سامسون وجوارها

١١٠،٠٠٠ من هؤلاء المنفيين: ان معدل الوفيات اليومي حوالي ٢٠٠ شخص. في مجرد شهرين – تشرين الثاني وكانون الأول عام ١٨٦٣ – وصل الى طرابزون ١٠٠ كاشيرما ( حوالي ١٠،٠٠٠ شخص ) : نقل منهم ٥٤٥٠ شركسي الى استنبول وإزمير وفارنا بالسفن. مات منهم ٢٤٠٠ شخص بمعدل حوالي ٤٠ شخص يومياً.... " يستطرد القنصل بالقول "عند الوصول، كان الشراكسة يوضعون في خيام مثقوبة، على التراب الذي يغرقون فيه فعلياً. التيفوس هو المرض الرئيس. يجب ان يتوقع الشخص ان تتطور العدوى في الربيع.... ان الشعب التركي يكافئ نفسه بشراء الإماء، اللاتي انخفض سعرهن بحدة....." يقول القنصل في تقريره لشهر شباط عام ١٨٦٤ انه في طرابزون " كل المقابر قد امتلأت بالقبور..." بحلول ١٨ آذار عام ١٨٦٤، بلغ مجموع الشراكسة المنفيين الذين يعيشون في " معسكر " قرب طرابزون ٢٠،٠٠٠ شخص. في المجموع، وصل الى المعسكر ما لايقل عن ٤٠،٠٠٠ شخص منذ تشرين الثاني لعام ١٨٦٣. توفي ٣٠،٠٠٠ من الشراكسة الذين وصلوا الى هنا منذ بداية عملية الطرد ولغاية أيار عام ١٨٦٤. كتب اف. ستيفينسون القنصل البريطاني في طرابزون في شباط عام ١٨٦٤ الى اللوردراسل: لقد اصبح تركيز المهاجرين الشراكسة في هذه المدينة مشكلة غير عادية. فقد نزل هنا ٣٠٠٠ شخص في الأيام الثلاثة الأخيرة. بينهم مئات يعانون من امراض سببها الجوع وكل انواع المصائب الأخرى. في الاثناء، فان الامراض تنتشر بسرعة رهيبة بين الشراكسة وكذلك بين السكان المحليين: ان معدل الوفيات من التيفوس في ازدياد. لقد اصبحت الاحياء المجاورة للمقبرة غير صالحة للسكن، لأن الاموات يدفنون بطريقة سيئة بحيث تنشر الجثث المتعفنة رائحة رهيبة: نتيجة لذلك، فان عائلات كاملة تهجر مساكنها. لقد اصبح القسطل الرئيس الذي يزود المدينة بالمياه عديم الجدوى: الشوارع والساحات مليئة بقاذورات مريعة، هناك نقص في التموين وقد اختفى الوقود كلياً ".

انزل قسم من الشراكسة المنفيين في معسكر اشكار كاله. بداية العام ١٨٦٤، كتب فونفيل عنه " اكتشفت ان اوائل المهجرين، ٢٠٠٠ شخصاً، وصلوا في اوائل الشتاء، وقد ماتوا جميعاً تقريباً.

كانوا بحاجة الى الطعام، منهكين من الرحلة البحرية والأمراض، احضروا معهم التيفوس والجدري الى طرابزون " نتيجة لذلك فقد تعرض السكان في هذه المدينة الى معدل وفيات مرعب ". يدعي مصدر آخر انه كان في المعسكر عدد اكبر من المنفيين "ان عملية التهجير في أوجها الآن: هناك ١٥٠٠٠ منفي في اشكاركاله وحدها: رغم قسوة الفصل، وضعوا تحت حماية الاوراق التعيسة لاشجار الزيتون، التي قطفوها: لعدم وجود اية أغذية معهم،

وعاشوا على الامكانيات البخيلة التي وفرتها الحكومة التركية. " يقول فونفيل انهم قسموا حسب القبائل والأودية التي جاؤا منها. انشئ المعسكر في اشكاركاله على مسافة قريبة من طرابزون، حينما بدأ سكانها يموتون باعداد كبيرة جراء التيفوس والجدري. يشير خطاب القنصل موشنين الى الجنرال كارتسوف، المؤرخ في ١٣ آيار ١٨٦٤، الى ان العديد من المنفيين مات من سوء التغذية والأمراض في معسكرات قرب طرابزون، فارنا، سينوب، سامسون وكيفكين. هناك مقابر هائلة للشراكسة المطرودين مازالت محفوظة حتى هذا اليوم.

يقول سيوخوف ان الشراكسة الذين " جاؤوا الى الساحل الاناضولي بكثير من المعاناة والصعوبات، وجدوا انفسهم في امكنة قد انتشرت فيها الأمراض الوبائية مسبقاً وماتوا منها بالعشرات والمئات والآلاف.

في ايار عام ١٨٦٤، كتب باروتسي، مفتش الصحة، الى اللجنة الصحية في تركيا أنه "في سامسون يقابل الانسان في كل خطوة هناك، المريض، المشرف على الموت، والجثث، عند بوابات المدينة، امام البقالات، في وسط الشوارع، في الساحات، وفي الحدائق ". يستطرد قائلاً " لا يقدم المعسكر منظراً أقل رعباً. من ٤٠ الى ٥٠ الف شخص في حالة فقر مدقع، مرهقين من الجوع ويغتالهم الموت، باقون هناك بدون خبز، بدون مأوى، وبدون دفن. حالياً، هناك ٧٠ الى ٨٠ الف شخص في فارنا بدون خبز. سوف يتضاعف هذا الرقم مرتين خلال أيام قليلة. " هناك معلومة أخرى تكمل وتدعم هذه الصورة " لا أحد يهتم بالشراكسة. لذلك، فهم يعيشون في فقر مدقع بين الحيوانات الميته والجثث المتروكة بلا دفن. التيفوس، الجدري والأمراض الأخرى التي جلبوها من القفقاس تدمرهم بعناية شديدة الى درجة ان العائلات كلها تنقرض. يترك المرضى بلا رعاية أو علاج: انهم يموتون على الأرض العارية، غير محميين بأي شيء من الطقس السيء ومحرومين من اية مساعدة طبية. أمر مفهوم أن اغلبيتهم تموت، وان جثثهم متروكة لتتعفن في البقعة نفسها ".

لدى شاهد عيان آخر المعلومات التالية حول الشراكسة المنفيين في فارنا. " لقد احضرونا: ٨٠ الف مهجر شركسي مصابين بعدوى التيفوس والملاريا الى مدينة فارنا ذات الميناء. ليس هناك اطباء لمجابهة الامراض، ولا أدوية ولا حتى ابسط الوسائل البدائية في النظافة أو الصرف الصحي. تم تطبيق الحجر الصحي، لكنه لم يعد منطقياً: فقد استولت الامراض على كل الناس الذين جلبوا. ان شاطئ البحر الاسود ممتلئ بجثث المتوفين. في البداية كان الاتراك يدفنون الأموات، لكنهم حينما لم يتمكنوا من المجاراة، فقد احضروا المجرمين المدانين لمساعدتهم. حتى ذلك، على اية حال، لم يخفف حدة الوضع. ثم بدأوا يلقون الجثث

ـ في البحر. بعد الغروب يطرد الجنود الشراكسة خارج المدينة، ولكن يمكن رؤيتهم مرة أخرى كل صباح، يحاولون ان يعثروا على ما يفيدهم في القمامة. لم يتعلم الناجون كيف يحصلوا على بعض الخبز الا مؤخراً ".

تصف إبنة القنصل البريطاني احد " معسكرات الموت " هذه على الساحل التركي:

" توقفوا في معسكر على الأرض مباشرة، وقد انهكتهم معاناة الرحلة البحرية الطويلة، كان المعسكر مازال مبتلاً لأن الفصل كان بداية الربيع. تكوم هؤلاء الناس الباعثين على الشفقة فوق بعضهم: رقد المريض الى جانب الميت: تجول الاحياء بينهم مثل الأخيلة. تجمعت مجموعات صغيرة من الرجال والنساء حولنا، يقودون اطفالهم ويعرضونهم للبيع على أي شخص يرغب في أخذهم. لقد كان الصغار التعساء انفسهم يتمنون بشكل واضح ان يفصلوا عن ذويهم، اذا كانوا سيحصلون على مجرد الايواء والطعام."

كتب بعض الشراكسة المطرودين الى الحاكم العام للقفقاس " نحن نفضل الذهاب الى سيبيريا على العيش في هذه السيبيريا......لقد قال الاتراك انهم سيروننا مكاناً نعيش عليه، لكن بامكان المرء ان يموت، لا أن يعيش، على المكان المشار اليه ".

قارن اسعد حضريفيتش شيوجين بين الامكنة التركية التي حشر فيها الشراكسة، وبين معسكرات الهنود الحمر في الولايات المتحدة الامريكية. كتب دولت – جيراي حاتقوقه، الذي امضى بعض الوقت في تركيا " اصبح وضع المهجرين لا يحتمل. ان كآبة القرية التركية صعبة على التخيل، لكن القرية التي يعيش فيها الشراكسة، تعصى على الوصف. انها ملتقى التعساء الجوعى الفقراء المعدمين: ليس لديهم شيء في بيوتهم. كل شيء كئيب ومهجور. يبدو في النظرة الأولى، ان جميع السكان قد انقرضوا، وانه لا يوجد روح حية واحدة في القرية. ان الاشكال المتجولة المعدمة الرثة هي لفلاحين اتراك، كانوا في السابق جبليين ذوي كبرياء –هم الآن رعايا السلطان ".

أمر حقيقي ان الشراكسة المنفيين وضعوا في امكنة ومواقف رهيبة في تركيا. لم تكن البلاد في حالة تسمح لها باستقبال مثل ذلك الفيض الكبير من الناس المرضى، الضعفاء والجوعى. لم يكن لديها اية موارد طبية او تموين غذائي للعناية بهم. املت تركيا، على كل حال، بأن يفلح هؤلاء الشراكسة قطع الاراضي غير الصالحة في البلاد. تشير وثيقة محفوظة في ارشيف وزارة الشؤون الخارجية في تركيا الى أن الحكومة كانت قد قررت توطين الشراكسة في مقاطعات تشوكوروفا، بيريجيك، والرقة. جرى توطين معظمهم في هذه الامكنة غير الصحية، خاصة في المناطق الاراضي المنخفضة القريبة من البحر الأبيض المتوسط،

حيث مات الناس هناك من الأوبئة. يقول نهاد برزج انه من بين ٧٤ ألف شركسي، اسكنوا في مقاطعة تشوكوروفا في القرن الماضي، لم يعد يوجد اكثر من أربعة آلاف اليوم. إنه مقتنع بقوة ان الامبراطورية العثمانية شجعت الشراكسة بهمة ونشاط على الانتقال الى تركيا للغايات التالية:

١ – لزيادة القوة العسكرية للجيش العثماني بمساعدة الشراكسة.

٢ – لزيادة اعداد الفلاحين.

٣ – لاستخدام الشراكسة في السيطرة على الاراضي البور، المستنقعات و القاحلة، واستصلاحها.

٤ – لزيادة النسبة والوزن النسبي للمسلمين في الاقاليم ذات الاغلبية السكانية المسيحية.

٥ – لتدعيم قوة الدولة في اقليم الامبراطورية، باستخدام الشراكسة " كحاجز " وايلاء عمل الدرك – الشرطة اليهم.

حسب رأي شيوجين، فقد اولت إدارة الامبراطورية العثمانية عناية اكبر واهتماماً اكثر بامراء ونبلاء الشراكسة. منذ البدايات الأولى، منحت لهم أراض خصيبة جيدة، اعطيات مالية كبيرة: حتى انه بنيت لهم منازل مجاناً. كذلك سمح لهم بتسلق السلمين الإداري والعسكري الى الدرجات العليا.

لنذكر بعض الحقائق: غسان باشا، شركسي الأصل، كان قائد فرقة في جيش ارضروم في اربعينيات القرن التاسع عشر. اخذ وهو طفل الى القسطنطينية وتلقى تعليمه هناك. يقول الجنرال جيه. بروسكوروف انه كان لديه عدة ضباط شراكسة في حاشيته، شكلوا الجزء الأفضل من جهازه.

تمتع غسان بلقب باشا لأنه نجل آخر امراء البجدوغ طرخان حجموقه، وكان المدير العام للكلية العسكرية في تركيا. محمود شوكت باشا، شركسي آخر، كان وزير الحربية والقائد العام للجيش التركي. محمد سعيد باشا وضياء بك – قائد الشرطة السرية، اثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني. الجنرالات، احمد رضا باشا، حسين ديما باشا، وناظم باشا، وزير الشرطة. في فترة حرب القرم، بين عامي ١٨٥٣ – ١٨٥٦، اعتبر حسين باشا، وهو من الوبيخ، أحد أفضل القادة العسكريين الاتراك. اصبح المارشال فؤاد باشا تخوغو، وهو أيضاً من اصل وبيخ، رئيس " الحزب الشركسي " المعارض للسلطان دولت – جيراي. شكل الضباط الشراكسة المهجرون ٣٠ ٪ من جهاز اركان الجيش التركي. الكاتب المتميز مدحت، الذي قدم اسهامات جليلة في الأدب التركي، كان من اصل شابسوغ. يوسف عزت

باشا ( عزت مت جوناتوقه ) ، من اصل شركسي، كان رئيس مجلس إدارة الجمعية الخيرية الشركسية في القسطنطينية، وهو مؤلف كتاب "تاريخ القفقاس" في ثلاثة مجلدات، وعدد من الكتب الأخرى حول تاريخ الشعب الشركسي.

اجبر الوضع البائس للشراكسة المطرودين على ان يصبحوا الجنود " المتطوعين " في الجيش العثماني. يقول نهاد برزج ان الامراض، الجوع وغياب أية حقوق، الحكم الاستبدادي للسلطات المحلية، والدعاية العثمانية، لم تترك اي خيار آخر للرجال الشراكسة. قدَّمت اول مجموعة من الشراكسة المطرودين التي نزلت على اليابسة في طرابزون ١٨ الف جندي "متطوع" الى الكتائب. تسلم الشراكسة الذين انضموا الى الجيش العثماني، ازياء وطعاماً مجانياً، وهكذا انقذوا انفسهم من الجوع والفاقة. هذا هو السبب تحديداً، الذي من اجله تطوع جميع الشراكسة الذين وصلوا الى كونستانس، للخدمة في الجيش التركي.

وهكذا، كانت الامبراطورية العثمانية تدعم قواتها المسلحة بالأعداد والنوعية بدون ان تحنث بوعودها.

ظلت قرى الشراكسة المطرودين لمدة طويلة، المورد الرئيس لجنود جيش الامبراطورية العثمانية.

يقول إس جي كودايف و إل. آر. خوت ان مجموع اعداد الشراكسة في تركيا هو حوالي مليون. يدعي السلطان دولت – جيراي ان ٢،٧٥٠،٠٠٠ شركسي عاشوا في تركيا اثناء القرن التاسع عشر، استقر منهم ١٠٥٠٠٠ في القسطنطينية، والبقية في اقاليم مختلفة في آسيا الصغرى، ارمينيا التركية، مصر، الأردن، مابين النهرين وسوريا. يقول أن هذا العدد من الشراكسة (حوالي ثلاثة ملايين) ، يضم شعوباً قفقاسية أخرى، اختلطت بالشراكسة في تركيا، وفقدت اصالتها ولغتها.

## توزيع الشراكسة في انحاء الامبراطورية العثمانية

تعلم الشراكسة من خلال التجربة المرة والصعوبات التي يتحملها الشخص في المنفى. بقي أولئك منهم الذين نجوا من الأوبئة، الجوع. المعسكرات و "معسكرات الاحتجاز" يعيشون في تركيا تحت ظروف لا تحتمل. بدلاً من البيوت الجاهزة الموعودة في قرى على الساحل الخصيب للبحر الأسود، بدأت الحكومة التركية ترسلهم بالقوة الى اقاليم مختلفة من الامبراطورية العثمانية، خاصة الى قبرص، مصر، الأردن، لبنان وسوريا، حيث خطفت معدلات الوفيات العالية ارواحهم بالآلاف. أسكن قسم من الشراكسة في تركيا الاوروبية

– على شبه جزيرة البلقان، ولكن بدون تخصيص اية أراضي لهم. لذلك، اضطروا الى اعلان الحرب بشكل شبه كلي على السكان المحليين .

ان الصعوبات التي عانى منها الشراكسة ونجوا منها في هذه الرحلات عديدة. يقول إف. كانيتز أن سطوح السفن التركية التي كانت تنقل هؤلاء المنفيين الى البلقان " قدمت ابشع المناظر واكثرها رعباً مما يقطّع القلوب لرجال جوعى شوههم الجدري. " يقول ان ثلاثة مراكب صغيرة ابحرت الى لارناكا في قبرص حاملة ٢١٠٠ شركسي، مات منهم ١٣٠٠ من الأمراض، العطش والجوع خلال رحلتهم التي استمرت ٣٢ يوماً. اعترض سكان لارناكا بشدة على انزال الناس المصابين بعدوى التيفوس والجدري.

كتب ديكسون يوم ٤ تشرين الثاني عام ١٨٦٤ ان ثلاث مراكب غادرت القسطنطينية يوم ٢٢ ايلول متوجهة الى قبرص وعلى متنها ٢٣٤٦ منفي شركسي.

ولكن، عندما أحصى مندوبو الخدمات الصحية للشراكسة الذين وصلوا، اثبت عددهم انهم مجرد ١٣٦٢ شخص ( بمن فيهم ٨٢٦ مريضاً و ١٩ متوفى ). فوجئت دائرة الحجر الصحي " بحدة " من خسارة حوالي ١٠٠٠ شخص على الطريق. اعلن قائد احدى السفن الروسية تحت القسم، في القنصلية الفرنسية انه بينما كان في عرض البحر، وعندما اقترب الى جانب احدى السفن المذكورة آنفاً، شاهد كيف كان الشراكسة الاحياء يلقى بهم من سطوحها وكيف كانوا يتمرغون في المياه بيأس حتى يغرقوا. ادعى شاهد عيان آخر ان هؤلاء الناس لم يعطوا تموينا من الماء والطعام. نتيجة لذلك، فقد توفي ١٣٠٠ شخص من الجوع والعطش اثناء الابحار لمدة ٣٢ يوماً.

لم تكن السفن المحملة فوق طاقتها تغرق فقط، بل كانت تحترق. كتب راسم رشدي ان المنفيين الشابسوغ ارسلوا الى الاردن بالسفن. عندما دخلوا المياه المفتوحة، اندلعت النار في احدى السفن ومات فيها ٧٠٠ شخص. يروي شاهد عيان آخر المزيد من الحقائق المحزنة "كانت السفينة محملة باكثر من طاقتها بالناس، الذين عانوا من نقص الطعام، ولكن اكثر من ذلك من نقص الماء. شرب الكبار مياه البحر المالحة. اصبحت الأمراض فتاكة: اكثر من كان يموت هم الأطفال. رغم المقاومة اليائسة للنساء، فقد كان يلقى بالجثث في البحر.

اخفت احدى الامهات موت طفلها لمدة طويلة. حملته بين ذراعيها، وهي تشده الى صدرها. كلما مر بها بعض الاتراك، تبدأ بالتحدث الى الطفل وكأنه مازال حياً. استمرت في اخفاء موته بهذه الطريقة حتى بدأت رائحة الجثة تملأ السفينة. بعد ذلك قامت حملة

تفتيش، وعثر على الطفل الميت: عندما انتزعوه في النهاية من بين ذراعيها والقوا به في البحر، حاولت ان تلقي بنفسها خلفه. ان صرخات هذه الأم ماتزال ترن في أذنيَّ".

ارسل اوائل الشراكسة المطرودين بشكل عام الى دول البلقان لاستخدامهم كجنود وحرس هناك. يخبرنا إف كونيتز، الذي زار مستعمرات المستوطنين الشراكسة في بلغاريا التركية " هناك أربع عشرة مستعمرة شركسية في هذا الإقليم. كثيراً ما شاهدت في مساكنهم التعيسة، شخصين الى ثلاثة مرضى في العائلة، يزحفون على الأرضية الصلصالية العادية، التي اصبحت رطبة بفعل الندى الليلي: كان المرضى، المحتشدين مع الاصحاء، يبتلعون الفواكه الفجة، وقطعاً من خبز الذرة اليابسة، بشراهة المصابين " بحمى الجوع ". عانى العديد منهم من الحمى. وقد زاد انعدام قدرتهم على شرح معاناتهم لجيرانهم من فداحة اوضاعهم " يؤكد عدد من المصادر ان الوضع اليائس – الجوع والعوز – قد اجبر الشراكسة المنفيين على حمل السلاح، والانغماس في عمليات النهب، حتى يحصلوا على بعض وسائل البقاء احياء. الى درجة أن الاتراك والبلغار كان يقولون " أمان! " ( الرحمة ). يقول بي. بليسكوف " إن المستوطنين الاباظه والشراكسة يشكلون عبئاً ثقيلاً على الناس الارثوذكس ". كما كتب الارشمندريت. غاريغين عام ١٨٨٠ " لقد اصبحت السرقات، عمليات النهب، والقتل مسألة عادية.....على الطرقات... في المدينة نفسها وفي البيوت ". في وقت لاحق، كتب في. ابوللين عام ١٩٢٥ " إن الجبليين المشهورين بحبهم للمغامرة، هم في منتهى الشجاعة، حتى الاكراد الوقحين يخافون منهم ".

ان المعلومات التي يقدمها لنا شيوجين مثيرة للإهتمام فيما يتعلق بموضوع بحثنا. يقول ان جميع المهجرين من القفقاس، يدعون " شركس " ( شراكسة ). يشكل الشراكسة والابخاز، اقاربهم، الاغلبية الساحقة في المهجر. هؤلاء الناس، الموزعون في اماكن مختلفة من الأناضول والبلدان الأخرى، لم يذوبوا بين السكان المحليين المحيطين بهم، بل احتفظوا بلغتهم، وتقاليدهم، كرامتهم وكبريائهم. ابقاهم العثمانيون في معسكرات خاصة لفترات طويلة، حيث ماتوا باعداد كبيرة.

فيما بعد، بعثرتهم فوق اوروبا كلها، في جماعات صغيرة، في الأماكن الخطرة.

عملاً بنصيحة الحكومة البريطانية، تم توطين مجموعة كبيرة من المنفيين من القفقاس (حوالي ٥٠،٠٠٠ عائلة) في القسم الاوروبي من الامبراطورية العثمانية، وبشكل رئيس في بلغاريا، رومانيا، البانيا ومقدونيا.

حسب مشروع احمد مدحت باشا، أسكن الشراكسة في كامل المنطقة من مصب نهر الدوناي الى البوسنة والهرسك. انشئت في هذه الأماكن مستعمرات عسكرية ( مثل ستانيتزات القوزاق في الكوبان )، ومنها تم تشكيل ميليشيا شركسية للدفاع عن خطوط الحدود. وزعت المستوطنات الشركسية عبر بلغاريا كلها في مجموعات صغيرة بين كل قرية بلغارية والأخرى، من أجل " شل أي نوع من حركات التحرير والاستقلال السلافية. امتدت هذه " السلسلة " من المستوطنات من دوبروج الى حدود صربيا وتشيرنوجور. فمثلاً، تأسست ٢٣ مستوطنة شركسية في منطقة كوسوفوبولي.

حسب كتاب " ايستوريا بلغاريي " ( التاريخ البلغاري )، فقد امتدت المستوطنات الشركسية على المناطق البلغارية كما يلي " نقلت حوالي ٦٠٠٠ عائلة عبر بورجاس واستقرت في تراس: ١٣٠٠٠ عائلة - عبر فارنا وشومين - الى سيليستريا وفيدين: ١٢٠٠٠ عائلة، الى صوفيا ونيش. وزعت العائلات العشرة آلاف الباقية في سفيشتوفسك، نيكيبسولسك، اوريسخوفسك، والضواحي الأخرى. " في عام، ١٨٦١ - ١٨٦٢ وحده، تقرر أن مجموع عدد المنفيين وصل الى ٤١٠٠٠ عائلة في ولاية دونايسك التابعة للامبراطورية العثمانية. كان الرئيس المباشر لهذه الإجراءات رجل من اصل شركسي، نصرت باشا، وهو جنرال في الخدمة التركية، كان قد انهى مساقاً في العلوم العسكرية بباريس. اضافة الى ذلك، تم توطين الشراكسة في اليونان، في القسم الجنوبي من ايبيروس وعلى جزيرة قبرص. اسكنت مستعمرة شركسية كبيرة جداً في بانديرما، على ساحل بحر مرمرة. وهكذا طوقت شبكة من المستوطنات الشركسية عملياً كل القسم الاوروبي من الامبراطورية العثمانية.

كذلك أسكن قسم كبير من الشراكسة المطرودين في القسم الآسيوي من الامبراطورية العثمانية: في الاناضول الفسيح، بين سيواس وتوكات، قرب أماسيا، سامسون،

كيليكيا، بين النهرين، على شبه جزيرة تشارشامبا بمحاذاة بحر ايجه، في ارمينيا التركية، آدا بازار، دوزجه، إسكي شهير، وباليك إيسير. ارسل الجبليون من طرابزون مباشرة الى قارس وارزينجان. بين عامي ١٨٥٩ و ١٨٦٥، تم توزيع العديد من المنفيين في ولاية سيواس بآسيا التركية، في المنطقة الصحراوية الواسعة بين توكات وسيواس.

أصبح المستوطنون الشراكسة احد عوامل الحرب في منطقة البلقان، حيث حدث القسم الاكبر من القتال، حسب رأي نهاد برزج. أرغمهم دور " الحاجز " المسند اليهم على حمل السلاح. كذلك اضطر الشراكسة المنفيون الآخرون الذين استقروا في اقاليم أخرى من الامبراطورية العثمانية، على القيام بدور نشيط في العمليات العسكرية.

كانت الامبراطورية العثمانية توطّن الشراكسة في البلقان لتستخدمهم كقوة شرطة ولتزيد السكان المسلمين في الإقليم. في ذلك الزمن، كان السكان المسيحيون يسيطرون على اتباع الاسلام في بقاع عديدة من الامبراطورية.

وهكذا، تدريجياً، أصبح الشراكسة مبعثرين في البلقان بين الالبان، البلغار، الصرب، واليونان. كذلك أسكن الشراكسة في بيروت وعلى جزر رودس، وقبرص وكريت لنفس السبب.

يقول نهاد برزج انه في تلك الأيام، كان المسيحيون الاناضوليون يعيشون على الأغلب في بلدات صغيرة ومستوطنات، وتم توطين الشراكسة فيها. لاتزال في الوقت الحاضر ١٢٠ قرية شركسية قائمة على ساحل بحر مرمرة في امكنة: مدانية، هيمليك، بانديرما وايزديكه.

سعت الامبراطورية العثمانية، بمساعدة الشراكسة، الى السيطرة على المجموعات الإثنية المسيحية الصغيرة، التي لعبت دوراً كبيراً في السياسة وابقت على اتصالاتها بالقوى الاوروبية. عندما وصل عدد المستوطنين الشراكسة الى ٤٠ الف في ادابازار، اشتكى السكان المسيحيون في المدينة الى السفير البريطاني في استنبول. توجه البطريرك الأرمني في استنبول بطلب مشابه للسفارة البريطانية: فبعد أن كشف عن النية في توطين أربعة آلاف عائلة شركسية في موش، طلب من السفارة ان تحاول إبطال القرار.

كذلك طلبت اليونان رسمياً من حكومة الامبراطورية العثمانية ان لا توطّن الشراكسة قرب حدودها. احتج مسيحيو رودس، كريت، وقبرص بنشاط ضد توطين الشراكسة على جزر البحر الأبيض المتوسط. زادت اعمالهم من صعوبة اوضاع الشراكسة المنفيين، والذين عانوا بما يكفي من الاحداث المفجعة في طريقهم الى هذه الامكنة الجديدة. دمرت النيران السفينة " سفينكس " التي كانت تنقل الشراكسة قريباً من شواطئ قبرص حين اندلعت فجأة واشتعلت فيها النيران. انزل الركاب الناجون في مرفأ ماجوسا البحري.

نظم مسيحيو قبرص في نيقوسيا ولارنكا مظاهرات متكررة للاعتراض، وناشدوا سفارات الدول الأوروبية حتى لا تسمح بالمزيد من المهجرين في مدنهم. بسبب مثل هذه الاعتراضات، اضطرت السفينة " تيموفو " التي تحمل ٢٠٠٠ مهجر شركسي الى لارنكا، الى تغيير وجهتها والتوجه الى الاناضول. كذلك نظم مسيحيو بيروت مطالب مشابهة ضد ١٢٠٠ شركسي مخطط لهم الاستقرار في عكا، ولم يسمح لهم بالنزول الى الشاطئ.

نشرت الصحف الاوروبية مقالات يومية، تخبر شعوبها، باسلوب مبالغ فيه، عن القلاقل بين المسيحيين، والتي كانت لها علاقة بمستوطنات الجبليين المسلمين. صورت الصحافة

المنفيين الشراكسة على انهم الاداة العثمانية الرئيسة في إخماد وظلم المجموعات العرقية التي تنتمي الى ديانات مختلفة. كانت الصدامات البسيطة بين ممثلي المسيحيين المحليين والمنفيين الشراكسة في طريقهم الى طرابلس الشام، تنفخ ويبالغ فيها الى مستوى صراع دولي، بحيث ارسلت سفارات ايطاليا وفرنسا المتصلتين مذكرات رسمية الى حكوماتهما والى الامبراطورية العثمانية ، وهكذا، فان إدخال الشراكسة ضمن مخزون اسلحة السياسة الاستعمارية العثمانية في الاقاليم المسيحية، خلق ردة فعل لدى السلافيين والدول الغربية، الأمر الذي ساعد على نشوء حالة نفسية معادية للشراكسة في اوروبا. طبيعي، أنه في مثل هذه البيئة، لم يتوقع الشراكسة اية مساعدة او تعاطف من أي جهة.

لابد وأن العقيد سي. ويلسون انزعج بشدة من هذا الموقف المسيحي غير المنصف. فكتب " الأبخاز، القباردي، الابزاخ، والشابسوغ هم قبائل وسيمة: انهم أقوى، اكثر شجاعة، واكثر عقلانية من الفلاحين المحليين، وموهوبين في التعليم. لقد احضر الشراكسة الى المنطقة عربات أفضل، بدأوا يبنون بيوتاً اكثر راحة، ويفلحون الأرض بطريقة أفضل، بشكل عام. يمكنهم ان يفعلوا الكثير لتطوير الإقليم لو ان الحكومة التركية اعتنت بهم بطريقة أفضل".

عام ١٩٠٤، شارك كيه. إن سميرنوف، القنصل الروسي برأي العقيد ويلسون حول الشراكسة. إذ كتب: " ان العنصر الاعمق ثقافة في الاقليم هو شراكستنا المنفيين، الذين يعرفون تحت الإسم الشائع " تشيركيس ". فيما يتعلق بالاتراك، فهم إذ يرون تفوق الشراكسة في امور كثيرة....فهم يحترمونهم ويحاولون ان يكسبوا رضاهم. " كذلك انتبه بولغريف، القنصل البريطاني الى جدية وانتاجية ونزاهة المهجرين الشراكسة " من المناسب هنا ان نذكر، ان الأحكام التي يتم اطلاقها بحماس حول السلوك السيء، الكسل المزعج، والميل الى النهب بين الشراكسة والأبخاز المطرودين هي اكاذيب في معظمها، وفي اية حال، مبالغ فيها بشدة. يمكن تصنيف هؤلاء المهجرين بين اشد قطاعات السكان انتاجية ونزاهة: لقد جلب وصولهم منافع عديدة الى البلاد ".

رغم ذلك، فقد ظل وضع الشراكسة المنفيين، خاصة في السنوات الأولى من وصولهم الى تركيا، في غاية السوء. استغلت السلطات التركية وضعهم اليائس فقامت بتشكيل "الحرس الشركسي" للسلطان، وبعد ذلك الوية الفرسان الشراكسة. كان يقصد بهم رفع نسبة "المتطوعين "الشراكسة الى ١٢،٠٠٠ رجل. شاركت الألوية وفرقة الفرسان الشركسية، المشكلّة من صغار المنفيين الشراكسة، في الحرب الروسية – التركية لعام ١٨٧٧ – ١٨٧٨.

يقول جيه دوميسيل " لقد انتشرت الألوية الشركسية في كل مكان على خط النار. قاتلوا بشجاعة، ودفعوا ثمناً غالياً لنصرهم ".

قاد كل من تشاتشبا حسن ومآن كاملات، الفرقة المصغرة في تشكيلة القوات العثمانية التي نزلت في ابخازيا. تكونت من الشراكسة، الابخاز والوبيخ، الذين اسكنوا في اقليم بحر مرمرة. كان الجنرال بيجناو مخلص باشا، قائد فرقة المشاة الثانية على جبهة قارس. كان المتطوعون تحت إمرته من المستوطنين الشراكسة والابخاز في منطقة دوزجه. كان لواء الفرسان الوحيد، الموجود على هذه الشبكة مؤلفاً بكامله من الشراكسة المستوطنين في ولايات سامسون، سيواس، وتوكات. كان كوندوخ موسى باشا قائده. أحد آخر القادة الشراكسة لأزمنة حرب التحرير في القفقاس، بزرج حاجي كيراندوق، قاد لواء الفرسان الشركسي – الابخازي – الوبيخ في البلقان، وقد تجاوز عمره السنوات المائة.

غيره من القادة العسكريين الشراكسة، الذين شاركوا في عمليات الجيش العثماني الحربية هم: المارشال مجدان رؤوف باشا (القائد العام للجيش العثماني عند نهاية الحرب). الداغستان ميتليوا محمد مخلص باشا، قائد الفرسان على جبهة البلقان: شركس ابراهيم باشا قائد فرق المتطوعين المصغرة.

العقيد سادتي بك: خوسر بك المجنون (الشقيق الأصغر لمجدان رؤوف باشا)، ديلاوار كارزج باشا، الذي اصبح مارشالاً بعد الحرب وعين نائباً للقائد العام للجيش العثماني.

استشهد نهاد برزج بالوثائق التالية لتوضيح مدى وفعالية المساهمة الشركسية في الحرب الروسية – التركية: يوم ٧ تموز عام ١٨٧٧، ارسل احمد مختار باشا تقريراً الى القائد العام للجيش العثماني " صباح الأمس، تحرك العدو في منطقة ميمنة قواتنا. ارسلت وحدات من الخيالة الى هناك للتعزيز.... أدى الهجوم الذي لايصد للرجال الخيالة الشراكسة الى اجبار خيالة العدو على الانسحاب (على اية حال) هاجم العدو مرة ثانية بشكل غير متوقع بقوات تعدادها اكثر من ستة آلاف فارس...في هذا الصدام، كانت خسائرنا حوالي ٨٠ رجل بين قتيل وجريح. بين الجرحى كان قائد الفرسان الشراكسة زكريا بك، والرائد رشيد بك. بين القتلى قائد المتطوعين الشراكسة، حاجي مراد بك، وحاجي مصطفى بك.

خسر العدو حوالي ٢٥٠ فارسً. يوم ٨ تموز ١٨٧٧، ارسل أحمد مختار باشا الى مصطفى جاويد باشا، قائد لواء الفرسان " لقد ميَّز الشراكسة أنفسهم في معركة فرسان الأمس. إن شجاعة وتصميم الخيالة الشراكسة لائقة لتجميل صفحات التاريخ. منذ وقت بعيد، اشتهر المهجرون الشراكسة بوطنيتهم وقد اثبتوها اليوم مرة أخرى...." يوم ٧ آب ١٨٧٧، ارسل

احمد مختار باشا تقريراً الى القائد العام للجيش العثماني " يالها من شجاعة مدهشة تلك التي ابداها الفرسان الشراكسة المتطوعون خاصة لواء الشراكسة من قارس ولواء الاباظه من سيواس....لقد كان الفرسان الداغستان يهاجمون العدو بشجاعة وبدون تعب الى درجة ان القوزاق المشاهير وفرسانهم لم يعد لديهم خيار غير التراجع.... وصلت خسائر المتطوعين الشراكسة الى ٤٩ جريح و ٢٩ قتيل.

خسر العدو حوالي ١٥٠٠ رجل بين قتيل وجريح. يوم ٢٧ آب، ١٨٧٧، ارسل قيصرلي أحمد باشا القائد العام لقلعة روستشوك (باقلانج) الى السلطان " اليوم، وفي الساعة الثالثة، انضم فصيل الفرسان الشراكسة المتطوعين بقيادة شركس ديلاوير باشا، الى المعركة في كاديكوي (على مسافة ركوب لثلاث ساعات من روستشوك). استمر القتال ساعتين. بعد ذلك اضطر العدو الى الهروب، بعد خسارة ٤٠ رجل. قتل من الشراكسة رجل واحد وجرح اثنان" يوم ٣٠ آب ١٨٧٧ ارسل احمد مختار باشا الى القائد العام للجيش العثماني: " اليوم، استولى فرسان العدو عند الفجر على معسكر خيالة الليزجين في آول ديالى. حضر فصيل الجنرال غازي محمد باشا، نجل الشيخ شامل، والاكراد من قبيلة زيلان، لمساعدتنا. ارسل كوندوخ موسى باشا، قائد لواء المشاة الأول، كتيبة الى الجوانب. اخذ ثلاثة ليزجين أسرى في مسار المعركة، وتمكن تسعة من اختراق طريقهم الى صفوفنا. قتل رجلان وجرح ستة من فرسان غازي محمد باشا. " يوم ١٧ أيلول ١٨٧٧، ارسل محمد علي باشا الى السلطان " لقد ارسلت الإدارة العسكرية في روستشوك البرقية: بينما كان امير اللواء ديلاور باشا في دورية استطلاع مع خمسين فارس، اصطدم في بلدة ماتشكا الصغيرة بالعدو المكون من اربع كتائب مشاة وفوجي فرسان. في مسار المعركة، خسر العدو ٢٠٠ رجل قتيلاً: وأخذ روسيان وبلغاريان اسرى..... "يوم الأول من ايلول عام ١٨٧٧، ارسل سليمان باشا، القائد العام للجيش العثماني في البلقان الى السلطان " فوجئ الفرسان المتطوعون الشراكسة، بقيادة ابراهيم باشا، سليمان بك وكيراندوق بك بالعدو، على الطريق من جاربوفو الى قرية يشيل اغاتش (الغصن الأخضر) لدينا ضابطين اسرى والعديد من القتلى كشهادة على المعركة.....فقد الشراكسة سبعة قتلى، كان بينهم اسماعيل بك، نجل كيراندوق بك، وثمانية عشر جريحاً. " يوم ٢٤ آب، ١٨٧٧، ارسل محمد خلوصي باشا الى القائد العام للجيش العثماني تقريراً مفاده " لقد انقذ المتطوعون الشراكسة هنا ( في شيبكا ) ارواح جنودنا خمسة.....ستة مرات. كان الله كريماً معهم على الدوام! "

## الدور الذي فرضه العثمانيون على الشراكسة

لم يكن واجب " الحاجز " الذي وضعته الحكومة العثمانية على كاهل الشراكسة المنفيين محدوداً بمناطق البلقان. فقد ارسلوا الى اقاليم مختلفة من الامبراطورية لتدعيم سلطة الدولة، حيثما كانت مستضعفة أو مهددة.

سواء كان ذلك في الأردن، سوريا أو في قلب تركيا نفسها. فمثلاً، كانت الحكومة العثمانية قد اقامت العديد من الآولات الشركسية لنفس الغاية، في تركيا نفسها. يقول نهاد برزج انه اقيمت مستوطنات كثيفة في وسط الاناضول، تمتد من الشمال الى الجنوب بمحاذاة مدن سينوب، سامسون، أماسيا، تشوروم، يوزغات، سيواس، قيصري، مرعش، أضنه، وانطاكية. كان يفترض فيهم احاطتها وتهدئة المستوطنات اليونانية، الارمنية والكردية المحاذية والمتصلة بهذا الخط من الشرق، لانها سببت قدراً كبيراً من القلق لمؤسسات استنبول الرسمية منذ فجر القرن التاسع عشر. من هناك امتد هذا الخط من المستوطنات الشركسية من انطاكية الى المناطق الحالية في سوريا والأردن، حيث كان يفترض في " المنطقة العازلة " الشركسية هذه ان تحمي المدن الساحلية اضافة الى المواصلات نحو الحجاز من هجمات البدو الرحَّل.

يوم الرابع من آذار عام ١٨٧٨، ابلغ ياغو، مساعد القنصل البريطاني في دمشق، وزير خارجيته ديربي، عن الخطة القائمة والقاضية بتوطين الشراكسة في مناطق القنيطرة والى الشرق من نهر الأردن للسيطرة على القبائل الدرزية، التركمانية والبدوية (بني خالد، العدوان، بني حسن، بني صخر والسرحان) الذين كانوا رعايا للحكومة العثمانية بالإسم فقط.

"تثبت الوثائق التي استشهد بها الدكتور رؤوف سعد ابو جابر في كتابه على كيفية تطبيق الخطط الاستعمارية تجاه البدو الرحل شرقي نهر الاردن. لقد اتخذ قرار الاستعانة بالشراكسة لهذه الغايات على أعلى مستوى. " توجب على الشراكسة الذين استوطنوا من ماردين الى الحلة وكربلاء في منطقة العراق الحالية، ان يحافظوا على ولاء القبائل الكردية للسلطة.....

"المستوطنات الشركسية في مناطق تشانا قاله، بيغا، بانديرما، باليك ايسير، بورصه، ادابازار، وإزميت، والتي اسست بمحاذاة الشاطئ الجنوبي لبحر مرمرة، شكلت هلال حماية حول قلب الامبراطورية – استنبول. كذلك جرى تكليف (الشراكسة) المنفيين بحماية جميع الطرق المؤدية الى العاصمة والسيطرة عليها.

اسكنت الحكومة العثمانية الشراكسة في البلقان لإخماد حركة التحرير الوطني السلافية. منذ اوئل القرن التاسع عشر، بدأت عقيدة الوحدة السلافية تحتل تأثيراً ملحوظاً على سلاف البلقان. كتب نهاد برزج "ان الشباب السلافي قد تربوا على هذه الافكار في مدارس اوديسا الداخلية من اعمار تسعة الى احدى عشرة سنة، ثم تلقوا تعليماً اضافياً في روسيا. بعد عودتهم الى وطنهم البلقان، كانوا ينضمون الى الحركات الوطنية ".

اصطدمت الحركة السياسية لتحرير الوطن الأم من النير العثماني بالجيش العثماني عام ١٨٦٢. وصلت هذه الحركة المدعوة تشيتنيك أوج تطورها عام ١٨٦٨. تم توطين ما بين ٢٥٠،٠٠٠ الى ٤٠٠،٠٠٠ منفي شركسي بين الشعوب البلقانية من عام ١٨٦٣ الى ١٨٦٦، في هذه الفترة البالغة التعقيد بالنسبة لشعوب البلقان.

امتد القسم الاكبر منهم بمحاذاة الحدود الشمالية للامبراطورية من مصب نهر الدوناي الى حدود صربيا. كانت خطة الاستعمار تقضي بفصل الشعوب السلافية وتقوية الدفاع ضد الهجمات المحتملة من الشمال. جرى توطين الشراكسة الى جانب الطرق والنقاط المهمة استراتيجياً على مسافة حوالي مسيرة يوم بين قراهم ".

وهكذا، إنجرَّ المنفيون الشراكسة ضد رغبتهم الى احداث ستينات القرن التاسع عشر، غير مدركين الالاعيب السياسية. " وسط شعب ذي خلفيات إثنية ودينية مختلفة، رأوا فيهم عبئاً، و مشاركين في الدين لحاكمهم الظالم " ساءت العلاقات المتوترة أصلاً مع السكان المحليين بشدة عندما " أُلقي الشراكسة في مواجهة الثوار البلغار، الذين دربتهم روسيا منذ الثلاثينات ".

ادركت القوى الاوروبية ان بامكانها اضعاف عدوها القديم بنزع بلغاريا من نفوذها وخلق حكومة موالية للغرب هناك، تبعدها عن روسيا وعن العالم الاسلامي. في مثل هذه البلغاريا الجديدة، لم يكن احد بحاجة الى الشراكسة، الذين وقفوا في طريق تصاميم السياسة العليا ". لذلك، بدأت الصحافة الغربية تشدد مرة أخرى على الطغيان العثماني ضد الشعب المسيحي، وتتهم الشراكسة بانهم القوة الضاربة للباب العالي وجلادي حركة التحرير، وهكذا شوهوا وضع الشراكسة في الإقليم. نتيجة لهذه الدعاية من قبل الدبلوماسية والصحافة الغربية، شكل الجمهور صورة للشراكسة على انهم العدو وانهم يخنقون الحرية، الأمر الذي ساعد بدوره بدرجة كبيرة على طرد الشراكسة، من البلقان هذه المرة.

## طرد الشراكسة من البلقان

كتبنا مسبقاً عن الأوضاع الرهيبة التي اضطر الشراكسة الى تحملها للنجاة بحياتهم. على كل، لم تنته معاناتهم هناك.

يقول نهاد برزج أن الحكومة الروسية كانت قلقة، عند بداية الحرب الروسية – التركية، من وجود الشراكسة المجاورين الذين وضعوا في الاقاليم الحدودية للامبراطورية العثمانية. لذلك، عرض الجنرال كارتسوف، الموفد من روسيا الى استنبول على موسى كوندوخوف وغازي محمد، خطة لانشاء دولة شركسية ذات حكم ذاتي تحت حماية روسيا، قرب حدود افغانستان. وعد بالتعاون الكامل في مسألة اعادة توطين الجبليين وأكد ان روسيا مستعدة لتغطية جميع التكاليف والنفقات.

كانت لدى روسيا غايتان وراءانشاء الدولة الشركسية ١ – استخدامها "كمنطقة عازلة" على حدود افغانستان، التي كانت داخل دائرة النفوذ البريطاني. و ٢ – تأخذ الشراكسة تحت حمايتها وهكذا تمنعهم من تقوية الجيش العثماني في الحملات العسكرية القادمة حتماً. على اية حال، رفض القادة الشراكسة مشروع الجنرال كارتسوف لأنه لا كوندوخوف ولا غازي محمد كانا يتمتعان بالنفوذ الكافي على مواطنيهم وبني جلدتهم او الحكومة التركية، حتى يتمكنا من اقناعهم بقبول الخطة المقترحة.

بدأت الغارات الروسية على مناطق الامبراطورية العثمانية يوم ١٢ نيسان عام ١٨٧٧. كانت العمليات العسكرية تجري في البلقان وعبر القفقاس على السواء. أخيراً بدات الجهود الطويلة للوحدويين السلافيين تؤني ثمارها.

انضوت الشعوب المسيحية للبلقان، تحت ألويتها، بتأثير مباشر ومطلق من روسيا. كذلك القيت التشكيلات الشركسية التابعة للجيش العثماني في اتون المعركة على كلا الجبهتين. ارسلت قوة من الابخاز مقدرة بالف رجل تحت قيادة تشاتشبا حسن، الى القفقاس كجزء من الجيش العثماني، من اجل تثوير السكان المحليين ضد روسيا.

اندلعت ثورة في بلاد الشيشان بقيادة علي بك حاجي من الليزجيين. تعاملت الجيوش القيصرية مع الثوار بقسوة. نفي عدد كبير من الشيشان والداغستان الى الاقاليم الداخلية من روسيا.

باءت نتائج الاعمال العسكرية للامبراطورية العثمانية بالفشل الشنيع على الجبهات. سجلت معاهدة سان ستيفانو يوم ٣ آذار عام ١٨٧٨ هزيمتها في الحرب.

لابد وأن الدبلوماسية الروسية التي ظلت تعترض منذ البدايات الأولى على توزيع الجبليين المنفيين قريباً من حدودها، قد اقتنعت بنجاحها - فقد أصر ايجناتييف، السفير الروسي في استنبول، على اضافة النص الذي بموجبه يتوجب اعادة توطين جميع شراكسة البلقان بعيداً داخل الاناضول، الى المعاهدة.

بدأ المنفيون الشراكسة، الذين جرى توطينهم في البلقان منذ العام ١٨٥٩ وحتى ١٨٧٦، يرسلون من البلقان الى المناطق الداخلية في الاناضول والشرق الأدنى، تمشياً مع الشرط المتضمن في المعاهدة الآنفة الذكر. في مشهد مماثل للمأساة التي حصلت قبل عقد من الزمان، تم تنفيذ الطرد الثاني للشراكسة تحت ضغط قوي جداً من الحكومة وبمساعدة القوات المسلحة النظامية. هذه المرة، على اية حال، القوات التابعة لتركيا وليس لروسيا. اختار العثمانيون الاماكن الجديدة للمستوطنات الشركسية، تمشياً مع الغايات المذكورة سابقاً. مرة أخرى، قوبل تطبيق هذه الخطط برد فعل سلبي من الأمم المحلية ( المسيحيين بشكل خاص ) التي جرى توطين الشراكسة بين ظهرانيها. نظم السكان في سالونيك، بانديرما، ادابازار، طرابلس الشام، بيروت، نابلس، عكا، كريت وقبرص اجتماعات للاعتراض على توطين الجبليين، واشتكوا الى المسؤولين، بإعلام حكوماتها مراراً وتكراراً.

لم تكن الحكومات المحلية للاقاليم التي يرسل اليها الشراكسة، مجهزة على الاطلاق لمثل هذه التطورات.

بدات نفس احداث الرعب، سوء الحظ، والمعاناة التي رافقت الشراكسة في مسار عملية طردهم العظمى الأولى، تتكرر مرة أخرى. كان الشراكسة يوضعون في استنبول ودمشق في ساحات المدارس والمساجد. في آذار عام ١٨٧٨، كان يموت ٩٠٠ مهجر بلقاني شركسي في استنبول يومياً. ٣٠ منهم في منطقة جامع اياصوفيا وحده. في بانديرما، كان الموت يختطف ارواح خمسة من المطرودين الشراكسة يومياً.

في آذار من عام ١٨٧٨، حملت السفينة " سفينكس " التابعة لشركة " لويد " النمسوية، ٣٠٠٠ شركسي على متنها من ميناء كافالا البلقاني، واتخذت مسارها نحو اللاذقية في سوريا. اندلع اعصار بينما كانت السفينة تمر بالقرب من ماجوسا (قبرص)، اقتلع الاعصار ٤٠ شخصاً عن سطح السفينة، غرقوا في البحر. بعد ذلك، اندلعت النار في السفينة. تسببت هذه المأساة الرهيبة في وفاة ٦٠٠ شركسي.

بعض الشراكسة الذين وجدوا أنفسهم في استنبول ومرسين، حاولوا استئجار سفن والعودة الى قراهم البلقانية، حيث عاشوا لقرابة عشر سنوات. نظراً لتكرار مثل هذه

الحوادث، اصدرت الحكومة العثمانية مراسيم متكررة، تمنع السفارات واصحاب السفن من قبول المطرودين الشراكسة، الذين يحاولون الابحار عائدين الى البلقان. يقول نهاد برزج ان الوثائق الصادرة عن وزارة الشؤون الداخلية، وزارة الخارجية ولجنة وزارة الهجرة، المؤرخة في ١٧/٠٥/١٨٧٩ (رقم ٥ – ٩٦) ٠٥/٠٥/١٨٧٩ (رقم ١٣ – ٩٦)، ٢٩/٠٥/١٨٧٩ (رقم ١٧ – ٩٦) و ١٨/١٢/١٨٧٩ (رقم ٦ – ٩٧) تشهد بان المطرودين الشراكسة منعوا منعاً باتاً من تغيير اماكن التوطين المقررة لهم. في تشرين الثاني من عام ١٨٧٩، رفضت حكومة بلغاريا بدورها السماح للشراكسة بالعودة، وأعلنت " لقد تم تعزيز الحدود في البحر وعلى البر ضد المهجرين ".

لجأت الحكومة العثمانية الى استخدام السفن المصرية، بسبب النقص في السفن التركية والاوروبية، لنقل الشراكسة من البلقان.

في آذار من عام ١٨٧٨، تم حشد ١٨٠ الف شخص (اغلبيتهم من الشراكسة) في استنبول، حسب البيانات الرسمية، من اجل إعادة توطينهم. بحلول ذلك الوقت، كان قد تم نقل ٥٠ الف مطرود من العاصمة الى اقاليم أخرى من الامبراطورية.

## القرى الشركسية في إقليم دمشق

ارسل حوالي ٢٥ الف شركسي، ممن تم ترحيلهم عن البلقان بحلول ١٦ نيسان عام ١٨٧٨ الى المنطقة المسماة بلاد الشام. على أية حال، يمكن لهذا الرقم ان يكون قد وصل الى مئة الف، حسب مصادر أخرى.

على الرغم من السرعة الكبيرة في اعادة التوطين، فقد بقي عشرات الآلاف في استنبول ينتظرون دورهم. استمر هذا الوضع حتى عام ١٨٨٣، واثار قلق واهتمام الحكومة العثمانية. لذلك، فقد خططت في عام ١٨٧٩ لارسال عشرة آلاف عائلة شركسية الى حلب، وخمسة آلاف عائلة اخرى ( معظمهم مهجرون جدد من القفقاس ) الى مناطق أخرى في سوريا. الى جانب ذلك، فقد انشئت القرى الشركسية الأولى في كل من القنيطرة وحمص عام ١٨٧٢.

بامكان المرء ان يستنتج، آخذاً بالاعتبار كل البيانات المتوفرة، ان حوالي ٦٠ الف شركسي قد أعيد توطينهم في اقاليم مختلفة من بلاد الشام خلال الاعوام من ١٨٧٢ وحتى ١٩١٠.

مازال العديد من القرى التي انشأوها في ذلك الوقت، قائماً حتى اليوم.

سنبحث لاحقاً بمزيد من التفصيل المستوطنات الشركسية التي اسست في هذه المنطقة والتي تشكل اليوم سوريا، الاردن، ليبيا، فلسطين واسرائيل.

## القرى الأخرى للشراكسة المطرودين من البلقان

جرى توطين قسم من الشراكسة الذين جلبوا من البلقان الى سامسون في محيط هذه المدينة، وارسلت البقية الى سيواس وانقره. اسكنت مجموعة أخرى على ساحل بحر مرمرة، بين ادابازار وباندیرما. ارسل الجبليون الذين كانوا قبلاً في ديدي – اغاتش، في بلغاريا، الى إزمير، حيث انشأوا قرى جديدة بين مانيسا وآيدين. جرى توطين الشراكسة المطرودين الذين نقلوا بالسفينة " سالونيكي " في كل من أضنه، انطاليا ومرسين. بينما جرى توطين قسم من الذين طردوا من شومنا وفارنا في المدن الليبية: طرابلس الغرب، بنغازي ودرنه.

## موجات المهجرين الجدد إلى تركيا

رأينا ان حياة الشراكسة في تركيا كانت تعيسة. فقد عاشوا سنوات في حالة فقر مدقع في المعسكرات. وظل البرد، التيفوس، الجدري والجوع يقتلهم بالآلاف.

لابد وان الشراكسة في الوطن الأم كانوا مدركين لما يجري. ولكن على الرغم من ذلك، فقد استمر بعض منهم في السعي للانتقال الى تركيا. الواضح أن ظروفهم المعيشية تحت الاحتلال الروسي كانت لا تطاق أبداً.

حسب رأي نهاد برزج، فقد تدهورت التركيبة الاجتماعية – الاقتصادية في شمال القفقاس بدرجة مفزعة في تلك الحقبة. " لم يكتف الفاتحون بظلم السكان المحليين، بل حاولوا أيضاً ان يحولوهم الى الديانة المسيحية. استغل رجال الدين الاسلامي الموالين لتركيا هذا الوضع فاستمروا في تشجيع الناس على الانتقال الى تركيا، جنة الفردوس على الأرض. اضافة الى ذلك، اعيد احياء لجنة الهجرة في تركيا عام ١٨٨٧، بمرسوم من السلطان. يقول كمال كاربات، مؤلف " طرد الشراكسة " انه أعيد تنظيمها تحت مسمى " لجنة الهجرة الإسلامية العليا ". تزايد عدد المهاجرين بسرعة بسبب دعاية رجال الدين المسلمين والظلم القاسي للمستعمرين الروس ( كانت غالبيتهم من الشراكسة ) إن المعلومات والبيانات المفصلة التي يقدمها لنا شيوجين حول هذه الموجات الجديدة من المهاجرين هي كما يلي: في خريف عام ١٨٧٢، طلبت ثماني قرى عائدة الى ك. اوناروقه و إي. جنكات في منطقة مايكوب من السلطات القيصرية السماح بالهجرة الى تركيا. في نهاية عام ١٨٧٢ " فعل سكان قرى قبيلة البجدوغ واغلبيته الشابسوغ " الشيء نفسه. ارسلوا ممثليهم التالية اسماؤهم مسبقاً الى تركيا: شابسوغواسكولوك من اسوكولاي، حاجي بيج شيوابوك من تاختاموكواي، حاباط

تيش من لاكشوكواي، غسان حاجي شوموك من بشحالو كواي، ناتخو حاتساتس من كونشوكو حابله، وحاجي خوت من بونيجوكواي. رغم ذلك فقد ظل طلبهم من السلطان بتخصيص أرض في تركيا لايواء ٣٠٠٠ مهاجر شركسي بدون اجابة.

غادرت عدة مئات من العائلات الشركسية ( ٣٤٠٠ ) شخص الى تركيا عام ١٨٧٣. بدأت قرى غوبوكواي، حاتقواي، لاشوكواي، وكازانوكواي تحاول ان تهاجر الى تركيا عام ١٨٧٤. اخمدت هذه الحركة / المحاولة. لكن سكان بعض القرى من الابزاخ، القباردي، الشيمجوي، والشابسوغ هاجرت الى تركيا.

حسب تقدير إي. فيليستين، فقد هاجر ١٣،٨٥٦ شخصاً (بمن فيهم ١١٤١٧ أديغه و ١٨٠٩ اباظه) من اقليم الكوبان الى الامبراطورية العثمانية، من عام ١٨٧١ وحتى عام ١٨٨٣. يقدم ايه و ك. قاسموف بيانات عديدة أخرى حول عدد المهاجرين، والتي تعتبر، بالحكم على كافة المعطيات، مختصرة جداً:

| | |
|---|---|
| من عام ١٨٧١ وحتى ١٨٨٤ | ٣،٥٩٨ شخص |
| ١٨٨٨ | ٣,٤٢١ شخص |
| ١٨٩٠ | ٩،١٥٣ شخص |
| ١٨٩٥ | ٣،٩٩٩ شخص |
| المجموع ١٨٧١ – ١٨٩٥ | ٢٠،١٧١ شخص |

يمكن رؤية مستوى الهجرة لهذه الموجة الجديدة ضمن الحقائق التالية: بحلول العام ١٨٨٨، هاجر جميع سكان قرية حاجيميقوه حابله، ٥٨٠ عائلة، الى تركيا. عام ١٨٩٠، انتقل جميع سكان القرى التالية تقريباً، وهي: اوناروقه حابله، بغواشه حابله، ناترباي، جنكيتاي، بينوكواي، وغيرها ممن كانوا يشغلون الاراضي الخصبة في وسط واعالي مجرى نهر اللابا، الى تركيا. غادر نصف سكان قرية كوغوركواي البلاد. يوم ١١ شباط عام ١٨٩١، نشرت صحيفة استنبولية خبراً عن أن اربع سفن احضرت ٩٣٤٥ شخصاً من القفقاس خلال شهر تشرين الثاني وحده من السنة الفائتة. عام ١٨٩٦، هاجر غالبية سكان قرية بيشميزي، والبالغ عددهم ٦٠٠ عائلة.

كتبت صحيفة " نوفويه فريميا " يوم ٣١ أيار ١٨٩٠، " خلال السنوات الأخيرة، تعد السلطات التركية المهاجرين باراضي طيبة، الاعفاء من الضرائب لعشر سنوات، والحماية

من كل انواع الايذاء والاعتداءات المحتملة". رغم أن وثيقة الهجرة حذرت من أن " العودة من تركيا الى الوطن الأم سوف تعاقب بكل قسوة القانون ". إلا ان موجة المهاجرين زادت زخماً، بسبب قسوة الظلم الوطني. يقول شيوجين " أبدت ٢١٠٨ عائلات قباردية (١٦٧٠٨ اشخاص) " رغبة في الهجرة الى تركيا، خلال شهر آذار عام ١٨٩٥ وحده ". يدعي ام. ستراخوف، رئيس مقاطعة نالتشك، أنه انتقل من مقاطعته وحدها ٣٣٨٢ شخص الى تركيا في الاعوام ١٩٠٠ الى ١٩٠٢. عام ١٩٠٣، حصلت ٢٦٠ عائلة قباردية على تصريح بالانتقال الى سوريا. عام ١٩٠٥، هاجرت ١١٥ عائلة قباردية الى تركيا. يقول نهاد برزج " تزايد تدفق المهاجرين في العامين ١٩٠٥ – ١٩٠٦، فقد استقرت مئات العائلات (أغلبها من الشراكسة) في سوريا. عام ١٩٠٦ وصلت مجموعة من ١٤٥٠ شخصاً الى حلب.

"هاجرت ٧٠٠ عائلة شيشانية الى الامبراطورية العثمانية بقيادة الشيخ محمد أمير. استقرت حوالي ٧٠ عائلة من هذه المجموعة في الأردن، في قرى الازرق، الزرقاء، صويلح والسخنة، بينما ظلت البقية في الأناضول. عام ١٩٠٣ استقرت ٣٧٢ عائلة من الكوبان و٢٣٣ عائلة من قباردا في جوار أضنه".

لقد كان السبب في اضطرار هؤلاء الشراكسة الى الهروب من بلادهم هو، بكلمات نهاد برزج " تدمير طريقة الحياة التقليدية، فقدان الاقارب، تجاوزات المستعمرين وتمييزهم الاجتماعي – الاقتصادي، الأمر الذي لم يترك اي أمل للنجاة والبقاء احياء كمجموعة إثنية لحفنة الشراكسة الذين بقوا في وطنهم الأم ".

كتب شيوجين، ملقياً المزيد من الضوء على هذه المسألة "بحلول هذا الوقت، بدأت السلطات الروسية في القفقاس بتطوير فكرة طرد جميع الشراكسة الغربيين. يقول تقرير أتامان فرع ايكاتيرينودار الى رئيس اقليم الكوبان المؤرخ في ١٦ كانون الثاني عام ١٨٨٧ " هذا الشعب غير مرغوب فيه على الاطلاق ضمن حدود روسيا ". اقترح حل هذه المشكلة نهائياً باسرع ما يمكن " كل ما كانت مغادرة قسم من الجبليين القاطنين على السهول، ان لم يكن كلهم، اسرع لحدود روسيا، كان ذلك أفضل " توجه اتامانو قرى لابينسكي، مايكوبسكي، وباتال باشينسكي الى رئيس اقليم الكوبان باقتراحات مشابهة. بعد تعميم هذه المقترحات ونشرها – عبَّر الأمير دوندوكوف – كورساكوف، قائد القوات المسلحة لمنطقة كافكازسكي العسكرية، في تقريره الى وزير الحربية يوم ٢١ كانون الثاني عام ١٨٨٩، عن الاعتبارات التالية حول هذه المسألة: " ان الطرد العام الى تركيا مرغوب فقط بالنسبة لقطاع من السكان الأصليين لاقليم الكوبان، وهم تحديداً: سكان اقسام ايكاتيرينودارسكي و لابينسكي ". (اي، عملياً،

جميع الأديغة الذين ظلوا في الوطن الأم بعد عمليات الطرد الجماعي لمواطنيهم الى الخارج في الاعوام ١٨٥٨ – ١٨٦٥ – شيوجين)

وافق جميع وزراء الحكومة الروسية بايجابية على اقتراح الأمير دوندوكوف – كورساكوف. في تشرين الثاني عام ١٨٨٩، حصلت مسألة الطرد " العام " لأديغة منطقتي ايكاتيرينودارسكي ولابينسكي الى تركيا، على الموافقة الامبراطورية من الكسندر الثاني. تم التخطيط لطرد الشراكسة على مراحل عديدة. وافقت تركيا على قبول منفيي الكوبان في ولايتي قونيه وأضنه. رغم ذلك، لم تطبق الحكومة الروسية الخطة لسببين رئيسين ١ – لتجنب قيام ثورة عامة، و ٢ – فشلت في الحصول على موافقة الصناعيين والطبقة البرجوازية المحلية الروسية.

## محاولات العودة الى الوطن الأم

يقول شيوجين، ان الشراكسة وجدوا انفسهم في وضع صعب للغاية فعلياً في تركيا. فقد جرى توطينهم بشكل عشوائي في أراض غير صالحة أبداً. لاحظ سكرتير السفارة البريطانية في القسطنطينية، بعد أن قام بالتفتيش على مجموعة قادمة من المنفيين للقفقاسيين، أنه خلال ثلاثة اشهر، لم يبق على قيد الحياة سوى ٢١١ شخصاً من اصل ١٤٠٠. كتب " لم يكن لديهم أي مأوى. ما عدا ظلال الاشجار، لا طعام آخر غير ثمار الأشجار " اضطر العديد منهم الى التنازل لحد بيع اطفالهم للعبودية. اسلم آخرون انفسهم للنهب. كل ذلك اجبرهم على محاولة العودة الى وطنهم الأم، لكن ذلك الحلم بقي مجرد حلم بالنسبة لغالبية المنفيين، بسبب الحظر الذي فرضته كلا من الحكومتين القيصرية والعثمانية ".

كان بعض من المنفيين الذين توجهوا الى القنصلية الروسية بطلب الحصول على تصاريح للعودة الى وطنهم الأصلي: عام ١٨٦٤ قدمت ١٠٠ عائلة شابسوغ طلباتها. بعد ذلك بوقت قصير، قدم الناتخواج ١٠٠ عريضة الى القنصلية الروسية بنفس الطلب. عام ١٨٦٥، ارسل الشراكسة الذين تم توطينهم في جانيكا، خطاباً الى الامبراطور الكسندر الثاني، يحضونه فيه على السماح لهم بالعودة الى الوطن. في نفس السنة، عاد الشراكسة المقيمون في اردجان وعددهم ١٢٠٠ شخص، الى باطومي، ذهب بعضهم الى تشوروك سو. ارسلت القوات النظامية المسلحة ضدهم ".

كتب صحيفة " روسكي إنفاليد " عام ١٨٦٧ (العدد ١٣٣) " قام جميع الشراكسة (حوالي ٢٠٠ ألف شخص) والذين تم توطينهم في تركيا خلال السنتين او الثلاث الماضية، باحراق

بيوتهم وتبني فكرة العودة الى روسيا ". كتبت صحيفة كافكاز (١٨٦٨، العدد ١٢٧)، أن الشراكسة غير مقتنعين بوطنهم الأب الجديد الى درجة انهم سيعودون بالحشود الى وطنهم الأم لو سمح لهم بذلك. عام ١٨٧٢، قدم الشراكسة التماساً الى القنصل الروسي في القسطنطينية موجهاً الى الامبراطور الروسي " باسم ٨٥٠٠ عائلة " طالبين منه السماح لهم بالعودة الى الوطن الأم. كان قرار الكسندر الثاني " العودة أمر مستحيل ".

بغض النظر عن ذلك، تمكن بعض الشراكسة من العودة الى وطنهم بطريقة غير قانونية على قوارب شراعية وعلى اليابسة، خلال منطقة عبر القفقاس، في عائلات منفصلة، او في جماعات. مهما كانت البلاد التي حلوا فيها، ظلوا يحنون الى وطنهم الأم. حتى رجل مشهور مثل النقيب في الجيش التركي، الشركسي بكر بك، مرافق الجنرال عثمان باشا، عاد سنة ١٨٨٠.

على اية حال، اضطر هؤلاء العائدون، الى معايشة حياة بائسة في الوطن. لم ترجع اليهم ارضهم عند عودتهم الى الوطن. اضطروا الى استئجار قطعة أرض حتى يحصلوا على لقمة العيش. عبر شيوجين عن هذا الوضع بشكل لائق قائلاً: " لم يعد لديهم اي شيء سوى الأمل، نفس الأمل الذي كانوا يحلمون به في الماضي بطريقة عاطفية جداً! ".

## الشراكسة خلال ثورتين تركيتين

يقول شيوجين ان الشراكسة المنفيين لعبوا دوراً متميزاً في الحياة الاجتماعية والسياسية للامبراطورية العثمانية. كان المؤسس لمنظمة " تركيا الفتاة " الأولى ( ١٨٨٩ ) هو الشركسي ابراهيم تيمو. كانت غايتها قلب نظام حكم السلطان. كان قائد أحد أجنحة ثورة تركيا الفتاة هو الامير صباح الدين (كفادزبه) وهو ابخازي، وكان اقرب زملائه شخص من الوبيخ اسمه حسين طوسون بك.

خلال ما سمي بالثورة " الكمالية "، لعبت الفصائل الشركسية، بقيادة جاتيم بك، دوراً مهماً في الصراع من اجل استقلال تركيا. فقد تشكلت بشكل رئيس من الأديغة والابخاز. اكثر من ذلك، فقد كان أقرب مشاركي كمال اتاتورك شراكسة. من الناحية الأخرى، قابل قسم من الارستقراطية القفقاسية التي كانت تتمتع ببعض المزايا خلال عهد السلطان، الثورة بامتعاض شديد. " استغل التحالف الدولي والحكومة اليونانية وضعهم النفسي، وبدأوا يقترحون عليهم فكرة تأسيس جمهورية شركسية بحكم ذاتي في الاناضول، بغرض استمالة الجبليين الى صفوفهم " من اجل ذلك، انعقد المجلس القومي الشركسي عام ١٩٢٠،

والذي وافق على قرار انشاء ما يسمى ب " الجمهورية الشركسية " في القسم الغربي من تركيا الآسيوية.

## احصائيات الطرد

ان الاحصائيات الموجودة حول الطرد الكبير للشراكسة متناقضة. إذ يتأرجح عدد الناس المطرودين من القفقاس، كما تظهره اعمال الأبحاث المتنوعة على الموضوع، بين ٥٠٠،٠٠٠ الى ٢،٧٥٠،٠٠٠ شخص. السبب في الفارق الكبير هو الفوضى العارمة التي شاعت على ساحل البحر الأسود في تلك السنوات. بعض الاسباب التي جعلت احصاء الجموع الكبيرة للشراكسة المطرودين مستحيلاً هي:

١ – كان الشراكسة المطرودون ينزلون الى البر في اكثر من عشر نقاط استقبال، والتي لم تكن بينها أجهزة اتصالات، ولم تقم بأية حسابات احصائية للمنفيين الواصلين.

٢ – كانت قمة عملية الطرد في الاعوام من ١٨٦٤ الى ١٨٦٦ غير منظمة مطلقاً، ويعزى ذلك الى حقيقة ان الامبراطورية العثمانية لم تكن مستعدة لاستقبال الشراكسة. نتيجة لذلك توفي عدد لا يحصى من المنفيين على الطريق، الأمر الذي جعل التحقق من مجموع المطرودين مستحيلاً.

٣ – استمرت عملية الطرد حتى العام ١٩١٠. اختلف عدد المطرودين من سنة لأخرى. بغض النظر عن ذلك، فقد اقدم بعض الباحثين بتجميع البيانات لمجرد فترة واحدة معينة، ثم اعطى هذه الأرقام على انها نتيجة اجمالية.

٤ – تعمدت روسيا الاعلان عن ارقام مخفضة بدرجة كبيرة عن الشراكسة الذين " يتخلون " عن القفقاس، مخافة إثارة الرأي العام لأوروبا ضدها.

٥ – تصرفت الامبراطورية العثمانية بنفس الطريقة، حتى تخفف من اعتراضات القوى المسيحية فيما يتعلق بتوطين الشراكسة المنفيين في مناطق البلقان.

على اية حال، اذا كان الشخص سيعمل على البيانات الإحصائية الموجودة لأزمنة الطرد المأساوي للشراكسة، باستخدام اعمال البحث للسنوات الأخيرة لمارك بينسون وكمال كاربات، واذا كان المرء سيأخذ في اعتباره النسبة المئوية المقدرة للوفيات الجماعية لحقبة الطرد، يستطيع أن يخفف من غموض التقديرات الرقمية لعملية الطرد.

وهكذا، فانه حسب البيانات المتوفرة فقط من كانون الثاني الى نهاية تموز عام ١٨٦٤، فان عدد الشراكسة الذين ابحروا الى حدود الامبراطورية العثمانية كان كما يلي:

| | |
|---|---|
| من تامان | ٢٧،٣٣٧ شخص |
| من انابا | ١٦،٤٥٢ شخص |
| من نوفوروسيسك | ٦١،٩٩٥ شخص |
| من طوابسه | ٦٣،٤٤٩ شخص |
| من سوتشي | ٤٦،٧٥٤ شخص |
| آدلروخوست | ٢٠،٧٣١ شخص |
| المجموع | ٢٣٦،٧١٨ شخص |

اضافة الى ذلك، بالنسبة الى نفس المصدر، فقد تمكن ٢١،٣٥٠ شخص، ممن عثروا على امكانيات مستقلة، ان يرحلوا من نقاط أخرى.

كتبت مجلة " دي كونستانتينوبل " يوم ١١ كانون الثاني عام ١٨٦٥ أنه وصل الى شواطئ الامبراطورية العثمانية ٥٢٠ الف شركسي منذ بداية العام. بالحكم على تقارير إيه. إن. موشنين، من حزيران الى تشرين الأول ١٨٦٤، فقد تم تسليم ٣٥٧ الف شركسي منفي من ميناءي سامسون وطرابزون وحدهما. لكن مثل ذلك الطرد الجماعي حصل عام ١٨٦٦ أيضاً.

فيما يتعلق بالاستعمار الشركسي للبلقان المسيحي، وحسب بيانات بياناكوني، فقد جلب ٦٠٠ الف مطرود من القفقاس الى هناك مع نهاية العام ١٨٧٦. يعتبر اينجين آكارلي، الذي قام بدراسة التركيبة الإثنية لسكان الممتلكات الأوروبية للامبراطورية العثمانية، ان ٤،٣٨٤،٥٠٠ مسلم عاشوا في مناطق البلقان خلال الفترة من عام ١٨٦٠ الى ١٨٧٨، من بينهم:

| | |
|---|---|
| اتراك | ٢،٠٠٠،٠٠٠ شخص |
| البان | ١,٣٠٠،٠٠٠ شخص |
| بوسنيون | ٦٠٠،٠٠٠ شخص |
| شراكسة | ٤٠٠،٠٠٠ |
| آخرون | ٨٤،٥٠٠ |

حسب تقدير إف. كانيتز، فقد احضرت ٤١ الف عائلة شركسية ( ٢٥٠ الف شخص ) الى مناطق البلقان في النصف الأول من عام ١٨٦٤ وحده، وتم توطينها في مناطق:

| | |
|---|---|
| إدرنه وايليميه | ٦،٠٠٠ عائلة |
| سيليسترا وفيدين | ١٣،٠٠٠ عائلة |
| نيش وصوفيا | ١٢،٠٠٠ عائلة |
| سفيشتوف، نيكوبول، روشوك ودوبروجا | ١٠،٠٠٠ عائلة |

يعتبر كل من مارك بينسون، الذي نشر بيانات مجلس فاليا، وإن. ميخوف، إيه. اوبيسين، من مجلة " دي كونستانتينوبل " انه تم توطين ما بين ١٥٠ الى ٢٥٠ الف شركسي على ضفاف نهر الدوناي وحده. استوطنت سبعون الف عائلة ( حوالي ٣٥٠ – ٤٢٠ الف شخص ) في مناطق البلقان عام ١٨٦٤.

اذا اخذنا بعين الاعتبار ان استيطان الشراكسة في البلقان استمر حتى عام ١٨٧٦، وقمنا بتلخيص البيانات الأنفة الذكر، بامكان المرء أن يستنتج بثقة أنه استوطن في البلقان ما لايقل عن ٤٠٠ ألف منفي في شبه جزيرة البلقان في الفترة من عام ١٨٦٠ الى ١٨٧٦. لا يشمل هذا الرقم الوفيات، التي شكلت حوالي خمسين بالمئة من عدد المنفيين حسب رأي ك. ساكس. وقد ذكر البروفسور سميرنوف، الذي اعتمد التقديرات الرسمية، الرقم نفسه. وهو يعتبر أن مايصل الى ١٥ ٪ من الناجين (غالبيتهم من النساء والأطفال ) قد بيعوا كعبيد.

حقيقة، أن طرد الشراكسة قد صاحبته موجة من الوفيات الجماعية منذ الأيام الأولى، على سواحل فارنا، كونستانتس، بورجاس على البحر الأسود، وفي موانئ نهر الدوناي.

كان سبب الكثير من هذه الحالات، اثناء الاعوام ١٨٦٤ – ١٨٦٦ هو البرد، الجوع، الأمراض، ونقص اكثر الضروريات، وزاده سوءاً عدم الاهتمام والتخريب المكشوف من قبل المسؤولين، الأمر الذي يترك مجالاً للشك في التشكيك بارقام ساكس وسميرنوف. اذا اخذنا كل ماقيل آنفاً في الحسبان، يمكن للمرء ان يستنتج ان ٤٠٠ الف شركسي استوطنوا في البلقان، قد خسروا حوالي ٢٠٠ ألف من اقاربهم خلال رحلة الطرد المأساوية، من قراهم في مواطنهم بالقفقاس الى امكنة الاستقرار النهائية في ممتلكات الامبراطورية العثمانية الاوروبية.

قال كمال كاربات، الذي اعتمد سجلات الارشيف التركية، في أعماله: من عام ١٨٥٩ وحتى ١٨٧٩، تم طرد مليوني شخص من شمال القفقاس: لم يصل منهم الى المناطق المخصصة لتوطينهم سوى مليون ونصف.

تشمل اغلبية الدراسات المنشودة مجرد الحقبة التي تصل الى الحرب الروسية –

العثمانية كقاعدة. على أية حال، فقد استمر طرد الجبليين من القفقاس حتى العقد الأول من القرن العشرين.

بعد هزيمة الامبراطورية العثمانية في حرب ١٨٧٧-١٨٧٨، تم طرد مئات آلاف الشراكسة من مناطق البلقان الى القسم الآسيوي من الامبراطورية. مرة أخرى تكررت جميع العذابات، العداوات، مناظر الرعب التي صاحبت الجبليين في مسار الطرد الكبير للشراكسة.

## السكان الشراكسة

كتب العديد من المؤلفين عن السكان الشراكسة، بشكل خاص خلال مسار " الحرب القفقاسية " وما بعدها. فمثلاً، يقول جي. نوفيتسكي، وهو ضابط روسي، ارتحل عبر بلاد الشراكسة لغايات الاستطلاع في ثلاثينات القرن التاسع عشر، ان السكان الشراكسة بلغ عددهم ١،٠٨٢،٢٠٠ شخصاً، بمن فيهم:

| | |
|---|---|
| ١ – الشابسوغ | ٣٠٠،٠٠٠ شخص |
| ٢ – الابزاخ | ٢٦٠،٠٠٠ شخص |
| ٣ – الناتخواي | ٢٤٠،٠٠٠ شخص |
| ٤ – التيميرجوي | ٨٠،٠٠٠ شخص |
| ٥ – البيسليني | ٧٠،٠٠٠ شخص |
| ٦ – البجدوغ | ٦٠،٠٠٠ شخص |
| ٧ – الوبيخ | ٤٠،٠٠٠ شخص |
| ٨ – الحاتقواي | ٢٠،٠٠٠ شخص |
| ٩ – الماخوش | ٨،٠٠٠ شخص |
| ١٠ – الأداميه | ٣،٠٠٠ شخص |
| ١١ – الجانه | ١،٢٠٠ شخص |

رغم ذلك، فقد كان الحجم الفعلي للسكان الشراكسة اكبر من ذلك بكثير. فقد اشار الاعلان الشركسي الى العدد قائلاً " نحن أربعة ملايين "! بينما ادعى راسم رشدي أن هذا العدد وصل الى عشرة ملايين.

نتيجة لعملية الإبادة الجماعية، طردت روسيا معظم الشراكسة من وطنهم الأصلي الى تركيا، ومنها جرت بعثرتهم على مدى الامبراطورية العثمانية. بعد ان اتمت روسيا تلك

الإبادة الجماعية، لم يزد عدد الشراكسة الباقين في وطنهم الأم عن مائة الف شخص، حسب راي شيوجين.

طبيعي، افترضت روسيا انها اتمت عملية إبادة الأمة الشركسية بشكل كامل وبنجاح. على اية حال، فان التاريخ سيثبت خلال قرن من الزمن، انها كانت مخطئة.

## المراجع


1. A. K. Sheugen، G. A. Galkin، N. E. Aleshin، A. A. Kushu، B. E. Sheugen، Zemlia Adyghov (The Land of the Adyghas)، Maikop، 1996.

١– أرض الاديغه.

2. Berzeg، Izgnanie Cherkessov (The Expulsion of the Circassians)، Maikop، 1993.

٢– طرد الشراكسة .

3. Semen Esa-dze، Pokorenie Zapadnogo Kavkaza e Okonchanie Kavkazskoi Voiny (The Conquest of the Western Caucasus and the End of the Caucasian War)، Maikop، Izd. (the Publishing House) "Meoty"، 1993.

٣ – اكتساح القفقاس الغربي ونهاية الحرب الشركسية .

# الفصل السابع
# الشراكسة في الوطن الأم

## الشراكسة تحت النير الاستعماري الروسي

فرض النظام الاستعماري الروسي شروطاً لا تحتمل على مجموعة الشراكسة الباقين في وطنهم الأم. جردهم من كافة الحقوق الانسانية، أخرجهم من ساحل البحر والجبال، واجبرهم على الاستقرار في السهول المستنقعية على الضفة اليسرى لنهري الكوبان واللابا – أرض التفريخ لكل انواع الأمراض، حيث سيظلون فريسة وضحايا للمناخ غير الصحي بدون مناص. تلك كانت واحدة من سبل " تطهير" الأرض من العديد من السكان الشراكسة الأصليين. كتب قائد القوات المسلحة لإقليم تيرسكي بصراحة، يوم السابع من ايار عام ١٨٦٤، الى رئيس هيئة اركان جيش كافكازسكي " يجب على البقية غير ذات الشأن من القبائل المحلية في الإقليم......ان تختفي بدون أثر بين السكان الروس المسيطرين ".

في الوقت، كان الاستعمار الروسي لإقليم الكوبان وساحل البحر الأسود يكتسب زخماً. تعين على روسيا ان يكون لديها سكان يعتمد عليهم سياسياً في هذا الإقليم من القفقاس لذلك، فقد اعطت لقوزاق الكوبان دوراً خاصاً ونقلت اليهم جميع الاراضي المستولى عليها من الشراكسة خلال الحرب " كملكية أبدية ". يقول كل من ايه. تي كيراشيفاو ايه. ي. تشيرغ، ان الحكومة القيصرية استولت من الشراكسة على افضل الاراضي لمساحة تبلغ ١،٣٦٠،٠٠٠ ديسياتين ومنحتها للقوزاق و المستوطنين الآخرين. كانت النظم المتبعة للتوزيع هي: ١٥٠٠ ديسياتين للجنرالات، ٤٠٠ للضباط، ٣٠ لكل شخص من جميع الرتب، ولكن من ٥ الى ٧ فقط للأهالي. باختصار، حولت السياسة الاستعمارية الروسية الشراكسة الى "غرباء" في أرضهم وجردتهم من كافة الحقوق الانسانية والمدنية.

مع ذلك، فقد خالفت الإدارة الاستعمارية الروسية هذا "النظام لتوزيع الأرض" بشكل متعمد.

فقد طالبت سياستها الاستعمارية " بان لا تشكل ممتلكات الأرض لعامة السكان الجبليين حتى نصف اعطيات الأراضي الى القوزاق تحت أية ظروف " يقول شيوجين " تمشياً مع هذا المرسوم ( الصادر عن الامبراطور الكسندر نيقولاييفيتش عام ١٨٦١ )، فقد تلقى الأمراء الجبليون من ١٠٠٠ الى ٥٠٠٠ ديسياتين " مقابل خدمة خاصة " و النبلاء من ١٠٠ الى ٢٠٠، بينما تلقى عامة الناس من ٣ الى ٥ ديسياتين لكل ذكر. رغم ذلك، فقد تلقى بعض

افراد الطبقة الشركسية الحاكمة ٣٠٠٠ ديسياتين لكل فرد منهم. وقد ذكر شيوجين من بينهم الجنرال موغوكوروف، العقيد موغوكوروف، والملازم اولاجاي. تلقى الأمير اتاجوكين كابلانوف - نيشايف ٥١٥٠ ديسياتين في منطقة لابينسكي (قرية كوبانسكي).

كذلك تلقى تينجيز أخميز توغو وميس تحه زيوس اوبيوكو مجتمعين ٥٤٥١ ديسياتين في ستانيتزا سيفيرسكي. كذلك كان من السادة الاقطاعيين الشراكسة الآخرين الذين تلقوا أراضي مقابل مشاركتهم في العمليات العسكرية للقوات القيصرية المسلحة بقصد " تهدئة " مواطنيهم: الملازم اخيجاكوف ١١٠٠ ديسياتين، المرشح بونوتوكوف ١١٠٠، والملازم الثاني دوغوجييف ٥٢٥ ديسياتين. كان بعض من المسؤولين الروس الذين تلقوا أراضي " مقابل خدمتهم المخلصة في القفقاس " هم: الاتامان القوزاقي ز. تشيبيجي، القاضي العسكري ايه. غولوفاتي، السكرتير ت. كوتلياريفسكي، والنقيب ف. بورساك. امتلك هذا الأخير ١٦،٥٠٠ ديسياتين من الارض في الكوبان. كانت مستوطنات الشراكسة الجديدة في الاراضي المنخفضة مبعثرة بدرجة كبيرة، لغايات عسكرية واستراتيجية، ومحاطة بسلسلة من ستانيتزات القوزاق والقرى الفلاحية الروسية من جميع الجهات على شكل حلقة مغلقة.

يذكر جيه. ابراموف القبائل الشركسية التي "هاجرت" الى تركيا. تضم لائحته عنهم: الجيغيت، الوبيخ، الشابسوغ، الناتخواي، الابزاخ، الأباظه، الباشلباي، التيميرجوي، البيسليني، الماخوش، البجدوغ ونوغاي عبر الكوبان. تظهر السجلات الرسمية ان مجموع الذين هاجروا الى تركيا من عام ١٨٥٨ الى ١٨٦٥ قد بلغ ٤٩٣،١٩٤ شخصاً، لكن هاجر العديد من الجبليين الى تركيا بدون علم الحكومة الروسية.

يكتب ابراموف " في كل مرة تخضع فيها قبيلة من القفقاس الغربي الى الفاتحين الروس، كانت تعرض عليها المعضلة المطلقة غير القابلة للنقاش: إما الاستقرار في الكوبان والخضوع غير المشروط للحكم الروسي، أو الانتقال الى تركيا ".

زار براموف القفقاس بعد أن قام الروس بطرد معظم الشراكسة منه. أصيب بصدمة من شدة التخريب الذي تسبب فيه الروس، على الرغم من عملية الاستعمار الروسي المكثفة التي كانت قائمة في بلاد الشراكسة في ذلك الوقت. كتب " إن الامكنة التي كانت مأهولة في السابق بعدد كبير من السكان الجبليين، مازالت فارغة حتى هذا اليوم. مجرد قسم غير مهم من هذا الإقليم مسكون بستانيتزات القوزاق، والقسم الآخر قد تم منحه الى المسؤولين الرسميين ال " كولتورتريجيرز ".

إن الاراضي الموزعة على شكل ملكية خاصة ما تزال فارغة بشكل مطلق وغير مستغلة، بينما كانت هذه المساحات الكبيرة مشغولة في السابق وتفلح بطريقة ممتازة من قبل عدد كبير من السكان. والآن، أصبحت الحقول والمراعي الممتازة، التي تم استصلاحها حرفياً بأيدي بشرية فوق القمم الصخرية العارية الناتئة، مغطاة بشجيرات شوكية صغيرة ولم تعد صالحة للفلاحة مطلقاً.

لقد اصبحت اغنى الكروم والبساتين ملأى بالاشجار البرية النامية، ما أدى الى دمارها. وحدها دوالي العنب التي تنمو بطريقة برية ، والتي يمكن العثور عليها عتبات الجبال والبقايا النادرة للهندسة المعمارية الشركسية، تقف شاهدة على الحياة النشطة التي كانت سائدة في هذا الاقليم، والتي تحولت اليوم الى صحراء، وتشهد كذلك على السكان الأصليين للبلاد المجدين في العمل، والذين تحولوا لاحقاً الى يائسين متهورين وحشيين ".

كشفت روسيا القيصرية عن انها سيدة لعبة " فرق تسد "في القفقاس، لكن جميع اعمالها اثبتت انها غير متمدنة على الاطلاق، وانها معدومة الثقافة والرقي. فقد نجحت روسيا بامتياز اثناء الحرب من خلال الرشاوى، توزيع الهدايا النفيسة، الرتب العسكرية، والاراضي الشركسية، في اجتذاب عدد كبير من القفقاسيين الى جانبها وفي جعلهم يقاتلون ضد اخوتهم. بنفس الأسلوب، استخدمت روسيا القوزاق في القفقاس اثناء الحرب، وجعلتهم حكامها " الفاتحين " بعد الحرب. نتيجة لذلك، خلقت عداوة عميقة بين القوزاق والجبليين. اصبح القوزاق " الكلاب القذرون " في أعين الجبليين، بينما اصبح الجبليون في نظر القوزاق " المخلوقات البشعة البذيئة ". وظلوا الاعداء حتى الموت رغم انتهاء الحرب، يجرحون ويقتلون بعضهم بعضاً لدى أية لحظة سانحة. ولكن، كان القوزاق مسلحين والسلطات القضائية المحلية، الحكومية والأمنية جميعها الى جانبهم، بينما صار الجبليون عزلاء كلياً و مجردين من كافة الحقوق الانسانية والمدنية. اكثر من ذلك، طبق قانون المسؤولية المدنية عليهم بالقوة، بدون اعطائهم الحق في الدفاع عن انفسهم في المحاكم، الأمر الذي ادى الى تفاقم المشاحنات القائمة بين المواطنين والقوزاق.

كتب ابراموف، في محاولة لشرح الوضع الذي لا يطاق، والذي وضعت فيه السياسة الاستعمارية الروسية الشراكسة في بلادهم والخارج: لم يتلق الشراكسة في البلقان قطع اراضي ليعتاشوا عليها، ولا أية موارد للحياة. شعروا بالمرارة نتيجة عدد كبير من الكوارث، اصابهم الذهول، وعضهم الجوع بانيابه، فاضطروا يائسين الى شن حرب دائمة ضد السكان المحليين، واصبحوا رجال عصابات يائسين للبقاء على قيد الحياة.

اكثر من ذلك، فقد نقلوا كل الغضب المتراكم ضد الروس "الجاور"، الذين طردوهم من مواطنهم العالية الأصلية، الى " الجاور " المشابهين، السلافيين البلقان – إخوة الروس القبليين. وهكذا نشأ نوع رهيب من العصاة الذي أنزل قدراً كبيراً من المعاناة بالشعب البلغاري، وادى الى قيام مذبحة فيليوبول واحداث اخرى مشابهة. هذا جانب واحد من نتائج طرد الشراكسة الى تركيا، لكن النتائج على الجانب الآخر لم تكن اقل مأساوية. يدعي بيرج، المؤرخ الرسمي لعمليات الطرد هذه، أن طرد الجبليين كان سبب عصيانهم الدائم، وانه كان من المستحيل تهدئتهم، الا اذا اضطر المرء الى تدميرهم كلياً، وإعادة توطينهم من الجبال الى السهول والى تركيا. على أية حال، يقول ابراموف "لم تكن الخطة العظمى نتيجة لأعمال النهب والعصيان الجبلية، بل على العكس، فقد ظهرت اعمال العصابات كنتيجة " للخطة العظمى ". فمثلاً، عندما عبر الشيشان عن خضوعهم عام ١٨٥٧، كان الأمير بارياتينسكي، وهو في حينها القائد العام في القفقاس، قد نشر اعلاناً يقول فيه أن جميع الاراضي التي كانت مسكونة من قبل الشيشان في لحظة اعترافهم بالخضوع، ستظل مملوكة الى الأبد للشعب الشيشاني. حافظ الشيشان على هذا الاعلان كحبات عيونهم. على أية حال، ورغم هذا الاعلان، فقد اقتطع قسم كبير من اراضي الشيشان لتوطين ستانيتزات القوزاق من ٨١،٣٦٠ شخصاً، في مساحه ٧٦ ميل مربع، ولم تحصل كل عائلة على ٥ الى ١٠ ديسياتين.

رغم عدم التحدث عن الإهانة المعنوية، التي لابد ان الشيشان شعروا بها، فان الأرض التي تركت لهم لم تكن كافية لتوفير امكانية العيش، خاصة اذا كان سيؤخذ بنظر الاعتبار حقيقة أن الشيشان في تلك الأيام كانوا يعتمدون على اقتصاد رعي الماشية وحده. هذا هو ما يفسر أصل ممارسة العصيان وقطع الطرق.

بعد ذلك، يدحض السيد ابراموف الاتهامات الروسية ضد الجبليين " يشدد اعضاء الإدارة الروسية في القفقاس، والدارسون والعلماء، حينما يتحدثون عن طرد الشراكسة، على وحشية الجبليين، وأنه بموجب قانون التاريخ العام، حينما يصطدم شخصان، فانه لا مناص من هلاك الشخص الأقل تمدناً بطريقة أو بأخرى. ويضيفون الى ذلك كسل، وغباء السكان الاصليين لإقليم تيرسكي .

" على أية حال، فان كل هذا النواح والعويل الروسي، الموجه ضد الجبليين، ليس له مطلقاً اي أساس في الواقع ".

اذا كان المرء سيقارن ما تم فعله في القفقاس من قبل السكان الأصليين والروس فسوف يثبت ان الأقل ثقافة ورقياً، والأقل انتاجية هم الروس.......

"بنفس المقدار من انعدام الحياء، قام الروس بتدمير منتجات الثقافة القباردية وقرون من الجهود.

فقد دمروا فعلياً "بستان اتاجوكين" قرب نالتشك. كان هذا أحد اكبر البساتين، والذي لا يمكن رؤية مثيل له الا في القفقاس. كتب ابراموف " لقد كان بستاناً - غابة. مقسماً الى جزئين شكَّل احدهما مسطبة نصف دائرية، تنزل بحدة نحو السهل، والآخر – السهل نفسه، الذي يجري خلاله نهر نالتشك.

كانت المسطبة مقسمة صناعياً الى عدة مساطب صغيرة، تشكِّل كل منها نصف دائرة منتظمة، تعلو الواحدة منها فوق الأخرى بواسطة عتبات. احيلت كل هذه المساطب الى كروم رائعة.

كان القسم السفلي من البستان مزروعاً باشجار فواكه متنوعة – إجاص، تفاح "مخروطي"، كرز، برباريس، خوخ، توت وغيره. كانت هناك شوارع ممتازة تحدها اشجار الليمون المر والأكاسيا. وكانت توجد فسحة مستديرة مغطاة بالزجاج. زرعت حولها اشجار خوخ وتوت ضخمة. حفرت قناة لعدة اميال لري الكروم وبعض اقسام من البستان السفلي. تلك كانت حالة البستان في ايدي القبارديين. تلقى منظراً مختلفاً كلياً منذ اصبح الروس أسياده. أهملت القناة. لم تحرث الكروم بل صارت الأغصان الخضراء للكرمة تجز مع الحشائش، لأنها تنمو بدون رعاية، و تقدم علفاً للماشية. اشجار الفاكهة، تخلع الصغيرة منها ويعاد زراعتها في بساتين السكان، لكن الكبيرة تقطع وتحرق كوقود. دمرت شوارع الليمون المر والاكاسيا باسلوب خالٍ من الرحمة كلياً. لقد كنت شاهد عيان بنفسي على بقايا هذه الشوارع: بينما لم يتردد الاعضاء الاكثر ذكاءً من السكان الروس في المشاركة بهذا النهب للممتلكات العامة. قام أحد هؤلاء " الأذكياء " بقطع العديد من اشجار الاكاسيا والليمون حتى لا يشتري الحطب. عندما سألته عن مدى شعوره بقلة اللياقة فيما يفعله، أجابني بأن "هذه الاشجار لا يفترض فيها ان تكون هنا ". كذلك قطع معظم الاشجار الضخمة التي شكلت جزءاً من الدائرة الرائعة، بينما فقدت البقية أغصانها الجانبية وصارت نصف ذابلة. في الوقت الحالي، يمثل " بستان اتاجوكين " مساحة هائلة مهجورة، تنمو فيها شجيرات الكرز الصغيرة، الشجيرات الشوكية والاعشاب. لم تعد الاشجار توجد الا في بعض المناطق، وهي تذكر بالثقافة القباردية السابقة. على اية حال، من المؤكد أن مصير هذه النصب التذكارية القديمة غير مستقر على الإطلاق.

"كانت توجد قرية (آول)قباردية على بعد ٧-٨ فيرستات من نالتشك، صعوداً في النهر الذي يحمل نفس الإسم، ينمو الى جانبها بستان ممتاز، أضخم بكثير من "اتاجوكين" حجماً. أخضع الروس هذا البستان الى نفس النهب مثل " الاتاجوكين " ويقدم مثالاً أضخم من الأخير على بشاعة الإهمال. تلك هي الثقافة الروسية هنا، ويمكن رؤية عينات من هذه الثقافة على مدى اقليم تيرسكي كله. يجب على الاشخاص الذين يتحدثون عن المستوى المتدني من مدنية الجبليين وغياب الجهد العملي بينهم، ان ينتبهوا الى هذه الحقائق، بالإضافة الى حقائق أخرى تؤكد وتصف درجة الثقافة والاجتهاد والانتاجية لدى المواطنين القفقاسيين، والتي تجسدها الحقائق التالية: تطور الهندسة المعمارية الجبلية، والتي يمكن مشاهدة عينات منها في الأبنية المشادة على نمط الأبراج في جبل اوسيتيا، او على ابراج الطريق الجورجي العسكري: تربية الماشية بين الجبليين بشكل عام، ولدى القرشاي بشكل خاص، الذين تمكنوا من ايصال قطعان هائلة من الماشية الى ارتفاعات يصعب الصعود اليها عند سفوح جبل إلبروز: على الري في سهل قوميق، لدى الشيشان جزئياً، ولكن بشكل خاص في اقليم عبر القفقاس، الري، الذي لا يستطيع الروس بناءه هنا، رغم مساعدة التقنيات العلمية و رؤوس الأموال: الانتشار الواسع للصناعات اليدوية بين الجبليين، المصنوعات المحلية الممتازة من الحرير، الصوف، المعادن، وهكذا. لن اذكرها كلها...لكنني ساتحدث عن واحد منها..........

"خلال اقامتي في اقليم تيرسكي، اصبت بصدمة رهيبة من الكره المتبادل، الذي كان يغذيه البعض ضد الآخر من عنصرين رئيسين للسكان في الإقليم – القوزاق المواطنين الاصليين. يظهر هذا الكره جلياً في مشاعر وآراء القوزاق والمواطنين.....نادراً ما يحدث اصطدم لقوزاقي مع مواطن في مكان ما من الحقول، او التقاء العديد من القوزاق بمواطن، او عدة مواطنين بقوزاقي، بدون تاريخ.....إن القتل هنا ظاهرة عادية الى درجة ان كل شخص أصبح حتماً معتاداً عليه ولم يعد يفاجئ أحداً. إن الحقيقة تجبرنا على القول بأن القوزاق، بسبب وضعهم المتمتع بالمزايا، يستخدمون دعم الإدارة، ولأنهم منحوا نوعاً من السلطة على المواطنين، كثيراً مايسيئون استعمال سلطتهم ويبدون درجة لا تصدق من الوقاحة تجاه المواطنين. هذا التصرف يثير المواطنين بدرجة رهيبة ويشعرهم بالمرارة الى درجة انهم يأخذون بثأرهم من القوزاق في اية لحظة مؤاتية....."

كان هذا النظام الاستعماري الروسي القاسي موجهاً الى إذلال الجبليين ذوي الكبرياء الى مستوى "الموجيق" الروس وجعل القوزاق اسياداً لهم. أخفق الروس كلياً في فهم حقيقة

ان الجبليين ذوي الأنفة لا يمكن تحويلهم الى "موجيق"، لأن تركيبتهم النفسية لا تسمح لهم بقبول التغيير. اكثر من ذلك، فقد تسببت الشروط المجحفة التي فرضت عليهم في استعدائهم اكثر. على سبيل المثال، سمحت الإدارة الاستعمارية الروسية للسكان الروس في القفقاس "بإنتخاب" رئيس قريتهم او اتامان الستانيتزا الذي يسكنونه، وقامت " بتعيين " رؤساء الآول. هذه السياسات الاستعمارية التمييزية التعصبية جعلت السكان الروس يشعرون بالسمو على الجبليين " واثارت حفيظة الآخرين بدرجة رهيبة، الذين رفضوا قبول مرتبة " الموجيق " الروس من " اسيادهم " القوزاق الجدد رفضاً قاطعاً.

حاول الاسياد الروس الجدد ان يفرضوا اوضاعاً عديدة اخرى غير مقبولة على الجبليين ذوي الكبرياء. كانت المسؤولية الاجتماعية واحداً منها. فقد جعلت كل السكان المواطنين مسؤولين عن اية جريمة ترتكب في محيط حيهم، في الحالة التي لا يعثر فيها على الشخص المذنب في الجريمة، أو عندما لا يمتلك الامكانيات الكافية للتعويض على الخسارة التي تسبب فيها. تأسست عدة " انظمة " ادارية لأجل ذلك، تركز على ما يلي:

قسمت كافة الطرق في الإقليم الى مناطق. تم توصيل عدة قرى بهذه المناطق، أصبحت مسؤولة عن الانفاق على الحراس والمرجعيات الإدارية – لكل جريمة قتل، نهب، او سرقة تحدث في تلك المنطقة. حينما كان يعثر على اللص، فقد كانت العقوبة على الخسارة تفرض على املاكه. اذا ظهر أن الأخيرة لا تكفي، تفرض العقوبة على أقرب اقاربه وتصبح املاكهم عرضة لفرض الغرامة، واخيراً، في حالة كونهم ذوي امكانيات متواضعة، تفرض الغرامة على مجتمع القرية التي ينتمي اليها الفاعل.

على اية حال، يقول ابراموف: " في كل مرة ترتكب فيها جريمة في الإقليم، يفترض بدون جدال ان مرتكبها احد الوطنيين وليس روسياً بأي شكل، بصرف النظر عن مكان حدوثها.

يكرر اكثر من ذلك " كل الجرائم تعزى الى المواطنين وحدهم، وهذا امر لا أساس له مطلقاً " . ينطوي هذا القانون الاستعماري على نتائج محزنة جداً. فهو يعاقب المواطنين سواء كانوا مذنبين ام لا، لكنه أيضاً يفسد الروس، الذين يطمئنون الى تبرئتهم من أية جريمة ضد السكان الأصليين. كان تأثير الفساد كبيراً على البيروقراطيين بشكل خاص، لأنهم لم يكونوا قادرين على تقييم سعر البضائع المسروقة، ويطلبون تعويضات تبلغ ضعفي او أربعة اضعاف القيمة من اجل الربح الشخصي. لجعل الأمور أسوأ، أعطي الحق في نزع اسلحة المواطنين الى جميع القوزاق لسبب ما، الأمر الذي كان يؤدي صدامات وجرائم قتل بشكل دائم. هنا

أيضاً كانت الأسلحة الثمينة المصادرة، مثل الخناجر ذات المقابض المزينة بطريقة نفيسة، تختفي بكل بساطة، مما يصعّد العداوة لدى السكان المحليين الذين يساء اليهم.

في الوقت نفسه، فقد تعاون اللصوص بغض النظر عن خلفياتهم العرقية. وهذا وصف ابراموف للوضع: ان سرقة الخيول والمواشي منظمة في شمال القفقاس بشكل جيد الى درجة ان ممثلين عن كافة الجماعات العرقية الذين يعيشون هنا يساهمون فيها. على سبيل المثال، فان الحصان المسروق من هضاب القالميق يتم تسليمه عبر المستوطنات الروسية لمنطقة ستافروبول وستانيتزات القوزاق لإقليم الكوبان، وراء الكوبان، وفي الاتجاه المعاكس، ترسل الجياد المسروقة من اقليم الكوبان عبر مقاطعة ستافروبول الى استراخان. يشارك شراكسة الكوبان، القوزاق، الفلاحون والقالميق بنفس النسب في مؤسسة اللصوص هذه. لدى النوغاي، القوزاق، الإنجوش والمواطنين الآخرين في اقليم تيرسكي نفس العلاقة بين احدهم والآخر. في الاثناء، يتم تجاهل هذه الحقائق كلياً، وعلى الرغم منها توضع المسؤولية الكاملة عن الجريمة في اقليم تيرسكي على المواطنين بشكل استثنائي، الأمر الذي يؤلم من الناحيتين المادية والمعنوية الأخلاقية "

## المناطق العسكرية

رغم انتهاء العمليات العسكرية، استمرت وزارة الحربية في حكم بلاد الشراكسة. يقول شيوجين، انها اوجدت احد عشر منطقة ألوية في اقليم الكوبان، بما فيها خمسة مناطق لحكم الجبليين. مناطق الألوية هذه هي:

١ – بسه كوبسكي، والتي ضمت آولات (قرى) غرب بلاد الشراكسة الواقعة بمحاذاة المجرى الأوسط للكوبان والمجرى الأسفل لنهر بسه كوبس.

٢ – لابينسكي، التي وحدت قرى بلاد الشراكسة الغربية الواقعة بين نهري بيلايا واللابا.

٣ – اوروبسكي التي كان يسكنها الشركس و النوغاي والأرمن.

٤ – زيلينتشوكسكي، التي ضمت الشركس، الأباظه والنوغاي القاطنين بمحاذاة زيلينتشوك.

٥ – البروزسكي، التي يقطنها القرشاي والاباظه بمحاذاة نهر الكوما وروافده. عام ١٨٥٨، تشكلت المنطقة القباردية، وأصبحت جزءاً من المناطق الثمانية التي تشكل اقليم تيرسكي. على أية حال، أعيد تسميتها منطقة جورجييفسكي عام ١٨٦٩، واصبحت قباردا الكبرى جزءاً منها، بينما اصبحت قباردا الصغرى جزءاً من مديرية سونجينسكي. وهكذا بدأ

تطبيق سياسة " فرق تسد ". انطلقت عملية الدفن المنظم والنسيان للاسماء التاريخية القديمة للمنطقة الشركسية والتذويب الأجباري للسكان الأصليين في الإقليم. حاولت هذه العملية ان تحرم الشراكسة من صفاتهم الوطنية، لغتهم الأصلية، تقاليدهم، وثقافتهم. كانت السياسة القيصرية بأسرها موجهة نحو التدمير الفعلي والمعنوي للأمة - "لتذويبها " وسط الكتلة المسيطرة للقادمين الجدد الروس والقوزاق، من اجل "ترويس" السكان الأصليين إضافة الى الظلم السياسي والاقتصادي. أولت الحكومة القيصرية اهتماماً خاصاً " لجعل شمال القفقاس إقليماً روسياً بالكامل "في معرض تعليماتها الى الحاكم العام للقفقاس. اكّد العقيد سافيتسكي، أتامان مديرية لابينسكي في تقريرة انه سيكون " منهمكاً بشكل نشط في ترويس الجبليين ".

لاحظ ل. لولي أن الاسماء الشركسية العائدة الى مئات السنين او حتى الى ألف سنة مضت، كانت تستبدل باسماء روسية بطريقة متعمدة. كتب " لا أعرف لماذا، ولكننا معتادون على تسمية جميع القبائل التي تقطن المنحدارات الشمالية لجبال القفقاس " تشيركيسِّي " بينما هم يسمون انفسهم " أديغه ".

عام ١٨١٧، الغيت المناطق العسكرية وقسم اقليم الكوبان الى " اويزد " (مقاطعات). اصبحت القرى الشركسية والستانيتزات القوزاقية المجاورة قسماً من اويزد مايكوب وايكاتيرينودار بشكل رئيس.

عام ١٨٨٨، انشئت مديريات بدلاً من الأويزد. قسم اقليم الكوبان الى سبع مديريات: ايكاتيرينودارسكي، إيسكي، كافكازسكي، لابينسكي، مايكوبسكي، تيمريوكسكي و باتالباشينسكي.

حدثت تغييرات ادارية معينة في المقاطعات الواقعة على ساحل البحر الأسود في القفقاس. تشكلت مقاطعة تشيرنومورسكي هنا منذ العام ١٨٦٦. فيما بعد (١٨٨٨) اصبحت قسماً من اقليم الكوبان مع حقوق أويزد. عام ١٨٩٦ اعيد تنظيم هذه المقاطعة الى منطقة تشيرنومورسكي، ومركزها نوفوروسيسك. قسمت هذه المنطقة الى ثلاث مقاطعات: نوفوروسيسكي، طوبينسكي و سوتشينسكي.

حسب كلمات شيوجين، فان معظم الشراكسة الغربيين الذين بقوا في وطنهم الأم، عاشوا في مديرية مايكوب. على أية حال، فان قراهم القليلة "ذابت "وسط الكتلة الهائلة من ستانيتزات القوزاق ومستوطناتهم، قراهم وتجمعاتهم. وهكذا، حسب " التوزيع الجديد للمناطق المأهولة لإقليم الكوبان " ( السابع من شباط، ١٨٩١ )، في مديرية مايكوب فقد ضم:

مدينة مايكوب، ستانيتزات: نيكراسوفسكي، نوفولابينسكي مع مستوطنة اليكساندروفسكي، تينجينسكي مع مستوطنة جيمانسكي، فوزدفيجينسكي، جياجينسكي، كيليرميسكي، خانسكي، كوجورسكي، ياروسلافسكي، ماخوشيفسكي، كوستريومسكي، بيريبرافني اندريوكوفسكي مع مستوطنة تشيرني، بسيبايسكي، بيسلينيفسكي، باغوفسكي، خامكيتسكي، غوبسكي، باراكايفسكي، تسارسكي، سيفاستوبولسكي، ابزاخسكي، داخوفسكي، كامينوموتسكي، تولسكي، كوجيبسكي، داغستانسكي، نيجه غورودسكي، بروسكي، سامورسكي، شيروانسكي، ابشيرونسكي، نيفتيانايا، خاديجينسكي مع مستوطنة خاديجينسكي، قباردينسكي، كوبينسكي، تفيرسكي، جوريسكي، ابخازسكي، لينينايا، ايميريتينسكايا، تشيرنيجوفسكي، بشيخسكي، بجدوغوفسكي مع مستوطنة ميخايلوفسكي، بيلوريتشينسكي، بالاضافة الى ستانيتزا دوندوكوفسكي المنشأة حديثاً، ومستوطنات: خاميشسكي، تيمنوليسكي، ليونتييفسكي، فيليبوفسكي، نيقولاييفسكي، ايفانوفسكي، بورنويه، تشيرنوريتشي: سلوبوداسيرجييفسكي وشيدوك، وكذلك ٢٢ آول شركسي، اعتباراً من ١٥ كانون الثاني، عام ١٨٧٥.

الآولات الشركسية واعداد سكانها في أويزد ايكاتيرينودار:

| الآول | عدد السكان | الآول | عدد السكان |
|---|---|---|---|
| آسوكالاي | ١٢٠٩ | بونيجكواي | ١،١٠٣ |
| أفيبسيب | ٨٣٨ | بسيتوك | ٧٦٦ |
| بجه حاكوي | ١،١٣٢ | بشحاتلي كواي | ١٠٠٩ |
| اوتشه بشي | ٩٩٧ | بشِقوي حابله | ١٤٢ |
| غوباكوي | ١٢٠٦ | تويي حابله | ٢٣٧ |
| حاتله كوي | ١٠٩٣ | تاختا موكوي | ١،١٣٢ |
| جيجه حابله | ٦٨٢ | تلوستن حابله | ١،٢٨٣ |
| قازانوكوي | ٥٣٢ | توغورغتوي | ٣٣٧ |
| كوزيت | ٣٩١ | حاشتوك | ٦٠٣ |
| كونشوكو حابله | ٣٥٤ | شابانه حابله | ٤٤٩ |
| لاكشوكوي | ٨١٣ | شيهان تشري حابله | ٢١٥ |
| نيتشيري زي | ٢٥٤ | شينجي | ٩٨٣ |
| نيشوكوي | ٤١٤ | يريبسكوي | ٤٣١ |
| يشوكوي | ٣٨٠ | يريبسكي | ٤٢٠ |

الآولات الشركسية واعداد سكانها في اويزد مايكوبسكي

| | | | |
|---|---|---|---|
| آدامسكي | ٥٨٧ | ناتيربوفسكي | ١،٤٢٥ |
| بغواشه حابله | ١،٢٣٧ | بشيزوفسكي | ٦٨٣ |
| بينوكسكي | ٢،١٤٣ | تيميرجويفسكي | ٨٥٧ |
| بجدوغوفسكي | ١٠٠٠ | أولسكي | ١،٦٣٢ |
| بلشه بسين | ١،٩٥٩ | اوناروكوفسكي | ١،٠١٨ |
| جانكياتوفسكي | ٧٩٣ | خاجيموكوفسكي | ٣،٠٨٩ |
| جاراكايفسكي | ٥٥٨ | خاكورينوفسكي | ١،٧٦٩ |
| ييجيروخايفسكي | ١،٧٥٨ | خاتاجوكاييفسكي | ٢،٧٧٦ |
| كوشه حابلسكي | ١،٥٥٧ | خاتوكايفسكي | ٦٢٣ |
| كورجيبسكي | ٥٧٩ | خاتشيمزيفسكي | ٤٥٠ |
| مامكغوفسكي | ١،١٥٩ | خودزسكي | ٢،١٨٤ |
| المجموع | | | ٤٩،١٣٢ |

توزيع السكان الشراكسة في مديريات اقليم الكوبان عام ١٨٩٧

| المديريه | عدد قرى الجبليين | مجموع السكان |
|---|---|---|
| ايكاتيرينودارسكي | ٣٠ | ٢٠،٢٦١ |
| مايكوبسكي | ١٥ | ٢٢،١١٦ |
| باتالباشينسكي | ٢٨ | ٣٧،٤٢٢ |
| تيمريوفسكي | ١ | ٤٨٢ |
| المجموع | ٧٤ | ٨٠،٢٨١ |

## جمهورية شمال القفقاس

بدأت الاخبار عن الحركة الثورية في روسيا تصل الى الشراكسة. رأوا فيها، مثل جميع سكان القفقاس وحتى روسيا، فرصة لتحرير أنفسهم من النظام القيصري، الذي كان قاسياً بشكل خاص في القفقاس.

ايقظت هذه الأخبار جذوة الأمل في نفوس معظم الناس في ان يصبحوا احراراً مرة أخرى.

لذلك، فقد اجتمع ممثلو شعوب شمال القفقاس في فلاديكافكاز يوم ١٧ أيار عام ١٩١٧، وانتخبوا ممثلين لإعلان استقلال شمال القفقاس. من بين الاشخاص البارزين الذين انتخبوا للمهمة النبيلة العزيزة على القلوب: " الرئيس تاباتشيرمويف (شيشاني)، رئيس البرلمان فاسا – جيراي جباغي (إنجوش)، وزير الخارجية حيدر بامات (داغستاني) والوزراء: بشيماف كوتسيف ( شركسي )، علي خان كانتيمير (اوسيتي) وآخرين.

قال تراهو " بناء " على السلطة الموكلة اليها من قبل المجلس القومي الثاني (٨ ايلول ١٩١٧)، فقد اعلنت اللجنة المركزية لشمال القفقاس استقلال جمهورية شمال القفقاس يوم ١١ أيار عام ١٩١٨، وعقدت تحالفاً مع تركيا، التي اعترفت باستقلال جمهورية شمال القفقاس، كذلك وبنفس الطريقة، اعترفت دول وسط اوروبا والتحالف في مؤتمر باريس والبلشفيين باستقلال جمهورية شمال القفقاس.

جاء في البرقية المرسلة بالراديو يوم ١٦ أيار من قبل تشيرمويف وبامات، ممثلي حكومة شمال القفقاس: " إن المجلس القومي المنتخب قانونياً من قبل شعوب القفقاس، بعد أن أنعقد في ايار وايلول من عام ١٩١٧، يعلن تشكيل تحالف جبليي القفقاس الذي قرر الانفصال عن روسيا وتشكيل حكومة مستقلة: ستكون مناطق هذه الدولة ذات حدود في الشمال هي نفس حدود اقاليم الداغستان، تيريك، ستافروبول، الكوبان والبحر الاسود في الامبراطورية الروسية السابقة، وفي الغرب البحر الأسود، وفي الشرق، بحر قزوين.

وصلت الفرقة التركية الخامسة عشرة في تشرين الأول عام ١٩١٨، تنفيذاً للاتفاق بين البلدين. كان العقيد سليمان عزت قائده، المقدم بيركوك رئيس الأركان، ومعه ضباط موهوبون مثل تيموركوبان وغيره تحت قيادة القائد العام يوسف عزت باشا. انتهى بهم المطاف وهم يخوضون معارك في ديربينت، بتروفسك، وخاساف يورت، احياناً ضد البيض وأخرى ضد الحمر، بدلاً من العمل على بناء القوات المسلحة لشمال القفقاس، وهي مهمتهم

الرئيسة. سرعان ما انسحبت هذه القوة التركية من القفقاس بطلب من التحالف الذي احتلت قواته استنبول في نهاية تشرين الثاني.

"بعد ذلك بوقت قصير، ظهرت قوات التحالف المسلحة في باكو تحت قيادة الجنرال ثومبسون. اعترف الأخير في إعلانه، بوجود جمهوريتي اذربيجان وشمال القفقاس، بانتظار قرار مؤتمر السلام في باريس حول هذه المسألة ".

أجبر هذا الوضع تي. تشيرمويف على الاستقالة فاسند تشكيل الوزارة الى ب. كوتسيف. ارسل وفد مطلق الصلاحية على وجه السرعة الى مؤتمر السلام في باريس. عين تي. تشيرمويف على رأس هذا الوفد. كان ابراهيم حيدر وحيدر بامات، وزير الشؤون الخارجية، ضمن الوفد المرافق له.

هاجم البيض والحمر القفقاس من جهتين، من اجل منع مؤتمر السلام في باريس من اتخاذ قرار اي قرار حول مسألة القفقاس.

احتاجت جمهورية شمال القفقاس الى جيش مؤلف من ٣٠٠ الف مقاتل للدفاع عن حدودها الشمالية من البحر الاسود وحتى بحر قزوين، بفعالية. على اية حال، وبسبب وجود عدد قليل جداً من القوات المسلحة والمدربة بقدرٍ كافٍ، اضطرت للجوء الى غير النظاميين.

بعد تحرير جوشجيلد، بيرديكيل و تشيتشين آول من الحمر، تمكنت وحدات شمالية قفقاسية يوم ٢١ كانون الثاني عام ١٩١٩، من الاستيلاء على مقاطعة آلدين، بعد ان تكبدت خسائر كبيرة جراء الألغام والأسلاك الشائكة. كانت قوات الحمر المنهكة تتراجع نحو الشمال. في هذا الوقت تحديداً، ظهر عدو جديد، هو الجنرال دينيكين، امام القوات المسلحة لشمال القفقاس.

كانت جميع هجمات الجنرال شاتيلوف، منذ نهاية شباط ١٩١٩ وحتى نهاية آذار، غير محظوظة بالنسبة للبيض. فقد هزموا في نيجني أتاغ، جوديرميس، تشيتشين آول وعلاخان – يورت.

بعد ان ادركوا انهم لن يتمكنوا من التعامل مع غير النظاميين ( المواطنين المسلحين )، قرر البيض ان يأخذوا استراحة لتركيز قواتهم.

في بداية نيسان عام ١٩١٩، سحب الجنرال افضل فيلقين من جبهة سيفيرني فورونيجسكي (شمال فورونيج)، وانطلق بهما نحو شمال القفقاس تحت قيادة الجنرال فرانجيل.

قال دينيكين بهذا الخصوص: " كان شمال القفقاس في ربيع وصيف عام ١٩١٩، قدراً

يغلي..... كانت داغستان والشيشان قد اصبحتا المسرح الجديد للعمليات العسكرية، ما اجبرنا على تحويل قوات مسلحة كبيرة ".

زحف على إنجوشيتيا بأحد الجناحين، حيث دفع غير النظاميين بوحدات الجنرال جيمان الى الخلف. بالجناح الآخر، توجه الجنرال شاتيلوف، وهو يقود الفرقة المؤلفة من ١٢ ألف رجل، بمحاذاة نهر سونجا، واحتل حقول النفط القديمة على الضفة اليسرى، وقسماً من مدينة جروزني على اليمنى.

هجم الجنرال دينيكين على جبهة شمال القفقاس " بثلث مجموع قواته ". قامت انجلترا، ممثلة بشخص الجنرال بريجز، بطلب التصفية الاختيارية من حكومة جمهورية شمال القفقاس. قدم ب. كوتسيف، رئيس الحكومة القفقاسية الشمالية، استقالته.

كلف الجنرال م. خليلوف بتشكيل حكومة جديدة.

استغل البلاشفة ذلك الوضع.

بينما كان دينيكين منشغلاً في شمال القفقاس، هزم البلاشفة الأميرال كولشاك في الشرق، والجنرال أودينيتش في الشمال، وعقدوا صلحاً مع بولندا. دفعوا بالجيش التطوعي الى شبه جزيرة القرم بدون جهد كبير، ثم طردوه من هناك. ارسل الجيشان العاشر والحادي عشر الجديدان الى شمال القفقاس. دام الصراع تسعة أشهر. خلال تلك المدة كانت جورجيا وارمينيا قد انضمتا الى السوفييت. انهار شمال القفقاس بدوره، وفي عام ١٩٢١، نشر السوفييت سيطرتهم على كامل القفقاس.

"انتخب الشراكسة مع القوزاق مجلس ادارة أعلى – رادا (مجلس) الكوبان التشريعي. كان الشراكسة الذين دخلوه هم: قاسبولات اولاغاي، كوتشوك ناتربه، شهم سلطان جيراي، آيتك ناميتوق، مراد حاتا غوغو، صفربي سيوخو، وآخرون. انتخب الشراكسة ناتربه في حكومة الكوبان.

## الشراكسة تحت الحكم البلشفي

احد اكثر الشعارات البلشفية اغراءً هو الشعار حول المسألة القومية، والذي وعد بحرية كاملة لجميع الأمم. مكّن هذا الشعار البلاشفة من الاستيلاء على السلطة. كذلك كان انشاء جمهورية واحدة " متحالفة " منطقتين "ذات حكم ذاتي" و "منطقة قومية" واحدة (هي جمهورية قباردينا السوفيتييه الاشتراكية، الأديغي واقاليم الشركس ذات الحكم الذاتي، ومنطقة الشابسوغ القومية).

جمهورية قباردينو – بلقاريا: تقع في المنحدرات الشمالية من القسم الأوسط لسلسلة جبال القفقاس الرئيسة ذات الجمال الأخاذ، والسهول المنخفضة المجاورة، بشكل رئيس الى الغرب من منحنى نهر تيريك. تبلغ مساحتها ٤٨٢٥ ميلاً مربعاً، عدد سكانها ٧٨٥٠٠٠ نسمة مكونة من الشراكسة (القباردي)، البلقار، الاوسيتين والروس. العاصمة نالتشك. هناك رواسب معدنية غير حديدية غنية (مثل المولبيدينوم، التنجستن، الزنك، الرصاص، الخ ) والذهب والبلاتين، كذلك خام الحديد، الزرنيخ، ومواد البناء. كذلك توجد فيها صناعات غذائية متنوعة مهمة وتقوم بتربية الاغنام والمواشي.

التاريخ: انشئت بقرار من ال VtsIK (اللجنة التنفيذية المركزية لعموم الاتحاد ) الأول من ايلول عام ١٩٢١: الاقليم القباردي ذو الحكم الذاتي.

١٦ كانون الثاني عام ١٩٢٢: الحق بها اقليم البلقار من جمهورية غورسكي الاشتراكية. الخامس من كانون الأول عام ١٩٣٦: تحول اقليم قباردينو – بلقار للحكم الذاتي الى جمهورية قباردينو – بلقاريا السوفييتية الاشتراكية للحكم الذاتي. في النهاية، وبعد ترحيل البلقار على اساس انهم " اعداء الشعب " عند نهاية الحرب العالمية الثانية، اعادت الحكومة السوفييتية تسمية جمهورية قباردينو – بلقاريا الى الجمهورية القباردية السوفييتية الاشتراكية للحكم الذاتي.

**جمهورية الاديغي:** تقع في المنحدرات الشمالية لسلسلة القفقاس الجميلة، ضمن وادي نهري الكوبان واللابا وسهل الكوبان الخصيب. عاصمتها مايكوب، مساحتها ٧٨٠٠ كيلومتر مربع. عدد سكانها ٤٥٠،٠٠٠ نسمة.

التاريخ: تشكلت بقرار من اللجنة التنفيذية المركزية لعموم الاتحاد:

٢٧ تموز عام ١٩٢٢: اقليم الاديغي ( الشركسي ) للحكم الذاتي. قبل ذلك، كانت جزءاً من اقليم كوبانو تشيرنومورسكي لفترة قصيرة. لغاية ١٩٣٦، كان المركز الإداري لاقليم الأديغي هو كراسنودار ( ايكاتيرينودار السابقة )، والتي لم تكن جزءاً من هذا الإقليم. ومنذ عام ١٩٣٦، اصبحت مايكوب العاصمة.

منذ العام ١٩٢٢، اصبحت الأديغي جزءاً من تشكيلات إقليمية متنوعة في جنوب روسيا برتبة اقليم ذي حكم ذاتي. من عام ١٩٣٧ وحتى العام ١٩٩١، كانت جزءاً مكملاً من كراي كراسنودار. عام ١٩٩١ اصبحت الأديغي جمهورية كاملة السيادة ضمن الفدرالية الروسية.

تحتفظ الأديغي بعلاقات اقتصادية، اجتماعية وثقافية مع موسكو، كراي كراسنودار، قباردينو – بلقاريا، كاراشيفو – تشيركيسيا، الداغستان، إنجوشيتيا، و اوسيتيا الشمالية،

بموجب اتفاقيات منفصلة. يقوم العديد من المشاريع في الجمهورية بتسويق منتجاتها في عشرات الدول الاجنبية. تصدر الاديغي الادوات الصناعية، اجهزة تبديل السرعات، الاثاث، الكرتون، البذار الزيتية والمواد الغذائية. يبلغ حجم التجارة الخارجية للجمهورية ٣٠ مليون دولار سنوياً.

**جمهورية كاراشيفو – تشيركيسيا:** تشكل جزءاً من اقليم ستافروبول وتشغل الهضاب المنخفضة في الشمال، وتحتضن سفوح الجبال في الجنوب. مساحتها ٥٥٠٠ ميل مربع، عدد سكانها ٤٣٥،٠٠٠ نسمة مؤلفين من الشراكسة، القرشاي، الاباظه، النوغاي، والروس. العاصمة: تشيركيسك. يعتمد اقتصادها على زراعة الحبوب والخضار وتربية الماشية.

التاريخ: تشكلت بقرار من اللجنة التنفذية المركزية لعموم الاتحاد:

١٢ كانون الثاني عام ١٩٢٢: اقليم كاراشيفو - تشيركيس للحكم الذاتي.

١٩٢٤: أصبح اقليم كاراشيفو - تشيركيس للحكم الذاتي جزءاً من الكراي الجنوبي - الشرقي ( لاحقاً - القفقاسي الشمالي )

٢٦ نيسان ١٩٢٦: اقليم قرشاي للحكم الذاتي.

٢٦ نيسان ١٩٢٦: اقليم تشيركيس القومي.

١٩٣٧: أصبح اقليم تشيركيس للحكم الذاتي جزءاً من كراي ستافروبول.

٢ تشرين الثاني عام ١٩٤٣: الغي اقليم قرشاي للحكم الذاتي. تم ترحيل ٦٨،٣٢٧ من القرشاي على اعتبار انهم " اعداء الشعب ".

٩ كانون الثاني عام ١٩٥٧: اقليم كاراشيفو – تشيركيس للحكم الذاتي. المساحة ١٤،١٠٠ الف كيلو متر مربع.

**منطقة الشابسوغ القومية:** ٤ ايلول عام ١٩٢٢، انعقد مجلس شابسوغ الساحل وقرر توحيد ال ١٢ آول الشركسية في مقاطعة طوابسه لتشكيل جمهورية شابسوغ مستقلة مركزها مدينة طوابسه، وضم مقاطعة سوتشي اليها على ان تكون حدودها الغربية نهر بشاد.

قام مكتب الحزب الشيوعي الروسي لبلاشفة اقليم اديغا - تشيركيس للحكم الذاتي بدراسة خطاب جانبولات نيغوش، ممثل جمهورية الشابسوغ.

٢١ آب عام ١٩٢٤: اتخذ مؤتمر المكتب الجنوبي – الشرقي لبلاشفة عموم روسيا الشيوعي قراراً ضد تشكيل مقاطعة شابسوغ مستقلة.

٢٣ آب عام ١٩٢٤: انعقد المجلس القومي لشعب الشابسوغ في جلسته العادية، حيث طرح بعض المندوبين اقتراح منح الشابسوغ حكماً ذاتيا كاملاً ضمن اقليم كوبانو - تشيرنومورسكي.

٢٣ أيلول عام ١٩٢٤: قام مجلس الرئاسة المصغرة للجنة كراي التنفيذية بدراسة مسألة الشابسوغ القاطنين في مقاطعة تشيرنومورسكي وأقر تشكيل مقاطعة شابسوغ قومية مستقلة، ضمت العديد من الآولات ( القرى ) ، كانت تنتمي سابقاً الى مقاطعة طوابسة. بشكل خاص، اصدرت لجنة الكراي التنفيذية القرار " بالموافقة على تخصيص ثمانية آولات في مقاطعة طوابسه، يسكنها الشابسوغ، الى مقاطعة الشابسوغ المستقلة، والتي هي جزء مكمل لمقاطعة تشيرنومورسكي، وتقديم اكبر قدر ممكن من الدعم لشعب الشابسوغ في مسألة تطويرها الثقافي والاقتصادي ".

١٩٢٤: دخلت مستوطنة لازاريفسكي مقاطعة الشابسوغ القومية.

١٤ كانون الثاني عام ١٩٣٤، انتقل مركز مقاطعة الشابسوغ القومية الى لازاريفسك.

٢٤ أيار عام ١٩٤٥: بقرار من رئاسة مجلس السوفييت الأعلى لمقاطعة الشابسوغ القومية، أعيد تسمية مقاطعة الشابسوغ القومية [1] – مقاطعة لازاريفسكي.

---

(١) ضمت منطقة الشابسوغ، بشكل عام، ساحل البحر الأسود من القفقاس من نهر بشاد وحتى نهر شاخا ( شابسوغيا الصغرى )، اضافة الى المنحدرات الشمالية للسلسلة الرئيسة والسفوح لغاية نهر الكوبان بين نهري اداغوم وسوبس ( شابسوغيا الكبرى ). يحدد مؤلفو فترة ١٨٣٤ – ١٨٣٨ عددهم بين ٧٧،٤٠٠ الى ٢٠٠،٠٠٠ وحتى الى ٣٠٠،٠٠٠.

يقول شيوجين ان اسم قبائل شابسوغ الساحل هو ( شابسيك ) ويذكرهم م. بيسونيل، وبعد ذلك بقرن، ذكر المؤرخ تشيليبي جيرانهم الشيجاك ( الحاكوش ) قرب أنابا، عام ١٦٦٦.

كذلك، كتب عنهم ف. دوبوا دي مونبيرو ( ١٨٣٩ ) " القبيلة الأولى موجودة قرب أنابا وتسمى شاجاك أو "سكان البحر "، تمتد حدودهم الى سوجوك كاله

( نوفوروسيسك ) حيث يفصلهم نهر صغير عن القبيلة الثانية الناتخواج، وتمتد هذه القبيلة بمحاذاة الساحل الى نهر بشاد. بعد نهري بشاد وآبين تبدأ القبيلة الشركسية الثالثة والرئيسه – الشابسوغ، التي تحتل الساحل لمسافة حوالي ٩٥ فيرست، تبدأ من بشاد الى آول ماماي. يبلغ الشابسوغ ٢٠٠ الفاً. يجيء بعدهم على ساحل البحر الوبيخ، الذين يمتدون من ماماي الى قرية فاغوركا.

عام ١٨٥٨، قال بيرج ان ارض شابسوغيا الصغرى " تجاور الساحل الشرقي للبحر الأسود وتحاذي السلسلة الرئيسة من الشمال، ومن الجنوب مع نهر شاخا، الذي يقطن وراءه الوبيخ " عام ١٩١٤، كتب س. ايسادزه الشابسوغ، اكثر الشعوب تعداداً، كانوا يشغلون اقليماً غنياً بين نهري شاخه وبشاد على الجانب.

الجنوبي للسلسلة الرئيسة . كانت لديهم عدة موانئ على ساحل البحر الأسود لرسو السفن التركية هي : طوابسه ، جبغادبشاد ......"

اثناء فترة النفي الجماعي للشراكسة الى تركيا ( ١٨٥٨ – ١٨٦٤ )، ظهر أحد آخر اسواق العبيد في القفقاس عند مصب نهر طوابسه. كتب بي. جي. بوتكوف عام ١٨٦٩ " إن التجارة الرئيسة لدى الشابسوغ هي قطع الطرق. فهم يتسلطون على قوزاق تشيرنومور: ينهبون اولئك الذين يحضرون الى انابا وبهذا فهم لا يستثنون الشركس ولا المواطنين الاتراك، الذين يقعون بين ايديهم في أنابا. " كتب دوبوادي مونبيرو مؤكداً على ذلك ( ١٨٣٨ ): يصب نهر طابسه او طوابسه في البحر عند منخفض الميتاء الى جوار آول ماماي – الملاذ = =

بقيت هذه " الحكومات الذاتية " على الورق حتماً. أصيب بعض الثوريين البارزين الذين انشأوها في المقام الأول بآمال عريضة، بخيبة أمل. فقد خلعوا النظام القيصري وشكّلوا "جمهورياتهم " " وحكوماتهم الذاتية " آملين ان يتمكنوا من تكوين قدرهم الخاص. بقيت عبارة " الحرية الكاملة لكل قومية " وعداً بغير وفاء. ظلت حقوق هذه " الجمهوريات والحكومات الذاتية " غير ممارسة واضطر قادتها الى اتباع الخط العام للحزب الشيوعي واطاعته بدرجة كاملة وتامة. تركزت السلطة في أيدي الامناء العامين للحزب، ذوي الصلاحيات المطلقة، المرسلين من قبل موسكو وليس عليهم سلطة الا لها.

---

= = الرئيس للقراصنة الشراكسة. لدى شابسوغ ماماي سفينتين شراعيتين كبيرتين، يمكنهم تحميل ما يصل الى ١٢٠ شخصاً فيها ".

من المنطقي ان هذه المعلومة لا تشير الى القبيلة كلها، بل الى مجموعة معينة منها. لان معظم الشراكسة كانوا يعملون في مسائل سليمة عادية – فقد كانوا يزرعون الحبوب ويربون الماشية.

انزلت " الحرب القفقاسية " والتهجير القسري الذي تلاها الى تركيا خسارة لا تعوض بقبيلة الشابسوغ القوية سابقاً.

هلك في الاعوام من ١٨٣٥ – ١٨٥٨ وحدها ٤٠ ألف ( لا تدخل سنوات الحرب الأخيرة حتى العام ١٨٦٤ في الحساب ). بدوره، شكّل " خروج " هذه القبيلة الى تركيا ١٥٠ – ١٦٠ الف شخص على الأقل. لم يبق من شابسوغ البحر الأسود إلا قلة.............

ان اصل اسم طوابسه مثير للإهتمام. يترجم بعض الباحثين اسم هذه المدينة الى ( روجين ) حسب ك. خ. ميريتوكوف....... " اعطوه هذا الإسم الى النهر، لأنه يبدأ في مجراه الأعلى بنهرين – بشه ناخو ( بسه نف ) وتشيله بسه. بعد التقاء النهرين، تجري مياهما بعيداً ان تختلطا. لذلك، طوابسه طو – اثنان وبسه " نهر " اي " النهران ".

تعود " السيرة الحياتية " لطوابسه الى اعماق القرون. هناك إشارة على خارطة " البحر الاسود الشرقي في القرون الرابع وحتى الثاني قبل الميلاد " عند مصب النهر، تعود الى مكان سكن، توبسيدي. كذلك ذكرت توبسيدي من قبل المؤلفين البيزنطيين في القرن الخامس قبل الميلاد بسيودو- أرياني.

في نفس الموقع على الخرائط الجنوية والبندقية والكاتالونية العائدة للقرون من ١٣ الى ١٥ ميلادية ، وهو الموقع يعرِّفه المؤرخ إف . برون على انه طوابسه – كودوش . كتب عنه بيسونيل في منتصف القرن الثامن عشر .

كان الرحالة الفرنسي دوبوادي مونبيرو قد زار طوابسه بين عامين ١٨٣٣ – ١٨٣٤ ، واعتبرها أحد مراكز شابسوغيا .

في الاعوام من ١٨٣١ – ١٨٣٨ حوصر كل الساحل ، الذي كان يعود سابقاً الى جبليي البحر الأسود ( الناتخواي ، الوبيخ ، والشابسوغ ) بتحصينات قيصرية : نوفو – ترويتسكي على مصب بشاد ، ميخائيلوفسكي ( مصب نهر فولان ) ، تينجينسكي ( نهر شابسوخه ) ، نافاجينسكي ( نهر سوتشي ) ، غولوفينسكي ( نهر شاخه ) ، ولازاريفسكي ( نهر بسه زوابسه ) وغيرها .

يعود تاريخ العملية المشهودة بالنسبة للشابسوغ ، الى نزول القوات القيصرية المسلحة عند مصب نهر طوابسه ، والذي بنيت نتيجة له قلعة فيليامينسكي . لقد لعب هذا المركز – الحصن في قلب بلاد الشابسوغ ، دوراً حيوياً في المصير المأساوي لشابسوغ البحر الأسود . = =

من اجل اخفاء جوهر هذه السياسة بشكل أفضل، استخدم البلاشفة في البداية الشيوعيين الوطنيين القدماء الموالين الذين شاركوا في الثورة، مثل: بيطال قالميقوف في جمهورية قبارديا السوفييتية للحكم الذاتي، وشخانجري حاخوراته في اقليم الأديغي للحكم الذاتي.

رغم ان هؤلاء الوطنيين كانوا شيوعيين حقيقيين، الا انهم اظهروا حماساً وطنياً هائلاً ومثابرة رائعة في انشاء جمهوريات وطنية ومناطق حكم ذاتي لشعبهم. شعر الحزب الشيوعي بهذا الميل الذي أقلقه، فلم يمنح هذه " الجمهوريات ومناطق الحكم الذاتي " أية فرصة في ممارسة حقوقها السيادية. ومع ذلك، فقد سمح لها بفتح مدارسها، جامعاتها، معاهد الابحاث، دور النشر الوطنية الخاصة بها، وتطوير مراكز ثقافية وطنية ومسارح، وهكذا.

يظهر مكان سكنى رغم ذلك، فقد بدأ الشيوعيون، ومنذ العام ١٩١٨ بممارسة اساليب الرعب لدى النظام القيصري الذي خلعوه. فقد شنَّ " كراسنوجفارديتسي " (الحراس الحمر) الشيوعيون " كراسنيتيرور " ( الرعب الأحمر ) ضد الشراكسة خلال الحرب الأهلية في روسيا. جرى الإدعاء بان هذه الحملة هي " عملية رد الفعل " على الرعب وإساءات ال " بيلو جفارديتس " ( الحراس البيض ) وكان يفترض انها موجهة بشكل استثنائي ضد البرجوازيين والرجعيين. اعتبر الحزب الشيوعي ان الرعب الأحمر اجراء لا مفر منه. أصدر السوفناركوم القرار التالي يوم ٥ أيلول عام ١٩١٨ × فيما يتعلق بالرعب الأحمر: "من الضروري تأمين الجمهورية السوفييتيه من الاعداء الطبقيين بعزلهم في معسكرات اعتقال: جميع الاشخاص، المدانين بمؤامرات وثورات الحراس البيض، يجب الحكم عليهم بالإعدام رميا بالرصاص....." عملاً بهذا القرار، يجب تدمير ليس فقط اعدء الجمهورية السوفييتيه، بل أيضاً كل الناس الذين يمكن اعتبار انهم سيصبحون اعداءً في المستقبل. كتب لينين شخصياً الى قيادة مقاطعة بينزينسكي " ان عصيان الكولاك في خمس مقاطعات ادارية يجب ان يؤدي الى اخماد بلا رحمة. يجب تقديم مثال:

١ – شنق ( اشنقوا بلا إخفاق، حتى يرى الناس ) ما لا يقل عن مائة كولاك خطير، رجال اثرياء، مصاصي دماء.

٢ – انشروا الاسماء

٣ – صادروا كل المحاصيل منهم.

٤ – خذوا رهائن... افعلوا ذلك حتى يرى الأمر الناس من بعد مئات الأميال، ويرتعدون، ويصرخون، ويعرفون: انهم يخنقون، سيخنقوا مصاصي الدماء. ارسلوا برقيات بالاستلام وبنتيجة الإعدام. اعثروا على رجال اكثر شدة....

"حذَّر ليو دافيدوفيتش تروتسكي:" يجب ان نحيلها ( روسيا ) الى صحراء، يقطنها زنوج بيض، نفرض عليهم طغياناً، لم يحلم به اكثر الحكام الطغاة رعباً في الشرق. الفارق الوحيد يكمن في حقيقة أن هذا الطغيان لن يأتي من اليمين بل من اليسار، ولن يكون ابيضاً بل أحمر. بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة " أحمر "، لأننا سنجعل انهاراً من الدماء تتدفق، سترتعد في وجهها وتصفر جميع الخسائر البشرية في الحروب الرأسمالية.

تضاعفت اعداد ضحايا تلك السياسة الشيوعية القاسية من يوم الى الآخر، بالآلاف حتى لامست الشراكسة. بدأت وحدات الحراس الحمر يوم ١٩ شباط ١٩١٨، تطلق النار على آول غوبوكوي. هرب افراد الحراس البيض وقسم من السكان. لكن الحمر اخذوا قسماً من السكان رهائن. اثناء نقل الأخيرين الى مدينة مايكوب، قام جنود من فصائل الحراس البيض، المكونين غالباً من عناصر اجرامية، بذبح الشراكسة بوحشية. قتل شوماف تسيسيبي وولديه الى جانب آخرين.

دفعت آولات غوبوكوي، آسوكالاي، وجيجه حابله الثمن غالياً. فقد دفن ٤٠٠ شركسي في الوادي القريب من غوبوكوي. جمع قادة جيش تامانسكي الشراكسة في المسجد وابقوهم فيه رهائن الى حين انسحابهم. نتيجة للمعركة، قتل ٢١٤ شخص، بينهم ٢١٢ رجل وأمراتان، وجرح ٥٠ شخصاً. قام جنود الحرس الأحمر بنهب قرية كوشه حابله. كان محمد بوروكو شاهد عيان. قال: " اندفع التامانيون الى كوشه حابله وبدأوا يقتلون الرجال. كانوا يقطعون رؤوسهم بالسيوف امام النساء والأطفال. قتل شحامبولات افندي كوراشين اثناء ادائه الصلاة، وقتل تيبيرد كيرجين في فناء منزله. اخذت ملابس وحذاء نالتشك جاريم الضرير ذي الاعوام ٧٨. نهبوا الآول بدرجة سيئة حتى انهم لم يتركوا فيها بقرة و لا دجاجة. لقد نجوت بأعجوبة ". شدد ام. كيه شيبزوخوف على انهم كانوا يقتلون المسنين الابرياء، حراثي الأرض، لأنهم ببساطة يمكن ان ينحازوا الى البيض. اغتصبت مجموعة من الجنود فتاة في السادسة عشرة من العمر. كذلك قتل محمود حاغايج، وهو مؤلف موسيقي شركسي شاب.

نتيجة لهذه المذبحة، قتل ٣٦٦ شركسي في كوشه حابله وجرح ١١٠. ارتكبت فظائع مماثلة في قرى جيجه حابله، تاوي حابله وكونشوكوحابله. يقول شيبزوخوف انه أعدم ٣٤٠ شركسي في غوبوكوي، و ٢٠٠ في جيجه حابله، و ١٥٠ في قريتي نيشوكوي، ٤٧٠ في مولوكانسكي، ٣٦٦ في كوشه حابله، و ٩ في آول بشيزوف، ٤٠ في شينجي، ٨٧ في كونشوكو حابله، وحوالي ٥، ٢٠، ٣٠، ٤٠ في قرى أخرى.

دمرت آول غوبوكوي بالكامل. نهبت جميع آولات مقاطعتي ايكاتيرينودار و مايكوب بالكامل. بقي نداء " اقتلوا، أحرقوا، وانهبوا الشراكسة! " معلقاً في الهواء.

يقول ك. ك. خوتيج انه اعدم في أرمافير ١٣٤٢ شركسي، و ٨١٦ قوزاقي في سبعة ستانيتزات من مديرية لا بينسكي. تؤكد مواد الارشيف ان الوحدات العسكرية التابعة " للحراس الحمر "، اخذت جميع السكان الذكور من الآول، الستانيتزات والتجمعات السكانية، رهائن اثناء انسحابها، ثم اعدمتهم حتى لا تسمح لهم بالانضمام الى البيض.

من هو الملوم على هذه المأساة؟ يقول شيبزوخوف ان هذا الفيلق كان يضم عدداً كبيراً من المجرمين وقطاعي الطرق الذين وعدوا بالاراضي والممتلكات العائدة للشراكسة. يدعم فرونزه هذا الإدعاء. فقد قدم تقريراً الى المكتب السياسي مفاده أن الجيش الأحمر في تركيبته الحالية يمثل عصابة من النهابين غير المنتظمين، اكثر من كونه جيشاً، وانه يجب حله.

بالنسبة لبعض الدارسين العلماء، فان هذه مجرد محاولة لالقاء اللوم على شخص آخر، وليس على المجرم.

انهم يعتبرون ان اللجنة الثورية كانت تنفذ نفس السياسة القيصرية في الإبادة الجماعية للشراكسة. فقد كانت موجهة في مقاطعتي ايكايترينودار ومايكوب الى إبادة السكان الشراكسة نهائياً والاستيلاء على اراضيهم وضمها.

وفي الحقيقة، فقد عاد الثوريون الذين ارتكبوا هذه الفظائع، الى اقليم الكوبان لاحقاً وطالبوا بالاراضي التي استولي عليها من الشراكسة لأنفسهم. اعلن المؤتمر الثالث لسوفييت الكوبان وتشيرنوموريا ان هذه الجرائم التي تسببت في إزالة قرى كاملة عن وجه البسيطة، قد ارتكبت " بدون معرفة اللجنة المركزية التنفيذية ". بعد ذلك، ظلت نظرية ممنوعة لمدة ٧٥ سنة! من المثير للإهتمام، مازال بعض العلماء يرفضون القاء تبعة السبب الرئيس لهذه الجرائم على السياسة الإجرامية المطولة المخططة للشيوعيين او على ثورتهم، بل على روسيا القيصرية والبورجوازية.

## السياسة الاقتصادية الجديدة والحركة التعاونية

يقول ر. تراخو، ان السياسة الاقتصادية الجديدة للاتحاد السوفييتي جاءت نتيجة لحقبة " الشيوعية المتشددة " التي حدثت بعيد اعلان الدولة السوفييتيه عامي ١٩٢١ – ١٩٢٢. اصبحت هذه الحقبة المأساوية مشهورة بمصادراتها، اعداماتها، مجاعتها، وثورات الفلاحين. ابتكر النظام السوفييتي السياسة الاقتصادية الجديدة لإنعاش الاقتصاد المريض للبلاد، والذي كان نتيجة مباشرة لهذه الفترة والحرب الأهلية التي سبقتها. فقامت بتوزيع الأرض على الفلاحين، واطلقت ايديهم في فلاحتها. رحب الفلاحون بهذه الفرصة واظهروا روح مبادرة عظيمة وطاقة كبيرة في ايجاد أمن مادي بدون ان يشكّوا في ان البلاشفة قد ابتدعوا هذه السياسة لكف ابصار الفلاحين انفسهم الذين ستتم تصفيتهم في نهاية المطاف على أنهم رجال السياسة الجديدة.

عامي ١٩٢٨ – ١٩٢٩، بدأ البلاشفة عملية التصنيع والحركة التعاونية في الاتحاد السوفييتي. على أية حال، أصبح ضرورياً في نظر القيادة الشيوعية "إزالة بقايا العقائد القديمة" من نفسية الشعوب و" التحيزات الدينية" بشكل خاص، قبل إعادة بناء الاقتصاد الاشتراكي. لذلك، كان يجب تدمير المساجد والكنائس او تحويلها الى أندية أو حظائر. توجب القاء القبض على القساوسة ونفيهم. سرعان ما قام البلاشفة بنزع أسلحة الفلاحين، ومصادرة قطع أراضيهم، آلاتهم الزراعية، خيلهم ومواشيهم، حتى بيوتهم ذات السقوف المبنية من الصفيح أو البلاط.

أدى هذا التحول المبالغ فيه في السياسة البلشفية الى نشوء سلسلة من العصيانات الجماعية في جميع الاقاليم وفي جمهوريات الشراكسة عام ١٩٢٩. قاد أ. دزاغولوف ثورة الفلاحين في اعالي أوروب. تبع ذلك موجات من حركات العصيان المسلحة عبر شمال القفقاس من قباردا وحتى الداغستان، ومن إلبروز الى البحر الأسود. نذكر بعضاً منها: ثورة كالخان عام ١٩٢٨، وعصيان كيرتييف عامي ١٩٣١ – ١٩٣٢. زحفت القوات الروسية في شمال القفقاس لإخضاع هذه الحركات واعادة هيبة الحكم البلشفي المهتز، مستخدمة نفس أساليب الحملات الاستعمارية. اضطروا الى نشر الجيش النظامي من مدن كراسنودار، ارمافير، فلاديكافكاز، نالتشك المجاورة وغيرها.

بينما كان اعضاء الأجهزة السرية السوفييتية يتعاملون مع هؤلاء الثوار وعائلاتهم، انطلقت الدعاية الشيوعية تتحدث بصوت عالٍ عن النجاح العظيم في تصنيع البلاد وتحويل الزراعة الى النمط التعاوني. حضر مندوبون بصلاحيات مطلقة من المراكز الاقليمية

وغيرها، حاملين قرارات جاهزة تؤكد على ان الفلاحين رحبوا بالحركة التعاونية وان الكولاك (ملاكو الأراضي) وزبانيتهم وحدهم الذين يقومون بتخريب تنظيمات المزارع التعاونية. ثم ارسلوا هذه القرارات الى الأجهزة العليا في الحكومة بدون ان يبحثوها مطلقاً في الاجتماعات العامة للفلاحين.

وهكذا على سبيل المثال، أعلن فجأة في آول شينجيي بمنطقة الأديغي للحكم الذاتي، أن كولخوزات: "دوبروفوليتس"، "شينجيي" و "واناوبات" ستؤسس هناك.

كان الفلاحون الذين ارغموا على العمل في المزارع التعاونية، يتلقون كمية محدودة جداً من المحاصيل لقاء عمل سنة كاملة، لأن المزرعة التعاونية كان يجب عليها ان تسلم للحكومة الكمية الإلزامية والكمية " التطوعية " من المحصول الجديد، وتخصص كمية من البذار للصندوق المشترك، وبعد ذلك فقط يمكنها ان توزع الحبوب المتبقية بين الفلاحين. كانت الحكومة تشتري "فائض الحبوب" بنصف بنس حرفياً. كانت تدفع ١١ كوبيك مقابل كيلو غرام الحبوب وتعيد بيعه في "التعاونيات" كخبز أسود مقابل ٩٠ كوبيك، وخبز رمادي مقابل ٢,٧٠ روبل، وخبز أبيض مقابل ٤ او ٥ روبل. نتيجة لذلك، أصبح قدر فلاحي المزارع التعاونية أن يعيشوا حياة مؤسفة تعيسة.

اجبرت هذه الأحوال البائسة الفلاحين على ان يهيموا في الحقول ليلتقطوا فضلات ودرنات محصول البطاطا المتخلفة عن الحصاد، او سرقة الحنطة الخضراء او اكواز الذرة لمجرد البقاء على قيد الحياة. جاء رد فعل الحكومة السوفييتية بقانون عقابي غير مسبوق في قسوته، وهو "قانون السابع من آب" الذي يحكم بعشر سنوات سجن، أو بالإعدام على " نهب ممتلكات الكولخوز ". على الرغم من ذلك، تجاهل الفلاحون الجياع هذا القانون وانتهى الأمر بعشرات الآلاف منهم في السجون أو معسكرات الاعتقال.

## الحياة في ظل الكوادر السوفييتية الجديدة

في هذه الاثناء، انشغلت الجامعة الشيوعية لشعوب الشرق العاملة و مدارس الحزب السوفييتية بتحضير كوادر وطنية يمكن للحزب ان يعتمد عليها. سيصبح هؤلاء ضباط أمن سوفييت، قادة احتياطيون أو مفوضين في الجيش الأحمر. لم يخرِّج البلاشفة التلاميذ من هذه المعاهد الا بعد ان يتأكدوا من انهم جاهزون تماماً وسيصبحون مقاتلين مخلصين لسلطة السوفييت والحزب الشيوعي. كانوا يدرَّسون جيداً ضمن برنامج معد بحزم. جعل البلاشفة مشاعر الطلاب تضمر وتتحجر ليس فقط تجاه الانسانية وشعبهم وتجاه اقاربهم

المقربين، بل علموهم أيضاً ان يخونوا والديهم. حلت هذه الكوادر الجديدة، التي سيعتمد الحزب الشيوعي عليها اكثر، تدريجياً محل القادة الشيوعيين ذوي التجربة في " الجمهوريات والمناطق الذاتية ". وقد وصم العديد منهم بصفات " اعداء الشعب "، و" المخربون القوميون" ونفوا الى سيبيريا او اعدموا رمياً بالرصاص، كما كانت العادة في حملات التطهير المتكررة في النظام الشيوعي.

لم يفهم القادة الشيوعيون القدماء، و لا حتى معظم الكوادر الجدد، المعنى الحقيقي " للصراع الطبقي " لدى الحزب الشيوعي بشكل كامل. فقد انضم السابقون الى الثورة لتحرير شعبهم من ظلم الاستعمار القيصري الروسي، بينما انضمت اغلبية اللاحقين الى الحزب لأجل المنصب والكسب الشخصي، ولكن ليس من اجل مثالية العقيدة الشيوعية. ربما كان ذلك السبب في أنهم اظهروا حماساً عظيماً ومثابرة في اعادة بناء السيادة الوطنية، الاقتصاد وثقافة شعبهم.

ازعج هذا التوجه من قبل الاعضاء الحزب الشيوعي بعمق، لكنه لم يجرؤ على البدء في تطهيرهم الى أن يحضِّر كوادر جديدة ليخلفهم بها. في الاثناء، كان الحزب منهمكاً في تطبيق " الصراع الطبقي " بالقوة بمساعدة هؤلاء القادة المحنكين القدماء للثورة الشيوعية. في نهاية المطاف، فقد اقنعهم الحزب بان صراع الثورة الشيوعية هو صراع الحياة والموت بين عمال ورأسماليي العالم.

لا يمكن لهاتين الطبقتين ان تتعايشا. كان يجب على بروليتاريي العالم ان يتحدوا ويدمروا الرأسماليين مرة واحدة والى الأبد. لذلك، يمكن للحزب الشيوعي ان يحصل على التعاون الكامل من هؤلاء " المتمرسين الشيوعيين القدماء " في القضاء على " الكولاك والعناصر الخطرة " في جمهورياتهم ومناطقهم ذات الحكم الذاتي الجديدة. تبعاً لذلك، بدأ النظام البلشفي حديث التأسيس أولاً بالتخلص من العناصر التي لا يمكن الاعتماد عليها: " الكولاك، اعداء الشعب، البيض، الجواسيس، القوميين البرجوازيين " وما الى ذلك. بدأت عربات يطلق عليها إسم "تشورنيي فوروني" (الغربان السوداء) تظهر فجأة في الليالي وتأخذ الناس، الذين كانوا يختفون بلا أثر ولا محاكمة. من خلال هذه الطريقة مضت الحكومة البلشفية في التخلص من " العناصر الخطرة " من السكان، تزرع الخوف في قلوب الناس، وتعزز حكمها لهم. تعاون المتمرسون القدماء في " الجمهوريات ومناطق الحكم الذاتي " الجديدة مع الحزب في هذا المسعى الى الحد الاقصى، ربما لشعورهم بانه سيساعد في تحرير شعوبهم من النير الاستعماري القيصري وتأسيس " جمهوريتهم ومناطق حكمهم

الذاتي " الجديدة، أو ربما قصدوا الى تأمين مستقبل دولهم الصغيرة الجديدة ذات الحكم الذاتي عن طريق تقوية الحكومة البلشفية.

على اية حال، سرعان ما استبدل الحزب الشيوعي الثوريين القدماء بالكوادر الجديدة، وبمساعدة الأخيرين، أسس دكتاتورية البروليتاريا بحزم في البلاد. تبع ذلك سلسلة لا تنتهي من التصفيات، الاضطهاد، والنفي. من خلالهم، زرع الحزب الرعب في قلوب وعقول السكان، وحوَّل البلاد الى معسكر عبيد واسع وأجبر الفلاحين والعمال المذعورين على قبول أحوال وظروف العبودية في المزارع الجماعية والمصانع التابعة للدولة الشيوعية، حيث أصبح اعضاء الحزب الطغاة المطلقون بلا شروط ولا حدود.

تبعاً لذلك اصبحت الزراعة تعاونية، وحل التصنيع محل الحرف اليدوية، واصبحت الدولة المالك الوحيد للأرض، الموارد المعدنية وكل ملكية أخرى، بمن فيها الناس. باختصار، فان وعد " الأرض والمصانع للناس! " لم يكتفى بأنه لم يوفَ به، بل جعل البلاشفة الناس – كل " المواطنين " او " الرفاق " – عبيد الدولة المجردين من كافة الحقوق الانسانية، حتى من الحق في طلب أجور أعلى أو ظروف معيشية أفضل. نتيجة لذلك اصبح جميع سكان روسيا يكدّون تحت حالة هي أدنى من خط الفقر. في تلك الأوضاع، بدأت محاصيل وثروات بلاد الشراكسة تصدَّر الى انحاء أخرى من الاتحاد السوفييتي، ما جعلها معتمدة اقتصادياً بدرجة كاملة على اقاليم أخرى من تلك البلاد الشاسعة. بحلول ثلاثينات القرن العشرين، بدأ الحزب الشيوعي يعمل بمزيد من الثقة بمساعدة كوادر الحزب الجديدة. بدأ يطبق نفس السياسات الاستعمارية لروسيا القيصرية في بلاد الشراكسة. صارت زيادة ضغط نير النظام الاستبدادي تبدو ماثلة للعيان اكثر فأكثر يوماً بعد يوم. بدأ تقليص المدارس القومية والصفوف او ايقافها كلياً تحت اعذار متنوعة من " ضيق المساحة ". ألغيت " ناتسيزدات " (دار النشر القومية): حُلَّت جمعية دراسات التاريخ الشركسي: اصبح الوصول الى سجلات الارشيف اكثر صعوبة: انقطع كل التواصل والاتصال مع الشراكسة في الخارج. ازال التغيير الحاد في السياسة الوطنية للحزب الشيوعي استقلال مناطق وجمهوريات الحكم الذاتي في بلاد الشراكسة ( قباردينو – بلقاريا، كاراشيفو – تشيركيسيا، والأديغيه ). كان الحكم الذاتي في الأديغيه، مثل بقية الجمهوريات والمناطق، موجوداً إسمياً فقط في جوهره، " على الورق ". وكان يطيع أوامر الفروع المركزية للحزب طاعة مطلقة.

حسب رأي م. بيجانوف " لم تعط أية مدرسة أديغه درساً واحداً في تاريخ شعب الأديغة خلال السبعين سنة من النظام السوفييتي بأسره ".

اندلعت المجاعة الرهيبة عام ١٩٣٣. قضت على قسم كبير من سكان اقليم الأديغة للحكم الذاتي، ووصمت " بالمجاعة المصطنعة ". يقال أنه مات خلالها ٣٠٠ شخص من آول جامبيتشي وحده. تخيل فقط مدى معاناة القرى الشركسية الأخرى منها بنفس الطريقة. كتب ل. ف. بيلوف، الذي عايش تلك المجاعة ونجا منها " تجول الاطفال في الشوارع باحثين عن الطعام مثل الكلاب الضالة. كانت رؤية تلك الاجساد الناحلة أمراً مخيفاً. لكن تأخر الوقت على اطعامهم. فقد كان الأطفال المساكين يموتون الواحد تلو الآخر. تكمل م. شولوخوفا، التي كانت في شمال غرب القفقاس في ذلك الوقت، الصورة الرهيبة " الناس يموتون بالمئات في كل مكان حولنا، وبالآلاف، ويزحف عشرات الآلاف وقد انتفخوا وفقدوا كل مظهر بشري. في احدى التجمعات السكانية التي تضم ٦٥ عائلة، توفي منها ١٥٠ شخص منذ بداية شباط. لقد انقرض التجمع من الناحية العملية. الموتى لا يدفنون، بل يلقى بهم في السراديب، ويحدث هذا في المقاطعة التي قدمت ٢،٣ مليون بود من المحصول الى البلاد! " ثم تهتف " ما الذي آل اليه أغنى العصور! "

ضربت هذه المجاعة ٤٤ مقاطعة من اصل ٧٥ في شمال القفقاس. توفي اكثر من اربعين بالمئة سكان هذه المقاطعات التي اعتبرت الاكثر تأثراً. حسب ارقام آر. كونكفيست، فقد قتلت المجاعة ما يصل الى مليون شخص في الإقليم.

لا يبدو أن الكرملين اصابه القلق من العذابات التي انزلتها المجاعة بالسكان. بدلاً من ذلك، فقد نشر احد أساليبه في ترهيب الناس وإخضاعهم. حسب مؤلفي كتاب " زيمليا أديغوف " ( أرض الأديغة ). " طرد اكثر من ٣٠٠ عضو من تنظيم الاديغي الاقليمي من الحزب، عامي ١٩٣٧ – ١٩٣٩، ووجهت اليهم الاتهامات. اتهم مائة منهم بجريمة " عدو الشعب " والبقية بأن لهم " علاقات مع اعداء الشعب ". انداحت في اعقاب ذلك الاتهامات، حملات القاء القبض، النفي، وسحبت معها معلمي المدارس العاديين، الفلاحين والعمال. حتى شاحانجري حاخوراته، عضو اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفييتي و أحد منظمي اقليم الأديغة للحكم الذاتي، أصبح واحداً من ضحايا هذه الحملة التي شنها الحزب الشيوعي، رغم وفاته قبلها باسبوعين. نبش قبره في كراسنودار، أخرجت جثته مع كفنها، وحسب رواية واحدة على الأقل، اغرقت في نهر الكوبان.

## بلاد الشراكسة تحت الاحتلال النازي

لم يقتنع النظام السوفييتي باستعباد الشراكسة. فقد ظل يتابع تطبيق السياسة القيصرية في تذويب الشراكسة بتصميم وعناد. احدى الوسائل العبقرية التي ابتدعها لاتمام تلك الغاية هي نقل عشرات القرى الأديغة من مناطقها التاريخية القديمة، لانشاء بحار صناعية على اراضيهم. بني أولها الى جانب ستانيتزا نيقولاييفسكي قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية. كانت " الحجة الواسعة " لهذا العمل هي زراعة الأرز في بلاد الأديغيه. اما الغاية الحقيقية فهي وضع سكان هذه القرى في المدن حيث يسرِّع السكان الروس الاكثر عدداً في عملية تذويبهم.

استطاعت قوات المانيا النازية أن تصل الى القفقاس عام ١٩٤٢. كانت الخطة الالمانية له هي: يجب على القفقاس مع المقاطعات الشمالية المجاورة له ان تصبح اتحاداً لدول مستقلة، وان تقام فيها قواعد بحرية ألمانية وسيطرة اقليمية خارجية لحقول النفط التي يجب استغلالها من قبل الرايخ. اعلن هتلر في الأول من حزيران عام ١٩٤٢ " اذا لم اتمكن من الحصول على النفط من مايكوب وجروزني، يجب ان اوقف الحرب " واضاف جوبلز "نحن نخوض الحرب من اجل الفحم، الفولاذ والنفط. اذا انهينا المعارك في القفقاس حسب التاريخ الذي حدده رئيس أركاننا، سوف يكون بين ايدينا أغنى اقليم نفط في اوروبا وكل من يمتلك القمح، النفط، الفولاذ والفحم، سيكسب الحرب. باختصار، سيصبح القفقاس واوكرانيا موردي المواد الخام الى المانيا، ومصدر اعادة التموين لقواتها المسلحة، ومقدمي قوة العمل المجانية للصناعة الألمانية ". لقد كانت خطة طموحة! وفي الحقيقة، فقد خاضت من أجلها معارك دموية من ٨ الى ١٢ آب عام ١٩٤٢، عند ضفاف انهار الكوبان، اللابا والبيلايا، وكانت المعارك التي اندلعت في مقاطعات الاديغيه وخاصة في مايكوب، عنيفة بدرجة خاصة.

أظهر الفاشيون قدراً من الايجابية في تعاملهم مع الناس في الاديغيه، قباردينو – بلقاريا وكاراشيفو – تشيركيسيا، وشجعوا المشاعر الوطنية بكل وسيلة ممكنة، وكثيراً ما بادروا حتى بالاعتراف بأيام العطل الإسلامية. حاولوا في بعض الاحيان ان يظهروا بمظهر " حماة الإسلام، والعادات والتقاليد المحلية " قبل الجنرال فون ماكيزن، قائد جيش الدبابات الأول، الاسلام، وتردد على المساجد، ومارس بعض العادات المحلية ". تم ترفيع هتلر نفسه الى مرتبة "الإمام الاعظم لعموم القفقاس". نشر النداء الالماني التالي الى سكان الجبال في صحيفة "بياتيجورسكويه إيخو" أيها الجبلي! انت لم يكن لديك شيء. فقد صادر البلاشفة

كل ثروتك. انت الآن لديك الكثير وسيكون لديك المزيد في المستقبل. لكل هذه السعادة لعائلتك و سلامة اطفالك، انت مدين لصديقك، أدولف هتلر..."

بغض النظر عن ذلك، لم يمارس الفاتحون الفاشيون ماكانوا يعظون به، بل بدأوا يفرضون حكمهم بقسوة استثنائية. حسب قول د. م. نيغوتش، فقد اطلق هؤلاء الفاشيون النار على حوالي ١١٥ طفل، ٧٢ امرأة و ٢٠ رجلاً مسناً في مستوطنة فسحة ميخوزييف. يكتب مؤلفوا " ارض الأديغة " ان مجموعة عقابية المانية قتلت ٧٧ شخصاً وسممت ٤٠ طفلاً في مقاطعة مايكوب: تم القضاء على ٣٠٠ شخص بطرق مختلفة.

كذلك قتل مئات السكان في مناطق أخرى من الاديغيه، ٤٠٠ في مقاطعه كوشه حابله، و٣٠٠ في جياجينسك. في المجموع، قتل الفاشيون خلال بضعة شهور من احتلالهم للأديغيه، اكثر من ٤٠٠٠ مدني.

اكثر من ذلك، قتل الفاشيون ٦١٠٠٠ مواطن سوفييتي في كراي كراسنودار وحده، وساقوا ٣٠،٠٠٠ صبي وفتاة صغار الى المانيا من أجل الأشغال الشاقة. هذا مجرد رأس الجبل الجليدي للفظاعات التي ارتكبها المحتلون الالمان في بلاد الشراكسة اثناء تلك الحرب.

اخترق الجيش الأحمر الجبهة الالمانية في القفقاس يوم ١٧ كانون الثاني عام ١٩٤٣. كتب جي غريتشكو في مذكراته: " ليلة ١٤ شباط، ١٩٤٣، بدأ الجيش الثامن عشر يعبر نهر الكوبان عند شريط ستانيتزا ستاروكورسونسكي وآول كوشه حابله. كان العبور معقداً بسبب حقيقة ان الجليد على النهر لم يكن قوياً بما يكفي، وكان العدو قد نسفه في العديد من الأماكن. لذلك، عبرت عدة وحدات من الجيش الى الضفة الشمالية من النهر في وحدات صغيرة، حيث انضمت الى القتال على الفور. كذلك انتقل الجيش ٥٦ الى الهجوم يوم ٥ شباط. سددت قوات الفيلق العاشر مشاة، والفيلق ٥٥ جفارديسكى مشاة، و الفيلق ٨٣ مشاة جبليين، ضربة الى آول تاختاموكوي و آول نوفي بجغاكوي. هاجمت قوات جفارديسكي ٢٢ وفرقة ٢٣٦ مشاة ولواء مشاة البحرية ٧٦ آول لاشوكوي.

على اية حال، لم نتمكن من التقدم سوى مسافة قليلة جداً بسبب المقاومة المستميتة التي ابداها العدو من الاتجاهين. ومع ذلك، أحرزت القوات المسلحة لمجموعة تشيرنومورسكي بعض النجاح مع نهاية يوم ٥ شباط خلال معركة استمرت ثلاثة أيام، تقدمت وحدات الجيشين ١٨ و ٤٦ ٨-١٠ كيلومترات وحققت الشروط الضرورية لتحرير كراسنودار. أعلن مكتب الإعلام السوفييتي يوم ١٢ شباط بصوت جهوري، بأن القوات المسلحة السوفييتية

قد أعادت الاستيلاء على كراسنودار، تيماشيفسك، راغوفسك، دينسك، نوفوتيتاوفسك، ومركز مقاطعة تاختاموكوي.

خلال نصف عام من " التسلُّط "، انزل الالمان المحتلون دماراً هائلاً بالاقتصاد الوطني لبلاد الشراكسة.

• • •

اثناء الاحتلال الألماني لبلاد الشراكسة، تمكنت مجموعة فدائيي مايكوب من توحيد ١٨ فصيل فدائي. تكوَّنت هيئة قيادة اركان الحركات الفدائية في الأديغي من ن.ت. تيوشيج، أ.أ. تشاموكوف، ب. جاسته، و ي. م. سيمكين. بلغ مجموع الفصائل والمجموعات الفدائية التي شكلت في منطقة شمال القفقاس ٢٥٠ مجموعة، بلغ مجموع افرادها ١٣٠٠٠ شخص. وقد عملوا في بلاد الشراكسة بشكل رئيس ( الاديغيه، قباردينو – بلقاريا وكاراشيفو – تشيركيسيا ). تلقى العدو خسائر جسيمة من الاعمال الجريئة لهؤلاء الفدائيين. فمثلاً، دفع فدائيو الاديغيه الفاشيين خارج غابة ماخوش، قتلوا ٤٠٠ ضابط وجندي، ونفذوا اكثر من ٢٠٠ عملية عسكرية، قتلوا ٢،٢١١، جرحوا ٥٢٦ واسروا ١٩٠ ضابط وجندي فاشي، دمروا ٥٦ سيارة، وحافلة تقل ١٦ طياراً، عربة مدرعة واحدة، و٢٢ عربة عسكرية: نسفوا ثلاثة جسور، ٣٨٥ متراً من الطرق المعبدة، قطعوا ٣٣٤٠٠ متراً من اسلاك الهاتف، استولوا على ٢٠ رشاش ومدفع مورتر، مئات الرشاشات الصغيرة والبنادق، واسروا من العدو ٥٦٢٠ رأس ماشية كانت في طريقها للشحن الى المانيا. عملت مجموعات فدائية مشابهة في تشيركيسيا وقباردا. دمر الفدائيون الذين عملوا في كاراشيفو- تشيركيسيا ١،٧٩٩ ضابط وجندي للعدو، ١١ دبابة وعربة مصفحة، ٢٢ سيارة، ونسفوا ١٧ جسراً. في المجموع العام، قتل ٤،٢١١ فاشي في الاديغيه وكاراشيفو-تشيركيسيا خلال مسيرة الحرب الفدائية في بلاد الشراكسة. أصبحت جبال و أودية القفقاس عصية على الاختراق بالنسبة للغزاة النازيين بفضل نضال الشراكسة البطولي.

## البطولات الشركسية في الحرب العالمية الثانية

ميَّز الشراكسة انفسهم بشجاعة خاصة على جبهات القتال خلال الحرب العالمية الثانية. كتبت " البرافدا " يوم ٢ أيلول عام ١٩٤٢ " والآن، يتركز انتباه شعبنا، وكل شعوب العالم بأسره، على شمال القفقاس. تتعلق سحب العواصف فوق جباله الثلجية وسفوحه، فوق أودية وسهول الكوبان. ان دخان النار الهائلة يتصاعد فوق الستانيتزات والآولات. لقد اندفع نهابو هتلر الى سهول شمال القفقاس.

انهم يندفعون باتجاه الجبال. لايعرف العدو أن القفقاس ظلت على الدوام بلاد أناس اقوياء وشجعان، وأنه هنا، في النضال من اجل الاستقلال، تلد القوميات مقاتلين لا يعرفون الخوف، عمالقه، أصبح الجبن يعرف عندهم بأنه اكثر الجرائم مجلبة للعار. هنا، عند سفوح الجبال، تربت أجيال من الشعب السوفييتي بقلوب اسود وعيون نسور. لن يصبح شعب شمال القفقاس الأبي عبيداً أبداً!"

في الحقيقة، اثبت الشراكسة شجاعتهم في ميادين القتال في الحرب العالمية الثانية. لم يكتفوا بقتال الألمان في وطنهم الأم. بل قاتل آلاف من الشراكسة قتالاً بطولياً في موسكو، لينينجراد، ستالينجراد، سيفاستوبول، نوفوروسيسك، والعديد من الامكنة الأخرى. تقلَّد اكثر من ١٥٠٠٠ من سكان اقليم أديغه للحكم الذاتي، بمن فيهم ٥٠٠٠ أديغه ( بينهم ٦٠ إمراة ) الأوسمة والنياشين على الجرأة والشجاعة الاستثنائية التي أبدوها خلال سنوات الحرب ضد الغزاة الفاشيين. اصبح ٣٧ من مواطني الأديغيه ابطال الاتحاد السوفييتي. أنا واثق من أن اجزاء اخرى من بلاد الشراكسة ( قباردينو – بلقاريا، كاراشيفو – تشيركيسيا و شابسوغيا ) كذلك قدمت ابطالاً مماثلين في تلك الحرب. تقول م.ا. كيراشيفا ان الاديغه كانوا جزءاً من القوميات الثلاثة الأولى التي قدمت اعظم عدد من الأبطال للاتحاد السوفييتي السابق.

كان من بينهم سبعة ابطال أديغه: اندروخاييف حسين بوريزوفيتش، اخميزوف أيدمير احمدوفيتش،بجغاكوف كيمشريي بوروكوفيتش، تشوتس ابو بكر باتيروفيتش وتحه غوشوف اسماعيل حاليا لوفيتش. في الواقع، هناك مثل أديغه يقول: " في الحرب، تتكشف شجاعة الرجل ".

يمكن للتالي أن يصلح كمثال على الشجاعة التي ابداها الشراكسة في تحرير الاتحاد السوفييتي من الاحتلال الألماني – الإنجاز الذي اثر في آي. في. ستالين بعمق. هذا هو مايرويه كتاب " أرض الأديغة " : توفي رشيد جاريموف، من أول نوفي – بجغه كوي، في عملية تحرير شبه جزيرة القرم: اظهر كريم ناتخوه واسماعيل بوغاص بطولة خاصة اثناءها: يوم ٢٦ آذار عام ١٩٤٤، اثناء تحرير مدينة نيقولاييف، كانت قوة انزال من البحارة قد نزلت تحت قيادة الملازم ك. ف. اولشانسكي. صدت القوة ١٨ هجوماً، بعد أن قتلت اكثر من ٧٠٠ هتلري. كان ابو بكرتشوتس، وهو شركسي من آول باناخيس وكومسومول، بين المقاتلين الشجعان. بعد أن سمع عن ابطال قوة الانزال هذه، سأل ستالين " كم كان عددهم؟ " فقيل له " سبعة وستين ". قال " امنحوهم لقب بطل الاتحاد السوفييتي، لجميع السبعة والستين! ".

## "القفقاس ليس القفقاس بدون الأديغة"

جرت عمليات انتقام بكل جيران الأديغة تقريباً في الاتحاد السوفييتي عند بداية الاربعينيات. في تشرين الثاني ١٩٤٣، وبعد الإتهام الشهير " خيانة الوطن الأم" جرى ترحيل ٦٨،٣٢٧ من القرشاي – عملياً جميع سكان اقليم قرشاي للحكم الذاتي. في شباط عام ١٩٤٤ الغي اقليم الشيشان – إنجوش للحكم الذاتي: تم ترحيل ٤٨٧٠٠٠ شيشاني و ٩١،٢٥٠ من الإنجوش الى قازاخستان وقيرغيزيا. بعد اسبوعين تم ترحيل ٣٧،٤٠٦ بلقاري الى نفس المكان. بلغ الرقم الإجمالي للناس الذين، تم ترحيلهم داخل الاتحاد السوفييتي ٣،٢٢٦،٣٤٠ شخصاً حسب أحد المصادر، و ٣،٤٤١،٥٨٢ شخصاً حسب مصدر آخر، وذلك من قوميات مختلفة.

تشهد الحقائق الموجودة حالياً أن عناصر NKVD كانوا قد حضروا مشروع ترحيل الأديغة أيضاً، لكن ستالين منعهم من مجرد التفكير في ذلك. اوقفت كلماته " ان القفقاس ليست القفقاس بدون الأديغة " دوران " عجلة الموازنة " الانتقامية ضد الشراكسة. على اية حال، لم يكن قرار القائد هذا وليد الصدفة بأي شكل من الأشكال، فقد لعبت البطولة التي ابداها الشراكسة اثناء الحرب الوطنية العظمى ضد المحتلين الفاشيين، دوراً حيوياً في ذلك القرار الذي اتخذه ستالين.

بدأ بعض القرشاي، الشيشان، الإنجوش و البلقار المرحلين يعودون الى ديارهم بعد وفاة ستالين. بدأوا يطالبون باسترداد اراضيهم بعد التوطين الرسمي عام ١٩٥٧ بوقت قصير. بحلول ذلك الوقت، كانت ٥٠،٠٠٠ عائلة قد عادت. أعيد تأسيس جمهوريات شيشينو – إنجو شيتيا وقباردينو – بلقاريا ومقاطعة كاراشيفو – تشيركيسيا في شمال القفقاس. بدأت الخلافات الجدية تتطور بسبب حقيقة عدم إعادة بعض المساحات السابقة الى اصحابها. تحولت هذه النزاعات حول ملكية الأرض الى صدام عنيف عام ١٩٥٦. ارتكب المستوطنون الروس، الذين كانوا ضد عودة المواطنين الاصليين، مذبحة ضد الإنجوش والشيشان على مدى ثلاثة أيام.

## البحار الصناعية في بلاد الشراكسة

رغم ان ستالين انقذ الشراكسة من الترحيل، إلا أنهم اخضعوا الى اوضاع مختلفة كلياً عن الاقاليم الأخرى في شمال القفقاس،أو حتى الاتحاد السوفييتي كله. فقد اخضعت منطقة اقليم الأديغة للحكم الذاتي الى فيضان فعلي تحت ذريعة ايقاف فيضان الأرض.

سرعان ما بدأت " البحار " التي هي من صنع الإنسان، تظهر في بلاد الأديغة الواحد تلو الآخر. في البداية كان خزانا تشيكسكي وشابسوغسكي. ثم بدء بانشاء خزاني فارنافسكي وكريوكوفسكي هناك. في ايار عام ١٩٦٦ اقر المجلس الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي للإتحاد السوفييتي برنامجاً كاملاً " لتحسين الأرض " اقترحه ليونيد بريجنيف. اصبح الكوبان بموجبها بشكل خاص، الإقليم المخصص لتحسين واغراض زراعة الأرز. بني في المنطقة نظام آخر للأرز بمساحة قدرها ٤٦ ألف هكتار في الفترة من ١٩٦٦ الى ١٩٧٠. تبع ذلك تحضير واجب لبناء نظام آخر بمساحة ١٠٠ الف هكتار للأرز خلال سنوات قليلة. تطلبت عملية فلاحته بدورها، زيادة حجم الماء المطلوب. لذلك بدئ بانشاء خزان كراسنودار عام ١٩٦٧. قبل ذلك صدرت قرارات من مجلس وزراء الاتحاد السوفييتي بالرقم سنة ١٩٥٤، للمرة الأولى حول ضرورة انشائه.

بعد التفكير في المسألة، قرر المجلس "زيادة مساحة نظام الأرز في كراي كراسنودار لتصل الى ١٠٠ الف هكتار، وذلك بانشاء خزان كراسنودار بسعة مقدارها حوالي بليوني متر مكعب " وهكذا، فان انشاء خزان كراسنودار لم يكن عملاً عارضاً، بل تم ضمه الى خطة قائمة "لاكتساح " الأرض بطريقة نمطية. حرم الأديغيه من مساحة واسعة من الأرض الزراعية، وتعلق، مثل " سيف داموكليس "، على حوض الخزان الذي تعبأ اكثر من طاقته وفاض على آولات الأديغيه الواقعة تحته. طبعاً، لم يعتبر أحد الرأي القائل بان الأديغة يحتاجون هذه المنشأة أم لا.

انزل انشاء الخزان خسائر فادحة بالزراعة: مع بدايته اغرقت ٢٥ ألف هكتار من الأرض القابلة للزراعة، وهي بشكل أساسي ذات تربة سوداء.

انزلت هذه " البحار " الاصطناعية خسائر اقتصادية ومعنوية، فقد أدت الى انهيار تقاليد وعادات عريقة في القدم، وادت الى اضرار كبيرة في الأحوال البيئية والسكانية، كما ادت الى تدمير وخسارة قبور الاسلاف الى الأبد. نتيجة " لتفييض " الخزان، انغمرت ٢٦ مستوطنة و ٣٤،٧٠٠ هكتار من الأرض، من ضمنها ٢٥ الف هكتار من الأرض القابلة للزراعة، وبقيت تحت الماء. اعيد توطين حوالي ١٦٠٠٠ شخص

( ١٣٠٠٠ شخص حسب مصادر أخرى ) من حوض الخزان. وكانوا، بشكل خاص، سكان القرى والمستوطنات التالية:

| | | |
|---|---|---|
| ايديبسكوي ١ آول | لاكشوكوي،آول | تاوي حابله، آول |
| ايديبسكوي ٢ آول | لينين حابله، آول | تلاوستين حابله، آول |
| تجمع غورودسكوي | ماياك، مستوطنة | شابانا حابله، آول |
| كارمالينو، مستوطنة | ناتشريزبي، آول | شاحانجري حابله، آول |
| قازانوكوي- القديمة، آول | ناشوكوي، آول | فوشيبشي، آول |
| قازانوكوي- الجديدة، آول | بشه حاتله كوي، آول | فوشيبشي الجديدة، آول |
| كونشوكو حابله، آول | بشقوي حابله، آول | |

لم تغرق المستوطنات وحدها. بل اختفت اسماء جغرافية، اسماء مناطق وانهار سابقة، غدران ومستنقعات كانت موجودة هنا، اختفت جميعها. سرعان ما لن يعود يتذكر سوى كبار السن انه في مكان " البحر " الذي صنعه الانسان، امتدت في يوم ما " المستنقعات الكبيرة "، التي بدورها تألفت من: حرزاه، ناتشريزي، ايديبسكوي، وقازانوكوي. كانت الجداول التي تغذيها هي: مارتا، بشاش، شيندوك، حاشحان وغيرها. كان نهر طوابشا يجمع مياه هذه الانهار ويفرغها لاحقاً في نهر بسه كوبس. مع انشاء الخزانات، كذلك دمرت امكنة التفريخ الطبيعية الفريدة من نوعها لانواع قيِّمة من السمك بدورها.

على الرغم من كل الصعوبات التي اضطر الأديغة الى التغلب عليها، فقد تحملوا وسعوا قدماً الى الأمام في إعادة بناء البلاد وتحديثها. كوفئت منطقة الأديغة للحكم الذاتي بميدالية لينين يوم ٢٧ ايلول عام ١٩٥٧، وبميدالية دروجبا للشعوب يوم ٢٩ كانون الأول عام ١٩٧٢، تقديراً للتقدم الذي احرزته في إعادة اصلاح وتطوير الاقتصاد الوطني. في الحاضر، فان اقتصادها متنوع التركيب ويمثل عملياً جميع فروع الاقتصاد الوطني.

## الجمهوريات الشركسية الجديدة

كما رأينا، فقد قامت إدارة الاتحاد السوفييتي بتقسيم بلاد الشراكسة، وشمال القفقاس بشكل عام، الى عدة وحدات ادارية مختلفة، متبعة بذلك سياسة " فرق تسد " للنظام البائد، بدقة وحزم. رغم أن هذه الجمهوريات والمناطق ذات الحكم الذاتي كانت مجرد "أمم صورية "، فقد كان لهذه الأوضاع تأثير سلبي وآخر ايجابي. وقد جاء تأثيرها السلبي في تقسيم الأمة الشركسية الى مجموعات إقليمية متنوعة، وهكذا نزعتهم وابعدتهم عن بعضهم بعضاً واعطتهم الإحساس بهوية إثنية منفصلة، وهذا اقل ما يمكن ان يقال. من الناحية الأخرى، فقد كان التأثير الايجابي لهذا الوضع، انه حفز تطوير الهويات القومية

لهذه الشعوب في وطنهم الأم بدرجة كبيرة. يبدو أنهم كانوا ينتظرون بقلق اللحظة الملائمة للتعبير عن ظمأهم للحرية ولإعادة توكيد هويتهم القومية. أخيراً فقد جاءت تلك اللحظة مع " الجلاسنوست " و" البيريسترويكا " لجورباتشيف. تشجع جميع الشراكسة بذلك للتوجه، فاعلنت كافة الوحدات الإدارية قيام جمهوريات سيادية الواحدة تلو الأخرى ابتداءً من خريف عام ١٩٩٠. كانت هذه الجمهوريات:

١ – الأديغيه: المساحة ٧٨٠٠ كيلو متر مربع، عدد السكان ٤٥٠،٠٠٠ نسمة. العاصمة: مايكوب.

٢ – قباردينو – بلقاريا: المساحة ١٢٥٠٠ كيلو متر مربع. عدد السكان ٧٨٥٠٠٠ نسمة. العاصمة: نالتشك.

٣ – كاراشيفو – تشيركيسيا : المساحة ١٤،١٠٠ كيلو متر مربع، عدد السكان ٤٢٧٠٠٠ نسمة. العاصمة: تشيركيسك .

٤ – ابخازيا ( انضمت اليهم عام ١٩٩٣ ): المساحة ٨٦٠٠ كيلو متر مربع، عدد السكان ٥٢٤،٠٠٠ نسمة. العاصمة: سوخوم.

تظل مسألة منطقة الشابسوغ للحكم الذاتي بدول حل.. الجمهوريات الأخرى في شمال القفقاس هي:

١ – تشيشنيا: المساحة ١٥٠٠٠ كيلو متر مربع. عدد السكان ٨٦٢،٠٠٠ نسمة العاصمة: جروزني.

٢ – الداغستان: المساحة ٥٠،٣٠٠ كيلو متر مربع. عدد السكان ١،٨٠٢،٠٠٠ نسمة العاصمة: ماخاتشكالا.

٣ – إنجوشيتيا: المساحة ٣٠٠٠ كيلو متر مربع. عدد السكان ٣٠٠،٠٠٠ نسمة العاصمة: نازران.

٤ – اوسيتيا الشمالية: المساحة ٨٠٠٠ كيلو متر مربع. عدد السكان ٦٣٢،٠٠٠ نسمة العاصمة: فلاديكافكاز.

٥ – اوسيتيا الجنوبية: المساحة ٣،٩٠٠ كيلو متر مربع. عدد السكان ٩٩،٠٠٠ نسمة العاصمة: تسخينفال اوسيتيس.

تم الاعتراف بجمهوريات عبر القفقاس كدول مستقلة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي. جرى التصديق على وضعية الجمهوريات لجميع مناطق الحكم الذاتي في الفدرالية الروسية.

رغم ذلك، فقد غير الدستور الروسي الجديد الصادر عام ١٩٩٣، وضعية " ذات السيادة " للجمهوريات الى " مساوية " لجمهوريات الأقاليم الروسية.

يلقي بعض الناس باللائمة على ميخائيل جورباتشيف لانهيار الاتحاد السوفييتي السابق. سواء كان ذلك صحيحاً ام لا، فإن تفكك الاتحاد السوفييتي – القوة العظمى القادرة على الوقوف في وجه اقوى دول العالم – قد خالف التوازن الجغرافي الضروري وتسبب في صراعات دولية وحروب أهلية محلية في بعض من جمهورياته المنفصلة، خاصة في القفقاس.

لقد تولد احساس بالصداقة بين الشراكسة والروس في هذا المناخ السياسي المتوتر. كل المشاكل الاقتصادية والسياسية بينهما يجري حلها بالتوافق المشترك. فقد قال ممثلو جمهورية الأديغيه الفتية في وقت سابق " نحن باقون في مغادرتنا! " وقد اكَّد هذا على استحالة تفكيك العلاقات الاقتصادية، الثقافية، السياسية، وبكل بساطة: الانسانية بين الشراكسة والروس، وبين الشراكسة والقوزاق.

على خلفية اندلاع العداوات الدولية في العديد من أقاليم الاتحاد السوفييتي خلال التسعينات، فإن قيادة جمهورية الأديغيه مشهود لها بالسياسة الحكيمة الموزونة وهي الضامن المتميز للسلام والهدوء في إقليم شمال القفقاس. لقد اتخذ كل من الرئيس، والبرلمان والحكومة عدداً من الاجراءات الرامية الى تهدئة الأوضاع الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية، والى ايجاد الظروف الملائمة للانتقال بالبلاد الى علاقات السوق في جميع دوائر الاقتصاد الوطني.

لقد اتسمت جميع مواقف قيادة الأديغيه بالحكمة خلال مجمل الصراع الابخازي – الجورجي. كذلك فقد ادت هذه الأحداث الى تعقيد الوضع السياسي – الاجتماعي في جمهورية الأديغي. عقدت اجتماعات غير مصرح بها في مايكوب وامكنة أخرى، كما ذهبت بعض مجموعات من المتطوعين من الجمهورية الى منطقة النزاع. فهمت الحكومة شعور التضامن لدى المتطوعين تجاه الشعب الابخازي، واظهرت القلق على مصيرهم، فمنعت التجنيد وارسال المتطوعين الى منطقة النزاع. فقد كان ذلك الأمر يخلق توتراً معيناً في الجمهورية نفسها أيضاً: القرابة الإثنية، الجوار الاقليمي، والرغبة الطبيعية في مساعدة الشعب في محنته، بدت ظاهرة جميعها. فليس من قبيل الصدفة ان يقول المثل الشركسي " في المصيبة، هم إخوة ".

كما يلاحظ م.ب. بيجانوف، فإن الوثائق تظهر بجلاء الموقف السلمي المثابر للأديغيه في حل هذا النزاع سلمياً ودبلوماسياً. بذلت قيادة الأديغيه نشاطاً ملحوظاً منذ منتصف

عام ١٩٩٢. فقد ظل الرئيس جاريموف يحاول بلا هوادة، بأن يقنع الرئيس يلتسين ان يتخذ اجراءات ملموسة في هذه المشكلة المهمة. عام ١٩٩٥، اتجه الى رئيس حكومة الفدرالية الروسية، تشيرنوميردين، بطلب تقديم مساعدة انسانية الى الشعب الابخازي. فقد بيَّن أن جمهورية ابخازيا محاصرة ومعزولة عن العالم الخارجي في ذلك الوقت. كان ممثلو وزارة الشؤون الخارجية في مايكوب يعملون كل ما بوسعهم بالتعاون مع جمهوريات شمال القفقاس لتقديم المساعدة الانسانية الى ابخازيا.

سيتمكن الشعب الابخازي، بمساعدة الاصدقاء، أن يشفي الجراح التي تلقاها خلال الحرب الجورجية – الابخازية.

إن الاساليب العنيفة التي تحدث اليوم في جميع دوائر الحياة لمجتمعنا قد مكنت شعوب بلادنا، بمن فيهم الشراكسة، أن ينظروا الى الخلف نحو ماضيهم، حاضرهم، ثم الى مستقبلهم باسلوب جديد، والى ثقافتهم المادية والروحية، ثم الى مكاسبهم وخسائرهم. ان المظاهر السلبية والمشوهة التي حدثت في العقود الماضية ظاهرة بوضوح، وتؤكد كيف اسهمت في تشكيل سياستهم القومية ثقافتهم و تعليمهم، والانحناءات و " الاختبارات " التي لا تنتهي في الاقتصاد الوطني. على أية حال، لم تكن انجازات الشعب الشركسي اقل وضوحاً في دائرة المسألة القومية: في تطوير الاقتصاد القومي والبعث الروحي للأمة.

واليوم، فإن جمهورية الأديغي، شأنها شأن الجمهوريات الأخرى: قباردينو – بلقاريا و كاراشيفو – تشيركيسيا هي جزء مستقل من الفدرالية، بفروعها التشريعية، القضائية والتنفيذية. يتم انتخاب الرئيس، وتشكل الحكومة، الدستور، شعار الدولة، النشيد الوطني. الرمز، والعلم الوطني، كلها يتم تبنيها على أسس وقواعد ديمقراطية. إن الأسئلة المتعلقة بإعادة احياء الأمة واعادة العادات المنسية بما لا يستحق، التقاليد، والثقافة، تطرح بحزم في الجمهورية: والحرية الدينية معلنة.

الأمل معقود في أن يحمل الشباب الشركسي، الذي يعتمد عليه مستقبل وتقدم أمته، مهمته المقدسة بجدية ويساهم بكل قدراته في سعادتها وإزدهارها المستقبلي.

• • •

# المراجع


1. A. K. Sheugen، G. A. Galkin، N. E. Aleshin، A. A. Kushu، B. E. Sheugen، Zemlia Adyghov (The Land of the Adyghas)، Maikop، 1996.

١ – أرض الاديغه .

2. Prof. S. K. Bushuev، M. G. Autlev، E. L. Kogesaw، Ocherki Istorii Adygheii (Studiesin the History of Adyghey)، Adygheiski Nauchno-Issledovatelski Institut Yazyka، Literatury e Istorii (Adyghey Scientific-Research Institute of the Language، Culture، and History)، Maikop، 1957.

٢ – دراسات في تاريخ الأديغيه ( المعهد العلمي لأبحاث اللغات ، الأدب والتاريخ في الاديغيه ).

3. R. Traho، Cherkessy (Circassians)، Munchen، 1956.

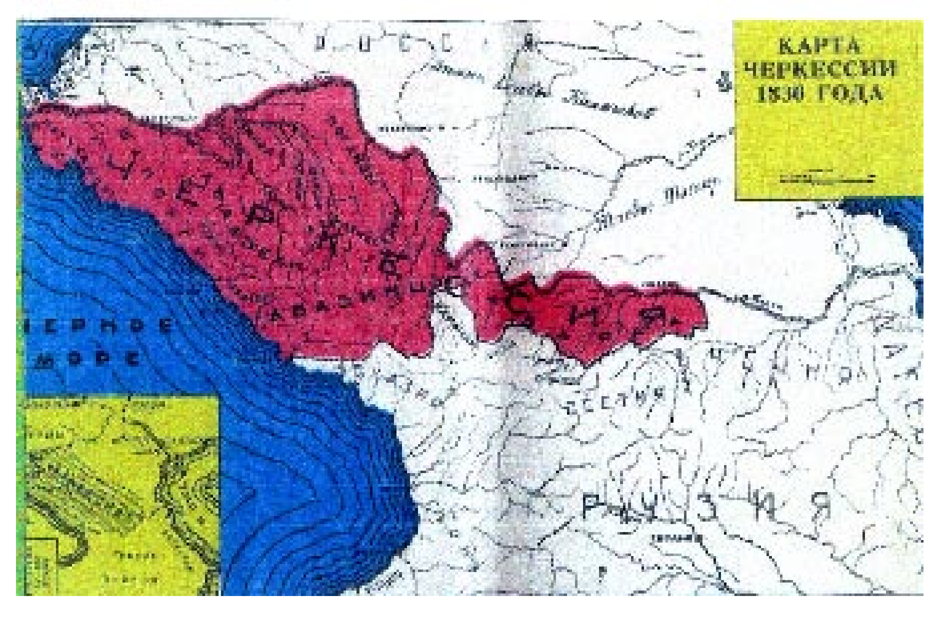
٣– الشراكسة .

4. N. Berzeg، Izgnanie Cherkessov (The Expulsion of the Circassians)، Maikop، 1993.

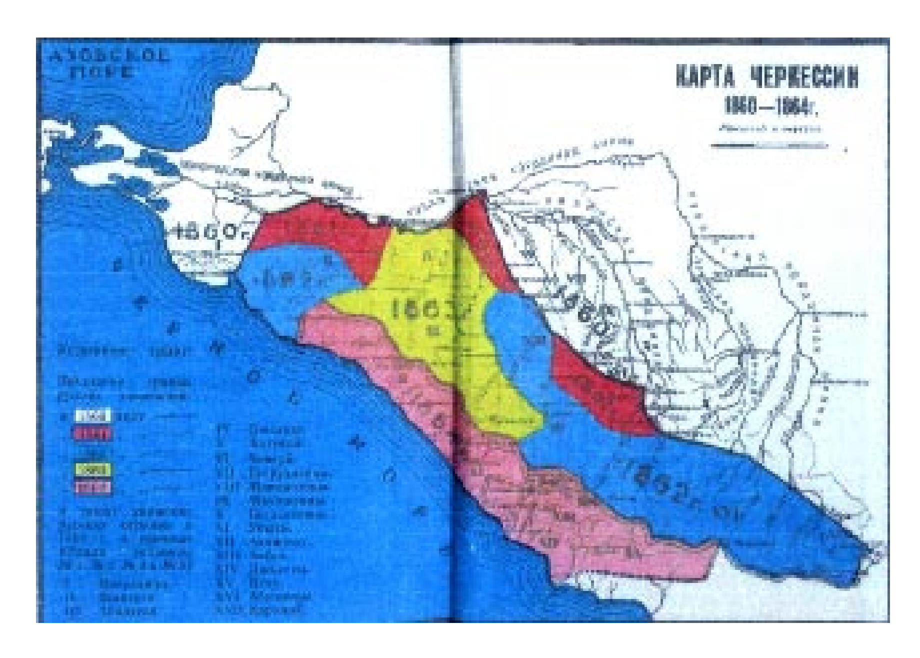
٤ – طرد الشراكسة ( تهجير الشراكسة ).



سيدة شركسية باللباس القومي ( القرن التاسع عشر )

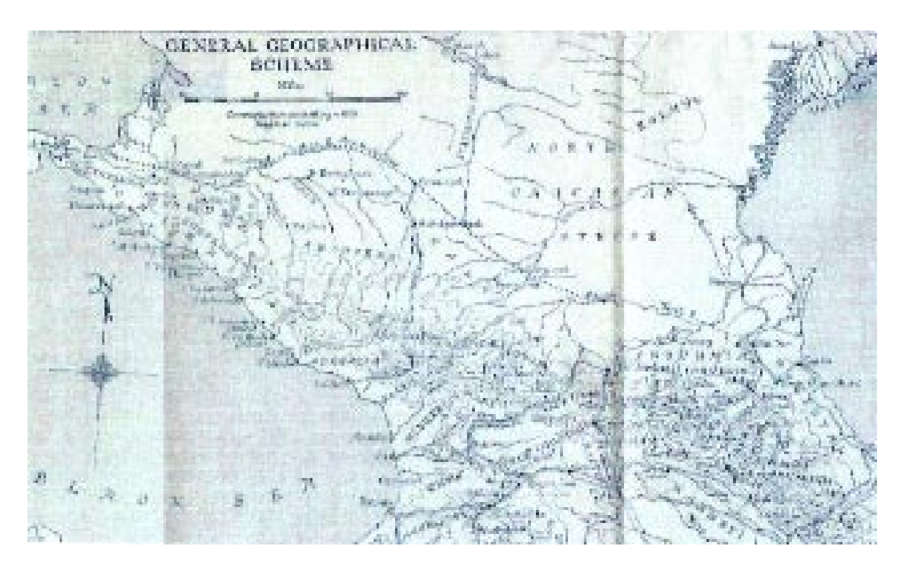



خارطة بلاد الشراكسة ( المنطقة الملونة بالأحمر ) عام ١٨٣٠




**خارطة بلاد الشراكسة للاعوام ١٨٦٠ — ١٨٦٤**

**ما يتبقى من بلاد الشراكسة محاصر هنا بخط شريط تشيرنومورسكي. تظهر هذه الصورة كذلك المراحل النهائية من الاكتساح الروسي: عام ١٨٦٠، المساحة البيضاء، عام ١٨٦١، المساحة الحمراء، عام ١٨٦٢ المساحة الخضراء، عام ١٨٦٣ المساحة الصفراء، وعام ١٨٦٤ المساحة بالزهري.**




**خارطة تظهر مواقع القبائل الشركسية الرئيسة**

# الفصل الثامن
# الشتات الشركسي

## تكوين الشتات الشركسي

شكلت اربع موجات شركسية رئيسة الشتات الشركسي، وكان الدافع الى كل منها ظروف مختلفة. تشكلت الموجة الأولى بشكل رئيس من ذكور "عبيد" صغار السن، وقد تم تصدير اغلبيتهم من القرن العاشر وحتى التاسع عشر، بدرجة رئيسة لإعادة تعبئة صفوف الجيش المملوكي في مصر: الموجة الثانية كانت الاكبر وتكونت تقريباً من الأمة الشركسية بكاملها، والتي اجبرتها روسيا على الخروج من وطنهم الأم الى تركيا العثمانية عند نهاية الحرب الروسية – الشركسية: هربت الموجة الثالثة من الثورة الروسية وقد سميت "المهاجرون القدامى"، وحدثت الموجة الرابعة خلال الحرب العالمية الثانية، وتشكلت في معظمها من اللاجئين ووصمت (بالاشخاص المطرودين). نتيجة لهذه الأحداث المأساوية، فان الغالبية العظمى من الشراكسة يعيشون اليوم مبعثرين في ارجاء الدنيا كلها في ٥٠ بلد مختلف. مما يؤسف له، على أية حال، انه لا يوجد احصاء رسمي دقيق لهم. لذلك، فإن عدد الشراكسة في الشتات يتأرجح بين ثلاثة الى خمسة ملايين شخص، حتى حسب بيانات المصادر الاكثر مصداقية. لتقديم مجرد بعضها، فان بعض المعلومات المتوفرة عنها هي كما يلي:

| | |
|---|---|
| ٥،٠٠٠،٠٠٠ | شخص ( عزت أيدمير ) |
| ٣،٣٧٠،٠٠٠ | شخص ( ك سوكونوف و آي. سوكونوفا ) |
| ٣،٦٠٠،٠٠٠ | شخص ( روسيا وتشيركيسيا، ١٩٥٣ ) |
| ٣،٠٠٠،٠٠٠ | شخص ( م. ا. كيراشيفا ) |
| ٣،٠٠٠،٠٠٠ | شخص ( شوكت المفتي ) و |
| ٢،٥٠٠،٠٠٠ | شخص ( زكي كازيكو )، الخ. |

حسب رأي راسم رشدي، فان البلدان التي يقيم فيها الشراكسة هي: تركيا، سوريا، الاردن، مصر، المانيا، الولايات المتحدة، العراق، ليبيا، مدغشقر، يوغوسلافيا، اسرائيل، ايران، بلغاريا، اليابان، البانيا، لبنان، فلسطين، هولندا، النمسا، والمملكة العربية السعودية.

حسب رأي ا.ك، شيوجين " كذلك يقيم الشراكسة باعداد أصغر في: فرنسا، المغرب، الجزائر، تونس، الكويت، السودان، فيتنام، اليمن، افغانستان، انجلترا، كندا، ايطاليا، اليونان، بولندا، رومانيا، سنغافوره، الفاتيكان، وقبرص. هناك عائلات منفردة تعيش في المكسيك، الصين، كوريا، تشيكيا، سلوفاكيا، فنلندا، تنزانيا، اثيوبيا، السويد، نيوزيلندا وعلى جزر هاواي. يمكن حتماً اضافة الامارات العربية المتحدة الى هذه القائمة، حيث وجد عدد كبيرمن الشراكسة وظائف وانتقلوا الى هناك للإقامة.

## الشراكسة في تركيا

لقد وصفنا مسبقاً الحجم الهائل لاعداد الشراكسة الذين تم نفيهم بالقوة من وطنهم الأم الى حدود الامبراطورية العثمانية خلال السنوات الأخيرة من الحرب الروسية – الشركسية. الرأي التقليدي لدى المؤرخين هو ان روسيا عمدت الى ذلك العمل غير المسبوق في قسوته على أنه الاجراء الختامي لمرحلة ابادتها الجماعية للأمة الشركسية الباسلة من اجل تدميرها بالكامل كأمة، ولمصادرة أرضها ذات الأهمية الاستراتيجية.

على اية حال، فانه مما يثير الاهتمام، ان هذا الاجراء القاسي الذي اتخذ بحق بلاد الشراكسة ليس فقط لمصالح روسيا القيصرية، بل أيضاً لمصالح الامبراطورية العثمانية. يشدد نهاد بيرزج، الخبير المعروف حول النفي الشركسي في تركيا والبلقان، على ان تركيا قبلتهم للأسباب التالية:

١ – لتقوية القدرات العسكرية للامبراطورية العثمانية بمساعدة السكان الشراكسة الجدد في تركيا.

٢ – لزيادة عدد الفلاحين في تركيا.

٣ – لاستخدام الشراكسة في السيطرة على الاراضي غير المستغلة، المستنقعات، والأراضي غير المنتجة.

٤ – لزيادة نسبة المسلمين في اقاليم الاغلبية المسيحية.

٥ – لتدعيم سلطة الحكومة في اقاليم الامبراطورية، حيث ضعف نفوذها، باستخدام الشراكسة " كحاجز صد " واناطتهم بمسؤوليات قوات الشرطة والدرك.

سواء كانت هذه هي الحالة ام لا، فقد القي بعدد هائل من الشراكسة في تركيا عند نهاية الحرب الروسية – الشركسية. تظهر الاحصائيات أن ٧٤٠٠٠ شركسي قد اسكنوا في مقاطعة تشوكور و ٦٣٢٠٠٠ آخرين قرب بانديرما، بينما لا تزال توجد ١٢٠ قرية شركسية

على الساحل الجنوبي لبحر مرمرة. بالاضافة الى ذلك، وحسب رأي نهادبيرزج، فقد تم توطين من ٢٥٠،٠٠٠ الى ٤٠٠،٠٠٠ شركسي آخرين في بلاد البلقان من عام ١٨٦٣ وحتى العام ١٨٦٦، امتدوا من مصب نهر الدوناي الى حدود صربيا.

عند وصولهم الى تركيا، وجد الشراكسة أنفسهم بدون مأوى أو طعام، واخذوا يموتون باعداد رهيبة من الأوبئة والجوع. لم تترك لهم هذه الظروف خياراً كثيراً غير الانضمام الى " الجنود المتطوعين " للجيش العثماني، حيث تلقوا طعاماً وازياء مجانية. لذلك، فقد قدمت المجموعات الأولى من المنفيين الشراكسة الذين رسوا في طرابزون ١٨ ألف جندي الى الكتائب " المتطوعة " في الامبراطورية لا نقاذ انفسهم من الفقر والموت جوعاً. لذلك، فان جميع الشراكسة الذين وصلوا الى كونستانس تحديداً، تطوعوا للخدمة في الجيش التركي. منذ ذلك الوقت فصاعداً، ظل الشراكسة مصدراً للجنود الى الامبراطورية العثمانية. في البلقان، حيث حصل معظم القتال، أصبح المستوطنون الشراكسة أحد الدعائم الرئيسة للحرب. فقد أرغم دور " حاجز الصد " الذي اوكلوا به، كل شخص منهم على حمل السلاح. كذلك، اسهم الشراكسة الآخرون، الذين استقروا في اجزاء أخرى من الامبراطورية العثمانية، بنشاط وهمة في العمليات الحربية.

اليوم، يعيش الشراكسة في تركيا على ساحل البحر الأسود في الاناضول الأوسط. هناك، يوجد قسم كبير من القرى الشركسية موزعة في محيط مدن سينوب، سامسون، أماسيا، تشوروم، يوزغات، قيصري، مرعش، أضنه، انطاكيه، اضافة الى مناطق توكات، سيواس، مالاطيا، بولو، بانديرما، باليك إيسير، إزميت. يمتد خط القرى نفسه من القرى الشركسية التي تقسم الاناضول الأوسط من الشمال الى الجنوب، أبعد الى الجنوب من انطاكيه الى سوريا و الاردن الحالية. كذلك خصصت محلة اوزون يايلا، بين قيصري وسيواس، للقرى الشركسية لنفس الاعتبارات السياسية والاستراتيجية. شكّلت مجموعة كبيرة أخرى من المستوطنات الشركسية في مقاطعات تشاناكاله، بيغا، بانديرما، باليك إيسير، أدابازار، وإزميت، هلالاً دفاعياً حول استنبول، قلب الامبراطورية. في تلك المقاطعات، كلّف الشراكسة بحماية جميع الطرق المؤدية الى العاصمة والسيطرة عليها. يقول زكي كوزيكو، الذي كان رئيساً للجمعية الخيرية الشركسية في تركيا، أنه وجدت في تركيا ٨٣٠ قرية شركسية في زمانه.

ويذكر نهاد برزج في كتابه " تهجير الشراكسة " بعض اسماء ٤٩ قرية شركسية تأسست في البلقان.

ماتزال جميع المستوطنات الشركسية في كل من تركيا والبلقان تحتل مواقع مهمة من الناحية الاستراتيجية، شاهدة بذلك على الغاية من توزيعها بتلك الطريقة. كان واضحاً أن الامبراطورية العثمانية تنوي استخدام الشراكسة الميالين الى القتال في تعزيز سلطتها عبر الامبراطورية. حتى في عهد السلطان عبد العزيز، ملأت الارستقراطية الشركسية البلاط الملكي. فقد بدأ النبلاء الشراكسة الخيالة، الذين يرتدون لباسهم القومي الجميل، يرافقون السلطان. في الفترة من ١٨٦٤ الى ١٩٠٨ " وصل الحضور الشركسي من حيث الأعداد والنفوذ الى مستوى غير مسبوق في تركيا ".

فقد دعموا العرش، خدموا بهمة في الدرك ضد القوى الداخلية التي بدأت تستيقظ بين الاقليات المسلمة والمسيحية في انحاء الامبراطورية.

يجب الملاحظة هنا أن فكرة توطين الشراكسة في روميليا وصربيا منشأها مدحت باشا، رجل الدولة البارز في القرن التاسع عشر، وقد كان شركسياً. كتب سلطان دولت جيراي " اسكن الشراكسة، بالتوافق مع مشروع مدحت باشا، على امتداد المنطقة من مصب نهر الدوناي في البوسنة والهرسك، دوبروجيا، بلغاريا، و صربيا. تشكلت من المستعمرات العسكرية التي اقيمت هناك ميليشيا شركسية، كلفت بالدفاع عن خطوط الحدود. كذلك خدمت تلك الميليشيا في صفوف الجيش التركي عامي ١٨٧٧ – ١٨٧٨ في شيبكا، ايلينا، بليفنا والبلقان.

بدأوا تدريجياً يحتلون مراكز مرموقة في الإدارة التركية في الجيش بشكل رئيس. عام ١٨٦٤، اقترح الصدر الأعظم فؤاد باشا، وهو شركسي وكان يشغل منصب وزير الحربية أيضاً، مشروعاً يقضي بتجنيد ٢٩٠٠٠ شركسي في جيش الامبراطورية العثمانية. وافق السلطان عبد العزيز على المشروع، لكنه كلف الجنرال علي باشا بتطبيقه، وهو شركسي آخر، وله نفوذ هائل بين الشراكسة في المنفى. كما اشرف الجنرال نصرت باشا، وهو أيضاً شركسي، على إدارة توطين الشراكسة في الولاية. كتب س. خوتكو " لقد وضعت الحكومة العثمانية كافة أعباء استقبال وتوطين اللاجئين على السكان السلافيين: فقد اجبروا على بناء البيوت للشراكسة، أو التخلي عن بيوتهم للشراكسة: توفير المنتجات الغذائية لهم، وحراثه اراضيهم وبذرها. منحت جميع القرى الواقعة بين بلغاريا وصربيا بشكل نهائي الى الشراكسة.

عام ١٨٦٤، سجل ف. كانيتس حوالي ٢٠،٠٠٠ شركسي في المناطق الواقعة على الحدود بين صربيا وبلغاريا. في ذلك الوقت، سجل وجود ١٤ مستوطنة للمنفيين الشراكسة في تراكيا،

الى الجنوب من جبال البلقان. مع بداية الحرب الروسية – التركية عامي ١٨٧٧ – ١٨٧٨، كان عدد الشراكسة في البلقان قد وصل الى مائة الف. بالنسبة لهؤلاء الناس، اصبحت الحرب الروسية – التركية امتداداً للحرب التاريخية الطويلة ضد الامبراطورية الروسية.

مكنَّ الجيش الذي يبلغ تعداده ٩٠٠،٠٠٠ جندي، روسيا من كسب النصر في تلك الحرب. كتب تراخو: " لم تتمكن روسيا، حتى العام ١٨٥٦ من الاستيلاء على اكثر من ثلثي نهر اللابا ". كتب جيمس كاميرون وهو اسكتلندي وضابط في الخدمة البريطانية حول هذا الموضوع " تمثل خسائر الجيش الروسي في بلاد الشراكسة صورة مرعبة للتضحية بالبشر ". على سبيل المثال، كان بإمكان م. د. سكوبيليف، قائد قوات البلقان، ان يخسر ٨٠٠٠ جندي في هجوم واحد، وهذا يعني ان جيشاً كاملاً يتحمل مثل هذه الخسائر الرهيبة، لديه سمعة العبقري العسكري! "

انضم الشراكسة الى الجيش النظامي التركي باعداد كبيرة، لكن الكثير منهم شكلوا وحدات شركسية خاصة.

تسلم الحاج بيرزج كيراندوخ، وهو من الوبيخ القيادة المركزية لفصائل المتطوعين. شاركت وحدات الفرسان الشراكسة في العمليات الحربية الفعلية بهمة وقوة. في بعض المصادر، يتم التعامل مع هذه الفصائل بشكل منفصل عن القوات التركية المسلحة النظامية وعن الباشي بوزوق.

يقول نهاد بيرزج، ان الشراكسة شكلوا نصف الباشي بوزوق في البلقان، حيث دارت جميع المعارك الرئيسة الكبرى.

من الناحية الثانية، تكونت قوات الفرسان العثمانية في منطقة عبر القفقاس من الشراكسة ( الأديغة، الابخاز، الوبيخ، الشيشان ) وكان يقودها غازي – محمد، نجل الشيخ شامل. حسب مصادر الاستطلاع الروسية، فقد قدر عدد الفرسان الشراكسة في بلغاريا الغربية بحوالي ٩٢٥٠ سيف: في بلغاريا الشرقية ٥٠٠٠ سيف، و١٨٠٠ سيف في اقليم باباداغ. المجموع: حوالي ١٦٠٠٠ فارس شركسي، وهو ما يعادل اكثر من ضعفي الفرسان الاتراك.

بالإضافة الى ذلك، فقد شارك عدة مئات من المماليك الشراكسة من مصر في هذه الحرب كجزء من قوة الحملة. خلال هذه الفترة، كان العديد من ضباط الجيش المصري شراكسة. شارك محمود سامي البارودي، رئيس وزراء الحكومة الثورية من شباط الى ايلول عام ١٨٨٢، وأحد أعمدة الحركة الوطنية المصرية ومن كبار الشعراء في الشعر العربي

الكلاسيكي، في حملة البلقان برتبة عميد. وقد صاحبه كل من الجنرال حسني باشا والجنرال رشيد حسين باشا.

كما ذكرنا سابقاً، فقد مثَّل الشراكسة في قمة القيادة العسكرية في استنبول الاشخاص التالية اسماؤهم:

علي باشا، والد مارشال الحرب رؤوف باشا، رؤوف باشا نفسه، وزير الحربية والقائد العام للجيش العثماني منذ نهاية العام ١٨٧٧: شقيقه ديلي (المجنون) خسروف باشا، مارشال الحرب عثمان باشا الذي قاد الدفاع عن بليفنا، العميد شركس حسن، قائد حامية صوفيا: شركس عثمان باشا، قائد الفرقة الرابعة في الجيش الشرقي: شوكت باشا، قائد دفاع غرب البلقان، شركس ابراهيم باشا، قائد الباشي بوزوق: ديلاوركارزج باشا، قائد احدى فرق الخيالة الشركسية، فؤاد باشا تخوغو، عميد، يأتي في المرتبة الثانية مباشرة بعد مارشال الحرب ونائب القائد العام للجيش العثماني، العقيد زكريا بك، سليمان بك، وكثير غيرهم، كذلك الوبيخ البالغ من العمر مائة سنة، الحاج بيرزج كيراندوخ، الذي قاد العديد من فصائل المتطوعين، ونجله، اسماعيل بك.

قاد العقيدان الابخازيان تشاشبا حسن ومآن كاملات القوات العثمانية التي نزلت من السفن في ابخازيا. تكونت القوات البرية في معظمها من المنفيين الأديغة، الابخاز والوبيخ. قاد فرقة المشاة الثانية في فارس بيجناو مخلص باشا، وهو ابخازي، بينما قاد الداغستاني كوندوخ موسى باشا، الفرسان العثمانيين النظاميين في البلقان.

عندما عبرت القوات الروسية نهر الدوناي، ارسل رؤوف باشا من القسطنطينية الى سليفنا كقائد مؤقت للدفاع عن البلقان. تولى رؤوف باشا منصب سليمان، القائد العام لجيش الدوناي الشرقي، وأصبح قائد القوات في شيبكا، وتم ترفيعه لاحقاً، عند نهاية كانون الأول عام ١٨٧٧، ليصبح وزيراً للحربية والقائد العام للجيش العثماني. انتدب فيما بعد ليقدم التصديق على معاهدة سان – ستيفانو للسلام.

يؤكد تقرير القيادة الروسية العامة على سمو شخصية الشركسي رؤوف باشا: " المشير ( مارشال الحرب )، الذي تلقى تعليماً ممتازاً في فرنسا، كان أفضل من يمثل المجتمع التركي المعاصر شجاع وذو تربية متميزة، مؤدب وذو شخصية محببة، وكان استثناءً نادراً بين الباشوات في هذا الشأن ". وقد رد المراقب العسكري الروسي بأسلوب اكثر اطراءً على اعمال عثمان باشا...." في عام ١٨٧٦، شارك في الحرب ضد صربيا وتم ترفيعه الى رتبة مشير ( مارشال الحرب ) مكافأة له على تميزه في معركة زايتشاري. قبل بداية الحرب ضد

روسيا، عين قائداً عاماً لجيش فيدينسكي، وعمره لم يتجاوز ٤٥ عاماً، ثم أحرز لنفسه إسماً شهيراً لاحقاً بسبب دفاعه البطولي الماهر عن بليفنا. تم تعيينه في منصب وزير الحربية بعد انتهاء الحرب ".

لم يزد عدد افراد جيش عثمان باشا، الذي دافع عن مقاطعة بليفانسكي عن ٢٨٠٠٠ رجل كان منهم ٢٠،٠٠٠ من المشاة الاتراك و ٨٠٠٠ فارس شركسي. هذه المعلومات المبالغ فيها بشدة هي من الفريق م. د. سكوبيليف.

يقول س. خوتكو " طيلة فترة الحرب الروسية – الشركسية ( ١٧٦٣ – ١٨٦٤ )، لم يتمكن الشراكسة من تجميع مثل هذه الجيوش. فقد ظل معدل اعداد الخيالة الشراكسة يتراوح بين ٢٠٠ و ١٢٠٠ رجل راكب، لكنه في معظم الحالات، كان يتألف من ٥٠ الى ٦٠ فارس ".

حسب اقوال نيميروفيتش رادانتشينكو، الذي عمل مراسلاً حربياً في البلقان، فقد خدم حوالي ألف فارس شركسي في جيش سليمان باشا في مقاطعة شيبكا. شكَّل الشراكسة نخبة الجيش وكانوا مسلحين ببنادق ذات مخزن عتاد.

"........اكثر من ذلك، كان الاتراك يضعون الرماة المهرة في امكنة يصعب الوصول اليها، وكان معظم هؤلاء من الشراكسة، وكانوا يتركون لديهم أطعمة وماءً تكفيهم لعدة أيام. كانت مجموعة من خمسة رجال، جالسين في مثل هذا الوكر، حيث من المستحيل الوصول اليهم من الأسفل على المنحدر، تطلق النار بشكل متقطع من الصباح الى المساء، بحيث يجعلون بعض النقاط في موقعنا مستحيلة طيلة النهار ".

تطابقت هذه القصص عن حرب البلقان مع اوصاف المعارك في القفقاس بدرجة كلية. كتب نيميروفيتش – دانتشينكو " تسلل الشراكسة الى مواقعنا، ومن على بعد اربعين خطوة، جلسوا خلف الصخور، وفي وقت قصير جداً، انتقوا ٨٠ من بين رجالنا وقتلوهم، كان بينهم العديد من مهندسي الألغام. لقد كان من المستحيل ازاحتهم من هناك..."

حافظ الشراكسة على عادتهم في حمل كل من يسقط في أرض المعركة بعيداً الى السلامة، في البلقان بحزم واخلاص. الأمر الذي بدا مدهشاً للضباط الروس في القفقاس. " لدى الشراكسة عادة حمل كل من موتاهم وجرحاهم...."

استخدم الشراكسة الخيالة التكتيك الغريب الذي تميزوا به في المعارك، وهو الاستخدام المتكرر للإنسحاب الوهمي.

وصف بيتر دوكماسوف، مرافق م. د سكوبيليف، استخدام الانسحاب الوهمي للشراكسة. "على القمة الأولى، استلقت مجموعة من الشراكسة في مواجهة فوجنا. تبادلنا معهم اطلاق النار عدة مرات. حوالي الساعة الثالثة نهاراً، تلقيت الأمر بازاحة هذه المجموعة عن قمة

السلسلة الأولى. بدأت بالتقدم ببطء مع رجالي، مع زيادة كثافة النيران تدريجياً. تراجع الشراكسة ببطء في البداية. ثم اخلوا المقدمة بسرعة وقادونا نحو مشاتهم، الذين فتحوا نيرانا قوية على القوزاق.....اضطررنا الى التوقف بلا بديل، ثم ارسلت في طلب المدد! "

طبيعي لم يكن مخزون الاساليب التكتيكية للفرسان الشراكسة مقتصراً على استخدام الانسحاب الخادع. ان وصف الهجوم الجبهوي للخيالة الشراكسة موصوف في التقارير بتفصيل وتكرار اكثر. يقول احمد مختار باشا في تقريره الى القائد العام للجيش العثماني يوم ٧ تموز عام ١٨٧٧ " استمرت معركة الفرسان حوالي ثلاث ساعات. وقد أجبر الهجوم الذي لا يصد لرجال الخيالة الشراكسة، فرسان العدو على التراجع...."

في تقرير نفس الجنرال يوم ٨ تموز، جاء مايلي " لقد ميَّز الشراكسة أنفسهم في معارك الفرسان بالأمس. ان بسالة وتصميم الفرسان الشراكسة أمر يليق بتجميل صفحات التاريخ...." هناك تقرير آخر للجنرال مختار باشا عن معركة ياخنيلار يوم ٨ آب، ١٨٧٧ " يالها من شجاعة مذهلة تلك التي ابداها الخيالة الشراكسة المتطوعون، خاصة لواء الشراكسة من قارص ولواء الأباظه من سيواس..."

يمكن العثور على تقارير مشابهة في مصادر روسية أيضاً. في المجلة المدعوة "فيلق روستشوك" ورد بتاريخ ١٨ تموز عام ١٨٧٧ " حسب المعلومات المستقاة من البلغاريين، هناك ٢٧ ألفاً من القوات النظامية التي انهارت معنوياتها في روستشوك، وهم يعلقون آمالهم على دعم الشراكسة".

يقول اعتراف مشابه من التقرير التركي "لقد أنقذ المتطوعون الشراكسة هنا (في شيبكا) أرواح جنودنا اكثر من خمس او ست مرات. ليكن اللّه رحيماً بهم على الدوام! "

وصف بيتردوكماسوف احدى المعارك بقوله " بدأ الاتراك هجومهم. وحدات متراصة من المشاة تسير خلف السلسلة: خلفهم، لوائين من الفرسان الشراكسة فوق خيول جميلة....بدون أن أتعمد، وأنا اراقب بالمنظار المقرب، فقدت نفسي من فرط إعجابي بالخيالة الشراكسة. كان احد الألوية على خيول رمادية، و الآخر على خيول بيضاء. لم احظ أبداً بفرصة لرؤية مثل هذه الخيول الرائعة من قبل! رأيت مثل هذه الجياد الرائعة، بعد الحملة فقط، عندما سنحت لي الفرصة لأقف في استعراض القوات التركية في القسطنطينية..."

هذه، على كل حال، اوصاف متفرقة لأفضل الخيالة في العالم. لانصاف هذا الموضوع، ينبغي ان يخصص المرء دراسة جدية ويؤلف كتاباً حوله.

• • •

خدم العديد من رجال الدولة الشراكسة بامتياز في تركيا، خاصة عام ١٨٧٨ وما بعده. لقد دعا السلطان عبد الحميد خير الدين باشا الشركسي، ليتبوأ منصب الصدر الأعظم، وقد كان قبلها يشغل منصب رئيس وزراء تونس من عام ١٨٧٣ الى ١٨٧٧.

ولد خير الدين باشا في بلاد الشراكسة، وسط قبيلة البيسليني التي كانت تسكن قرب نهر الكوبان. تصلح سيرة حياته كأيضاح للتاريخ السياسي لتونس وتركيا خلال القرن التاسع عشر. توفي والده، حسن لاش، في الحرب الروسية – الشركسية. أصبح خير الدين يتيماً، فأرسل الى قريبه تحسين بك قبرصلي في استنبول.

ذهب بصحبة بعض شباب الأديغة، الى تونس، المقاطعة البعيدة ضمن الامبراطورية العثمانية عام ١٨٤٠، للدفاع عنها من التوسع الفرنسي.

انضم هناك الى حرس احمد باشا ( ١٨٣٧ – ١٨٥٥ ) الذي تبناه كإبن له وقدم له الفرصة لإتمام المدرسة العسكرية في فرنسا. اتخذ الشركسي الشاب الموهوب مهنة عسكرية بسرعة. وصل الى رتبة لواء في سن ٣٦.

عين عام ١٨٥٧ قائداً لبحرية تونس. سمي تونسياً اعترافاً بخدمته الطويلة المتفانية.

في ذلك الوقت، كانت السلالة الحسينية التي اسسها الحسين بن علي قائد الفرسان، والذي كان حسب كل الاحتمالات، مولوداً بدوره في القفقاس الغربي، تحكم البلاد. كان الحسينيون يبنون سياسة مستقلة ويعتمدون على الجيش المملوكي.

كان المماليك في تونس قد شكلوا طبقة ارستقراطية مغلقة بحلول أواخر القرن الثامن عشر، واستولوا على كافة المناصب في الجيش، البحرية والجهاز الإداري. حكم المماليك منذ نهاية القرن الثامن عشر بصفة رؤساء وزارة، وكان الحسينيون البايات مجرد حكام اسميين. تكونت غالبية المماليك في تونس من الشراكسة، الجورجيين واليونان. لاحظ ليون براون ان الشراكسة والجورجيين لم يعاملوا اليونانيين والمهاجرين الآخرين من البلقان بشكل أفضل من السكان المحليين.

كتب عثمان بك، احد المشاركين في الحملة الشرقية لعام ١٨٥٤، عن سيطرة الشراكسة والجورجيين في تونس " مماليك عاديون، تربوا تحت ظروف النظام الاقطاعي مع قليل من التطعيم في التنظيم الأوروبي، يتكونون على الأغلب من الأسرى الشراكسة والجورجيين، الذين، عندما رماهم قدرهم في تونس، اخذوا السلطة بين أيديهم ".

كان أول رئيس وزراء لتونس، والذي لا يثير أصله الشركسي اية شكوك، هو شاكر ( ١٨٢٤ – ١٨٣٥ ).

انقذ حكمه البلاد من الإفلاس المالي. كان مدافعاً عن الإصلاح على طريقة محمد علي، لذلك قام شاكر بالغاء قوة الانكشاريين ونظم كتائب مشاة على النمط الاوروبي. استمرت الاصلاحات التي اطلقها شاكر اثناء " حكم " باي أحمد.



**خير الدين باشا ( لاش )**
**رئيس وزراء تونس والصدر الأعظم للامبراطورية العثمانية**

كتب ن. ا. ايفانوف " يجب الملاحظة أن من بين المماليك التونسيين، كان هناك، الى جانب المغامرين ذوي الأصول المتواضعة، رجال خدموا وطنهم الأم الجديد بإخلاص. فقد اعتقد الجنرالان خير الدين، وحسين، واصدقاؤهما ان الدستور والمشاركة الحرة للمواطنين في البلاد، وحدهما القادرين على إعادة احياء تونس ".

كان اقرب مساعدي خير الدين، حسين باشا، شركسياً هو الآخر. كان خير الدين باشا زعيم حزب الأحرار الميالين الى الغرب. تمت إدارة الاصلاحات التي " قلبت اسس المجتمع التقليدي كلياً " تحت قيادته المباشرة.

بدأ خير الدين انشطته الاصلاحية كقائد للبحرية عام ١٨٦٦.

ظل خير الدين في وسط الاصلاح الدستوري لمدة ست سنوات، من عام ١٨٥٦ وحتى ١٨٦٢. تم تبني الدستور الأول عام ١٨٦١ ، وهكذا، اصبح محمد الصادق،الباي الذي " حكم " في ذلك الوقت، الملك الدستوري الأول في تاريخ الاسلام.

بدوره، اصبح خير الدين الرئيس الأول للبرلمان ( المجلس الأعلى ). ترأس خير الدين باشا البعثات التونسية الى استنبول للأعوام ١٨٥٩، ١٨٦٤ و ١٨٧١، والتي كان الهدف منها عقد تحالف ضد العدوان الفرنسي المحتم.

عام ١٨٧٣، أصبح خير الدين باشا رئيساً لوزراء تونس. عزل الوزراء القدامى الذين كانوا يتمرغون في الفساد، وشكل حكومة وطنية. تسلم شركس حسين باشا منصب وزير التعليم. وترأس شركسي آخر هورستم باشا، وزارة الدفاع، حاول خير الدين باشا ان يؤسس نظاماً أساسياً في البلاد: قوانين حازمة، ميزانية متوازنة، وان يوزع الاراضي على الفلاحين. أولى البرامج التعليمية اهتمامه الجاد، أصلح جامعة الزيتونة الدينية، أسس الجامعة الصادقية، وغيرها. كانت المشاكل الكبرى هي ما تثيره الأطماع الاستعمارية للقوى الرئيسة: انجلترا، فرنسا وايطاليا. كانت سياسة خير الدين باشا تقضي بان لا يمنح اية امتيازات لأي من هذه القوى في السوق التونسية. اخفقت سياسة التوازن سنة ١٨٧٧، حينما اندلعت الحرب الروسية – التركية، وحاول القنصل البريطاني ان يرسل حملة عسكرية تونسية الى البلقان. عارض الفكرة كل من فرنسا وايطاليا بحزم. في النهاية، وجد خير الدين نفسه في عزلة، محروماً من المساعدة من أي طرف، بمن فيهم الباي. قدم استقالته، وانتهت حياته السياسية في تونس.

أنهى سقوط المماليك الشراكسة استقلال تونس.

قام السلطان الشاب عبد الحميد، الذي يعرف خير الدين باشا جيداً، وكان معجباً بشدة بكتابة الفلسفي والسياسي " أقوم المسالك "، بدعوته لشغل منصب الصدر الأعظم. وهكذا اصبح خير الدين باشا الصدر الأعظم في كانون الأول عام ١٨٧٨، بعد ذلك بوقت قصير، قام السلطان عبد الحميد بعزل الخديوي اسماعيل بناءً على اصرار خير الدين باشا، فالرجل، في نظر رئيس الوزراء، اقدم على الخطأ الذي لا يغتفر إذ فتح مصر للتدخل الأوروبي. كذلك قدم للسلطان مشروعاً للإصلاح الإداري في الحكومة، يهدف الى تسهيل سياسة الحكم المطلق، وارساء دستور الامبراطورية العثمانية.

اثارت الوثيقة الاصلاحية ضجة في المجلس. اكثر من ذلك، لم يستطع وجهاء استنبول ان يسامحوا خير الدين باشا على نزاهته، استقلاليته، ولهجة خطابه المتعالية تجاه الوزراء وحتى السلطان. تآمر عليه الارثوذكس، الاسلاميون، السفارة الروسية ومختلسو الأموال العامة. اصبحت المعارضة التي يواجهها خير الدين غاية في القوة.

لابد وان السلطان كان مدركاً لها، لكنه كان بحاجة الى شخصية خير الدين باشا. فرئيس الوزراء اجنبي، شركسي من تونس. حتى انه كان يتكلم التركية بشكل سيء ولايختلط بالجماعات المحلية. اكثر من ذلك، كانت لديه سمعة بأنه مسلم وطني مخلص وإداري كفؤ، تلقى تعليماً أوروبياً ممتازاً. بغض النظر عن ذلك، فقد اختار السلطان عبد الحميد أن يرفض مشروع الإصلاح.

تكرر التاريخ التونسي في استنبول. أدت الأوضاع المالية المستحيلة الى شل جميع محاولات خير الدين باشا في البدء بالاصلاحات. حتى السلطان عبد الحميد ادار ظهره إليه. في النهاية، فقدم خير الدين باشا استقالته وعاش حياة عادية في العاصمة، يكتب مذكراته. وتوفي عام ١٨٨٩.

كان خير الدين باشا اكثر رجال عصره استقامة وتعليماً عالياً. أعماله مكتوبة بالعربية والفرنسية.

أصبح نجله الاكبر، طاهر: جنرالاً، واصبح الثاني: محمد، صحفياً بعد ان تلقى تعليمه في أوروبا. تزوج نجله الأصغر صالح الأميرة منيرة، ابنة شقيق السلطان عبد الحميد الثاني. تشهد هذه الحقيقة على انه برغم المؤامرات والغيرة في بلاط السلطان، فقد اظهرت السلالة العثمانية الحاكمة تعاطفاً شديداً تجاه عائلة خير الدين باشا.

يجب أيضاً ملاحظة ان جنرالات الشراكسة كانوا متواجدين في جميع الأصقاع النائية للامبراطورية العثمانية.

خلال الفترة المشار اليها هنا. يقول ليزلي بلانش أن المشير بيريكتوكو عثمان فريد باشا كان حاكماً عسكرياً للمدينة المنورة. وكان متزوجاً من ابنة شقيق الإمام شامل. وكان شركسي آخر، هو تله سيروك شمس الدين باشا حاكماً لطرابلس ( ليبيا ) واظهر مقاومة مستميته لاحتلال ايطاليا لبلاده عام ١٩١٢.

على العموم، فقد قدم المناخ الشركسي قدراً كبيراً من الاستقرار لسلطة السلطان. لم يعزل عن العرش سوى سلطان واحد طيلة القرن التاسع عشر. عام ١٨٧٦، عزل السلطان عبد العزيز نتيجة لثورة في الدولة، نظمها حسين عوني باشا، وزير الحربية. نصّب محمد

الخامس على العرش، لكنه سرعان ما اظهر علامات الجنون. فقد ظل تحت رقابة الاطباء النفسيين منذ طفولته. اثرت فيه الاحداث المرتبطة بخلع السلطان عبد العزيز بعمق. منذ البداية، عندما زاره الوزراء المتآمرون، اعتبرهم جميعاً قتلة.

اجمعت الظروف كلها في ذلك الوقت على خلق قناعة لدى الجميع، بمن فيهم سفير بريطانيا العظمى، بان السلطان عبد العزيز قد أغتيل. بعد ذلك، قام حسن الشركسي بالتعامل مع المتآمرين خلال اجتماع مجلس الوزراء في المقر الريفي لمدحت باشا.

حسب مصادر تونسو سامح نفيذ، فإن حسن الشركسي هو نجل احد الارستقراطيين الشراكسة، واسمه اسماعيل بك، تخرج من مدرسة السلطان للخيالة، وتلقى رتبة ملازم. يكتب تونسو " اثناء دراسته، اظهر براعة كبيرة في الرماية والركوب، وتلقى من أجلهما العديد من الأوسمة ".

كانت شقيقة حسن الشركسي احدى سيدات السلطان عبد العزيز، وكان هو نفسه قد دخل في خدمة البلاط كمعاون للسلطان الشاب. انضم بعد ذلك الى اضيق حلقات السلطان عبد العزيز. كان ينتظره مستقبل باهر، لكن خلع عبد العزيز حرمه من مستقبله الباهر هذا.

بالإضافة الى ذلك، فقد اشترك حسن الشركسي مع غيره في القناعة العامة بأن حسين عوني باشا مدان في وفاة السلطان، وقد اساء اليه علناً. امضى أوقاته في حفلات سكر متواصلة بصحبة اشهر غانيات استنبول. احسَّ عوني باشا بالتهديد الذي يمثله، فحصل له على ترقية وعينه في منصب حاكم بغداد، لكن الوقت كان قد فات. فقد توفيت شقيقة حسن، وهي المفضلة لدى السلطان عبد العزيز، وكانت أول من وجده ميتاً وقد قطعت شرايينه، اثناء الولادة. تلك كانت القطرة الأخيرة. قام جمهور غفير بالمشاركة في جنازتها ودفنت في سكوتاري.

هناك السبب التالي الذي يدعو الى التصديق بان شركس حسن لم يكن في البداية ينوي ان ينتقم لمقتل صهره الملك. لو أن شقيقته انجبت نجل السلطان، لكان باعتباره خال ولي العهد سيحصل على احتمالات ممتازة في المستقبل. رغم ذلك، فان عقابه يبدو وكأنه عمل انتقام دموي حتماً. ان وصف جون هازليب للانتقام يدعم هذا الافتراض. كتب " الضابط الشركسي الشاب، شقيق المحظية المفضلة ، مشهور برمايته بواسطة المسدس، مخلص للسلطان السابق، وقد تجاهل تعيينه في بغداد، وبقي حتى ينتقم من وزير الحربية. تسلح بخنجر هندي وأربعة مسدسات، أخفى اثنين منها في حذائه الطويل الرقبة، واثنين

في جيوبه، واندفع داخلاً الى القاعة، حيث كان اجتماع مجلس الوزراء منعقداً، وقتل وزير الحربية بطلقتين دقيقتين أولاً، ثم وزير الخارجية. قتل الحراس الشخصيين الذين حاولوا منعه، الواحد تلو الآخر.... ".

يقول تانسو " ركض حسن بك صاعداً الدرجات الرخامية الى الطابق الثاني وانفجر داخلاً الى الصالون، حيث كان مجلس الوزراء منعقداً. صوَّب المسدس الى حسين عوني باشا وصاح فيه " لا تتحرك، سيراسكير: سأقتلك! " اصيب الوزراء الذين لم يتوقعوا أحداً، بالذهول....ولم يعرفوا الى اية جهة يجرون. أول من تحرك هو السيراسكير (سيرعسكر)، وتلقى الطلقة الأولى......بينما هو يطلق الرصاص على كل من يحاول الهروب، خاطب مدحت باشا: " ليس لدي شيء ضدك، فاجلس هناك! " على اية حال، فقد ركض مدحت باشا ومترجمه رشدي، الى الصالة الأخرى، ومن هناك الى جناح الحريم ". ركض الآخرون في كل الاتجاهات. حاول وزير البحرية على الفور، ان يوجه ضربة من خلف الشخص المقتول، لكنه انهار في بركة من الدماء، فقد اصابه الخنجر الذي سحبه حسن من حذائه الطويل الرقبة، ودفعه في جسم الوزير الأخرق. اخترقت الرصاصات المنطلقة من المسدس الثاني جسد رشيد باشا، وزير الخارجية، الذي حاول ان يطلق النار على حسن الشركسي. قابل حسن محاولات اثنين من المرافقين وخادم في القبض عليه، بطلقات الرصاص. في النهاية، وصلت دورية من الدرك وهاجمته بالحراب. وقتها فقط امكن القبض على حسن المستشيط غضباً. حوكم وحكم عليه بالموت شنقاً. قبل إعدامه، صاح من فوق المنصة " حسين عوني باشا قتل السلطان! "

لو أن حسن الشركسي قبل بالمنصب في بغداد واستمر في الحياة الهادئة، طبعاً، لما كان سيحاكمه أحد. لكن منطق العدالة الشركسي لم يسمح له ان يفعل ذلك. دفنت جثته بمراسيم تكريم، وسجلت شجاعته على شاهد قبره. تعاطف معه ابناء قبيلته، وهم الموالون للسلطان عبد العزيز، وكل سكان استنبول تقريباً. مات جميع المتآمرين الرئيسين الذين خلعوا السلطان عبد العزيز، نتيجة لانتقام حسن الشركسي. وصف جورج بورن هذه الأحداث في روايته التاريخية " سلطان واعداؤه ".

كانت سلطة الشراكسة وقادتهم العسكريين واقعاً لا يمكن إنكاره في الامبراطورية العثمانية. كتب محمد ايتشروخ بهذا الخصوص " كل تركي يعلن بفخر أنه شركسي، وليست هناك أية عائلة معتبرة ( في تركيا )، لا تعتبر الأم فيها شركسية ". بعد أن بثوا النبل في النمط العثماني، ادخل الجبليون والشراكسة تياراً نابضاً بالحيوية في وزارة الخارجية أيضاً.

كانت حكومة السلطان عبد العزيز، بكل حيوية هذا الشخص، كريمة جداً تجاه الشراكسة، الذين تأقلموا بنجاح مع الظروف والأحوال الجديدة. وقد سكنوا، بشكل اساسي، أفضل الاراضي في البلقان، وسورية والاردن.

لم تكسر المحن والمصاعب ارادتهم وروحهم المعنوية. في الواقع، فقد احتل الجيلان الأول والثاني من هؤلاء الشراكسة جميع الأراضي التي يعيش عليها ابناؤهم بجدارة. خصصت هذه الاراضي رسمياً لهم من قبل الحكومة العثمانية، لكن على صعيد الواقع، اضطر الشراكسة الى أخذها بالقوة من السكان المحليين: البلغار، الصرب، والأرمن، الاكراد، الدروز، البدو، والاتراك أنفسهم. حتى الأكراد المتطرفين الميالين الى قتال، اضطروا الى التنازل عن اراضيهم الواقعة بين قيصري وسيواس، الى الشراكسة.

اسس الشراكسة مع الشيشان مستوطناتهم من ماردين الى الحلة وأربيل في اقليم كردستان العراقي. يحفظ الاكراد الذين طردوا من اوزون يايلا (بين قيصري و سيواس) أغنية حزينة عن الاسلوب الذي اضطروا فيه الى مغادرة قراهم والارتحال شرقاً نتيجة لحرب قاسية مع شعب أشقر الشعر، أزرق العينين يرتدي طواقي عالية من جلود الخراف. في الحقيقة، فان الابزاخ، الشيمجوي، وقبارديو الكوبان، الذين احتلوا اراضي توكات، سيواس وقيصري كانوا يبدون ذوي بشرات شقراء مقارنة بالاكراد. كتب المؤرخ العسكري الروسي في. إيه بولّو " لم يكن جبلي الكوبان، المشهور في الشرق بجرأته، يثق بالكردي لمجرد ان ينظف له بندقيته أو سيفه " كتب إيه. في. ايليسييف عن الشراكسة الذين استقروا في مقاطعة توكات ( الآن هي مقاطعة اوزون يايلا ) ، عام ١٨٧٧ " ان اقليم توكات مثير للإهتمام بالنسبة لنا نحن الروس، لأنه يعج بالمستوطنات الشركسية. هؤلاء السفاحون وقاطعو الطرق، الذين يبثون الرعب بكل شخص في آسيا الصغرى من خلال قسوتهم واعمال نهبهم، رحبوا بالغريب الروسي المسكين بحرارة ودفء الى درجة انهم لم يعرفوا كيف يعاملونه أفضل مما فعلوا ".

لتوضيح الدائرة المتنوعة التي نشط فيها الشراكسة في تركيا، دعوني اذكر هنا اسماء بعض الأفراد: احمد جاويد باشا (تحارخيت)، خبير لغات ونشر. كان من الوبيخ، ولد عام ١٨٤٠ في القفقاس وتخرج من كلية الموظفين المدنيين في استنبول. بعد ثورة تركيا الفتاة، أصبح احد منظمي الجمعية الشركسية للوحدة والعون المشترك وزعيمها الدائم.

قام بتحضير الحرف الشركسي ونشره في استنبول على أساس الخط العربي. وهو مؤلف كتب مدرسية عن الكتابة والمحادثة بلغة الأديغة حسب " القواعد العربية ". ألّف بالاشتراك مع الدكتور علي بشحاتلوقوه " القاموس الأديغة " ونشره في اجزاء في صحيفة " غوازه ".

تظل اعماله البحثية حول مشاكل التاريخ الشركسي غير منشورة حتى يومنا هذا. توفي عام ١٩١٦ في استنبول. حسين طوسون بك (شهابلي)، سياسي، معلّق، وناشر. هو من الوبيخ، ولد عام ١٨٧٥ وتخرج من ليسيه جالاتا سراي والكلية العسكرية. اثناء خدمته في الجيش العثماني، قبض عليه بسبب نشاطاته الثورية ونفي الى ليبيا، حيث درَّس اللغة الفرنسية في المدرسة العسكرية عام ١٨٩٦.

انتقل من ليبيا الى اوروبا وانضم الى منظمة تركيا الفتاة في الخارج. اصبح ناشراً ومراسلاً لصحيفتي " الرأي " و " التقدم " اللتين كانتا تصدران في جنوا وباريس عام ١٩٠٧. عاد عام ١٩٠٨ سراً الى الاناضول ونظم عصياناً في طرابزون ضد طغيان السلطان عبد الحميد الثاني. القي القبض عليه مرة أخرى وحكم عليه بالسجن مدى الحياة. حررته ثورة تركيا الفتاة. أصبح نائباً في المؤتمر الوطني الكبير عن ولاية ارضروم. اثناء الحرب التركية – الايطالية حول ليبيا، تطوع وذهب الى الجبهة حيث أخذ أسيراً.

اثناء سنوات الحرب العالمية الأولى، اصبح رئيس الوكالة العثمانية الوطنية وساعد المنظمات الشركسية: لجنة استقلال القفقاس ولجنة اللاجئين السياسين لشمال القفقاس (١٩١٥ – ١٩١٨).

القي القبض عليه ونفي الى مالطا عندما احتلت القوات البريطانية استنبول.

اعماله المنشورة هي: " الرأي العام حول وضع شعوب شمال القفقاس خلال فترة الحرب العالمية الأولى (استنبول، ١٩١٨، بالفرنسية) و "مؤتمر شعوب شمال القفقاس وأعماله التشريعية" (استنبول ١٩١٩، بالفرنسية).

-خالد لميع آتلي (شيزيموغه)، المؤلف الموسيقي التركي الشهير. ولد في استنبول عام ١٨٤٩، تيتم في سن مبكرة. كان يمتلك صوتا رائعاً وجلب الانتباه بتأليفه الموهوب للموسيقى التركية.

ترك خدمة الحكومة في سن متقدمة وخصص كامل وقته لفن الموسيقى. الف اكثر من ٥٠٠ قطعة موسيقية، ضاع الكثير منها.

جمعت ١٦٨ من اغانيه، بما فيها المارشات العسكرية، ونشرت. كان الملحن نفسه قد كتب معظم كلماتها. توفي عام ١٩٤٥.

- **صالح خلوصي باشا (كارزيج)**، جنرال ورجل دولة في الامبراطورية العثمانية. ولد عام ١٨٦٤ في استنبول من اصل شابسوغ. كان والده الاميرال ديلاور باشا كارزيج، قائد اسطول الدوناي اثناء الحرب الروسية – التركية عام ١٨٧٧ – ١٨٧٨.

تخرج صالح خلوصي من المدرسة الحربية ( ١٨٨٥ ) ، ثم الاكاديمية العسكرية في استنبول ( ١٨٨٨ ) وبرلين ( ١٨٩٤ ) ، برتبه قائد فرقة، وخدم في قيادة أركان الجيش التركي.

عندما اتهم زوج شقيقته المشير فؤاد باشا توغو، بمحاولة خلع السلطان عبد الحميد الثاني، ارسل منفياً الى دمشق. عاد الى استنبول بعد انتصار ثورة تركيا الفتاة و أصبح نائباً لرئيس هيئة الأركان، لاحقاً – قائد الجيش الثاني: وزير البحرية للامبراطورية العثمانية، نائباً في المؤتمر الوطني الكبير، ولا حقاً المفتش العسكري العام للجيوش الرابع والخامس والسادس. تقاعد عام ١٩٢٢ وتوفي في استنبول عام ١٩٣٩.

- **محمد رشيد شاهينجيري (حناخوه)**- سياسي ورجل دولة في الامبراطورية العثمانية. هو من البجدوغ ومولود في القفقاس عام ١٨٧٣. تخرج من المدرسة الحربية والاكاديمية العسكرية- الطبية في استنبول، واصبح طبيباً. كان احد مؤسسي حزب " الوحدة والتقدم".

نفي الى ليبيا بسبب انشطته الثورية. ترأس مجموعة المناهضين للملكية المنفيين لمدة عشر سنوات.

كان يوقع مقالاته بالاسماء المستعارة: تشيركيس ليالي، جيفري، شاهينجيري.

عاد الى الخدمة الحكومية بعد ثورة تركيا الفتاة. منذ عام ١٩٠٩ وحتى ١٩١٧، تسنم مناصب قائمقام وحاكم لعدة ولايات في الامبراطورية. تعاون خلال السنوات نفسها بنشاط مع المنظمات الثقافية والسياسية لدى الشراكسة العثمانيين. قبض عليه بتهمة مزيفة هي الاشتراك في المذبحة الأرمنية، فكتب اثناء وجوده في السجن كتابه "الاستقرار" ونشره عام ١٩١٩، فضح فيه حقيقة احداث عام ١٩١٥. توفي اثناء محاولته الفرار من السجن.

هو مؤلف المذكرات المعنونة "كيف ولماذا تحولت الثورة" (القاهرة عام ١٩٠٩)، "مذكرات الدكتور رشيد بك – احد مؤسسي حزب " الوحد والتقدم " ( إزمير، ١٩٩٢. استنبول عام ١٩٩٣ ).

- **عزيز ميكير (ميهاره)** - دبلوماسي تركي، عالم، وشخصية عامة بارزة في الشتات الشركسي. ولد في الآول الاباظي بيبركوي (الآن في قرشاي – تشيركيسك). تلقى تعليمه الابتدائي في باتالبا شينسك (تشيركيسك). هاجرت عائلته الى الامبراطورية العثمانية مع نهاية القرن التاسع عشر الى مدينة إسكي شهير. تخرج من الليسيه في استنبول ومن المعهد الزراعي في فرنسا.

عمل في التدريس كأستاذ  بروفيسور). شارك بنشاط في تنظيم الجمعية الشركسية للوحدة والعون المشترك ( ١٩٠٨ )، وكذلك عمل مع منظمات شركسية سياسية أخرى. اثناء الحرب العالمية الأولى، شارك في المفاوضات التي عقدت في كل من فيينا، برلين ولوزان ومدن أخرى في اوروبا، كممثل عن لجنة استقلال القفقاس. تعرف في لوزان على لينين. انضم بعد هدنة مودروس الى الكماليين، وأصبح الأمين الأول لسفارة الجمهورية التركية في روسيا السوفييتية، حيث واظب هناك على الالتقاء بكل من لينين وستالين وتشيتشيرين والقادة الآخرين في البلاد عام ١٩٢٢.

بعد عودته الى تركيا عام ١٩٢٣، استأنف التدريس. أصبح عميد المعهد الزراعي في انقره اعتباراً من عام ١٩٣٢. كان يتحدث الأديغة، الاباظه، التركية، الفرنسية، الروسية، والالمانية بطلاقة. توفي في انقره عام ١٩٤١.

- **هارون تله تسيروك** – شخصية عامة مشهورة في الشتات الشركسي. ولد عام ١٨٧٩ في قرية بينارلار ( هيليي حابله )، مقاطعة دوزجه، وتخرج من مدرسة الفاتح الدينيه في استنبول وأصبح مدرساً. انضم عام ١٩٠٨ الى الجمعية الشركسية للوحدة والعون المشترك. عمل على لغة الأديغة وألف كتاباً بلغة الاديغه " القواعد الدنيوية – الدينية، الزامية للمسلمين ". بالأحرف العربية. ذهب بصحبة ابرز ممثلي المهجرين الشراكسة في تركيا مثل: ابراهيم خيدزيتل، نوري تساغه، يوسف نيجوتش، حافظ بيسليني وآخرين، الى شمال القفقاس في بعثة تعليمية.

اصبح مديراً للمدارس في تاختاموكوي وبجحه كوي ( الآن في جمهورية الأديغي ).

هو مؤلف كتاب " الحروف الاديغه " ( ١٩١٨ )، ومحرر صحيفة " كراسني كوبان " ( الكوبان الأحمر )، التي كانت تنشر باللغة الأديغة في مدينة كراسنودار بموجب قرار من اللجنة الثورية للكوبان.

بعد احتلال شمال القفقاس من قبل جيش دينيكين التطوعي، اتهم بالتآمر مع البلاشفة، ولم ينقذ حياته إلا تدخل الجنرال كيليتش ولوو تراخو. بعد ان دفن زوجته عام ١٩٢٢، عاد الى تركيا، وانهمك في الزراعة والعمل الإبداعي في قريته، بينارلار.

اختفت مخطوطاته في نهاية الثلاثينات نتيجة للسياسة القاسية للسلطات التركية، والتي كانت تحد من حقوق وحرية الاقليات العرقية. توفي عام ١٩٣٨.

-**حسين رؤوف اورباي (تشينتشه)** – رجل دولة بارز وشخصية عسكرية لدى الجمهورية

التركية. من الوبيخ. ولد في استنبول عام ١٨٨١. كان والده محمد مظفر باشا، حاكماً على ليبيا.

تخرج حسين من مدرسة الهندسة البحرية عام ١٨٩٩، واشترك في العمليات الحربية في ليبيا ومناطق البلقان. أصبح رئيساً لأركان البحرية للامبراطورية العثمانية اثناء الحرب العالمية الأولى، وبعد نهاية الحرب، اصبح ممثل تركيا في مفاوضات السلام في بريست – ليتوفسك. عام ١٩١٨ ترأس وفد الحكومة العثمانية في الاجتماعات مع قادة جمهوريات عبر القفقاس وشعوب شمال القفقاس التي عقدت في طرابزون وباطوم.

اصبح وزيراً للحربية في الوزارة التي شكلها احمد عزت باشا ( تشرين الأول ١٩١٨ ) ولكنه استقال بعد توقيعه هدنة مودروس بصفته رئيساً للوفد التركي، بأيام قليلة.

اختار جانب مصطفى كمال في حركة التحرير الوطني. وشارك بفاعلية في أول مؤتمرين لممثلي شعوب طرابزون وسيواس، حيث كان يجري تقرير مستقبل الشعب التركي. بعد الاحتلال البريطاني لاستنبول، نفي الى جزيرة مالطا ( ١٩٢٠ )، الى جانب آخرين من داعمي الثورة التركية.

شغل منصب وزير الاشغال العامة في حكومة اتاتورك، وأصبح رئيساً للمؤتمر القومي الكبير. في حزيران عام ١٩٢٢، عين رئيساً للوزراء في الجمهورية التركية. على أية حال، استقال عام ١٩٢٣ بسبب خلاف مع عصمت اينونو. لاحقاً، ضم الى مجموعة الخصوم السياسيين للجمهورية، والتي نظمت محاولة لاغتيال كمال اتاتورك ( ١٩٢٦ ). ولأنه كان موجوداً في اوروبا في ذلك الوقت، فقد حكمت عليه المحكمة غيابياً بالسجن لعشر سنوات. ولكن، انتهت فترة نفيه بعد تسع سنوات على أثر الاعتراف بعدم صحة الحكم وإعادة الاعتبار الكامل إليه.

انتخب عام ١٩٣٦ نائباً في المجلس التشريعي. عام ١٩٤٢، بذل جهداً كبيراً في الابقاء على تركيا خارج الحرب، بصفته سفيراً في بريطانيا العظمى. استقال بسبب الاختلاف مع اعمال السلطات في انقره وأنهى حياته السياسية. توفي في استنبول عام ١٩٦٤.

- **جميل جاهد تويديمير (تحارخيت)** – رجل دولة وجنرال بارز. من الوبيخ. ولد في استنبول عام ١٨٨٣، وتخرج من المدرسة الحربية عام ١٩٠٢.

شارك في حروب البلقان والحرب العالمية الأولى. في ايار عام ١٩١٩، عيّن قائداً للفرقة القفقاسية الخامسة. لعب دوراً رئيساً في تنظيم وادارة مؤتمر جميع تركيا في سيواس، والذي عقد في ايلول ١٩١٩. خلال شهر، عقدت المفاوضات في منزله في أماسيا، بين وفد من

حكومة السلطان وممثلي اللجنة التي يرأسها مصطفى كمال، رؤوف اورباي وبكر سامي بك كوندوخ.

كذلك أصبح جميل جاهد قائداً للفرقة العاشرة التي حاربت على الجبهة الغربية ضد المحتلين اليونان. بعد قيام الجمهورية التركية، اصبح: قائد فيلق الجيش، مدير دائرة الدرك العامة، رئيس محكمة الاستئناف العسكرية العليا، وقائداً للجيش على التوالي.

بعد تقاعده، أصبح نائباً في المؤتمر القومي الكبير عن استنبول ( ١٩٤٦ – ١٩٥٠ ). وبنفس الوقت، كان رئيس مجلس إدارة الدفاع الوطني للجمهورية التركية. توفي عام ١٩٥٦.

- **الدكتور وصفي حسن غوصار:** شركسي. ولد في استنبول. تلقى تعليمه الابتدائي في عمان، وتعليمه الثانوي في نابلس بفلسطين، وتخرج من الكلية الفرنسية في دمشق، أنهى المدرسة العسكرية – الطبية في استنبول ( ١٩١٨ )، وانهى مساقات في علم الاحياء المجهرية في اكاديميه جولخانه.

×عمل طبيباً في أفيون، إسكي شهير، سكاريا ومستشفيات الميدان في صيت – غازي. اثناء فترة ثورة التحرير الوطني، أصبح، برتبة رائد، مساعداً لرئيس اطباء الفيلق الثالث لجيش اتاتورك، واشترك في معارك بورصه وبيليجيك.

عمل طبيباً في مستشفى حيدر باشا العسكري، ومحاضراً في معهد علوم البكتيريا. منذ العام ١٩٢٥ أصبح رئيس اطباء علم الجراثيم في مستشفى أضنه العسكري، ورئيس مجلس ادارة جمعية اطباء المدينة.

نال ميدالية الاستقلال على الشجاعة التي أبداها في حقبة الكفاح الوطني لتحرير الشعب التركي. تقاعد عام ١٩٢٨. ابدى اهتماماً خاصاً بالأوضاع الاجتماعية والعون المتبادل للمهجرين. كان عضواً في تنظيمات المهجرين منذ سن الثامنة عشرة. عندما الغيت لجنة شمال القفقاس عام ١٩١٩، أصبح أحد منظمي الجمعية الشركسية للعون المتبادل.

اصبح رئيس الجمعية الشركسية للثقافة والعون المتبادل. وكان محرراً لمجلة " شمال القفقاس" ( ١٩٥٣ – ١٩٦٣ ).

قام عام ١٩١٩ بنشر منشور حيد بامات " بروبليمي كافكازا " ( مشاكل القفقاس ) في مجلة " كافكاز "في مدينة بورصه. ترجم كتاب شورا نوغمو " ايستوريا اديغيسكوغو نارودا" (تاريخ الشعب الأديغة) ونشره.

كان عضواً في وفد شراكسة تركيا في مؤتمر الشعوب المضطهدة الذي عقد في ميونيخ عام ١٩٦٢.

احتفظ بمجموعة كاملة من الصحيفة الشركسية " غوازه "، للأجيال القادمة.
- **علي فؤاد باشا جيبيصوي** - رجل دولة بارز وقائد عسكري. من أصل وبيخ، ولد عام ١٨٨٢ في قرية حمام أوز، ولاية مانيسا، وتخرج من الاكاديمية العسكرية في استنبول.
كان قائد القوات المسلحة على الجبهة الغربية خلال الحرب ضد قوى التحالف الغربي. كذلك اصبح أول سفير الى موسكو من حكومة اتاتورك و شارك في المفاوضات الروسية - التركية ( آذار ١٩٢١ ).
كان احد قادة الحزب الجمهوري التقدمي عام ١٩٢٤. اتهم بالتآمر ضد الحكومة وعزل عن النشاط السياسي بعد وفاة اتاتورك، اصبح وزيراً من عام ١٩٣٩ وحتى ١٩٤٣، ورئيساً للمجلس القومي الكبير للجمهورية التركية للاعوام ١٩٤٨ -١٩٥٠. توفي في انقره عام ١٩٦٨.
- **محمد فيتجيري آشاني (شوإيني)** - عالم اجتماع تركي شهير، شخصية عامة، ومؤرخ للقفقاس. اباظه، ولد عام ١٨٩٠ في قرية سابادج بولاية بولو، وانهى أعلى مدارس الموظفين المدنيين. كان مهتماً بعلم الاجتماع، تاريخ القفقاس، واللغة الفرنسية.
كان احد مؤسسي نادي بيشيكتاش الرياضي في مقاطعة استنبول. واصبح مدرس الرياضة البدنية في عدة مدارس تركية. قاتل في العراق وإيران اثناء الحرب العالمية الأولى.
كتب نداءً الى المجلس النيابي، يتعلق بقرار إعادة توطين ١٤ قرية شركسية من الاناضول الغربي الى قسمه الشرقي، عبر فيه عن احتجاج غاضب على الأعمال غير العادلة للحكومة. منع نشر النداء ولوحق مؤلفه من قبل السلطات. عمل لدى شركة ابن عمه ضياء برسيس، ثم انتقل لاحقاً الى "بيت اغوبيان للأعمال". توفي في قبو المبنى عام ١٩٣١، حين شبت النار في مكتبة الافلام. نشرت الكتب والمؤلفات التالية من اعماله في استنبول. "الحياة الاجتماعية وفلسفتها". "الألعاب الرياضية في عقول النساء"، "السيدات الشركسيات في الحياة العامة العثمانية" ( ١٩١٣ )، "الشراكسة"، "أصول الشراكسة" ( ١٩٢٢ )، "التماس الجماهير والمؤتمر القومي الكبير لتركيا فيما يتعلق بالمشكلة الشركسية ( ١٩٢٣ )"، "القفقاس – منبع الثراء "( ١٩٢٤ ).
اعماله التي لم تنتشر هي: "عن الليزجين وتسمية الليزجين"، "شمال القفقاس في القرن الثامن عشر" و"تفرد القفقاس. النظامان القيصري والسوفييتي".، و غيرها.
- **مصطفى ذهني (خيدزيل)** - سياسي تركي معروف وخبير في شؤون القفقاس. من اصل شابسوغ ولد عام ١٩١٩ في دوزجه. انهى مدرسة إسكي شهير للطيران. هو طيار في حقل

الطيران المدني. اشتغل على قضية تأسيس علاقات بين منظمات الأديغة في آسيا الصغرى والشرق الأدنى. كان احد مؤسسي جمعية ثقافة شمال القفقاس وأول رئيس لها (انقره ١٩٦١)، وشارك في مجلس كتلة باريس (١٩٦٢). توفي نتيجة كارثة طيران عام ١٩٦٤.

هو مؤلف الاعمال التالية المنشورة في انقره: " الشيخ شامل. الكفاح من اجل الاستقلال في شمال القفقاس ". ( ١٩٥٨ )، " شمال القفقاس، الصراع من اجل الحرية والاستقلال " ( بالاشتراك مع نجله أحمد خيزال، ١٩٦١ )، " الوحشية السوفييتية في شمال القفقاس: مأساة عام ١٩٤٤ " ( ١٩٦٤ ).

-**عثمان تشيليك (حاخوراته)** – كاتب تركي شهير ومؤرخ للشتات الشركسي. من الشابسوغ. ولد عام ١٩٣٤ في قرية ياباغي، بولاية افيون وتخرج من كلية علوم الغابات في جامعة استنبول. يقوم منذ الستينات بنشر اعماله البحثية المتعلقة بمشاكل تاريخ شمال القفقاس بالاضافة الى مشاكل الشتات الشركسي. نشرت اعماله في مجلات: " القفقاس المتحد "،. " شمال القفقاس ". (استنبول) و " القفقاس " (انقره).

هو أحد مؤسسي وقادة جمعية ثقافة شمال القفقاس ( انقره )، جمعية الثقافة القفقاسية، وصندوق شامل للثقافة والتعليم ( استنبول ).

أهم اعماله: " مجموعة قصصية " النارتيون " ( استنبول، ١٩٧٦ ) مسرحية " قافه... رقصة الامراء ( انقره ١٩٨٥ )، الرواية التاريخية ( جباغي قازانوقه، انقره ١٩٨٦ ) "أساطير، حكايات ولوحات" ( انقره ١٩٨٧ )، "ملاحظات حول الرحلة الى شمال القفقاس ( انقره ١٩٩٠ )"، "تركيا والقفقاس حسب مواد سجلات الارشيف الانجليزي" (انقره ١٩٩٢ )، روايات "يونس ايمره" انقره ( ١٩٩٤ )، " القفقاس " الكتاب الأول " جينار "، الكتاب الثاني " جيل المحاربين "، الكتاب الثالث " النفي الاجباري " ( انقره ١٩٩٤ ).

- **بشماكوه تاماش كوتس** – سياسي بارز ورجل دولة في شمال القفقاس، وخبير في الشؤون العامة. ينحدر من نبلاء ( اوزدين ) كوتس في قباردا. ولد في قرية بابوغي (الآن سارماك ) في مقاطعة نالتشك. انهى الدراسة الثانوية في بياتيجورسك، والليسيه في نوفوروسيسك. دخل الكلية الشرقية بجامعة سانت بطرسبرج في سن السابعة عشرة، ثم نقل الى كلية الحقوق وتخرج منها عام ١٩١٠. لكونه نجل مربي خيول ميسور الحال، شارك في مؤتمر مربي الخيول لعموم – روسيا، والقى كلمة حماسية دفاعاً عن تربية الخيول القباردية ونوعها.

تلقى عمله البحثي الأول حول شعوب شمال القفقاس، والذين حسب رأيه، حرموا من جميع الحقوق المدنية، تقديراً عالياً من مجموعة أساتذة في جامعة سانت بطرسبرج، فمنح الحق في مزاولة المحاماة بدون فترة تدريب. عام ١٩١١، اصبح استاذاً مساعداً، وعام ١٩١٦ محامي في محكمة مقاطعة ايكاتيرينودار.

انتخبه مؤتمر شعوب الجبليين لإقليم تيرسكي عضواً في المجلس التنفيذي في الأول من أيار عام ١٩١٧. كان ذلك المؤتمر قد انشأ اتحاد الجبليين الذي سيعمل على التوحيد الحكومي، والحرية والاستقلال، لشعوب شمال القفقاس.

في مؤتمر ممثلي شعوب اقليم تيرسكي الذي عقد من ١٨ الى ٢٠ أيار عام ١٩١٧ في فلاديكافكاز، انتخب رئيساً للجنة المركزية التنفيذية للحكومة المؤقتة للحكم الذاتي لإقليم تيرسكي.

بعد إزاحة الاتحاد السوفييتي، أعلن كوتس وأعوانه انشاء جمهورية الجبليين الديمقراطية لشمال القفقاس.

كانت تركيا أول من اعترف بها. في تشرين الثاني من عام ١٩١٨، قبل برلمان الجمهورية استقالة تشيرمويف وكلف بشماكوه كوتس بتشكيل حكومة جديدة، لكن تلك أيضاً لم تعمر طويلاً. فقد دمر دينيكين تطلعات وطموحات قيام حكومة ديمقراطية في شمال القفقاس.

القي القبض على كوتس واعتقل في سجن بياتيجورسي. لكنه سرعان ما هرب الى تفليس، جورجيا. بعد انتصار الجيش الأحمر على جورجيا المنشفية عام ١٩٢١، ذهب كوتس وانصاره من باطوم الى طرابزون. منحت الحكومة التركية حق اللجوء لرئيس حكومة جمهورية شمال القفقاس في البلاط خانه و خصصت الموارد اللازمة لإدامة القصر.

عمل بشماكوه كوتس في العديد من الشركات. ثم في مصرف "إيش بانكاسي" (بنك العمل).

تزوج من لينتزاميساكوفا في استنبول، وهي أرملة العقيد زاوربك داودوكوف-سيريبرياكوف. تقاعد عام ١٩٦٣ وتوفي عام ١٩٦٨.

نشرت مقالاته في روسيا ( الاسم المستعار – بي كلبارديي ) وفي الخارج، اضافة الى كتابه "شمال القفقاس: من تاريخ الصراع من اجل الحرية والاستقلال" (استنبول ١٩٦٢).

لاشك في ان قدر الشراكسة (الناتخواج، الشابسوغ، الابزاخ، الوبيخ، الشيمجوي، البيسليني، وقباردي الكوبان) قد ارغمهم على اكتساب خبرة عسكرية متعمقة، الأمر الذي ساعدهم على تكييف انفسهم مع المحيط الجديد. من الناحية الأخرى، لم يبق لديهم خيار

في هذه البلدان الاجنبية، الا النصر او الموت. مكَّنهم النهب، الخدمة العسكرية، والمستوى الثقافي العالي الذي حصلوا عليه، من الاستقرار في امكنة جديدة والحصول على مكاسب مادية كبيرة خلال اشهر قليلة، وعلى الاكثر، خلال سنة.

كان بينهم قادة لهم، مثل الناتخواج "تلقوتليش" شوروخوقوة توغوظ، الذي قارنته الصحافة الغربية بالملك ريتشارد الأول، قلب الأسد، والذي، بوصفه قائداً للفرسان، قاتل ضد الروس على مدى ستين عاماً. غادر بلاد الشراكسة بصحبة قومه عام ١٨٦٤، وكما كتب سلطان كريم جيراي، فقد "بث الرعب في قلوب الاتراك".



**شوروخوقوه توغوظ**
**بريشة جيمس ستانيسلاوس بيل. من " يوميات إقامة في بلاد الشراكسة "**

كتب لورنس اوليفانتي، الذي زار الشراكسة ثم زار المستوطنين الشراكسة لاحقاً في القنيطرة، سوريا " لدى الشراكسة سمعة مخيفة الى درجة ان اي تطاول على أمنهم، حتى

من قبل الاتراك، له نتائج وتبعات غير سارة مطلقاً، لكنني اعرف عدداً قليلاً من الناس ممن يحملون مثل هذه الصفات النبيلة ".

دفع الشراكسة ثمناً باهظاً مقابل حصولهم على وضعيتهم الجديدة. لايمكن اغفال تأثير اولئك الذين ماتوا في حروب وصراعات لا نهاية لها في البلقان، الأناضول، الشرق الأدنى ومصر، ولكن هناك أمر واحد مؤكد: لقد عزز النفي الشركسي مركز النخبة الشركسية في الامبراطورية العثمانية. فقد عزز الشراكسة قوة المؤسسة العثمانية والجهاز العسكري في المقاطعات العربية: كان الشركسي ضياء بك رئيس الشرطة السرية اثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني، لفترة طويلة. حسن حاجميقوه، نجل آخر أمير حاكم في بلاد البجدوغ، طرخان حجميقوه، شغل آخر منصب مدير عام للمدارس العسكرية في الامبراطورية العثمانية عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. كان حجميقوه آخر قنصل لروسيا في أغاتش، تركيا، لمدة عشر سنوات. حافظ في. ن. حجميقوه على صلات مكثفة مع الشراكسة في المنفى، وظل يقدم كل المساعدة التي يقدر عليها للعديد منهم. انشأ الشراكسة في تركيا نادي المثقفين وعملوا بنشاط على مشاكل التاريخ، الثقافة، والتعليم لشعبهم.

كان يوسف عزت باشا جوناتوقه، عامي ١٩١٨ – ١٩١٩ رئيساً للجمعية الخيرية الشركسية في استنبول. ولد في مدينة يوزغات بتركيا عام ١٨٧٦. بعد ان تيتم في بواكير طفولته، انهى المدارس العسكرية: الليسيه (١٨٩٤)، المدرسة (١٨٩٦)، والاكاديمية (١٩٠٠). أصبح احد الاعضاء الناشطين في جمعية الوحدة والعون المتبادل الشركسية. منح رتبة لواء بسبب الاستحقاقات الخاصة في فترة حروب البلقان. اثناء الحرب العالمية الأولى، تسلم قيادة الفيالق القفقاسية: العاشر، الرابع عشر والأول. سمح اعتراف الحكومة العثمانية بجمهورية شمال القفقاس المستقلة (١١ أيار عام ١٩١٨)، بارسال فيلقه الى القفقاس "لتقديم المساعدة في تأسيس حكومة ديمقراطية ". على أية حال، فقد غادرت القوات التركية القفقاس بعد توقيع هدنة مودروس، (٣٠ تشرين الأول عام ١٩١٨).

اثناء حقبة حركة التحرير الوطني التركي، قاتل على الجبهة الغربية ضد المحتلين اليونان والجيش العثماني التابع لأحمد انزاور آنشوك. اصبح عزت باشا نائباً في المؤتمر القومي الكبير للجمهورية التركية. تزوج من الكاتبة الشركسية خيرية ملك خونج.

توفي جراء جلطة قلبية عام ١٩٢٢ ودفن في انقره.

ألَّف ثلاثة مجلدات، "تاريخ القفقاس" ودراسة بعنوان " الثراسيون القدماء والشراكسة" تمت صياغة العديد من مشاكل التاريخ القديم والعصور الوسطى للمرة الأولى في أعمال

عزت باشا جوناتوقه، بما فيها مشكلة الأديغة والخاتيين. من المثير للانتباه أنه تبنى دراسة الخاتيين ضمن محتوى الفجر الإثني للأديغه في الوقت الذي كانت فيه الدراسة العالمية للخاتيين لم تتشكل بعد، ولم يكن هناك أي عمل بحثي على النظرية. لم يتم التوصل الى مواقف جوناتوقه الأساسية في الدراسات الروسية حول الأديغة الا في العقود الاخيرة. كذلك اثبت شركسي آخر، هو الجنرال اسماعيل برقوق عن جدارته في حقل دراسة اصول القوقازيين. ما يؤسف له ان اعمال عزت باشا جوناتوقه والجنرال اسماعيل برقوق ليست منشورة باللغتين الروسية والشركسية.

ولد **اسماعيل برقوق** في قرية ياغلي بينار (جريشتي)، بمقاطعة بينارباشي، ولاية قيصري. غادر والده قباردا عند نهاية الحرب الروسية – التركية عام ١٨٧٨. في تركيا، تخرج من اكاديمية استنبول العسكرية اثناء سنوات الحرب العالمية الأولى، تواجد على الجبهات العراقية، الإيرانية والقفقاسية. كان داعماً بقوة لانشاء جمهورية شمال القفقاس. اثناء فترة حركة التحرير الوطني التركية، أصبح رئيس هيئة اركان الوحدة الرابعة للجبهة الغربية. بعد قيام الجمهورية التركية، ترأسس لجنة التاريخ العسكري. وصل الى رتبة عميد، وعضو في محكمة الاستئناف العسكري العليا.

منح ميداليات " للانجازات البطولية " ( ١٩١٥ )، " للانجازات البطولية بالسيف "، " للانجازات البطولية بالسيف الفضي " ( ١٩١٨ )، والميدالية الألمانية " الصليب الفضي " لشجاعته في معركة كوت العمارة، بالعراق.

منح عام ١٩٢٧ أعلى وسام في الجمهورية التركية – وسام الاستقلال. أصبح نائباً في المؤتمر القومي الكبير للأعوام ١٩٥٠ – ١٩٥٤. توفي في لندن على أثر عملية جراحية ودفن في انقره.

اعماله المنشورة هي: " تاريخ القفقاس " (استنبول ١٩٥٨) و " طريق التحرير " (استنبول ١٩٦٠).

– ولد **الأمير صباح الدين باشا** عام ١٨٧٧ في استنبول. تلقى علومه في أوروبا ووقع تحت تأثير عالمي الاجتماع الفرنسيين فريدريك لوبلي ولإدمون دي – مولين. كان قائداً لأحد اجنحة حركة تركيا الفتاة في الامبراطورية العثمانية. انشأ، اثناء صراعه ضد السلطان " جمعية المبادرة الخاصة واللامركزية ".

كانت آراؤه السياسية مبنية على افكار تحرير الامبراطورية العثمانية من الملكية عن طريق اللامركزية وتطوير المبادرات الشخصية لمواطني البلاد.

حسب احد المصادر، فقد كان والده جمال الدين باشا يشغل منصب وزير العدل اثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني. وهو سليل عائلة كويدزبا أو كفاستبا الابخازية، التي استقرت في استنبول قرابة نهاية القرن الثامن عشر. هو سليل سلاطين – كانت جدته احدى كريمات السلطان عبد العزيز. وهو شركسي من ناحية والدته. يقول محمد حفيتسه، ان والد الأمير صباح الدين، الداماد جلال الدين باشا، تزوج شقيقة السلطان عبد الحميد الثاني.

كان أبوق احمد باشا، الشركسي المتميز، جنرال الفرسان والوزير، خاله. كان الأمير صباح الدين أحد الشخصيات السياسية البارزة عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. تميز بخصومته للملكية، وبكونه مفكراً، مهتماً بالشؤون العامة، وخطيباً بليغاً. كان أبو ثورة تركيا الفتاة بطريقته الخاصة. هاجر عام ١٨٩٩ الى باريس، حيث بقي حتى خلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨.

عندما عاد، لم يستطع ان يتفق مع آراء قادة تركيا الفتاة، الذين كانوا يطبقون سياسة تقارب مع الألمان، فعاد الى باريس. بداية عام ١٩١٩، عرض عليه السلطان محمد السادس أن يرأس وفد الامبراطورية العثمانية الى مؤتمر باريس للسلام. عرضت عليه وزارة الشؤون الداخلية في تشرين الأول من نفس العام، لكن صباح الدين رفض كل العروض.

بحلول ذلك الوقت، كان قد ترك السياسة ووجه جل اهتمامه الى الروحانيات والايمان بالقوى الخفية، توفي عام ١٩٤٨.

- **ديلي فؤاد باشا ( تخيغو )**، ولد عام ١٨٣٥ في القاهرة. غادر والده حسن باشا من بلاد الشراكسة الى الامبراطورية العثمانية للدراسة، وبقي هناك في خدمة السلطان. تخرج من المدرسة الثانوية في استنبول ومن المدرسة العسكرية في القاهرة.

تميزَّ بشجاعته في الحرب الروسية - التركية ( ١٨٧٧ - ١٨٧٨ ) وأصبح برتبة مشير في جيش الامبراطورية العثمانية: قائداً عاماً للقوات المسلحة في تركيا، وسفيراً في عدد من الدول الاوروبية. اتهم بمحاولة الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني بصفته أحد قادة المهجرين الشراكسة، ونفي الى سوريا ( ١٩٠٢ – ١٩٠٨ ).

عاد الى استنبول بعد قيام ثورة تركيا الفتاة وشارك بفعالية في انشاء جمعية الوحدة والعون المتبادل. اصبح نائباً في مجلس الأمة التركي: ترأس لجنة استقلال القفقاس ولجنة اللاجئين السياسيين من شمال القفقاس في تركيا ( ١٩١٥- ١٩١٩ ). بذل جهداً كبيراً خلال حقبة حركة التحرير الوطني، في سبيل الحفاظ على الوحدة بين الشراكسة الاتراك. وهكذا،

فعندما قامت مجموعة من اللاجئين بتنظيم جمعية الاعتراف القضائي بالأديغة في الشرق الأدنى، أسس مؤتمر عموم الشراكسة في استنبول ( تشرين أول ١٩٢١ ). توفي عام ١٩٣١.

- **شركس ادهم باشا (ديبشو)** ولد في قرية الشابسوغ ايميركوي، بولاية باليك إيسير. كان أحد خمسة إخوة اتم اثنان منهم رشيد بك وتوفيق بك، الاكاديمية العسكرية. تولَّد لدى الشاب أدهم دافع قوي على اللحاق بشقيقيه، فهرب إلى استنبول.

شارك بفعالية في حروب البلقان والحرب العالمية الأولى. اصيب بعدة جروح لمرات متتالية فتقاعد برتبة ملازم.

بدأ الشعب التركي نضاله ضد الامبريالية بعد احتلال الامبراطورية العثمانية من قبل قوات بلدان التحالف. أصبح ادهم باشا واحداً من قادة الفدائيين المتميزين في الاناضول الغربي. فقد قاتلت " المجموعة القتالية الطيارة "، ضد المحتلين اليونان وجيش الخلافة. بث الرعب والخوف في قلوب الاعداء بجرأته وشجاعته. شكل الأديغة الجسم الرئيس من مجموعتة القتالية " الطيّارة ".

كان الكماليون يحاولون ان يوحدوا جميع القوات غير المنسقة لحركة التحرير، و إنشاء جيش تركي نظامي يطيع المجلس. على اية حال، عارضت الوحدات الفدائية هذا التوجه وحاولت الحفاظ على استقلاليتها.

في مثل هذه الفترة الحرجة، عندما كان تأليف الجيش النظامي يؤجل الى فترة غير محددة، خرجت الى العلن الحاجة الى توحيد القوات الفدائية في منظمة واحدة للنضال ضد المحتلين وعملاء السلطان.

سرعان ما تم تأسيس مثل هذا التنسيق تحت إسم "الجيش الأخضر"، والذي أصبح " الفيلق الطيار " وجميع القوات الفدائية جزءاً منه.

إن اسم شركس أدهم مرتبط بعرى لا تنفصم مع "الجيش الأخضر" في الادبيات التاريخية التركية. إن حقيقة دعوة الجيش الأخضر لتوحيد مجموعات الفدائيين غير المنسقة، هي التي ابرزته كقائد رئيس لها. أفزع النمو التدريجي لنفوذ الجيش الأخضر على الجبهة الغربية الكماليين. لذلك، كانت حكومة انقره تدفع باتجاه تشكيل الجيش النظامي وتصفية الحركة الفدائية. صدر مرسوم بتشكيل وحدات نظامية من الفدائيين.

أدى هذا الى تردي العلاقة بين الفدائيين والكماليين، وبشكل خاص، بين اتاتورك وشركس أدهم. فشلت المفاوضات في تحقيق اي نجاح. بعد ذلك، اصدر مصطفى كمال اوامره بنزع

اسلحة " المجموعة القتالية الطيّارة " لأدهم باشا وحكم عليه بالإعدام.

اضطر ادهم باشا الى الهروب لليونان. انتقل من هناك الى المانيا ثم الى الأردن، حيث توفي في نهاية الأمر ودفن في المقبرة الشركسية.

يظل شركس ادهم ماثلاً في ذاكرة الشعب على انه البطل الاسطوري لحركة التحرير الوطني لتركيا. وتشهد حقيقة عدم فتور اهتمام الباحثين بسيرته على ذلك بقوة. خرج عدد من الدراسات الجادة في تركيا خلال الربع الأخير من القرن العشرين، مخصصة كلها لحياته وانشطته: " ملف شركس أدهم " في مجلدين بقلم جمال كوتاي (استنبول ١٩٧٣)، "شركس ادهم" بقلم زكي ساريهان (انقره ١٩٨٤)، و "الاحداث المرتبطة بشركس ادهم" بقلم جمال شينير (استنبول ١٩٨٤) وآخرين. توفي عام ١٩٤٨ في عمان، الأردن.

وقع الأديغة، الوبيخ، الأباظه، والابخاز الذين وجدوا انفسهم في محيط إثني ثقافي غريب عليهم، تحت تأثير عقائد مختلفة. مع بدايات القرن العشرين، اصبح المجتمع الشركسي، الذي انضم اليه الاباظه، منقسماً الى مجموعتين: كانت المجموعة الأولى داعمة بحماس للنظام القائم وكان ممثلوها الداعمون المخلصون للسلطان – الخليفة: بينما يمكن تعريف المجموعة الثانية على أنها المجموعة الديمقراطية أو الجمهورية.

دعم "الجمهوريون" الذين كان من بينهم بشكل خاص الشابسوغ، الوبيخ، والابخاز، حزب الإتحاد. كان أقرب زميل للأمير صباح الدين هو حسين طوسون بك، وهو وبيخ من عائلة شهابلي.

يقول سيمون باسار أنه كان "رئيساً للمجلس الشركسي – الابخازي، حاصل على تعليم اوروبي عالٍ، وصاحب شخصية سياسية بارزة، وأحد البادئين بالثورة التركية، وقد قضى احدى عشرة سنة منفياً في طرابلس الغرب اثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني. الشراكسة الذين خدموا في القيادة العليا للجيش العثماني في بداية القرن العشرين هم: وزير الحربية فوزي باشا، المولود عام ١٨٥٨، من عائلة تشاقماق، تعاون مع اتاتورك وأصبح رئيساً لهيئة اركان جيش انجورا ( انقره ): وصل الى رتبة مشير بعد النصر على اليونانيين، واصبح في السنوات التالية، رئيساً لهيئة الاركان العامة. احمد باشا أبوق، جنرال في سلاح الفرسان، وزير الحربية، وزير الاشغال العامة، ومناوئ لأتاتورك: المشير بيرزج زكي باشا، المشير فؤاد باشا تخوغو، الجنرال عثمان باشا شهابلي، الجنرال لوخ أحمد باشا، احمد رضا باشا، محمد سعيد باشا، حسين دايم باشا، يوسف باشا ناغوتش: وزير الشرطة ناظم باشا، علي فؤاد باشا، كمال الدين سامي باشا، محمد باشا، رئيس مجلس ومحكمة البحرية،

عضو مجلس الشيوخ، سليل عائلة تشينتش " كان نجله رؤوف اورباي اقرب زملاء مصطفى كمال اتاتورك: حسين رؤوف بك، المولود عام ١٨٨١، ومتخرج من المدرسة البحرية في انجلتره، اثبت نفسه كقائد بارجة حربية ممتاز اثناء الحرب العالمية الأولى، شغل منصب وزير البحرية عام ١٩١٩، ووقع على معاهدة سلام مودروس بإسم الحكومة التركية. انضم سنة ١٩٢١ الى الوزارة اثناء حكم اتاتورك، واصبح رئيساً للوزراء في تركيا من تموز ١٩٢٢ الى آب ١٩٢٣، وأصبح لاحقاً السفير التركي في لندن اثناء رئاسة عصمت إينونو. حدث انفصاله عن اتاتورك عام ١٩٢٣ بسبب اعتراضه على السياسة المعادية للشراكسة. كان أحد زعماء الحركة المعادية للحركة الكمالية وعضواً في مجلس توجيه وقيادة الحزب التقدمي الجمهوري.


صور بعض الشراكسة البارزين في تركيا



**صورة نادرة لمصطفى كمال ( اتاتورك ) التقطت يوم ٢٠/٠٣/١٩٢٠**

قائد الثورة التركية مع اقرب داعميه الشراكسة. يقف اتاتورك في الوسط، مرتدياً معطفاً أبيض. الى يساره شركس ادهم بك، القائد الاسطوري لأول "فرقة خيالة طيارة". الى يمين مصطفى كمال، يقف على فؤاد جيبيسوي، قائد القوات المسلحة للجبهة الغربية اثناء فترة الحرب ضد دول التحالف، وأول سفير لحكومة انقره في موسكو، وزير الدولة رئيس المؤتمر الوطني الكبير في تركيا المجلس) ، ومؤلف كتاب "مذكرات موسكو"، المشير فوزي تشاقماف، كان وزيراً للحربية، رئيس هيئة الاركان العامة للجيش التركي ( ١٩٢٤ – ١٩٤٤ ). نائباً في المجلس ( ١٩٤٦ – ١٩٥٠ ) ، حسين رؤوف بك ( أورباي،ترأس وزارة البحرية للامبراطورية

## المزيد من صور بعض الشراكسة البارزين في تركيا:



احمد جاويد باشا ( تحارخيت )
( ١٨٤٠ – ١٩١٦ )
شخصية بارزة في الشتات الشركسي
لغوي ومهتم بالشأن العام



ديلي فؤاد باشا ( تخيغوه )
( ١٨٣٥ – ١٩٣١ )
مشير تركي شهير، دبلوماسي
وشخصية بارزة في الشتات الشركسي



خير الدين باشا التونسي
( ١٨١٩ – ١٨٩٠ )
رجل دولة بارز، سياسي ودبلوماسي
في الامبراطورية العثمانية



محمد رشيد شاهينجيري (حناخوه )
( ١٨٧٣ – ١٩١٩ )
سياسي بارز ورجل دولة
في الامبراطورية العثمانية



صالح خلوصي باشا ( كارزج )
( ١٨٦٤ – ١٩٣٩ )
جنرال بارز ورجل دولة في
الامبراطورية العثمانية



خالد لميع اتلي ( شيزا موغه )
( ١٨٤٩ – ١٩٤٥ )
مؤلف موسيقى تركية شهير



يوسف عزت باشا مت ( جوناتوقه )
( ١٨٧٦ – ١٩٢٢ )
جنرال تركي، مؤرخ بارز
في الشتات الشركسي



حسين طوسون بك ( شهابلي )
( ١٨٧٥ – ١٩٣٠ )
سياسي تركي بارز، معلق
صحفي وناشر



احمد انزاور ( آنشوق )
( ١٨٧٣ – ١٩٢١ )
شخصية عسكرية بارزة
في الامبراطورية العثمانية



هارون تله سيروك
(١٤٨٧٩ – ١٩٣٨)
شخصية عسكرية بارزة في
الشتات الشركسي



صباح الدين (كويتسبا)
(١٨٧٧ – ١٩٤٨)
أمير تركي، وشخصية سياسية بارزه



عزيز ميكير ( ميهاره )
( ١٨٧٧ – ١٩٤١ )
دبلوماسي تركي، عالم، وشخصية
بارزة. خبير باللغة الشركسية



اسماعيل ضياء برسيس (بيرسير)
(١٨٨٣ – ١٩٥٣)



حسين رؤوف اورباي ( تشينش )
( ١٨٨١ – ١٩٦٤ )
رجل دولة بارز وشخصية عسكرية
في الجمهورية التركية



اسماعيل برقوق
(بداية القرن العشرين)
جنرال تركي، مؤرخ للقفقاس



شركس ادهم باشا ( ديبشو )
( ١٨٠٦ – ١٩٤٨ )
بطل حركة التحرير الوطني
التركية



بشماكوه طاماش كوتس
( ١٨٨٣ – ١٩٦٨ )
سياسي بارز ورجل دولة في
شمال القفقاس، ومهتم بالشأن العام



جميل جاهد تويديمير
( ١٨٨٣ – ١٩٥٦ )
رجل دولة تركي بارز،
قائد عسكري، جنرال



توفيق ايسينتش ( زيفا )
( ١٩٠٧ – ١٩٩٢ )
خبير في الفولكلور واللغة الوبيخ
" آخر الوبيخ "



البروفسور ايتك ناميتوق
( ١٨٩٢ – ١٩٦٣ )
خبير في شؤون القفقاس وتاريخ
الاديغة

الدكتور وصفي حسن غوسار ( غوسر )
( ١٨٩٥ – ١٩٧٨ )
شخصية بارزة في الشتات
الشركسي، طبيب

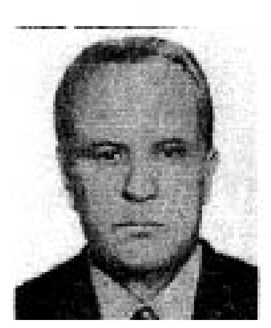


عمر بيوكه ( بيجوا )
( ١٩٠١ - )
شخصية بارزة في الشتات الشركسي
شاعر وعالم شهير



محمد فيتجيري اشاني ( شويني )
( ١٨٩٠ – ١٩٣١ )
عالم اجتماع تركي متميز، شخصية
عامة ومؤرخ للقفقاس

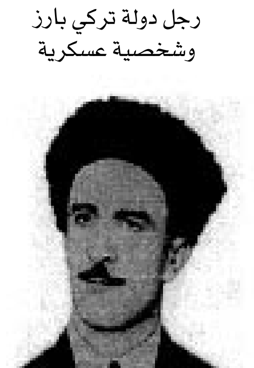
علي فؤاد باشا جيبيسوي
( ١٨٨٢ - ١٩٦٨ )
رجل دولة تركي بارز
وشخصية عسكرية



عثمان تشيليك
( ١٩٢٤ - )
كاتب تركي شهير ومؤرخ
للشتات الشركسي

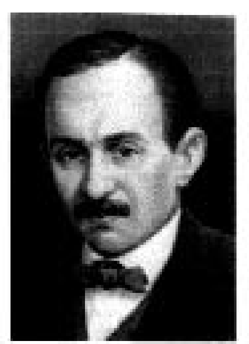


خيري دومانيتش
( ١٩٢٣ - )
عالم تركي شهير وشخصية عامة
في الشتات الشركسي



مصطفى ذهني ( خيدزيتل )
سياسي تركي بارز
وخبير في شؤون القفقاس


كازبك احمد يقوه
( بداية القرن العشرين )


عمر سيف الدين ( حاتقوه )
( بداية القرن العشرين )


احمد مدحت ( حاغور )
( نهاية القرن التاسع عشر – بداية العشرين


تشيتين أونير
ممثل، كاتب سيناريو، مؤلف


عوني تله خوج
فنان


زبيده شهابلي
كاتبه

**بعض الرياضيين الشراكسة في تركيا:**


يشار دوغو ( غوتشا )
( ١٩٢٦ -        )
بطل الألعاب الأولمبية
المصارعة الحرة


عادل جانديمير ( جوغاج )
( ١٩١٤ – ١٩٨٩ )
حائز على الميدالية الفضية في الالعاب الاولمبية، بطل اوروبا بطل اوروبا


يشار دوغو ( غوتشا )
( ١٩١٣ – ١٩٦١ )
" إله المصارعة " رياضي تركي عظيم
بطل الالعاب الاولمبية وبطل اوروبا

العثمانية، واصبح لاحقاً رئيساً للوزراء في حكومة انقره، وأحد قادة الحزب التقدمي الجمهوري، ثم سفيراً في لندن ( ١٩٤٢ – ١٩٤٤ )، الجنرال يوسف عزت باشا، وهو مؤلف كتاب " تاريخ القفقاس " في ثلاثة مجلدات.



محمود أتالاي ( ناغوه )
( ١٩٣٥ - )
بطل الالعاب الأولمبية واوروبا



توفيق يوتشيل ( بيدانوقه )
( ١٩٢٧ - )
بطل العالم واوروبا في المصارعة الحرة والرومانية



ظافر بيلغا
( ١٩٢٦ - )
بطل العالم واوروبا في المصارعة الحرة

حميد كابلان ( تشيتشي )
( ١٩٣٥ – ١٩٧٦ )
بطل تركي عظيم، بطل العالم والالعاب الاولمبية





مصطفى داغدا لين (ميشه )
( ١٩٧٣ - )
بطل العالم واوروبا مكرراً في التايكواندو

في العامين ١٩١٠ و ١٩١١ كان القائد العام للقوات المسلحة ووزير الحربية في الامبراطورية العثمانية هو محمود شوكت باشا، شيشاني. يقول الدكتور شوكت المفتي ان شاكر باشا، وهو جورجي، كان وزير الحربية في عهد السلطان وحيد الدين عام ١٩١٩.

كذلك تميز المنفيون من ابخازيا بشكل واضح في تلك الحقبة. تعرَّف سيمون باسار، الذي اعتاد ان يوقع باسمه المستعار آبسوا اثناء الفترة الأولى من مساعيه البحثية والتعليمية، شخصياً على العديد من المهجرين البارزين. بفضله، يمكننا اليوم أن نثبت اصول العديد من الاشخاص. كان قريبه، ناظم باشا باسار القائد العام للجيش التركي في الحرب البلقانية

الأولى. قاد سليمان باشا تشاتشبا ( ١٨٣٨ – ١٨٨١ ) جيش الدوناي في الحرب الروسية – التركية لعام ١٨٧٧ – ١٨٧٨.

هو كذلك استاذ في الأدب ومدير المدرسة العسكرية في استنبول. الجنرالات راتب باشا، على باشا، و محمود باشا كانوا إخوة ومن سلالة عائلة اثريشبا.

لابد من ذكر محمد بك مرشان بين الابخاز ذوي الرتب العالية، وهو قائد حامية حلب في بداية القرن العشرين.غوغوا باشا، نادر باشا، وزير البحرية خورشيد باشا، وغيرهم. يجب أيضاً ملاحظة ان محمد رشيد، الشركسي، شارك في منظمة الشباب الاتراك الأولى التي شكلت عام ١٨٨٩. وقد انشأها الأطباء العسكريون وسيطر عليها ممثلو الاقليات الوطنية: محمد رشيد ( شركسي )، ابراهيم تيمو ( ألباني )، عبدالله جودت ( كردي )، وتركي واحد فقط، هو ايشاد سيوكوتي. عام ١٨٩٧، نشرت الصحيفة العثمانية الرسمية " البانيا " في بروكسل " يتكون حزب تركيا الفتاة من اتراك القسطنطينية، واكثر من ذلك من الشراكسة والسوريين ".

رغم ذلك، فقد سيطرت عناصر تركية شوفينية متعصبة على حزب تركيا الفتاة. أصبح جوهر سياستهم، بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني، الاعتداء بالضرب واضطهاد الاقليات القومية، وعلى الأرمن في المقام الأول.

سرعان ما اتخذت حكومة تركيا الفتاة موقفاً عدائياً تجاه الشراكسة أيضاً. بدأ الأمر يؤثر على الشراكسة في حياتهم اليومية، ولكن بشكل خاص في خدمتهم بالجيش. اذا كان الشراكسة يشغلون ٣٣ ٪ من مناصب الضباط، فهم لم يعودوا يشغلوا سوى ٢ ٪ عام ١٩١٤ ( على حسابات المؤرخ سلطان دولت – جيراي ). قتل ناظم باشا احد قادة الشراكسة " غدراً وخيانة على يد اعضاء تركيا الفتاة، بقيادة المتهور انور باشا، اثناء مفاوضات السلام، بسبب رغبته في انهاء الحرب ضد السلافيين في البلقان ".

كذلك توفي الجنرال شوكت باشا الشيشاني بعد وقت قصير، وقد كان سابقاً يقود "جيش العمل" الذي خلع السلطان. يقول دولت جيراي " حامت الشكوك حول الشراكسة من العائلات النبيلة، الذي كان لهم نفوذ قوي على الحياة الاجتماعية والسياسية. شنق منهم اثنا عشر رجلاً بدون أية رحمة. اضافة الى ذلك، نفي ١٣٠٠ ضابط شركسي من الجيش التركي الى امكنة مختلفة في تركيا حيث هم باقون حتى الآن. تم تسريح معظم الضباط أو طردهم بدون اي سبب، وربما، لم يبق سوى ٢ ٪ من الضباط الشراكسة في جهاز اركان الجيش التركي. ادت جميع هذه الفظاعات الى خلق حالة نفسية معادية وملأى بالمرارة لدى الشراكسة ضد

جماعة تركيا الفتاة....." .

استمرت حالة المرارة لدى الشراكسة خلال كامل فترة حكم جماعة تركيا الفتاة.

في كثير من الحالات، ظهر قادة ذوي مناصب عليا بين اعضاء المعارضة. نذكر منهم مجرد قلة، هم:

المشير فؤاد باشا تخوغو، الوبيخ، زعيم " جماعة الشراكسة "، معارض للسلطان عبد الحميد الثاني، وهو صاحب النداء " الذي اعلن بجرأة ان مثل هذه الإدارة لم يعد بالإمكان تحملها " كذلك كان المشير تخوغو ابرز واكثر نفوذاً من ان يعاني بسبب قناعاته. كان يسكن في المدينة ويشغل منصب عضو مجلس الشيوخ عام ١٩١٩، حينما دعم حكومة انقره التابعة لمصطفى كمال باشا بشكل مكشوف.

اثبتت الاحداث في المستقبل، ان الشراكسة الذين دعموا الإتحاد ومصطفى كمال، قد ارتكبوا خطأً سياسياً فادحاً. إذ سرعان ما تبنت الجماعة المنتصرة عقيدة الامتداد التركي ومارست دور الجلاد للحريات وحقوق الاقليات القومية، وفي مقدمتها الشراكسة والأكراد.

في هذه الأوقات الصعبة، لم يتمكن من الصمود تحت ضغوط هذه الديماغوجية الاجتماعية سوى قسم قليل من الشراكسة، حين ألقي اللوم كله في الأزمة التي حلت بالبلاد على كاهل السلطان والنخبة الحكومية القديمة. كتب إي. فيث" تطور سخط الطبقة المسيطرة على حزب الإتحاد، بعد توقيع هدنة مودروس، عندما ظهرت في بعض الدوائر الشركسية، خاصة أولئك الذين كانوا ينتمون الى بيروقراطية البلاط التركي القديم، فكرة تشكيل دولة ذات حكم ذاتي تحت حماية دول التحالف. لاحقاً، انعقد المجلس القومي الشركسي تحت اشراف اليونانيين عام ١٩٢٠، واتخذ فيه قرار إقامة جمهورية شركسية في الاناضول الغربي تحت حماية اليونان. على أية حال، لم تحظ هذه المغامرة بأي تعاطف لدى الدوائر الشركسية الاناضولية الاكثر ميلاً الى الديمقراطية. إذ بقي شراكسة الاناضول، اضافة الى الفلاحين الاتراك، الى جانب الحركة الوطنية.

عام ١٩٢٠، لعبت الوحدات الشركسية المسلحة، خاصة مجموعات أدهم الفدائية، دوراً في غاية الأهمية في الكفاح ضد اليونانيين. رغم ذلك، فقد تم حل الوحدات الشركسية.

جدير بالذكر " ان معظم الشراكسة الذين لعبوا في البداية دوراً بارزاً في الحركة الوطنية، تركوا المعترك السياسي: علي فؤاد باشا، حسين رؤوف بك، وغيرهما ". لاحظ إي فيث ان الكتلة الرئيسة من الشراكسة الاناضوليين لم تغرهم فكرة إقامة الدولة الشركسية.

جاء هذا الخمول السياسي نتيجة الآمال العريضة التي عقدها الشراكسة على تغير النظام

السياسي في روسيا. فقد رأت جميع الاقليات في السوفييت حاميا لها. من الناحية الأخرى، فقد انشئت الجمهورية الجبلية عام ١٩١٨، والتي ضمت جميع مقاطعات شمال القفقاس. حاول قادة من الشتات الشركسي مثل بكر سامي بك (كوندوخ)، وروؤوف بك (تشينتش) ان يحملوا تركيا على الاعتراف بالجمهورية الجبلية وتشكيل كونفدرالية معها. في كل الأحوال، أراد الشراكسة العودة الى وطنهم الأم، وبدت لهم فكرة إقامة دولتهم في الاناضول غير أخلاقية. اعتبروا أن المطالبة بأي شيء خارج وطنهم الأم أمراً غير لائق. في النهاية، خرج الشراكسة للقتال ضد انزاور، ليس لأن مصطفى كمال أرسلهم الى هناك، بل لأنهم كانوا يثقون بأدهم، فقد كان في نظرهم القائد الأعلى.

رغم ذلك، فقد قادته قناعاته الجمهورية في الاتجاه الخاطئ عند المرحلة الابتدائية: فقد قاتل كلاً من المحتلين اليونان، وجيش الخلافة. تكون الأخير بدوره، من الشراكسة في غالبيته. هذا الانقسام بين الشراكسة مكنَّ مصطفى كمال من تعزيز موقعه، وتحول من رجل لا يتعامل معه أحد بجدية، الى دكتاتور حقيقي. في الحقيقة، فان ادهم هو الذي رفع راية حركة التحرير الوطني في تركيا في البداية: اعترف الجميع بهذه الحقيقة ماعدا مصطفى كمال.

كتب هـ. ارمسترونج حول هذا الأمر: "في الوقت الذي كان مصطفى كمال يتآمر فيه ضد السلطان والخلافة حتى يصبح دكتاتوراً شخصياً ويشبع مطالبه الدكتاتورية، كان الشخص الآخر ( أدهم ) يعمل كل ما بوسعه لإنقاذ تركيا ".

قامت حكومة السلطان، التي فقدت السيطرة على الاناضول، بتأليب سكانه ضد حكومة كمال في انقره بكل السبل الممكنة. قامت الثورات الاكثر جدية تحديداً في المناطق التي يعيش فيها الشراكسة والاباظه من الاناضول. قام عشرات من الشراكسة والاباظة في مقاطعة دوزجه ضد كمال في ايلول عام ١٩١٩. تزعم الثوار ضباط شراكسة مرتبطين بحكومة السلطان في استنبول وهم تالوستان بك، بكر بك وبيسلان بك. استولوا على كل النقاط المهمة، نزعوا اسلحة الدرك وقبضوا على انصار كمال. نصح مصطفى عاصم، قائد الفرقة الأولى، كمال، في البرقية التي ارسلها يوم ٢٠ تشرين الأول عام ١٩١٩، بالتشاور مع الجنرال الشركسي سعيد باشا، قبل الرد على اعمال الثوار. بين خصوم الثوار كان القائمقام طاهر بك، وهو شركسي، ومالك الاراضي كاظم بك، وهو أيضاً شركسي. رغم ان عدد الثوار كان صغيراً جداً (تتحدث برقية الى كمال عن اربعين فارس) إلا ان الحكومة بدورها كانت ضعيفة جداً. لم يكن وسعها التصدي لهم بدون دعم كبار القادة في الجيش. في النهاية،

يخبرنا القائمقام طاهر " بعون الله، وبفضل دعم قادة شراكسة آخرين، الذين هم الابناء الحقيقيون للوطن الأم، الذين يفهمون ان عملاً كهذا يمكن ان يؤدي الى نتائج كارثية، تم تفكيك هذه العصبة وانتهت الفكرة من جهودهم الى الفشل: يجب الملاحظة هنا ان أياً من الجانبين لم يظهر أية قسوة: وحده بيسلان، أحد الذين بدأوا بالثورة، قبض عليه.

بينما تمكن تالوستان وبكر من الاختباء. انتقل شركس بكر مع رجاله الى آدابازار، حيث استمر في التحريض وتجنيد الناس. أصبح هذا الوضع الذي تكوَّن في هذه الفترة، غير مناسب لانقره على الاطلاق. أخبر علي حيدر، متصرف إزميت، مصطفى كمال: " إن المخطط هو بكر صدقي، شركسي من باندیرما، هناك ضابطان وحوالي اربعين رجل مسلح تحت إمرته. لقد وصل الى مقاطعة ادابازار، حيث يقوم بتحريض سكان القرى الاباظية على الانضمام الى مجموعته، وهو تصرف ضد الحكومة القائمة ويضر بالحركة الوطنية.

انه ينفق اموالاً طائلة من اجل تحقيق غايته. هناك تأثير اجنبي ملحوظ في كل هذه المسألة. لاشك في ان هذا التأثير موجود. هناك عدد كبير من الشراكسة، الاباظه، اللاز في قضاء دوزجه من كانت لديهم الوقاحة دوماً على الانخراط في هذا النوع من النشاط الإجرامي. إن القوة الوحيدة التي يمكن بمساعدتها يستطيع المرء أن يمنع تفشي هذه الظواهر غير المرغوب فيها هي الدرك. على أية حال، إن العناصر المتوفرة هنا من قوة الدرك تتكون من الخبثاء. يعتبر الضباط من ناحيتهم انهم ثوار تجاه الحكومة الوطنية، وليس لديهم اي احترام لها مطلقاً. لذلك، يستحيل اتخاذ اية اجراءات لتحسين الوضع......اذا لم نباشر باتخاذ اجراءات جذرية للقضاء على هؤلاء العناصر منذ البداية، فان المستقبل سيخبئ لنا كوارث هائلة....".

اخمدت ثورة شركس بكر بجهود الفرقة الأولى، التي كان مقرها في إزميت، والفيلق الثالث من الجيش.

على اية حال، لم يسحق شركس بكر ولا مجموعته المقاتلة، بل اختفوا في الجبال. كانت وحدات جيش انقره اضعف من ان تعمل في تلك الجبال. الى جانب القادة العسكريين الشراكسة لتلك الحقبة المذكورين آنفاً (ادهم، رؤوف بك، علي فؤاد باشا جيبيسوي، عزت باشا جوناتوقه، وغيرهم) لعب شركسي "جمهوري" آخر هو العقيد بكر سامي بك، قائد الفرقة المعسكرة في بورصه، دوراً نشيطاً.

يجب عدم الخلط بينه وبين الجنرال بكر سامي بك، المساند لكمال. لان بكر سامي الأخير هو نجل الجنرال موسى باشا كوندوخ، الأوسيتي، الذي انتقل من روسيا الى تركيا. كان بكر سامي كوندوخ قبارديا ً من جهة والدته، يتكلم لغة الأديغة ويجاهر بانتمائه الى الشراكسة. حتى انه كان يتطلع الى دور قيادي في المجتمع الشركسي. شغل كوندوخ ادواراً بارزة في حكومة مصطفى كمال بانقره، وأصبح سفيراً في موسكو ولندن، لكن مصطفى كمال لم يكن يثق به وكثيراً ما اختلفت آراؤهما حول المسائل الرئيسة.

تخلى شركس بكر عن مواقفه السابقة بعد تشرين الاول عام ١٩١٩، واخذ مكانه شركس انزاور، الذي لقب " بالخصم غير المهادن للحركة الوطنية، والمنفذ الغيور لمهام الانجليز والرجعيين في القسطنطينية ".

ولد شركس انزاور عام ١٨٧٣ (ابزاخ من عائلة انشوق) وتخرج من أرفع مدرسة فرسان في استنبول. خدم في قوات الدرك المسلحة وتقاعد برتبة رائد. عام ١٩٠٨، شارك في انشاء " الجمعية الشركسية للوحدة والعون المتبادل " انضم كمتطوع عام ١٩١٤ الى فرقة الفرسان الشراكسة الخاصة، التي قاتلت على جبهة قفقاسياً – آسيا الصغرى. عينه السلطان حاكماً لإزميت في نيسان عام ١٩١٩، لكنه غادرها في آب، محتجاً على سياسة كمال. في خريف عام ١٩١٩، كانت مجموعة انزاور المقاتلة تعمل في مقاطعة باليك ايسير، لكنه تلقى هزيمة هناك. في شباط من عام ١٩٢٠، غادرت مجموعة انزاور استنبول واستولت على كامل الساحل الاناضولي لبحر مرمره. رفَّع السلطان انزاور الى رتبة جنرال، مكافأة له على هذه العملية. قال مصطفى كمال عام ١٩٢٢ "لقد كانت ثورة شركس انزاور هي الأكبر " مخاطباً السفير السوفييتي آرالوف." لقد باشر انزاور، الخائن، الذي كان عميلاً للسلطان والمستعمرين الانجليز، وأحد الاعداء غير المهادنين للحركة الوطنية، عملياته الهدامة في مقاطعة بانديرما. انيط به واجب ضرب الحركة الوطنية من الخلف. نجح في توحيد مجموعات كبيرة. نشبت معركة دامية في بيتش. خرج منها انزاور منتصراً، حل الوحدات الوطنية، استولى على الأسلحة. أسر العديد من المقاتلين وأعدمهم. طالب بحل القوات المسلحة الوطنية، ليضمن احتلال ازمير واضنه من قبل اليونانيين، وإقامة مجلس الخلافة الأعلى في استنبول ولكي يكتب "فتوى" ضد البلشفية وينشرها. على كل حال، فقد هزم انزاور لاحقاً، وهرب ".

كتب إي فيث، المتخصص المعترف به في هذه الفترة من التاريخ التركي، عن عمليات انزاور. هاجم انزاور الاتحاديين في خطابه بمدينة بانديرما، وانتقدهم بشدة لأنهم خلعوا

عبد الحميد ونشروا الدستور. طالب بالالتزام المشدد بالممارسات الدينية للسكان وتحدث بصراحة عن ضرورة اغلاق المشارب. اعلن في خطابه لسكان كيرماست: "هؤلاء الضباط الماسونيين الملاعين الذين درسوا في اوروبا، والذين يقلمون شواربهم ونسوا الله ورسوله، شربوا من دم الشعب ردحاً طويلاً...... لقد أمر الباديشاه بتدميرهم. سوف اطبق شريعة محمد (صلعم) وأعين موظفين كباراً أجلاَّء...." دمرت مجموعة انزاور مستودعات اندخيرة التي جمعها الوطنيون. رغم ذلك. انهزم مرة أخرى واضطر الى انقاذ نفسه بالهروب من كيرماست الى بانديرما، وركبت بقايا مجموعته السفن تحت وابل من نيران الوطنيين، لكنه ظهر في أيار من نفس السنة، في مقاطعة ادابازار، على رأس مجموعة قتالية ضخمة. عمل هنا بالاشتراك مع تشكيل جيش الخلافة وحرَّض الشراكسة ضد انقره. ألقى الوطنيون بقوات أدهم وفصائل نظامية صغيرة أخرى في الصراع ضد انزاور. بعد المعركة في جايفه وسابانجي، اضطر انزاور وحتى جيش الخلافة للانسحاب الى إزميت.

وهكذا، اخضعت الثورة التي كانت شركسية في جوهرها، وشكلت خطراً على وجود النظام الاتحادي برمته، بفضل جهود شراكسة آخرين. أدى الانشقاق العقائدي داخل المجتمع الشركسي الى دمار جميع الآمال في تكوين دولة مستقلة. غادرت النخبة الشركسية القديمة المعترك التاريخي بالتوازي مع سقوط الخلافة العثمانية. إن رسائل احمد انزاور المؤرخة في تشرين الأول ١٩١٩، مازالت محفوظة. ان مضامينها هي أفضل إيضاح للهوة السياسية التي وقعت. كتب انزاور " الى ولدنا العزيز كاراحسن....عندما اشتركنا (معك) في حصار جبل سيواس، لاحظنا ان العديد من الشراكسة يهملون اداء صلاة الجمعة. هذا ما وصل اليه احفاد سليمان..... قل لي، رجاءً، من هم هؤلاء الاتراك الشباب الذين حرمونا من الكعبة، الذين ارغموا ابناء الإسلام على الموت عند ضفاف الدردنيل، في جبال القفقاس، وفي صحارى البلاد العربية واليمن، وفي حقول رومانيا. والذين اصدروا بطاقات صفراء لمئات الآلاف من النساء والبنات المسلمات في القسطنطينية؟ من هم، إنني اسألك، اذا لم يكونوا الماسونيين الإشرار. يوجد بين الشراكسة العديد من الاتحاديين: احذرهم ولا تستمع الى المعلومات الزائفة التي قد يعطونك إياها....".

إن النصوص التي تركها انزوار تظهره كشخص ظلامي رجعي الى حد يكاد يكون شمولياً، لكن مساره السياسي هو الذي تماشى تحديداً مع المصالح الإثنية للشراكسة. في شباط عام ١٩٢١، اصدرت المحكمة الكمالية في إسكي شهير حكماً غيابياً باعدام انزاور. إلا أنه قتل بعد ذلك بوقت قصير في احد الاشتباكات مع الألبان.

تكشَّف الكماليون المنتصرون عن كونهم حزباً ذا نزعة نازية تماماً ومتطرفة الى حد الشوفينية. وضعوا حجراً على مجرد استعمال اسم الشراكسة. ظل التاريخ التركي التالي بأكمله، حتى رئاسة تورغوت اوزال، تاريخ الدمج القسري المعيب للشراكسة، الاكراد والمجموعات الإثنية الأخرى غير التركية.

كان العام ١٩٢٠ هو الأخير بالنسبة لتواجد النخبة الشركسية في القسطنطينية والاناضول. فقد ارتبط تكوين هذه النخبة وتاريخها الطويل بشكل كامل مع تاريخ الامبراطورية العثمانية. في البداية، أثَّر فقدان استقلال بلاد الشراكسة عام ١٨٦٤، سلباً على تأسيس تواجد هذه النخبة، وجاءتها الضربة القاضية المؤكدة مع انهيار الخلافة العثمانية. عام ١٩٢٣، اقترحت العناصر التركية ذات المزاج الشوفيني المتعصب والقريبة من دوائر مصطفى كمال، مشروعاً يقضي بترحيل الشراكسة والاباظه من غرب الاناضول، بموافقته الضمنية الصامتة، الى المناطق الصحراوية التي لا حياة فيها بشرقي الاناضول، وتحديداً الى ارمينيا وكردستان. لم يوقف اتاتورك إلا التدخل المباشر ووساطة العديد من الوجهاء والجنرالات، وتصميم الأديغة – الابخاز على الدفاع عن حقوقهم بالسلاح الذي بين ايديهم. قدم رئيس الوزراء الشركسي حسين رؤوف باشا استقالته بطريقة استعراضية متعمدة، بعد ان اعلن لأتاتورك: " لقد حان الوقت الذي لم اعد فيه قادراً على التظاهر بأنني معك "

ساند مئات من الضباط الشراكسة سلوك رؤوف باشا. كان من بينهم قادة الفرق وقادة الجبهات. اتخذ كل من علي فؤاد باشا جيبيسوي، ديلي فؤاد باشا تخوغو، عزت باشا جوناتوقه وبكر سامي بك كوندوخ، موقف المعارضة المكشوفة. تكلم المثقف البارز، الاباظي محمد فيتجيري آشاني ( شويني ) باحتجاج غاضب. كان " لندائه الى الجمهور والى المجلس الوطني الكبير فيما يتعلق بالمشكلة الشركسية " تأثير عميق في توعية الشوفينيين الاتراك. اقتنعوا انه لا يمكنهم أن يعاملوا الشراكسة كما عامل انصار تركيا الفتاة الأرمن البؤساء. لم يكن اتاتورك مستعداً لأن يطلق حرباً أهلية ويرفض الدعم الشركسي. كانت سلطته الاستحواذية على الاتراك توشك ان تخلق كارثة حكومية. رغم ذلك، فقد اضيف اسم رؤوف باشا الى جانب اسمي انزاور وأدهم، الى لائحة اشد اعداء تركيا. لكنه لم يكبح. فقد أصبح شخصية رمزية هائلة في التاريخ السياسي الحديث لتركيا. بعد وفاة اتاتورك عام ١٩٣٨، عاد جميع خصومه السابقين – حسين رؤوف باشا، علي فؤاد باشا جيبيسوي، كاظم كارا بكر باشا، وغيرهم – الى السلطة واحتلوا مناصب مسؤولة.

كانت فترة ١٩٢٣ – ١٩٣٨ هي الأقسى في تاريخ الشتات الابخازي – الأديغة. لاحظت المجلة السوفييتية " نوفي فوستوك " ( الشرق الجديد ) عام ١٩٢٥ ان الشراكسة والابخاز يشكلون نصف " القائمة السوداء " المزعومة من القادة العسكريين والسياسيين، الذين اعلنهم الكماليون خارجين على القانون.

اصدر البرلمان التركي قانوناً عام ١٩٢٧، يمنع بموجبه مواطني البلاد من التحدث بأية لغة غير التركية في الأماكن العامة.

ان التاريخ الحديث زاخر أيضاً باسماء العديد من اسماء الشراكسة البارزين المميزين وغيرهم من ممثلي القفقاس. ان عصيان الشركسي طلعت ايدمير وتابعه ف. جيورجيان في انقره خلال شباط عام ١٩٦٢، وفي يومي ٢٠، ٢١ أيار عام ١٩٦٣، واحد منها. كما ان رئاسة الابزاخ تشاغلايان جيلي مثال آخر عليها.

لم تمكِّن خسارة الفرصة عام ١٩٢٠، في انشاء دولتهم في الاناضول الغربي، في امارة بريام القديمة، الشراكسة من الحفاظ على موقعهم المتميز. فقد كان شركس ادهم بك آخر ممثل بارز للمجتمع الشركسي، ممن طبقوا سياسة السيطرة. فقد ترأس المتطوعين الشراكسة وأبدى مقاومة فعالة ضد اليونان والانجليز اثناء فترة الثورة الكمالية حينما لم يكن هناك أي أثر للجيش النظامي التركي. تحولت " مجموعته الطيارة " لاحقاً الى ما سمي " بالجيش الأخضر " من اجل زيادة اعدادهم على حساب المهاجرين وممثلي الجماعات الاسلامية. في هذه العملية، حصل ادهم على كميات كبيرة من قطع المدفعية والرشاشات، واعداد الفدائيين. كان مركز قيادة جيشه في كوتاهيه، الواقعة في وسط الاناضول الغربي بالضبط، على مسافة حوالي ٣٠٠ كيلو متر من انقره.

كتب الدكتور شوكت المفتي " لا شك في ان " الجيش الأخضر " تحديداً، هو الذي أوقف الغزو اليوناني، أخمد حركات العصيان الداخلية والحرب الفئوية وعزز أسس نظام انقره. تعاظم نفوذ شركس ادهم بمرور الوقت.....بعد ذلك بدأ يشن العمليات مستقلاً عن حكومة انقره، التي كانت اسمية تماماً وليست لديها أية سلطة حقيقية، لأن كل القوة كانت في يد أدهم، الذي جمع الضرائب وأصدر الأوامر وعاقب الثوار والمجرمين....بدأ جنود الجيوش النظامية لحكومة انقره يهربون من الخدمة في وحداتهم وينضمون الى جيش ادهم، حيث كانت الرواتب أكثر. استشاط مصطفى كمال غضباً بسبب اعتماده الكلي على الجيش النظامي، الذي لم يحقق اي نجاح ملحوظ ".

على الرغم من كل ذلك، لم تكن اوضاع ادهم صلبة بما يكفي. فقد استغل كمال على الفور أول اخفاق عسكري رئيس لأدهم على الجبهة اليونانية. فقام جيش انقره بضرب مؤخرة " الجيش الأخضر " وقامت القوات المسلحة التي يقودها عصمت إينونو (كردي، خليفة كمال) باحتلال كوتاهية.

منذ العام ١٩٢٠ وحتى ١٩٦٠، رسم المؤرخون الاتراك صورة في غاية السلبية لشخصية شركس أدهم السياسية البارزة. رغم ذلك، وكما اشرنا سابقاً، فقد بدأ دوره في حركة التحرير الوطني التركي تلقى التقدير بطريقة اكثر موضوعية في الحقبة التالية.

• • •

اضافة الى الوبيخ، والابخاز، تعيش بقايا القبائل الكبيرة سابقاً من الأديغة الغربيين في منطقة إزميت، في قرى كيرك بينار ويانيك - ابزاخ، قالاي، ماشوقي (شابسوغ)، اوزون تارلا (ابزاخ وشيمجوي) وفي ادليس (شابسوغ). يعيش قسم من الشراكسة في المدن الكبيرة، مثلاً في انقره، استنبول، ارضروم، وغيرها. يوجد بين الشراكسة اعضاء في برلمان تركيا: المجلس الوطني الكبير.

من المثير للإهتمام معرفة ان الشراكسة في المنفى قد اسسوا مجلة تدعى "مسلم" بدأت تنشر في باريس عند بداية القرن العشرين. كان محررها محمد بك حاجيلتش، وكان اكثر المساهمين فيها نشاطاً محمد ايتشيروخ ودولت - جيراي حاتوقوقه. الغريب أن هذه المجلة لم تنشر باللغة الفرنسية ولا الشركسية، بل بالروسية. يقول س. اغيرجانوكوفا انه كان يختبئ خلف اسم محمد حاجيلتش محمد بك احمدوقه، وهو شركسي، نجل زعيم ابزاخي، تولى يهود تفليس الايتجيروف تنشئته. تقول المؤرخة نفسها ان محمد بك احمدوقه، اضافة الى كونه عضواً في الحزب الاشتراكي الثوري، يحتمل أنه كان عميلاً لل " أوخرانكا " (دائرة الشرطة السرية في روسيا القيصرية). كذلك اتهم بأنه عضو في الخدمة السرية اليابانية. جميع مقالات حاجيتلش تحمل توجهاً واضحاً موالياً للروس. وتظهر تشابهاً كبيراً بمقالة م. ايتشيروخ ودولت — جيراي حاتوقوقه. تفرض اغيرجانوكوفا، التي قامت بدراسة بحثية لحياة واعمال احمدوقه الابداعية، ان المؤلفين الثلاثة كلهم ليسوا اكثر من اسماء مستعارة لاحمدوقه. وهكذا، فان هذا " التنوير الشركسي " المميز، يحمل شخصية محددة. كان مؤلفو "مسلم " يعظون باسلوب طبقي بدائي: كل النصوص مليئة بادانات للأمراء والارستقراطيين

الشراكسة. يمكن الإحساس بتأثير الثوري الروسي الاشتراكي العميل احمدوقه، في النصوص الزاخرة بالتهجم على تركيا وكل ما هو تركي.

يقول انهاد برزج انه مع بدء "ذوبان" الجليد السياسي، فقد بدأت أولى براعم الديمقراطية تظهر في تركيا العثمانية عام ١٩٠٨. تأسست " جمعية الوحدة والعون المتبادل " الشركسية في ذلك العام. اشترك فيها الابخاز، الأباظه، الأديغة، الشيشان، الآفار، الاوسيتيون، الليزجين، الوبيخ، وممثلو جميع القبائل الشركسية، والذين توحدوا جميعاً تحت إسمهم المشترك " تشيركيس ".

## الشراكسة في الأردن

يقول الدكتور شوكت المفتي أن قسماً صغيراً من الشراكسة، الذين اعيد توطينهم عام ١٨٧٧ من البلقان الى الاناضول، حضروا الى سورية والأردن، حيث منحتهم الدولة العثمانية اراضي زراعية ليعتاشوا منها. يذهب نهاد برزج الى اعمق من ذلك في قلب المسألة. يقول لقد احتوت المعاهدتان اللتان وقعتا بعد الحرب في سان ستيفانو ( يوم ٣ آذار عام ١٨٧٨ ) وفي برلين ( يوم ١٣ تموز عام ١٨٧٨ ) على نقطة ادخلت فيهما بناء على اصرار روسيا حول "ضرورة" طرد الشراكسة من البلقان واعادة توطينهم في امكنة أبعد عن الحدود الروسية – التركية. يقول س. خوتكو، ان الحكومة العثمانية حققت مطالب مؤتمر برلين بالتمام والكمال بأن افرغت تركيا الاوروبية من الشراكسة واخذتهم الى اقاليمها الآسيوية، والاكثر من ذلك، الى أبعد ما يمكن عن حدود روسيا واليونان. نتيجة لذلك، قامت الدولة العثمانية بتوزيع المجتمعات الشركسية البلقانية على مقاطعات الحكومات الحالية مثل سوريا، اسرائيل والأردن. أي، ابعد ما يمكن عن عبر القفقاس الروسي.

خلال تلك الحقبة، كانت مصر ماتزال مقاطعة عثمانية نظرياً، ولكن الخديويين، المتحدرين من نسل محمد علي، حكموها بدون أدنى اعتراف بالسيادة العثمانية ورحبوا بمواطني بلاد الشراكسة ليخدموا في الجيش والشرطة. حتى انهم شجعوا هجرة مجتمعات أسرية كبيرة نسبياً الى مصر، إلا أن توزيع من ٢٥ الى ٥٠ ألف مهاجر، لديهم خبرات عسكرية جدية في الحروب الأوروبية، يمكن أن ينتج عنه تجديد السيادة الشركسية في القاهرة، التي تم سحقها بصعوبة بالغة من خلال الجهود المشتركة للفرنسيين، العثمانيين، البان محمد علي في الفترة من ١٧٩٨ وحتى ١٨١١. اكثر من ذلك، فان الانجليز، الذين اعتبروا تقوية جهاز الضباط الشراكسة سوف يعني تقوية نفوذ القسطنطينية بنفس الدرجة، والذي، بدوره

لن يخدم مصالح لندن. حاولوا ان يحدوا من الحضور الشركسي في القاهرة. بحلول العام ١٨٨٢، خرجت جميع الآراء الخلافية الى الثوار: خلع الوطنيون المصريون الخديوي، بعد أن اتهموه بالخضوع للنفوذ الانجلو – فرنسي. انكشفت الخطة الشركسية الهادفة الى اعادة حكم السلطان المباشر. غزا الانجليز البلاد واصبحت مصر منطقة تحت الانتداب. فاصبح ادخال الشراكسة اليها اشد صعوبة.

وصلت المجموعة الأولى من المهجرين من بلغاريا الى منطقة عمان عام ١٨٧٨، وتشكلت من الشابسوغ بدرجة رئيسة. تبعهم الابزاخ، البجدوغ والقباردي في الوصول الى عمان. جاء كلهم تقريباً الى هنا بحراً الى موانئ لبنان وفلسطين، لكن قسماً صغيراً منهم حضر الى هنا براً عبر الاناضول، حلب ودمشق. في ذلك الوقت كانت منطقة عمان صحراء، محرومة من أية اتصالات ومواصلات. ان الإسم التوراتي لهذا المكان هو ربة عمون. كانت مستوطنة فيلادلفيا مقامة هنا خلال حقبة السيطرة المقدونية. نمت المدينة في العصر الروماني، وبنيت فيها قلعة ومدرج نصف دائري. وكان فيها جامع شبه متهدم منذ عصر الخلفاء الراشدين. قام اوائل الشراكسة بإعادة بنائه وترميمه. لم يكن في عمان منزل واحد قائم عند وصول الشراكسة. الأمر المدهش حقاً هو خصوبة الأرض في هذه المنطقة، فقد كانت فيها بساتين وأجمات واسعة، لكن ينابيعها كانت الوحيدة في كل الإقليم. إن الصور الفوتوغرافية المحفوظة منذ عامي ١٨٧٧ – ١٨٧٨، تقنع المشاهد بأن المنظر الطبيعي لعمان، حسب رأي خوتكو: خال من الحياة.

تعكس الصور الملتقطة عام ١٩٠٧، بما فيها الصورة المثيرة لشارع الشابسوغ، مظهراً حضارياً ومختلفاً تماماً. في الوقت الحالي، يشكل الشابسوغ حياً في عمان (عاصمة الأردن)، كانت غالبية سكانه من الشابسوغ. قبل ذلك، عاش ممثلو قبيلة الشابسوغ لمدة طويلة داخل المدرج الروماني.

وصلت مجموعة أخرى من المنفيين الشراكسة الى عمان مروراً بدمشق. كان هؤلاء الشراكسة من مواطني قباردا الكبرى والصغرى (جلاخستان). استقروا فيما سمي بحي المهاجرين. كان خسرو باشا ممثل الموجة الأخيرة من المهاجرين الشراكسة، قد نظم عملية اعادة توطينهم. كان مدير الشرطة في سوريا. قام بتسخير الخط الحديدي وأمر بنقل الشراكسة عبر حلب ودمشق الى آخر محطة جنوباً وهي مزيريب. من هناك انتقل الشراكسة الى عمان في قوافل منتظمة. انطلقت هذه الرحلة تحت حماية افواج الفرسان الشراكسة التابعين لمرزا باشا، نائب خسرو باشا. لعب كلا هذين الشركسيين دوراً في غاية

الأهمية في تكيُّف المستوطنين الشراكسة وفي العمل السياسي لمصالحهم. خلال هذا الوقت، كان الشابسوغ قد شكلوا لجنة خاصة، برئاسة مرزا باشا ومحمد افندي حبجوقه، لاستقبال ابناء وطنهم وتوزيعهم.

مع بداية القرن العشرين، كان الشراكسة قد اسسوا المستوطنات الهامة التالية، التي توحدت عام ١٩٢١ لتشكيل امارة شرق الاردن:

١ – **عمان** : تكونت غالبية سكانها من الشابسوغ والقباردي مع قلة من الابزاخ. كان للبلدة طابع عسكري: تم تعيين رئيس بلدية عمان – وكانت ذات غالبية شركسية – من مكاتب الخدمة العسكرية العثمانية، التي شكل الشراكسة فيها اعداداً كبيرة.

٢ – **وادي السير**: هي القرية الثانية في شرق الأردن، تشكلت غالبيتها من المهاجرين الشراكسة. الذين تكونوا من الشابسوغ، الابزاخ والبجدوغ.

٣ – **صويلح**: قرية شركسية شيشانية بنيت على بقعة فارغة من قبل القبارديين بدرجة رئيسة.

٤ – **جرش**: لم تكن هذه القرية استثناءاً من القاعدة الرئيسة لبناء بلدات شركسية صغيرة في الاردن. جاء جميع سكانها – الرواد – من قبارديا.

٥ – **الرصيفة**: قرية قباردية أُخرى.

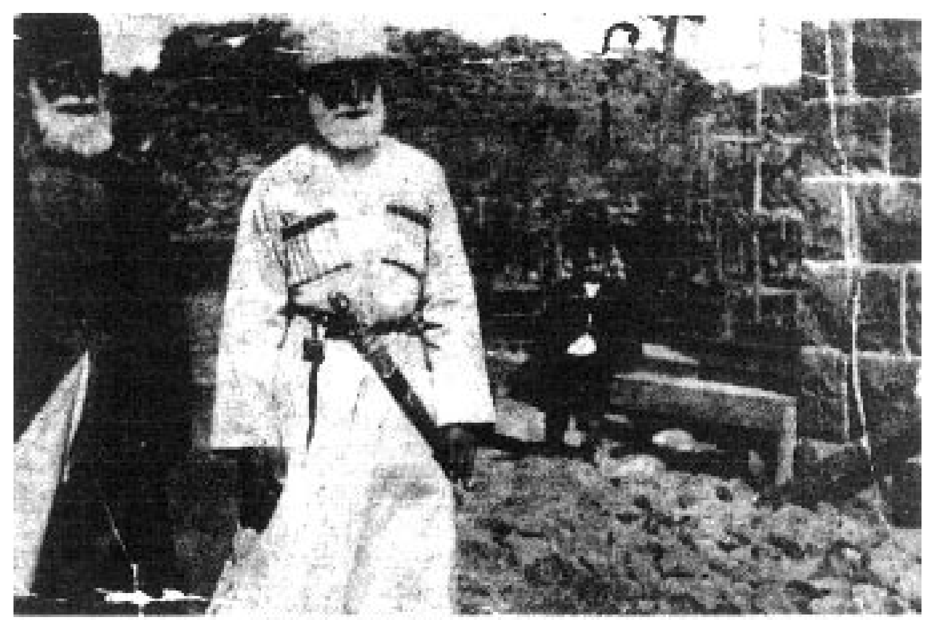
٦ – **الزرقاء**: هي القرية الشيشانية الوحيدة

٧ – **ناعور**: قرية من الابزاخ والبجدوغ، مع مساهمة قليلة من الشابسوغ والقباردي.

احاطت هذه الشبكة من القرى الشركسية ( اضافة الى قرية شيشانية ) بشرق الاردن الغربي، الذي شكل اقليماً مهماً من الناحيتين الاقتصادية والاستراتيجية بالنسبة للامبراطورية العثمانية. فقد اصبحت المستوطنات الشركسية هنا مركز السيطرة الحكومية في تحصيل الضرائب. وقد كلفت كذلك بحماية الخط الحديدي الحجازي.

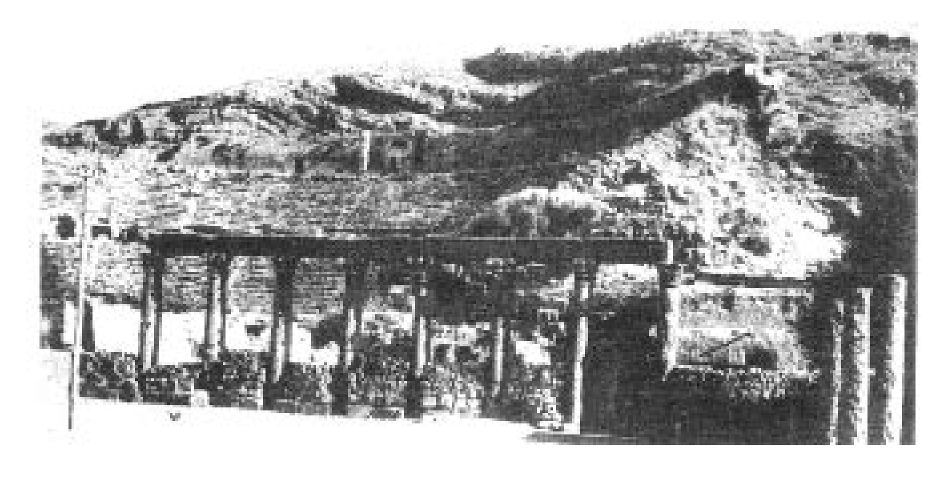
الواضح ان انشاء هذه القرى الشركسية قد تم التخطيط له بعناية. نتيجة لذلك، أُحيطت عمان، قيادة جميع الشراكسة في الاردن، بالمستعمرات الآنفة الذكر من جميع الجهات: من الغرب، وادي السير و صويلح، من الشمال، جرش: من الشرق، الرصيفة والزرقاء، ومن الجنوب، ناعور. يجب الانتباه هنا الى ان هذه القرى كانت موزعة على مسافة واحدة هي حوالي ١٥ كيلو متر من عمان، باستثناء واحدة على بعد ٥٠ كيلو متر، هي جرش.

صاحبت عملية التوطين كلها اجراءات تجنيد الشراكسة في وحدات الشرطة. ارسل مرزا باشا، الذي كان قائد شرطة بيروت حتى ذلك الحين، الى عمان لتلك الغاية. كان قد شكل سرايا فرسان شركسية في لبنان ووزعها على بيروت وصيدا وصور. كان الواجب الرئيس



*Early Circassian immigrants in Amman, Jordan*

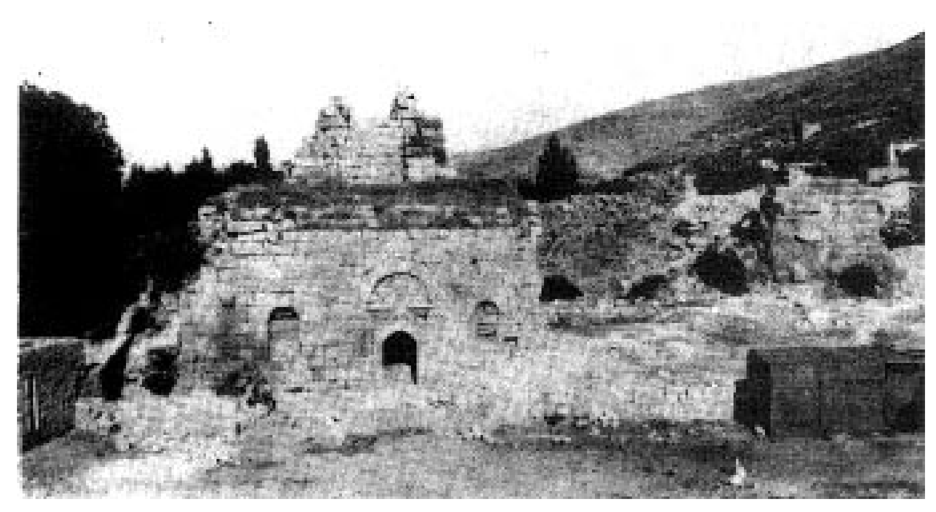
**المهاجرون الشراكسة الأوائل في عمان – الاردن**



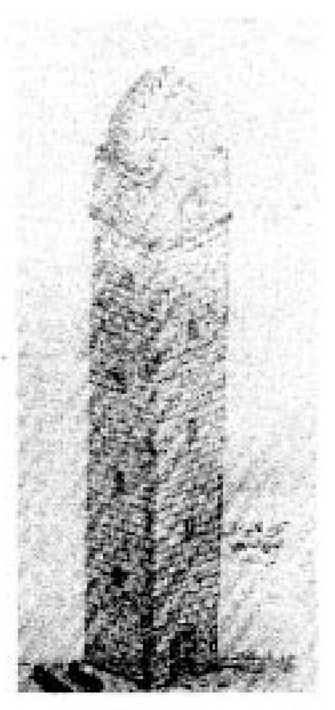
**المدرج الروماني في عمان، حيث استقر اوائل المهاجرين الشراكسة**
**كانت الارض حوله غير مسكونة مطلقاً في ذلك الوقت**



السيل في عمان من المنبع
لاحظ الاشجار النامية حوله بكثافة



دار الصباغة الرومانية قرب المدرج الروماني في عمان
هدمت كلياً في وقت لاحق



برج بيزنطي
حوله الشراكسة الى مئذنة



الملك عبدالله بن الحسين عند وصوله الى عمان سنه ١٩٢٠
حيث استقبله وجهاء الشراكسة



سعيد باشا المفتي مع مرزا باشا



سعيد باشا المفتي ( حبجوقه )



الجنرال مرزا باشا وصفي



باط حينا

لهذه السرايا حماية الخط الحديدي الممتد من عمان الى المدينة المنورة. في الوقت نفسه، عينت الوزارة العثمانية مرزا باشا لتوزيع الأراضي بين المهاجرين الشراكسة. كان الرهان على الشراكسة قد برر نفسه كلياً – ما كان السلطان يستطيع ان يجد مثل هؤلاء الداعمين لسلطته بصلابة لا تلين، حتى بين الاتراك أنفسهم. كان للتكيف الشركسي هنا صبغة قوزاقية قوية: اذا كانوا قد حطموا " التشيتنيك " وأخمدوا أية تحركات معادية للعثمانيين في بلغاريا قبل عشر سنوات، فقد تمكنوا في تلك الآونة من تهدئة البدو والدروز. قامت وحدات الفرسان الشراكسة بعمليات أمنية في الشرق الأدنى منذ العامين ١٨٦٧ – ١٨٦٨ وحتى خمسينات القرن العشرين. فقد اوقفوا غزوات البدو وامنوا الشروط الأمنية الأدنى لتواجد الحكومة والجمع الآمن للضرائب.

وصل الخط الحديدي الى عمان سنة ١٩٠٨، الأمر الذي اعطى دافعاً قوياً لتطوير المدينة. بدأ الحرفيون والتجار العرب من سوريا وفلسطين، اضافة الى التجار الأرمن والاوروبيين، بالاستقرار في هذه المدينة حيث وجدوا قدراً اكبر من الأمن والأمان.

أمر خسرو باشا بتنظيم نقطة تجمع في محطة مزيريب لجميع المهاجرين الشراكسة القادمين عبر دمشق. استغرقت العملية عشرين يوماً. بعد وصول جميع المهاجرين، حضر خسرو باشا. أمر بمصادرة كل البغال والإبل في منطقة حوران وتسليمها الى المهاجرين. اولئك الذين رفضوا تسليم حيواناتهم، ارغموا على ذلك بالقوة. لاحقاً، انطلق المهاجرون الى عمان في قوافل منتظمة، وعند وصولهم، اتخذ معظمهم مواقع مؤقتة في ياجوز، قرب صويلح. توقفت البقية في رأس العين بعمان، قرب منابع المياه العذبة، ونصبوا معسكرهم من الخيام. جاء خسرو باشا ومرزا باشا في وقت لاحق. سرعان مانظم الشراكسة لجنة تحت قيادة كل من مرزا باشا ومحمد افندي حبجوقه. قسمت اللجنة الاراضي بين المهاجرين وجعلتها في الحي الذي تلقى اسم المهاجرين. وكان المهاجرون الاوائل قد توزعوا بنفس الأسلوب.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان الاردن ضاحية متخلفة من الامبراطورية العثمانية. اذا كانت في تركيا، اي في منطقة الاناضول ومقاطعاتها الصغيرة في اوروبا، توجد بدايات جدية للتنوير والمجتمع الصناعي، وقوانين عاملة عادية، فقد كانت الفوضى العشائرية ماتزال تتحكم بمناطقها العربية القصية مثل الأردن.

لم تكن وحدات الشرطة الضعيفة، التي يقتصر تواجدها على المدن، قادرة على السيطرة على سرقات البدو. من الطبيعي إذاً، انه في مثل ذلك المحيط، ان يتلقى وصول عدة آلاف من الشراكسة استقبالاً معادياً، وان تمتلئ السنوات الثلاثون او الاربعون الأولى من تواجدهم

بالأحداث العسكرية التي تعاظمت من وقت لآخر الى حجم حروب محلية. كان الشراكسة ينتصرون في كل هذه الصدامات، لكن العثمانيين كانوا يمنعونهم من انزال العقوبة القصوى. وكان البدو من الناحية الأخرى، يدركون ان عدد الشراكسة قليل، فيتخيلون بعد مرور فترة من الزمن انهم قادرون على طرد هؤلاء الغرباء. الأمر الذي كان يفضي دائماً الى الصدام التالي. في رأينا، يقول خوتكو أن السبب الأهم لهذه الصدامات كان يتعلق بالتنظيم الاجتماعي الخاص بالبدو. كان التسلسل التنظيمي المعقد مفقوداً هنا، فكان يحق لكل مجموعة بدوية أن لا تعترف بالاتفاقيات التي تبرم مع قبيلة مجاورة من قبل شراكسة عمان. لم يكن بامكان الشراكسة ان يعقدوا اتفاقية شاملة مرة واحدة مع جميع البدو. من الناحية الأخرى، كانت الطبيعة المتشرذمة للاردنيين الرحل تقدم امكانيات ممتازة للمناورة السياسية للطبقة الشركسية الحاكمة.

اصطدمت اول مجموعة شابسوغ بالقبيلة المعادية الكبيرة بني صخر، عندما قام رعاة الأخيرة برعي قطعانهم في الحقول المزروعة من قبل الشراكسة. قتل العديد من الناس على جانبي الصراع في الصدامات التي تلت. مع ان الشراكسة صدوا جميع هجمات بني صخر بشجاعة، الا ان شيخ بني صخر ارسل مبعوثاً الى عمان طالباً من الشراكسة مغادرة المدينة. الواضح ان البدو لم يتحملوا ببساطة ان يتم احتلال مراعيهم التاريخية وفلاحتها من قبل الغرباء. قبل الشراكسة، بعكس ماهو متوقع منهم، وبدون أية مفاوضات تمهيدية، بالتخلي عن عمان شريطة ان يعطيهم البدو جمالهم كواسطة نقل اساسية لتحميل املاكهم. واهم من ذلك، كبادرة تطمين الى انهم لن تتم مهاجمتهم على الطريق. احبطت هذه الإجابة قادة البدو لأنهم شكوا في وجود مكيدة سيتمكن الشراكسة بواسطتها من مصادرة حيواناتهم والاحتفاظ بها بدون ان يغادروا عمان الى اي مكان آخر.

تبعت ذلك مفاوضات أخرى اكثر جدية وتم التوصل الى اتفاق، يقدم بموجبه الفريقان المساعدة لبعضهما البعض في حالة وقوع اعتداء من طرف ثالث. جاءت هذه النتيجة مفيدة جداً لعمان لأن الفريق الثالث المتوقع لابد وان يكون البدو الآخرين. اقيمت وليمة في رأس العين للاحتفال بهذه المناسبة، حضرها زعماء قبليون من الفريقين. عرف الصراع الكبير التالي باسم " حرب البلقاء "، والذي حافظت فيه قبيلة بني صخر بموقف محايد وشجعت القبائل البدوية على التوصل الى تسويات مع الشراكسة.

أدى الحادث التالي الى نشوب " حرب البلقاوية ". عام ١٩١٠، بينما كان القباردي باط حينا، الذي حضر الى عمان عام ١٩٠٠، ويعيش في حي المهاجرين، متجهاً الى حقوله

الزراعية، هاجمه بعض البدو الذين حاولوا ان ينتزعوا منه الطعام الذي كان يحمله الى عماله. اصيب باط بجروح في الصراع الذي حصل، اعتقد البدو أنه قد توفي، فركبوا جيادهم مبتعدين، وعادوا باعداد اكبر، احرقوا مباني منزله، داسوا محاصيله، وخطفوا طفليه – صبي وبنت.

عندما وصل الخبر الى عمان، اندفع الشراكسة الى مضارب البدو، حاصروها واوقعوا بساكنيها خسائر جسيمة. ثم، ابلغ الشراكسة القبيلة البلقاوية من خلال مبعوث من بني صخر، انهم سيظلوا محاصرين الى ان يعيدوا الطفلين. في نهاية المطاف، اجبرت القبيلة على الاستجابة، واعادت الطفلين المختطفين الى والديهما وعقد صلح من النوع الذي عقده الشراكسة سابقاً مع بني صخر. كانت هذه النهاية السلمية لحرب البلقاء ذات دلالة في غاية الأهمية في تشكيل النموذج المستقبلي لعلاقات البدو – الشراكسة وحررت العديد من العائلات على الجانبين من مسؤولية الاستمرار في عمليات الثأر والثأر المقابل. بدأ البدو يدركون تدريجياً ان الشراكسة قوة يحسب حسابها وبدأوا يعاملونهم بالاحترام المستحق لهم.

كتب ن. ب. كونداكوف، الذي ارتحل في الشرق الأدنى اوائل القرن العشرين عن السيطرة السياسية والعسكرية للمهاجرين الشراكسة في منطقة عمان وجرش بشرق الأردن. " من عراق الأمير ذهبنا الى ربة عمون او، كما تسمى عادة، عمان. في البداية تسير الدرب الى جانب وادي السير بعكس اتجاه مجرى الغدير الممتلئ، والذي تغطي مساره نباتات الدفلى المزهرة في بعض الامكنة. قرب الملاَّ، يصبح الوادي أضيق، ويمكن رؤية الكهوف في الجدران الحادة الانحدار للجبال. احدهم له طابقان: شبابيكه مغطاة بمغاليق مزينة، ويعيش فيه البدو.

لكن السهل في حوزة الشراكسة ( قانونياً وواقعياً ). كانت قرية عمان مدهشة بمناظرها الخلابة وتراثها. فتح الشراكسة في هذه القرية طريقاً عريضة رائعة لعرباتهم، والهضبة الواسعة مزروعة من طرفها الى الآخر على مدى البصر، بالقمح ".

ربما يكون الجزء الاكثر أهمية من التاريخ العسكري للشراكسة في الأردن، هو مشاركتهم في حروب الشرق الأدنى، وبشكل خاص، في الحرب العالمية الأولى. عام ١٩١٠، نظم مرزا باشا وصفي كتيبة فرسان شركسية في عمان قوامها ثلاثمئة رجل لحماية خط حديد الحجاز – دمشق. قامت هذه الكتيبة مستقلة بإخماد ثورة في الكرك، اكبر مدينة في جنوب سوريا في ذلك الوقت. بداية عام ١٩١٨، قامت فرقة المتطوعين الشراكسة، التي كانت معروفة

باسم تشكيل " المجاهدين " بقيادة مرزا باشا، بدور ايجابي في مقاومة الانجليز عند قناة السويس. أجبرت الوحدات العثمانية النظامية والفرسان الشراكسة على الانسحاب الى الاردن بعد معركة ضارية، فتقدمت القوات المسلحة البريطانية المتفوقة في اعدادها، الى قلب فلسطين. ارسلت مجموعة الجنرال اللنبي الى عمان. استغل العرب الغزو البريطاني، فقاموا بثورة ضد العثمانيين. كان الجيش العثماني الرابع قد انسحب الى دمشق، تاركاً الشراكسة وحدهم في مواجهة البريطانيين والعرب. سقطت عمان في نهاية الأمر. ألقي القبض على كثير من الشراكسة بتهمة كونهم عملاء للحكومة العثمانية.

واجهت القوات المسلحة البريطانية اقوى مقاومة لها في وادي السير، ولم تتمكن من الاستيلاء عليها لعدة أيام. قتل كثير من البريطانيين والشراكسة في العملية. عندما استولى البريطانيون على القرية، القوا القبض على زعماء المجتمع ونقلوهم الى جرش، لكن اطلق سراحهم بعد إعلان الهدنة. خاضت الكتيبة الشركسية، بقيادة مرزا باشا، والتي كانت قد انسحبت الى سوريا مع الجيش العثماني، معركة ضد القوات الفرنسية المسلحة. على اية حال، بدأ القادة الوطنيون العرب باقناع الشراكسة بعدم التصدي للفرنسيين: هناك برقية محفوظة مرسلة من ملك العراق القادم ( تحت انتداب بريطانيا العظمى ) الى مرزا باشا بهذا المعنى. اضافة الى ذلك، يتذكر سعيد باشا المفتي، الذي شارك في هذه المعارك اثناء شبابه، أن وفداً حضر اليهم في محطة مزيريب، وأخبرهم ان دمشق قد اصبحت بين ايدي الفرنسيين، واقنع مرزا باشا بالعودة الى عمان. مرة أخرى حصلت اشتباكات شركسية – عربية حادة فيما يتعلق بتقسيم الانتداب البريطاني الى قسمين – فلسطيني واردني. فقد كان موضوع إقامة الأردن كدولة منفصلة تحت حماية لندن مرتبطاً بشكل عام برغبات الشراكسة ودعمهم لتأسيس الملكية. قابل شيوخ البدو الملك المؤسس عبدالله بن الحسين منذ البدايات الأولى بالعداء. فقد كان كل واحد منهم يتخيل نفسه ملكاً ويعتبر الأمير عبدالله مدعياً محدث النعمة. على عكس البدو، قابل الشراكسة الأمير الهاشمي بمنتهى الجدية، وعاهدوه على الولاء، وقدموا له مرافقة مهيبة. كان قصر الأمير في عمان على تلة في منطقة المحطة ويتألف في البداية من مدينة صغيرة من الخيام.

عام ١٩٢٣، قام شيوخ عجلون، الكوره وإربد باعلان الثورة. تمت في عمان تعبئة افراد الكتيبة الشركسية ذوي الخبرة على الفور، ووصل مرزا باشا من استنبول على وجه السرعة. في البداية، اتخذ الشراكسة مواقعهم حول مقر إقامة الأمير، ثم أرسلوا فوجاً قوياً ضد الشيوخ الثائرين وأخمد العصيان. وهكذا، تبدد نفوذ شيوخ البدو في منطقة شرق الأردن، وتأسست

هناك دولة جديدة ثابته الأركان – الإمارة الهاشمية لشرق الأردن – تمثل مزيجاً رائعاً من التنظيم السياسي، هو خليط من المظاهر التقليدية التي تميز العالم العربي الإسلامي وتلك المستحدثة هنا من الغرب – من بريطانيا العظمى وبلاد الشراكسة.

لم يكن المظهر الإثني – الثقافي للحياة الشركسية في الأردن أقل أهمية أبداً. فقد انشغل المجتمع الشركسي في بدايات وجوده بالزراعة بشكل رئيس، وبالحرف اليدوية، كرديف فقط. وحدها قدرة الشراكسة على الدفاع عن محاصيلهم واراضيهم جعلت من الممكن لهم الانهماك في الزراعة في بلاد البدو الرحلّ. اكثر من ذلك، فإن الشراكسة تحديداً هم الذين ادخلوا البستنة الى الأردن: كل قرية شركسية هنا كانت غارقة فعلياً في بحر من اشجار الفاكهة. كذلك قاموا بتجديد زراعة الكروم.

نجحوا في تغيير الاساليب الزراعية، التي تشكلت ضمن ظروف القفقاس الاكثر ملاءمة، الى المناخ الجاف في الأردن. تمكنوا من استخدام الحبوب ذات الطابع اللبناني في فترة قصيرة نسبياً، اضافة الى الخضار والفواكه، وبدأوا يزرعونها بدرجة ممتازة.

سرعان ما اصبحت القؤى الشركسية أمثلة تحتذى في الحجم والتنظيم والتخطيط. إن السرقة، النهب والقتل بشكل خاص، امور لم يسمع بها أحد بين القبائل الشركسية في الأردن. أمكن ضمان النظام من خلال الالتزام المخلص بتقاليدهم - الأديغة خابزه.. مكنهم من التعاون المتبادل في العمل وكافة النواحي الأخرى من الحياة الكريمة في الظروف الجديدة للأطراف الصحراوية للامبراطورية.

بدأت القرى الشركسية في الاردن تزدهر بعد وصول أهلها بفترة قصيرة. أجمع كل الاجانب – الرحالة، الدبلوماسيون، والعسكريون - الذين زاروا الأردن على ملاحظة ثراء القرى الشركسية فيه. اشار مؤلفو النسخة الجغرافية - الإقليمية حول الأردن الى التأثير الثقافي للشراكسة، كتبوا " دعونا نذكر أيضاً، ان جرش المعاصرة مازالت مسكونة بالمتحدرين من الشراكسة المعروفين باحترامهم العميق لقبور اسلافهم. اكثر من ذلك، فان الشراكسة يتمتعون بنفوذ استثنائي في الأردن، حيث يشغل كثير منهم مناصب مهمة في آلية الدولة، في عالم الأعمال، وفي الجيش.

يكفي القول ان الحرس الشخصي للملك يتم تجنيده تقليدياً واستثنائياً من بين الشراكسة".

زارت جيرترود بيل، العميل السري البريطانية الأردن بعد خروج الشراكسة منتصرين من صراعهم مع تحالف بدو البلقاء، بثماني سنوات. نشر تقريرها في لندن عام ١٩١٨.

وهذا مقتطف منه: " الشراكسة شعب غير ودي، صارم وميال الى الخصومة، لكنهم عاملين مجدين ومبدعين بما لا يقاس، وهم يخرجون فائزين في منافستهم اليومية مع البدو على الدوام. قدموا مؤخراً سببا للقتال، عندما قاموا بتحويل مياه نهير الزرقاء الذي يعتمد عليه البدو في الصيف: وكذلك تزداد صعوبة الذهاب الى عمان – مقر قيادة الشراكسة – الى حد الاستحالة، لقضاء الحاجات الصغيرة لدى الحياة العربية، التي يحتاجها العرب – لشراء القهوة، السكر والتبغ ". إن لهجة هذا الرأي البدوي تظهر بمنتهى الفصاحة فكرتهم عن الوجود الشركسي. إنها لا تقل عن الاعتراف بتفوق الشراكسة ليس فقط في الدوائر العسكرية والسياسية، بل أيضاً الاقتصادية ".

خلال فترة رحلات جيرترود بيل وحدها، احتل الشراكسة منصب رئيس البلدية في كل من بيروت، دمشق، حلب، عمان ومكة المكرمة. تحدث معها كاظم باشا، الشركسي الذي قابلته، باللغة الفرنسية وولد لديها انطباعاً بأنه محب للانجليز. كان في السادسة والثلاثين من عمره، وقبلها كان يشغل منصب الحاكم العام في القدس، حيث استطاع ان يوفق بين مصالح الكنائس المختلفة – الكاثوليكية، الروم – الارثوذكس، والارمنية، اضافة الى المسلمين واليهود خلال فترة حكمه. كان ولاؤه الوحيد تجاه السلطان. بعد التطرق الى موضوع الوجود البريطاني في عدن والكويت، اصبحت على قناعة من ان الباشا الشركسي يكره الانجليز. واضح أن الشراكسة اثروا فيها. إن وصفها لجمال وكبرياء زوجة الحاكم العام لليمن الشركسية يفيض بالتقدير الحماسي على نهج بايرون وبالمونت. إن الثراء والمكانة العالية للشراكسة الاردنيين هو ما مكّن الشراكسة اللاجئين من الحرب العالمية الثانية من الهجرة الى هذا البلد. بعد الحرب، كانت كل من بريطانيا العظمى والولايات المتحدة قد اعادت بالقوة عدداً كبيراً من هؤلاء اللاجئين " الروس " ( الذين اطلق عليهم تسمية الاشخاص المزالين ومنهم عدد صغير ممن خدموا في الفيالق الشرقية لوزارة الحرب الالمانية ). على أية حال، هرب لاجئون آخرون باعداد كبيرة من اعادة التوطين القسرية بالصعود الى جبال الألب في ايطاليا والنمسا، حتى ان بعضهم هرب الى فرنسا وهولندا. هناك مجموعة شركسية من هؤلاء اللاجئين – بجدوغ، شابسوغ وقباردي – وجد افرادها الملاذ الآمن في الفاتيكان اثناء هروبهم من الشرطة العسكرية للحلفاء، حيث قام البابا بحمايتهم.

عام ١٩٤٧، حضر ممثلهم كريم سويزوكوف ( شوابستوقه )، المولود في تاختاموكوي بالأديغيه، الى عمان وتوجه الى عباس باشا مرزا، وزير الداخلية. قابلهم الملك المؤسس عبدالله بن الحسين، ورغم انشغاله الشديد بمشكلة اللاجئين الفلسطينيين، الا انه وافق

بسرعة على خطة الهجرة التي اقترحها سوبزوكوف للاجئين الشراكسة في ايطاليا. اكثر من ذلك، أمر الملك باتخاذ كافة الاجراءات لإصدار وثائق سفر أردنية لهم.

جمع المجتمع الشركسي الأردني الأموال اللازمة لنقلهم لتجنب الإتهامات بخلق اجواء من المحاباة لابناء جلدتهم. اسرع كريم سوبزوكوف عائداً الى روما حاملاً المال ووثائق السفر. واحضر المجموعة الأولى المكونة من ٣٨ شركسياً في كانون الأول عام ١٩٤٧، غالبيتهم من الشابسوغ والبجدوغ، من ايطاليا الى عمان، الاردن، بواسطة الباخرة، عن طريق ميناء حيفا.

كان جانكري حبجوقه القباردي الوحيد مع هذه المجموعة.



**كريم سوبزوكوف**
**في عمان – الاردن**

استقبل الشراكسة في الاردن هؤلاء اللاجئين بفيض من الترحيب والدفء وكرم الضيافة. وجد معظم القادمين الجدد اقارب بعيدين لهم هنا. دعا شراكسة آخرون بقية اللاجئين الذين لم يجدوا اقارب لهم في الاردن، الى بيوتهم. حلَّ كريم سوبزوكوف وعائلته ( زوجته الحسناء كاتيا، ونجلهم الطفل كازبك ) ضيوفاً على عائلة خليل جانبك لمدة ثلاثة أشهر. في وقت لاحق، قدم عيسى طماش المحامي، ثم القاضي، شقة الى عائلة سوبزوكوف ليعيشوا فيها. انتقل شقيق كريم الأكبر، موسى وزوجته فيرا، للإقامة معهم. حلَّ جانكري حبجوقه ضيفاً على عائلة سعيد باشا المفتي حبجوقه. عثرت على عائلتين من آل ناتخو في حي الشابسوغ بعمان – عائلتا يوسف وحسن شكري.

كان لدى عائلة يوسف شكري، التي ترددت عليها كثيراً، ثلاثة ابناء هم خالد، غالب، ومحمد خير، وخمس بنات: ساميه، نازك، نظوم، رمُّوز وهدى. كان لدى حسن شكري خمسة ابناء هم غازي، سيف الدين، محمد خير، خير الدين وعزالدين. أصبح هؤلاء الناتخو قبيلة كاملة ميسورة الحال هذه الأيام.

عام ١٩٤٨، أحضر جانكري حبجوقه، بمساعدة مضيفه البارز، المجموعة الشركسية الثانية، وكلها من القباردي، من ايطاليا الى الأردن. على أية حال، لم يطل المقام بهؤلاء الشراكسة – المجموعتان الأولى و الثانية – في الاردن. عاد بعضهم الى القفقاس بعد بضع سنوات وانتقل معظم البقية الى الولايات المتحدة بمساعدة من مؤسسة تولستوي، واستقروا في منطقة باترسون، نيوجيرسي. لم يبق من الموجة الأخيرة من الشراكسة المهاجرين في الاردن سوى عدد قليل.

خدم جميع الشراكسة في الخارج البلدان التي يعيشون فيها باخلاص وتفان. وقد فتحت لهم هذه المزية الطريق الى مهن حياتية جديرة بالاحترام في بلدان مختلفة مثل سوريا، تركيا، الاردن واسرائيل. في نفس الوقت تمكنوا من الحفاظ على لغتهم، تقاليدهم وسلوكياتهم، بدون ان يعزلوا انفسهم أو ان يتصرفوا مثل طبقة غرباء متعجرفين.

بعد عام ١٩٤٨، بدأ الشراكسة يخصصون المزيد من الوقت لتحصيل التعليم الجامعي بجدية، والسعي الى تحصيل المساعي البحثية الدراسية. ارتفعت النسبة المئوية للشراكسة الحاصلين على الشهادات الجامعية بثبات خلال التسعين عاماً الماضية. اسهمت نجاحاتهم في ميادين الجيش والشرطة ايجابياً في نجاحهم المهني.

لقد شغل الشراكسة، ويستمرون في شغل أعلى المناصب طيلة فترة وجود المملكة الأردنية الهاشمية: رئيس الوزراء، وزير الدفاع، مدير الأمن العام، وزير الأمن الوطني، وزير الخارجية، وزير المالية، وزير الزراعة، ووزير المياه: كذلك خدموا في بلادهم الجديدة كسفراء في البلدان الاجنبية ونواب في مجلسي الأمة. اضافة الى ذلك، فقد ظل الشراكسة يشكلون الاغلبية المطلقة في ملكية أراضي عمان وضواحيها حتى ثمانينات القرن العشرين.

ينتمي قسم كبير من الشراكسة الأردنيين الى طبقة الموسرين في المملكة. لم يصل اي فرد شركسي هنا الى حالة العوز والفاقة المطلقة أو الاستجداء. ان احترام الذات والفخر بكون الشخص شركسياً، في الانتماء الى التاريخ البطولي للمقاومة الشركسية ضد الامبراطورية الروسية في القرن التاسع عشر، والى تاريخ السلاطين المماليك الشراكسة لكل من مصر وسوريا في القرون من الثالث عشر الى السادس عشر، يميز الهوية الإثنية والثقافية المتميزة

للشراكسة في الأردن. اضافة الى ذلك، فان التاريخ المعاصر في الشتات والمرتبة العالية التي حصلوا عليها في البلدان الاجنبية تمنحهم الشعور بالفخر لكونهم شراكسة. الأمر المدهش هو أن أحداً من الشراكسة لم يتعرض للتمييز ضده طيلة التاريخ الكامل للمملكة الهاشمية. ليس فقط ذلك، بل إن هناك منصب وزير، ووكيل وزارة، وثلاثة نواب شراكسه – شيشان، وعضوين في مجلس الأعيان يتم تخصيصهم للمجتمع الشركسي في الأردن، وهكذا فان الشراكسة هم المجموعة الاثنية الأقلية الوحيدة التي نالت مثل هذا الامتياز الرفيع.

رغم ذلك فهم لم يتجهوا إلى تنظيم الأحزاب السياسية نظراً للانطباع السلبي السائد عن الأحزاب حينذاك. لكن لديهم نواديهم، مدارسهم، وجمعياتهم الخيرية الخاصة بهم. ان فكرة المحاباة، كقاعدة،

لا تجد اي دعم لها بين الشراكسة انفسهم. فهم يؤمنون بالحقوق والفرص المتساوية.

تستحق الانشطة الخيرية للقفقاسيين الأردنيين، الرامية الى ايجاد ظروف ملائمة لعمل المؤسسات الاسلامية اهتمامنا. لقد كان القفقاسيون أول مجتمع يتبرع بقطع الأراضي لإقامة المساجد والمدارس في الأردن. هذه الهبات القفقاسية ذات الطبيعة الوقفية اصبحت كثيرة الى درجة  ان وزارة الاوقاف بدأت لاحقاً في استخدام هذه الاراضي الموقوفة لغايات تجارية. وهكذا، فقد شيدت وزارة الاوقاف شبكة من المتاجر على الاراضي التي وهبها القفقاسيون الى المجتمع الاسلامي لتخصيصها كمقبرة واقامت عليها سوق الخضار في عمان. كذلك، فقد باعت الوزارة نفسها جميع الاراضي التي وهبها القفقاسيون في مدينة وادي السير لاقامة مقبرة عليها، لإقامة مباني وانشاءات عليها. بنى أحد زعماء المجتمع الشركسي، وهو الحاج حسن مصطفى شركس، المعروف باسم " أبو درويش " مجمعاً دينياً رائعاً على الاشرفية، أعلى نقطة في عمان، يضم مسجداً ومدرسة دينية. يسمى هذا المبنى في العادة جامع ابو درويش ويشار اليه لجميع زوار العاصمة الأردنية بدون استثناء. كذلك شيدت جنت خان خورما، السيدة الشركسية البارزة، مسجداً في وادي السير على نفقتها الخاصة. قام الشراكسة بهدم المسجد الشركسي القديم الذي كان قائماً في حي الشابسوغ منذ القرن التاسع عشر، وشيدوا مكانه مسجداً جديداً رائعاً في بداية ثمانينات القرن العشرين. وهكذا يعكس شراكسة الاردن درجة عالية من القدرة السياسية، الاجتماعية والاكتفاء الذاتي. انهم يطبقون استقلالهم الثقافي بدون الاعلان عنه الى العموم. تعليم اللغة الشركسية والادب الشركسي، نشر الكتب حول التاريخ الشركسي، تعليم الرقصات القومية وأخيراً، يخططون لتأسيس متحف قومي غني بالتراث: كل هذه براهين مرئية على تطور الثقافة الشركسية في

المملكة الأردنية الهاشمية. لاتكتمل لائحة المساجد الشركسية الجديرة بالاهتمام اذا لم نذكر البناء الهائل الذي شيده الحاج احمد قاره، وهو من اصل ابزاخ، على أرضه الخاصة بين عمان ووادي السير. كذلك بني مسجدان آخران في حي المهاجرين القباردي. وهبت العائلات الشركسية قطع اراضي كبيرة لإقامة المساجد والمقابر عليها في كل مكان من: صويلح، جرش، ناعور، الرصيفة، الزرقاء، ووادي السير. يجب الإشارة هنا الى أن بناء المساجد في بلد مثل الاردن له صدى جماهيري واسع ويساعد على خلق صورة التسامح والأخوة مع المجتمع الشركسي. وقد داب جلالة المغفور له الملك الحسين على زيارة احتفالات افتتاح المساجد الشركسية، مبيناً علاقته الخاصة بالشراكسة.

يحتاج توصيف المشاكل المختلفة لشراكسة الأردن الى شخصنة النص، واشباعه بالسير الشخصية للأشخاص الذين اسهموا في ازدهار المجتمع الشركسي في هذا البلد البعيد عن القفقاس.

كما سبق وذكر، فان تكيف المهاجرين الشراكسة في هذا البلد قد مضى قدماً تحت القيادة المباشرة للجنرال مرزا باشا الذي كان في الخدمة العثمانية. قاد جميع الوحدات القتالية الشركسية في كل الحروب الداخلية ( ضد البدو والدروز ) والخارجية ( ضد الانجليز والفرنسيين ). قام الشراكسة تحت قيادته، بحماية الخط الحديدي من عمان وحتى تبوك. بعد وفاة مرزا باشا اصبح سعيد باشا المفتي زعيم الشراكسة في الأردن. حسب رأي بعض المراقبين، فقد كان سعيد باشا المفتي " الذراع الأيمن لجلالة الملك الحسين على مدى سنوات طويلة ". فقد شغل منصب رئيس وزراء الاردن مرتين عام ١٩٥٠، وللمرة الثالثة عام ١٩٥٥، ثم تبع ذلك تكليفه للمرة الرابعة عام ١٩٥٦. خلال حياته السياسية الطويلة المبهرة، أصبح نائباً في البرلمان للأعوام ١٩٢٤ – ١٩٣٤ ، رئيساً لبلدية عمان سنة ١٩٣٨، وزير داخلية عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥، وزيراً للاقتصاد عام ١٩٤٥، وزيراً للتجارة عام ١٩٤٧، وقام بمهام رئيس الوزراء مؤقتاً عام ١٩٥٣ و ١٩٥٧، وزيراً للدولة عام ١٩٦٣. اثناء فترة الانتداب كان نائباً في المجلس التشريعي من عام ١٩٢٩ وحتى ١٩٣٤، وخلال فترة الاستقلال اصبح رئيساً لمجلس النواب للأعوام ١٩٤٧ – ١٩٥١. أصبح كذلك عضواً في مجلس الأعيان من عام ١٩٦٠ الى ١٩٦٧، ورئيساً لمجلس الأعيان من عام ١٩٦١ وحتى العام ١٩٧٤.

عام ١٩٥٨، وبعد ابرام الوحدة مع العراق، انتخب سعيد باشا المفتي رئيساً " للمجلس العربي الموحد " بالإجماع، وكان هذا المجلس في جوهره البرلمان العربي المتحالف. تظهر

السيرة الذاتية لهذا الشركسي درجة النفوذ التي مارسها الشراكسة على تكوين قلب المؤسسة السياسية للمملكة الأردنية الهاشمية.

أصبح وصفي باشا مرزا رجل الدولة الثاني في الخمسينات والستينات، بعد سعيد باشا المفتي. بدأ وصفي باشا مرزا سيرته السياسية بمنصب وزير الزراعة عام ١٩٥٤. في الاعوام ١٩٥٩، ١٩٦٠، ١٩٦٦، و١٩٦٧ اصبح وزيراً للأشغال العامة، الشؤون البلدية، والدفاع الوطني. انتخب نائباً في البرلمان للاعوام ١٩٤٧ – ١٩٥٧، ١٩٥٢ – ١٩٥٦ و ١٩٦٣ – ١٩٦٨. ثم اصبح عضواً في مجلس الاعيان عام ١٩٧١ – ١٩٧٢، وعام ١٩٨٤. كذلك شغل منصب وزير الداخلية للأعوام ١٩٤٧ – ١٩٥٠، وعضوا في المجلس الاعيان عام ١٩٥٧ – ١٩٥٨. كان عمر حكمت رئيساً لشرطة دياربكر في العهد العثماني عام ١٩١٥، ثم قائداً لشرطة حلب عام ١٩١٨، بعدها أصبح رئيس محكمة يافا.

ثم تشكلت مسيرته السياسية في الاردن على النحو التالي: عام ١٩٢٣ أصبح قائداً للشرطة، وهو بذلك اول قائد شرطة. ثم رئيساً لمحكمة الاستئناف عام ١٩٢٦، اول وزير للعدلية للأعوام ١٩٣١ – ١٩٣٤، ثم وزيراً للزراعة والتجارة عام ١٩٤٤، ثم رئيساً للبلاط الملكي ومستشاراً لجلالة الملك عام ١٩٤٧. عضواً في البرلمان عام ١٩٤١ – ١٩٤٢، وأميناً لعمان عام ١٩٤٢.

اصبح عمر عبدالله دخقان وزيراً للزراعة عام ١٩٧٠، عضواً في المجلس الاستشاري عام ١٩٨٣، ورئيساً للمجلس الوطني للتخطيط عام ١٩٨٤. اصبح محمد علي رضا وزيراً للمواصلات عام ١٩٦٣، ثم وزيراً للدولة وعضواً في مجلس الاعيان للاعوام ١٩٦٤ – ١٩٦٩. أصبح سامي أيوب وزيراً للزراعة للاعوام ١٩٦٧، ١٩٦٩ و ١٩٧٠، ورئيساً للبلاط الملكي للاعوام ١٩٦٠ – ١٩٦٤. عبد القادر طاش كان وزيراً للمالية عام ١٩٧٠. زهير المفتي وزير الخارجية ١٩٧٣ – ١٩٧٤، وسفيراً حتى عام ١٩٨٥.

عز الدين المفتي مدير دائرة ضريبة الدخل من عام ١٩٥٣ الى ١٩٥٨. ووزير مالية عام ١٩٦٧. سعيد بينو ( شيشاني ) وزير الاشغال العامة للاعوام ١٩٧٦ – ١٩٧٩. مديراً لمؤسسة المياه عام ١٩٨١ – ١٩٨٢ وعضواً في المجلس الاستشاري عام ١٩٨٣. اصبح ينال عمر حكمت، نجل عمر حكمت المذكور سابقاً، رئيساً للتشريفات الملكية للاعوام ١٩٨٢ – ١٩٨٥. كان الحاج اسعد خليل رئيساً لبلدية عمان عام ١٩١٥، وعضواً في البرلمان للاعوام ١٩٣٤ – ١٩٣٧، وفوزي المفتي عضو المجلس التشريعي للأعوام ١٩٣٤ – ١٩٣٧ وكذلك من ١٩٤٢ الى ١٩٤٦. كان شمس الدين سامي جراندوقه، المحامي اللامع، عضواً في البرلمان عامي

١٩٢٩ – ١٩٣١. حسين خواجا ( ياخولا ) نائب للاعوام ١٩٣١ – ١٩٣٤ ، ١٩٤١ – ١٩٤٦، عضواً في مجلس الاعيان للاعوام ١٩٥٠ – ١٩٥٥، ورئيساً لبلدية وادي السير للاعوام ١٩٥٧ – ١٩٧٢. كان شوكت حميد نائباً في المجلس التشريعي عام ١٩٤١، عضو مجلس اعيان من ١٩٤٧ الى ١٩٥٠. قائداً للشرطة في عمان عام ١٩٢٥ ورئيساً لبلدية جرش عام ١٩١٠. انتخب رفعت المفتي نائباً في البرلمان من عام ١٩٦٧ الى.١٩٨٥

كما انتخب جميل ناورز شقم نائباً عام ١٩٥٨. انتخب عبد الكريم الخص نائباً للاعوام ١٩٥٤ – ١٩٥٦، وشغل مناصب عليا في الجيش والشرطة خلال فترة الإمارة. كان فواز ماهر برمامت جنرالاً في الجيش ورئيساً للاركان عام ١٩٦٠، ثم سفيراً. كان هناك سفراء آخرون، منهم: الدكتور شوكت المفتي، جمال خوتات، محمد علي خورما، وليد طاش، وطلال حكمت. عين كل من الدكتور عبد الحميد عمر وشاهر حسين باك وزيرين مفوضين. أصبح رشاد الحسن وكيلاً لوزارة المالية من العام ١٩٥٨ وحتى ١٩٧١. كان اسماعيل جانبك مديراً لفرع شركة بترول العراق في الاردن حتى الخمسينات.

انتخب سمير محمد علي قردن أميناً عاماً لاتحاد العمال الأردني عام ١٩٨٥. كما كان مولود عبد القادر رئيساً لديوان المحاسبة من ١٩٧٧ الى ١٩٨٠. اصبح الدكتور احمد شركس مديراً لمديرية المكتبات والأرشيف من ١٩٧٦ وحتى ١٩٨٥. نذير عمر بلقر محافظ العاصمة ١٩٧٥ – ١٩٧٦. الدكتور خالد الشامي ( شالاخوه ) وكيل وزارة الصحة من ١٩٧٣ وحتى ١٩٧٧. الفريق محمد إدريس، رئيساً لهيئة الاركان للاعوام ١٩٧٦ - ١٩٧٨، والسكرتير العسكري لجلالة الملك من ١٩٧٩ الى ١٩٨١. ومديراً للأمن العام ١٩٨٤.

عين اللواء عزت حسن قندور نائباً لرئيس الأركان عام ١٩٦١، ومديراً للأمن العام عام ١٩٦٩ - ١٩٧٠.

وصل انور محمد اسماعيل، المولود عام ١٩٢٩ لعائلة من البجدوغ في قرية السلمانية في مرتفعات الجولان الى رتبة فريق. بدأ حياته العسكرية كحارس شخصي لجلالة المغفور الملك الحسين عام ١٩٥٧. قاد الحرس الملكي للاعوام ١٩٦٤ - ١٩٦٩. ثم صار وزيراً للداخلية للأعوام ١٩٧٠ - ١٩٧٣، رئيساً للجمعية الخيرية الشركسية لعامي ١٩٨١ – ١٩٨٣، وعامي ١٩٨٦ - ١٩٨٧. زار قبارديا والأديغيه عدة مرات كرئيس لوفد الجمعية الخيرية الشركسية. تقلد عدة أوسمة رفيعة: اردنية، سعودية، فرنسية، المانية، سورية، ايرانية، صينية ورومانية. تولى العديد من الوظائف البارزة خلال سيرته العملية الباهرة، فقد أصبح لفترة وزيراً للبلاط الملكي. وصل محمود شابسوغ الى رتبة " فريق "، سكرتيراً عسكرياً، ثم مديراً لسلطة

العقبة. محمد اسحق هاكوز، عقيد: رئيس لجنة الهدنة المشتركة في القدس من عام ١٩٤٨ الى ١٩٥٧: آمر كلية الأركان الملكية عام ١٩٥٨، قائد سلاح المدفعية الملكية عام ١٩٥٨ - ١٩٦٠. ملحق عسكري في واشنطن ١٩٦٠ - ١٩٦٢، تم ترفيعه الى رتبة لواء عام ١٩٦٢. ملحق عسكري في لندن ١٩٦٢ -١٩٦٤، وعضو هيئة الاركان العامة في عمان ١٩٦٢، وسكرتير عسكري عام ١٩٦٢.

تحسين حميد شردم، مولود عام ١٩٤٢، تخرج من مدرسة المرشحين واكاديمية العلوم العسكرية في الزرقاء، اتم تدريبه العسكري في الولايات المتحدة وتخرج عام ١٩٧٣ من كلية الأركان العامة للمملكة الأردنية الهاشمية. شارك كذلك في العمليات العسكرية في جبال ظفار، سلطنة عمان، كقائد كتيبة قوة التدخل السريع. كان ملحقاً عسكرياً في الولايات المتحدة برتبة عميد. أصبح عامي ١٩٨٩ - ١٩٩٠ قائداً الفرقة الآلية الرابعة برتبة لواء. ثم نائباً لرئيس هيئة الأركان المشتركة برتبة فريق. ومديراً للأمن العام من ٢٠٠١/١/٣ برتبة فريق أول.

مأمون خليل، جنرال. مديراً لشؤون الضباط ١٩٧٧ – ١٩٧٩، ومديراً للأمن العام ١٩٨٠ – ١٩٨١. الجنرال محمد بشير، مساعد رئيس هيئة الاركان ورئيس هيئة التنظيم والتطوير والتخطيط عام ١٩٧٦. وزيراً للزراعة عام ١٩٨٥. اللواء ابراهيم عثمان، قائد سلاح الجو عام ١٩٦٤. وليد شرف الدين، عميد، قائد سلاح الجو ١٩٧١ - ١٩٧٣. العقيد محمود جمال بلقز، مدير عام الخطوط الجوية الملكية عام ١٩٨٤. محمد علي الأمين، نائب مدير هيئة الأمن العام ١٩٨١ – ١٩٨٤. ونائباً لرئيس الاركان ١٩٨٥. حسني شقم نائب مدير الدائرة المالية والاقتصادية للقوات المسلحة الأردنية ١٩٦٠ - ١٩٧٩. الفريق ذياب يوسف نائب مدير الأمن العام عام ١٩٧٩، قائد شرطة العاصمة ١٩٧٠ - ١٩٧٥ ومدير الأمن العام ١٩٨٤ - ١٩٨٥.

جلال غازي خوتات، ولد عام ١٩٣٠ في عمان، تخرج من جامعة القاهرة، انهى دراسته العليا في جامعة ييل عام ١٩٥٨ واصبح وكيل وزارة المالية. ترأس الدائرة المالية والاقتصادية للقوات المسلحة الأردنية من عام ١٩٦٥ وحتى ١٩٩٩. وصل رتبة فريق عام ١٩٧٩. أنهى عوني مدار وهو قباردي من عائلة قاله، ( ١٩٤٥ - ١٩٩٤ ) مساقات دراسية خاصة في بريطانيا والولايات المتحدة، عين ملحقاً عسكرياً في فرنسا للاعوام ١٩٨٥ – ١٩٨٨، وصل الى رتبة لواء وأصبح قائداً لسلاح الجو الملكي عام ١٩٩٣. شغل العقيد احمد بيسلان مناصب هامة في الأمن العام خلال فترتي الإمارة والمملكة. احمد رمزي كان ضابطاً برتبة رفيعة في حقبة

الإمارة. كان محمد جانبك قائد شرطة عمان للاعوام ١٩٣٣ – ١٩٣٥، ورئيس بلدية ناعور عامي ١٩٦١ – ١٩٦٢. دافع الشيخ عمر لطفي المفتي عن اطروحته في جامعة استنبول، وكان يلقي محاضرات في جامع السلطان محمد الفاتح بأمر من السلطان عبد الحميد الثاني. بعد وصول حزب الاتحاد الى السلطة، انتقل الى الاردن، حيث أسس معهداً دينياً عام ١٩٢١، وتقاعد عام ١٩٤٤. كان الشيخ زكريا خورما مسؤولاً بارزاً في المحاكم الشرعية اثناء فترة الإمارة وحتى العام ١٩٤٢. دافع الشيخ انور اسماعيل عن اطروحته حول التشريع الاسلامي في جامعة الأزهر بالقاهرة وأصبح رئيساً لمحكمة الاستئناف الشرعية من عام ١٩٧٩ وحتى ١٩٨٥. سامي شمس الدين جراندوقه: مدعي عام الدولة عام ١٩٦٦، وكان قبلها رئيساً للمحكمة العسكرية. وكان عمر اباظه رئيس محكمة البداية عام ١٩٨٥. شغل اسماعيل صفر بابوق منصب رئيس بلدية عمان عام ١٩٠٩. شغل نفس المنصب احمد الخطيب عام ١٩١١. ثم ايوب فخري عام ١٩٢٠. أصبح رشيد احمد بيوك رئيساً لبلدية وادي السير من عام ١٩٤٨ – ١٩٥٥. وقبله كان ابراهيم يوسف خواجا رئيساً لبلدية وادي السير عام ١٩٣٠. كما شغل يوسف بجدوغ المنصب ١٩٥٥ – ١٩٥٧. وظل حسني صوبر رئيساً لبلدية وادي السير من عام ١٩٧٢ وحتى ١٩٨٥. كما كان مراد الحجي رئيساً لبلدية جرش من عام ١٩٣٧ وحتى ١٩٥٤. كذلك محمد علي رمضان عام ١٩٧٩، ورشيد حميد من ١٩٥٤ الى ١٩٦١. اصبح موسى بينو، وهو شيشاني، رئيس بلدية صويلح من عام ١٩٥٦ الى ١٩٧٢، ومرة أخرى عام ١٩٨١. اصبح اسحق يوسف حابوخ رئيساً لبلدية ناعور عام ١٩٧٩. وعز الدين شعيب رئيساً لبلدية الرصيفة من عام ١٩٦٧ –١٩٧٦.

ولد الدكتور شوكت المفتي حبجوقه في عمان عام ١٩٠٥، انهى دراسته الثانوية في دمشق. وهو خريج كلية فريدريك فيلهيلم الطبية في برلين. طبيب عيون ويحمل شهادة الدكتوراه في العلوم.

كان سفيراً للمملكة في الجمهورية التركية من عام ١٩٦٢ – ١٩٦٥، وكان الى جانب لغته الشركسية يتقن اللغة العربية، ويتحدث الالمانية، الفرنسية، الانجليزية والتركية بطلاقة.

بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٥٧، انتخب رئيساً للجمعية الخيرية الشركسية سبع مرات.

ترجم كتاب " تاريخ شعب الأديغة " لشورا بكمرزا نوغمو عن الالمانية الى العربية ونشره في عمان عام ١٩٥٣. هو مؤلف كتاب " أباطرة وأبطال في التاريخ الشركسي" الذي نشر باللغة العربية في القدس عام ١٩٦٢، وبالانجليزية في بيروت عام ١٩٧٢، وبالروسية في نالتشك عام

١٩٩٤، كذلك ألف الكتاب المتخصص " اللغويات الشركسية " الذي كتبه بالألمانية ونشره في هايدلبرج بالمانيا عام ١٩٧٨.

يجب أيضاً القاء بعض الضوء على الناحية السياسية من العلاقة التبادلية بين الشركسي في الاردن والجماعات الإثنية المحيطة به. ايقظت الاشتباكات المستمرة مع اسرائيل مشاعر وطنية متطرفة لدى الفلسطينيين في أواخر الاربعينات. وقد غذت هذه المشاعر الدعاية المعادية للصهيونية. اصبح الصراع الذي تبع ذلك ضد الصهيونية و" النفوذ الامريكي الذي يدعمها " عقيدة لدى عدد كبير من الفلسطينيين، الذين هرب العديد منهم الى الاردن واستقروا فيه. على أية حال، عندما دمَّر الجيش الاسرائيلي القرى الشركسية في مرتفعات الجولان عام ١٩٦٧، فقد انضم بعض الشراكسة الى الجماعات الفدائية.

في النهاية، اخضع المتطرفون، ونودي بالأمير طلال، النجل الاكبر للملك الشهيد، ملكاً على العرش. عزله البرلمان الأردني نتيجة مرضه واعلن عن نجله الاكبر الحسين بن طلال ملكاً على البلاد يوم الثاني من أيار عام ١٩٥٢. جلب حكمه الإزدهار الاقتصادي والتقدم الثقافي الى البلاد، وهو أمر اعترف به القاصي والداني. لكن وقعت احداث في حزيران عام ١٩٦٧، كادت أن تسقط الحكومة.

فقد احتلت اسرائيل الضفة الغربية من نهر الاردن وطردت منها حوالي نصف مليون فلسطيني. نتيجة للحربين، بلغ عدد المهجرين الى الاردن اكثر من مليون. رغم ان اغلبيتهم كانوا مواطنين يحملون الجنسية الأردنية. ملأ تدفق الفلسطينيين جميع البلدات الشركسية: صويلح، الزرقاء، عمان، الرصيفة، ناعور، جرش ووادي السير، فأصبح الشراكسة اقليات في هذه القرى التي أسسوها.

في هذه الفترة، اصبح الاردن رهينة للتضامن العربي. فقد ساندت كل من سوريا، المملكة العربية السعودية، العراق ومصر منظمة التحرير الفلسطينية وزعيمها ياسر عرفات بلا تحفظ. رغم ذلك، فقد اجبرت المملكة الأردنية، التي اصبحت مناطقها معسكراً للعديد من التنظيمات الفلسطينية المسلحة بدرجة كبيرة، على تحمل جميع الصعوبات الاقتصادية والسياسية التي سببها نزوح الأمة الفلسطينية بأسرها.

تأزمت العلاقة ما بين المنظمات الفلسطينية والحكومة الأردنية وتعاظمت الى الحد الاقصى في صيف عام ١٩٧٠. أصدر الملك حسين مرسوماً يوم الحادي عشر من شباط عام ١٩٧٠، يمنع المسلحون الفلسطينيون بموجبه من حمل السلاح خارج حدود مخيماتهم

ومعسكراتهم. نصب بعض المقاتلين الفلسطينيين كميناً للملك الحسين في صويلح يوم السابع من تموز، قتل فيه سائقه وبعض حراسه لكن الناجين تمكنوا من انقاذ مليكهم وايصاله الى عمان. جرت محاولة أخرى على حياة الملك الحسين يوم الأول من ايلول عام ١٩٧٠. ارغمت هذه الأحداث المأساوية الدولة وكل الأردنيين على التدخل دفاعاً عن الملك واستقلال الأردن.

يوم ١٦ أيلول، أقال الملك الحكومة وشكل حكومة عسكرية قوامها اثني عشر من كبار الضباط.

عين العميد محمد داود، وهو فلسطيني، رئيساً لها. لكن السلطة الحقيقية منحت للمشير حابس المجالي، الذي منح منصب الحاكم العسكري للأردن.

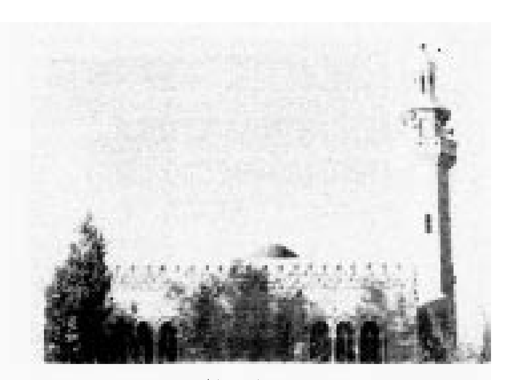
خلال هذه الفترة الحرجة وضع الملك الحسين ثقته المطلقة في الشراكسة وعينهم في أعلى مناصب حكومته.

على سبيل المثال، عيَّن الجنرال عزت حسن ( قندور ) في منصب مدير الأمن العام، وقد شغل هذا المنصب في العام ١٩٧٠. في ايلول من عام ١٩٧٠، كان المرافق العسكري للملك الحسين هو الجنرال انور باشا محمد ( غوتوكه )، وهو شركسي. وكان الفريق محمود شابسوغ، السكرتير العسكري. في نفس الوقت كان رئيس مجلس الاعيان هو سعيد باشا المفتي ( حبجوقه ) وهو أبرز شراكسة الأردن. ربما أحسَّ هؤلاء بأنهم مدينون للملك الحسين بهذا الولاء، فقد ارضعته سيدتان شركسيتان في طفولته.

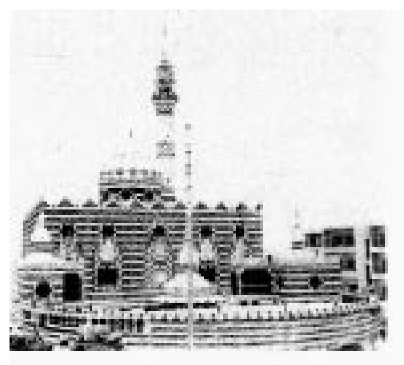
من المهم هنا ملاحظة أن كبار مسؤولي الشراكسة – انور محمد، كير المرافقين، وعزت حسن، مدير الأمن العام – لم يكونا شخصين عاديين في المجتمع بأي مقياس. فقد كان كلاهما يتحدث الشركسية بطلاقة، مستخدمين اللهجتين القباردية و ( الكياخ ) بنفس السهولة. لقد زار انور محمد ( غوتوقوه ) البجدوغ، القفقاس مرات عديدة، وكان عزت حسن ( القباردي ) فخوراً بحقيقة ان اسلافه ينحدرون من قرية بلاشه بسنه في الأديغيه. اختار نجله محي الدين قندور، الكاتب والمؤرخ البارز، ان يدرس تاريخ الشراكسة تحت تأثير والده، الذي شجعه على ان يؤلف كتاباً صادقاً عن مأساة الشراكسة.

من الناحية الأخرى، فقد ظل الملك حسين يتذكر على الدوام دفاع الشراكسة عنه وعن عائلته. ان التنشئة التي قدمها لولده الأمير علي، حسب التقاليد الشركسية والآداب الرفيعة، تتحدث بمنتهى الفصاحة عن التقدير العالي الذي يكنه الملك للشراكسة بشكل عام.

## بعض المساجد والشخصيات الشركسية البارزه في الاردن:



مسجد وادي السير



مسجد ابو درويش في الاشرفية، عمان



شمس الدين سامي
نائب ١٩٢٩ – ١٩٣١ – محامي



عمر حكمت
قائد شرطة دياربكر ١٩١٥، حلب ١٩١٨



الحاج اسعد خليل ( حمدوخ )
رئيس بلدية عمان عام ١٩١٥
نائب ١٩٣٤ – ١٩٣٧



شوكت حميد
نائب في المجلس التشريعي عام ١٩٤١. عضو مجلس الاعيان ١٩٤٧– ١٩٥٠



فوزي المفتي ( حبجوقه )
نائب في المجلس التشريعي
١٩٣٤ – ١٩٣٧ و ١٩٤٢ – ١٩٤٦



حسين خواجا ( ياخولا )
نائب ١٩٣١ – ١٩٣٤، ١٩٤١ – ١٩٤٦.
عضو مجلس الاعيان ١٩٥٠– ١٩٥٥.
رئيس بلدية وادي السير ١٩٥٧ – ١٩٦٢



عز الدين المفتي ( حبجوقه )
وزير المالية ١٩٦٢ — ١٩٦٣
وعام ١٩٦٧



عباس مرزا باشا
وزير الداخلية ١٩٤٧ — ١٩٥٠
عضو مجلس الاعيان ١٩٥٧ — ١٩٥٨



الدكتور شوكت المفتي (حبجوقه)
وكيل وزارة الصحة. سفير



رشاد الحسن
وكيل وزارة الشؤون البلدية
١٩٥٧ — ١٩٥٨



عبد الكريم الخص
نائب ١٩٥٤ — ١٩٥٦
ضابط برتبة رفيعة في الجيش
والشرطة ايام الإمارة



اسماعيل جانبك
مدير عام شركة البترول العراقية
في الاردن ١٩٥٤ — ١٩٥٥



فواز باشا ماهر ( برمامت )
جنرال، رئيس هيئة الاركان ١٩٦٠
سفير



جميل ناورز شقم
نائب ١٩٥٨



عبد القادر طاش
وزير المالية ١٩٧٠
نائب ١٩٥٧



سامي أيوب تيف
وزير الزراعة ١٩٦٧، ١٩٦٩
و ١٩٧٠. رئيس الديوان الملكي
١٩٦٠ — ١٩٦٤



عيسى طماش
قاضي ١٩٦٥ — ١٩٦٧
مدير ضريبة الدخل ١٩٦٧ — ١٩٧٣
مستشار في رئاسة الوزراء



قاسم بولاد
نائب ١٩٦٢ — ١٩٦٣
رئيس بلدية الزرقاء ١٩٤٧ — ١٩٦٥
و ١٩٧١ — ١٩٧٢



محمد علي رضا
وزير المواصلات عام ١٩٦٣
وقبلها سكرتير الحكومة وعضو
مجلس الاعيان ١٩٦٤ — ١٩٦٩



وصفي مرزا
وزير الزراعة، الشؤون الاجتماعية،
البلديات، الاشغال العامة، عضو
مجلس الاعيان من ١٩٧٤ — ١٩٨٤



رفعت المفتي (حبجوقه)
نائب ١٩٦٧ — ١٩٨٥



زهير المفتي (حبجوقه)
وزير الخارجية ١٩٧٣ — ١٩٧٤
سفير ١٩٨٥



الدكتور خالد الشامي ( شحالاخوه )
وكيل وزارة الصحة
١٩٧٣ — ١٩٧٧



عمر عبدالله دخقان
وزير الزراعة ١٩٧٠. مدير سلطة
قناة الغور الشرقية حتى ١٩٨٢.
عضو المجلس الاستشاري عام ١٩٨٣.
رئيس المجلس الوطني للتخطيط
عام ١٩٨٤



الدكتور احمد شركس
مدير عام دائرة المكتبات
والوثائق والارشيف
١٩٧٦ — ١٩٨٥



نذير عمر بلقر
محافظ العاصمة
١٩٧٥ — ١٩٧٦



سعيد بينو وزير الاشغال العامة
١٩٧٦ — ١٩٧٩. وكيل وزارة
الاشغال العامة ١٩٦٢ - ١٩٧٦
مدير مؤسسة المياه ١٩٨١ — ١٩٨٢
عضو المجلس الاستشاري ١٩٨٣



المهندس اسحق علي رضا
مستشار التصميم والتخطيط
وزارة البلديات ١٩٨٥



سمير محمد علي قردن
الامين العام لاتحاد نقابات
عمال الاردن ١٩٨٥



مولود عبدالقادر ناغوج
مدير ديوان المحاسبة
١٩٧٧ — ١٩٨٠



المهندس احمد مجيد دخقان
نائب رئيس سلطة المصادر الطبيعية
١٩٨١ — ١٩٨٤، وكيل وزارة الشؤون
البلدية والقروية. وزير الزراعة



محمد علي وردم
وكيل وزارة الشؤون الاجتماعية
١٩٨١ — ١٩٨٥



يوسف علي بوران
امين عام الديوان الملكي
١٩٧٦ — ١٩٨٣. مدير
مستشار مكتب سمو ولي العهد



الدكتور وليد طاش
سفير



الحاج حسن مصطفى
شركس (ابو درويش) بنى مسجد ابو
درويش في الاشرفية عمان



ينال عمر حكمت
رئيس التشريفات الملكية
١٩٨٢ — ١٩٨٥



محمد علي خورما
سفير



جمال خوتات
سفير



عبد الحميد عمر
وزير مفوض



شاهر حسين باك
وزير الخارجية



طلال حكمت
سفير

## بعض الشراكسة في الجيش والأمن العام في الاردن



محمد جانبك
نائب قائد شرطة عمان ١٩٣٣ – ١٩٣٥ رئيس بلدية ناعور ١٩٦١ – ١٩٦٢



المقدم احمد بسلان
الضابط الأعلى رتبة في حقبتي الإمارة والمملكة



نائب القائد احمد رمزي
الضابط الأعلى رتبة في الجيش والشرطة أيام الإمارة



حسني شقم
لواء. مساعد المدير المالي القوات المسلحة الاردنية ١٩٦٠ – ١٩٧٩



ابراهيم عثمان
لواء. قائد سلاح الجو الاردني ١٩٥٦ – ١٩٦٢



عوني مدار ( قاله )
لواء. قائد السلاح الجو الاردني ١٩٩٣



انور محمد اسماعيل
فريق. المرافق الخاص لجلالة الملك الحسين. قائد الحرس الملكي الخاص رئيس الديوان الملكي. ومستشار عسكري ١٩٥١ – ١٩٧١ مدير الأمن العام ١٩٧١ – ١٩٧٦



وليد شرف الدين
مقدم. قائد سلاح الجو الاردني ١٩٧١ – ١٩٧٣



جلال خوتات
فريق. المدير المالي للقوات المسلحة الأردنية ١٩٦٥ – ١٩٨٥



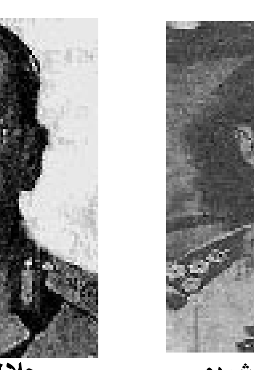
**اللواء محمد اسحق (هاكوز)**
رئيس لجنة الهدنة المشتركة في القدس (١٩٤٨ - ١٩٥٧). قائد كلية الأركان. قائد سلاح المدفعية ١٩٥٨ ١٩٦٠-. السكرتير العسكري ١٩٦٢. ملحق عسكري في واشنطن ١٩٦٠ - ١٩٦٢، في لندن ١٩٦٢ ١٩٦٤-.



**عزت حسن قندور**
لواء، مساعد رئيس هيئة الأركان ١٩٦١. مدير الأمن العام ١٩٦٩ - ١٩٧٠.

**تحسين حميد شردم**
فريق أول. مدير الأمن العام

**إحسان حميد شردم**
فريق. قائد سلاح الجو الأردني ١٩٨٤.





**جلال غازي خوتات**
فريق أول. القوات المسلحة الأردنية.

**أنور محمد إسماعيل (غوتوق)**
فريق. القوات المسلحة الأردنية



**محمد بشير**
فريق. مساعد رئيس الاركان للتنظيم والتطوير والتخطيط ١٩٧٦. وزير الزراعة ١٩٨٥.

**محمود شابسوغ**
فريق. السكرتير العسكري ١٩٧٠. رئيس سلطة العقبة



**ذياب علي يوسف**
فريق. قائد شرطة عمان ١٩٧٠ - ١٩٧٥. مساعد مدير الأمن العام ١٩٧٨. محافظ ١٩٨١ - ١٩٨٢. مدير الأمن العام ١٩٨٥.





محمد علي الأمين

جنرال. مدير الأمن العام

١٩٨١ – ١٩٨٤



محمد ادريس

فريق. رئيس هيئة اركان القوات المسلحة ١٩٧٦ – ١٩٧٨ سكرتير عسكري لجلالة الملك الحسين ١٩٧٩ – ١٩٨١. مدير الامن العام



مأمون خليل

محافظ ١٩٧٧ - ١٩٧٩

مدير الأمن العام ١٩٨٠ – ١٩٨١



**رئيس الوزراء مع ثلاثة جنرالات – كلهم شراكسة من الاردن**

**هم من اليسار الى اليمين: ١ – ابراهيم كشوقه، لواء، ٢ – فواز ماهر برمامت، لواء، كان حاكماً لنابلس، سفيراً في تركيا، العراق والصين ( تايوان ) ورئيساً للجمعية الخيرية الشركسية في عمان لعدة مرات. ٣ – سعيد باشا المفتي (حبجوقه ) كان نائباً في البرلمان لإمارة شرق الاردن ( -١٩٢٩ ١٩٣٤ ). رئيس بلدية عمان ((١٩٣٨ ترأس، وزراة التجارة ( ١٩٤٣ )، وزارة الداخلية ( ١٩٤٤ – ١٩٤٩ ) والاقتصاد ( -١٩٥٥ ١٩٥٦ ). كان نائباً لرئيس البرلمان ( ١٩٤٧ – ١٩٥١ )، عضواً في مجلس الاعيان ( ١٩٦٠ – ١٩٦٧ ) ورئيساً لمجلس الاعيان ( ١٩٦١ - ١٩٧٤ ) و ٤ – عزت حسن قندور. حاكم القدس، رئيس اركان الجيش العربي، ورئيس الجمعية الخيرية الشركسية في عمان.**

إن تاريخ الامير علي نجل الملك الحسين، والذي تكشف امامنا خلال سنوات سبعة، يوضح بامتياز اهتمامه بالشراكسة عموماً. تعلم اللغة الشركسية، انهمك في مشاكل الشراكسة الإثنية، ودرس التاريخ الشركسي. يعِّرف الامير علي نفسه على الصعيد الإثني مع الشعب الشركسي، فقد أعلن لمراسل " نيزا فيزيمايا "( الصحيفة المستقلة ) " اهتمامي بشمال القفقاس لا يمكن اعتباره عرضياً. اكثر من ذلك، فأنا الحفيد الثاني والاربعين للرسول

محمد (صلعم) ويتوجب علي الاعتناء بالمسلمين في كل انحاء العالم ".

الأمير علي محاط في في الاردن باصدقاء شراكسة، ويدعم المشاريع الثقافية الهادفة الى الانتشار الشعبي للفنون والحرف الشركسية التقليدية. إن الحفاظ على اللغة الشركسية في الشتات وتسهيل اجراءات اعادة التوطين هي المهمات الاكثر أهمية لدى سمو الأمير. قام عام ١٩٩٨ بعمل اعلامي كبير لتدعيم تلك المهمة على نطاق واسع – بمسيرة على الخيل من عمان الى مايكوب ومنها الى نالتشك. قطع الأمير علي ومعه حوالي عشرين من اصدقائه الشراكسة، المجهزين بشكل كامل حسب عادة الشراكسة القدماء، رحلة معقدة عبر الاردن، سوريا وتركيا وصولاً الى القفقاس. تلقى هذا العمل صدى واسعاً في تركيا وروسيا، خاصة في تركيا، حيث يعيش اكثر من ثلاثة ملايين شركسي.

قدمت جميع وسائل الاعلام تغطية يومية عن مسيرة الفروسية للأمير علي ورفاقه الشراكسة.

وفي كل مرة، كانت وسائط الإعلام تذكر مشاكل الشعب الشركسي ومأساة الطرد الشركسي من وطنه الأم في اعقاب الحرب الروسية – الشركسية.

اطلق الأمير علي تصريحات في منتهى الجدية في كل من تركيا والأديغيه، أقرها جلالة الملك الحسين. شدد على الوضع المقسم للأمة الشركسية في وطنهم الأم التاريخي، وأنه اجحاف تاريخي شديد وانه يجب بذل الجهود لتوحيد قبارديا، تشيركيسيا والأديغيه. شارك الأمير علي في صيف العام ١٩٩٦ في المؤتمر الثالث للجمعية الشركسية الدولية في تشيركيسك. كتبت مارييتا خوشت: " شاهد برنامج الفرقة الراقصة " كباردينكا " عدة مرات. لم يستطع ان يكبح حماسه واندفاعه الشبابي. لم يستطع ان ينزع نظرته المسحورة عن المسرح. " الواضح أن التحفظ النبيل للفرسان الشراكسة قد انتقل اليه من والده. بعد عودته الى الوطن، تذكر الأمير فرقة "كباردينكا" ولم يضيع فرصة دعوة فرقة "نالميس" الراقصة من الأديغيه الى القصر الملكي.

توضح كل الحقائق المذكورة آنفاً الاحترام المتبادل القائم بين الشراكسة والعائلة الملكية في الاردن. من الناحية الأخرى، فان تاريخ المجتمع الشركسي في الاردن يصلح كنموذج لسلوك الشراكسة في الشتات، وقادر على أن يوفر مادة غنية جداً ومثيرة للإهتمام لدراسة تاريخهم. اقل ما يمكن قوله هو أن الحضور الشركسي في الاردن، الاقلية الاثنية في هذا البلد، نال قدراً عالياً من المراتب الاجتماعية والسياسية. وقد ساهمت طموحاتهم المماثلة في تشكيل الدولة المستقلة الجديدة - المملكة الاردنية الهاشمية.

## الشراكسة في سوريا

إن شتات الشراكسة في سوريا هو ثاني مجتمع في الخارج من حيث الحجم. ومع ذلك، فاننا لا نستطيع ان نلقي الضوء الملائم على الاسهامات والخدمات التي قدموها لبلدهم الجديد، بسبب عدم كفاية الأدلة الأدبية المكتوبة.

تظهر عدة مصادر أن الشراكسة جاءوا الى هنا في مجموعات منفصلة واوقات مختلفة. يقول محمد خير حغندوقه أن مجموعة الشابسوغ الأولى وصلت الى عمان عام ١٨٦٨. حسب رأي الدكتور شوكت المفتي، فقد جاء قسم صغير من الشراكسة الذين اعيد توطينهم من البلقان الى الاناضول عام ١٨٧٧، الى سوريا والأردن حيث اقطعتهم السلطنة العثمانية أراضي زراعية ليعتاشوا منها. يشير نهاد برزج الى بعض اسباب اعادة التوطين هذه. يقول إن المعاهدات الموقعة بعد الحرب في سان ستيفانو (يوم الثالث من آذار عام ١٨٧٨) وبرلين (١٣ تموز ١٨٧٨) كانت تحتوي على نقطة أدخلت فيها باصرار من روسيا حول "ضرورة طرد الشراكسة من البلقان وإعادة توطينهم بعيداً عن الحدود الروسية – التركية".

نتيجة لذلك، بدأت الحكومة العثمانية تخلي الشراكسة من البلقان، حيث عاشوا من عام ١٨٥٩ وحتى ١٨٧٦، وترسلهم الى الاناضول والشرق الأدنى.

الشابسوغ هم أول من غادر تركيا على ظهر سفينة اشتعلت فيها النيران اثناء ابحارها. الأمر الذي أدى الى وفاة ٧٠٠ شخص منهم. حملت السفينة " سفينكس " المسجلة لدى مؤسسة " لويدز " النمسوية في آذار من عام ١٨٧٨ ثلاثة آلاف شخص على متنها من مرفأ كافالا البلقاني وابحرت بهم باتجاه ميناء اللاذقية السوري. اثناء ابحارها مروراً بقرية ماجوس في جزيرة قبرص، سحب الإعصار اربعين شخصاً عن سطحها. ثم اشتعلت النيران بالسفينة وكانت الحصيلة وفاة ستمائة شخص من الركاب.

حسب البيانات الرسمية، فقد تجمع في استنبول ١٨٠ الف شخص في شهر آذار عام ١٨٧٨، تمهيداً لتوزيعهم في امكنة أخرى، بينما ارسل ٥٠ الف شخص منفي مسبقاً من العاصمة الى اقاليم أخرى من الامبراطورية. من بين المهاجرين الذين أخرجوا من البلقان قبل السادس عشر من نيسان ١٨٧٨، أرسل الى دمشق ما لايقل عن ٢٥ الف شخص، معظمهم من الشراكسة. ويرتفع الرقم الى مائة الف شخص حسب مصادر أخرى.

كانت اعداد المنفيين الذين تم تسليمهم الى الموانئ في سوريا، من شباط وحتى آب عام ١٨٧٨، كما يلي:

| | |
|---|---|
| ٢٨ شباط، بيروت | ١،٠٠٠ شخص ( ارسلوا الى دمشق ) |
| ٢٨ شباط عكا | ١،٥٠٠ شخص ( ارسلوا الى نابلس ) |
| ٢٨ شباط طرابلس الشام | ٢،٠٠٠ شخص |
| ٣ آذار اللاذقية | ١،٣٠٠ شخص |
| ٤ آذار حماه، حمص | ١٠،٠٠٠ شخص |
| ٨ آذار اللاذقية | ٢،٥٠٠ شخص |
| ٣١ آذار طرابلس الشام | ٥،٠٠٠ شخص ( ارسل قسم منهم الى انطاكية) ) |
| ١١ تموز حيفا | ٤٨٢ شخص ( من الناجين من حريق سفينكس ) |
| ١٧ تموز عكا | ١،٢٠٠ شخص |
| ٣١ آب بيروت | ١،٢٠٠ شخص ( ارسلوا الى حماه و حمص ) |
| المجموع | ٢٦،١٨٢ شخص |

يجب ان يكون هذا الرقم أعلى بكثير لأن اعادة توطين الشراكسة استمرت في نيسان وحزيران من تلك السنة، لكن لم يعثر على وثائق ذينك الشهرين بعد. يقول مصدر آخر " جاءت الموجة الثانية من التهجير من البلقان في آب، ١٨٧٨: سلك ١٢٠٠ شركسي طرق سالونيك – استنبول – سوريا واستقروا في حماه وحمص. استمرت موجة التهجير وارتفع عدد السكان الشراكسة في سوريا الى ٧٠،٠٠٠ شخص في ذلك الوقت ".

وجدت خطة عام ١٨٧٩ لإرسال عشرة آلاف عائلة شركسية الى حلب، وخمسة آلاف عائلة أخرى ( معظمهم مهجرون جدد من القفقاس ) – الى مناطق أخرى من سوريا. اضافة اليهم، انشئت أولى المستعمرات الشركسية في القنيطرة وحمص عام ١٨٧٢.

اذا اخذنا بالاعتبار المعلومات الآنفة اضافة الى عملية التوطين المطّولة، يمكن الافتراض بدرجة معقولة أنه اعيد توطين اكثر من ٦٠،٠٠٠ شركسي منفي في اقاليم مختلفة من سوريا منذ العام ١٨٧٢ وحتى ١٩١٠. مازال العديد من القرى التي اسست في ذلك الوقت قائماً حتى اليوم. وهي:

أ – على المرتفعات الجولان: القنيطرة، المنصورة، عين زوان، القحطانية، العدنانية، ممسية، بيرعجم، البريقة، الجويزه، الخشنية، الفحام و الفرج.
ب – في منطقة حوران: بيدان وبليي.
ج – قرب مدينة حمص: عين زات، عسيلة، تل عمري، تليل، ديرفول، تل سنان،ديرعجيل، ميريش.
د – في منطقة حلب: منبج، الخناصر، عين دكنه، والرقة.
ه – في منطقة الجزيرة (القامشلي): رأس العين، صفخ، المجيربة، تل دياب (قرى شيشانية).
و – منطقة دمشق: مرج السلطان.
ز – منطقة دير الزور ومدينة السويداء: هجرها الشراكسة بمرور الزمن، والقسم الذي ظل فيها، ذاب بين السكان.

يقول الدكتور شوكت المفتي أن الشيخ خليل المجالي اعطى مدينة الكرك الى الدولة العثمانية عام ١٨٩٢، والتي اصبحت فيما بعد تابعة لدمشق مباشرة. اول حاكم عينه العثمانيون لتلك المنطقة هو حسين حلمي باشا. وضع في الكرك حامية قوامها ٢٠٠ فارس شركسي وثلاث كتائب من الجنود الاتراك يبلغ مجموعها حوالي ١٥٠٠ جندي، الأمر الذي ادى الى استتباب الطمأنينه والأمن في تلك المنطقة بدون إرقة الدماء. أقرب الجيران للشراكسة في مرتفعات الجولان كانوا الدروز بقيادة الامير كينج، وقبائل الروله، العنيزه وغيرها من البدو. وقد دأبوا على مهاجمتهم. كثيراً ما اضطر شراكسة الاردن الى الحضور لدعم أقاربهم في سوريا بالرجال والسلاح.

كتب س. خوتكو مثالاً على احدى هذه الاحداث: بعد أن أخمد الشراكسة عصيان أهل الكرك، تم تعيين ضباط شراكسة حكاماً للكرك، إربد، السلط وعجلون. اثناء وجود القوة الشركسية في الكرك، وصلت انباء من مرتفعات الجولان تفيد بان قبائل الدروز قد هاجمت القرى الشركسية في الإقليم. قام مرزا باشا ومحمد افندي حبجوقه بتنظيم حملة من شراكسة عمان لمساعدة اخوتهم الذين يمرون بمحنة. سارع العديد من الفرسان، من ابناء القرى الشركسية في الاردن بالتطوع والانضمام الى الحملة. كذلك قابلهم عدد من اللاجئين على الطريق. قامت الكتيبة الشركسية، والمتطوعين الذين انضموا اليها، بسحق قسم كبير من الدروز الغزاة في منطقتي مجدل شمس وعين زوان.

وصل خسرو باشا الى مرتفعات الجولان قبل انتهاء العملية الحربية وأنَّب مرزا باشا لقيامه بهذه العملية غير المصرح لها، والتي لم تسمح بها السلطات العثمانية، وأمره بسحب الفرسان الشراكسة من مرتفعات الجولان والعودة بهم الى عمان. إنصاع مرزا باشا وفرسانه للأوامر، لكنهم تركوا جميع الأسلحة والذخائر التي امكنهم الاستغناء عنها والتي كانت بحوزتهم في الجولان حتى يتمكن الشراكسة المحليون من الدفاع عن انفسهم بها.

عندما قام الدروز بمهاجمة احدى القرى الشركسية في مرتفعات الجولان مرة أخرى، اسرع العديد من المتطوعين الشراكسة الى هناك مع الجنود الاكراد، تحت قيادة مرزا باشا ومحمد افندي المفتي، واصطدموا بالدروز في عين زيوان. هزم الشراكسة الدروز في تلك الحملة ونهبوا قراهم، وعادوا الى الوطن محملين بالغنائم. قدم عرب حوران يد العون للشراكسة في تلك الحملة ضد الدروز، واجبروهم على الخضوع وإطاعة الدولة العثمانية.

دعوني اقتبس من الدكتور شوكت المفتي لتسليط بعض الضوء على الوضع في سوريا والدور الذي لعبه الشراكسة فيه. " في نيسان عام ١٩٢٠، جهز الجنرال الفرنسي غورو حملة ضد سوريا، لان الحلفاء كانوا قد اتفقوا فيما بينهم على انتداب سوريا والعراق. حسب ذلك الاتفاق، وضع كل من الموصل وشرق الاردن تحت الانتداب البريطاني، مع أنه كان قد اتفق سابقاً على ان تقوم لجنة دولية بادارتهما. بالنسبة للموقف البريطاني تجاه سوريا، فقد كان يتخذ شكل المساومة. عندما حقق البريطانيون اهدافهم في فلسطين، سمحوا لفرنسا باحتلال سوريا، وهكذا قامت حملة غورو على سوريا يوم ٢٤ تموز عام ١٩٢٠ ".

ينبغي ان نذكر هنا ان شركسياً اسمه عزيز المصري، قد شارك في المفاوضات. في رأي جيلبرت كلايتون، الذي تحدث معه، فقد كان الرجل " بارزاً بين المنفيين في القاهرة، الذين يتكلمون العربية ".

حينما كان الحلفاء بصدد تقاسم البلاد العربية فيما بينهم، وصف الرائد عزيز المصري بأنه " ضابط عثماني لامع وسياسي محنك. كان من سلالة شركسية، ولد وتربى في مصر " لكنه تلقى تعليمه العسكري في الامبراطورية العثمانية. بعد اداء الخدمة العسكرية في الميدان، برز كأحد قادة حزب تركيا الفتاة ".

الحق بالقيادة العامة لأركان الجيش، حينما أصبح أنور، زميله في الدراسة، وزيراً للحربية. على أية حال، سرعان ما قام المصري بتنظيم جماعة سرية سماها "العهد". قوامها صغار الضباط الذين يعارضون سياسات التتريك التي تبناها حزب تركيا الفتاة، وطالبوا "بحصَّه اكبر في الحكومة المركزية للسكان الناطقين بالعربية، أو تطبيق اللامركزية والسماح لهم

بقدر اكبر من الاستقلالية على المستوى المحلي، اوربما كليهما".

لا بد وانه اصبح شخصية ذات نفوذ بسرعة كبيرة، خصماً خطيراً يطالب بالزعامة على الامبراطورية العثمانية، لان انور باشا " القى القبض عليه وأدانه بتهم ملفقة اوائل عام ١٩١٤ ". في نهاية المطاف، اقنع اللورد كيتشنر جمال باشا بالتوسط، فأفرج عن الرائد عزيز المصري وصدر العفو عنه ثم نفي الى بلده مصر.

ظل عزيز المصري مؤيداً للامبراطورية العثمانية، لكنه كان يعارض حكومتها. ورغم انه ظل يعارض الحكم البريطاني لمصر ويميل الى الألمان، الا انه أقنع ضباط الاستخبارات البريطانية بأنه رجل قوي وحليف محتمل للبريطانيين. زار الوكالة البريطانية بالقاهرة في ايلول عام ١٩١٤، وقابل كلايتون ويفترض أنه أخبره بان " عبد العزيز بن سعود وقادة عرب آخرون فكروا في الماضي بالنهوض ضد الباب العالي ". وذكره بان الامير عبدالله بن الحسين قد قال لرونالد ستورز وكيتشنر، قبل حوالي خمسة اشهر، بأن القادة العرب الآخرين المتنافسين، يمكن ان يتحدوا خلف والده الحسين بن علي، امير مكة المكرمة.

تأثر كلايتون باقتراح المصري بان العرب " يمكن ان يؤدوا خدمة لبريطانيا اثناء الحرب، وليس بعدها فقط " فارسل مذكرة بهذا الخصوص الى اللورد كيتشنر. أرسل الأخير برقية "بعد الحصول على تصريح فيها من السير ادوارد جراي " الى القاهرة يوم ٢٤ ايلول ١٩١٤، يأمر فيها ستورز " بإرسال مبعوث موثوق به الى الأمير عبدالله وان يطرح عليه السؤال بكل صراحة وصدق: في حالة نشوب حرب، هل سيقف الحجاز مع أم ضد بريطانيا؟ " فيما بعد، دعي وزير الحربية الى الإفصاح عن نواياه. في الاثناء استمر الرائد عزيز المصري في الاتصال مع الوكالة.

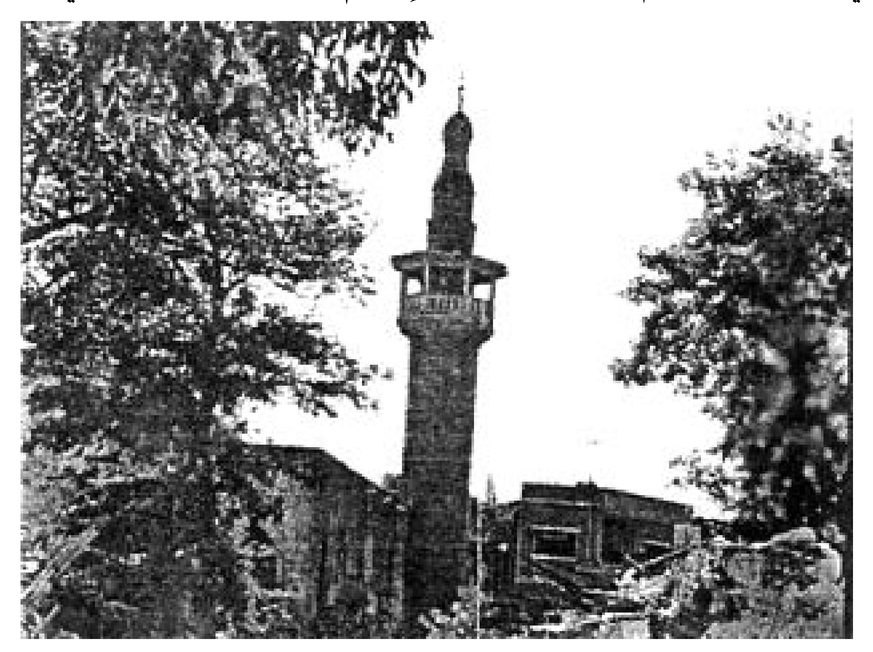
عندما دخلت الامبراطورية العثمانية الحرب، اقترحت القاهرة ارسال الرائد عزيز المصري الى بلاد الرافدين لتنظيم الهيجان الشعبي هناك، ووافق السير ادوارد جراي، لكن مكتب الهند عارض ذلك.

الواضح ان الرائد عزيز المصري كان يحاول ان يحمي المصالح الحيوية للعرب ضمن الروح الصادقة للمماليك الشراكسة.

اوضح دافيد فرومكين في كتابة " سلام ينهي كل السلام " بجلاء الجهود المخلصة لهذا المواطن الشركسي الشاب " اوائل عام ١٩١٦، كتب عزيز المصري الى اللورد كيتشنر (باللغة الفرنسية، لغة الدبلوماسية ) ان بريطانيا لا تستطيع ان تحقق اهدافها في الشرق الأوسط

الناطق بالعربية الا اذا كانت راغبة في ترك شعوبه حرة في ممارسة استقلالها الكامل والأصيل ".

لم يكن الرائد عزيز المصري وحده في هذا التوجه. فقد اعتبر الشراكسة، لكونهم مسلمين ورعايا الدولة العثمانية وخليفتها السلطان، أن واجبهم حماية الامبراطورية من جميع التهديدات والاعتداءات الاجنبية، وكانوا ينظرون الى جميع اعضاء حركات التحرر الوطني النشطاء على انهم ثوار ضد الخليفة والإسلام من خلال النفوذ الاجنبي.



**مسجد شركسي في القنيطرة**

لذلك، اعتبروا اي عصيان للسلطان خيانة عظمى، وساندوا السلطنة العثمانية عسكرياً، مؤمنين بقوة ان نجاتهم معتمدة على بقاء السلطنة ودوام قوتها. حتى لاحقاً، قاتل شراكسة الاناضول ضد مصطفى كمال لنفس السبب، حينما تحدى الأخير نفوذ السلطان وسلطته.

شارك شراكسة الاردن وسوريا بنفس الاسلوب في الحربين العالميتين وفي جميع الاحداث الرئيسة كمواطنين مهتمين بأوطانهم الجديدة. حصل أحد هذه الاحداث الهامة بعد الحرب العالمية الأولى، حين احتل الفرنسيون دمشق، فانهارت الملكية العربية تحت الملك فيصل ووضعت سوريا " تحت الانتداب الفرنسي، بالتوافق مع معاهدة سيفر يوم العاشر من آب ١٩٢٠ " حسب هذه المعاهدة، اصبحت كل من سوريا ولبنان تابعتين لفرنسا. لذلك زحف الجنرال غورو على دمشق بجنوده لفرض الانتداب على سوريا بالقوة. خرج وزير الحربية

السوري يوسف العظمه على رأس جيش غير مكتمل التدريب، قليل العدد " دفاعاً عن بلده، وواجه العدو في ميسلون. استشهد في المعركة، وتراجعت فلول جيشه، وفرض الانتداب الفرنسي على سوريا.

يقول الدكتور شوكت المفتي، أنه اثناء مهاجمة الفرنسيين لدمشق، ارسل شراكسة الاردن حوالي ٤٠٠ فارس متطوع الى سوريا من أجل مساعدة شراكسة سوريا على الدفاع عن دولتهم سيئة الحظ. غادرت القوة الشركسية عمان بقيادة مرزا باشا وسعيد بك المفتي وآخرين " مزودة بالاسلحة الخفيفة وحسب القواعد القتالية الشركسية التقليدية " ووصلت الى مزيريب حين علم قادتها ان الفرنسيين قد دخلوا دمشق. لذلك، فقد حث قائد حامية درعا المتطوعين الشراكسة على العودة من حيث أتوا " لأنه لا توجد أية فائدة يمكن توقعها من الزحف باتجاه الشمال ".

هذا مجرد واحد من الأمثلة على الإخلاص والولاء الذين خدم الشراكسة بموجبهما بلادهم الجديدة، إخوتهم العرب، وقضية الإسلام.

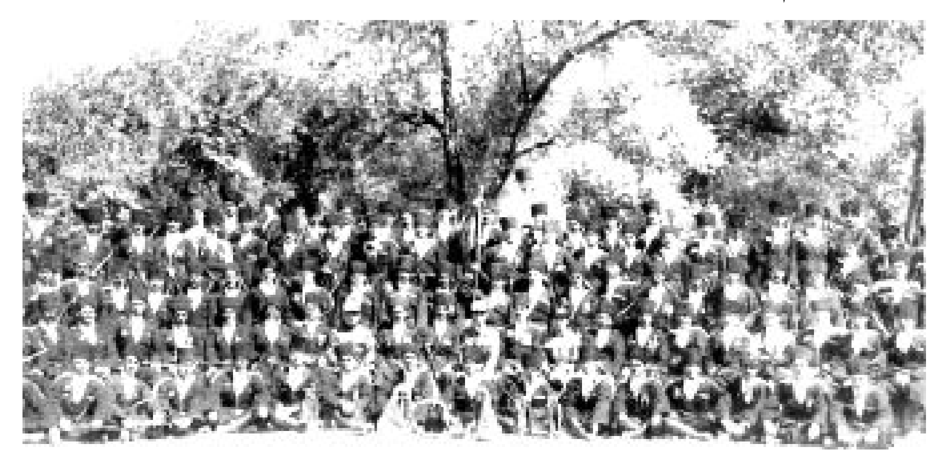
أثار الاحتلال الفرنسي الآثم لسوريا مشاعر المواطنين العرب. تجمع العديد من انصار الملك فيصل في الاردن من اجل العمل على تحرير بلادهم. من الناحية الأخرى، فقد شكلت حكومة الانتداب في سوريا " قوة مساعدة سمتها " جيش الشرق " انضم اليها كثير من السوريين من مختلف الطبقات ".

عام ١٩٢٥، ثار الدروز. ولأن هجماتهم كانت موجهة الى القرى الشركسية بالدرجة الرئيسة، فقد تجند العديد من الشراكسة في " جيش الشرق " كخيار للدفاع عن النفس.

تكون هذا الجيش من " الأرمن، الأكراد، الشراكسة، والإسماعيليين، وجرى تسخيره لإخماد ثورة الدروز، التي امتدت لتصبح ثورة وطنية تضم دمشق ومدناً سورية أخرى، تهدف الى طرد الفرنسيين من كل سوريا. عندما أدرك المندوب السامي العسكري الجنرال ساراي خطورة الموقف، عمد الى قصف مدينه دمشق بالمدفعية، لكنه فشل في تهدئة البلاد، مما اضطر فرنسا الى الانسحاب من سوريا ".

يستطرد الدكتور شوكت المفتي قائلاً: " عيَّن الفرنسيون أحمد نامي، أحد اصهار السلطان، وهو شركسي، رئيساً للدولة السورية. ثم حاولوا ان ينقلوا الشراكسة الى لبنان ويمنحوهم أراضي كافية ليعتاشوا منها. حاولوا بتلك الطريقة ان يجعلوا من الشراكسة حاجز سد بين الدروز ومسيحيي لبنان، لمنع الاحتكاك بين الطائفتين، لكن المسيحيين رفضوا المشروع الفرنسي برمته....

"عندما استقلت سوريا وشكلت جيشاً سورياً، تطوع العديد من الشراكسة فيه. حصلوا على رتب عسكرية رفيعة وامتازوا بنشاطهم واخلاصهم في خدمة وطنهم. لم يترددوا أبداً في اداء واجباتهم الوطنية كرعايا سوريين.



**شراكسة في سوريا اثناء الانتداب الفرنسي**

بعد الحرب العالمية الثانية، رغبت فرنسا في استعادة حكمها الاستعماري السابق على سوريا، لكن السوريين رفضوا، فلجأت فرنسا الى القسوة والبطش. قصف الفرنسيون دمشق بالمدافع عام ١٩٤٥، فثار السوريون تبعاً لذلك واجبروا القوات الفرنسية على الجلاء. انطلقت الثورة من حلب. أول الثوار كان صفر قان – كانتيمير، ضابط شركسي من حلب، قام مع فصيله، بمهاجمة القوات الفرنسية واحتل قلعة حلب، بعد ذلك، أجبرت كل القوات الفرنسية على إخلاء سوريا يوم ١٧ نيسان عام ١٩٤٦. وهكذا تخلصت سوريا من الحكم الفرنسي الى الأبد ".

احمد نامي، الذي ذكره الدكتور شوكت المفتي، تشير اليه مصادر اخرى باسم شركس احمد نامي. متحدر من عائلة ناتخو وصهر السلطان عبد الحميد. عين رئيساً لجمهورية سوريا عام ١٩٢٥، اثناء فترة الانتداب الفرنسي، وكان مقيماً في بيروت، لبنان عام ١٩٥٦.

عند بداية القرن التاسع عسر، كان الحاكم العام لسوريا شركسياً، هو المشير عثمان فوزي باشا. وكان قائد الشرطة في دمشق اثناء ولايته خسرو باشا الشركسي، وقاد سرية خيالة الشرطة مرزا باشا. كما قاد الحامية التركية في الكرك اثناء الحرب العالمية الأولى حميد فخري الشركسي.

حاول الشراكسة احياء تراثهم في عشرينات القرن العشرين. افتتحوا اكثر من اربعين مدرسة ابتدائية، معظمها في القنيطرة، ودرَّسوا فيها باللغة الشركسية، والعربية والفرنسية، للأطفال الشراكسة.

عام ١٩٢٨، بدأ الشراكسة ينشرون صحيفتهم الاسبوعية " مارج " باللغة الشركسية من دمشق. على اية حال، فقد اضطروا الى التوقف عن هذا المسعى النبيل بعد فترة قصيرة، فقد اقدمت السلطات السورية على اغلاق المدارس، وصحيفة " مارج " والجمعية الخيرية الشركسية في القنيطرة.

رغم كل هذه الاجراءات، استمر الشراكسة في خدمة بلادهم الجديدة بكل تفانٍ وشاركوا بهمة في الحرب العربية – الاسرائيلية " استشهد جواد انزور و مائتي شركسي نتيجةً اعمالهم البطولية في تحرير الاراضي السورية التي احتلتها القوات الاسرائيلية المسلحة.

وصف الدكتور شوكت المفتي هذه الحادثة على النحو التالي: "من سوريا، شاركت مجموعة من المتطوعين السوريين في صد العدوان الصهيوني. أهم معركة وقعت على الحدود السورية شمال فلسطين هي معركة " تل العزيزات " الشهيرة.

"شنت القوة السورية هجوماً معاكساً على الجيش اليهودي يوم ٢٦ تموز ١٩٤٧، لكن ذلك الهجوم كلف الشراكسة ضحايا ثقيلة والعديد من الشهداء بمن فيهم جواد انزور، قائد تلك القوة، الذي تلقى الشهادة مع ضابط وجنود آخرين رغم أن جنوده استولوا على الموقع الحصين الذي حاول اليهود التمسك به بأي ثمن....."

شارك الشراكسة في سوريا في الحياة الاقتصادية، السياسية، والثقافية للبلاد كمواطنين مخلصين اوفياء. نتيجة لذلك وصل العديد منهم الى مناصب رفيعة في خدمة الحكومة والجيش في سوريا. بسبب عدم وجود أية أدلة مكتوبة، فقد تم تجميع المعلومات التالية من اقربائهم وابناء جلدتهم في الولايات المتحدة الامريكية، خاصة من برزج امين شحكوخ، نارت مجاجه وغيرهم.

الشراكسة البارزون الذين خدموا في البرلمان السوري هم: عاصم باغ، عبد الرحمن باغ، عز الدين توغوج، فاضل زكريا، عارف طاهر ( وكيل وزارة العمل )، وشرف أباظه.

الشراكسة الذين خدموا في جهازي الشرطة والأمن في سوريا هم: محمد علي عزمات (حبيشت)، جنرال، القائد العام لشرطة سوريا، سليمان ناجي، مدير الدفاع المدني في سوريا (امضى حياته في مساعدة المجتمع الشركسي وتطويره في سوريا) زهير ماستروق، عميد، قائد شرطة دمشق، فواز دير، استخبارات الامن، (الاستخبارات السورية ١٩٧٩ – ١٩٨٥) علاء الدين سطاس، لواء، مدير الجمارك السورية، اديب باغ، عميد، الأمن العسكري، اكرم باغ، عميد قائد شرطة دمشق، بسام علي فروقه، لواء، أمن اقليم دمشق، وزير الداخلية، وليد اباظه، عميد، الأمن السياسي، محيي الدين توغور، عميد، الشرطة، وابراهيم حبش، عميد، مديرية شرطة حلب. الشراكسة الذين خدموا في الجيش، البحرية، وسلاح الجو

في سوريا هم: خسرو باشا، قائد أمن ولاية الشام (دمشق) اثناء الامبراطورية العثمانية. جواد انزور، نقيب، قائد الفدائيين الشراكسة اثناء الحرب العربية – الاسرائيلية لعام ١٩٤٨، فخري عمر (تلوِّج) مقدم، الجيش (خدم في إعادة التقييم الوزاري في سوريا عام ١٩٦٢، وظل يحاول ان يساعد الشباب الشراكسة على تحصيل البعثات الدراسية في اقطار عديدة) ممدوح اباظه (مرشان)، لواء، سلاح الجو، طيار تجريبي في سلاح الجو، كمال صفر، عقيد، فاضل شطره، عقيد، عمر صفر، عقيد، رؤوف شطره، عميد، ناظم سنجر، عميد، عارف شطره، عميد، سلاح الجو، عدنان لوستان، عقيد، البحرية، عواد باغ، لواء، الجيش: وكيل وزارة الدفاع لاكثر من عشرين عاماً، عبد العزيز جركس، لواء، الجيش آمر كلية الأركان، بدر الدين رمضان (بجدوغ) لواء، عدنان حيدر اباظه، عميد طيار. سعيد بيرقدار، لواء، الجيش، قائد الفيلق الثاني في سوريا، مثل سوريا في مجلس الدفاع العربي المشترك لمدة اربع سنوات. حسن إدريس عميد، جمعة ادريس، عميد، جمال اوزدمير، عميد، دفاع جوي. راتب حاغور، عميد، رياض خالد تسي، عميد، فاروق ماشفج، لواء، زياد دبشن، عميد. عبد الهادي ابراهيم، عميد، محمد خير عثمان (شابسوغ) لواء، سكرتير شخصي للرئيس حافظ الأسد لاكثر من ١٥ سنة ومستشار عسكري. سامي احمد باغ، عميد، سلاح الجو. رؤوف اباظه، عميد، الجيش، نيازي اسماعيل، عميد. وصفي الشيخ، عميد، حنفي جموخه، عميد. سعد الدين صلاح، عميد. طلعت حسن، عميد. فاروق عيسى (ابزاخ) عماد، نائب رئيس اركان الجيش السوري. علاء الدين عابدين، لواء طيار، رئيس اركان سلاح الجو السوري، وبطل للجمهورية السورية في حرب عام ١٩٧٣. محمد امين برسبي لواء، الجيش، مدير إدارة الحرب الالكترونية السورية. وزاهد الحاج حسن، لواء، محافظ اللاذقية.

الشراكسة الذين حصلوا على درجات الدكتوراه والاستاذية هم: اديب باغ، عادل عبد السلام تلش، زهدي سطاس، راتب سطاس، فؤاد توغوج، صلاح تشاروغ، نياز ماتوك، ايمان البقاعي، ابراهيم عثمان، رئيس هيئة الطاقة النووية. اعاد الشراكسة في سوريا تأسيبس جمعيتهم الخيرية بعد ان اغلقت لفترة واستأنفوا مساعدة مجتمعهم بهمة ونشاط وتعليم اللغة والتقاليد لأطفالهم.

حاول العديد من المؤلفين الشراكسة ابقاء مواطنيهم على إطلاع بلغتهم وتقاليدهم وثقافتهم وتاريخهم.

كان الاكثر نشاطاً بينهم: محمد علي بشحاتلوقه، امين سمكوخ، برزج امين سكموخ، ايمان البقاعي، ممدوح قمق، عدنان قبرطاي، عز الدين سطاس، صلاح تشيروغ (شيريخوه) عادل

عبد السلام، محمد خير اسماعيل، جمال صادق ابيزاوه، منذ بيتش، زهدي سطاس، احسان قون، احمد اسماعيل، شفيق اسماعيل، سامي حمزه، وعمر شابسوغ: الذي ترجم العديد من الاعمال حول تاريخ الشراكسة، ثقافتهم وفولكلورهم. آخر كتاب ترجمه عن الروسية الى العربية هو "تشيركيسيا – بول مايا " بقلم تمارا ـ في. بولوفينكينا. نشر في دمشق عام ٢٠٠٢



امين سمكوخ
( ١٩٠٠ – ١٩٥٣ )

هذه القائمة بالشراكسة الذين خدموا شعبهم وبلادهم الجديدة بأمانة، بعيدة جداً عن الكمال أو التعمق. وأنا على ثقة من وجود شراكسة آخرين باعداد كبيرة في سوريا، قد سهونا عن اسمائهم، ولكن، نأمل في اظهارها مستقبلاً بما تستحقه من الذكر والثناء..



ناديا خوست – كاتبة

نزح الشراكسة عن مرتفعات الجولان في اعقاب الحرب العربية – الاسرائيلية عام ١٩٦٧، واستقروا في دمشق ومحيطها. هاجر بعضهم الى الولايات المتحدة الامريكية حيث استقرت اغلبيتهم في ولاية نيوجيرسي وبعضهم في كاليفورنيا وامكنة أخرى.

من بين شراكسة سوريا، كان امين سكموغ وطنياً بارزاً. ولد في القنيطرة، وانهى الدراسة الثانوية والليسيه في دمشق. اكمل دراسته في بيروت واصبح خبيراً زراعياً. تخرج لاحقاً من القسم الاقتصادي في جامعة السوربون. لدى عودته الى سوريا، أصبح رئيساً لبلدية القنيطرة وترأس مجموعة من الوطنيين الشراكسة الذين توجهوا بنداء الى عصبة الأمم لمنح المجتمع الشركسي في سوريا حكماً قومياً ذاتياً في منطقة القنيطرة. رفضت لجنة الانتداب التابعة لعصبة الأمم هذا الطلب، لكنها اعترفت بالمطالب العادلة المتعلقة بالحفاظ على اللغة الأصلية وانشاء المدارس القومية.

في النهاية، خصص البرلمان السوري مقعدين لممثلي الشراكسة في انتخابات عام ١٩٣١. فاز امين سمكوغ بعد حملة تنافس شديدة واصبح نائباً في المجلس الوطني لسوريا. كان قد انجز الابجدية الشركسية على أساس الأحرف اللاتينية. توفي في القنيطرة.

اعماله المنشورة: "الحرب الشركسية ضد القياصرة " (حمص ١٩٤٨)، و "تاريخ الشراكسة" (دمشق ١٩٨٤) كانت اعمال مجموعته اكثر نفعاً وأثراً في دائرتي الثقافة والتعليم. إذ بذلت "الجمعية الشركسية لتطوير الثقافة والتنوير" التي انشئت عام ١٩٢٧، جهوداً جبارة في الحفاظ على اللغة، السلوكيات، وتقاليد الأديغة. كانت الكتب المدرسية، المنشورات وصحيفة "مارج" تنشر باللغة الشركسية، وتظهر فيها مقالات حول تاريخ وثقافة الأديغة.

ولد ممدوح اباظه في قرية الغسانية، محافظة القنيطرة، سوريا. التحق بأكاديميه سلاح الجو عام ١٩٥٢، ووصل الى رتبة عميد سنه ١٩٧٨. استشهد عام ١٩٨١. حصل في حياته على ستة أوسمة.



**ممدوح حمدي أباظه**
**عميد طيار**

## الشراكسة في فلسطين المحتلة

وصل الشراكسة المكونين في معظمهم من الشابسوغ والابزاخ، الى فلسطين قادمين من البلقان عام ١٨٨٠ (بعد الاقامة في ماريفيل على الحدود بين اليونان وبلغاريا عشر سنوات)، واسسوا مستوطنتي كفاركما والريحانية في الجليل الأعلى، وما يعرف الأن "بخراب الشركس". يعيش الأن حوالي ثلاثة آلاف من الشابسوغ في بحبوحة من العيش في كفاركما، وحوالي ٢٠٠٠ من الابزاخ في الريحانية. يعيش بعض من اقاربهم موزعين على مدن أخرى في اسرائيل. على أية حال، ليس هناك احد ممن أعرفهم، او قابلتهم او اتصلت بهم، يتذكر الاسم الأصلي لموقع خراب الشركس.

والذي يفترض انه حصل على ذلك لاحقاً، بعد ان توفي كل سكانه جراء الملاريا. يتواصل سكان كفاركما والريحانية بكثرة ويتزاورون حيث يتكلمون بلغتهم الأصلية.

في الوقت الراهن، تعيد كفاركما الى الأذهان احدى المدن الجمهوريات الهلينية الإغريقية. الفارق الوحيد هو أن رئيس البلدية هنا، وجهازه التنفيذي ينتخبون بطريقة ديمقراطية من قبل جميع سكان القرية المكافحة، التي يوجد لديها عيادة، بقالات، مسجد، مدرسة وجمعية خيرية (خاسه) – هي الجمعية الثقافية الشركسية. تنظم الأديغة خابزه (التقاليد الشركسية) سلوكيات الشراكسة وتسوي جميع الخلافات داخل مجتمعهم. يدرَّس الأطفال هنا اللغات العربية، الشركسية، العبرية والانجليزية في مدرستهم. تقدم الحكومة الاسرائيلية دعماً مادياً للمدرسة والعيادة ومشاريع أخرى. يتلقى جميع سكان كفاركما خدمات بلدية وعامة. مايثير الإهتمام هو حقيقة أن جميع سكان هذه القرية شراكسة بدرجة نقية وانهم جميعاً يتكلمون اللغة الشركسية بطلاقه.

## الشراكسة في ليبيا

هرب الشراكسة من مصر الى ليبيا، بعد مذبحة المماليك من قبل محمد علي يوم ٢ آذار عام ١٨١١، وأسسوا مجتمعاتهم في مصراته وفي رأس عبيد بمنطقة بنغازي. ينادون بعضهم بعضاً " ابن العم " ولديهم جمعية شركسية. يقال ان مجموع عددهم يبلغ حوالي ١٥٠٠٠ نسمة. بالمناسبة، فان كلمة مصراته تعني بالعربية (من مصر أتى) لقد نسوا لغتهم الأصلية، وليست لديهم معلومات كثيرة حول تاريخ وثقافة الشراكسة، لكنهم يعرفون انهم شراكسة، وكثيراً ما تسمع كلمة " شركسي " بينهم في بنغازي. يعملون في التجارة وقد ازدهرت اوضاعهم في وطنهم الجديد.

ارسل شراكسة ليبيا وفداً الى المؤتمر الرابع للجمعية الشركسية العالمية، الذي عقد في كراسنودار من ٢٥ - ٢٨ حزيران عام ١٩٩٨. حسب رأي ذلك الوفد، فان عدد الشراكسة في ليبيا يبلغ ١٣٥٠٠٠ وليس مجرد ١٥٠٠٠. إن املهم لا ينحصر في استرداد تقاليدهم الشركسية ولغتهم وموروثهم الثقافي، بل أيضاً في العودة الى وطنهم الأم، بلاد الشراكسة.

## الشراكسة في الولايات المتحدة الامريكية

جاء الشراكسة الى الولايات المتحدة الامريكية قادمين من دول مختلفة في العالم وفي اوقات مختلفة، ولكن، في ثلاثة مجموعات منفصلة بشكل رئيس: ١ – المهاجرون القدامى، ٢ – الاشخاص المطرودون، ٣ – المهاجرون من الشتات الشركسي.

**خلفية المجموعة الشركسية الأولى – "المهاجرون القدامى"**: كان هؤلاء " المهاجرون القدامى " الشراكسة قد غادروا وطنهم الأصلي، القفقاس، بعد الثورة الروسية بوقت قصير، على ظهر السفن من نوفوروسيسك الى استنبول، تركيا عام ١٩١٩، وعاشوا هناك كلاجئين حوالي سنتين ونصفاً. لقد كانت الأوضاع التي خبروها هناك خلال تلك الفترة في غاية الصعوبة لأن تركيا كانت محتلة من قبل القوات الحليفة في اعقاب الحرب العالمية الأولى وكان اقتصادها مدمراً كلياً. على اية حال، فقد ظلت اوضاع الشراكسة افضل قليلاً من بقية اللاجئين الآخرين، بفضل الجهود التي لاتعرف الكلل لسيدة شركسية معينة، معروفة هناك باسم فاطمة هانم، زوجة كوتشوك ناتربوف.

فقد اسست على الفور لجنة السيدات الشركسيات في تركيا، وبدأت تساعد اللاجئين، اوجدت طريقة تتصل بواسطتها بكبار المسؤولين الاتراك، واقنعتهم بوجوب توفير الملجأ للاجئين الذين ليس لديهم مكان يعيشون فيه. نتيجة لذلك، خصص السلطان التركي احد منازله الصيفية غير المؤثث للاجئين الشراكسة، والذي سرعان ما اصبح يعرف " بالبيت الشركسي ".



**حفلة شاي لدى عائله شيريتلوك حاتر امتوك، القفقاس**

انتقل اليه مائة لاجئ شركسي على الفور، صنعوا له الأثاث من الصناديق الخشبية التي تخلص منها مكتب المندوب السامي الامريكي، واستطاعوا ان يشيعوا فيه محيطاً سعيداً، وعلى الرغم من قلة الطعام والسلع الأخرى، بدأوا يقيمون فيه الحفلات التي دعوا اليها كبار المسؤولين البارزين من الاتراك والحلفاء ومن ضمنهم، المندوب السامي البريطاني، الادميرال بريستول.

بعد ان تأثر الادميرال بريستول بعمق بشخصيات وأخلاق وتربية المجموعة الارستقراطية الشركسية، رفع عريضة الى وزارة الخارجية في واشنطن العاصمة، طالباً السماح بادخالها الى الولايات المتحدة الامريكية، لكنه لم يخبر أحداً من الشراكسة عما فعله قبل ان يتلقى رداً ايجابياً مكتوباً من وزارة الخارجية. بعد ذلك ذهب الى فاطمة هانم، وعرض عليها الخطاب الرسمي من وزارة الخارجية وأخبرها بالانباء الجيدة.

دعت فاطمة هانم الى اجتماع عاجل، وقدمت فيه الادميرال بريستول الى اعضاء مجتمعها وشرحت لهم ان وزارة الخارجية قد سمحت بادخال جميع اللاجئين الشراكسة الى الولايات المتحدة الامريكية. بعد بحث مستفيض.

على أية حال، رفضت اغلبية الحاضرين هذا العرض التاريخي، لاقتناعهم بأن الحكم الشيوعي سوف ينهار في وقت قريب، وانهم سيتمكنوا من العودة الى بيوتهم وارضهم التاريخية. لم يقبل به سوى عدد قليل من العائلات الشركسية بامتنان، وقرر هؤلاء الهجرة الى الولايات المتحدة الامريكية.

**وصول المجموعة الشركسية الأولى –المهاجرون القدامى– الى الولايات المتحدة الامريكية واستقرارهم فيها:** أبحر هؤلاء "المهاجرون القدامى" الشراكسة من القسطنطينية يوم الثامن من تموز ١٩٢٣ على الباخرة " كونستانتينوبل " ووصلوا الى نيويورك في الأول من آب. نزلوا على جزيرة أيليس، وبعد ابرام الفحوصات الصحية والأمنية اللازمة، أدخلت المجموعة بكاملها الى الولايات المتحدة. كان على لائحة اسماء الركاب الاغراب لضابط الهجرة في الولايات المتحدة عند ميناء الوصول، من ضمن الاسماء التي امكن التعرف عليها: ١ – قادر جيراي سلطان، وزوجته واجده وطفلهما جنكيزخان. ٢ – ناتربوف كوتشوك، وزوجته فاطمة، واطفالهما محمد جيراي، زليفة، انزاور، وليلى. ٣ – ناتربوف إسلام جيراي، زوجته شيهار خان وابنهما جاجي مراد، البالغ من العمر ثلاثة اعوام. ٤– شيريتلوكوف زايجريت. ٥ - شيريتلوكوف زيزو، ٦ –شيبشوف عزرائيل وزوجته مريم، ٧ – شيبشيف فاطمة، ٨– تجاكوف حميد و ٩ – تجاكوف فردوس.

وهكذا، أصبح هؤلاء اول الأديغة ( الشراكسة ) الذين وجدوا المأوى والاستقرار في الولايات المتحدة الامريكية.

في البداية، انزلت جمعية إغاثة اللاجئين الروسية هذه المجموعة الشركسية في فندق صغير بمنطقة باويري بمدينة نيويورك، حيث باشروا في اجراءات توافقهم مع ظروف الحياة الجديدة. على اية حال، قامت نفس الجمعية الروسية بعد وقت قصير، بنقلهم الى ستامفورد، بولاية كونكتيكت، حيث قدمت وعود لجميع رجال الشراكسة بالوظائف في شركة بيل وتاون للاقفال.



**كوتشوك باهتي – جيراي ناتربوف، زوجته فاطمة هانم ( شيريتلوك )**
**وشقيقيه، شوماف وامين ناتربوف**

لم تطل اقامتهم في ستامفورد أيضاً. لم تعجبهم الأجور ولا ساعات العمل او المحيط الاجتماعي، فعادت هذه المجموعة الارستقراطية الى مدينة نيويورك بعد سنتين، واستقرت هذه المرة في شقق بحي مانهاتن على المنطقة الراقية العليا في شارع ماديسون، وقد صمموا على مواجهة كل تحديات الحياة وبدأوا يتأقلمون مع المتطلبات الصعبة للمجتمع المحيط بهم.

تقبلت الطبقة العليا من مجتمع نيويورك الارستقراطيين الشراكسة القادمين حديثاً بأذرع مفتوحة وكل الاحترام الذي يستحقونه. انحصرت المشكلة في هذه النقطة: هي عدم تمكن الشراكسة من الرد على كرم الضيافة الودية التي استقبلوا بها. الأمر الذي اعتبروه مساً بكرامتهم. فقد كانت تنقصهم ببساطة الأموال اللازمة لذلك.

فقد حرمتهم الثورة في روسيا من جميع الممتلكات والثروة التي كانت لديهم في بلدهم الأصلي. ووصلوا الى هنا بأيدي فارغة، وجيوب فارغة وليست لديهم اية مهارات أو خبرات عملية، ولم يكونوا يتكلمون الانجليزية، وغير متآلفين مطلقاً مع قوانين وعادات البلاد. بدأت هذه الأوضاع تثقل عليهم معنوياً. لكنهم رفضوا الإستسلام أو التذلل لاصدقائهم الجدد. بل اختاروا العمل الصعب، أي عمل، بدلاً من قبول الدعوات الى ولائم العشاء المجانية وحفلات الكوكتيل. لم يغب هذا الموقف المتعالي المفعم بالكبرياء عن انتباه الناس في الوسط الاجتماعي الجديد، وسرعان ما اكسبهم المزيد من الاحترام.

**أوضاعهم، الحياة الاجتماعية، وانجازاتهم في البلاد الجديدة:** طبيعي، ان ظروف الحياة التي اضطر هؤلاء القادمون الجدد الى مواجهتها في هذه البلاد كانت صعبة جداً في البداية. اضطرت هذه المجموعة الارستقراطية الى التعامل مع مشاكل العثور على الوظائف الملائمة والحصول على ما يكفي من الأجور للحياة بكرامة وتوفير الحاجات الأساسية على الأقل لعائلاتهم من أجل الابقاء على حياتهم فقط، رغم عدم معرفتهم باللغة الانجليزية وعدم امتلاكهم لأية مهارات عملية. لإيضاح حجم الصعوبات التي اعترضتهم في سبيل البقاء احياء، سأصف لكم حالتين لشخصين من تلك المجموعة الشركسية: أولاً فاطمة هانم[1] وثانياً الأمير قادر جيراي.

---

**(١) الاسم العائلي ما قبل الزواج لفاطمة هانم هو شيريتلوك. كان لديها اربع شقيقات: واجده، زليفه، زاهده، وزيزو. بعد ان تزوجت زاهده من رجل مصري، انتقلت الى مصر بصفة دائمة. بينما تزوجت زليفه من ايديجاروف، وهو أوسيتي.**

فاطمة هانم: توفي كوتشوك ناتربوف عام ١٩٢٥، تاركاً خلفه زوجته فاطمة وأربعة أطفال لإعادة بناء حياتهم في مدينة نيويورك، التي كانت ماتزال جديدة وغريبة عليهم. نتيجة لذلك، اضطرت فاطمة لمواجهة صعاب عديدة، معنوية ومالية. بينما كانت تكافح لتغلب عليها ولتعليم اطفالها، عرض عليها العديد من اصدقائها الجدد تقديم العون، لكنها رفضت قبوله بكرامة وكياسة، بدون ان تفقد صداقتهم، او ايذاء مشاعرهم.

كانت تتمتع بشخصية مصقولة بدرجة عالية وذات كرامة، تليق بأميرة، فكسبت اعجاب واحترام المجتمع الراقي في نيويورك، ولكن، حتى تتمكن من إعالة اطفالها وتعليمهم بشكل لائق، فقد بدأت تعمل ١٦ ساعة في اليوم في مهنة الخياطة. ثم تدريجياً، وبالتصميم والمثابرة، وبطاقة لاتعرف الكلل، أسست عملها الخاص بالأزياء (كانت قد تخرجت من معهد رياضة بدنية في روسيا، ومدرسة خياطة في تركيا)، كسبت زبائنها، وبدأت تصمم الملابس للممثلات والنساء الانيقات في المدينة. نجحت أخيراً، بكل ذلك التصميم، في توفير التعليم العالي لأطفالها.

اثناء ادارتها لعملها، بدأت كذلك بتنظيم النشاطات الاجتماعية.



فاطمة هانم ناتربوف



ماليا ناتربوف في سن الرابعة

حولت قاعة فسيحة في شقتها الى مضيف شركسي، والتي كانت واقعة على زاوية شارع ماديسون وشارع ٩٦، حيث كانت تستقبل جميع اصدقائها الشراكسة، القفقاسيين، الروس والامريكان اثناء عطلات نهاية كل اسبوع، بكرم الضيافة الشركسية التقليدي. اضافة الى ذلك، اسست بالمشاركة مع الأمير سيدامون إيريستون " ألافيردي " – الجمعية الشركسية

الجورجية. اشتريا قطعة ارض لها واقاما مركزاً عليها في جبال كاتسكيل قرب بوكيبسي، بولاية نيويورك، وهناك ظل اعضاء المجتمع الروسي والقفقاسي يلتقون في نهايات الاسبوع وخلال عطلاتهم الصيفية، حيث يقيمون الحفلات الباذخة لغايات جمع التبرعات ويدعون اليها صفوة المجتمع الراقي في نيويورك.

ثانياً: سيرة الأمير قادر جيراي: هذا الأمير الذي لم يعمل في حياته السابقة مطلقاً، ولم تكن لديه مهنة، كافح طويلاً كبواب، عامل مصنع، سائق سيارة أجرة، محاولاً ان يحصل على معيشة تقيم أود عائلته.

ومع ذلك، رفض أن يثنيه أحد، وظل يعمل ١٦ أو ١٨ ساعة يومياً، حتى أدخر ما يكفي من المال لمشروعه – مدرسة خيالة خاصة به على النمط الشركسي. "السرج والحذاء الطويل". تمكن أخيراً من شراء قطعة أرض مساحتها ٣٥ فدان في اعالي الولاية، منطقة كاتوناه، نيويورك، اشترى بضعة جياد، وبدأ يعلم أصول الفروسية لزبائن من الطبقة الراقية، كانت من بينهم جاكلين كينيدي، قبل ان تتزوج من رئيس الولايات المتحدة الامريكية – جون فيتزجيرالد كينيدي. لاقت مدرسة الفروسية هذه نجاحاً هائلاً بحيث بدأ يقدم عروض فروسية داخل الأبنية في مدينة نيويورك نفسها.

بعض الاعضاء الجدد في المجتمع الشركسي: نذكر مجرد قلة من الاعضاء الجدد في المجتمع الشركسي: ولد عزمات لقادر وواجده جيراي، والذي تزوج فيما بعد ابنة سيكورسكي وانجب منها صبياً، اسمياه قادر، تيمناً باسم جده. رزق ناتربوف اسلام وشيهار خان بصبي هو ايلمرزا، وابنة هي جولنارا.



**الجيل الشاب الأول في مدينة نيويورك في الثلاثينات**
**وهم (من اليسار الى اليمين: ١ – جنكيز جيراي، ٢ – مراد ناتيرب،**
**٣ – ايلمرزا ناتيرب و ٤ – عزمات جيراي.)**

تزوج كريم كوشمازوك، الذي جاء حقاً لاحقاً الى الولايات المتحدة وعمل كمهندس كهرباء لدى شركة إديسون الموحدة في نيويورك، من زيزو شيراتلوك. في وقت لاحق، جاء من فرنسا كل من مينخان وملك خان بجه حاكوه وانضمتا الى المجتمع الشركسي في مدينة نيويورك.

تزوجت مينخان من كورييف (شيشاني) في فرنسا، وانجبت منه ابنة هي ليلى، التي عاشت معها. بعد ذلك جاءت كارولين (من فرنسا أيضاً) وهي من عائلة حاجيموكو من ناحية أمها، ومن ناحية ابيها، كازانوكو.

تعليم وموقع الجيل الشركسي الجديد: بغض النظر عن الصعوبات التي اضطر الشراكسة الى مواجهتها والتغلب عليها في الوطن الجديد، فقط تمكنوا من توفير افضل التعليم المتوفر في الولايات المتحدة، الى جانب التربية المعنوية التقليدية لجميع ابنائهم وبناتهم. من بين اوائل الخريجين: ماليا ناتربوف، مراد ناتربوف، وجنكيز جيراي. عمل الأولان في وزارة الخارجية. واصبح الأخير نقيباً في الجيش الامريكي اثناء الحرب العالمية الثانية وشارك في مؤتمر يالطا بصحبة الرئيس روزفلت.

**خلفية المجموعة الشركسية الثانية –(الاشخاص المطرودون):** هذه المجموعة الشركسية، والتي سميت بالاشخاص المطرودين من قبل العالم الحر، غادرت موطنها اثناء الحرب العالمية الثانية تحت ظروف مختلفة. كان بعضهم لاجئين، والآخرون اما مرحَّلون من قبل الالمان او اصبحوا اسرى حرب اثناء قتالهم ضد الألمان. رغم ذلك، كان لديهم عامل مشترك واحد: كانوا جميعاً ضحايا يملأها الخوف من الدكتاتوريتين – النظام الشيوعي في روسيا، والنظام الفاشي في المانيا النازية.

بعض اللاجئين، وهم أحفاد كبار المزارعين والبرجوازيين الشراكسة، الذين نفي آباؤهم الى سيبيريا، أو ازيلوا عن الوجود كلياً، او اخضعوا للصعوبات والملاحقات التي لا تتوقف من قبل الدكتاتورية الشيوعية، تركوا بلادهم مع قوات الاحتلال الالمانية المتراجعة بحثاً عن الحرية. ربما لذلك، استحق بعضهم ان يصنفَّوا كلاجئين سياسيين. ولكن اغلبيتهم كانت من الناس البسطاء الابرياء، الذين ارعبتهم قسوة الطغيان الشيوعي، والذين كانت جريمتهم الوحيدة انهم لم يهربوا، ولم يتمكنوا من الهروب من بيوتهم عندما احتل النازيون قراهم. عندما كسر الجيش السوفييتي خط الجبهة الألمانية في القفقاس يوم ١٧ كانون الثاني عام ١٩٤٣، هرب معظم السكان الذكور في هذا الإقليم، من سن السادسة عشرة فما فوق، من بيوتهم الى القرى المجاورة خوفاً من الاتهام بأنهم تعاونوا مع المحتلين الألمان، فيعاقبون بقسوة، وينفون، او يقتلون رمياً بالرصاص في اللحظة وعلى الفور. فروا من قراهم على نية العودة الى بيوتهم بعد بضعة أيام، حينما تهدأ حرارة الحرب قليلاً.

نجحت هذه الخطة بالنسبة لبعض اللاجئين. ولكن، بالنسبة للبعض الآخر، فان الحرب لم تهدأ مطلقاً، ولم تتبدد مخاوف واحتمالات المعاقبة. بدلاً من ذلك، اصبحت امكانية القدرة على العودة الى البيوت تتنامى في صعوبتها يوماً بعد يوم حتى اصبحت مستحيلة. العوامل التي اسهمت في هذا الوضع هي: من ناحية، بدأ الالمان المنسحبون يفتشون القرى ليلاً، ويلقون القبض على الرجال المدنيين الذين يتمكنون من العثور عليهم، ويسوقونهم تحت تهديد السلاح الى خط الجبهة ويجبروهم على حفر الخنادق هناك.

ومن الناحية الأخرى، بدأوا يرحِّلون المراهقين من كلا الجنسين مباشرة الى معسكرات خاصة في المانيا لتشغيلهم كعمال عبيد في مصانعهم.

طبيعي ان هذا الوضع ضاعف المخاطر التي اضطر هؤلاء الناس الى مواجهتها للبقاء على قيد الحياة. لذلك، بدأ ملايين من اللاجئين الهروب مبتعدين عن خط الجبهة الذي يقترب منهم من كل انحاء روسيا، لخوفهم من العقاب على يد النظامين الدكتاتوريين. ركب

بعضهم عربات تجرها الخيول، وهرب البعض الآخر مشياً على الاقدام، بملابس غير كافية وطعام قليل، وبدون مأوى. خلال العملية، بدأت كل مجموعة إثنية تتجمع مع بعضها، بمن فيها المجموعة الشركسية، وتشكّل لجانها ومجموعاتها الإثنية حتى تستطيع ان تساعد بعضها الآخر وتحمي أنفسها وعائلاتها من الهجمات المتقطعة لرجال المقاومة الحزبيين أو العناصر الإجرامية التي كانت اعدادها تتزايد ضمن هذه الأوضاع. وهكذا، وصلوا في نهاية المطاف الى اوروبا مع نهاية الحرب العالمية الثانية وتفرقوا في اقطار مختلفة، آملين ان يفهم العالم الحر في يوم ما وضعهم، يتعاطف معهم ويساعدهم على الاستقرار في مكان ما ليعيشوا حياة آمنة.

بذلك الأمل، وصلت مجموعة اللاجئين الشراكسة، مع مجموعات إثنية أخرى من القفقاس مثل البلقار، الشيشان، الداغستان، الجورجيين، الإنجوش، القرشاي، وآخرين الى أيطاليا بقيادة لجانهم، بحلول العام ١٩٤٤، وتوقفوا في قرى اقليم بالوتزا. في بداية العام ١٩٤٥، بدأ الخوف من إعادة توطينهم بالقوة في الاتحاد السوفييتي ينتشر بينهم، بعد أن سمعوا بالاتفاقيات التي توصل اليها الحلفاء في مؤتمر يالطا. فقد شعر الجميع انهم سيواجهون ذلك الإجراء الرهيب عند نهاية الحرب العالمية الثانية.

اتفق زعماؤهم على ان الطريقة الوحيدة لمقاومة هذا الاحتمال، هي بتجميع كل اللاجئين في مكان واحد ورفض الانصياع للأمر بمجهود مشترك. وبدأوا يحضرون انفسهم له.

لذلك، وبينما كانت الحرب تسير الى نهايتها، تحرك هؤلاء اللاجئون، في جماعات أيضاً، بعضهم في نفس العربات المغطاة التي تجرها الخيول والتي غادروا بيوتهم فيها، وآخرون على الاقدام، عبروا جبال الألب في ايطاليا، دخلوا النمسا، واستقروا تحت السماء المكشوفة في وادي نهر دراو، قرب كوتشاتش. في ايار عام ١٩٤٥، وقد تجاورت كل مجموعة اثنية الى جانب الأخرى: الروس، القوزاق، وغيرهم، في مخيمات مختلفة امتدت الى أميال طويلة. سرعان ما انضمت اليهم هناك بعض وحدات من جيش الجنرال فلاسوف، وبعض القوزاق والمحاربين القدامى، والآلاف المؤلفة من اسرى الحرب، الذين نجوا من اهوال معسكرات السجن في المانيا، والآف من المرحلين المراهقين من الجنسين، الذين تمكنوا من الفرار من مختلف معسكرات العمل الألمانية.

الأمر الذي يسبب الصدمة هو ان أحداً من العالم الغربي لم يبد عليه الاهتمام بمصير هذه الملايين من اللاجئين والمهجرين من الاتحاد السوفييتي. ذلك هو السبب الذي جعل ستالين يرغم الحلفاء في مؤتمر يالطا، على التوقيع على إعادة توطين جميع اسرى الحرب الى

الاتحاد السوفييتي بعد نهاية الحرب. ان حقيقة اعتبار هؤلاء الناس "الخونة" و"المجرمين" في الحرب من قبل الغرب، نابعة من انعدام الفهم لحقيقة وضعهم من قبل الغرب. سمي هؤلاء " الاشخاص المطرودون " بنفس المقدار من الجهل وعدم الاهتمام من قبل الحلفاء في اوروبا بعد الحرب العالمية الثانية.

لم يطل الوقت بهؤلاء " المطرودين " المساكين حتى يدركوا ان الوادي الذي استقروا فيه هو المكان المثالي لإعادة توطينهم القسري الذي يخشونه. فقد انحصرت مخيماتهم بين نهر دراو وطريق عام يلتف حوله. كذلك كان هناك خط سكة حديد صدئ كأنه انشئ خصيصاً لتلك الغاية، يمتد بين مخيمات اللاجئين في خط موازٍ لمجرى نهر دراو، والطريق العام. جيء بجنود بريطانيين، مسلحين بالرشاشات على وجه السرعة خلف نهر دراو والطريق السريع، على طول هذه المخيمات "لحراسة " اللاجئين. ظهر الضباط البريطانيون بين هؤلاء اللاجئين، يتحدثون اليهم من خلال مترجمين روس، يدونون اسماءهم، على افتراض اصدار التموين واللوازم الضرورية الأخرى، ويسلمونهم حمولات شاحنات من الأغذية المعلبة، البسكويت، الشوكلاته، الخبز. على اية حال، بعد ذلك بوقت قصير، بدأت عربة مصفحة روسية مزودة بمذياع تتحرك ببطء على الطريق السريع بمحاذاة هذه المخيمات، وتذيع أغنية "يابلوشكا" بصوت مرتفع، تقول كلماتها ما معناه " أيتها التفاحة الصغيرة! الى اين تتدحرجين؟ بمجرد ان تسقطي في فمي، لن تكون لك عودة! "

طبيعي، ارعب هذا العمل اللاجئين بما يفوق الوصف. فقد تلاشت آمالهم في ان يفهم العالم الحر في النهاية وضعهم ويقدم لهم بعض العون، وتبعثرت. أخذ بعضهم، بدافع اليأس، يهرب الى الجبال النمساوية، معتبراً ان هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنهم بها الهروب من الموت المحتم الذي سيواجهونه لو أعيدوا. رفع آخرون اعلاماً سوداً على سبيل الاحتجاج، وحفروا قبورهم، جلسوا فيها واعلنوا الاضراب عن الطعام، مصممين على الهلاك جوعاً بدلاً من اعادة ترحيلهم الى الاتحاد السوفييتي بالقوة. كذلك، بدأ آخرون غيرهم وقد رفضوا ان يصدقوا ان العالم الغربي سيرفض أن يفهم نداء ملايين اللاجئين، يكتبون رسائل نداء ويرسلونها الى رجال الدولة البارزين في العالم الحر، مثل الرئيس روزفلت والسيدة روزفلت، ورئيس الوزراء تشرتشل وغيرهم، يحثونهم فيها على عدم تسليمهم بالقوة الى الطغيان الشيوعي، حيث سيتم اعدامهم على الفور او يقتلون تدريجياً عن طريق التجويع في معسكرات السجون لسيبيريا.

رغم كل ذلك، فضل زعماء العالم ان لا يسمعوا ولا يفهموا استجداء ملايين اللاجئين. بل اختاروا ان يلتزموا بالاتفاقات التي وقعوها في مؤتمر يالطا وان يرضوا دكتاتوراً لا يعرف الرحمة - جوزف ستالين، بدلاً من انقاذ ارواح ملايين اللاجئين الباحثين عن الحرية، قوامهم الرجال والنساء والاطفال.

حوصروا بجنود بريطانيين مدججين بالسلاح وبعضهم في عربات مصفحة. دفعت بينهم صفوف من عربات القطار الفولاذية، وبدأت عملية " الشقلبة والدفع ". بدأ الجنود يرمون بالرجال والنساء والأطفال بلا تمييز، داخل عربات الشحن هذه، مفرقين العائلات عن بعضها، الآباء عن اطفالهم، والازواج عن زوجاتهم. تبع ذلك اشتباكات وعراكات ادت الى نزف الدماء. زمجرت اصوات تبعث الرعدة. كانت اصوات زعيق الأطفال والنساء النائحات تخترق الآذان وتصل الى القلوب فتمزقها. حاول بعض الرجال والنساء والاطفال تجنب هذا الترحيل القسري، فركضوا يائسين من هذه الفوضى الى نهر دراو، قفزوا اليه واغرقوا انفسهم فيه. اخترق آخرون صفوف الجنود البريطانيين، قطعوا الطريق السريع وتوجهوا نحو الجبال والغابات. اما البقية فألقيت في صفوف عربات الشحن بالقوة، أقفل عليهم وسيقوا ينتحبون ويبكون ويصرخون يائسين، في طريق عودتهم الى الاتحاد السوفييتي — الى الدكتاتورية التي يخشونها اكثر من اي شيء آخر، ليعانوا ويموتوا، وقد تمزقت احلامهم وآمالهم في الحرية من قبل قادة العالم الحر الذين اعتمدوا عليهم بكل هذه القوة وطول هذا الوقت.

اولئك "الاشخاص المطرودون" الذين تمكنوا من الفرار من هذه الجريمة اللاإنسانية التي اقترفها العالم الحر، اضطروا الى العيش كأشخاص هاربين في جبال النمسا لشهور طويلة مضنية بعد محاولة الإعادة القسرية، مكافحين للتغلب على الصعوبات لايمكن حصرها من الحرمان، والاضطهاد. في البداية، كانوا يحاولون ان يعتاشوا على الفواكة القابلة للأكل والجذور التي يمكنهم العثور عليها في غابات هذه المنطقة غير المألوفة لديهم، فأستمروا في الجري من بقعة الى الأخرى بحثاً عن مكان آمن. اضطروا لاحقاً الى التغلب على ذكاء الجنود الانجليز، الذين بدأوا يمشطون هذه المنطقة الجبلية من اجل القبض عليهم وتسليمهم الى الروس.

خلال العملية، وجد بعض الذين نجوا من هذه المحنة الملاذ لدى بعض المزراعين النمسويين في مناطق معزولة واخذوا يفلحون اراضيهم نيابة عنهم مقابل اعطيات قليلة من الطعام. استطاع آخرون، وقد علموا بوجود مخيمات لاجئين في المانيا وأيطاليا، أن يتسللوا

اليها متنكرين كلاجئين اتراك. خضعوا لاستجوابات لا نهاية لها، تفتيش و استقصاءات من قبل لجان الحلفاء، المؤلفة من ممثلين أميركيين، بريطانيين، فرنسيين وروس، نتيجة لها نقل بعضهم من مخيمات اللاجئين الى معسكرات اعتقال بحراسة مشددة، مثل معسكر بيزا في ايطاليا، الذي نقل بعض سجنائه واعيدوا الى الاتحاد السوفييتي رغماً عن ارادتهم، وقد فصل بعض افراد العائلات عن بعضهم مرة أخرى. وبما ان معظم سكان ايطاليا تحولوا الى الشيوعية في هذه الفترة، ساعد بعض افراد الشرطة المحلية الروس في تعقب واصطياد اللاجئين من روسيا مقابل مكافآت.

لذلك، بدأ هؤلاء "الاشخاص المطرودين" في البحث اليائس عن دول أخرى تمنحهم الملاذ الآمن مثل: الارجنتين، استراليا، البرازيل، من خلال مساعدة اشقائهم وشقيقاتهم في الشتات.

كانت هذه وضعية "الاشخاص المطرودون" الشراكسة الذين وجدوا الملاذ في مصر، الأردن، سوريا، تركيا، الولايات المتحدة، وغيرها، بشكل خاص.

**وصول المجموعة الشركسية الثانية "المطرودون" - الى الولايات المتحدة الامريكية واستقرارهم فيها:** خلافاً "للمهاجرين القدامى"، جاء "المطرودون" الشراكسة الى هذه البلاد بشكل فردي. أول اولئك ممن هاجروا من المانيا الى الولايات المتحدة عام ١٩٥٠ كان زوجين شركسيين هما سلامات وتيوشيج بايرام أوغلو. وهما من اقليم الاديغي أصلاً. كان اسمهما الأصلي بلانه غابتسا، الحقيقي، واسم بايرام أوغلو هو الأسم الذي انتحلاه وعاشا به مختبئين في اوروبا خلال سنوات ما بعد الحرب الرهيبة. تمت دعوتهما ورعايتهما من قبل السيدة فاطمة ناتربوف وقد وقع على شهادات دعمهما الأمير الجورجي سيدامون ايريستوف، و سيكورسكي، وهو روسي، وأول من صمم وبنى الطائرات العمودية في الولايات المتحدة.

دعت فاطمة ناتربوف الزوجين الى شقتها في مانهاتن عند وصولهما، حسب مقتضى التقاليد الشركسية، حيث بقيا الى ان عثرا على عمل ملائم وتمكنا من العناية بنفسيهما. بعد ذلك قام السيد بايرام اوغلو وزوجته بدعوة بعض اصدقائهما من المانيا وقدما لهم نفس كرم الضيافة الشركسي والمساعدة حتى تمكنوا بدورهم من الاعتماد على أنفسهم. تدريجياً، بدأت هذه العملية من العون المتبادل تتضاعف بين الشراكسة وازدادت اعدادهم ببطء ولكن بثبات في هذه البلاد. عام ١٩٥٢، قاموا بتنظيم المؤسسة القفقاسية الشمالية في نيويورك، من أجل مساعدة بعضهم بعضاً بطريقة اكثر فعالية وكفاءة. بحلول ذلك الوقت،

بدأت مؤسسة تولستوي، التي كانت تساعد "الاشخاص المطرودين" الروس عللى القدوم الى الولايات المتحدة، بتقديم مساعدة مماثلة للاجئين الشراكسة الذين مازالوا يقيمون في اقطار اوروبا والشرق الأوسط. كانت المؤسسة تدفع أجرة الانتقال الى الولايات المتحدة لهؤلاء " المطرودين "، الذين ترتب عليهم تسديدها على دفعات بعد وصولهم الى وجهتهم وعثورهم على العمل. كانت تلك مساعدة قيمة لأولئك " الاشخاص المطرودين " الذين وصلت تصاريح دخولهم، ولكنهم غير قادرين على دفع أجور سفرهم الى الولايات المتحدة.

بعد وصولهم الى نيويورك، تعين على هؤلاء الناس مواجهة صعوبة العثور على وظائف ملائمة وسكن مناسب في هذه المدينة. لذلك، سرعان مابدأوا ينتقلون عبر نهر هدسون الى ولاية نيوجيرسي الصناعية المجاورة، خاصة مدينة باترسون نفسها، حيث تكثر المصانع، ويسهل العثور على عمل يدر دخلاً أفضل، وكانت الشقق وكل اساسيات الحياة أرخص بكثير. هناك وجد الأصغر سناً وظائف في المخابز والمصانع المختلفة، مع أن جهلهم التام بالقوانين المحلية والفدرالية، وانعدام قدرتهم على التحدث بالانجليزية شكلت معيقات هائلة بالنسبة اليهم. استطاع الاكبر سناً ان يجدوا وظائف كحراس ليليين، أو مسؤولين موسميين لصيانة المقابر. باختصار " تحولت احجارهم الى أجبان " كما يقول المثل العائد لهم. بدأوا يشعرون للمرة الأولى في حياتهم بإحساس الحرية ويدركون المغزى الحقيقي والمتعة الكامنة في المعيشة على الأرض العظيمة المزدهرة. بدأوا ينتقلون تدريجياً الى أفضل أحياء المدينه للاقامة فيها، تأمين تعليم أفضل لأطفالهم، والتفكير في اقتناء ادوات ترف جديدة: جهاز تلفاز، سيارة، منزل، والعمل لساعات اطول وبجد اكثر، للتمكن من الحصول عليها. فعلوا كل ذلك مقلدين الأمريكان، ومتنافسين بين بعضهم.

سرعان مابدأ القادمون الشراكسة الجدد يتوجهون الى باترسون، نيوجيرسي، المقعد الجديد للشراكسة، مباشرة بدون التوقف في نيويورك. حيث كانت تقدم لهم الضيافة الشركسية وتعرض عليهم كل انواع المساعدة التي يحتاجون اليها للاستقرار وبدء مزاولة حياة محترمة. حتى انهم نقلوا المؤسسة القفقاسية الشمالية من مدينة نيويورك الى باترسون نيوجيرسي للتمكن من تنفيذ مهامهم بشكل اكثر فعالية، وقاموا بعد ذلك بفتره قصيرة بتغيير اسمها الى الجمعية الخيرية الشركسية رسمياً.

بعض **الغايات** الرئيسة التي اسسوا هذه الجمعية من اجلها هي التالية:

١ – لدراسة وتعزيز جميع المسائل المتعلقة برفاهية الشراكسة في اميركا من النواحي الدينية، الإجتماعية، الثقافية، الإبداعية، الرياضية، والخيرية، وتقوية الروابط التعاونية بين

الشراكسة اينما تواجدوا للحفاظ على التراث الشركسي وتعزيزه.

٢ – تقديم الدعم والمساندة للشراكسة المقيمين في الولايات المتحدة وأية امكنة أخرى.

٣ – توفير المساعدة التطوعية لاعضائها وعائلاتهم في حالات المرض والضيق.

**وذلك كما تبينه المادة الثانية من دستور الجمعية الخيرية الشركسية بكل وضوح.**

تبعاً لذلك، لم يبخل اعضاء هذه الجمعية بوقتهم ولا جهودهم في البحث عن الكفلاء وموقعي الشهادات اللازمين والعثور عليهم تمهيداً لإحضار اقربائهم الأقل حظاً الى الولايات المتحدة كلما كان ذلك ممكناً. بعد ذلك بوقت قصير عينوا ممثلهم الخاص لمساعدة مؤسسة تولستوي في احضار اللاجئين الشراكسة الى الولايات المتحدة في البداية، من اوروبا، ثم من الشرق الاوسط وامكنة أخرى.

**وصول المجموعة الشركسية الثالثة –"الهجرة من الشتات الشركسي الى الولايات المتحدة الامريكية:** هاجر الشراكسة من بلدان الشتات، مثلهم مثل "الاشخاص المطرودين" من قبلهم، الى الولايات المتحدة، اما فردياً أو على شكل عائلات فردية، من اقطار مختلفة. يقال ان اولهم، السيد عمر كشوقه، قدم الى هنا من عمان، الاردن، في وقت مبكر هو عام ١٩١٧، وعاش في ديترويت، حيث عمل لفترة لدى شركة فورد. يقول اقرباؤه انه كان لغوياً خبيراً، يتكلم الشركسية، الروسية، الانجليزية، العربية والتركية بطلاقة. الحقيقة هي أنه حصل على الجنسية الامريكيةيوم ١٣ كانون الثاني عام ١٩٣٠، في ديترويت بولاية ميتشيغان. الشركسي الثاني، الدكتور مصطفى كازوك، حضر الى هنا عام ١٩٥١ لإتمام دراسة الطب كمقيم، احضر ابنته حواء عام ١٩٥٢ البالغة من العمر سبعة اعوام (اصبحت فيما بعد تعرف باسم ستناي) لتلقي تعليمها هنا. الشركسي الثالث، الدكتور جواد إدريس (تسي)، المولود في سوريا، والذي تلقى علومه في جامعة بيروت، وعمل طبيباً للعائلة السعودية المالكة لبضع سنوات، حضر الى هنا عام ١٩٥٥، قادماً من المملكة العربية السعودية، وتوقف في مدينة نيويورك.

بدأت وتيرة الهجرة الشركسية الى الولايات المتحدة تتصاعد في السنوات التالية. بدأوا يصلون الى هنا من الأردن، سوريا، تركيا والمانيا الغربية، بمساعدة اصدقائهم واقاربهم اضافة الى الجمعية الخيرية الشركسية ومؤسسة تولستوي. وصل هذا التدفق من الهجرة الشركسية الى أوجه بعد الحرب العربية – الاسرائيلية، عندما قامت اسرائيل بتدمير القرى الشركسية واحتلالها في منطقة مرتفعات الجولان السورية، عام ١٩٦٧. قدم النازحون الشراكسة من ذلك الإقليم في سوريا الى هنا عن طريق الأردن والمانيا الغربية واليونان بشكل

رئيس. تراجع عدد المهاجرين الشراكسة الواصلين الى الولايات المتحدة في الثمانينات، لكنه يستمر بالنمو التدريجي من خلال نفس العملية وعن طريق الزيجات من شراكسة الشتات في الشرق الأوسط وتركيا.

**استقرارهم واندماجهم:** وصل جميع المهاجرين الشراكسة من الشتات الى هذه البلاد عن طريق مطار JFK (كينيدي) في نيويورك. على الدوام، كان هناك أحد من اصدقائهم او اقاربهم، او من ممثلي الجمعية الخيرية الشركسية او مؤسسة تولستوي، يستقبلهم هناك، يحضرهم الى باترسون، بمنطقة نيوجيرسي، الى المقعد الجديد للمجتمع الشركسي، حيث يقدم لهم الطعام والمسكن من قبل صديق أو قريب حتى يعثروا على وظيفة ملائمة ويصبحوا قادرين على الانتقال الى شقة خاصة بهم. وهكذا، تنامت اعدادهم، واستقروا في باترسون، هاليدون، بروسبكت بارك، توتووا، هوتورن، واين، شمال هاليدون، نيوآرك، اليزابيث، إلخ. في ولاية نيوجيرسي. بحلول اوائل الثمانينات، كان هناك حوالي ٤٠٠٠ شركسي يعيشون في منطقة باترسون، نيوجيرسي. حتى ان بعضهم غامر بالانتقال الى ولايات أخرى. نتيجة لذلك، هناك حوالي ٢٠٠ شركسي في كاليفورنيا، بمقاطعة اورانج بشكل رئيس، وانتقل آخرون الى فلوريدا، واشنطن العاصمة، نيواورليانز، تكساس، وانتقلت حوالي اثنتي عشرة عائلة الى سياتل بولاية واشنطن.

استقر الشراكسة بكثافة وقريبين من بعضهم بعضاً في منطقة باترسون، نيوجيرسي. يمكنهم هذا الوضع من ممارسة طريقتهم التقليدية في الحياة بسهولة تامة، وان يزوروا اصدقاءهم واقاربهم في الامسيات ونهاية الأسبوع، ويتشاركون في مناسباتهم السعيدة والمحزنة، ويقدمون المساعدة لبعضهم كلما اصبح ذلك ضرورياً. سرعان ما اخذوا يستمدون منفعة عميقة من اختلاطهم الاجتماعي.

فمن ناحية، ساعدهم القرب على الاحتفاظ بلغتهم، عاداتهم وتقاليدهم. ومن ناحية أخرى شجعهم على العمل بجدية اكبر والتنافس فيما بينهم على انتهاج حياة اكثر رفاهية، الحصول على سيارة أفضل، تلفاز، اختيار منطقة افضل للسكنى، وحتى شراء بيت أفضل. والأهم من كل ذلك، توفير تعليم أفضل لاطفالهم. لتحقيق هذه الاهداف بدأوا يعملون بجدية، وصار بعضهم يعمل لورديتين لمدة ١٦ او ١٨ ساعة في اليوم. اكثر المعيقات التي كانت تواجه اغلبهم في هذه النقطة الابتدائية هي عدم القدرة على التحدث والكتابة بالانجليزية، وعدم الإلمام بالقوانين المحلية والاتحادية. على أية حال، لأنهم عاشوا ونشأوا في بلدان مختلفة من العالم الحر، قد كانوا مهيأين بشكل أفضل لمواجهة التحدي وتكييف أنفسهم مع المحيط

وشروط الحياة في بلدهم الجديد اكثر من اسلافهم "المهاجرين القدامى".

في أواخر السبعينات واوائل الثمانينات، تنامى عدد الجمعيات الخيرية في منطقة باترسون، نيوجيرسي. فقد انفصلت الجمعية القباردية عن الجمعية الخيرية الشركسية واسست مركز ادارتها. لحق بهم بعض من شراكسة سوريا واسسوا مركزهم الشركسي الثقافي. كذلك أقام شراكسة الاردن جمعيتهم الخاصة بهم بنفس الطريقة. انضمت مجموعة أخرى الى لجنة تحرير شمال القفقاس. كذلك شكل فريق كرة القدم الشركسي الناشئ ناديه الرياضي الخاص به. على اية حال، في نهاية المطاف، اما انهم انضموا الى الجمعية الخيرية الشركسية، أو انحلت جمعياتهم تدريجياً. انضم شراكسة كاليفورنيا الى المركز الثقافي لشمال القفقاس هناك واصبحوا الاعضاء الاكثر نشاطاً في تلك الجمعية.

لقد كانت الجمعية الخيرية الشركسية في ولاية نيوجيرسي الاكثر نشاطاً وابداعية في العالم. منذ تأسيسها.

اذا كانت الذاكرة تخدمني بشكل صحيح، تناوب عليها اثنا عشر رئيساً، لم يكمل بعضهم فترة رئاسة السنتين، واعيد انتخاب بعضهم الآخر مرات عديدة. كانوا على التوالي:

١– إسلام ناتربوف، ٢ –كيمتشيري كوشمازوك، ٣ –تركبي ياتشوكو (فترتان)، ٤– محمود تشيش ( فترتان ) ٥ –توم بايرام أوغلو ( تيوشيج بلاناغابتسا )، ٦ –عيسى تاركوخوه، ٧ –بوريس كوبله، ٨ –محمد خير برسيق، ٩ –هيوبرت مولا موسى ( اربع فترات )، ١٠ –قادر اسحق ناتخو ( اربع فترات )، ١١ –بدر قردن، و ١٢ –جاباغ تسي.

خطت الجمعية الخيرية الشركسية اوسع خطواتها في التقدم اثناء العقدين الأخيرين من القرن العشرين.

فقد اكتسبت زخماً بعد أن أصبح هيوبرت مولا موسى رئيساً لها. ساعد على تطورها توليفة من العوامل المتكاملة: العدد النامي من الشراكسة في الولايات المتحدة، والقيادة القومية للمجتمع التي تتمتع بالرؤية الثاقبة، الالتزام، والمثابرة.

انتخب هيوبرت مولا موسى رئيساً للجمعية، في الوقت الذي كان فيه المجتمع الشركسي يتزايد وينمو في منطقة باترسون، نيوجيرسي، ولم تستطع ان تلبي الاحتياجات المتعاظمة للمجتمع بسبب نقص التفاهم المشترك والتعاون. كان ذلك وقتاً صعباً جداً لتنظيم الشراكسة لأي هدف مشترك، لان المجتمع كان منقسماً الى جماعات تتصارع على الزعامة بين بعضها. على اية حال، ورغم ذلك، اقترحت ادارة هيوبرت مولا موسى خطة بناء على نطاق واسع لإقامة مسجد ومركز يتسع للحاجات الدينية، الاجتماعية، والثقافية والتعليمية للمجتمع

الشركسي، ووافقت عليها الهيئة العامة للجمعية.

أثار المشروع مزيداً من الجدال في المجتمع. كان المشروع بالنسبة لاغلبيتهم كبيراً الى حد غير ضروري، مكلفاً جداً، ويفوق امكانيات المجتمع المادية. قالوا بحماس انه حتى لو نجح المجتمع الشركسي في بنائه، فإن الجمعية لن تتمكن من الانفاق على إدارة وصيانة مثل هذا المبنى الكبير. أبعد هذا الرأي السلبي قطاعاً كبيراً من المجتمع عن المشاركة الفاعلة النشيطة في هذا المشروع النبيل والضروري.

رغم وجود حوالي أربعة آلاف شركسي في ولاية نيوجيرسي في ذلك الوقت، الا ان العدد الفعلي لاعضاء الجمعية الخيرية الشركسية لم يزد عن مائة شخص. رغم ذلك، قررت الجمعية ان تمضي قدماً في تطبيق الخطة. عام ١٩٨١، باعت الجمعية المبنى المؤلف من طابقين الذي تملكه في توتووا واشترت قطعة ارض مساحتها حوالي ثلاثة فدادين في واين بنيوجيرسي، لغايات المشروع. استغرق الحصول على ترخيص للبناء من بلدية واين اربع سنوات من الجهد، وخمس سنوات أخرى في منتهى الصعوبة من العمل المضني من قبل الجمعية لاتمام عملية انشاء المجمَّع. خلال تلك الأعوام، كانت المشاكل غير المتوقعة التي اضطرت الجمعية الى مواجهتها هائلة وتبدو بلا نهاية. معظمها مالي في طبيعته، بسبب التضخم من جهة، ومن جهة اخرى، بسبب الوعود التي لم تكن تنفذ. بدت الصعوبات غير قابلة للتغلب عليها مطلقاً في بعض الأحيان، توقف عملية البناء أو تؤخرها من سنة الى الأخرى، وتضاعف تكاليف المشروع سنوياً.

كانت هذه المشاكل محبطة للهمم كلياً في بعض الاوقات، وحتماً ما كان يمكن التغلب عليها بدون التصميم القوي والجهد الذي يفوق قدرات البشر. فقد كانت المشاكل تشير بوضوح الى أن المشروع اكبر بكثير من الامكانيات التي يقدر عليها المجتمع. لكن القيادة ثابرت بعناد، واستمرت لجنة جمع التبرعات في جمع الأموال من المجتمع الشركسي، مرة بعد الأخرى وسنة بعد سنة، وهي تذهب من باب الى الآخر.

ثم اضطرت الجمعية الى توسيع هذه الجهود الى خارج المجتمع، وبدأت ترسل رئيسها الى المملكة العربية السعودية، الكويت، البحرين، ابو ظبي وسائر الامارات العربية المتحدة لجمع التبرعات. اضافة الى ذلك، بمجرد أن أتم المتعهدون المبنى الرئيس للمسجد والمركز، قام المتطوعون الشراكسة بإكمال جميع الاعمال الداخلية اثناء عطلات نهاية الاسبوع وفي الأمسيات، من اجل تخفيض النفقات الى أدنى مستوى ممكن. بغض النظر عن ذلك، اضطرت الجمعية الى اقتراض مبلغ ٦٥٠،٠٠٠ دولار على شكل قرض انشائي من بنك

هاليدون للإدخار اضافة الى التبرعات التي جمعتها للمشروع.

على كل حال، اكملت الجمعية في نهاية الأمر بناء المسجد والمركز بعون الله سبحانه وتعالى وبركاته، وبجهود المجتمع الشركسي في الولايات المتحدة وبعض المسلمين الكرماء والجمعيات الاسلامية عبر البحار. يجب ان يذهب الفضل الإجمالي لهذا الإنجاز الى هيوبرت مولا موسى الذي جعلت رؤيته الثاقبة، وقيادته الصلبة وتصميمه غير المتردد، تحقيقه ممكناً.

على الرغم من جميع الصعوبات التي تعرض لها، فان الحصول على هذا المبنى الفسيح اثبت أنه نعمة للمجتمع الشركسي. أصبح مكان الالتقاء لمجتمعنا، خاصة لاجيالنا الصاعدة. لدينا فيه مدرسة من اربعة فصول، دورات مياه نظيفه منفصلة للصبيان والبنات، اضافة الى دورات مياه للرجال والنساء، مكتب لمجلس التعليم، دكان حلاقة، غرفة جنائز، مسجد من ثلاثة طوابق بقاعات صلاة منفصلة وامكنة وضوء للرجال والنساء.

ومركز من طابقين، يحتوي على شقة في كل طابق مزودة بمطبخ، مقصف وغرف العاب لشبابنا وبالغينا على الطابق الأول، مع مكاتب فسيحة للمجلس التنفيذي، المجلس الدائم، ولجنة التدقيق، ومطبخ كبير و" قاعة نالميس " للأعراس، الحفلات السنوية، والمناسبات الرئيسة الأخرى للجمعية. باختصار، لقد كان انجازاً يستحق التفاخر به – معقل محتمل لشبابنا ضد الذوبان، اذا استخدم بحكمة.

عندما تم انتخابي عام ١٩٩٠، كانت الجمعية غارقة في الديون. فقد كانت مدينة باكثر من ١٢٥ الف دولار للمقاولين، ٦٥٠ الف دولار قرض انشائي للبنك، وتراوحت الفواتير الشهرية التي توجب تسديدها مابين ١٢ الى ١٧ ألف دولار. تعين علينا ان نجد طرقاً ووسائل لدفع هذه الفواتير الشهرية وتسديد القرض للبنك.

مرة أخرى، تداعى المجتمع الشركسي لمواجهة التحدي. اطلقت الجمعية حملة عضوية وبدأت تضاعف اعداد اعضائها مرتين واربع مرات، والى جانب ذلك، تجتذب المتطوعين، تنشئ لجاناً متنوعة، وتنظم انشطة دائمة، تعليمية، اجتماعية وثقافية بطبيعتها، تهدف الى توفير حاجات المجتمع وتدر على الجمعية المزيد من الأموال. اضافة الى ذلك، فقد ظلت الجمعية الخيرية الشركسية تدار، منذ تأسيسها، بجهاز وظيفي تطوعي بحت. وكان إمام مسجد الجمعية الاستثناء الوحيد. عينت له الجمعية شقة وخصصت له راتباً شهرياً، من أجل اقامة الصلاة خمس مرات يومياً في مسجدنا.

سرعان مابدأ هذان العنصران – الجهاز الوظيفي التطوعي والانشطة المختلفة، يجتذبان المزيد من الناس ويدران مزيداً من الدخل، الأمر الذي مكَّن الجمعية من تسديد فواتيرها

الشهرية، وتوفير بعض المال.

اضافة الى ذلك، فقد قامت الجمعية بتسديد قرض الانشاء الى البنك بخصم مقداره ١٤٪ ووفرت حوالي ٨١ الف دولار. تم استدانت مبلغ ٤٩٠ الف دولار من بنك آخر بفائدة ٨٪ سنوياً كان ذلك رهن قاعة الحفلات المقترض على اساس ٣٠ سنة، والذي استطعنا أن نسدده خلال سبع سنوات! تم تسديد أكثر من ٤٠٠ ألف دولار اثناء رئاستي والباقي اثناء رئاسة بدر قردن.

هناك شخص واحد يجب توجيه الثناء الكبير له على مساهمته في هذا المشروع ودعمه للمجتمع الشركسي عموماً، هو السيد جباغه عمر كوباتي، المولود في سوريا عام ١٩٣٧، من والد قوشحه ( اوسيتي ) وأم قباردية.

هو خريج كلية التجارة في جامعة حلب، عمل في المصرف التجاري السوري من عام ١٩٦٠ الى ١٩٧٤، حيث وصل الى مركز مساعد مدير المصرف التجاري في حلب. هاجر الى الولايات المتحدة عام ١٩٧٤، وانضم الى عائلته والمجتمع الشركسي وساعدهم بقدر ما يستطيع. بدأ يعمل كمستشار مالي لأحد اكبر المشاريع في المملكة العربية السعودية منذ حزيران عام ١٩٧٧. من خلال مساعدة صديقنا المخلص، السيد جباغه عمر كوباتي، ومن خلاله، مازالت جمعيتنا تتلقى مبلغ ثلاثين الف دولار سنوياً منذ عام ١٩٨٤ وحتى الآن ( آذار عام ٢٠٠٣ )، ومازال يضيف الى هذا المبلغ، خمسة آلاف دولار مساهمة آخرى من جيبه الخاص. لا نستطيع ان نعثر على الكلمات المناسبة لنعبر عن تقديرنا الكلي لكرمه وصداقته أثابه الله عز وجل خير ثواب وبارك فيه على كل ما قدمه من عون لاشقائه وشقيقاته الأقل حظاً.

لقد اصبح كل من المسجد ومركز الجمعية الخيرية الشركسية، الذين اسهم العديد من الناس في اقامتهما بكرم بالغ، رمزاً للتقدم الشركسي في الولايات المتحدة وبيتاً للمجتمع الشركسي. المركز حالياً ممتلئ على الدوام بالانشطة الدينية، الثقافية، التعليمية والاجتماعية، خاصة للاطفال والمراهقين الشراكسة. يقوم الجهاز التطوعي بتعليم اطفالنا لغتهم الأم، ثقافتهم القومية، السلوكيات، التقاليد، والدين. لقد كان فريق كرة القدم التابع للجمعية أحد أفضل الفرق في الولاية اثناء ادارتي.

لدى جمعيتنا فرقة رقص ممتازة حالياً، مدربة من قبل مديرها سوزر ديشك، وهو شاب متحمس قومياً، مدرب رقص موهوب، موسيقي وقائد فرقة.

الخاتمة: خلال فترة حياتهم القصيرة في الولايات المتحدة الامريكية. قام الشراكسة بخطوات اقتصادية، اجتماعية وتعليمية واسعة. لقد مكنهم كبرياؤهم الداخلي، حبهم التقليدي للحياة بكرامة وشرف، صفاتهم الكامنة في حب التميز، تحملهم للمشاق وجديتهم في العمل، ورغبتهم في المثابرة لتحصيل الغاية المنشودة، مكنهم كل ذلك من تكييف انفسهم بشكل ممتاز مع اسلوب الحياة الجديد، واثبات نزاهتهم وإخلاصهم وصدقهم مع جيرانهم الجدد وكل الناس الذين اختلطوا بهم.

وقد تمكنوا من تجاوز المواطن الامريكي العادي في مسألة الأجور، الأمر الذي شكل مفاجأة هائلة للجميع.

تمكن معظم الشراكسة حتى بداية الثمانينات من شراء بيوت لهم في مناطق راقية من مدن او بلدات اقامتهم.

اصبحوا معروفين في وقت قصير بنظافة بيوتهم، ساحاتهم والحياة الاجتماعية المثالية التي يعيشها المجتمع الشركسي بأسره. باختصار، اصبحوا في وقت قصير، مجموعة إثنية مكافحة، محترمة وقوية، يعترف بها ويحترمها المربون ورجال الدولة لكونها المجتمع الأقل إدماناً على المخدرات، او الكحول أو الجريمة في الإقليم.

لقد بدأوا اليوم يجنون ثمار العمل الشاق الذي استثمروه في هذا البلد لسنوات. لقد مكنهم ذلك من شراء منازلهم، والسكنى في احياء راقية، والحياة بمستوى تقليدي مشوب بالرفاهية، وقيادة افضل السيارات، ومنح اطفالهم تربية شركسية تقليدية، وتعليمهم في أفضل المدارس، الكليات والجامعات. نتيجة لذلك، يتخرج المزيد من الطلاب الشراكسة كل سنة من الكليات والجامعات الامريكية المختلفة، إن عدد المثقفين الشراكسة في ازدياد، كما ينمو عدد مالكي " الاعمال التجارية الصغيرة " في ميادين العقارات، البناء، ورش تصليح السيارات المطاعم، محطات الوقود، صالونات التجميل، البقالات، مساقات الحاسوب، ومقومي العمود الفقري.

كبرت الجمعية الخيرية الشركسية، التي لعبت على الدوام دوراً مهماً في حياة المجتمع الشركسي، في الحفاظ على تقاليده، لغته، وهويته القومية. كبرت كذلك بالتوازي مع رفاهية ابنائها. فقد اصبح المسجد الواسع الذي تم بناؤه في واين، نيوجيرسي، المركز الروحي والدنيوي لكل المجتمع الشركسي في الولايات المتحدة، اضافة الى مضافة ومكان التقاء لكل ابناء جلدتهم القادمين الى هنا من الوطن الأم ومن الشتات الشركسي في الخارج. لقد لعبت الجمعية، بادارتها المؤلفة استثنائياً من جهاز وظيفي تطوعي بالكامل مكون من الهيئة

التنفيذية، المجلس الدائم، ولجنة التدقيق، مع جهاز من ٣٤ مدرس متطوع من مجلس التعليم ومن اكثر من عشرة لجان ثقافية، دينية واجتماعية أخرى منظمة من قبل الهيئة التنفيذية، دوراً مهماً في حماية المجتمع الشركسي من الذوبان، بتوفير مكان للاجتماع، للشباب بشكل خاص، بتنظيم انشطة اجتماعية، ثقافية، تقليدية، دينية وتعليمية وتشجيع الشراكسة، صغيرهم وكبيرهم على المشاركة فيها.

نذكر بعض هذه الانشطة: المسجد، الذي يتسع لسبعمائة مصلي، ( ٥٠٠ رجل في الطابق الثاني، و ٢٠٠ إمراة في الطابق الثالث ) مفتوح سبعة ايام في الأسبوع، حيث يقيم الإمام، الذي لديه شقة في المبنى، الصلاة خمس مرات يومياً. المركز، والمقصف التابع له، دكان الحلاقة، وقاعة الشباب وكبار السن، مفتوحون لستة ايام في الاسبوع حتى منتصف الليل ومابعده. تقوم لجنة السيدات بتحضير الاطباق التقليدية لوجبة عشاء الأحد ويقدمنها في القاعة الكبرى على الطابق الثاني، والتي يحضرها في العادة اكثر من ٣٠٠ شخص. تقوم اللجنة الاجتماعية بتنظيم الحفلات والمحاضرات باستمرار. تقوم لجنة الرقص بتعليم الرقصات التقليدية للأطفال مرتين في الأسبوع. كما تدَّرس هيئة التعليم مبادئ الدين الاسلامي واللغة الشركسية، التقاليد والثقافة الشركسية لاكثر من ٢٠٠ طفل ( اعمارهم بين ٥ الى ١٤ سنة ) أيام الجمعة والسبت والأحد. تبحث لجنة التدريس عن التلاميذ الشراكسة الذين يعانون من ضعف في أية مادة وتساعدهم في اجادتها. نتيجة لهذا النشاط، كان هناك أربعة شراكسة من التلاميذ العشرة الاوائل في مدرسة مقاطعة باسايك في السنة الماضية وحدها.

اضافة الى ذلك، اصبح اثني عشر شاباً وشابة اعضاء في نظام التعليم لولاية نيوجيرسي كمدرسين في مدارس ثانوية وجامعات مختلفة. حصل ثلاثة منهم – السيدة رويدة غوتوك، السيد خير الدين فروقه، والسيد باسل سطاس – على شهادة الدكتوراه في التعليم العالي.

احدهم، الدكتور باسل سطاس، هو مدير التخطيط والبرمجة في كلية مقاطعة باسايك في باترسون نيوجيرسي. بعض المحامين الشراكسة الذين افتتحوا مكاتب القانون الخاصة بهم، هم الأخوين سوبزوكوف شاوابتسوقه، كازبك واصلان ( في كاليفورنيا ونيوجيرسي على التوالي )، كاشف مولا موسى، والآنسة مهتاب باساران لديهما مكتبهما في نيوجيرسي. الآنسة ديانا اوغورلو ( سجاجه )، محامية شركات مع مجموعة AOL. في ماريلاند. بعض من رجال الأعمال الناجحين الذين يستخدمون العديد من الشراكسة هم: مروان شولاخ، صاحب شركة نيكسس للبلاستيك، في هاوثورن، نيوجيرسي، وإياد يوغار، مدير عام خدمات سينتينل للحماية، في هاكينساك، نيوجيرسي. كما ترشح الشاب اصلان غوو، لرئاسة بلدية

باترسون. لدينا الآن اعضاء مجالس بلدية شراكسة، ورجال دولة آخرين في الحكومات المحلية لمدن بروسبكت بارك، هاليدون، وواين، نيوجيرسي. لدينا اكثر من خمسة وثلاثين شاب شركسي في دائرة الشرطة ووكالات تطبيق القانون في مقاطعتي باسيك وبيرجين في نيوجيرسي. احدهم برتبة نقيب. لدينا حوالي عشرين طبيب في الولايات المتحدة، ثلاثة عشر منهم في منطقة باترسون. كانت السيدة حواء ادريس ( تسي ) وهي شركسية مولودة في تركيا وخريجة جامعة كولومبيا في علوم الاحياء الدقيقة، نائبة رئيس شبكة مستشفيات نيويورك وبريسبتيريان حتى عام ٢٠٠٢، بعدها تعينت مديرة للكلية الطبية التي افتتحتها جامعة كولومبيا في دولة قطر. يعمل رفيق احمد قورطان (كوبله ) وهو من تركيا، مخترعاً لدى مختبرات بيل.

الدكتور رضوان شابسوغ والدكتور احمد شابسوغ ( كلاهما ناتخو ) يعملان في المركز الطبي لكولومبيا في مدينة نيويورك.

لغاية التعريف الأفضل ببعضهم، دعوني اقدم لكم هنا الخلفية التعليمية والعملية لاثنين من شبابنا الشراكسة: رفيق قورطان ( كوبله ) والدكتور رضوان شابسغ (ناتخو)

ولد رفيق قورطان عام ١٩٥٢ في استنبول. درس في جامعة الشرق الاوسط التقنية اعوام ١٩٧٠ – ١٩٧٤ ونال شهادة البكالوريوس في الفيزياء. انهى دراساته العليا في

جامعة ميريلاند عام ١٩٨٠ وحصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه في الفيزياء. أجرى دراساته البحثية في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا MIT اعوام ١٩٨٠–١٩٨٤.

من عام ١٩٨٤ وحتى عام ٢٠٠٢ كان الباحث الرئيس في مختبرات AT & T Bell . ومختبرات لوسينت بيل. منذ العام ٢٠٠٢ هو رئيس الابحاث في OFS – labs .

كان رفيق قورطان ولايزال يشارك في الابحاث الاساسية لعدة ميادين في فيزياء المواد المكثفة، فيزياء المادة، والفيزياء البصرية. من بين اهتماماته البحثية هي فيزياء السطوح، البلورات السائلة، الانظمة الرعافية، اشباه البلورات، المقصِّرات، الزجاجات البصرية المستحدثة، الألياف البصرية، والمواد الفوتونية.

قدم مئات المحاضرات التي دعي اليها والتي شارك فيها في المؤتمرات. ونشر اكثر من مائتي ورقة بحثية، ونشر عدة فصول في كتب. كذلك قام بتنظيم الندوات والمؤتمرات.

ولد الدكتور رضوان شابسيغ في سوريا. انهى دراسة الطب في كلية الطب بجامعة دمشق، سوريا. انهى تدريبه في الجراحة والمسالك البولية في سوريا، المانيا والولايات المتحدة. انهى

عمله كطبيب مقيم وتدريب الزمالة في كلية بايلور الطبية، هيوستن، تكساس، ونال شهادة مجلس المسالك البولية الامريكي.

حالياً، يشغل الدكتور رضوان شابسيغ منصب استاذ مشارك لعلم المسالك البولية في جامعة كولومبيا ومدير مركز نيويورك للجنسانية الانسانية في مستشفى نيويورك المشيخي في مدينة نيويورك.

الدكتور شابسيغ عضو في العديد من الجمعيات المهنية بما فيها الجمعية الامريكية للمسالك البولية. الكلية الامريكية للجراحين، جمعية احصائيي المسالك البولية الجامعيين، وهو عضو مؤسس لجمعية دراسة العجز الجنسي. كذلك فقد تلقى جوائز ابحاث عديدة وعمل كمحقق رئيس للعديد من المحاكمات العيادية. عام ١٩٩٣، فاز بجائزة المؤسسة الامريكية لأمراض المسالك البولية كباحث شاب عن ابحاثه في المسالك البولية. لقد نشر الدكتور شابسيغ العديد من المقالات العلمية، الكتب، فصول في كتب، والقى العديد من المحاضرات والكلمات محلياً ودولياً. كما أنه مؤلف واسع الصيت للعديد من المقالات التي ظهرت في مجلات " سجل نيوانجلند الطبي، دورية المسالك البولية، المسالك البولية، الدورة البريطانية للمسالك البولية، والمسالك البولية المعاصرة ". وهو مؤلف كتاب نشر حديثاً هو دليل تعليمي للمريض حول العنه: " العودة الى الجنس الرائع، تغلب على العنه واستعد الألفة المفقودة ". وقد كتب مقدمة هذا الكتاب الدكتور لويس اينيارو، الفائز بجائزة نوبل في الطب.

الدكتور رضوان شابسيغ متزوج ويعيش في نيوجيرسي مع زوجته الجميلة داليدا، وولديه الوسيمين: هاني وشان.

عثمان مازوكابزوف – شاب شركسي من قرية اديغه – حابله، جمهورية قرشاي – تشيركيس – قام بإنجاز ممتاز في ميدان الانترنت والاتصالات ذات السرعه الفائقة. تلقى عام ١٩٩٤ منحه دراسية وحضر الى الولايات المتحدة، ليتخرج عام ١٩٩٩ بمرتبة الشرف من جامعة بريدجبورت، ولاية كونكتيكت. عمل لبعض الوقت لدى صحيفة نيويورك تايمز ومطبعة جامعة اوكسفورد في نيويورك. أصبح عام ٢٠٠٠ المؤسس المشارك والمدير العام لبوابة الانترنت القفقاسية كافكاز ويب. نت، التي تقود ثورة تكنولوجية في الانترنت القفقاسي، واصبحت المصدر الاكثر شعبية للمعلومات فيما يتعلق باحداث تقنيات دردشة الويب، انظمة تبادل الاعلام وغيرها. حالياً، فان كافكاز ويب. نت هي اكبر مجتمع انترنت

قفقاسي، وتلعب دوراً مهماً في حياة آلاف القفقاسيين حول العالم بتوفير حلقة وصل حيوية مع الوطن الأم.

نأمل ان يدرك الشباب الشراكسة الآخرون القدرات التعليمية والمنافع الثقافية الكامنة في هذه المواصلات الفائقة السرعة لشعبنا وان يتبعوا المثال الذي وضعه عثمان.

هناك العديد من الشراكسة الذين يعملون لدى مؤسسات عملاقة مثل AT & T، خاصة في حقل برمجة الحاسوب. هناك أربعة شباب شراكسة يعملون لمؤسسات مختلفة في وول ستريت المشهور عالمياً في نيويورك. احدهم: تيمور خاتشماموكو، في قسم تجارة السلع. في بداية السبعينات كان هناك شركسيان على الأقل هما جودت حلمي ( شاشئه ) من سوريا واكرم قورشه من الاردن يعملان في المركز الرئيس للأمم المتحدة في مدينة نيويورك. منذ ذلك الحين، تقوم السيدة ماجدة حلمي ( حبجوقه ) – إبنة رجل الدولة الاردني المتميز سعيد باشا المفتي ( حبجوقه ) – بتدريس اللغة العربية في مدرسة الأمم المتحدة في مدينة نيويورك. منذ العام ١٩٨٤، تقوم سيدة شركسية اخرى من الاردن، هي السيدة سعاد ناتخو، بتدريس اللغة العربية والدين الاسلامي لطلاب البعثات وممثلي الأمم المتحدة من المملكة العربية السعودية، الكويت، البحرين، ودول الخليج العربي الأخرى.

باختصار، لقد خطا المجتمع الشركسي في الولايات المتحدة خطوة عملاقة الى الأمام في فترة قصيرة نسبياً من الوقت. يجب على المرء ان يتذكر دائماً، بكل الأحوال. انهم قد بدأوا لتوهم في جني ثمار جهودهم.

فاذا استطاعوا ان يستمروا في التقدم بنفس درجة النجاح في المستقبل، فان الانجازات التي يمكنهم تحقيقها تبدو مشرقة، وواعدة. رغم ذلك، فان هناك تحديات هائلة امامهم. الأكثر خطورة بينها هي قوة الذوبان التي لاتقاوم في هذه البلاد. من المشكوك فيه أن يتمكنوا من العيش على المدى البعيد و يحتفظوا بتنشئتهم، قيمهم الاخلاقية التقليدية، وفخرهم بهويتهم القومية.

# المراجع

1. S. Khotko، Ocherki Istorii Cherkessov (Studies in the History of the Circassians St.-Peterburg University، 2001.

١– س . خوتكو : دراسات في تاريخ الشراكسة .

2. Shauket Mufti (Habjoka) M.D.، Heroes and Emperors in Circassian History، Beirut، 1944.

٢– الدكتور شوكت المفتي ( حبجوقه ) اباطرة وابطال في التاريخ الشركسي.

3. N. Berzeg، Izgnanie Cherkessov (The Expulsion of the Circassians)، Maikop، 1993.

٣– نهاد برزج – تهجير الشراكسة .

4. M. Hafitsa، Cherkesskoye Zarubezhie (Circassian Diaspora)، (Newspaper)، Nalchik، 1998.

٤ – محمد حفيتسه – الشتات الشركسي . ( صحيفة ).



الرئيس بشار الأسد والدكتور شرف حمدي اباظه
عضو البرلمان ورئيس جمعية المقاصد الخيرية الشركسية في سوريا




العيد الخمسون للجمعية الخيرية الشركسية، الولايات المتحدة



مسجد ومركز الجمعية الخيرية الشركسية
٣٨٠ اولدهام رود واين، نيوجيرسي ٠٧٤٧٠



في المقدمة من اليسار الى اليمين: هيوبرت مولا موسى، ثم فؤاد ناغوج
في الخلفية: بدر قردن، قادر اسحق ناتخو، وفريدون حربي ( خوناجوه )

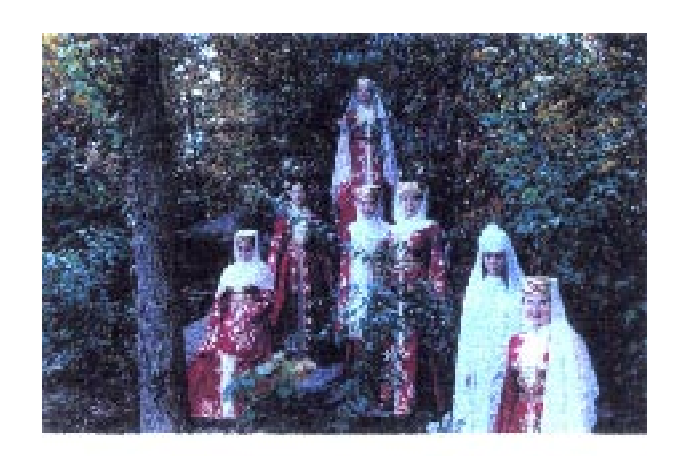
التقطت هذه الصورة بمناسبة دعوة جمعيتنا فرق الرقص التابعة لنادي "الجيل الجديد" من عمان، الأردن. كان فؤاد ناغوج وفريدون حربي قائد تلك الفرقة. اللوحة المعروضة مقدمة الى جمعيتنا باسم جمعية الضيوف. كان هذا أحد الانشطة التي اقيمت في المبنى الجديد لجمعيتنا.



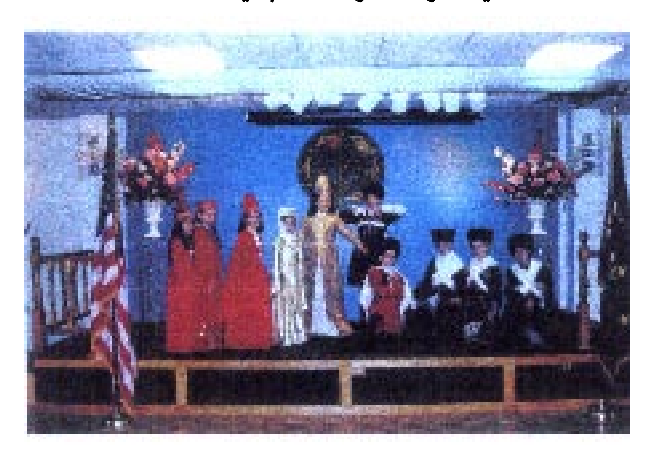

مراهقون شراكسة امام مبنى الجمعية ١٩٩٨



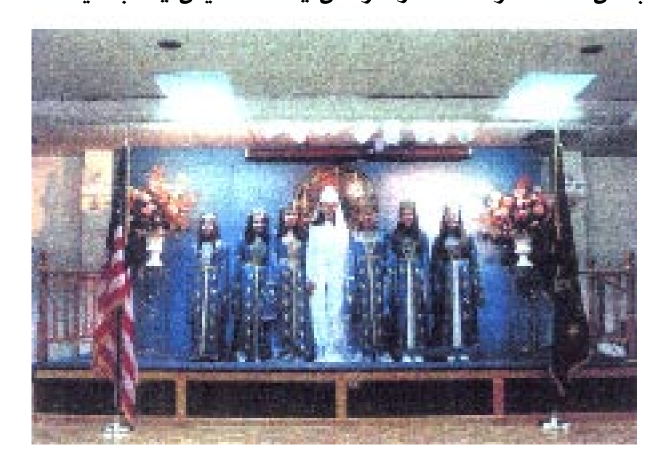
جباغه عمر كوباتي



فتيات فرقتنا الراقصة الجميلات ١٩٩٨



بعض اعضاء فرقة الصغار للرقص في قاعة ناليس في الجمعية ١٩٩٨



بعض فتيات فرقتنا الراقصة في قاعة ناليس في الجمعية عام ١٩٩٨



**فرقة الرقص التابعة لجمعيتنا**

**اخذت هذه الصورة عام ٢٠٠٢، مباشرة بعد ان قدم افرادها حفلة رائعة. يقف جباغه عمر كوباتي الى يميني. السيدة ماجده المفتي حلمي والسيدة حقي كورميل الى يساري. ( السيد حقي كورميل هو أول من قدم السجاد الى مسجدنا من مصنعه في تركيا )**



**رفيق قورطان ( كوبله )**



**الدكتور رضوان شابسيغ (ناتخو)**



**عثمان مازوكابزوف**



**التعبير الفني لياسر يعقوب**

# الفصل التاسع
# الشراكسة في الحاضر

## الأمة التي أزيلت عن الوجود

في الختام، اخضعت روسيا القيصرية الأمة الشركسية في ربيع العام ١٨٦٤، بعد أن دافعت هذه الأمة الصغيرة الباسلة ببطولة عن حريتها واستقلالها لقرن كامل، ثم طردت تسعين في المائة من سكانها الى خارج بلاد الشراكسة ونحو الامبراطورية العثمانية. لقد فعلت روسيا ذلك بقصد محدود هو التدمير الشامل للأمة الشركسية الباسلة والاستيلاء على منطقتها وضمها. على أية حال، فان البطولة التي لا تعرف الخوف والتي حاربت بها بلاد الشراكسة تلك الحرب الطويلة من اجل استقلالها ضد القوة الغاشمة للآلة العسكرية لروسيا القيصرية قد الهبت خيال أفضل العقول في اوروبا، وحتى في روسيا. كان بينها عمالقة في الأدب مثل الكسندر بوشكين، ليوتولستوي. تاراس شيفتشينكو وكارل ماركس، وهذا غيض من فيض. كتب ادموند بيلز في انجلترا عن الإبادة الجماعية التي اقترفتها روسيا القيصرية ضد الأمة الشركسية عند نهاية تلك الحرب " إنه حادث حزين ومفجع حقاً، ان جنساً من الرجال الأحرار والمقاتلين الذين حافظوا على حرياتهم غير مدنسة عبر قرون عديدة. بينما قامت سلالة بعد الأخرى حولهم، ازدهرت ثم ذبلت: والذين يعود وجودهم الوطني الى فترة سابقة على السجلات التاريخية: الذين وجدوا قبل ان يوجد الاغريق والرومان، الذين كانت بلادهم موئلاً للجمال، الفروسية والشهامة، الرومانسية، والتي خلدتها قصائد فحول الشعراء القدامى، وخلدوها في الاساطير التي لاتموت، جنس من الرجال الاحرار والمقاتلين الذين لم يتمكن حتى الاسكندر من اخضاعهم، والذين لم يفرد النسر الامبراطوري لروما جناحيه فوق قلاعها الصخرية أبداً........انه لمن المحزن والباعث على الصدمة التفكير في ان مثل هذا الجنس يجب ان يطوية النيسان ويزال عن الوجود! "

في الحقيقة، فقد قامت روسيا " بإزالة " الأمة الشركسية بكاملها عملياً عن الوجود من وطنها الأم، الحقت اراضيها بدولتها، وشعرت في النهاية بالنشوة والارتياح لأنها نفذت الخطة القائمة منذ وقت طويل بذكاء خارق من اجل اندفاعها نحو البحار الدافئة.

هناك كمية كبيرة من الوثائق التي تثبت ان هذه كانت عملاً منهجياً مخططاً له من قبل روسيا القيصرية. يهدف الى تدمير الشراكسة والاستيلاء على أرضهم. لقد تكررت عبارة " نحن لانحتاج الى الشراكسة، مانحتاجه هو أرضهم! " من قبل الجنرالات القيصريين

البارزين، الذين تولوا مهمة تنفيذ الواجب بصرف النظر عن الكلفة من حيث الدماء والانفس البشرية. رغم ذلك، لم يتمكن هذا العمل القيصري الوحشي من تدمير الشراكسة كما هو مقصود. لأن صمودهم، روحهم المعنوية القومية، وتنشئتهم التقليدية، ساعدتهم على التحمل والنجاة بارواحهم في الأهوال التي جلبتها عليهم كل انواع الحرمان والأمراض التي تبعتهم في رحيلهم الطويل حتى استقروا في النهاية في بلاد اجنبية، على الاغلب في تركيا، سوريا. الاردن في البداية. ثم اصبحوا متفرقين تدريجياً على كل الدنيا في اقطار عديدة وبين شعوب مختلفة، بعد ان اقلموا أنفسهم لانتهاج طرقهم في الحياة، والتحدث بلغات الشعوب التي يعيشون بينها، وتمييز انفسهم على انهم المواطنون الاكثر نزاهة وحساً بالمسؤولية في البلدان التي آوتهم.

على كل حال، وبصرف النظر عن ذلك، فهم مازالوا يحتفظون بلغتهم وتقاليدهم في كل مكان، خاصة حبهم المحموم لوطنهم الأصلي وكرامتهم القومية، كبريائهم وشرفهم. ان اخلاصهم ونزاهتهم وخصالهم الشخصية الفائقة التي زرعتها فيهم تنشئتهم التقليدية، وماتزال، تكسبهم احترام الشعوب كل بلد وترفعهم الى المناصب العليا. ان الاحترام، النفوذ، والمراكز العليا التي نالها الشراكسة في الاردن، تركيا وسوريا، تحمل شهادة قوية على ذلك.

لقد تمكن الشراكسة، بفضل هذا التكوين النفسي التقليدي الصلب، من تحقيق نجاح لا يمكن تصديقه، وقطعوا شوطاً طويلاً منذ الأيام التي اعتقدت فيها روسيا القيصرية انها ازالتهم عن الوجود الى الأبد.

## الانجازات الشركسية في الوطن الأصلي

لقد رأينا في الفصل السابق، الانجازات التي حققها الشراكسة في بلدان الشتات المختلفة. يجب أيضاً، الثناء على شراكسة الوطن الأصلي، الذين يشكلون مجرد عشرة في المائة من مجموع الشراكسة في العالم، على الخطوات العملاقة التي حققوها في التقدم. رغم انهم يشكلون قطرة واحدة في بحر جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية، فقد احتل بعض الشراكسة، مثل دوغوجييف وحاغور على سبيل المثال، بعضاً من المناصب الهامة في الحكومة السوفييتية.

أصبح شركسي آخر، هو يوري حمزاتوفيتش، نائباً في المجلس الأعلى للاتحاد السوفييتي، ورئيساً لاحدى لجانه، جنرالاً باربع نجوم في الجيش، وأول رئيس



**يوري حمزاتوفيتش قاليقوف**
**أول رئيس للجمعية الشركسية العالمية**

للجمعية الشركسية العالمية وقاضياً بارزاً في البلاد. استقال من هذا المنصب احتجاجاً على الرئيس يلتسين والدائرة المحيطة به لأنهم بدأوا الحرب ضد بلاد الشيشان. اعتبر اثناء فترة ال" بيريسترويكا " وال" جلاسنوست " اليد اليمنى للرئيس جورباتشيف، بينما أصبح وزيراً للعدل للفدرالية الروسية اثناء ادارة يلتسين. من الناحية الأخرى، فقد كان عبدالله ميكيتايف اليد اليمنى للرئيس يلتسين.

اسمحوا لي هنا ان اذكر اسماء بعض الشراكسة الذين امتازوا في ميادين أخرى من وظائفهم: اصبح كازبك تسوك مديراً لدائرة الاقتصاد السياسي لجامعة الدولة في الأديغي لغاية ١٩٩٣،



**عبدالله ميكيتايف**



**كازبك تسوك**

ثم خدم في مجلس الدوما (البرلمان) للفدرالية الروسية فترتين من عام ١٩٩٣ وحتى ٢٠٠٠.

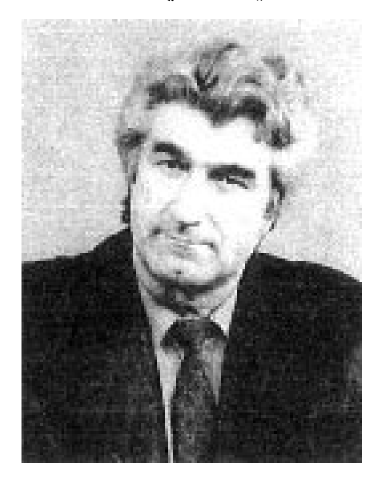
• تطور حب الطيران لدى فلاديمير ميزوخ باكراً في حياته. بعد ان تخرج من الصف السابع في مسقط رأسه قرية تاختاموكاي، انهى مدرسة بالاشوفسكي للطيران، وأصبح طياراً لقاذفات القنابل Tu – ٤، ثم تحول الى الطيران المدني عام ١٩٥٤ وقاد طائرات IL – ٢، IL – ١٤، IL – ١٢، AN و ١٥٤ – IL في شركات طيران فنوكوفو وبايكوفو. عام ١٩٦٠، تخرج من مدرسة الطيارين وطياري التجارب وبدأ يعمل في ذلك الحقل. جرب أولاً طائرة IL – ٨٦ ذات الجسم العالي، والتي نال من اجلها قلادة لينين. بعد ذلك قام بتجربة الطائرة TU – ١٥٤.

عام ١٩٧٥، منح فلاديمير ميزوخ لقب "طيار التجارب المكرَّم للاتحاد السوفييتي" واصبح عام ١٩٩٦ بطل روسيا، وهو بذلك الأول بين الشراكسة.



**فلاديمير ميزوخ**

• كازبك شازو (شاشئه) خبير في الادب الاجنبي، ناقد أدبي، استاذ جامعي ، دكتور في الفلسفة، أكاديمي، رئيس دائرة الأدب الاجنبي لجامعة الدولة في جمهورية الأديغيه، ومدرِّس شغوف ملتزم، حاضر على الدوام لمد يد العون لجميع الطلاب والاصدقاء الساعين الى تطوير معرفتهم في هذا الحقل الذي لاينتهي سحره ولايتوقف عن اثارته للإهتمام.



**كازبك شاشئه**

الشاعر، المؤلف الموسيقي وخبير الفولكلور المتميز يجب الثناء عليه فوق كل شيء لأنه قام بجمع اعمال كوبا شعبان التي لاتقدر بثمن، في الوطن وفي الولايات المتحدة.

طبيعي ان كازبك قد ألفَّ مئات المقالات ذات القيمة الإخبارية العالية والمثيرة للإهتمام حول الموضوع.

لنذكر مجرد بعضها. فان بعض الكتب التي ألفها هو: ستوبيني، مايكوب ١٩٩١، بسه زيبيت جوشا خير ( المهاد ذات الأرواح ) مايكوب ١٩٨٢، ايستوريا اديغيسكوي ليتيراتوري، مجلدين، مايكوب ٢٠٠٢، ان كتابه بجه حابه تشيش جوميشخير (قصص الأحلام) مايكوب ٢٠٠٠، وحده، يحتوي على قصة واحدة " اوس فاب " (أثر الملح) كوميديا واحدة " شوزيبين "، و ٧٦ قصيدة شعر وتسعة مقالات.

• ولد شعبان كوبا في الاديغية عام ١٨٩٠ وتوفي في ولاية نيوجيرسي بالولايات المتحدة عام ١٩٧٤. خلال حياته في الاديغيه، اصبح شاعراً معروفاً، مؤلفاً موسيقياً والف مئات الأغاني التي نالت شعبية واسعة. حينما اصبح لاجئاً اثناء الحرب العالمية الثانية، بدأ يجمع مجلدات من الفولوكلور الأديغة من شراكسة الاردن، سوريا، تركيا واسرائيل بهمة لاتعرف الكلل. لكن اسمه وأعماله منعا من التداول اثناء الحقبة السوفييتية، حتى تجرأ كازبك شاشئه وذكر اسمه. في النهاية، اقنع كازبك شاشئه السلطات بان عمل شعبان كوبا الذي

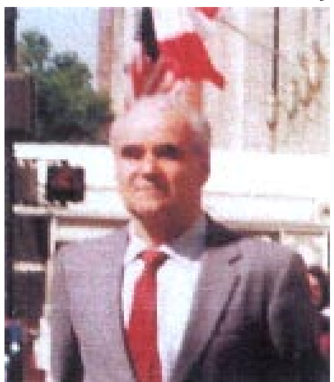
لايقدر بثمن يجب ان يعاد الى أرض الوطن، وجاء الى الولايات المتحدة بصحبة سائدة كوبا، الإبنة الوحيدة لشعبان كوبا، لتلك الغاية. لقد أعيد إسم شعبان كوبا اليوم الى وطنه الأصلي بفضل جهود كازبك شاشئه التي لاتعرف الكلل، ويتم نشر أعماله التي اصبحت جزءاً من الكنز التراثي للأمة.



**شعبان كوبا**

اثناء اقامة شعبان كوبا في الولايات المتحدة، كان اقرب اصدقائه هو بوريس كوبله. لم يكتف شعبان بالاستمتاع بانشاد اغانيه بمصاحبة عزف كوبله على الماندولين وهو بالمناسبة موسيقي ممتاز، بل عامله كل من بوريس وعائده كأب لهما، وعامله اطفالهما كجد لهم.

• محي الدين كوماخوف، بروفيسور، اكاديمي، لغوي متميز، يعمل لدى اكاديميه روسيا للعلوم للسنوات الخمسين الأخيرة، وقد كتب مئات المقالات وألف اكثر من ٢٠ كتاب في اللغويات والميادين ذات العلاقة.



**محي الدين كوماخوف**

**( التقطت هذه الصورة اثناء زيارته لنيويورك )**

• عادل جيراي عامر بيفيتش يحمل الدكتوراه في الطب، استاذ، طبيب مكرَّم في الفدرالية الروسية، الطبيب القومي لقباردينو بلقاريا وكاراتشيفو – تشيركيسيا، ومدير دائرة اكاديمية ستافروبول الطبية، وقد منح لقب اكاديمي من قبل الاكاديمية الطبية العالمية. ( لم استطع ان اعثر على صورة له، للأسف )

• اسحق ماشباش هو شاعر وروائي شركسي متميز، نال عدة جوائز دولة من الاتحاد السوفييتي و روسيا. من بين العديد من اعماله، كتب رواية " جيرنوفا " (      ) وهي احدى أفضل رواياته، والعمل الملحمي الأول عن الحرب الروسية – القفقاسية في شمال القفقاس.



**اسحق ماشباش**

• عسكر حدغال، دكتوراه في العلوم، اكاديمي، كاتب، جمع ملحمة " النارتيين " البطولية الأديغة، في ثمانية مجلدات، وهو عضو في الجمعية الاوروبية للمتخصصين في شؤون القفقاس.



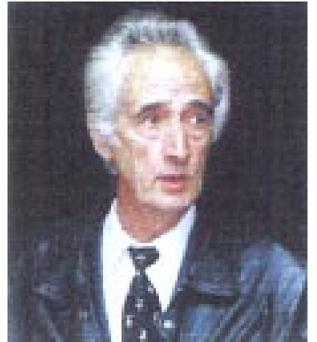
**عسكر حدغال**

• ليلى بيكيزوف تحمل شهادة الدكتوراه في العلوم، استاذة، اكاديمية، خبيرة في الأدب العالمي، كتبت العديد من المقالات الدراسية، وواحدة من اوائل الدارسين الشراكسة الذين تلقوا تعليمهم في موسكو.



**ليلى بيكيزوفا**

• نالبي كويك شاعر، مؤلف مسرحي، وألف اكثر من ٢٠ كتاب في الشعر، النثر والمسرحيات، بما فيها عدة كتب قصص ومسرحيات للأطفال. هو شخصية مكرمة في الفنون لدى الاديغيه، وحائز على جائزة قندور الشركسية العالمية التذكارية، وعضو في اتحاد كتاب روسيا.



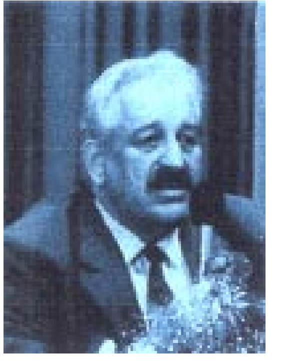
**نالبي كويك**

• محمد حفيتسه صحافي متميز وبارز في جمهورية قباردينو – بلقاريا، كتب العديد من المقالات والف عدة كتب، خاصة حول الرجال والنساء الشراكسة البارزين في الشتات، ناشر متحمس للغة، الثقافة التاريخ والتقاليد الشركسية بواسطة صحيفة "اديغه ماق" (الصوت الشركسي)، يعمل كل ما بوسعه لإعادة احياء كبرياء وكرامة الاسلاف في قلوب جميع الأديغة.



محمد حفيتسه

• زاور نالويف، استاذ، كاتب غزير الانتاج في الثقافة، التقاليد، وآداب السلوك الشركسية بشكل خاص، شاعر، عامل مكرَّم لفنون ابخازيا، ورئيس مكرَّم لجمعية قباردا الخيرية.



زاور نالويف

• باغرات شينكوبا شاعر وكاتب بارز في ابخازيا، الأديغيه وقبارديا. أشهر ماكتبه رواية " بوسليديني إيزاوشيدشيك " (البذرة الأخيرة) حول آخر رجل عجوز من الوبيخ يعيش في تركيا.



باغرات شينكوبا

• حسن دومانوف، يحمل شهادة الدكتوراه في التاريخ، استاذ، عضو في الاكاديميه

الدولية الأديغة للعلوم، عالم مكرَّم في جمهورية قباردينو – بلقاريا، نال الجائزة القومية للجمهورية، رئيس معهد الدراسات الانسانية في حكومة قباردينو – بلقاريا ومركز اكاديمية العلوم في روسيا فرع قباردينو – بلقاريا، امين السر التنفيذي للجنة العلاقات الإثنية والمنظمات الشعبية لرئيس جمهورية قباردينو – بلقاريا، ورئيس جمعية المؤرخين والخبراء الإثنيين في روسيا.



**حسن دومانوف**

• بوريس يونسوفيتش تليخاس، تخرج من المدرسة الثانوية بميدالية ذهبية، انتسب الى معهد هندسة الطاقة في موسكو، بدأ يعمل خبيراً في تقنيات توربينات الغاز، ونال جائزة الدولة في الاتحاد السوفييتي. والآن، مازال المجمع التجريبي الذي خططه وبناه في مكان منعزل على الهضاب الأوكرانية المغطاة بالحشائش، يعمل في منطقة أوجغورود.

"اخترع نظاماً تجريبياً جديداً ووفر على البلاد الملايين من الأموال، وسجله بإسمه".

كذلك بنى هذا الأديغة الموهوب عدداً من المحركات الاستثنائية للبوارج الحربية.

"ماتزال البارجة الضاربة "مارشال اوستينوف" وهي احدى السفن القلائل التي لايمكن ضربها حتى من الفضاء، من حيث المبدأ، تسير بمحركات اخترعها بوريس حتى اليوم، وقد منح من اجلها جائزة الدولة ".

"قلة من الأديغة هم الذين يعرفون أن العديد من محطات توليد الكهرباء العائمة والمتحركة، التي مازالت تعمل اليوم على تشوكوتكا وبيتشورا، هي من اختراع بوريس. وان هذه المحطات هي في المقدمة بين احدث تقنيات العالم".

"كذلك بالنسبة للمسألة التي ظلت "السر الأعظم" طيلة سنوات عديدة: ما كان لأقوى وانظف محطة فضائية من الناحية البيئية، المدفوعة بواسطة الصواريخ، "بوران – اينيرجيا " ان تنطلق، لو لم يحضر وقودها ويفتح الى داخل خزاناتها بواسطة بعض مركبات توربين الغاز، التي شارك في اختراعها مباشرة، مواطننا بوريس تليخاس ".

وختاماً " كان بوريس رجلاً ذا مدى غير محدود في الآراء والاهتمامات: فقد كان خبيراً في الأوبرا، محباً رقيقاً لفن الباليه، قائداً لفرقة الجاز التابعة للمصنع اثناء اصعب فترات الخمسينات بالنسبة للموسيقى، ونفذ ايقاعات المجموعة بطريقة فذة. كان بوريس محباً للحياة بشغف......كان رفيقاً يمكن الاعتماد عليه وصديقاً مخلصاً ". توفي يوم ١٨ آب عام ١٩٨٩. ينتمي اسمه وانجازاته الى شعب الأديغة النبيل الذي يفتخر به ".

• خازريت مجيدوفيتش سوفمين: هو الأديغة الاكثر ثراء، وعطفاً وكرماً في الدنيا. بالحكم على اعماله الخيرية، يمكن القول بأنه يشارك قومه في الثروة التي بناها وحصل عليها.

يكفي القول ان الطلاء الذهبي لقبة كنيسة السيد المسيح المخلِّص قد دفع ثمنها من مدخراته الخاصة. وقد قام بتزويد اربع قرى في مقاطعة افيبسيب بالغاز. قام بانشاء اعمال في افيبسيب يعمل بها عشرات من السكان. بنى هناك مستشفى مزود بأحدث الأجهزة والتكنولوجيا الطبية ويعمل فيه أفضل الأجهزة الوظيفية تأهيلاً، ويعالج الناس هناك مجاناً. كذلك بنى قصراً مميزاً للثقافة لمواطني بلده. كذلك قدم سوفمين مساعدة مالية لجامعة الدوله في الاديغي، جامعة إم. لومونوسوف في موسكو وجامعات أخرى، بمبلغ ثلاثمائة الف دولار لكل منها. وقد دأب على تقديم هدايا بمناسبة رأس السنة لجميع اطفال مقاطعة تاختاموكاي والمزيد.

لقد قدرت المبالغ التي تبرع بها للغايات الخيرية خلال عامي ٢٠٠٠ – ٢٠٠١ وحدهما بحوالي ٢٨٨ مليون روبل.

لقد بدأ سيرته الحياتية المهنية كمنقب عادي عن الذهب في سيبيريا بعد انهاء خدمته في الجيش مباشرة، ووصل الى مستويات تسبب الدوار في مجال التنقيب عن الذهب. ترأس في البداية كارتل " فوسخود "، وبعد ثلاث سنوات أصبح رئيساً لمجموعة " سويوز " التي ظلت الأفضل في هذا المجال من الصناعة لعشر سنوات متوالية. عام ١٩٨٠، طرد من تشوكوتك الى كراي كراسنودار. ثم أصبح رئيساً لكارتل " بوليوس " الأضخم في روسيا. استطاع خلال سنتين ان يبني اكبر واقوى مجمع صناعي لفصل المعدن الخام في منطقة التايغا الموحشة،

بدلاً من السنوات الخمس المخطط لها. اليوم هو أحد القادة في ميدان استخراج الذهب. وهو صاحب احد اكبر ثلاثة مشاريع في العالم في هذا الميدان.



**خازريت سوفمين**

خلال سنوات الكدح المؤلمة، استخرج سوفمين ذهباً لبلاده بمليارات الروبلات. قدم خلال السنوات الثلاث الأخيرة اكثر من ثلاثين طن من الذهب الى خزينة الدولة. سيضاف الى هذا المجموع عشرة اطنان من المعدن النفيس سنوياً بعد اتمام المصنع الجديد الذي بناه. قال سوفمين أن مشروعه يدفع اكثر من خمسةمليارات روبل سنوياً على شكل ضرائب.

هو حاصل على شهادة الدكتوراه في العلوم، وصاحب اكثر من ٤٠ اختراع واكتشاف، ومنظم صاحب موهبة للمشاريع الحديثة. يبلغ معدل رواتب موظفيه البالغ عددهم ٢٨٠٠ شخص حوالي ٣٦٠ الف روبل سنوياً، اضافة الى خمس وجبات طعام مجانية يومياً، اقامة مجانية في المصحات على الشاطئ للعائلات، وزيادة في الرواتب ( شخصية من سموفمين ) لتوفير نمط حياة صحي.

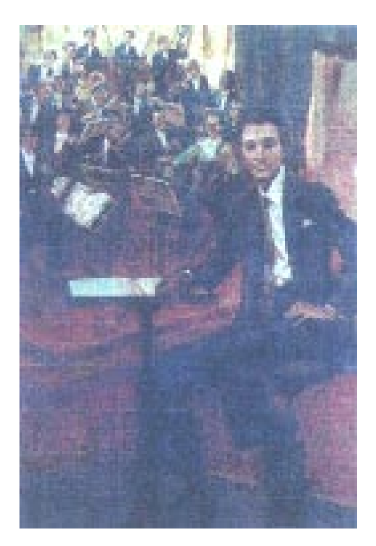
انتخب خارريت مجيدوفيتش رئيساً لجمهورية الأديغي يوم الثالث عشر من كانون الثاني علم ٢٠٠٢. منذ انتخابه رئيساً لجمهورية الأديغي، اشترى خازريت سوفمين ١٠٠ جرار و ٤٠ حصادة للجمهورية، ثم اعاد بناء قرية حاتقواي التي دمرها الفيضان. كذلك اقنع لوخزوف، رئيس بلدية موسكو بقبول كل محصول الأديغيه واشترى شاحنات ضخمة لنقل المحاصيل الى موسكو. ودفع ثمن كل هذه الاشياء من ماله الخاص.

لدينا كذلك العديد من اصحاب المواهب الاستثنائية في ميدان الفنون الادائية. لذكر مجرد القليل، فان اكثر الشراكسة المتميزين في ميدان الموسيقى هم:

• زاور توتوف، الحاصل على جوائز عالمية ودولية، الفنان المكرَّم من قبل الفدرالية الروسية وجمهورية قرشاي – تشيركيسيا. تضم مجموعته الغنائية اغانٍ روسية، أديغه وإيطالية. واعمالاً لشومان كريغ، تشايكوفسكي وشوستاكوفيتش وآخرين. لديه مدرسة الغناء الخاصة به. انتخب عام ١٩٩٩ رئيساً لمجلس إدارة جمعية موسكو للثقافة الشركسية "خاسَّه".



زاور توتوف



يوري تيمير قانوف
المايسترو المشهور عالمياً
لوحة من رسم فيكتور أبايف

عندما سنحت الفرصة، أظهر الشراكسة القلائل في الوطن الأم تطلعاتهم القومية وقاموا على الفور بتشكيل جمهورياتهم السيادية ضمن الفدرالية الروسية. مثل طائر الفينيق الأسطوري، الذي ينهض من بين الرماد، قامت جمهوريات قباردينو بلقاريا، الأديغيه وكاراتشيفو – تشيركيسيا من بين خرائب وطنها التاريخي. سرعان ماتبعتها ابخازيا، انفصلت عن جورجيا واعلنت استقلالها.



**خازريت سوفمين**
**الرئيس الثاني لجمهورية الاديغيه**



**فاليري كوكوف**
**الرئيس الاول لجمهورية قباردينو – بلقاريا**



**اصلان جاريموف**
**الرئيس الاول لجمهورية الأديغيه**

منذ اوائل عهد ما بعد السوفييت، تناضل شابسوغيا من أجل ان تستعيد استقلالها الذاتي بالطرق السلمية، بلا طائل حتى الآن. الأهم في هذا، ان الشراكسة استغلوا الظرف السياسي الجديد، فاجتمعوا في نالتشك عام ١٩٩١، تحت مظلة المجلس الشركسي العالمي المؤلف من الموفدين الشراكسة من كافة انحاء العالم لغاية إعادة احياء، اعادة توحيد واعادة بناء الأمة الشركسية من خلال جهد موحد. أحد أهم القرارات الهامة التي اعلنت في المؤتمر الشركسي الدولي الأول في نالتشك كان في الواقع: ١ – يجب على كل أديغه ان يتكلم الاديغابزه (اللغة الشركسية) ٢ – كل أديغه لا يتكلم اللغة الأم، يجب عليه ان يتعلمها. ٣ – يجب على كل أديغه ان يكون عضواً في الأديغة خاسه (الجمعية الشركسية)، في منطقة او بلد إقامته. ٤ – يجب على جميع الأديغة في كل بلد ان يكون لهم الخاسه الخاصة بهم. و ٥ – يجب على جميع الجمعيات الأديغة في كل بلد أن تتوحد أو تنسق جهودها حتى تستطيع ان تقدم المساعدة للجمعية الشركسية العالمية وتمكنها من تنفيذ الاهداف القومية الموضوعة للأمة الشركسية من قبل المجلس الشركسي العالمي بسرعة وكفاءة. دخل هذا القرار الذي يبدو بسيطاً للمجلس العالمي الشركسي الأول الى قلب المشكلة القومية العالمية الاكثر جدية بطريقة مباشرة، وهي مشكلة الذوبان او الاندماج، التي أوصلت الأمة الشركسية المبعثرة الى حافة الانقراض، والى

العلاج القوي المباشر لها، رغم بساطته.

لقد الهبت هذه الأحداث التي لم يكن احد يحلم بها خيال شعبنا بآمال عريضة. استعادة الحرية المفقودة لم تعد حلماً، بل حقيقة ممكنة التطبيق. لقد اكتسحت الأمة الشركسية الباسلة، طردت خارج وطنها الأم الحبيب، وبعثرت على ارجاء الدنيا قبل قرن وربع من الزمان الماضي، واصبح من الممكن إعادة تجميعها في وطنها التاريخي، إعادة إحيائها وبنائها فعلياً كأمة! لقد اضاءت وجوه الناس في المؤتمر الشركسي الدولي الأول بالسعادة، بشعور بالنشوة التي اصابت الجميع بعدواها! وسرعان ما اخذت تنتشر في جميع المجتمعات الشركسية حول الكرة الأرضية بأسرها. فقد اشرقت عليهم أخيراً اللحظة التاريخية للتغيرات المفاجئة العظيمة، الانباء الطيبة، والآمال العظيمة! توجب على كل مجتمع شركسي في الدنيا ان يصبح عضواً نشيطاً عاملاً في الجمعية الشركسية العالمية، التي اصبحت الجسم الحاكم لكل الشراكسة في الوطن الأصلي والشتات.

لقد جاء التركيب التنظيمي الذي صممه للمجلس الشركسي الدولي الأول للجمعية الشركسية العالمية بسيطاً ومنصفاً. وضعت كل السلطة – في وضع أهداف الجمعية والتخطيط لها، في انتخاب المجلس التنفيذي للجمعية الشركسية الدولية لتنفيذ اهدافها المخطط لها، في تحديد تاريخ ومكان انعقاد المجلس الشركسي الدولي كل سنتين، وفي تحديد عدد المندوبين الذي تستطيع كل جمعية عضو وكل مجتمع ان يرسله الى المجلس التالي – في يد المجلس الشركسي الدولي وحده. باختصار، اصبحت الجمعية الشركسية الدولية الجسم الذي يحكم الأمة منتخباً من بين مندوبي المجتمعات الشركسية من كل العالم. تبعاً لذلك، أصبح من واجب كل فرد شركسي وكل مجتمع شركسي تقديم كل المساعدة التي يقدر عليها في تنفيذ الاهداف القومية التي حددها مجلس الجمعية الشركسية الدولية.



**يوري حمزاتوفيتش قاليقوف**
**اول رئيس للجمعية الشركسية العالمية**

كان هذا هو التنظيم الضروري الذي لم يمتلكه الشراكسة من قبل. لم يكن مجرد الأداة الحيوية التي تستطيع ان توحد الأمة الشركسية المبعثرة، بل التي تستطيع ان توجد قوة سياسية واقتصادية مؤثرة يمكن استخدامها لإعادة احياء واعادة توحيد وإعادة بناء الأمة الشركسية. لاستخدام هذه القوة الكامنة الهائلة بحكمة ومشروعية، انتخب المجلس الشركسي الدولي يوري حمزاتوفيتش قاليقوف رئيساً للجمعية الشركسية العالمية، الذي كان افضل خبير في الدستور والتشريع الروسي بشكل عام والذي يحظى باحترام كبير عبر البلاد بسبب طباعة وشخصيته اللطيفة الحكيمة. كذلك اعتبر الرجل الذي يمكنه ان يقود الجمعية الشركسية العالمية بأمان عبر الوضع السياسي المتفجر في البلاد في ذلك الوقت، خاصة في القفقاس.

كان هذا زمن التطرف القومي، الإثارة ونزف الدماء في حقبة ما بعد الشيوعية. كانت بعض " الأمم الأسيرة " تنفصل عن الاتحاد السوفييتي وتستعيد اقاليمها " السابقة " من بعضها بعضاً بواسطة العنف في بعض الاحيان. انفصلت جورجيا عن روسيا. كانت اراقة الدماء في أوجها على مطالب اقليمية بين ارمينيا واذربيجان. كانت روسيا تقوم بتدمير غروزني وتذبح الشيشان لأنهم تجرأوا على اعلان استقلالهم. سرعان ما اتبعت جورجيا نفس الاساليب القاسية ضد الابخاز الذين تجرأوا على الانفصال عنها.

كذلك كان الشراكسة يشعرون بالإثارة، لكن اعمالهم كانت مختلفة في طبيعتها. فبينما تعاطفوا بحماس مع التطلعات السياسية لجيرانهم، الشيشان والابخاز، واندفع العديد من الشباب الشراكسة لمساعدتهم في نضالهم من اجل الحرية، إلا أن الجمهوريات الشركسية والاغلبية العظمى من سكانها، كانت الى جانب حل هذه المشاكل من خلال الوسائل السلمية، وآمنوا بقوة بانه ينبغي على جميع الفرقاء المعنيين بذل اقصى الجهود لتجنب أية إراقة للدماء طالما كان ذلك ممكناً.

اكثر من ذلك، فقد كانوا محظوظين بوجود شخصيات سياسية حصيفة مثل اصلان جاريموف، فاليري كوكوف، ويوري ڤاليقوف، خلال هذه الأزمنة الحافلة بالغليان السياسي. تمكنوا على الدوام من تهدئة العناصر العنيفة من ابناء شعبهم، بالطرق الدبلوماسية والسلمية، وحلوا المشاكل المتفجرة في جمهورياتهم، ونجحوا في تجنيب شعوبهم الانجرار الى نزيف الدماء في الأقليم. يمكن للشيء نفسه ان يقال عن الشراكسة بشكل عام. فقد كانوا ميالين الى التعبير عن تطلعاتهم الحماسية للحرية باسلوب اكثر تحضراً. بعد انعقاد المؤتمر الدولي الشركسي الأول في نالتشك، عقدوا الاسبوع الثقافي الشركسي في عمان، الاردن. شارك فيه مئات المندوبين الشراكسة بحماس من كافة انحاء العالم. اقيمت الاجتماعات، والقيت المحاضرات، والاحتفالات في مبنى الجمعية الخيرية الشركسية. كانت المشاكل الشركسية المهمة التي بحثت فيه متشعبة بشكل اضطر المؤتمرين الى تمديد وقت الحدث الى أسبوع آخر. حضر جلالة الملك الحسين وجلالة الملكة نور الحسين وصاحبي السمو الأميرين حمزة وهاشم الحفل الافتتاحي كبادرة تأييد وحسن ضيافة ملكيتين لهذا الحدث التاريخي، وارسل جلالته حافلتين فخمتين من الديوان الملكي يومياً لنقل الضيوف المندوبين طيلة استمرار الحدث. منذ ذلك الحين والجمعية الشركسية العالمية تعمل بدون كلل لإعادة احياء الأمة الشركسية، وعقدت المؤتمر الشركسي الدولي عدة مرات: عام ١٩٩٣ في مايكوب، عاصمة جمهورية الاديغيه، عام ١٩٩٦ في تشيركيسك، عاصمة جمهورية قرشاي – تشيركيسك. عام ١٩٩٨، في كراسنودار، عاصمة كراي كراسنودارسكي، عام ٢٠٠٠ في نالتشك، عاصمة جمهورية قباردينو – بلقاريا. بحث كل واحد من هذه المؤتمرات الدولية الشركسية ضرورة احياء الأمة الشركسية، وحث رئيس الجمهورية وعدة رجال دولة ودوائر في الفدرالية الروسية على تقديم المساعدة للعائدين بتسهيل الاجراءات القانونية واصدار الوثائق الضرورية، وارسلت اليهم نداءات بايقاف الحروب في بلاد الشيشان وابخازيا واعادة وضعية الحكم الذاتي الى منطقة الشابسوغ.

رغم ان الجهود فشلت في تحقيق اهدافها المنشودة، الا انها لم تذهب سدى من الناحية الأخرى



أبو شحالاخوه

كان ابو شحالاخوه الرئيس الثاني للجمعية الشركسية الدولية. انتخب رئيساً من قبل المؤتمر الثاني للجمعية العالمية الذي عقد في مايكوب، عاصمة جمهورية الاديغيه، صيف عام ١٩٩٣. هو استاذ، أكاديمي، عالم وكتب عدة مقالات وألف عدة كتب، كذلك اصبح رئيس "الأديغة خاسه " في جمهورية الأديغيه



بوريس اكباشيف

انتخب بوريس اكباشيف رئيساً للمؤتمر الدولي الرابع، الذي عقد في كراسنودار صيف العام ١٩٩٨. كان نائباً للرئيس من عام ١٩٩٦ وحتى ١٩٩٨، اثناء فترة الرئاسة الثانية ليوري قاليقوف، الذي اعيد انتخابه رئيساً للجمعية العالمية في المؤتمر الثالث، الذي عقد في تشيركيسك، عاصمة جمهورية قراشاي – تشيركيسك، عام ١٩٩٦. قبل ان ينشط في الجمعية العالمية الشركسية، كان يمتلك مدرسة الاعمال الدولية في موسكو.



**زاوربي ناخوشيف**

**انتخب زاوربي ناخوشيف رئيساً للجمعية العالمية في المؤتمر الخامس، الذي عقد في نالتشك، عاصمة جمهورية قباردينو – بلقاريا، صيف عام ٢٠٠٠. هو كذلك رئيس مجلس النواب في جمهورية قباردينو – بلقاريا.**

فمثلاً، تعاونت الحكومة الروسية بدرجة كاملة مع الرئيس اصلان جاريموف، ووزير التعليم والثقافة غازي شمسو والجمعية الشركسية العالمية في انقاذ شراكسة يوغوسلافيا من الصراع في إقليم كوسوفو واعادة توطينهم في جمهورية الاديغيه. اكثر من ذلك، تلطفت الحكومة الروسية بتخصيص بعض الأموال لبناء قرية " بشاشه داخه " ( الفتاة الجميلة ) قرب مدينة مايكوب للشراكسة المعاد توطينهم. نأمل ان يستمر رجال الدولة في جمهورياتنا في السعي الى التفاهم والتعاون المشابه من جيراننا الطيبين في المستقبل، خاصة من روسيا، لتحسين العلاقات والتعاون المشترك، لتحسين وضع السلام والازدهار للجميع، ولإعادة احياء، وتوحيد وبناء الأمة الشركسية في أرض الوطن التاريخية.

مهما قيل، لايمكن المبالغة في التشديد على العمل الجدي المشترك في وجه المشكلة القومية القاتلة التي يواجهها الشراكسة. إن مشكلة الذوبان تصبح الأخطر، والاكثر الحاحاً، والشاملة للشراكسة في كل مكان. مالم يسمح لهم بالعودة الى وطنهم الأصلي، ويساعدوا في ذلك، فأنهم حتماً سوف ينسون لغتهم وتقاليدهم، ويذوبوا في الثقافات الرئيسة التي تحيط بهم، ويموتوا كأمة.

على اية حال، فان الوضع لم يصبح ميئوساً منه بعد. بعض الاجراءات البسيطة والفعالة التي يمكنها ان تعالج الوضع هي: ١ – الاستئناف الفوري للتربية الشركسية التقليدية في البيت. ٢ – ايجاد دور رعاية نهارية للأطفال الشراكسة، في كل مجتمع شركسي، حيث يتم الاهتمام بهم، تنشئتهم، وتعليمهم لغتهم الأم وتقاليدهم من قبل سيدات شركسيات بشكل

حصري. ٣ – جعل إضافة اللغة، الفولكلور، الأدب والتاريخ الشركسي الزامياً في مناهج المدارس في جميع جمهورياتنا وكل المجتمعات الشركسية في الخارج. ٤ – انشاء صندوق شركسي دولي واقامة الأجهزة الفاعلة لادارته، لتمويل النظام التعليمي، الاستثمار في اقتصاديات جمهورياتنا، وتحسين الظروف المعيشية فيها بدرجة ملائمة.

هذه هي الخطوات الأسهل والاكثر فعالية التي يمكننا، نحن الشراكسة، ان نتخذها للبدء في اعادة احياء أمتنا خلال جيل واحد وجعل جمهورياتنا الجديدة مكاناً جاذباً لمواطنينا المبعثرين للعودة اليها. لذلك، فكروا في الأمر، وباشروا العمل، سريعاً وبقوة !

# جسور الورد الثقافية

**رسالة المؤسسة : الثقافة لغة عالمية .**

- مؤسسة ثقافية مستقلة ذات نفع عام وغير ربحية تم تسجيلها لدى مراقب الشركات في وزارة الصناعة والتجارة كشركة تضامن لا تهدف إلى الربح تحت رقم (٢٢٢) ذات الرقم الوطني (٢٠٠٠٩٨٠٣٩) بتاريخ ٢٠٠٨/٨/٢٤م وتم تسجيل الاسم التجاري للمؤسسة تحت رقم ١٤٤٧١٤ بتاريخ ٢٠٠٨/٨/٢٤ وفق قانون الأسماء التجارية رقم ٩ لسنة ٢٠٠٦، وللمؤسسة حق التملك والتصرف بالأموال وفق أحكام القوانين المرعية في المملكة الأردنية الهاشمية ولها حق تأسيس الفروع داخل المملكة وخارجها بعد الحصول على الموافقات الأصولية.

- تعتمد المؤسسة استراتيجية ثقافية شاملة قوامها التنوير والانفتاح والحوار البناء، وتتعدد وسائل تحقيق أهدافها، ما بين عقد المؤتمرات والملتقيات ونشر الكتب وترجمتها واصدار المجلات، وإقامة الندوات، وغير ذلك من وسائل مستحدثة .

- تؤمن المؤسسة بأن الآخر المختلف هو توسعة للذات واختيار لمسؤوليتها وأخلاقها، كما تؤمن بالوحدة الانسانية وتعّدد ثقافاتها وضرورة أن تتوصل الشعوب إلي ميثاقٍ إنساني جامع وكلمة سواء .

- تستهدي المؤسسة بآراء نخبة من الأساتذة والمفكرين (هم أعضاء هيئتها الاستشارية) وتجهد في أن تكون عنصراً فاعلاً في واقع الثقافة العربية المعاصرة، عبر التعاون ومدّ الجسور مع كل من يؤمن بأهدافها في الاردن والعالم العربي، وسائر أنحاء العالم.